

يفجيني بريماكوف

الكواليس السرية للشرق الأوسط

(النصف الثانى من القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين)

ترجمة: نبيل رشوان



هذا الكتاب للأكاديمى يفجينى بريماكوف. الكتاب مكرس للشرق الأوسط؛ حيث جرت أحداث كثيرة أقلقت الرأى العام العالمى كله على مدى عشرات السنين الأخيرة. أقترح على القارئ أن يتعرف على هذه الأحداث، من خلال مؤلف الكتاب الذى كان مراقبًا و مشاركًا مشاركة مباشرة فى الكثير منها، ومتابعًا لتحليل تطورها الطبيعى فى العالم العربى فى فترة ما بعد الاستعمار.

الكتاب كُتب على أساس حقائق ووثائق كثيرة غير معروفة، وسيعرفها القارئ للمرة الأولى. مواد الكتاب شيقة و قيمة؛ لأن الكاتب كان على علاقة وثيقة، والتقى كثيراً بالقادة الأساسيين لهذه المنطقة.

الطبعة الأولى من هذا الكتاب ظهرت فى خريف عام 2006. وفى الطبعة الثانية، وجدت أحداث الأعوام الأخيرة انعكاسًا فى الكتاب، وتم كذلك تقييم عدد من أحداث الماضى، من خلال الموقف الراهن هذه الايام.

تصميم الغلاف: هانى الشناوى

الكواليس السرية للشرق الأوسط

(النصف الثانى من القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2714
- الكواليس السرية للشرق الأوسط: النصف الثانى من القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين
- يفجينى بريماكوف
- نبيل رشوان
- اللغة: الروسية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Конфидециально
Ближний восток на сцене и за кулисами

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الكواليس السرية للشرق الأوسط

(النصف الثانى من القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين)

تـألـيـف : يفجيني بريماكوف

ترجمة : نـبيل رشـــــوان



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بريماكوف؛ يفجيني.
الكواليس السرية للشرق الأوسط: النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين تأليف: يفجيني بريماكوف؛ ترجمة: د . نبيل رشوان .
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٥٠٨ ص؛ ٢٤ سم
١- الشرق الأوسط - علاقات خارجية .
٢ - الشرق الأوسط - تاريخ .
(أ) رشوان، نبيل (مترجم)
(ب) العنوان ٣٢٧

رقم الإيداع ٢٠١٥/١٠٣٢٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-92-0287-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

المقدمة

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ٢٠٠٦، وبسرعة كبيرة نسبيا، نفدت من السوق وها هى الطبعة الثانية من الكتاب منقحة ومزيدة تصدر تحت الاسم نفسه: " سرّى ـ الشرق الأوسط الظاهر وما خلف الكواليس". وأعتقد أن تجديد الكتاب القديم أفضل من تأليف كتاب جديد ذلك لأن الطبعة الأولى لم تعد موجودة على أرفف محلات الكتب، بالإضافة إلى أن العالم العربى أمام أعيننا تحدث فيه تطورات مهمة، وسيكون تحليل هذه الأحداث غير كامل دون معالجة تاريخية للأحداث فى هذه المنطقة منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين .

فى بداية عام ٢٠١١ اجتاحت كلاً من تونس ومصر واليمن وليبيا والبحرين وسوريا موجة مظاهرات عارمة. فقد أدى الانفجار الثورى فى مصر وتونس إلى تغيير النخب الحاكمة. فى ليبيا تمت الإطاحة بالنظام عن طريق تدخل مباشر من حلف الناتو. فيما يتعلق بالآثار المترتبة على ذلك فى دول الشرق الأوسط، فإن الزمن وحده كفيل بالإجابة على هذا السؤال، لكن شيئًا واحداً واضحًا اليوم وهو أن : " الربيع العربى " سيكون له تأثير فى عملية التطور فى العالم العربى مستقبلاً.

كان لافتا للنظر أن بعض المتظاهرين فى الدول العربية يرفعون صور جمال عبد الناصر، وسنكون من حسنى النوايا إذا اعتقدنا بأن هذه الدول ستعود إلى الماضى الناصرى. إلا أنه فى فترة ما بعد الاستعمار فى كل من مصر وسوريا والعراق والجزائر وتونس وليبيا حيث وصل إلى الحكم شخصيات ذات توجهات ثورية قومية وميالون إلى القيام بإصلاحات اجتماعية، ومع كل تناقضاتها الظاهرة، لا يمكن أن تنسى بمرور الزمن.

تاريخيا كانت روسيا تلعب دورا كبيرا فى منطقة الشرق الأوسط. وأصبحت العلاقات مع الاتحاد السوفييتى، فى النصف الثانى من القرن العشرين، عنصرًا مهمًا فى تطور الكثير من الدول العربية. أحيانًا هناك عدم تقييم أو تقييم مبالغ فيه من جانبنا لهذه العملية أو تلك الظاهرة فى العالم العربى. لقد تم إعطاء التوجهات فى العالم العربى تقييمًا ذا طابع إيديولوجى مبالغ فيه، لكن السياسة السوفييتية فى المجمل دعمت التقدم فى هذه المنطقة.

فى فترة الحرب الباردة أصبح الشرق الأوسط ساحة للتنافس بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، أو على الأرجح لم يكن هناك مكان آخر فى العالم تصادمت فيه مصالح القوتين العظميين أكثر من الشرق الأوسط. وكان الصراع العربى - الإسرائيلى الذى كان يتصاعد لدرجة الأزمة من آن لآخر بمثابة سكب الزيت على النار فى تأجيج هذه المنافسة. فى ظروف كهذه اكتسبت، ليس علاقات الاتحاد السوفييتى بالدول العربية فقط ولكن، علاقاته بإسرائيل أيضًا أهمية كبيرة. هذا الكتاب سيكشف عن فترات لم تكن معروفة من قبل عن السياسة السوفييتية تجاه إسرائيل .

خلفت الأحداث التى جرت فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى بداية عام ٢٠١١ مدخلاً جديدا لقياس الأمور فى المنطقة، وهذا سينعكس بلا شك على مستقبل الحل السلمى للنزاع فى الشرق الأوسط. فالأحداث ستصعب من البحث عن طرق لتسوية النزاع فى الشرق الأوسط، على أى حال يجب إعطاء دفعة لتنشيط محاولات حل هذا النزاع القديم، الذى يعتبر ذا آثار كارثية مثل سريان السرطان، فهذا النزاع يسمم العلاقات الدولية لأبعد بكثير من حدود منطقة الشرق الأوسط .

كان الشرق الأوسط محل اهتمامى منذ أكثر من خمسين عاما عملت خلالها صحفيا أكاديميا ومراسلاً لصحيفة "برافدا"، ونائب مدير ثم مديرا لمعهد الاقتصاد الدولى والعلاقات الدولية فى أكاديمية العلوم السوفييتية، ثم معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، ثم رئيسا للاستخبارات الخارجية، فوزيرا للخارجية الروسية ثم رئيسا لوزراء روسيا، وعضوا فى البرلمان الروسى، ثم مديرا لمركز تحليل الأحداث التابع لأكاديمية العلوم الروسية .

لقد مرت أحداث الشرق الأوسط التى انتشر حولها الكثير من الشائعات أمام عينى، بعض هذه الأحداث لا يعرفها أحد أو نسيت، مع أن هذه الأحداث لعبت دورا كبيرا فيما أصبحت عليه المنطقة بوضعها الحالى اليوم - أحجام مختلفة للأحداث فى أماكن مختلفة، جرى بعضها أحيانًا بسذاجة وكثير بالخداع .

دون إبراز خصوصيات القومية العربية وحقيقة وجوهر الشخصيات السياسية على الساحة، ودون النظر، ليس فقط إلى التغيرات الثورية والاتجاهات ضد الأنظمة الاستعمارية والمعتمدة عليها فى النصف الثانى من القرن العشرين، ولكن أيضا فيما يجرى فى العالم العربى الآن فى إطار الربيع العربى ٢٠١١، والموجات الثورية ضد "الحكام" المستبدين والفاسدين. ودون تحليل نقدى لسياسات قوى وحكومات خارجية تجاه العالم العربى وتأثيرها فى نزاع العرب مع إسرائيل، من الممكن أن نفهم خطأً ما تمثله هذه المنطقة للعالم، سواء على صعيد السياسة الدولية أو الاقتصاد العالمى اليوم، ومن الخطأ كذلك أن يكون الشرق الأوسط مرتبطا فقط بالخطر الإسلامى الذى يهدد الجــزء " المتحضر" من الإنسانية.

هذا الكتاب ليس رصداً زمنيًا للأحداث فى الدول العربية، كما أنه ليس شرحًا مبوبًا لتاريخها من بداية النصف الثانى للقرن العشرين ولكنه مكرس لوصف تطور الأحداث الرئيسية فى العالم العربى وتوضيح منعطفات تاريخية محددة، وخاصة تلك التى شاءت الظروف أن أكون مشاركًا فيها ولست مجرد مراقب.

مـا كـان لهـذا الكتـاب أن يرى النور دون الدعم الفنى الدءوب الذى قـدمـه لى مساعدى ديمترى فياتشلافوفيتش شيمانسكى .

الفصل الأول

ناصر: ظاهرة عربية ثورية قومية

في منتصف القرن العشرين انهارت المنظومة الاستعمارية، وظهرت على الخريطة دول جديدة، واجتزنا فترة ليست طويلة بعد انهيار الأنظمة الاستعمارية والأنظمة شبه المستقلة من دول الشرق الأوسط على سبيل المثال في مصر. وبينما كان من الواضح أن القادة الذين وصلوا للسلطة في الدول التي تحررت من الاستعمار أوضاعهم غير مستقرة، حيث إنهم كانوا يتغيرون بسرعة، كان جمال عبد الناصر أكثر من الآخرين ثباتا على رأس السلطة، وبدت معالم التيار القومي العربي الثوري في مصر، بكل ما يميزه من خصوصية، أكثر وضوحا من كل الدول العربية المستقلة حديثا، من خلال السعي الحثيث لتصفية جميع مواقع دول الاستعمار العسكري والاقتصادي المتبقية، وغياب الارتباط المتأصل بالأسلمة والإرهاب وتبني فكرة التقدم الاجتماعي ذات الطابع البرجوازي الصغير والاشتراكي والمعادي للشيوعية في سياسته الداخلية، كما وضحت البراجماتية في السياسة الخارجية التي تميزت بتطور متقطع فيما يخص العلاقة مع الولايات المتحدة، والتعاون الوثيق مع الاتحاد السوفييتي، وكان مدخله السلبي فيما يخص العلاقة مع إسرائيل مبنيا على أسس عاطفية وشعور دائم بأن إسرائيل سيف مسلط على رقاب الأمة.

لقد شكلت ظاهرة عقيدة القومية العربية الثورية حقبة كاملة من التاريخ العربي وكان البطل الرئيسي لهذه المرحلة هو جمال عبد الناصر.

نهاية الأنظمة القديمة ـ متحدين فى الاختلاف

رغم الصفات المشتركة التى تجمع الدول العربية، فإنها مختلفة، وحتى عملية وصول القادة للسلطة، بعد الحقبة الاستعمارية، جرت بطرق مختلفة.

فى العراق كانت جثة نوري السعيد رئيس وزراء العراق الذى قتل بوحشية وتم سحله لساعات فى شوارع بغداد وقيام ضابط من الجيش العراقى الذى ثار عليه بقطع إصبعه وأحضره إلى مصر معتقدا أنه أفضل هدية يقدمها لجمال عبد الناصر. المقدم جمال عبد الناصر رئيس " الضباط الأحرار "، الذى وصل للسلطة نتيجة الانقلاب على الملك فاروق كان مصدوما مما قدم إليه. فقد طرد الضباط الأحرار الملك فاروق عام ١٩٥٢ من مصر وأبحر بهدوء على يخته إلى إيطاليا، حيث قضى هناك من حياته الصاخبة أعواما طويلة فى الحانات والكازينوهات حتى توفى وفاة طبيعية. نفس مصير نورى السعيد لقيه الملك العراقى الصغير فيصل، حيث قتل بواسطة المنتفضين دون أن يشفع له أنه من السلالة الهاشمية أى من أحفاد الرسول محمد.

وكان من نتائج المقاومة الشعبية المسلحة لشعوب تونس والجزائر، أن انسحبت القوى الاستعمارية منهما. وكما تم إسقاط الأنظمة الملكية فى ليبيا واليمن وكذلك الحكام الموالين للغرب فى كل من سوريا والسودان. لم يحدث كل هذا فى لحظة واحدة بل استغرق وقتا، لكن المهم أن كل هذا حدث، وحصل العالم العربى كله على استقلاله. ولكن بقى تأثير الغرب فى سياسات بعض الدول العربية، لكن الذى تغير هو شكل هذا التأثير، نعم، وأصبحت نتائجه بدرجة كبيرة ليست على وتيرة واحدة.

وبرغم عدم الشك فى اختلاف أسباب الاحتقان فى العالم العربى فى أواسط القرن العشرين، فإنه كان بينها قاسم مشترك، قبل كل شىء، إن تغيير الأنظمة فى الحقبة الاستعمارية وشبه الاستعمارية حدث نتيجة الحالة التى كانت قائمة حينها، التى كان فيها الحكام عاجزين عن البقاء فى السلطة، كما لعبت دورها هنا الأوضاع الخارجية، التغيرات فى توازن القوى فى العالم بعد انهيار ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية والعسكرية اليابانية وتحول الاتحاد السوفييتى لقوة عظمى على نفس المستوى مع الولايات المتحدة، وبزوغ حركة التحرر الوطنى فى الصين وفى مناطق أخرى معها،

وانهيار الطرق الاستعمارية فى الحكم. لكن أساس التغيرات الراديكالية فى عدد من الدول العربية خلقتها تحولات داخلية.

الأمر الذى لا يدع أى مجال للشك أو الاختلاف، أن وصول القوى المعادية للاستعمار إلى السلطة لم يحدث بمساعدة من موسكو، وأكبر دليل على ذلك الأوهام المتعلقة بإسقاط النظام الملكى وإعلان الجمهورية فى العراق فى ١٤ يوليو ١٩٥٨، والتى انتشرت بسرعة عبر وسائل الإعلام الغربية والسياسيين الفاشلين، فى نفس الوقت الذى لم يخطئ فيه الدبلوماسيون الموجودون فى مكان الحدث وكما هى القاعدة أصابوا فى تفسير جوهر ما حدث، فقد أبلغ السفير الإنجليزى فى العراق مايكل رايت وزارة الخارجية البريطانية بعد عشرة أيام من خلع الملك، وأشار إلى أن الأمر يشبه ما حدث فى مصر حيث قامت مجموعة من الضباط بقيادة ناصر بخلع الملك فاروق، وأن سبب الانقلاب فى العراق هو عدم الرضى عن سياسات الملك فيصل ورئيس وزرائه نورى السعيد، وكان سفير إنجليزى آخر فى بغداد هو جون تراوتبيك قد حذر لندن عام ١٩٥٤ فى برقية مشفرة من تصاعد الغضب فى العراق "بسبب الفساد وتقتير الطبقة الحاكمة، والظروف الصعبة للحياة، والفقر، وعدم وجود أى إمكانية أمام الشباب لصنع مستقبل بعد انتهائه من دراسته، وأخيرا تزايد الفراغ الإيديولوجى الناتج عن ضعف تأثير الإسلام عاما بعد عام"، وأشار السفير الإنجليزى بشكل مباشر إلى أن سياسة نورى السعيد والأسرة الحاكمة تلقى رفضا شعبيا مماثلاً لرفض تصرفات بريطانيا. السفير الأمريكى لدى العراق ويلمان هيلمان بدوره وصل إلى نتيجة مفادها أن "موسكو ليس لها يد فى الانقلاب".

ورغم ذلك لم يكن الاتحاد السوفييتى فى نهاية الأمر بعيدا عن الأحداث التى جرت سواء فى مصر أو العراق أو سوريا، ذلك أن الاتحاد السوفييتى نفسه أو على الأرجح كان القادة العرب هم الذين يفتحون خطوط اتصال مع الاتحاد السوفييتى بعد انقلاباتهم الثورية. لكن هؤلاء القادة لم يصلوا إلى السلطة نتيجة مؤامرات حاكتها موسكو، ولكن نتيجة فشل سياسات بريطانيا وفرنسا التى كانتا تنتهجانها سواء بشكل مباشر أو بمعاونة أتباع خونة وفاسدين من الأوساط العربية على مدى أعوام طويلة.

القوة الرئيسية الجيش ـ الإيجابيات والسلبيات

لعب الجيش الدور الحاسم فى تغيير الأنظمة الاستعمارية وشبه الاستعمارية فى أغلب الدول العربية. حدث هذا لأن الجيش كما اتضح هو القوة الأكثر تنظيما، فى ظروف لم تكن موجودة فيها أحزاب لديها كفاءة أو أحزاب معارضة حقيقية. إحدى القوى السياسية التى كانت موجودة إبان الحكم الملكى فى مصر حزب "الوفد"، كان حزبا كبيرا ومؤثرا، فى هذا الصدد لا يمكن مقارنة أى حزب سياسى آخر من تلك التى تشكلت فى الدول العربية فى أثناء الحقبة الاستعمارية بالوفد. كان الوفد أحيانا يعارض القصر، لكن قادته كثيرا ما كانوا يمارسون التلاعب السياسى، والتوافق مع القصر، مراعين فى ذلك مصالح كبار ملاك الأراضى وجزء من البرجوازية الإقطاعية.

فى البداية قام الجيش بخلع النظام المكروه ولم يكن لديه لا الخبرة ولا الرغبة فى قيادة البلاد، وليس من قبيل الصدفة أن الضباط كانوا يريدون عودة حزب الوفد للسلطة قبل حلول ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فقد أرسل الضباط الأحرار العقيد أحمد أنور إلى سكرتير عام حزب الوفد وكان حينها فؤاد سراج الدين، باقتراح أن يجبروا الملك على القبول بحزب الوفد فى السلطة، وقد رفض الوفد هذ الاقتراح، ولم يرغب فى التعاون مع "الضباط الأحرار" وقد أظهر الوفد بذلك نوعًا من الحذر خاصة فى ظروف بدء المقاومة المسلحة للإنجليز، التى بدأت فى منطقة قناة السويس، فقادة "الوفد" لم تكن لديهم رغبة فى خلع الملك فاروق ولا حتى الوقوف فى مواجهة إنجلترا.

بهذا الشكل انتقلت المسئولية عن مصير البلاد إلى الجيش. لكن ماذا كان يمثل الجيش فى حد ذاته حينها؟ كما تبين كان على رأس الضباط الثائرين ضد السلطات القديمة ضباط ينحدرون من أسر مختلفة من الموظفين، ومرة أخرى تصبح مصر هى المثال الأكثر تميزا، فقد أعلنت بريطانيا العظمى عام ١٩٢٢ مصر دولة مستقلة، إلا أن الاستقلال كان مقيدا بشروط، أدت إلى أن هذا الاستقلال أصبح غير موجود على أرض الواقع، فقد احتفظت بريطانيا لنفسها بحق حماية "طرق الإمبراطورية" على الأراضى المصرية ــ الحديث كان يدور بالدرجة الأولى عن قناة السويس ـ وحماية المصالح الأجنبية.

لكن الوضع تغير بعض الشيء عام ١٩٣٦ عندما أقدمت لندن على توقيع معاهدة مصرية ـ إنجليزية، خففت فيها من الشروط السابقة، ولكن فى نفس الوقت لم تؤد إلى استقلال سياسى حقيقى لمصر. فقد استمر الوجود العسكرى الإنجليزى، واستمر السفير الإنجليزى كما كان فى السابق يتدخل فى شئون البلاد الداخلية، لكن قبيل الحرب العالمية الثانية سعت بريطانيا إلى الاستعانة بأكبر عدد من الجنود الموجودين فى مصر لاستخدامهم فى أوروبا، وبناء عليه سمحوا لمصر بزيادة أعداد الجيش من ١١,٥ إلى ٦٠ ألف فرد. قبل هذا كانت أعداد الضباط فى الجيش قليلة وكانوا ينحدرون من الأسر الغنية فقط، وطبقا للاتفاق الذى لم يعط مصر فقط الحق فى زيادة عدد الجيش، ولكن يلزمها بالقيام بذلك فى أسرع وقت ممكن، وهو ما دفع الملك فاروق إلى قبول طلاب ينحدرون من الطبقات المتوسطة فى الكلية الحربية، وبالتحديد فى عام ١٩٣٦ تم قبول عسكريين مصريين ينحدرون من عائلات فلاحية ذات دخول متوسطة فى الأكاديمية العسكرية، حيث شكلوا فيما بعد العمود الفقرى لتنظيم "الضباط الأحرار".

لا أعتقد فى أن الانتماء إلى أصول طبقية واحدة قد لعب دوره فى أن النظام الذى قام فى مصر بعد عام ١٩٥٢ كان مستقرا بالرغم من الهزات العنيفة التى تعرضت لها مصر مثل العدوان الأنجلو ـ فرنسى ـ إسرائيلى عام ١٩٥٦ وحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، بالإضافة إلى الإجراءات الداخلية التى اتخذت وخاصة الاقتصادية منها والتى مست مصالح الأجانب وكبار الملاك المصريين، العامل الحاسم فى ضمان عدم تغيير القيادة فى مصر لفترة طويلة كان دعم الجماهير لزعامة ناصر. وهذا الدعم لم يأت مباشرة، فقد قام بالانقلاب عام ١٩٥٢ مجموعة صغيرة من الأشخاص، لكن الإصلاحات السريعة وتقوية خط السياسة الخارجية والتى اعتبرت وطنية من قطاع واسع، وحتى مع ارتكاب نظام ناصر لأخطاء، فإنه كان يتمتع بالتأييد الشعبى.

كانت مصر كذلك حالة استثنائية فى كثير من الأشياء، فقد وقعت انقلابات عسكرية الواحد تلو الآخر فى سوريا والعراق ودول شمال إفريقيا، ومات صلاح جديد الذى أسقط الاتجاه اليمينى لحزب البعث فى السجن بعد انقلاب ناجح فى سوريا فى ٢٣ فبراير عام ١٩٦٦، نفس المصير لقيه الزوعين رئيس وزراء أول حكومة تشكلت بعد

الانقلاب فى سوريا، هؤلاء تم إسقاطهم وعزلهم بواسطة مجموعة بعثية يسارية الاتجاه برئاسة حافظ الأسد. وفى العراق تم إعدام عبد الكريم قاسم قائد الثورة عام ١٩٥٨ رميا بالرصاص فى استوديو لتليفزيون بغداد بواسطة أتباعه السابقين. وقائد الثورة الجزائرية بن بيلا أودعه رفاقه الذين ناضلوا معه ضد الاستعمار السجن، حيث قضى فيه سنوات طويلة.

حدثت تغيرات فى مصر بعد وفاة ناصر، وصل للسلطة واحد من المقربين إليه، والذى كان بالمناسبة حتى فى موسكو يعتبرونه شخصية مؤقتة انتقالية ولكنه استغل تغافل الأشخاص المخلصين للزعيم الراحل والذين كانوا يمتلكون السلطة الفعلية فى البلاد، وأمر حراسه باعتقالهم كلهم. وأصبح السادات لأعوام كثيرة حاكم مصر المطلق، واستطاع التحول عن السياسة الناصرية سواء الداخلية أو الخارجية ـ من المعروف أنه بدأ مع ناصر فى الصف الأول من "الضباط الأحرار" لكن السادات كانت نهايته حزينة فقد قتل بواسطة متطرفين إسلاميين.

عدم تعايش مع الإسلاميين

معظم الانقلابات التى حدثت فى العالم العربى بعد أن أصبحت هذه الدول مستقلة كانت فى الغالب نوعا من الصراع على السلطة، بالطبع كانت توجد بعض الاختلافات بين هؤلاء الذين أسقطوا وأولئك الذين استولوا على السلطة. إلا أن أولئك وهؤلاء فى الأساس كانت لديهم نفس الإيديولوجية القومية، صفات القوى التى حلت مكان أخرى كانت فى السلطة تمثلت فى أنها لم تتوقف عند الفكرة القومية الخالصة، لكن الذين وصلوا للسلطة أدخلوا عليها الملامح الاجتماعية وقاموا بإصلاحات فى المجتمع، هكذا كان جمال عبد الناصر فى مصر وهوارى بومدين فى الجزائر وحافظ الأسد فى سوريا.

لكن وقبل أى شىء فإن قومية الزعماء العرب الذين أتوا للسلطة فى حقبة ما بعد الاستعمار فى الدول العربية على اختلاف درجات قوميتهم، لم يكن فى جوهرها فكرة الأسلمة، فلم يحدث أن أتى التغيير فى أى دولة عربية تحت راية الدين، على الرغم من

أن معظم سكان الدول التى تحررت من الملكية أو الاستعمار هم من المسلمين التقليديين. بالإضافة لهذا فإن القوى التى وصلت للسلطة دخلت فى صراع حياة أو موت مع التنظيمات والجماعات الإسلامية التى كانت تطمع فى ملء الفراغ الذى حدث - حسب رأيهم - بعد اختفاء الأنظمة الاستعمارية وشبه الاستعمارية من مسرح الأحداث، وعلى الرغم من أن مواجهة الإسلاميين لم تكن سهلة. ففى مصر على سبيل المثال المنظمة الكبيرة "الإخوان المسلمين" والتى أنشئت منذ عام ١٩٢٨ والتى كانت تواجه ظلم الإنجليز، كانت تضم فى فترة صعودها نحو مليونى إنسان، فى الفترة الأولى لعملهم كان "الضباط الأحرار" مضطرين لأخذ شعبية "الإخوان" فى الاعتبار، خاصة بعد مقتل مرشدهم الأعلى حسن البنا، والذى تم بأوامر من الملك عام ١٩٤٩، وإحاطة هذه الجماعة بهالة الجماعة المضطهدة(١).

بعد إسقاط الملك فاروق، فرض "الضباط الأحرار" حظرا على كل الأحزاب السياسية والمنظمات باستثناء "الإخوان"، لكن بعد نشر تصريح "المرشد العام" الهضيبى، الذى وجه من خلاله نداء بإجراء استفتاء عام فى البلاد حول إقامة دولة إسلامية تحكم بقوانين الشريعة فى مصر، بدأ الصراع الحاسم بين "الضباط الأحرار" و"الإخوان". وفى عام ١٩٥٤، تم إعدام اثنين من قادة "الإخوان" عبد القادر عودة نائب "المرشد العام" وقائد المجموعات الإرهابية المسلحة إبراهيم الطيب، اللذين دبرا محاولة لاغتيال ناصر، تم الإعدام علنا وفى وجود المراسلين، وحكم على "المرشد العام" الهضيبى بالسجن المؤبد.

لم يوقف ناصر وأتباعه عن ملاحقة "الإخوان المسلمين" لا شعبيتهم الطاغية، بدعم طلاب جامعة القاهرة المتمردين لهم على سبيل المثال عام ١٩٥٤ ولا قرب الجنرال نجيب(٢) منهم والذى كان شكليا يتولى رئاسة مجلس قيادة الثورة ورئيس مصر آنذاك. وهو ما أصبح سببا فى تنحية نجيب من مناصبه فيما بعد، وبهذا من الممكن اعتبار أن الصراع مع الإسلاميين المتطرفين لم يعق، بل على العكس أدى إلى تقوية جمال عبد الناصر ليس فقط بصفته قائداً أوحد لمصر ولكن كزعيم معترف به على امتداد العالم العربى ككل.

أنا لا أتفق مع آراء بعض الباحثين المتخصصين فى هذه الفترة من تاريخ مصر فى أن المواجهة المفتوحة والحادة من الصراع مع "الإخوان المسلمين" جاءت نتيجة لقيامهم بتدبير محاولة اغتيال ناصر، فى الغالب الأمر لا يعدو أن يكون مبررا للفراق النهائى مع الجماعة، ومن الممكن أن تكون القشة التى قصمت ظهر البعير وأدت إلى نفاد الصبر، لكن منطق المواجهة كان يسير فى هذا الاتجاه بوتيرة متسارعة منذ وصول "الضباط الأحرار" للسلطة.

استمرت فترة الوئام والتوافق بين "الضباط الأحرار" و"الإخوان المسلمين" حوالى عام، وكان هذا بعد إسقاط النظام الملكى، ثم حدثت القطيعة الكاملة. كان "الإخوان" يعتقدون أنهم يستطيعون كسب تأييد قطاعات واسعة من الشعب فى الريف حيث كانت قواعد الضباط الشباب ضعيفة جدا هناك منذ البداية، وقادة "الإخوان" قرروا الاستفادة من هذا لصالحهم، كما أنهم كانوا التنظيم الشرعى الوحيد معتقدين أن "الضباط الأحرار" سيكونون مضطرين لأخذ هذا فى الاعتبار لكى لا يكونوا فى عزلة تامة على المسرح السياسى المصرى. وقرر "الإخوان" المغامرة. فى البداية طلبوا المشاركة فى الحكومة، وبعد رفض هذا الطلب، أعلنوا عن طلبهم تأسيس لجنة لها حق التصديق على كل القوانين التى تسن فى مصر لتحديد مدى مطابقتها للمعايير الإسلامية من عدمه. وبذلك فإن مؤسسى مثل هذه اللجنة بعد الثورة الإسلامية فى إيران لا ينسب لهم قصب السبق فى هذا المجال. لكن الأحداث فى مصر أخذت منحى آخر. "الضباط الأحرار" بقيادة ناصر ردوا على هذا الابتزاز بالرفض الحاسم، وبدأوا فى إنجاز الإصلاح الزراعى، مما فتح لهم الطريق إلى الريف المصرى.

وبقى ناصر ليس مجرد عدو، بل خصمًا قاسيًا "للإخوان المسلمين". وقد ظهر هذا جلياً فى موقفه من الزعيم الإيديولوجى "للإخوان" سيد قطب الذى حكم عليه بالسجن عدة مرات. لكن عندما ثبت أنه مستمر فى مهاجمة "التحولات المدنية" الناصرية ووصفه بالعلمانية وبأنه ليس قيادة إسلامية للبلاد ومقارنته للأوضاع فى مصر الناصرية بالجاهلية ("الجهل" ـ هكذا كان العرب يسمون فترة ما قبل الإسلام فى تاريخهم - المؤلف)، تم إلقاء القبض عليه وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم عام ١٩٦٦.

لم يكن خلاف ناصر مع الإسلاميين منافسة بسيطة، كما لم تكن مواجهة بين قوتين من بلد واحد تتصارعان على السلطة. القضية كانت فى أن ناصر رفض عن عمد استخدام الإسلام أداة للحكم، وهو لم يكن وحيدا فى عدم توافقه مع هؤلاء الذين حاولوا بالقوة إقامة نموذج إسلامى للدولة والمجتمع. فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات قامت مجموعتان سوريتان من "الإخوان المسلمين" بالتحصن فى مدينتى حلب وحماة واتحدتا للجهاد ضد نظام حافظ الأسد. قام مقاتلو "الإخوان"، بالمناسبة كانوا من أتباع سيد قطب، بالاعتداء على مدرسة المدفعية بحلب وقتلوا ٣٤ طالبا. رد فعل النظام كان سريعا، قام الأسد باستخدام وحدات الجيش ضدهم، فقتلت الآلاف من المتطرفين الإسلاميين. وبالحديد والنار أيضًا تم سحق أنصار إقامة دولة إسلامية فى الجزائر وتونس.

بالطبع، غير صحيح أن نقدم القوميين الثوريين الذين أتوا للسلطة فى عدد من الدول العربية نتيجة للنضال ضد الأنظمة الاستعمارية أو الملكية الخائنة على أنهم أشخاص رافضون للإسلام بوصفه دينًا أو الأصولية الإسلامية كما هى معروفة ولا ينكرون تدين الجماهير الواسعة من الناس، هذا لم يكن موجودا ولا أثر له، لكنهم كانوا يقفون بوضوح ضد الإسلاميين المتطرفين، ضد ما يسمى بالإسلام السياسى، تناول أحد الذين كتبوا عن حياة ناصر وأفكاره بالتحليل، الدوافع التى كانت تقوده فى رفضه الحاسم "للإخوان المسلمين" وغيرها من المنظمات الإسلامية، كتب جى. لاكتيور أن ناصر نفسه مسلم مؤمن، ولكن كانت لديه ثقة فى أنه من غير الممكن إدارة دولة عصرية على أساس القرآن[٣]. هذه الثقة لم تكن ظاهرة فى مصر فقط، ولكن فى سوريا والعراق واليمن الجنوبى والجزائر وتونس وليبيا.

شعار «الاشتراكية العربية» ـ خلفيات هذا المفهوم؟

أعلنت القوى التى وصلت للسلطة فى عدد كبير من الدول العربية المهمة عن اختيارها الاشتراكى. يجب أن نذكر هنا الاهتمام الواسع بالأفكار الاشتراكية، خاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين والذى لم يتجاهله أحد بما فى ذلك المنظمات

الإسلامية، فقد أعلن علماء الدين الإسلاميين عن الصلة الوثيقة بين الإسلام فى بداياته والاشتراكية، وآمنوا بما عرف "بالاشتراكية الإسلامية"، والتى وجدت مؤمنين بها بين عدد غير قليل من المثقفين فى الدول العربية. لكن الاختيار الاشتراكى للقادة المنتمين للبرجوازية الصغيرة فى العالم العربى - "الاشتراكية العربية" لم يكن من حيث المصدر، ولا من حيث الجوهر هو "الاشتراكية الإسلامية"، على الرغم من أن بعض الصفات الظاهرية لهذين النوعين من "الاشتراكية" كانت متطابقة.

ورغم الصراع مع الإسلام الراديكالى من أحزاب ومنظمات فإن "الاشتراكية العربية" حملت فى داخلها سمات الإسلام وبلا شك أحست بتأثيره، وهذا كان له أساس موضوعى، فلم يكن أى من القادة العرب يستطيع أن يتجاهل التدين التقليدى العميق للسكان. لكن هذا لم يؤد إلى تطابق "الاشتراكية العربية" خاصة فى تفسير ناصر والقيادة الجزائرية مع ما يسمى "الاشتراكية الإسلامية". فالأولى فى جوهرها حصرت الإسلام فى مجال الحياة الروحية، أما التطور الاجتماعي - الاقتصادى فقد كان يجرى على أسس علمانية، هذا فى الوقت الذى أخرجت فيه "الاشتراكية الإسلامية" الفكرة الاجتماعية كأنها مستمدة من الإسلام، وترى تطبيق هذه الفكرة فى نواحى حياة المجتمع على أساس ما يمليه القرآن، تجدر الإشارة إلى أن النموذج الإسلامى لم يطبق فى أى من الدول العربية التى أعلنت عن الخيار الاشتراكى، ولم يكن له أثر لا فى بناء الدولة ولا فى الاقتصاد ولا حتى فى السلطة القضائية، وهذا هو المهم.

كان كثيرون بعدم رؤيتهم لهذا المهم وبدون التعمق فى تاريخ علاقة القيادات القومية - الثورية العربية بالإسلام الراديكالى، يتعرضون لهم بالنقد سواء من الشرق أو من الغرب بسبب ما أسموه "الانحياز للأشكال الإسلامية". هذا الانتقاد من الغرب كان مرتبطًا بشدة بالسعى لإظهار أن الفوارق تضيق أو على الأقل بقيت على ما هى عليه بين القوميين - الثوريين والاتجاهات الإسلامية على الساحة السياسية العربية. فيما يتعلق بعدد من الإيديولوجيين السوفييت، فقد كان على أعينهم غمامة الدوجما، حتى وإن كان الأمر غير معلن فقد كانوا فى اجتماعاتهم المغلقة يؤكدون على استحالة

"التوافق" بين الإعلان عن المبادئ الاشتراكية فى الأحاديث التى تبدأ بكلمات "بسم الله الرحمن الرحيم !" وأضيف أن مثل هؤلاء الإيديولوجيين غير الموفقين "أبعدوا" ليس فقط المسلمين عن "الاشتراكية الحقيقية"، بل جميع من لم يكن ملحدا، ولذلك كان فى تفكيرهم أنه لا يجوز على سبيل المثال الجمع بين العضوية فى الحزب الشيوعى الإيطالى والإيمان بالرب.

لقد كان إعلان عدد من الدول العربية عن الخيار الاشتراكى فى حد ذاته مرتبطًا بعدة عوامل : أولاً – جوهر القومية العربية الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن العشرين والذى انعكس فى صورة نضال ضد ظلم الأجانب من أجل التحرر الوطنى، فى الوقت الذى لم تكن فيه القومية العربية تملك برنامج بناء وطنى، ثانيا – هذا الخلل أو النقص أصبح محسوسا خاصة فى ذلك الوقت، بعد إنجاز قضايا التحرر الوطنى من السيطرة الأجنبية، انتقل مركز الثقل إلى المجالات الاجتماعية ـ الاقتصادية، ثالثا: شعار بناء الاشتراكية كان من أكثر الشعارات المنتشرة فى العالم حينها، وكان سائدا فى مجموعة كبيرة من الدول، وهذا بالطبع ترك أثره فى الدول المتحررة حديثا من الاستعمار، بما فيها الدول العربية.

فكرة "القومية العربية" نمت على خلفية خيبة أمل الجزء الأكبر من المثقفين العرب فى الوصفات الغربية و"التطور الاقتصادى الخاص" والذى يحافظ على الدول التى كانت مستعمرة فى وضعية المستعمرات. كما أن السعى التلقائى للمساواة والعدالة الاجتماعية سواء على الصعيد الدولى أو الداخلى هو ما أدى إلى الصدام مع الوصفات الغربية بشكل مباشر.

غير أن حقيقة المؤمنين "بالاشتراكية العربية" الذين كانوا يرون المجتمع أسرة واحدة دون تقسيمه إلى مجموعات اجتماعية، قد ميز الاشتراكية العربية عن المفهوم السوفييتى للاشتراكية العلمية، وفى نفس الوقت قربها من "الاشتراكية الإسلامية". التحولات التى جرت فى الدول العربية التى أعلنت عن خيارها الاشتراكى كانت موجهة لمصلحة هذه "الأسرة الواحدة" فى الواقع. وحقيقة، أن هذا لم يمنع اتخاذ إجراءات عديدة لتحسين أوضاع الطبقات الأفقر من السكان، لم يؤد فى الواقع إلى "إعادة توزيع الثروات".

كان جمال عبد الناصر يعتقد أن "الاشتراكية العربية" لا تتوافق مع المفهوم الطبقي ولا مع ديكتاتورية البروليتاريا ولا مع نفي دور الدين. وكان الزعماء العرب الآخرون الذين أعلنوا عن "الخيار الاشتراكي" يتفقون معه في ذلك، وعلى الأرجح كانت قيادة اليمن الجنوبي فقط هي التي اقتربت من المفهوم الاشتراكي الذي كان سائدا في الاتحاد السوفييتي والدول الأخرى المنتمية للمعسكر الاشتراكي.

خصوصية مفهوم الاشتراكية انحدر بالتحديد من أن "الاشتراكية العربية" كان ينظر إليها كنوع من القومية العربية، أكثر من أعلن عن ذلك بوضوح هو مؤسس البعث ميشيل عفلق عندما كتب "الاشتراكية، هي أداة مطوعة لظروفنا واحتياجاتنا القومية (العربية ـ المؤلف)، ولا يمكن النظر إليها كفلسفة أساسية أو معيار عمل للعبور، فهي فقط فرع من شجرة تسمى القومية[٤]".

باحتوائها على المجال الاجتماعي ـ الاقتصادي، وضعت " الاشتراكية العربية " أمامها مهمة تأميم الممتلكات الأجنبية، وقد نبع هذا من السياسيين مباشرة، وعملية إنشاء قطاع حكومي بدأ كإجراء وتوجه ضد الهيمنة الأجنبية ومحاولات القوى الخارجية إبقاء سيطرتها على الدول التي استقلت وتحررت من الاستعمار، لكن بطرق جديدة. ففي مصر كان من أوائل خطوات "الضباط الأحرار" انتقال شركة قناة السويس الأجنبية إلى أيدي الدولة، وفي العراق ـ شركة بترول العراق.

وكان أحد شعارات "الاشتراكية العربية" هو إجراء إصلاح زراعي، وهو الأمر الذي كان غاية في الأهمية لكل الدول العربية، حيث إن الغالبية العظمى من السكان كانت مرتبطة بالأرض، وكان عدم عدالة توزيعها له تأثير سلبي جدا.

ناصر يدعو البروفيسور ليبرمان للقاهرة

بعض الدول، على سبيل المثال مصر نفسها، ذهبت لأبعد وقامت بتقوية القطاع الحكومي في الاقتصاد على حساب تأميم، ليس فقط ممتلكات الأجانب ولكن الممتلكات

المصرية الكبيرة، فقـد تم تأميم البنوك وشركات التأمين والمصـانع الكبرى، وفى عام ١٩٥٨ أجرى الإصلاح الزراعى الثانى والذى قلل بشكل حاد من الحيازات الزراعية. وأصبح فى يد الدولة ٨٠٪ من وسـائل الإنتـاج الصناعى وكل النظام المصرفى ـ البنكى وكل المواصلات. وسيطرت الدولة على التجارة الخارجية، وأصبح ممنوعا على الأجانب العمل فى كل الصناعات المرتبطة باستخراج الخامات باستثناء النفط، وأصبح وجود رأس المال الأجنبى محصورا فقط فى عمليات التنقيب عن النفط، نعم كانت توجد فى البلاد عدة شركات مختلطة، ولكن مع وجود سيطرة حكومية عليها من داخلها.

مثل هذا الحجم من سيطرة الحكومة على الاقتصاد كان مبالغة مرتبطة بالتأثر بالدول الاشتراكية، ففى بداية الستينيات أيد القادة السوفييت (ناصر) وما يقوم به من توجهات تسعى إلى زيادة القطاع الحكومى فى الاقتصاد، بل وجد استحسانا من الإيديولوجيين الحزبيين والعلماء السوفييت، إلا أنه يوجد أساس لاعتبار أن براجماتية ناصر جعلته يبتعد عن الخط الرئيسى المتمثل فى تأميم كل شىء وجميع الأشياء. فهو لم يرفض علاقات السوق، وأعطى اهتماما خاصا لتطوير المشاريع الصغيرة، خاصة فى مجال الخدمات، لكن هذا لم يعجب، على الإطلاق، الكثيرين فى الاتحاد السوفييتى. وحتى فى الوقت الذى بدأت تختفى فيه التصورات الجامدة عن الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى وقيام البروفيسور ليبرمان المقيم فى خاركوف بأوكرانيا بنشر مقال فى جريدة "البرافدا" الناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، عن أهمية ربحية الشركات لتطور الاقتصاد، ولذلك كان عدد كبير من القيادات فى موسكو غير راضين عن دعوة ناصر ليبرمان لزيارة مصر. فقد اجتمع به ناصر على انفراد لعدة ساعات وبدون مترجم، حيث جرى الحديث باللغة الإنجليزية. كنت فى ذلك الوقت مراسلاً لصحيفة "البرافدا" فى القاهرة والتقيت ليبرمان، الذى قال لى إن ناصر سأله باهتمام شديد عن إمكانية الجمع بين الاشتراكية ونشاط القطاع الخاص. بمثل هذا النوع من التفكير فإن (ناصر) كان مدفوعا أكثر فأكثر تحت تأثير البراجماتية وليس بأى حال بالانحراف الفكرى فى اتجاه الاشتراكية "الإسلامية".

كان استقبال ناصر لليبرمان دافئا للغاية ودعاه لزيارة الإسكندرية للاستجمام هناك لعدة أيام، وفى أثناء السفر للإسكندرية فى سيارة تابعة لديوان الرئاسة لم يكن بداخلها سوى ليبرمان والمترجم س. تاراسيوك ـ فيما بعد عمل مساعدا لإدوارد شيفاردنادزة (عمل وزيرا للخارجية فى عهد جورباتشوف ثم رئيسا لجورجيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ـ المترجم) انحرفت السيارة وانقلبت ولحسن الحظ لم يصب أحد بسوء، لكن ناصر أصر على بقاء ليبرمان فى مستشفى وإجراء فحص طبى شامل له، وأرسل ناصر إليه مندوبا رسميا حمل إليه باقة ضخمة من الأزهار.

ثم اتضح أن "الخيار الاشتراكى" لعدد من الدول العربية قصير الأجل كما هو الحال مع البناء الاشتراكى فى كل العالم ـ فقد تعرض للانهيار هذا النوع من بناء الاشتراكية الذى ساد فى الاتحاد السوفييتى. ففى نهاية القرن العشرين لم تبق "الاشتراكية العربية" سوى فى دولة عربية واحدة هى ليبيا وأخذت مظهرا محنطا، ورغم ذلك فإن الإعلان واتخاذ خطوات لتحقيق "الاشتراكية العربية" تعتبر مرحلة ليست قليلة الأهمية فى تاريخ الدول العربية.

جذور الإرهاب الشرق الأوسطي

ما العلاقة بين القومية العربية والإرهاب؟ هذ السؤال ليس ثانويا لتحديد جوهر القومية بوصفها منهج تفكير لهؤلاء الذين خلفوا السلطات الاستعمارية وعملاءها بالسلطة فى الشرق الأوسط، وليس هناك أى أساس لاعتبار أن "الإرهاب الشرق أوسطى" الذى أصبح ذائع الصيت فى العالم قد نشأ من القومية العربية أو أنه أصبح جزءا من مكوناتها. والمثال على ذلك، خطة "الضباط الأحرار" المصريين حاملى لواء القومية العربية فى هذا المجال مثير للاهتمام. فمن الناحية النظرية هم لم ينفوا الإرهاب كوسيلة للاستيلاء على السلطة، خاصة ضد عملاء الإنجليز. ففى المراحل الأولى عندما كانت القوة المحركة للنضال هى عدم الاستسلام للظلم الأجنبى، والشعور بألم إهدار الكرامة الوطنية، كان من بين اللجان التى نشأت داخل تنظيم "الضباط

الأحرار" "لجنة الإرهاب"، لكن فى مرحلة الاستعداد للاستيلاء على السلطة حدث أن تخلى "الضباط الأحرار" عن الإرهاب. وفى الواقع العملى تم تفعيله مرة واحدة ـ عند محاولة اغتيال الجنرال سرى عامر الذى كان مكروها فى الجيش وملوثًا بالفساد وكان على علاقة وثيقة بالدوائر الاستعمارية.

فى كتابه "فلسفة الثورة" يصف ناصر قلقه بعد محاولة اغتيال سرى عامر : "فى ليلة بدون نوم ومن خلال غرفة يملؤها دخان السجائر سألت نفسى سؤال: هل من الممكن أن يتغير مصير البلاد بشكل حقيقى لو قتلنا هذا الشخص أو ذاك، أم أن المشكلة أعقد وأعمق بكثير؟.... حينها أجبت نفسى باقتناع كامل: إن علينا أن نغير طريقنا... فالجذور ضاربة بعمق فى التربة، المشكلة أعقد من ذلك بكثير".

الحديث هنا يدور حول الإرهاب الشخصى، الموجه ضد شخصيات بعينها وبشكل أساسى ضد العرب المتعاونين مع المستعمرين الأجانب، لكن حتى هذا النوع من الإرهاب لم يتقبله ناصر، وقد ظهر هذا جليا فى أثناء مراسم توديع الملك المخلوع فاروق الذى أبحر إلى إيطاليا على يخته المسمى "المحروسة". من على رصيف الإسكندرية ودع الملك كل قيادة "الضباط الأحرار" بما فيهم الجنرال نجيب، باستثناء جمال سالم الذى منعه ناصر من المشاركة فى مراسم وداع الملك، لأنه كان يعرف تصميمه على تصفية فاروق جسديا.

كان لدى ناصر فى أثناء حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ إمكانية لقاء اثنين من الضباط الإسرائيليين فى الفالوجا بعد وقف إطلاق النار، أحدهما كان إيجال ألون الذى أصبح فيما بعد رئيسا لأركان الجيش الإسرائيلى، وقد سأل ناصر الإسرائيليين باهتمام عن طرق وأشكال منظماتهم وصراعهم مع الإنجليز، وربما استطاع الإسرائيليان أن يزودا ناصر بمعلومات بالإضافة إلى أشياء أخرى بخبرتهما فى الأعمال الإرهابية. لكن هذه الخبرة لم يستخدمها القائد المصرى الذى أعد وقام بانقلاب فى مصر عام ١٩٥٢، كما أن الإرهاب لم يعد من وسائل ناصر فيما بعد.

ولم ترفع منظمات الإسلام الإرهابية رأسها فى مصر، بصفة خاصة، إلا بعد ضعف وخروج القومية العربية الثورية من المسرح السياسى، ففى نهاية السبعينيات ظهر "الجهاد" و"الجماعة الإسلامية" و"التكفير والهجرة" وغيرها من المنظمات التى أخذت على عاتقها مهمة إسقاط النظام المصرى العلمانى، ولهذا الغرض نشروا نشاطهم الإرهابى فى ربوع البلاد. أحد ضحاياهم كان السادات، وقاموا بعدة محاولات لاغتيال الرئيس مبارك، وقاموا بأعمال إرهابية ضد وزراء مصريين وسياح أجانب. منظمات "الموجة الإسلامية الجديدة" كانت رافضة جدا "للمعتدلين" والذين اعتبروهم "غير مناسبين للمرحلة" مثل "الإخوان المسلمين" وأقاموا علاقات مع تنظيم "القاعدة".

لكن دعونا نعد إلى بداية مرحلة "الإرهاب فى الشرق الأوسط". فى أول بداياته يمكن أن نسمى إنشاء منظمة ليحى فى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية والتى كان يرأسها شتيرن (قتل فى فبراير عام ١٩٤٢ بواسطة رجال شرطة بريطانيين - المؤلف). بعد ذلك تولى قيادة ليحى شخص أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء إسرائيل هو إسحاق شامير. فى عام ١٩٤٣ قامت منظمة ليحى بمحاولة اغتيال المندوب السامى البريطانى فى فلسطين، ثم بعد ذلك بعدة شهور اغتالوا وزير المستعمرات البريطانى السابق اللورد موين فى مصر. وبعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٨ قامت ليحى باغتيال ممثل الأمم المتحدة الدبلوماسى السويدى ف. بيرنادوت، والذى كان مكلفا بمراقبة وقف إطلاق النار.

ولم ينحصر الأمر فى الإرهاب الشخصى، فإلى جوار ليحى كانت توجد منظمة إرهابية أخرى هى إتسيل التى كان يرأسها فى عام ١٩٤٤ وفى المستقبل رئيس وزراء آخر لإسرائيل هو مناحم بيجين. ففى ٢٢ يوليو عام ١٩٤٦ حمل مقاتلو إتسيل وعاءين كبيرين من أوعية الألبان مملوءين بالمتفجرات لمطبخ فى فندق "الملك داود" بأحد الأجنحة التى كانت تتمركز فيها المؤسسات الإدارية الإنجليزية، كان نتيجة ذلك الانفجار مقتل ٩١ وإصابة ٤٥ شخصاً ما بين إنجليزى وعربى ويهودى.

بكل هذا التراث العملى من الإرهاب ضد الإنجليز، كان من الصعب تصور ألا يستخدم الإرهاب لطرد العرب من فلسطين. يذكر الجنرال الإنجليزى جون باجوت جلاب منشئ الفيلق العربى فى شرق نهر الأردن فى مذكراته الحديث الذى دار بين ضابط إنجليزى وضابط من المنظمة العسكرية للحركة الصهيونية الهاجاناه، وفق كلمات الجنرال الإنجليزى فإن سكان إسرائيل (الحديث دار قبل إنشائها ـ المؤلف) ممكن أن يكونوا متساوين نصفهم من اليهود والنصف الآخر من العرب وهذا سيخلق مشاكل، ضابط الهاجاناه أجابه "المشاكل يمكن تخطيها ـ بعض من إراقة الدماء سيؤدى إلى التخلص من المشاكل". ما تلى ذلك كان مجرد تنفيذ لهذه الكلمات على أرض الواقع. ففى يناير عام ١٩٤٨ دوى انفجار فى حديقة بمدينة يافا التى كانت يسكنها العرب آنذاك، مما أدى إلى مقتل ٢٢ شخصًا والجرحى أكثر من ذلك بكثير. لكن الجريمة الأفظع ارتكبت ليلة ١٠ أبريل عام ١٩٤٨، حيث قام المتطرفون من ليحى وإتسيل بارتكاب مجزرة فى قرية دير ياسين العربية الواقعة فى محيط القدس، كانت نتيجتها مقتل ٢٥٤ من السكان الأبرياء.

أحيانا كانت الأعمال الإرهابية تقابل بالاستنكار فى الخارج وفى إسرائيل نفسها، لدرجة رفع قضايا جنائية ضد من قام بقتل العرب، حدث هذا على سبيل المثال فى أكتوبر عام ١٩٥٦ عشية العدوان الثلاثى على مصر، عندما قامت دورية إسرائيلية بإطلاق النار على سكان قرية كفر قاسم العربية الواقعة فى الأراضى الإسرائيلية بعد أن "خالف" السكان حظر التجوال الذى كان مفروضا. وقد أدانت المحكمة كلا من الرائد ميلينكى والملازم داخان بقتل ٤٣ من سكان كفر قاسم وحكم عليهما بالسجن ١٧ عاما و١٥ عاما على الترتيب، كما حكم على الرقيب أوففير بالسجن ١٥ عامًا لقيامه بقتل ٤١ عربيًا، وصدرت أحكام بفترات سجن مختلفة على عدد آخر من المشتركين فى الجريمة. وفى بداية عام ١٩٦٠ أى بعد أكثر من ثلاث سنوات بقليل من ارتكاب هذه الجرائم كان كل مرتكبيها قد أفرج عنهم. أما عميد الجيش الإسرائيلى شادمى الذى حوكم على حدة والذى أعطى الأوامر للجنود بألا "تأخذهم رحمة" حكم عليه بحكم مستفز لذكرى القتلى، بغرامة تعادل سنتا واحدا!

فيما يتعلق بمصر فإن أول الأعمال الإرهابية كانت المخابرات الإسرائيلية هى التى نفذته، وعرفت فيما بعد "بقضية لافون"، سنتحدث عن هذا لاحقا.

بعد إنشاء دولة إسرائيل أصبح الإرهاب يستخدم على نطاق واسع من قبل المنظمات الفلسطينية المتمركزة فى الدول العربية المجاورة. لم يقتصر ضحايا الإرهاب على سكان المستوطنات الإسرائيلية التى أقيمت على الأراضى العربية التى احتلت بعد حرب عام ١٩٦٧، بل أيضا السكان المدنيين فى إسرائيل نفسها. دوت أعداد كبيرة من الانفجارات التى راح ضحيتها العشرات فى مناطق تجمع الناس وفى الفنادق والمحلات التجارية وفى المراقص. وقام "حزب الله" بإطلاق الصواريخ من الأراضى اللبنانية على الأماكن الآهلة بالسكان فى شمال الجليل.

ازدادت العمليات الإرهابية، واستخدمت الانتحاريين وخاصة فى أثناء الانتفاضة الثانية، والتى بدأت بعد قيام الجنرال شارون بزيارة لقبة الصخرة، التى يوجد بها أحد أهم المقدسات الإسلامية ـ المسجد الأقصى. وقد أعاقت الأعمال الإرهابية عملية التسوية السياسية، وزادت من العزلة، التى أضرت بالفلسطينيين فى العالم، بالإضافة إلى أن هذه الأعمال استفزت الجيش الإسرائيلى للقيام بعمليات تنكيل واسعة ضد الفلسطينيين، مما أدى إلى سقوط ضحايا من الفلسطينيين الأبرياء.

هذه الأعمال انتهت بعد أن عبرت منظمة التحرير الفلسطينية طريقا صعبا (سنتحدث عن ذلك فى هذا الكتاب ـ المؤلف) واعترفت بقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة وبدأت فى التفاوض مع إسرائيل، كما تخلت عن الوسائل الإرهابية فى النضال من أجل حقوق الشعب الفلسطينى. إلا أنه مازالت هناك منظمات ومجموعات موجودة تقوم بأعمال إرهابية ضد السكان المدنيين الإسرائيليين. وتقوم القيادة الرسمية الفلسطينية بالوقوف ضد هذه الأعمال.

ولا نخفى سراً عندما نقول إن الاتحاد السوفييتى، ومن بعده روسيا كانا كثيراً ما يقسمان الإرهابيين إلى هؤلاء الذين يسعون لأهداف "عادلة" والآخرين الذين يقومون بالأعمال الإرهابية لأغراض "غير عادلة". لكن ومما لا شك فيه أن النشاط الإرهابى

للانفصاليين الشيشان قد فتح عيوننا. وحتى قبل ظهور الجرح الشيشانى الدامى، فإن الوسائل الإرهابية للنضال الفلسطينى، حتى لو كانت من أجل حقوقهم، كانت مستهجنة بشكل حاسم ليس فقط من قبل روسيا الحالية، بل من الاتحاد السوفييتى السابق أيضا. وهذا الأمر دائما - أريد أن أؤكد دائما - كان ومازال حاضرا فى أثناء الاجتماعات مع قيادات فتح[٥] والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية وحماس وكل المنظمات الفلسطينية الأخرى التى كان ممثلونا على اتصال دائم بها والذين كانت تعقد معهم لقاءات دائما.

توصلنا على سبيل المثال. فى نهاية عام ١٩٧٠ بناء على تكليف من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى (حينها كانت الأوامر تأتى عن طريق اللجنة المركزية - المؤلف) قمت أنا والسفير السوفييتى فى الأردن آنذاك ى.س.جريادونوف، وكان فى نفس الوقت رئيس قطاع العلاقات الدولية فى اللجنة المركزية (هذا القطاع كان مختصًا بالمشاكل العربية - المؤلف) بالسفر إلى بيروت لكى نقنع قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالتوقف عن خطف الطائرات. كانت المباحثات طويلة وشارك فيها كل قادة الجبهة، جورج حبش وآخرون وقالوا لنا إنهم يقومون بخطف الطائرات بهدف إجبار الإسرائيليين فى نهاية الأمر على أن يطلبوا من حكومتهم التوصل إلى إيجاد حل توافقى مع الفلسطينيين. فى المقابل قلنا لهم إن الأعمال الإرهابية ليست فقط غير مقبولة فى حد ذاتها، ولكنها غير مثمرة لأنها ستجعل المواطنين الإسرائيليين يلتفون حول حكومتهم أكثر. لم يحالف مهماتنا المشابهة النجاح دائما، لكن هذه المرة كان النجاح واضحًا للعيان، حيث جاء الامتناع عن خطف الطائرات بتأثير من الاتحاد السوفييتى. ومثال آخر عندما كنت أشغل منصب مدير الاستخبارات الخارجية وبأوامر من القيادة الروسية سافرت إلى طرابلس، حيث أجريت مباحثات مثمرة مع القيادات الليبية شملت معمر القذافى وكنت أعرف العمل الموازى الذى يقوم به زملاؤنا الأوروبيون فى هذا المجال، وفى أواسط النصف الثانى من التسعينيات تم تسوية "معسكرات التدريب" التى كان يستخدمها الفلسطينيون المتطرفون "جبهة تحرير

فلسطين ـ القيادة العامة" و"الجهاد الإسلامى" بالأرض. وقطعت القيادة الليبية علاقتها بهذه المنظمات، وطردت منظمة أبو نضال الإرهابية من البلاد.

رافقت الرئيس بوتين فى زيارته للشرق الأوسط فى مايو عام ٢٠٠٥، والتى تحدث فيها بحسم إلى القادة الفلسطينيين والإسرائيليين عن ضرورة التخلى عن الأعمال الإرهابية وعما هو ليس أقل منها خطورة وهو التنكيل، بسببها، بالمواطنين الأبرياء.

كان للإرهاب الذى يمارسه الطرفان المنخرطان فى النزاع الشرق أوسطى عدد من الملامح الخاصة. أولاً كان "الإرهاب الشرق أوسطى" بطبيعته سياسيًا، ولم يأخذ أشكالاً دينية. ثانيا، لم يخرج ولا خرج عن الإطار الإقليمى، وحتى ما حدث منه خارج منطقة الشرق الأوسط كان يستهدف الطرف الآخر من طرفى النزاع الشرق أوسطى. على سبيل المثال محاولة الاعتداء على السفير الإسرائيلى فى لندن والتى قامت بها مجموعة أبى نضال أو اغتيال قادة بارزين من منظمة التحرير فى أوروبا. وكان هناك الكثير من العمليات الإرهابية ضد "رفاقهم" ممن لم يوافقوا على سياستهم فى بعض المجموعات الإرهابية. وقد تميزت فى هذا الخصوص المجموعة التى كان يرأسها صبرى البنا، المعروف باسم أبى نضال، والذى أعلن أن قادة منظمة فتح التى يقودها عرفات خونة، وبدأت مجموعة أبى نضال فى تصفيتهم. هذه المجموعة كانت تنفذ أوامر صادرة من الاستخبارات العراقية مباشرة، وعندما تمركزت فى سوريا ارتبطت بالاستخبارات السورية، وعندما استقرت فى ليبيا بالمخابرات الليبية، ثم عادت المجموعة إلى العراق قبيل الغزو الأمريكى له وهناك أنهى أبو نضال حياته بالانتحار.

وإذا تحدثنا عن الإرهاب الدولى فى الوقت الراهن وعن النظام الذى أسسته "القاعدة"، فإنه نشأ ليس بسبب الحركات الفلسطينية. قنبلة التطرف الدينى استخدمتها بمهارة ودون تفكير الولايات المتحدة إبان الحرب الباردة، فظهور هذه المنظمة الإرهابية كان بمساعدة المخابرات الأمريكية لمحاربة الجيش السوفييتى فى أفغانستان، وسمحوا لابن لادن بتجنيد أفراد وأتباع لمنظمته حتى على أرض الولايات المتحدة نفسها، وسلحوا عصابته فى سرية، وأعطوهم فى أيديهم صواريخ "ستينجر" التى استخدمت

مضادات أرضية ضد الطائرات والمروحيات السوفييتية. وربما ابتسم التاريخ بخبث فيما بعد فى وجه هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أن "القاعدة" ستكون أداة طيعة فى أيديهم.

تصاعد التوجه المعادى للغرب لكن الأمل ظل معقودا على الولايات المتحدة

ونعود للصفات المميزة للأنظمة العربية الثورية ـ القومية، هنا يجب القول بأن القوميين العرب لم يشعروا شعوراً معادياً للإمبريالية بشكل مباشر كما هو متعارف عليه، بل فى البداية تنامى حب الذات المرضى، والشعور الحاد بالكرامة القومية، وتضخمت الذات القومية المميزة، ليس فقط للقادة العرب، بل للشرقيين بصفة عامة والتى كان من نتيجتها تجاوز الإمكانيات الفعلية لحل المشكلات التى تواجههم، ومنها تسوية حالات النزاع على اختلاف أنواعها.

وعدم تقبل الإهانة القومية من ممثلى الأجانب، حتى فيما يخص إهانة الملك كنوع من مشاركة الشعب أحاسيسه، فلم يكن الملك فاروق محبوبا كثيرا على سبيل المثال، لكن كانت علاقتهم به، على أى حال، على أنه رأس للدولة المصرية، فقد خرج ناصر ورفاقه عن شعورهم عندما عرفوا أن سفير إنجلترا اللورد ليمبسون قد توجه إلى قصر عابدين يوم ٤ فبراير عام ١٩٤٢ وطلب من الملك إقالة رئيس الوزراء وتعيين آخر أكثر موالاة للإنجليز، وقد سرت إشاعات فى البلاد بأن السفير قد وجه حديثه إلى الملك ليس كما هى العادة "جلالتكم" بل استخدم كلمات أبسط قائلاً: "يا بنى". يتذكر ناصر هذا الحادث، بعد عشرين عاما من إعلان استقلال مصر، ويكتب لصديقه "أنا أشعر بالخجل، لأن الجيش لم يكن له رد فعل على هذا التصرف". هذه الكلمات تنسب لشخص كان يدرك بلا شك عدم جدوى الصدام المسلح مع القوات البريطانية التى كانت تتمركز فى منطقة القناة، بالإضافة إلى أن بريطانيا بإمكاناتها العسكرية لا يمكن مقارنة مصر بها، لكن الإحساس بالإهانة الوطنية كان متغلباً على ما هو دونه.

وقد ظهر هذا فيما بعد، وتذكر ناصر هذه الواقعة عندما التقى عام ١٩٥٥ للمرة الأولى والوحيدة فى السفارة البريطانية فى القاهرة وزير الخارجية البريطانى آنذاك

إنتونى إيدن، الذى استمع إلى التقييم السلبى لحلف بغداد من رئيس مصر الشاب آنذاك، إيدن أعطى انطباعًا بأنه يتحدث مع شخص لا يفهم جيدا فى السياسة الدولية، فخرج عن الموضوع وتعمد أن يسأل عن القرآن وعن الأدب المصرى، وقد رأى ناصر فى هذا السلوك تعاليًا على مصر الجديدة من قبل القادة الإنجليز.

ولم يكن رد فعل ناصر أقل حدة على إهانة واستخفاف الأمريكيين بالمصريين، ففى دعوة على الغداء عام ١٩٥٥، اشتكى السفير الأمريكى فى مصر آنذاك بايرود للرئيس من أن بعض المصريين اشتبهوا فى أنه جاسوس فأوسعوه ضربا فى منطقة قناة السويس، وللأسف ـ زاد الموقف سخونة كلمات انطلقت من بايرود بانفعال ـ "كنت أعتقد أنى موجود فى بلد متحضر"، وهنا نهض ناصر وخرج تاركا الغداء، وفشلت كل اعتذارات الدبلوماسى الأمريكى عديم اللياقة فى أن تعيده للمائدة.

معاداة الثوار المنتمين للبرجوازية الصغيرة للإمبريالية كانت فى البداية تحت تأثير العاطفة، لكن فى النهاية تغلبت السياسة، وقرارهم اتخذوه أساسا بعد مقارنات ودراسة عدد كبير من البدائل. فى هذه الظروف لم تتغلب معاداة الإمبريالية على الأرجح، بل سادت فى الغالب البراجماتية، وهكذا لم ينتهجوا بعد الوصول للسلطة فى مصر وسوريا والعراق، سياسات متشددة حتى مع الدول التى كانت تستعمرهم أو دول أوروبا الغربية التى كانت مسيطرة فى الدول العربية المستقلة شكلاً. فقد تم تحذير بريطانيا بأوامر من ناصر ومن خلال أحد "الضباط الأحرار" هو على صبرى قبل الانقلاب بيومين فى مصر، كما تم كذلك إخطار مساعد الملحق العسكرى الأمريكى ديفيد إيفانس، الذى حسم الأمر بقوله "مادمتم غير شيوعيين ـ هيا افعلوا" وكما قال إيفانس إن الولايات المتحدة تسعى للتحالف مع الشرق الأوسط لكى لا تسمح بتغلل الاتحاد السوفييتى فى هذه المنطقة ولكى توقف تنامى الأحزاب الشيوعية المحلية.

أعتقد أن "الضباط الأحرار" لم يخطروا ممثلا الولايات المتحدة وبريطانيا لأى مدى سيذهبون فى خططهم، خاصة عندما يبدأون فى تنفيذ الانقلاب. ومن الممكن أن تكون إنجلترا قد افترضت أن الحديث يدور عن عملية ضغط على النظام الملكى بهدف إجباره

على الاتجاه لدمقرطة المجتمع. إلا أن ميلز كوبلاند رئيس المخابرات الأمريكية فى القاهرة، أعلن أن الأمريكيين لم يعرفوا فقط بالانقلاب الذى كان يعد له، بل إن ناصر تشاور معهم بخصوص هذا الأمر وإنهم أعطوا له "الضوء الأخضر". كما أن ممثلاً آخر للمخابرات الأمريكية هو كيرميت "كيم" روزفلت ـ حفيد رئيس الولايات المتحدة تيودور روزفلت ـ فتح خط اتصال مع الضباط بمجرد وصولهم للسلطة.

صحيح هذا أم لا، لكن حقيقة هذه الاتصالات تشير إلى أن "الضباط الأحرار" لم تكن لديهم رغبة لتوتير العلاقات مع بريطانيا ناهيك عن واشنطن. وقد حصلوا على الرد الأمريكى، حصلوا عليه من خلال على صبرى، وعموما كان مشجعا وأعطى الأمل فى إقامة علاقات وثيقة بين الضباط الشباب والولايات المتحدة.

وتشهد واقعة خلع الملك فاروق عام ١٩٥٢ وأنها لم تكن تعنى إنهاء الملكية على عدم الرغبة فى تصعيد التوتر فى العلاقات مع لندن. فقد أجبر "الضباط الأحرار" فاروق على التنازل ووافقوا على أن يتحول العرش إلى ابنه الأمير أحمد فؤاد، الذى لم يبلغ حينها عامه الأول. كما وافقوا كذلك على أن يكون على رأس مجلس الوصاية والحكومة أيضا أشخاص من المقربين للملك المخلوع. وفقط فى شهر يونيو ١٩٥٣، أى بعد ما يقرب من عام على الانقلاب، تم إعلان الجمهورية فى مصر.

عمليا قاد ناصر الأمور إلى سلسلة من التوافقات مع بريطانيا، ففى ١٢ فبراير ١٩٥٣ وقع معها اتفاقية تقضى ليس فقط بانسحاب القوات الإنجليزية من السودان، بل المصرية أيضا، على الرغم من وجود حركة قوية فى السودان كانت تدعو للوحدة مع مصر، وهو نفس المزاج الذى كان سائدا بشدة فى مصر نفسها، كما كانت مصر أول من اعترف باستقلال السودان، وهى بذلك تخلت عن القيام بأى أعمال عدائية لإنجلترا فيما يتعلق بالسودان.

وبعد الانقلاب مباشرة بدأ ناصر والمحيطون به مفاوضات مع حكومة بريطانيا بهدف الحصول على موافقتها على سحب قواتها، وبذلك راهن الضباط الشباب على

اتفاق سلمى سياسى مع لندن لإنهاء ٧٤ عاما من الاحتلال البريطانى، وحققوا نجاحا. فقد تم توقيع اتفاق فى القاهرة فى أكتوبر ١٩٥٤ ينص على الانسحاب الكامل للقوات الإنجليزية.

فى ذلك الوقت سادت بين صفوف قيادة "الضباط الأحرار" فكرة التعاون مع الولايات المتحدة، هذه الفكرة جاءت مناسبة للولايات المتحدة، فهذه الأخيرة كانت تسعى لأن تحل محل إنجلترا التى أصابها الضعف فى الشرق الأوسط، وكانت تسعى لاستغلال النظام الجديد فى مصر لتحقيق مصلحتها فى ذلك. ولم يكن العالم العربى ينظر للولايات المتحدة على أنها دولة استعمارية، وعقد آمالاً كبيرة على أنها من الممكن أن تكون عنصر توازن مع وجود كل من بريطانيا وفرنسا.

فى مايو عام ١٩٥٣ قام وزير الخارجية الأمريكى جون فوستر دالاس بزيارة للقاهرة، فى الوقت الذى وعدت فيه الدبلوماسية الأمريكية بالوساطة لتحقيق الجلاء عن القواعد الإنجليزية الموجودة فى منطقة قناة السويس، قوبلت المساعى الأمريكية بالشكر من قبل "الضباط الأحرار" الذين كانوا يسعون إلى إنهاء كامل للوجود العسكرى الإنجليزى فى مصر. وبدأ تنفيذ برنامج المساعدات الأمريكى لمصر وقيمته ٥٠ مليون دولار سنويا، وبدأ بعده المسئولون الأمريكيون ورجال السياسة ورجال الأعمال يحجون إلى القاهرة بانتظام.

وأدرك الكثيرون بما فى ذلك فى القاهرة، أن جون فوستر دالاس وفق كلمات الكاتب المصرى المعروف هيكل، كان يسعى لحصار الاتحاد السوفييتى "بالغبار الدينى" عن طريق تحالفات عسكرية وسياسية. ويجب القول إن الأمريكيين ولمصلحة المواجهة مع الاتحاد السوفييتى قاموا بعد زيارة دالاس للقاهرة بتقديم مشروع مغرٍ لمصر والدول العربية الأخرى متمثلاً فى إقامة حلف عسكرى من الدول العربية والإسلامية ممثلة بتركيا وباكستان فقط. وحقيقة زيارة وفد عسكرى مصرى برئاسة على صبرى عام ١٩٥٣ للولايات المتحدة لا يعطى أساساً للاعتقاد بأن هذا المخطط كما يقال كان

مرفوضا على "عجل" من المصريين. لكنهم ربطوا موقفهم بإمكانية شراء أسلحة أمريكية. التقى على صبرى مع رئيس برنامج البنتاجون للمساعدات الخارجية العسكرية الجنرال أولمستد الذى فضل الحديث عن فائدة الحلف الإسلامى مرة أخرى بشكل مجرد، حينها لفت أنظار الوفد المصرى تحديدا إلى أهداف الحلف بشكل واضح "..... من الممكن أن يكون له تأثير كبير على مسلمى الاتحاد السوفييتى والصين". وصل الجنرال فى حديثه إلى أن ما يحتاجه من المسلمين فى هاتين الدولتين هو" إنشاء طابور خامس"، وفى الواقع كان المصريون ينتظرون شيئًا آخر من المقابلة.

الفصل الثانى

فرص ضائعة لنزع فتيل التوتر العربى - الإسرائيلى

على خلاف الرأى السائد، لم يؤد وصول الأنظمة الثورية ـ القومية للسلطة إلى تصعيد يذكر فى النزاع العربى ـ الإسرائيلى، فخلف كواليس حرب فلسطين الأولى التى نشبت بعد إنشاء دولة إسرائيل كانت تقف لندن، التى كانت تسعى للحفاظ على احتكارها للسيادة على منطقة الشرق الأوسط. والمقاومة الفلسطينية المسلحة حينها لم تكن موجودة فعليا، والدول العربية التى كانت فى الواقع "زبائن" لإنجلترا، خسرت الحرب.

كيف بدأ كل هذا؟

فى الحقيقة لعبت خسارة الحرب دورا لا يستهان به فى تكوين عقيدة الضباط من ذوى الميول القومية والذين وصل الكثيرون منهم للسلطة لاحقا. لكن غضبهم لم يكن موجها بالدرجة الأولى ضد إسرائيل التى انتصرت فى هذه الحرب، بل كان موجها ضد الأنظمة العربية الفاسدة المرتبطة بالدول الاستعمارية والتى خسرت الحرب.

ولم يكن لناصر أو الضباط العرب الآخرين كما هو مفهوم أى شىء مشترك مع البلاشفة، الذين دعوا حتى لو كان الثمن هو الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى، إلى توجيه "عقارب الساعة" لحرب أهلية فى روسيا. لكن اللقاء الذى جرى فى الفالوجا مع

اثنين من الضباط الإسرائيليين هم إيجال آلون وموردخاى كوهين بعد وقف إطلاق النار، والذى كتبت عنه من قبل، حين سألهما ناصر عن منظماتهما وطرق الإسرائيليين الناجحة لمقاومة السلطات الإنجليزية.

ما يوضح ميول ناصر والمحيطين به آنذاك، هو ما جاء بعد هذا الحدث. فبعد الهدنة كان كوهين ضمن أعضاء اللجنة المشتركة المصرية ـ الإسرائيلية. وعندما عرف من أحد أعضاء الوفد المصرى بأن ناصر أنجب طفلاً، هنأه وأرسل له هدية، ورد ناصر ليس فقط بهدية عبارة عن علبة طوفى من محلات "جروبى" الشهيرة فى القاهرة، بل دعا كوهين لزيارة القاهرة للقائه. طلب كوهين موافقة من وزير خارجية إسرائيل للسفر، لكن طلبه قوبل برفض حاسم.

بعد وصول "الضباط الأحرار" للسلطة فى مصر، قاموا باتخاذ الإجراءات اللازمة لكى تبقى الحدود المصرية ـ الإسرائيلية هادئة. فالقيادة المصرية الجديدة لم يكن لها مصلحة فى تصعيد التوتر مع إسرائيل، وكانت إشاعات ليست ببعيدة عن الواقع قد سرت تفيد بأن المخابرات المصرية تلقت معلومات تفيد بأن بعض الفلسطينيين يعدون لهجمات على إسرائيل عبر الحدود المصرية. وفى عام ١٩٥٤ اعتقل ياسر عرفات فى مصر وكان حينها مقاتلاً غير معروف.

اتجهت القيادة الفلسطينية فى ذلك الوقت والممثلة باللجنة العربية العليا برئاسة مفتى القدس للقيام بهجمات فلسطينية غير منظمة عبر الحدود مع الأردن، كان يشارك فيها أساسا اللاجئون الفلسطينيون المتجمعون فى المخيمات فى الأردن، كانت إسرائيل ترد على هذه الهجمات بالتنكيل والاضطهاد. لكن الوحدة الخاصة التى أنشئت والمسماة "الوحدة ١٠١" بقيادة آريل شارون الذى كان برتبة رائد حينها، تميزت هذه الوحدة بالقسوة الشديدة، وأكد هذا، العملية التى قام بها الجيش الإسرائيلى فى أكتوبر عام ١٩٥٣ أثر مقتل أسرة إسرئيلية فى أحد الكيبوتزات الحدودية على أيدى الفدائيين الفلسطينيين، فى لقاء اللجنة المشتركة أدان الأردنيون العملية الإسرائيلية ووعدوا بالقبض على المتهمين، لكن هذا لم يوقف العملية الواسعة "للوحدة ١٠١" فى قرية قيبيا العربية، حيث قتلت العشرات من السكان الأبرياء وفجرت المنازل، أدان

حينها مجلس الأمن الدولى الأعمال الإسرائيلية، وفى محاولة من بن جوريون لإبعاد الانتقاد عن الجيش الإسرائيلى أصدر تصريحا قال فيه إن المسئولية عن هذا العمل يتحملها "ملاك الأرض الغاضبون".

حدث هذا فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الحدود المصرية ـ الإسرائيلية هادئة تماما. فقد كان القادة المصريون الجدد غارقين فى مشاكلهم السياسية والاقتصادية وتدعيم سلطتهم، والقضاء على مقاومة "الإخوان المسلمين"، والقيام بالإصلاح الزراعى، وبالطبع تحقيق جلاء القوات الإنجليزية عن منطقة قناة السويس. ولم يكن النزاع العربى ـ الإسرائيلى على رأس أولوياتهم، لكنه ربما كان موجودا فى خططهم التالية ومن الممكن أن تكون الثالثة. وحقيقة أن القادة المصريون الجدد ـ ضباط الجيش ـ قد قاموا بتقليص ميزانية الجيش أعوام ١٩٥٣ و١٩٥٤ و١٩٥٥ تؤكد هذا، والأموال التى توفرت تم تخصيصها لدعم الزراعات الصغيرة والمتوسطة.

وبالتحديد فى ذلك الوقت تم إقامة قنوات اتصال سرية تهدف إلى التحرك لتوقيع اتفاقيات مع الإسرائيليين، "ناصر لم يغلق أبواب السلام أبدا، فقد ترك الأبواب مفتوحة على مصراعيها" ـ يكتب عن هذا فى مذكراته أحد رفاق القائد المصرى والتى صدرت بعد رحيل ناصر، وهو "الصاغ الأحمر" خالد محى الدين، حيث ذكر التالى "فى البداية قام ناصر بالاتصال بلجنة السلام الإسرائيلية، التى أنشئت فى باريس، وعندما حصل على رد فعل إيجابى من تل أبيب قرر أن يجعل هذا الاتصال دائمًا وعين شخصًا للقيام بذلك هو عبد الرحمن سابق الملحق بالسفارة المصرية فى فرنسا. وكما هو معروف فإن وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانى أنتونى ناتينج بعد زيارة للقاهرة وصل إلى تل أبيب وقال لرئيس الوزراء الإسرائيلى ديفيد بن جوريون إنه أتى له بنبأ جيد : ناصر انشغل بمشكلة رفع مستوى معيشة الشعب المصرى وهو يضع هذه المشكلة على رأس أولوياته، قبل اهتمامه بالحرب مع إسرائيل. بن جوريون نظر إلى ناتينج وسأله مستنكرا : "أنت تعتقد أن هذا خبر جيد؟".

بعد هذا السؤال أثار اهتمام بن جوريون التوجه الجديد للقيادة المصرية الذى من الممكن أن يجعل الولايات المتحدة تنجذب أكثر "للضباط الأحرار" والتى بدون ذلك أعربت عن رغبتها فى دعم القيادة المصرية بالفعل.

الاتصالات التى أقامتها مصر مع إسرائيل تعثرت. فقد طلب بن جوريون لقاء قمة، لكن ناصر تنصل من هذا، بالإضافة إلى حدوث تسريبات كثيرة عن الاتصالات التى كانت سرية، فأضرت بها.

الاتصالات السرية لناصر مع موشى شاريت

جرى حديث ناتينج مع بن جوريون قبل أن يصبح موشى شاريت رئيسا للوزراء فى إسرائيل فى البداية بن جوريون أخذ إجازة لمدة خمسة أشهر، وقال لزملائه "إن هذا ضرورى بالنسبة له، لإعادة شحن البطارية"، (وبعد ذلك فى ديسمبر ١٩٥٣ تقدم باستقالته - المؤلف). شاريت كان مختلفا عن سلفه. فهو لم يكن يتمتع بتأييد كبير فى إسرائيل كما كان بن جوريون، ولم يكن صقرا مثله. شاريت كان يراهن على إمكانية "تعايش" إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط، كما أنه كان يتحدث العربية، وذاع صيته كخبير بالثقافة العربية. كانوا غالبا يعتبرونه فى العالم العربى السياسى الإسرائيلى الأكثر واقعية من الناحية الفكرية، وفقا لأحاديث ناصر فى جلساته أنه شخصيا كان يفضل التعامل مع شاريت.

وبدأت المراسلات بين ناصر وشاريت، كانت الرسائل جافة ولكنها مهذبة، الرسائل كانت بدون توقيع، لكن كل متلق للرسائل كان يعرف من صاحب الرسالة، شاريت كان يريد أن يرفع ناصر الحظر عن مرور السفن الإسرائيلية عبر قناة السويس وخليج العقبة، بينما ركز ناصر بشكل خاص على مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. ولم يستبعد الوصول إلى حل وسط حول عدد اللاجئين الذين يمكن أن يعودوا.

الدليل على جدية تبادل المراسلات تؤكده ثلاثة شواهد. أولاً: كانت هذه الاتصالات مرتبطة بالولايات المتحدة التى كان من مصلحتها كما قلت من قبل أن تضع القيادة

المصرية الجديدة تحت سيطرتها. فقد كانت تشارك فى تنظيم هذه الاتصالات وزارة الخارجية والمخابرات الأمريكية، واللقاء المباشر بين المصريين والإسرائيليين بعد وصول شاريت للسلطة جرى فى واشنطن. مثل الجانب الإسرائيلى فى هذا اللقاء حاييم هيرتزوج، الذى أصبح فيما بعد رئيسا لإسرائيل والدبلوماسى جدعون روفائيل، بينما مثل الجانب المصرى العقيد عبد الحميد غالب. ثانيا: خلال فترة المحادثات لم تكن هناك حوادث تذكر على الحدود، فقد أوقف ناصر نشاط الفدائيين، كما أن شاريت لم يقم بأى أعمال معادية لمصر ردا على أى أعمال فدائية. ثالثا : ساءت العلاقة بين ناصر ومفتى القدس ورئيس اللجنة العربية العليا محمد أحمد الحسينى الذى كان حينها يميل إلى استخدام الشدة البالغة فى العلاقات مع إسرائيل، ولم يخف رأيه السلبى فيما يتعلق بالاتصالات التى سمع عنها بين القاهرة وتل أبيب. وكان هناك اعتقاد بأن المفتى فى ذلك الوقت بدأ ينسق مع "الإخوان المسلمين" لكى يؤسس لمعارضة قوية ضد ناصر فى مصر.

تبنى عدد كبير من الوسطاء محاولات تنظيم لقاء شخصى بين ناصر وشاريت. ومن هذه المحاولات تلك التى قام بها سفير الهند فى القاهرة المتخصص فى التاريخ ك. إم بانيكار، المعروف بقربه من جواهر لال نهرو. فقد أجرى بانيكار محادثات للإعداد لمثل تلك اللقاءات فى ربيع عام ١٩٥٥ قبل الغارة الإسرائيلية على غزة، ثم قام د. مينتوف الذى أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء مالطا بمحاولة الوساطة بين ناصر وشاريت، لكنه لم يوفق فى ذلك. ثم تلاها حملة وساطة أخرى ارتبطت باسم إير خيرشمان مبعوث روزفلت الذى قاد المفاوضات فى أثناء الحرب العالمية الثانية لدفع فدية عن آلاف اليهود المعتقلين فى معسكرات النازى. استقبل ناصر هذا الشخص الذى كان مرتبطا بالدوائر الصهيونية والذى من الصعب أن نشكك فى عدم تعاطفه مع "الضباط الأحرار"، وكتب بعد اللقاء إن القائد الجديد للنظام المصرى ترك لديه انطباعًا بنّاء بدرجة كبيرة. غادر خيرشمان إلى تل أبيب، حيث حضر بن جوريون لقاءه بشاريت. وفى إجابته على اقتراح خيرشمان بالتواصل بين ناصر وقادة أسرائيل، تدخل بن جوريون فى الحديث فى أثناء الجلسة وقال "إنه لم يبق أمام ناصر الكثير ليستمر جالسا على ظهر الجواد".

في هذا الوقت لم يعد أحد لدية شك في أن الذي يقود الأوركسترا في إسرائيل هو بن جوريون. قبل خروجه من الحكومة استطاع بن جوريون أن يعين لافون وزيرا للدفاع وموشي ديان رئيسا للأركان، حيث كان من خلالهما يقود البلاد وهو جالس في كيبوتز زدي - بوكير الخاص به والواقع في صحراء النقب. في ذلك الوقت كانوا في إسرائيل يتحدثون عن أن شاريت كان يرتعش كل صباح وهو يفتح الصحف خوفا من تصرفات غير متوقعة "تفانين ليلية" لديان ولافون. من الممكن أنهم كانوا يبالغون في تصورهم بإمكانية عزل شاريت عن أي أعمال معادية للعرب يدبرونها، لكن الكثيرين من الباحثين يكتبون أن هذين القائدين العسكريين، وهما للعلم كانا يكرهان بعضهما بعضًا جدا، كانا معا يحددان برنامج الأعمال المعادية للعرب، لدرجة أنهما كانا يمتنعان عن إمداد رئيس الوزراء بأي معلومات عسكرية استراتيجية مهمة!

ولم يكن هذا القلق هباءً. ففي ١٥ مايو أشارت صحيفة "التايمز" إلى استعدادات إسرائيلية للهجوم على مصر. وفي ٧ يونيو نشر نفس المعلومات سولتسبيرجير في صحيفة "نيويورك تايمز". وفي ١٢ يونيو أعلنت الولايات المتحدة عن أنها سوف توقف المساعدات العسكرية للدولة التي ستخرق اتفاقية الهدنة التي عقدت بعد الحرب العربية - الإسرائيلية في الشرق الأوسط. من الممكن أن تكون التصريحات الأمريكية قد هدأت بعض الشيء من شغف الصقور الإسرائيليين لإشعال حرب.

ضربة مضادة : عملية خاصة باسم كودي سوزانّا

في هذه الفترة وبالتحديد في ٣٠ يونيو ١٩٥٤ بدأت عملية المخابرات الإسرائيلية في مصر تحت اسم كودي "سوزانّا" والتي عرفت بعد فشلها بفضيحة "قضية لافون". وهذه ربما كانت تعتبر أكبر فضيحة سياسية في تاريخ إسرائيل، فقد تم تكليف شبكة تجسس إسرائيلية تكونت في مصر بواسطة رجل المخابرات الإسرائيلية أبراهام دار الذي كان يقيم في مصر تحت اسم مستعار جون دارلينج، وكان ممثلاً لشركة إلكترونيات إنجليزية، بتفجير قنابل في مؤسسات أمريكية وإنجليزية موجودة في

القاهرة والإسكندرية، هدف العمليات كان ينحصر فى إحداث توتر فى العلاقات بين مصر من ناحية والولايات المتحدة وبريطانيا من جهة أخرى، وكانت ستقوم بالعملية "الوحدة ١٣١" المتخصصة فى أعمال "التخريب" والتابعة للمخابرات العسكرية فى إسرائيل أمان.

هذا التوتر كما كان يراهن منفذو تلك العمليات، من الممكن أن يستخدمه "لوبى السويس" فى البرلمان الإنجليزى لكى يفشل من جانب واحد توقيع اتفاق الجلاء المزمع عن القاعدة الإنجليزية فى مصر من ناحية، ومن ناحية أخرى مساعدة الدوائر الموالية لإسرائيل فى الولايات المتحدة، الذين كانوا يخوضون حربا ضد نزعة واشنطن مغازلة النظام المصرى الجديد، تم تنفيذ تفجيرات فى المراكز الإعلامية الأمريكية فى القاهرة والإسكندرية. وعند محاولة تفجير قنبلة فى دار سينما بالقاهرة فى ديسمبر عام ١٩٥٤ قبض على ثلاثة عملاء إسرائيليين، وبناء على اعترافاتهم ألقى القبض على أعضاء آخرين فى شبكة التجسس. وبدأت المحاكمة حيث استطاعت النيابة إثبات أن هذا الاستفزاز كان موجها ومنفذا من تل أبيب. حكم على اثنين من العملاء بالإعدام، أحدهما انتحر فى زنزانته، والباقون تم تبادلهم بعد حرب الأيام الستة بجنود مصريين كانوا أسرى لدى إسرائيل.

فى إسرائيل أعلنوا أن كل المحاكمات مجرد "تمثيلية" لكن هذا لم يمنع أن يكون نتيجة هذا الفشل وفضيحة عمليات المخابرات الإسرائيلية، تقديم وزير الدفاع لافون استقالته. فقد جعلوا منه كبش فداء واتهموه باتخاذ قرار تنظيم العمليات ضد الأمريكيين فى القاهرة بمفرده، نفى حينها لافون هذه الاتهامات لكنه لم يكن لديه إمكانية إثبات أن توقيعه على المستندات قد تم تزويره، واستقال تاركا منصب وزير الدفاع لبن جوريون الذى كانت عودته لهذا المنصب المهم فى الحكومة هى التى حسمت عودة بن جوريون لمنصب رئيس الوزراء، فى البداية واقعيا ثم بعد ذلك رسميا[٦].

كانت "قضية لافون" محط نقاش على كل المحاور ولعدة سنوات فى إسرائيل، طرحت أسئلة كثيرة، من الذى أعطى الأوامر؟ من يتحمل مسئولية العملية؟ هل يكذب رئيس المخابرات العسكرية عندما أكد أنه تلقى أوامر من وزير الدفاع فى أثناء حديث دار بينهما فى منتصف يوليو عندما كانا مجتمعين على انفراد دون شهود؟ هل يكذب وزير الدفاع عندما أكد أن هذا الحديث لم يحدث من أصله؟ هل تم تزوير التوقيع على المستندات الخاصة بالعملية بتاريخ قديم؟ هل شارك موشى ديان فى عملية التزوير شخصيا، عندما استدعى أحد الشهود الرئيسيين فى القضية قبل التحقيق معه وأجرى معه مقابلة سرية؟ إلخ وماشابه ذلك. لكن الذى لا شك فيه أنه جرى تشتيت الاهتمام عن الغرض الاستفزازى من هذه العمليات فى أثناء المناقشات.

تحديد الاختيار الذى وقعت عليه القيادة الإسرائيلية، أكدته الأحداث التى لم تترك فرصة للانتظار. فبعد عودته للحكومة بدأ بن جوريون بمساعدة ديان الاستعداد لعملية ضد وحدات الجيش المصرى فى قطاع غزة الذى وفق اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٩ قد تم وضعه تحت الإدارة المصرية، بعد أسبوع بالضبط من عودة بن جوريون من الكيوبتز بصحراء النقب، شن حربًا شاملة على قطاع غزة. حيث تم تدمير مركز قيادة الوحدات المصرية وقتل ٣٨ وجرح ٣٠ جنديًا وضابطًا. أدرك شاريت أنه فى حالة لا تمكنه من التأثير الواقعى على مجرى الأحداث فتقدم باستقالته.

بعض الكتاب الذين وصفوا هذه الفترة من تطور النزاع فى الشرق الأوسط أطلقوا عليها - وهم محقون - أن ما حدث هو حرب مفتوحة على ناصر وتوجهاته القومية، وهذا حقيقى وكان هذا مفهوما لناصر نفسه. على أى حال كان من الخطأ تصور أن القيادة المصرية الجديدة متجهة بالتأكيد لتدمير إسرائيل، لدرجة القيام بعملية فى غزة، على العكس فقد اتجهت إلى إزالة التوتر مع تل أبيب، وقيام ناصر بتشديد الحصار لمضايق تيران، وبالتالى خليج العقبة حيث يوجد ميناء إيلات الإسرائيلى، كان بعد أن اقتنع أن خط شاريت لا يحظى بالدعم فى إسرائيل نفسها، وبقاء كل من دعا للسلام مع العرب أمام هؤلاء الداعين للحرب وتوسيع أراضى إسرائيل على حساب جيرانها من الدول العربية، كأقلية. فى نفس الوقت لم يكن ناصر

يرغب فى الذهاب لتوقيع اتفاقية منفصلة مع إسرائيل، خاصة فى ظروف بعد أن أصبح قائدا لكل العرب، لكنه كان يسعى لطريق يؤدى إلى تسوية شاملة.

يجب ألا نغفل أن عزلة شاريت والدعم الواسع للصقور فى إسرائيل، بن جوريون وموشى ديان ولافون وآخرين كان محسوماً سلفا على خلفية التهديدات بتدمير دولة إسرائيل، وقد تحدث عن هذا بصوت عال القائد السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيرى. فى الستينيات ودون تفكير كما اتضح فيما بعد، وسبب بذلك عرفات والمحيطون به الضرر لأنفسهم باستخدم هذا الشعار فيما بعد. إلا أنه عام ١٩٧٧ وفى أثناء اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى فى القاهرة، تم اتخاذ قرار رسمى عن أهداف النضال ـ وهو إنشاء دولة فلسطينية ليس مكان إسرائيل ولكن إلى جوارها فى الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة. وعرفت من مقابلاتى مع عرفات، أن هذه الفكرة كانت حاضرة قبل ستة أعوام من اتخاذ القرار. لكن سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

لقد تكبد العرب الكثير من الخسائر بسبب الشعارات المتطرفة، ولكنى بكل ثقة أستطيع التاكيد على أن قادة دول "المواجهة" من الدول العربية لم يضعوا نصب أعينهم هدف إزالة إسرائيل من الوجود، حتى فى أثناء حرب ١٩٧٣ التى بدأتها مصر وسوريا. لقد استطعت التوصل لهذا الاستنتاج من خلال جلسات مفتوحة مع أنور السادات وحافظ الأسد والملك حسين.

الفصل الثالث

حتمية المواجهة مع الغرب

تجاه الشرق الأوسط كانت توجد خلافات بين فرنسا وبريطانيا من ناحية والولايات المتحدة. لم تكن خصومة أو تناقضاً، لكن بالتحديد خلافات، فقد بدأت الدول الاستعمارية فى ذلك الوقت بالفعل تفهم أنها لا بالطرق القديمة ولا بمواجهة التوسع الأمريكى يستطيعون استعادة مواقعهم. توصلت باريس إلى هذه النتيجة، متأخرة بعض الشىء عن لندن، واستمرت فى محاولاتها الحفاظ على سيادتها على شمال إفريقيا بالقوة.

لكن رغم الخلاف، فإن الخط السياسى العام للولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بالعالم العربى، تبلور على أساس السعى إلى جذب الدول العربية إلى أحلاف عسكرية يقودها الغرب، هذه المساعى كان التوجس يزيدها اشتعالاً من أن ينضم عدد من الدول العربية المستقلة حديثا إلى المعسكر السوفييتى. الحرب الباردة تصل لذروتها......

الأحلاف العسكرية باعتبارها عاملاً مؤثرا

أرادت واشنطن بعناد جذب مصر إلى حلف عسكرى، عن طريق المماطلة فى مسألة عقد صفقة بيع أسلحة. لم توفق الولايات المتحدة فى "الحلف الإسلامى"، حينها

طرحت مبادرة لتكوين حلف ثنائي تركى ـ باكستانى، على أساس أن يتم توسيعه مستقبلاً ليكون "محور" حلف عسكرى واسع مع إلزام دول عربية بالاشتراك فيه، لكن مصر الناصرية بقيت بعيدة، ولم يجتذبها للحلف العسكرى رفض الولايات المتحدة من البداية فى أن تنضم إسرائيل إليه.

فى ٢٤ فبراير استطاعت واشنطن ولندن تكوين تحالف عسكرى تركى ـ عراقى، سمى بحلف بغداد، انضم إليه بشكل رسمى كل من بريطانيا ثم باكستان وإيران، بينما بقيت الولايات المتحدة خارج الحلف، وقفت مصر ضد حلف بغداد، كان السبب الرئيسى لعلاقة مصر السلبية بحلف بغداد عدم توفيقها فى شراء أسلحة أمريكية حديثة، فالقاهرة لم تكن غافلة عن المساعدات العسكرية الأمريكية التى حصل عليها العراق، الذى كان يحكمه فى ذلك الوقت الملك فيصل ورئيس الوزراء نورى السعيد الموالين للإنجليز، اللذان لم يكونا ولم يصبحا مثالاً لمصر الناصرية، السبب المباشر لمعارضة مصر لحلف بغداد، أنه بمساعدة هذا الحلف كانوا يحاولون عزل مصر عن بقية الدول العربية الأخرى.

بعد إسقاط نظام الشيشكلى الموالى للأمريكان فى سوريا، وتشكيل حكومة بقيادة صبرى عسلى زعيم الحزب القومى، أصبح شغل واشنطن الشاغل هو عدم السماح بتكوين تكتل مصرى ـ سوري يخلق نوعًا من التوازن مع حلف بغداد، وفى ٢٦ فبراير ١٩٥٥ قام السفير الأمريكى فى دمشق بتسليم الحكومة السورية مذكرة، تقترح على سوريا أن ترفض التوقيع على اتفاق حلف دفاعى مع مصر. وعندما رفضت سوريا هذه النصيحة، بدأت حملة ضغط على هذا البلد، انعكست فى شكل تدهور حاد للعلاقات بين سوريا وتركيا والعراق، واعتداءات إسرائيلية، انتهت فى النهاية بقتل مساعد رئيس الأركان الوطنى للجيش السورى السيد عدنان المالكى. فى تلك الفترة كانت واشنطن تفضل أن تعمل من خلال آخرين وليس بشكل مباشر.

حدث هذا أيضا عندما عندما اقترح أنتونى إيدن قبيل تعيينه رئيسا لوزراء بريطانيا على ناصر صفقة لإغرائه، عندما أرسل إليه رسالة سرية يقول فيها، إنه فى مقابل وقف حملة ناصر الدعائية ضد حلف بغداد فإنه لن يقبل أى دولة عربية أخرى

فى الحلف، باستثناء الدولة التى انضمت بالفعل للحلف وهى العراق. هذه الرسالة تشهد على مدى قوة حملة الدعاية المعادية للحلف، خاصة عندما بدأت البث محطة إذاعة "صوت العرب" التى كانت مسموعة فى كل العالم العربى. وفى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٥ تم توقيع الحلف الدفاعى المصرى ـ السورى.

على ما يبدو لم تكن الولايات المتحدة تتوقع أن تنضم العربية السعودية للحلف، فكما هو معروف كانت الأسرة الحاكمة فى السعودية على عداء تقليدى مع الأسرة الهاشمية الحاكمة فى العراق. وربما كانت من الأهمية بمكان فى ذلك الوقت الأخذ فى الاعتبار حقيقة أن العلاقة بين العربية السعودية وليس فقط العراق، بل مع التابع للإنجليز سلطان مسقط الذى أعلن عن حقوق له فى واحة بورايمى، وكانت إنجلترا تدعم السلطان علنا فى هذا المطلب.

العملية لم تقتصر على إنشاء حلف دفاعى ثلاثى. ففى منتصف الخمسينيات أصبح من الواضح أن مصر تقف ليس فقط فى مواجهة مع بريطانيا ولكن مع فرنسا أيضا. وفى خطابه فى أبريل عام ١٩٥٥ فى مؤتمر باندونج وفى وجود ٢٩ دولة أفروآسيوية من تلك التى لعبت دورا فى تكوين عقيدته المعادية للاستعمار قال ناصر: "لماذا يجب علينا أن نعتبر دول شمال إفريقيا التى كانت على مدى قرون دولاً مستقلة، والتى كانت مراكز للعلوم والحضارة القديمة، شيئا طبيعيا أن تعيش فى مستوى تخلف المناطق النائية، وتكون محرومة من الحرية والاستقلال؟".

وبدأ دعم مصر للثوار الجزائريين بعد ذلك. وتجلى فى ذلك الوقت فى تغيير العلاقة بقادة جبهة التحرير الذين كانوا يقيمون فى القاهرة، فى السابق كانوا "تحت مظلة" المخابرات المصرية، ولم يكن مسموحا لهم القيام بأى أعمال معادية لفرنسا من الأراضى المصرية، الآن تغير الوضع، فقد تم دعم الثوار سرا بالأموال، وقدمت مصر دعمًا إعلاميًا لجبهة التحرير فى الجزائر، من خلال إذاعة "صوت العرب".

لكن ورغم ذلك ، استمر ناصر والمحيطون به فى بناء سياستهم على أساس أن مواقف واشنطن تجاه الدول العربية تختلف جذريا عن مواقف بريطانيا وفرنسا.

أساس علاقاتنا هو من يعطينا سلاح ومن يساعدنا فى بناء السد

كان الأهم بالنسبة لناصر فى هذه المرحلة حل مشكلتين : شراء السلاح والحصول على مساعدة لبناء سد أسوان العالى. كلتا المشكلتين كانت بالنسبة للقاهرة قضية حياة أو موت. المشكلة الأولى، نشأت غالبا بسبب المواجهة النشطة التى بدأت مع إسرائيل. وفيما يتعلق ببناء سد أسوان فإن "الضباط الأحرار" ربطوا ببنائه ليس حل المشاكل الاقتصادية فحسب ـ رغم أهميتها القصوى ـ ولكن للسيطرة على فيضان النيل المدمر، وزيادة الرقعة الزراعية بمقدار الثلث. كما كان سد أسوان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بتدعيم السلطة الجديدة التى لم تكن فى هذه الفترة مستقرة تماما. الرد الأمريكى فيما يتعلق بحل هاتين المشكلتين بالغتى الأهمية لحياة مصر ـ شراء السلاح وبناء سد أسوان ـ قالت الولايات المتحدة "لا" بعد أن أعطت الأمل فى فى أنها ستوافق.

فهم ناصر والمحيطون به فى نهاية الأمر، أن المباحثات الطويلة وصلت لطريق مسدود، لأنه بدا واضحا أن الولايات المتحدة تتعمد إطالة أمد اتخاذ قرار توريد السلاح، واشنطن سعت لترويض مصر بهدف الإبقاء عليها ضعيفة. وفقط بعد أن أوصد الغرب أمام مصر كل الأبواب ـ أريد التأكيد على هذا ـ توجهت مصر إلى الاتحاد السوفييتى فى البداية بطلب شراء سلاح، ثم بعد ذلك بطلب التعاون فى بناء سد أسوان. من الممكن أن يعارضنى من يشاء، لكن فى شهر مايو من عام ١٩٥٥ فقط وبعد عودته من مؤتمر باندونج أعطى ناصر أوامره بالبدء فى الاتصال بالملحقية العسكرية السوفييتية فى القاهرة حول موضوع السلاح ـ وهو هنا ربما كان يريد أن يختبر مدى كفاءة النصائح التى أعطاها له رئيس وزراء جمهورية الصين الشعبية شوين لاى فى أثناء مؤتمر باندونج. لكن القيادة المصرية كانت رغبتها فى الحصول على السلاح من الولايات المتحدة مازالت قائمة، ولم تكن خيبة الأمل قد وصلت لنهايتها بعد فى السياسة الأمريكية، وربما ليس من قبيل المصادفة، أن ناصر قرر أن يبلغ السفير الأمريكى فى القاهرة هنرى بايرود بالاتصالات مع السفارة السوفييتية، وربما

لم يكن دون سبب أن أبلغ السفير الأمريكي رئيس المخابرات الأمريكية كوبلاند أن ناصر يخدعهم. كان ناصر مازال يأمل بينما استمرت واشنطن في حالة الانتظار.

بعد استقالته من منصب ملحق عسكري في السفارة السوفييتية في القاهرة عمل ليونيد دميترييفتش نيمتشينكو في معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية، وذلك عندما كنت أشغل منصب النائب الأول لمدير هذا المعهد (مديرا أصبحت فيما بعد ـ المؤلف)، التقيت به كثيرا وبالطبع تحدثنا عن تلك الفترة، حيث كان الشخصية الأهم في المباحثات الخاصة بشراء مصر لأسلحة سوفييتية عن طريق تشيكوسلوفاكيا.

لم يكن لدى نيمتشينكو أدنى شك في أن الاتصال به لاختبار إمكانية عقد الصفقة كان مجرد وسيلة للضغط على الأمريكيين، لكن الأمر في نفس الوقت كان غاية في الأهمية، وموسكو قررت أن توافق مهما كان الأمر، خاصة بعد لقاء ناصر في القاهرة مع رئيس تحرير صحيفة "البرافدا" شيبيلوف. ربما كان لدى موسكو في ذلك الوقت شكوك أكثر من القاهرة في استعداد الولايات المتحدة لتلبية الطلبات المصرية، فالأمر مرتبط بالتزامات كثيرة للولايات المتحدة تجاه حلفائها في دول غرب أوروبا وإسرائيل، لكي تقدم لهذا "غير المفهوم" بالنسبة لها، ناصر، أسلحة حديثة. كان هذا تصور موسكو للمسألة، وهو ما حدث بالفعل.

أعلن ناصر في سبتمبر عام ١٩٥٥ على مسمع من الجميع، ليس فقط عن اتصالات، بل عن اتفاق مع الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا على توريد أسلحة للجيش المصري. وهو ببساطة لم يستطع الانتظار لأن إسرائيل أعلنت عن أنها ستسعى لفتح خليج العقبة أمام الملاحة بالقوة. لإثناء ناصر عن الاتفاق مع الاتحاد السوفييتي، وصل إلى القاهرة روبرت أندرسون الصديق الشخصي للرئيس أيزنهاور، وفي محاولة لإعطاء صورة أكثر إقناعا لمهمته، وربما الرغبة، في واقع الأمر، في التخفيف من توتر إسرائيل، قام بمهمة "مكوكية". وبعودته من إسرائيل إلى مصر كانت ترافقه "تدابير نشطة" للمخابرات الأمريكية، التي أبلغت من خلال "كيم" روزفلت

ما هو غير موثق بأوراق، بل مجرد اقتراح شفهى لناصر بعقد صفقة سرية لشراء أسلحة أمريكية، لكن هذه الخدعة لم تنطل على ناصر.

بعد انهيار المباحثات الخاصة بشراء أسلحة أمريكية، حدثت أزمة جديدة فى علاقات مصر بالغرب، وكانت مؤلمة للغاية "للضباط الأحرار". انهارت مباحثات تقديم الغرب لقروض لبناء سد أسوان المهم جدا لحياة مصر. الرفض كان نتيجة العديد من المطالب التى طرحها الغرب وكانت تعنى وفق كلام ناصر وضع أموال وميزانية واقتصاد مصر تحت السيطرة الغربية الفعلية، وهو ما أدى إلى إلغاء العرض المقدم من أمريكا والحكومة الإنجليزية والبنك الدولى للإنشاء والتعمير على تقديم قروض ٥٥ و١٥ و٢٠٠ مليون دولار أمريكى على الترتيب لبناء السد على النيل.

تبين أن رفض تمويل إنشاء سد أسوان لم يكن متوقعا للقيادة المصرية، التى كانت مخدوعة لدرجة كبيرة فى الوعود الوردية الأمريكية التى كانت تهدف بالدرجة الأولى لإفشال صفقة شراء الأسلحة من الاتحاد السوفييتى، لدرجة أن واشنطن أعلنت فى ديسمبر عام ١٩٥٥ عن أنها مع إنجلترا على استعداد لتمويل ليس فقط بداية البناء فى أسوان بل كل مراحل البناء التالية، كما ألهم الضباط الشباب اعتراف الرئيس الأمريكى أيزنهاور فى تقريره عن النصف الثانى من عام ١٩٥٥ أمام الكونجرس الأمريكى أن بناء سد أسوان يعتبر "مفتاحًا يعطى مصر كفاءة لأن تؤمن فى المستقبل احتياجات النمو السكانى"، كل هذه التصريحات ظهرت بعد إعلان القاهرة عن شراء أسلحة سوفييتية، وكل هذا أعطى الأمل. وفجأة، رفض قاطع.

يجب القول، إن مصر فى البداية قررت أن تطرق الباب الذى أغلق فى وجهها. فكما كانت الولايات المتحدة هى التى أعلنت أولاً على لسان دالاس فى يوليو ١٩٥٦ عن رفضها تمويل بناء سد أسوان. ثم من بعدها بيوم تبعتها إنجلترا، وربما لم يكن ناصر يدرك للنهاية أن البنك الدولى تسيطر عليه الولايات المتحدة، وأن رفضها بالتحديد كان قد حسم قرار البنك بالفعل، توجه لرئيس البنك بطلب أن يقوم البنك بعملية التمويل

بنفسه، حيث إن حصة البنك فى التمويل كانت تفوق الحصة التى اقترحتها الولايات المتحدة وإنجلترا بعدة مرات، لكن طلب ناصر رفض.

ما الذى جعل السياسة الأمريكية تتصاعد ضد مصر؟ هل هو قرار شراء أسلحة من الاتحاد السوفييتى؟ ليس تماما. فكما هو معروف قدم عملاء المخابرات الأمريكية فى القاهرة تقارير عن لقاءاتهم إلى قاداتهم بأنه لا يجوز اعتبار مسألة شراء أسلحة من الاتحاد السوفييتى على أنه "إجراء معاد للولايات المتحدة". هل هو اعتراف مصر بجمهورية الصين الشعبية فى مايو ١٩٥٦؟ من الواضح أيضا أنه ليس كذلك تماما. ليس من المستبعد أن المصريين استطاعوا شرح قرارهم هذا من خلال قناة اتصال "كيم روزفلت"، بأن هذا ليس موجها ضد الولايات المتحدة، وكان لدى القاهرة دليل فى صالح هذا الشرح : مصر أرادت أن يكون لديها احتياطى ومصدر آخر للحصول على السلاح، مخافة أن يقوم الاتحاد السوفييتى الذى بدأ يتحسس توتر التربة فى المنطقة بالاتفاق مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بحظر لتوريد السلاح للشرق الأوسط[٧] ولم تؤثر كذلك بدرجة كبيرة المباحثات التى أجراها وزير خارجية الاتحاد السوفييتى دى.تى. شيبيلوف الذى زار القاهرة، فى الوقت الذى جرت فيه مقابلات ومباحثات مع ممثلى عدد كبير من الدول الغربية.

حقيقة الأمر أن السياسة التى انتهجتها القاهرة فى ظروف الحرب الباردة بالتوازن بين "العالم الحر" و"المعسكر الاشتراكى" بهدف الحفاظ على استقلالها لم تكن تروق للولايات المتحدة، كانت واشنطن تنظر لمثل هذه السياسة، على أنها عدم رغبة من ناصر فى السير فى الطريق المقترح عليه من واشنطن، والذى يؤدى فى نهاية الأمر إلى أن يترك نفسه للسيطرة الغربية.

وهكذا نجد أن معاداة الإمبريالية لم يكن لها وجود منذ بداية استيلاء "الضباط الأحرار" على السلطة، بل جاءت بالتدريج المتقطع، ثم تطورت وتدعمت بالتناسب الطردى مع صدامات مصر الناصرية بواقع السياسة البريطانية وبعد ذلك بدأ التوتر يتصاعد، ومن ثم كان العداء للولايات المتحدة.

بداية الصراع المفتوح

بعد خمسة أيام من رفض الولايات المتحدة تقديم قرض بناء سد أسوان، أعلن ناصر فى خطاب له فى أثناء الاحتفال ببناء خط أنابيب للغاز من السويس للقاهرة "السد العالى سيينى"، وأضاف مدفوعا بالحماس الجارف الداعم له من الجماهير فى المؤتمر "لندع الغرب يموت بغيظه"، كان هذا بمثابة تحد لكل الغرب، لكنه حتى الآن مجرد كلام فقط.

فى يوم ٢٦ يوليو وفى مؤتمر جماهيرى حاشد بمناسبة الذكرى الرابعة لإسقاط الملك فاروق ألقى ناصر خطابا تم بثه لكل العالم العربى، خطاب رئيس مصر كان له رمزية ـ ففى ميدان محمد على بالإسكندرية (ميدان المنشية ـ المترجم) وفى نفس المكان الذى تعرض فيه لمحاولة اغتيال من "الإخوان المسلمين". خلال الخطاب نطق عدة مرات بكلمة كودية، حيث كانت هناك مجموعة مستعدة قامت بالسيطرة على مكاتب هيئة قناة السويس فى بورسعيد والسويس والإسماعيلية. وقال ناصر : "فى هذه اللحظة التى أتحدث فيها إليكم، شركة قناة السويس باسم الشعب المصرى تكون قد أممت"، تأميم القناة كان على وجه السرعة مرفوضا من بريطانيا وفرنسا، وفى خلال ٢٤ ساعة بعد إعلان التأميم حصل رئيس الوزراء البريطانى على موافقة مجلس الوزراء على استخدام القوة ضد ناصر. رئيس الولايات المتحدة آنذاك أيزنهاور كان يعتقد أن مثل هذه الأعمال من شأنها أن تهدد استقرار الوضع فى الشرق الأوسط كله، وفى ٣١ يوليو طالب إيدن فى حديث تليفونى "بضبط النفس". أما فرنسا التى كان موقفها مشابهًا للموقف الإنجليزى لكنها فضلت عدم الإعلان عن ذلك وبدأت فى إجراء مباحثات مع القيادة الإسرائيلية.

من الناحية القانونية، يعتبر تأميم مصر لشركة القناة قانونيا لا تشوبه شائبة، لذلك لم يتبع إيدن نصيحة أيزنهاور بعرض القضية على المحكمة الدولية، وأعلن أن الحديث يدور عن "عدم قدرة مصر على إدارة هذه القناة الأهم للعالم كله بنفسها" وفى البداية بدأت حرب دعائية. وكان كل خطاب يلقيه ناصر من خلال إذاعة "صوت العرب"

تستمع إليه الملايين فى كل الدول العربية بانتباه وتنتظره بفارغ الصبر. كما أنه لم يحدث أن وقفت أى محطة إذاعية ضد القائد المصرى حتى تلك التى كانت حكوماتها وثيقة الصلة بالإنجليز، الاستثناء الوحيد كانت محطة إذاعة أنشأها "الإخوان المسلمون" (المحطة أنشأها الإخوانى أبو الفتح - المترجم) فى قبرص بمساعدة الإنجليز، وكانت تتهم الرئيس المصرى بأنه "يجر البلاد إلى الهاوية". وكما روى لى أحد زملاء ناصر المقربين أنه كان يخشى من أن الإنجليز باستخدامهم محطة الإذاعة هذه يعدون العدة لمؤامرة ضده فى مصر، إلا أن الأحداث تطورت بسيناريو مختلف.

كانت القناة تعمل بشكل اعتيادى، حتى فى تلك الظروف عندما قام الملاك القدامى بفسخ العقود واستدعاء المرشدين الذين ينتمون لدول أوروبية مختلفة (حل محلهم مرشدون يونانيون وألمان شرقيون وروس - المؤلف)، وبدت الأمور وكأن كل شىء يمكن حله بالطرق السلمية. القيادة الأمريكية أبلغت ناصر بموقفها والذى كان يشير إلى أن الولايات المتحدة لا تعتزم إدانة الاستعدادات العسكرية التى يقوم بها حلفاؤها بشكل علنى، ولكنها ستفعل هذا من خلال قنوات سرية. ووقع مجلس الأمن الدولى فى مأزق، فقد اعترض الاتحاد السوفييتى على القرار الذى تقدمت به فرنسا وإنجلترا والذى كان يحتوى على موقف واضح معاد لمصر. كما استخدمت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو على قرار يقترح حلاً سلمياً مع احتفاظ مصر بحق إدارة قناة السويس.

إلا أن الاستعدادات للهجوم على مصر كانت قد وصلت لمرحلة التنفيذ العملى. وفى ١٤ و١٦ أكتوبر جرى تبادل الزيارات بين المبعوثين الفرنسيين للندن وزيارة أيدن ووزير خارجيته س.للويد لباريس. أما إسرائيل التى بقيت حتى ذلك الوقت فى الظل وكانت فقط على اتصال بالفرنسيين، خرجت إلى مسرح الأحداث على اعتبارها "عود الثقاب" الأساسى لإشعال الهجوم المسلح على مصر، وقد حصل بن جوريون على ضمان من الإنجليز بأنهم سيقومون بتدمير القوات الجوية المصرية على الأرض وطالب بإجلاء مراقبى الأمم المتحدة الموجودين فى العوجة عن أماكن تمركزهم الأساسية.

وتم تحديد يوم ٢٩ أكتوبر لبدء الهجوم على مصر. كان من الواضح أن تحديد التاريخ أخذ في الاعتبار شيئين: الولايات المتحدة في تلك الأيام كانت مشغولة بالانتخابات الرئاسية والاتحاد السوفييتي كان متورطا في أحداث المجر، حيث حدثت انتفاضة ضد النظام الشيوعي هناك. في ذلك اليوم تم إنزال المظليين الإسرائيليين بالقرب من ممر متلا في سيناء. وفي ٣٠ أكتوبر وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا يطلب من مصر وإسرائيل سحب قواتهما مسافة ١٠ أميال من قناة السويس، وكان هذا يعني أن مصر يجب أن تسحب قواتها التي أرسلتها لمواجهة الإسرائيليين في سيناء ٣٠ ميل في عمق أراضيها، وأن يتحرك الإسرائيليون إلى مسافة ٦٠ ميل في اتجاه قناة السويس. قبل الإسرائيليون حسب اتفاق مسبق الإنذار، بينما رفضته مصر، حينها دخلت بريطانيا وفرنسا الحرب، وبدأ الطيران في قصف أهداف مصرية. وفي ٥ نوفمبر أنزل الإنجليز قواتهم المظلية في بورسعيد والفرنسيون في بورفؤاد.

في أثر ذلك طالب رئيس الولايات المتحدة بوقف العمليات وسحب القوات من سيناء، وكان تصريح رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي إ. أ. بولجانين غير مسبوق، حيث هدد بإمطار الدول المعتدية على مصر بالصواريخ إذا لم تنسحب القوات المعتدية من الأراضي المصرية. ولا أعتقد أن هذا التهديد كان يمكن تنفيذه. خاصة وأن ن. س. خروشوف كان قد أبلغ ناصر قبل العدوان الثلاثي بأن الاتحاد السوفييتي لن يشعل حربًا عالمية من أجل السويس، ويبدو أن ناصر تقبل رسالة خروشوف تلك بتفهم كامل.

فيما يتعلق بهذا الموضوع فإنه من المهم هنا الإشارة إلى ما ذكره وزير خارجية الاتحاد السوفييتي أنذاك د. ت. شيبيلوف في مقابلة مع أليكسى فاسيليف زميلى السابق عندما كنت أعمل في صحيفة "برافدا" ومن بعد مديرا لمعهد آسيا وإفريقيا في أكاديمية العلوم الروسية. وفق كلمات شيبيلوف كان عند القيادة السوفييتية "قرار حاسم وهو عدم دفع الأمور إلى النزاع العسكرى. وفكرت في بعض الإجراءات ذات الطابع النفسى ونفذتها، فقد استدعيت سفراء فرنسا وبريطانيا وإسرائيل بعد منتصف الليل.... واستخدام ما عرف عن خروشوف من رعونة في صالح اللقاء وقلت لهم : "اللعنة من يعرف بماذا سيلقى علينا (يقصد خروشوف - المترجم)"[٨]، بالإضافة لهذا

كان الاتحاد السوفييتي قد أعلن أنه "إذا لم يسحب المعتدون قواتهم من الأراضي المصرية، فإن الحكومة السوفييتية لن تعيق سفر المواطنين السوفييت الذين يرغبون في مشاركة الشعب المصري في نضاله من أجل الاستقلال في التطوع للقتال في مصر"[٩]. وهذا لا شك لم يكن ليمر مرور الكرام على المشاركين في الهجوم على مصر.

في نهاية الأمر كانوا مجبرين على الانسحاب من الأراضي المصرية، حدث هذا نتيجة تأثير القوى الخارجية، فيما يتعلق بالجيش المصري فإن ضعفه بدا ظاهرا بشكل خاص على خلفية الإحساس الوطني العالي للمواطنين المصريين ورغبة الكثيرين منهم في الذهاب إلى الجبهة للدفاع عن الوطن.

مصر بدأت تتسلم الأسلحة السوفييتية في بداية عام ١٩٥٦، ولاستيعاب هذه الأسلحة كان الوقت قصيرا جدا، بالإضافة إلى هذا في ذلك الوقت كان من المهم استدعاء الخبراء الذين لديهم القدرة في وقت قصير على مساعدة الجنود والضباط المصريين على استيعاب الأسلحة التي حصلوا عليها، كما أن الخبراء السوفييت تم استدعاؤهم متأخرا جدا. من الصعب أن نلوم القيادة المصرية على هذا، فمن الممكن أن يكون ناصر بعد العدوان الثلاثي، فقط، قد أدرك لأي درجة يجب أن يكون لمصر جيش قادر على القتال. فكل الصدامات المصرية ـ الإسرائيلية التي حدثت بداية من عام ١٩٤٨ كانت في صورة اشتباكات محلية محدودة لا أكثر. لم يفكر ناصر في حرب واسعة في مثل هذه الظروف، فقد تحدث ناصر في أثناء العدوان الثلاثي إلى المحيطين به عن ضرورة تحويل الجيش إلى مجموعات فدائية صغيرة، يمكنها أن تقاتل في عمق مصر في حال احتلال البلاد، وكان ناصر قبيل العدوان قد هاتف كلاً من الرئيس السوري شكري القوتلي وملك الأردن حسين وطلب منهم عدم الاشتراك في الحرب، وذكر في حديثه مع الملك حسين سبب طلبه هذا "…. يجب الحفاظ على الجيش الأردني من التدمير"، وهذا يدل على أن ناصر لم يكن يريد حرباً شاملة مع إسرائيل، خاصة وأنها مدعومة مباشرة من بريطانيا وفرنسا، ومن ناحية أخرى كان تقييمه للقدرات القتالية عن وعي، ليس فقط للجيش المصري ولكن لجيوش الدول العربية الأخرى. إضافة إلى هذا كان من الواضح أنه لا يريد "تحميل القارب أكثر مما يحتمل". وفيما

يخص علاقته بالولايات المتحدة التى استمر يراهن عليها حتى بعد أن حصل على الأسلحة السوفييتية، ففى أثناء العدوان الثلاثى وفق شهادة مقربين منه قال ناصر "الآن واضح للجميع أن أملنا الوحيد هو الولايات المتحدة".

غير أن العدوان على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ كان عظة ودرسًا للقيادة المصرية، مفاده أن الآلة العسكرية الإسرائيلية بدأت تمثل خطرا مباشرا ليس فقط على الفدائيين الفلسطينيين وليس فقط على سوريا والأردن حيث تنطلق الأعمال المعادية للإسرائيليين ولكن على مصر أيضا، وهذا الخطر تعاظم لأن ناصر أصبح له وزن ثقيل فى العالم العربى.

كان نجاح التنمية الداخلية فى مصر، وعدم قدرة الغرب إجبارها على الانضمام للأحلاف العسكرية، أو منعها من الحصول على أسلحة من الاتحاد السوفييتى، وتركيعها الذى كان مرتبطا بحاجتها الماسة لبناء سد أسوان العالى، وأخيرا، الدعم الواسع الذى حظيت به من المجتمع الدولى والدول ذات السيادة عندما تعرضت للعدوان الثلاثى ـ كل هذا وبصورة تلقائية أدى إلى تكاتف وتلاحم العرب. وقفت الجماهير العربية بجانب مصر فى أصعب لحظات العدوان عليها. فقد فجر العمال السوريون ثلاث محطات ضخ فى خط أنابيب النفط الخاص بشركة "عراق بتروليوم كومبانى" التى كانت تضخ النفط للبحر المتوسط، والمملكة العربية السعودية تحت ضغط الشعب أعلنت عن حظر تصدير النفط لكل من بريطانيا وفرنسا، وكل الدول العربية أقدمت على مقاطعة دبلوماسية لهاتين الدولتين.

لم تظهر معاداة الإمبريالية من البداية ليس فقط من جانب "الضباط الأحرار" المصريين ولكن أيضا من هؤلاء الذين قاموا بالانقلاب فى العراق عام ١٩٥٨، فقد أكد أعضاء القيادة العراقية الجديدة لممثلى بريطانيا أن علاقتهم بإنجلترا ستبقى مهمة ولها أولوية بالنسبة لهم، وقال الجنرال قاسم للسفير الأمريكى : "....نحن العراقيون نريد علاقات طيبة مع الولايات المتحدة". برهن على هذه التأكيدات أنها جاءت بتوافق مع شركة "العراق بتروليوم كومبانى" وهو ما كان يعتبر رسالة مهمة للغرب.

لكن ردود فعل الولايات المتحدة وبريطانيا تطورت فى اتجاه معاكس على الرغم من هذه التأكيدات، وكان القفل المعلق على أبواب المكان له تأثير، فحيث وقع الانقلاب كان يوجد مقر قيادة حلف بغداد، واشنطن ولندن كانتا تخشيان من "تفاعل تسلسلى" يجتاح العالم العربى بعد إسقاط الملكية فى العراق، كما كان هناك قلق فى الغرب من إمكانية التقارب وربما الاندماج مع مصر الناصرية، فقد تحدث عن هذا الاحتمال الرجل الثانى فى القيادة العراقية عبد السلام عارف بشكل صريح.

فى ١٥ يوليو أنزل الأمريكيون ٢٠ ألفا من مشاة البحرية فى لبنان، وفى نفس الوقت أرسلت بريطانيا ٦ آلاف جندى إنجليزى إلى الأردن، لقد كانت هذه مجموعة عسكرية كبيرة، لم تترك أى شك وهى من حيث العدد والعتاد لم تكن مخصصة للدفاع عن لبنان والأردن من التهديد العراقى المحتمل، وظهرت خطورة تدخل أمريكى - إنجليزى عسكرى فى العراق، مما استدعى التوتر بهذا الخصوص هو موقف تركيا وإيران وباكستان الذين كانوا مستعدين للدفاع عن حلف بغداد المتداعى، ولهذا الغرض كانوا على استعداد لتدمير النظام العراقى الجديد.

لم يحدث التدخل العسكرى فى العراق لأسباب منها موقف الاتحاد السوفييتى الذى اتخذ تدابير عسكرية لتهدئة تركيا وإيران، كما أن الرئيس إيزنهاور لم يكن يرغب فى الهجوم على النظام الجديد فى العراق، مراهنا على استخدام قاسم فيما بعد، فقد قدمت المخابرات الأمريكية تقريرا للرئيس الأمريكى عن توجهات قائد العراق المعادية للناصرية. لكن بمجرد أن خرج قاسم من حلف بغداد بدأ فى شراء أسلحة من الاتحاد السوفييتى وضم فى البداية عدداً من الشيوعيين لحكومته، هنا تغيرت علاقة الولايات المتحدة بنظامه، وأعلن مدير المخابرات الأمريكية أنذاك آلان دلاس على العالم أن العراق "واحدٌ من أكثر الأماكن خطرا فى العالم".

الفصل الرابع

تغلّب مصالح الدول على الوحدة العربية

لم تكن الأهواء العامة لمن وصل للسلطة فى الدول العربية من القوميين الثوريين متشابهة فيما يتعلق بالوحدة العربية الشاملة. ففى الواقع العملى طغت قومية الدولة على القومية العربية بمفهومها العام. هذا لم يكن سمة خاصة بمصر فقط، ولكن بالدول العربية الأخرى من أنظمة البرجوازية الصغيرة، وعلى الرغم من التأكيد على الاستعداد للدفاع عن وحدة العالم العربى، والإعلان عن هذا الهدف، باعتباره هدفًا رئيسيًا، فإن التناقضات بين الدول العربية المختلفة التى تحررت من الاستعمار ازدادت.

الشعارات والواقع العملى

كان أحد الشعارات الرئيسية لناصر الذى وصل للسلطة عندما يتحدث نداء "نحن العرب". إلا أن شعار الوحدة العربية الشاملة لم يشغل "الضباط الأحرار" على الإطلاق عن أهمية حل المشاكل المصرية الداخلية بالدرجة الأولى وتدعيم سلطتهم، ومنع عودة المؤسسات والأحزاب البرلمانية الفاسدة السابقة والمرتبطة ببريطانيا من خلال الملك فاروق أو بدونه، والقيام بالإصلاح الزراعى الذى من خلاله سيخترقون الريف ويتخلصون من تأثير الإسلاميين، والانتهاء من قضية إنهاء الاحتلال البريطانى لمنطقة قناة السويس. ركز ناصر على هذه المهام عند وصوله للسلطة. وبالتحديد هذا التركيز هو الذى حدد فى المراحل الأولى سياساته فيما يتعلق ليس فقط بالولايات المتحدة ولكن

بإسرائيل أيضا. مع الاستمرار في رفع شعار الوحدة العربية، الذي بدأ يتناقض مع السياسة الواقعية.

وربما لعب دوراً أن ناصر لم يصبح بعد قائدا لعموم العرب، والذي ابتدع شعار الوحدة العربية حزب البعث العربي الاشتراكي السوري. تأسس هذا الحزب في الأربعينيات على يد مجموعة من المثقفين السوريين، وفي عام ١٩٥٣ اندمج معه الحزب الاشتراكي العربي الذي تأسس أيضا في سوريا، منذ ذلك الوقت والحزب موجود في سوريا تحت اسم حزب البعث العربي الاشتراكي. حافظ الحزب في كل وثائقه وبرامجه على التركيز على وحدة الأمة العربية والعالم العربي، كما توجد في الحزب قيادة قومية عربية موجودة في سوريا، وحتى وقت قريب قيادة عربية "بعث" أخرى كانت موجودة في العراق حتى إسقاط نظام صدام حسين(١٠).

لا يمكن بأي حال من الأحوال نفي وجود نزعة للوحدة في العالم العربي. لصالح الوحدة وجدت ومازالت موجودة عناصر مثل اللغة المشتركة والثقافة والدين والعادات والتقاليد التاريخية. هذه النزعة تستند كذلك إلى التأثير في مجال الثقافة والتعليم على الدول العربية الأخرى الذي قادته مصر. فقد سيطرت الإذاعة المصرية والتليفزيون والسينما على عقول وقلوب العرب جميعا. كان صوت المطربة المصرية أم كلثوم الساحر يصدح في كل أركان العالم العربي. درس في جامعة القاهرة طلاب من دول عربية كثيرة. ومن اللافت أنه حتى في قمة التوتر في العلاقات بين مصر والعراق عام ١٩٥٧ وصل إلى العراق ٤٠٠ مدرس مصري للتدريس في المدارس العراقية. في الوقت نفسه دفعت حركة التحرر الوطني والنزاع العربي ـ الإسرائيلي إلى تنامي الشعور القومي والتضامن العربي، لهذا كان الكثيرون يعتقدون أن الأمر يتجه إلى تشكيل مجتمع عربي واحد في العالم العربي بعد الاستعمار، وحتى إنشاء فضاء عربي واحد، خاصة وأن الجزء الأكبر من العالم العربي كان مقسما صناعيا بواسطة اتفاقيات أنجلو- فرنسية. كما أن مصر الناصرية أصبحت عبارة عن مغناطيس جذب إليه بدرجة كبيرة المواطنين العرب من الدول العربية الأخرى، وقد ظهر بينهم ليس فقط أتباع لناصر، ولكن

مجموعات وأحزاب سياسية أعلنت نفسها ناصرية. وتم تقديم الرئيس المصرى ليلعب دور الزعيم فى العالم العربى كله.

أسهم هذا العامل فى تقوية النزعة العربية للتقارب على مستوى الدول، وليس من قبيل الصدفة اتخاذ إجراءات عملية لإنشاء دولة موحدة. وهكذا فى عام ١٩٥٨ تم إقامة الوحدة بين مصر وسوريا فيما عرف بالجمهورية العربية المتحدة، وهى فى الغالب أكثر المحاولات التاريخية المعروفة سطوعا لتكوين دولة عربية واحدة، وكان من الممكن أن تتحول إلى نواة، تجتذب إليها دولاً عربية أخرى، وهو ما حدث حيث إنه بعد قيام الدولة المصرية ـ السورية انضمت إليها اليمن. بعد ذلك سعت ليبيا للوحدة مع مصر عدة مرات، لكن دون أن تنجح فى ذلك.

خلفيات قيام الجمهورية العربية المتحدة

كيف تكونت الجمهورية العربية المتحدة؟ هل حدث هذا نتيجة انجذاب العرب لوحدة الدول فقط؟

فى البداية بعض الكلمات عن سوريا قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة، فهذا يساعد على معرفة الظروف بشكل أفضل. وصل حسنى الزعيم أول قائد لسوريا من العسكريين إلى السلطة، بمساعدة المخابرات الأمريكية فى دمشق فى مارس عام ١٩٤٩. بعد أكثر قليلاً من سبعة أشهر ثم إسقاطه وقتله بواسطة عقيد آخر هو سامى هيناوى، الذى ليس دون أسباب اتهم بأنه موال للإنجليز. بعد ثلاثة أشهر مرة أخرى وبمساعدة المخابرات الأمريكية تم تدبير انقلاب ووصل للسلطة فى دمشق العقيد أديب الشيشكلى، والذى استمر نظامه أربع سنوات. وعندما أصبح شكرى القوتلى رئيسا بدأت سوريا بسرعة تتجه صوب اليسار وأصبح الحزب الشيوعى السورى أكثر قوة، لدرجة أنه كان يعتقد أن رئيس أركان الجيش السورى عفيف البرزى قريب من الحزب الشيوعى.

كان ناصر يراقب ما يجرى فى سوريا من أحداث باهتمام. وأرسل إلى الرئيس القوتلى ومدير المخابرات العقيد السراج رسالة حذر فيها من خطر انزلاق الحركة القومية إلى أحضان الشيوعيين. هل كان من الممكن أن نرجع هذا إلى خوف حقيقى من جانب ناصر من أن ترفرف راية الشيوعية فوق "قلب العالم العربى" سوريا؟ أم أن ذاك أضيف له التخوف من أن تجتذب سوريا الدعم والمساعدات السوفييتية من مصر، والتى كانت القاهرة فى حاجة متزايدة إليها.

لكن يبدو أن السلطات فى دمشق بدورها أصبحت تشعر بالقلق أيضا من تعاظم تأثير الشيوعيين السوريين، وبالتحديد هذا، وليس الرغبة فى الوحدة العربية كهدف رئيسى هو ما دفع وفداً سورياً مكوناً من رئيس سوريا القوتلى ورئيس الوزراء العظمة للقيام بزيارة القاهرة، حيث أبلغا ناصر أن الوحدة السياسية الكاملة هى فقط التى ستنقذ سوريا من الخطر الشيوعى والفوضى، لكن ناصر البراجماتى رفض فى البداية اقتراح السوريين الخاص بالوحدة الفورية، وأجابهم بأنه يلزم خمس سنوات على الأقل للاستعداد لتحقيق هذه الوحدة.

بعد هذه الزيارة بفترة قصيرة قام وفد سورى آخر بزيارة القاهرة موجها نفس النداء وهو اندماج الدولتين، هذه المرة كان موقف ناصر أكثر مرونة عما كان فى السابق، لكنه كان أكثر ميلاً للشكل الفيدرالى، غير أن السوريين أصروا على الوحدة الكاملة والدولة الواحدة، فى نهاية الأمر رضخ ناصر لاقتراحهم. جدير بالذكر أن ناصر أقال البزرى من منصبه العسكرى الرفيع بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة فى ١ فبراير ١٩٥٨ وبدأ مواجهة مفتوحة مع الحزب الشيوعى السورى. وفى نفس الفترة جرت ملاحقة قاسية لليساريين المصريين.

ولذلك ليس من قبيل الصدفة أن الولايات المتحدة التى لا يشك أحد فى أنها لم تكن ترغب فى انتشار عدوى الوحدة فى العالم العربى خاصة تحت قيادة ناصر، تقبلت قيام الجمهورية العربية المتحدة بهدوء شديد. ففى ٢٣ يناير أى قبيل قيام الجمهورية العربية المتحدة أخطر السفير الأمريكى فى القاهرة ناصر أنه تلقى تعليمات من واشنطن تفيد بأن وحدة مصر وسوريا شأن عربى داخلى وأن حكومة الولايات المتحدة

سيكون موقفها محايدا فيما يخص هذا الأمر. وبعد أن التقى ناصر رئيس لبنان شهاب فى شتورة على الحدود اللبنانية ـ السورية، أعطى أوامره بوقف إمداد القوى الموالية لسوريا فى لبنان بالمال والسلاح، والولايات المتحدة حددت فترة لسحب مشاة البحرية، الذين أنزلوا بعد الانقلاب فى العراق، من لبنان، وأستأنفت الولايات المتحدة توريد القمح وفق برنامج المساعدات الإنسانية للدولة المصرية ـ السورية من جديد، هكذا كان رد فعل الولايات المتحدة وبريطانيا على قيام الجمهورية العربية المتحدة. فى حين كان موقفهم وسلوكهم مختلفا تماما بعد انقلاب ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق.

فيما يتعلق برد فعل الجماهير العربية، فإنه ليس فقط فى الدولتين اللتين اتحدتا، ولكن فى كل الدول العربية الأخرى، استقبلت الجماهير قيام الجمهورية العربية المتحدة بسعادة بالغة، وقوبل ظهور علم واحد وقيادة واحدة للجمهورية العربية المتحدة بمظاهر البهجة فى "الشارع العربى". وانتظر الكثيرون أن تنضم العراق بعد انقلاب ١٩٥٨ للجمهورية العربية المتحدة، لكن هذا لم يحدث.

لم يقف ناصر خلف الأحداث الثورية فى بغداد ولم يربطها بمستقبل وحدة العرب، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة التقى رئيس المخابرات السورية السراج بضابطين عراقيين فى درعا حيث أخطراه حينها بتأسيس منظمة سرية فى الجيش العراقى هدفها إسقاط الملكية، والسؤال الأهم الذى طرحاه على السراج : هل من الممكن أن يحصلوا على ضمان من الجمهورية العربية المتحدة فى حال قيامهم بانقلاب ؟ بالطبع السراج أخطر ناصر بلقائه السرى مع العراقيين، اللذين اتضحا فيما بعد أنهما قادة الانقلاب فى العراق عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. لا أعتقد أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة كان يهدف لقيام دولة عربية أوسع من الجمهورية العربية المتحدة وإلا لكان استخدم إمكانية إعطاء الضمان الذى طلب منه، حتى لو بالكلام المجرد، لكنه أمر السراج بقطع هذه الاتصالات.

بعد وقوع الانقلاب فى بغداد، وضع عارف مباشرة مسألة انضمام العراق للجمهورية العربية المتحدة أمام ناصر، لكنه لم يؤيد الفكرة. ربما كان الحديث الذى دار

بهذا الخصوص بين خروشوف وجمال عبد الناصر فى أثناء زيارة سرية كان يقوم بها رئيس الجمهورية العربية المتحدة لموسكو بعد الانقلاب فى بغداد بقليل، له تأثير. اهتم خروشوف بإمكانية ضم العراق للجمهورية العربية المتحدة، أجابه ناصر بشكل أكثر من محدد : "سيكون أمام العراق الكثير من المشكلات الصعبة والوحدة قد تضيف تعقيدات إضافية لهذه المشكلات. العراق يختلف عن سوريا كثيرا ورغم ذلك نشأت بالفعل الكثير من المشكلات بين مصر وسوريا، على أى حال أنا أعتقد أنه سيكون هناك ارتباط ما بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق، لكن أى نوع من الارتباط ـ هذا ما ستحدده ظروف كثيرة".

الاعتقاد بأن ناصر كان معادياً للوحدة العربية وتضامن العرب والدفاع المشترك للعرب عن مصالحهم غير صحيح، إلا أن ما رسخ فى ذهنه من براجماتية قاده لرفض قيام دولة عربية واحدة، فليس من أجل إنشاء مثل هذه الدولة قام بدعم الجنرال نميرى الذى قام بانقلاب فى السودان، وليس لهذا الغرض تم إرسال جيش قوامه سبعين ألف جندى مصرى لمساعدة القبائل اليمنية التى انتفضت ضد الحكم الملكى، وليس بهدف إقامة دولة واحدة للعرب دعمت القاهرة المجاهدين الجزائريين من أجل الاستقلال أو القذافى الذى كان على رأس الضباط الليبيين الذين أطاحوا بحكم الملك إدريس. بلا شك هالة الزعيم فى قيادة العالم العربى راقت لناصر، لكنه لم يربط دوره فى العالم العربى بوحدة الدول العربية، خاصة بعد النهاية المحزنة للجمهورية المصرية ـ السورية.

لم تعد الدولة المصرية ـ السورية موجودة عام ١٩٦١، انفرطت نتيجة انقلاب ضباط سوريين عليها فى دمشق. وبدرجة حاسمة انعكست الاختلافات الموضوعية بين الدول العربية وانتصرت مرة أخرى القومية لكن قومية الدولة هذه المرة. وبالمناسبة كان الشيوعيون السوريون أبعد ما يكونون عن كونهم القوة الأكثر تأثيرا فى انهيار الجمهورية العربية المتحدة. انتصر القوميون السوريون الذين كانوا يعتقدون أن مصر الناصرية ستحول سوريا إلى ذيل تابع لها لا أكثر.

كان لنهاية الدولة المصرية - السورية آثار خطيرة فى تحديد الاتجاه التى تطور وسيتطور إليه العالم العربى لاحقا، وربما كان إلغاء ناصر نفسه لأوامر متهورة بعملية إنزال قوات مصرية فى اللاذقية لإنقاذ الوحدة المصرية - السورية يدل على أن ناصر كان لديه كل الأسس للاعتقاد فى تلك اللحظة، وبشكل نهائى أنه من غير الممكن تحقيق وحدة الدول العربية بالقوة.

بعد عامين رفض ناصر نهائيا فكرة دولة عربية موحدة، فى مارس ١٩٦٣ وصل إلى القاهرة وفدان بعثيان، سورى وعراقى، أجريا مباحثات مع القيادة المصرية برئاسة ناصر على مدار أسبوعين ونصف. فى ذلك الوقت لم يكن البعثيون السوريون والعراقيون قد انفصلوا عن بعضهم بعضاً بعد، وكانوا فى السلطة فى سوريا والعراق، وكان الوفدان ممثلين بشخصيات رفيعة المستوى. الوفد السورى كان يرأسه مؤسس حزب "البعث" ميشيل عفلق وصلاح البيطار، والوفد العراقى يرأسه على صالح السعدى - قائد الجناح العراقى للحزب. وكان الوفدان قد حضرا إلى القاهرة باتفاق مسبق، وكانا يراهنان على أن الظروف الجديدة ستجعل ناصر أكثر ميلاً لفكرة إقامة دولة ثلاثية واحدة، مصرية - سورية - عراقية. فكيف كان رد فعل ناصر؟ وفق شهادة من حضروا، ناصر بوضوح ودون مواربة حلل موقف السوريين الذين انفصلوا عن الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ رغم معرفته أن عفلق والبيطار قد أيدا هذا الانفصال حينها. ثم تحدث عن أن الإمكانيات النظرية المحسوبة لسنوات كثيرة للأمام تسمح بإنشاء فيدرالية ثلاثية، وفق رأى ناصر يجب البدء بتوحيد الأمور الدفاعية والسياسة الخارجية مع احتفاظ كل دولة من الدول الثلاث باستقلالها لفترة طويلة، واشترط أن تبدأ الوحدة بإقامة فيدرالية مصرية - سورية، وفيما بعد فقط تنضم العراق لهذه الفيدرالية.

من المستبعد أن يكون ناصر باقتراحه هذه الخطة يكون قد وضع نصب عينيه عملية وحدة حقيقية بين الدول الثلاث، وإلا لما أمكن تفسير لماذا بالتحديد فى هذه المقابلة لم يتوقف فقط عند نقده المتكرر المتعلق بانهيار الجمهورية العربية المتحدة، ولكنه تحول إلى الوضع الآنى، متهما النظام العراقى بأنه على علاقه بالمخابرات الأمريكية،

التى تمد بغداد بالسلاح الخفيف للحرب ضد الأكراد وحتى لا يكون كلامه على عواهنه، ذكر ناصر بالاسم وليام ليكلاند العميل الأمريكي، الذى مازال على اتصال بالقيادة العراقية، والذى يعرفه ناصر منذ أن كان يعمل تحت غطاء ملحق بالسفارة الأمريكية بالقاهرة، وهو لم يكن ضد علاقات عادية أو حتى جيدة لأى دولة عربية بالولايات المتحدة، ولكنه شدد على ضرورة التخلى عن الممارسات العملية التى تؤدى إلى تسليم الدولة، فى هذه الحالة العراق، مقدراتها إلى المخابرات المركزية الأمريكية. ناصر قال إنه ليس ضد العلم الجديد ذى الثلاث نجوم المقترح للفيدرالية، لكن يجب تطبيق النظام بمنهج وبطريقة مدروسة وببطء شديد جدا.

بدا الأمر وكأن لقاءات مشابهة من المباحثات سيكون لها نصيب من الاستمرارية، لكن لم تعقد لقاءات تالية بعد ذلك. من الواضح أن كل الأطراف وصلت لنتيجة، أنه فى مثل هذه الظروف لا توجد فرص واقعية لتخطى الانقسام فى العالم العربى. القرار العادل خاصة بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦١، عدم إمكان إقامة دولة عربية موحدة مباشرة، و"فتح صفحة جديدة"، كان يدعمها استنتاج ليس أقل صحة وهو أنه سيكون من الصعب جدا، إذا كان هناك إمكان أصلا لوجود أوقات هادئة فى الشرق الأوسط فى الظروف الحالية لاتفاقيات مرحلية بين ثلاث دول غير متشابهة لهذه الدرجة.

اتضح أن الدولة الوحيدة المتحدة القادرة على البقاء فى الشرق العربى الإمارات العربية المتحدة، لأن الدول التى دخلت فى هذه الوحدة كانت عبارة عن دول لم يتكون فيها شكل الدولة تماما من قبل، وبالتالى لم يكن فيها أساس قوى لطغيان قومية الدولة.

عندما نشأ هذا النوع من القومية، أصبح يعلو على القومية بمفهومها العربى العام، وهذا ما أدى إلى عدم نجاح عدة محاولات للوحدة فى العالم العربى، على الرغم من وجود ظروف ملائمة لنجاحها. العراق والأردن عام ١٩٥٨، كانتا مملكتين على رأسيهما فى ذلك الوقت ملكين من نفس النسل الهاشمى، وتم تشكيل حكومة فيدرالية بالفعل برئاسة نوري السعيد لكن كما اتضح كانت وهماً. ولم تقم وحدة سوريا والعراق

حتى عندما انعقد فى بغداد عام ١٩٧٩ اجتماع اللجنة السياسية العليا التى أنشئت خصيصا وكان يرأسها أحمد حسن البكر وحافظ الأسد، ولم يتخذ فقط فيها قرار بتوحيد الدولتين بل إنشاء لجنة ثنائية لعمل دستور موحد ولجنة تنسيق لدمج الحزبين الحاكمين. وحتى هذا الذى بدا وكأنه بداية محاولة للوحدة لم تنجح.

الحقيقة هذه المرة أضيف إلى القطرية تناقض بين مجموعتين فى القيادة العراقية ـ البكر وصدام حسين الذى "اكتشف مؤامرة" فى بغداد وألقى القبض على "عملاء سوريين"، بينهم أشخاص مقربين من البكر.

فى يوم ٢٢ أغسطس اتصل حافظ الأسد هاتفيا بصدام حسين وسأله :"ماذا حدث؟"، "لم يحدث شيء مهم" أجابه صدام. واقترح الأسد "أن يحضر أى شخص ليخطرنا بما حدث"، لكن صدام أجابه بالرفض. يوم ٢٥ أغسطس وصل إلى بغداد وزير الخارجية السورى خدام ورئيس أركان القوات المسلحة السورية، فعرضوا عليهما "متآمرًا معترفًا". بعد عودته إلى دمشق نفى خدام نفيا قاطعا أى علاقة لسوريا بالأحداث. ورد صدام باتخاذ قرار بقطع جميع العلاقات مع القيادة السورية. وفى أثناء قمة رؤساء دول عدم الانحياز التى عقدت فى هافانا، عرض رئيس الجزائر وياسر عرفات وملك الأردن حسين وساطتهم بين العراق وسوريا إلا أن صدام رفض أى محاولات للمصالحة مع الأسد. واتخذ مجلس قيادة الثورة العراقى قرارا بوقف كل عمليات اندماج العراق وسوريا فى دولة واحدة. فى نفس الشهر أغسطس تم إعدام "المتآمرين" رميا بالرصاص، وانزلقت العلاقات بين النظامين البعثيين إلى المواجهة المفتوحة.

مع اقتراب نهاية القرن العشرين استسلم العالم العربى وبشكل نهائى لفكرة تعدد الدول، وليس إقامة وحدة أو عدة وحدات لمجموعات من الدول. هل يغير هذا الوضع من إمكانية تطور عمليات تكامل من تلك التى أصبحت سمة مميزة من سمات العالم الحديث؟ من المعروف أن التكامل يتسارع فى أمريكا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا، ناهيك هنا عن أوروبا. إلا أن هذه النزعة حتى الآن جلية فى منطقة شبة الجزيرة

العربية فقط من العالم العربى، ولكن حتى هنا مازال الوقت مبكرا لإقامة مؤسسات فوق الوطنية (فوق الدول ـ هذا سيكون أدق فى هذه الحالة ـ المؤلف).

بالطبع عمليات العولمة الجارية حاليا ستدفع دولاً مختلفة فى العالم إلى التداخل. عمليات التكامل تشمل الآن دولاً، حتى البعيدة عن بعضها بعضًا لغويا وتاريخيا، وغير قريبة على الإطلاق، هذه العمليات لن تمر هكذا متجاوزة حتى العالم العربى، فمن الممكن أن تمر على بعض أجزائه. لكن فى أحسن الظروف ليس فى القريب المنظور.

تلاشى آليات الوحدة

لم تستطع الجامعة العربية التى أنشئت عام ١٩٤٥ أن تنجز مهمتها ليس فقط فى توحيد الدول العربية، بل فى تحقيق تكاملهم فى مؤسسة واحدة، حتى ولو مع محافظة كل دولة على استقلالها. فكرة إنشاء منظمة عربية مشتركة مصدرها لندن التى ربطت بها مخطط الحفاظ على احتكار السيطرة على الشرق الأوسط. من المستبعد أن يكون المجتمع العربى حينها كان يعرف هذا المخطط، وكثيرون كانوا يعتقدون أن الجامعة العربية خطوة مهمة للأمام لتحقيق الوحدة العربية، ومن الممكن ظهور دولة عربية واحدة على خريطة العالم، حتى لو كانت فى صورة كونفيدرالية. لكن هذا لم يحدث.

فى القمم التى عقدت، تمكنت هذه المنظمة ـ الجامعة العربية ـ من فض نزاعات، أو تسوية خلافات بين العرب، وقد حدث هذا أحيانا فى أشكال كاريكاتيرية، ولكنه حدث. مثال نموذجى ـ قمة فى مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة بعد "أيلول الأسود" ١٩٧٠ فيما عرف بالصدام الدموى الأردنى ـ الفلسطينى. فى البداية صاح الزعيم الليبى القذافى بأنه لن يجلس على طاولة واحدة مع "القاتل" ملك الأردن حسين، وهم كل منهما بإخراج سلاحه، حينها قام ملك العربية السعودية وبصعوبة أمسك يديهما عن ذلك، وبعدها وبفضل التدخل الهادئ من ناصر احتضنا بعضهما. لكن هذه الأحضان لم تنعكس على العلاقات بين الدول العربية.

وقد ظهر تأثير الجامعة العربية من الناحية الإيجابية عندما أقرت موقفًا عربيًا موحدًا فيما يتعلق بالصراع العربى ـ الإسرائيلى، حيث تراجع القادة العرب عن موقفهم الرافض لوجود إسرائيل على مدى سنوات طويلة، وقرروا الاعتراف بها ليس فى الحدود التى أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧، بل فى حدود إسرائيل الموسعة التى نشأت فى أثناء أول حرب عربية ـ إسرائيلية عام ١٩٤٨. ففى اجتماع لجامعة الدول العربية تمت الموافقة على الصيغة التى اقترحها ولى العهد السعودى الأمير عبد الله (واقعيا كان الحاكم الفعلى للبلاد بسبب مرض الملك فهد [١١] المؤلف) "الأرض مقابل السلام". وهو ما يفسر على أنه إقامة سلام وعلاقات دبلوماسية بين الدول العربية وإسرائيل مقابل موافقة الأخيرة على إعادة الأراضى العربية التى احتلتها بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧.

وهكذا، لم تضطلع جامعة الدول العربية قط بمهمة إقامة دولة عربية موحدة أو مؤسسات فوق مؤسسات الدول فى العالم العربى، رغم أنه لا يشكك أحد فى فائدة وجودها ونشاطها على الإطلاق، فأنا أعرف عمرو موسى جيدا وأقدره جيدا بوصفه مهنيًا غير عادى وشخصًا واسع الاطلاع شغل منصب الأمين العام للجامعة العربية، وهو يبذل جهودا كبيرة لتحقيق تلاحم العالم العربى، وهذا كما قال لى هدفه الرئيسى. لكن حتى تحقيق هذا اتضح أنه أكثر صعوبة من إدراك ضرورة هذه الوحدة.

يقول سعيد أبو ريش أحد الذين كتبوا عن ناصر فى كتابه: "اصطدم شوق العرب للوحدة بالواقع الموجود، وتضاءل تأثيرها الرومانسى على المواطن العربى البسيط من يوم لآخر. فالمسيحيون اللبنانيون كانوا يخشون الغرق فى البحر الإسلامى، وهو ما سيحرمهم من هويتهم. الأردنيون الذين ليس لهم تاريخ طويل لم تكن لديهم رغبة فى أن ينزلوا لمستوى قبيلة صغيرة. والعراقيون كانوا يحتاجون إلى شىء ما له القدرة على اقتلاع عرقيتهم واختلافاتهم المذهبية، الأكراد على سبيل المثال ظروفهم ستكون أسوأ بكثير إذا عاشوا فى دولة عربية أكبر من العراق. أما السوريون فقد رفضوا كل ما يلغى وضعهم كقادة، لأنهم يعتقدون أنهم أكثر انتسابا للعرب من الآخرين، فيما يخص

المملكة العربية السعودية، فقد أعربت عن مخاوفها من أنها سيكون عليها تقاسم ثرواتها النفطية مع العرب الفقراء من مصر وسوريا والأردن.[١٢]

انعكس الهدوء التدريجي للنزعة العربية للوحدة على النزاع العربي - الإسرائيلي، ففي بعض الأحيان كانت الدول ذات العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل تقلص دعمها للفلسطينيين، وتظهر معايير أخرى تنعكس على تصرفات بعض الدول العربية. بعد الصدام الشيعي - السني في العراق، الذي تحتله القوات الأمريكية، أحيانا يظهر الطابع السني لهذه الدولة العربية أو تلك تجاه "حزب الله" الشيعي. حدث هذا على سبيل المثال عندما لم يستطع وزراء الخارجية العرب الأعضاء في الجامعة العربية التوصل إلى موقف موحد حول الأحداث في لبنان عام ٢٠٠٦.

ويمكن اعتبار ١٢ نوفمبر ٢٠١١، قمة ما حدث بهذا الخصوص، عندما أصدرت الجامعة العربية بأغلبية ١٩ عضوا من ٢٢ من المشاركين قرارا بوقف عضوية سوريا في الجامعة العربية، وهددت نظام الأسد بتوقيع عقوبات عليه إذا لم يوقف إطلاق النار ضد قوات المعارضة، وكما هو متصور السبب الرئيسي الذي سيطر على أغلب الدول العربية للموافقة على مثل هذه الخطوة يعتبر قرب النظام السوري من إيران.

تكونت نزعتان تركتا انطباعهما حتى على العلاقات العربية - الإسرائيلية، وهما تعددية الدول العربية وتغلب مصالح الدولة الواحدة على عملية الوحدة، التي كان من المستبعد قدرتها على البقاء في الوسط المحيط كسيناريو مستقبلي لتطور الأحداث. لكن مشكلة الأمن الإسرائيلي لا شك قائمة ومطلوب حل لها، ولكنها تحورت في الوقت الحاضر، عندما انتفت كمرادف لمشكلة تعايش الدولة نفسها.

مداخل مختلفة للقوى الخارجية أو كيف وصل عزيز وخدام إلى موسكو

تجاه الوحدة العربية يمكن استعراض خطين غير متطابقين بشكل واضح - أحدهما للولايات المتحدة والآخر للاتحاد السوفييتي، وأعتقد أنه في واشنطن وفي

موسكو على حد سواء كانوا يدركون أنه لا مستقبل لإقامة أى كيان عربى تكاملى كبير بين الدول العربية. فى الدعاية السوفييتية كثيرا ما كانوا يعلنون عن دعمهم لشعار الوحدة العربية، لكن تحت هذا الشعار كانوا يقصدون وحدة العرب على طريق النضال من أجل التحرر الوطنى ضد محاولات الغرب للقضاء على أنظمة البرجوازية الصغيرة الثورية. الولايات المتحدة فى نفس الوقت كانت تريد أن يتقارب العرب، ولكن على أساس محاورى، محور ضد الناصرية أو ضد سوريا، أو بعبارة أخرى وجهوا القضية لخلق ظروف ملائمة للصراع مع الأنظمة الوطنية بدعم الأنظمة العربية المحافظة التى على علاقات وثيقة بالولايات المتحدة.

لم يسع الاتحاد السوفييتى لتقويض الأنظمة المحافظة من الداخل، ولم يحرض عليها مصر وسوريا والعراق، وأنا واثق من أنه لا يستطيع أحد أن ينفى ما أقول. على العكس سعى الاتحاد السوفييتى للمساعدة فى تجاوز التناقضات بين الدول العربية وفى داخلها كذلك بصرف النظر عن توجهاتها، وليس بالضرورة أن تكون هذه الدول من تلك التى اعتمد عليها فى سياسته الشرق أوسطية. من الممكن أن نورد أمثلة عديدة على عدم قيام الاتحاد السوفييتى باللعب على التناقضات فى العالم العربى، من بينها محاولة عدم إعطاء الفرصة لاشتعال الخلاف العراقى ـ السورى، والتوجه الذى اتخذه الاتحاد السوفييتى فى أثناء الأزمة الكويتية، ومساعيه لوقف الحرب الأهلية فى لبنان وتركيزه على تخطى الخلافات الفلسطينية ـ السورية والفلسطينية ـ الأردنية، والسورية ـ الأردنية. ولا يجوز أخذ انطباع غير حقيقى عن أن الأعمال التى قام الاتحاد السوفييتى بها كانت مجردة من ضرورات الدفاع عن مصالحه، بالطبع المصالح كانت موجودة لكن الدفاع عنها لم يكن من خلال استغلال التناقضات بين العرب.

وهنا كنت أود أن أتوقف عند مثال غير معروف للكثيرين، أو حتى غير معروف على الإطلاق. فى بداية الثمانينيات توترت العلاقات بين الاتحاد السوفييتى والعراق، خاصة حول الحرب العراقية ـ الإيرانية، وفى نفس الوقت توطدت علاقات الاتحاد

السوفييتي بسوريا، بالإضافة إلى تصعيد سريع في الخلاف بين سوريا والعراق، موسكو كانت بعيدة عن فكرة اللعب على هذا الخلاف، بل على العكس اتخذ المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي قرارا بتنظيم لقاءات في موسكو لممثلين على مستوى رفيع من العراق وسوريا للتوصل إلى طرق للتقارب بين هاتين الدولتين. تنظيم هذا اللقاء دعم لنفوذ الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط، وكانت موسكو تفكر بالطبع في هذا أيضا، لكن الغرض الأساسي للقرار الذي اتخذ كان السعي لتحقيق الاستقرار.

في ذلك الوقت كنت مديرا لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، وبهذه الصفة تم تكليفي بتنظيم هذا اللقاء في موسكو، ولتحقيق هذا كان على أن أتحدث حول كل المشاكل العالقة مع كل من صدام حسين وحافظ الأسد. في البداية سافرت إلى بغداد حيث وصلت يوم ٦ يوليو ١٩٨٣ والتقيت صدام حسين، الذي وافق على اقتراحنا، وفي نفس اليوم مساء أكد طارق عزيز الموافقة وقال إن صدام حسين كلفه بهذه المهمة التي "يجب أن تكون سرية للغاية".

مع هذا "المتاع" غادرت إلى دمشق حيث التقيت يوم ١٠ يوليو حافظ الأسد، الذي وافق على اقتراحنا، وكان واضحا أن الأسد راض تماما عن رد صدام حسين الإيجابي الذي أخطرته به. لكن الأسد رغم ذلك طلب مهلة أربعة ـ خمسة أيام لاتخاذ قرار نهائي، وحتى يحين الوقت دعاني بأدب لأن استجم في اللاذقية، وهو ما فعلته بكل سرور، بالإضافة إلى ذلك تم تعيين عدد كبير لمرافقتي وكما قيل لي إنهم من الحراسة الشخصية للرئيس السوري وهو ما قبلته بامتنان.

يوم ١٥ يوليو تكرر لقائي بالأسد وأخطرني بأنه عين خدام نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ممثلاً له في المباحثات في أثناء الجلسة المطولة تحدث الأسد معي عن بعض أفكاره، فقال إن موسكو مكان مناسب بالنسبة له لإجراء هذه اللقاءات وأن عدداً من ممثلي دول عربية اقترحوا عليه عدة مرات الوساطة لتسوية الخلافات السورية ـ العراقية، لكنه فهم أن ما يعنيهم هو تقريب نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية وبعد ذلك

سيدفعون فى اتجاه إحداث صدام بين سوريا والعراق وسألنى ما إذا كنت قد أبلغت صدام حسين معلومات عن أن الحديث لا يجرى عن مجرد تسوية بسيطة فقط، بل عن تحسين للعلاقات، بالإضافة لذلك طرح على سؤال : "بأى مفهوم من وجهة نظرك وافق العراق على المباحثات فى موسكو؟" فأجبته ـ هكذا كان الأمر فى الواقع، ومن محادثاتى مع طارق عزيز، العراق مهتم أيضا بالعلاقات مع سوريا.

فى ٢٥ يوليو ١٩٨٣ وصل طارق عزيز وخدام إلى موسكو. المباحثات جرت فى إحدى الفيلات الحكومية الواقعة بمرتفعات لينين. من جانبنا عن قصد تركنا المتباحثين على انفراد، وفى المساء ذهبت إليهما ورأيت كيف كانا بود يلعبان البلياردو، وبدا الأمر وكأن هذا مؤشر جيد. تحادثا طوال اليوم التالى، وبعد ذلك طلب خدام وطارق عزيز تنظيم لقاء مع أى شخص من القيادات السوفييتية العليا. الأفضل لمثل هذه المهمة كان من الممكن أن يكون جروميكو، ولكنه للأسف لم يكن موجودا فى موسكو، فقد كان يستجم فى القرم. ولم يتمكن ممثلا سوريا والعراق من الذهاب للقرم. فقد تبين أنه "لا يوجد مكان مناسب لاستضافتهما هناك".

مثل هذه العقبة البدائية، كانت تبدو كأنها من ترتيب القدر. لقد كنت متأكدا من أنه إذا التقى بهما جروميكو، فإنه كان من الممكن التوصل إلى حل، ربما كان غير نهائى أو مؤقت ولكنه فى النهاية حل، إلا أن هذا لم يحدث، فقد أبلغ المشاركان فى المباحثان أنهما لم يتوصلا إلى اتفاق حول عدد من المشاكل الأساسية، لكن خدام وطارق عزيز أكدا أن محادثاتهما لم تذهب هباء. وبقيت حقيقة لقائهما سرا كاملاً.

ما هو الاستنتاج العام الذى من الممكن أن نستخلصه من هذا ؟

إلى جانب القومية التى لم تتحقق بين العرب، والتى انحسرت تحت ضغط المصالح الخاصة لكل دولة عربية على حدة، ومن ثم الاختفاء الحاد، وفى نهاية الأمر خروج القومية الثورية للبرجوازية الصغيرة، التى كانت من خصائص عدد كبير من أنظمة الدول العربية المتحررة من براثن سيطرة الدول الغربية، من مسرح التاريخ. نهاية القرن

العشرين وبداية الواحد وعشرين تميزت بنشاط حاد لقوى مرتبطة بالإيديولوجية الإسلامية، وساعد على ذلك بدرجة كبيرة، التأخر فى حل النزاع العربى ـ الإسرائيلى، وغزو القوات السوفييتية لأفغانستان، وبعد انسحاب هذه القوات، كانت عملية الولايات المتحدة فى العراق.

فى غضون ذلك، أتصور أنه فى المستقبل الاستراتيجى، ستقوى بالتدريج القومية المتحررة من تلك التوجهات التى كانت من خصائص ثوار البرجوازية الصغيرة.

الفصل الخامس

الاتحاد السوفييتى والعالم العربى

طريق وعر للتقارب

كانت سياسة الدول الاستعمارية السابقة، ومن بعدها الولايات المتحدة، هى التى دفعت عدداً كبيراً من الدول العربية للتعاون مع الاتحاد السوفييتى، فى نفس الاتجاه كان يعمل تطور النزاع العربى ــ الإسرائيلى. وكان للمساعدات العديدة التى قدمت للعالم العربى والمواقف التى اتخذتها موسكو فى اللحظات الحرجة فى أثناء مواجهات الدول العربية مع إسرائيل أثرها فى جذب، حتى الدول الملكية المترتبطة ارتباطا وثيقا بالغرب للاتحاد السوفييتى. على أى حال الإحساس العربى العام لم يكن عابرا، إلا أن شركاء الاتحاد السوفييتى أصبحوا هم تلك الدول العربية التى كان يقودها القوميون الثوريون، وهو ما ينطبق على حركة المقاومة الفلسطينية.

كان دعم القوى المعادية للاستعمار والوطنية التحررية واحدة من الدعامات الإيديولوجية للسياسة الخارجية السوفييتية. لكن الإيديولوجية التى كانت سائدة فى الاتحاد السوفييتى هى التى حددت سلفا حقيقة أن تكون علاقة الاتحاد السوفييتى مع العرب الثوريين القوميين تكونت بطريقة بعيدة عن البساطة وبعيدة كل البعد عن المباشرة.

عقبة معاداة الشيوعية

أهم ما كان يحدد المدخل السوفييتي لهذا النظام العربي الجديد أو ذاك في الأوقات الأولى، هي علاقته بالشيوعيين المحليين. هذا المعيار استمر، ولكنه فيما بعد لم يعد هو الذي يحدد العلاقة.

في غضون ذلك برزت معاداة الشيوعية في مصر وسوريا والسودان بأشكال ودرجات مختلفة، لكن في العراق خاصة أخذت شكلاً دمويًا. كراهية العناصر المؤيدة للشيوعية كانت موجودة كذلك في اليمن. ولم يكن خافيا على الإطلاق عدم تمازج قادة الدول العربية الجدد مع الشيوعيين المحليين، على الرغم من أن معاداة الشيوعية كانت تتوارى بعض الشيء في الأوقات التي تصل فيها العلاقات مع الاتحاد السوفييتي لدرجة عالية من النمو.

كانت المجموعات أو الأحزاب الشيوعية التي تكونت في الدول العربية في فترة الاستعمار مرتبطة بطريق غير مباشر بالاتحاد السوفييتي من خلال الأممية الشيوعية (الكومنترن - المؤلف). وكان يوجد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي قسم دولي، كانت مهمته القيام بالاتصالات مع كل الأحزاب الشيوعية في الخارج، في هذا القسم كان يوجد قطاع مختص بالعمل مع الأحزاب الشيوعية العربية. الحزب الشيوعي السوفييتي كان يعتز جدا بوضعه كمركز للحركة الشيوعية العالمية، وكان يعطي أهمية خاصة لعدد الأحزاب الشيوعية في العالم، حتى القليلة العدد وغير المؤثرة منها لكونها أحزابًا شيوعية على أي حال، حتى ولو بالاسم فقط.

بالإضافة إلى ما ذكر، وانطلاقا من تصورات دوجماتية كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاتحادي (البلاشفة - المؤلف) ثم بعد ذلك اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في الأيام الأولى تراهن على أن عملية التحرر الوطني في العالم ممكن أن تتطور وتنمو فقط تحت قيادة أو على الأقل بالمشاركة المباشرة للشيوعيين في ذلك. أما القوى الأخرى التي كانت ترفض الأحزاب الشيوعية المحلية وخاصة تلك التي تعرض الشيوعيين فيها للاضطهاد، كانت دون مواربة وبصرف النظر عن علاقة هذه

الأحزاب الشيوعية بسلطات البرجوازية الصغيرة، فإنها كانت تحسب على معسكر الرجعية، وأحيانا حتى تنعت بالرجعية "الفاشية". وجهة النظر هذه كان سائدة فى أوساط القيادة السوفييتية فى الخمسينيات، وبدأت تتخلى عنها فقط فى النصف الثانى من الستينيات ولم يكن هذا مباشرة، ولكن بالتدريج وبتردد.

بالطبع، كان تقدم علاقة هذا النظام العربى أو ذاك بالشيوعيين المحليين، أحد أهم المعايير لسياسات الاتحاد السوفييتى، الذى لم يكن يسترشد فقط بالمفاهيم الإيديولوجية. ففى موسكو للإنصاف انطلقوا من أن معاداة الشيوعية يضعف سلطة أنظمة البرجوازية الصغيرة لأنهم بذلك يبعدون عن أنفسهم فى بعض الأحيان طبقة مهمة من المثقفين المبدعين التقدميين، نتيجة لذلك أجبر الموقف السوفييتى هذا الأنظمة البرجوازية الصغيرة فى مصر وسوريا وأحيانا فى العراق على تخفيف الصراع مع الأحزاب الشيوعية واليسار ككل.

وتغير الوضع فى موسكو، وربطوا الأمر ببدعة، أرجعوها للينين، وكانت نظرية جديدة، وفقًا لهذه النظرية تستطيع الدول التى تحررت من الاستعمار فى المرحلة الأولى أن تسير بطريقتها إلى الاشتراكية وليس من خلال ديكتاتورية البروليتاريا "التقليدية". وهكذا نشأت نظرية "التوجه الاشتراكى"، وأصبحت التأميمات الكبيرة لوسائل الإنتاج من المعايير الرئيسية للدول التى سارت فى طريق التطور اللارأسمالى، بمعنى آخر سيطرة الدولة على الاقتصاد وإنشاء أحزاب أو اتحادات تحت لافتات اشتراكية. هذه نظرية لم تكن تنطبق على "الاشتراكية العربية"، مع الاعتراف بإمكانية وجود تطور لا رأسمالى فى الدول العربية، إلا أنها لم تحل مشكلة الصراع الطبقى. لعب دورا كبيرا فى إخراج هذه النظرية نائب رئيس القسم الدولى فى اللجنة المركزية أ. أ. أوليانوفسكى(١٣)، وشارك فى هذا علماء سوفييت كان منهم كاتب هذه السطور. كان السعى لتقوية الأنظمة الراديكالية فى الشرق الأوسط الحافز الرئيسى لإخراج نظرية "التوجة الاشتراكى" لكى لا نجعلهم أهدافا للهجوم من الأحزاب الشيوعية المحلية، وانطلقنا فى هذا من أن تلك الأنظمة كانت تمثل قوى واقعية موجودة على الأرض.

فى منتصف الستينيات بدأ الاتجاه للمزيد من البراجماتية فى العلاقة مع الدول العربية يطغى فى الاتحاد السوفييتى، وصار ينظر إلى الأحداث فى الشرق الأوسط بدرجة أقل من النظر إليها من خلال منظور تناقض الأنظمة القومية مع الأحزاب الشيوعية المحلية. فى أثناء لقاءات مع ممثلى الحزب الشيوعى السوفييتى فى اللجنة المركزية تحدثوا إليهم بشكل مباشر عن ضرورة التقارب مع قيادات البرجوازية الصغيرة فى الدول العربية، ونصحوهم بأن يوافقوا على أنه ليسوا هم ولكن القيادة القومية الثورية تعتبر فى المرحلة الحالية القوة القائدة فى العالم العربى، واقترحوا على الأحزاب الشيوعية التعاون معها والتأثير على القوميين العرب الذين كانت تعتقد موسكو، ليس دون أسباب، أنهم يستطيعون فى ذلك الوقت تدعيم قدراتهم الثورية الكبيرة.

بالإضافة إلى معاداة الأنظمة القومية العربية للشيوعية كان يوجد عاملان آخران أثرا سلبا على علاقات الاتحاد السوفييتى فى الخمسينيات وبداية الستينيات مع عدد من الدول العربية. فالاتحاد السوفييتى الذى كان فى مواجهة مع الولايات المتحدة، كان يأمل فى الدعم من جانب قوى التحرر الوطنى، إلا أنه كلما اشتد الصراع واقترب الخطر من الحدود التى كان تخطيها يمكن أن يتطور لحرب نووية، كان الاتحاد السوفييتى يحتاج إلى تهدئة للتخفيف من التوتر الدولى. الدول العربية بما فيها مصر كانت ترى فى هذا الاهتمام السوفييتى بالتهدئة، أن السوفييت يريدون جنى الثمار من المواجهة بين المنظومتين العالميتين.

السماء فوق العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر كما هى مع العراق وسوريا لم تكن دائما صافية لأسباب أخرى أيضا. ففى مصر كان يعمل الآلاف من الخبراء السوفييت مع أسرهم، مدنيين وعسكريين. ونفس الوضع ولكن بأعداد أقل كان فى كل من سوريا والعراق. تكونت فى الأساس علاقات طيبة بين السكان المحليين والسوفييت، وقد حافظ الكثيرون على علاقات ودية لفترة طويلة، لكنها لم تكن كذلك على المستوى الأعلى نسبيا. أحيانا كان يحدث عدم رضى نتيجة أن الاختصاصيين العرب "يعلمهم الأجانب" والسعى غير المبرر للحصول على نتائج سريعة بأسرع ما يمكن بداعى أن

الأجانب يأخذون أجرا ونعولهم. حاول ناصر والقيادات العليا فى الدول العربية الأخرى التخفيف من هذه النزعة.

وظهر كذلك ما يعكر الصفو من جانب بعض القيادات السوفييتية المتوسطة، بل أحيانا من تلك البعيدة عن أن توصف بالمتوسطة ـ لكنها متعالية ـ وظهرت مقالات حول هذا. ولنا أن نتخيل على سبيل المثال "أمر" نيكولاى بودجورنى للرئيس السادات فى يناير ١٩٧١ فى أثناء زيارة للقاهرة، عندما قال له "لقد حان الوقت للتخلص من هيكل"، بهذا الشكل جرى الحديث عن الشخص الذى كان يلعب أحد الأدوار الرئيسية فى صنع السياسة المصرية، بالإضافة إلى أنه صديق السادات، كما أنه كان شخصا بعيدا كل البعد عن أى ميول معادية للسوفييت.

لعبت كذلك دورا سلبيا ميول قيادات عدد من الأحزاب الشيوعية العربية، حيث كانت تطالب بلعب أدوار رئيسية فى الدول العربية التى تحكمها أنظمة راديكالية رغم أنهم لا يملكون أى أسس لذلك. فى تلك الظروف لم يوافق بعض قيادات الأحزاب الشيوعية ـ ليس مباشرة ـ على نظرية "التوجه الاشتراكى". على سبيل المثال فى حديث معى سمى خالد بكداش السكرتير العام للحزب الشيوعى السورى هذه النظرية بأنها "تراجع فى اتجاه التحريفية"، وانتقد هذه النظرية علنا ولكن بطريقة غير مباشرة. وفى حالات عديدة كانت الأحزاب الشيوعية تنطلق من أنه يجب على الاتحاد السوفييتى أن ينفذ توجيهاته فى العالم العربى من خلالها، لأنهم هم، وهم فقط، يعتبرون حلفاء الحزب الشيوعى السوفييتى. كان بعض قادة الأحزاب الشيوعية العربية يتصورون أنهم منفذو السياسة السوفييتية فى الشرق الأوسط وهم فى نظر موسكو ليس لهم "بديل"، ولم يقوموا بإخطار القيادة السوفييتية إلا نادرا بخططهم، مراهنين على أن الاتحاد السوفييتى فى كل الأحوال سيدعمهم لأسباب أيديولوجية.

فيما بعد ومع الوقت، بالطبع، أصبحت الأمور أكثر وضوحا، حين ظهرت تفاصيل الصورة، التى خيبت الآمال أحيانا، إلا أن كل هذا لا يجعلنا على الإطلاق نتجاهل نكران الذات والبطولة والإخلاص لمصالح شعوبهم والتضامن كذلك مع الاتحاد السوفييتى من آلاف الأعضاء فى الأحزاب الشيوعية العربية.

شيبيلوف والاستدارة فى اتجاه مصر الناصرية

عندما وصل "الضباط الأحرار" للسلطة فى مصر، كانت علاقة موسكو بهم فى البداية أكثر من محل شك، فقد كان المعيار الأساسى لتقييم القوى الجديدة فى ذلك الوقت هو تلك المسافة التى تفصلها عن الشيوعيين المحليين، وفى مصر هذه المسافة كانت كبيرة جدا.

كانت الحركة الشيوعية فى مصر ضعيفة ومفتتة، وكانت المجموعات الشيوعية تضم فى أحسن الأحوال مئات الأشخاص فقط، وبشكل أساسى من التقدميين المفكرين المثقفين. لكن فى عام ١٩٢٢ تم الاعتراف بالحزب الاشتراكى المصرى كأحد أعضاء الكومنترن، وأصبح يسمى بالحزب الشيوعى المصرى، فى المطبوعات كان اسمه "الحساب"، وتم نشر برنامج الحزب الشيوعى المصرى فى صحيفة "الأهرام"، كان البرنامج ولأول مرة متميزا عن برامج كل الأحزاب البرجوازية فى البلاد بأن ذكر فيه الكثير من النقاط التى تبناها "الضباط الأحرار" فيما بعد، منها "تحويل قناة السويس للكية وطنية[١٤]". لم يستمر الحزب الشيوعى المصرى طويلاً، فكل أعضاء الحزب تم اعتقالهم عام ١٩٢٤ بعد إضراب كبير فى أحد مصانع النسيج فى الإسكندرية، وتوفى السكرتير العام للحزب أنطون مارون فى السجن، حدث هذا فى أثناء حكومة الوفد التى كان يرأسها سعد زغلول فى مصر.

بعد ذلك ظهرت الحركة الشيوعية على شكل مجموعات صغيرة، وفقط فى عام ١٩٤٧ توحدت هذه المجموعات فى منظمة شيوعية واحدة تحت اسم الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، وكان ضمن برنامج هذه المنظمة التى كان يبلغ عدد أعضائها حوالى ألفى عضو، أن دار الحديث عن أنها تناضل من أجل مصالح الطبقة العاملة وعن أنها "تختار النظرية الماركسية ـ اللينينية طريقًا ومنهجًا للصراع الطبقى"، هذا البرنامج الذى نشر قبل إسقاط الملك فاروق بعام لم يجتذب "الضباط الأحرار" للشيوعيين المصريين.

لقد كان الكثيرون من الشيوعيين المصريين ومناصريهم شرفاء مخلصين لبلادهم ووطنيين، وكانوا مؤهلين بشكل جيد فيما يتعلق بقدراتهم الفكرية، وهو ما ظهر فى مراحل متأخرة فيما بعد، عندما بدأوا فى التعاون مع نظام ناصر على أساس فردى وليس بوصفهم حزبًا أو منظمة. إلا أنه بعد إسقاط الملك فاروق مباشرة كان التوتر يسود علاقات "الضباط الأحرار" مع الشيوعيين، على الرغم من أنه بعد الانقلاب فى مصر تم الإفراج عن المعتقلين السياسيين من السجون.

لم يؤيد كل الشيوعيين المصريين التحولات التى حدثت، حيث منع التطرف الكثيرين منهم من تقييم ما قامت به القيادة المصرية الجديدة حق التقييم. انظروا كيف وصف أحمد مالك أحد رجال (حدتو) الإصلاح الزراعى الأول، فقد كتب يقول إنه حدد ولكنه لم يقض نهائيا على ملكية الأرض، ولهذا كان السفير الأمريكى راضيًا عنه.

مثل هذا التقييم السلبى المجرد وغير المرتبط بالواقع المصرى والذى كان غالبا بشكل مبالغ فيه، أبلغته السفارة السوفييتية فى القاهرة للقيادة فى الاتحاد السوفييتى، وكان موقف الشيوعيين السوريين والعراقيين واللبنانيين متطابقًا مع نظرائهم المصريين، ونتيجة لهذا ولمفاهيم شبه أيديولوجية، تكون عند الاتحاد السوفييتى انطباع سلبى عن النظام المصرى الجديد. لكن لا يجوز التغاضى هنا عن أن كل هذا حدث قبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى وعبادة ستالين مازالت باقية فى صورة محصنة ليس فقط قبل وفاته ولكن فى الأعوام الأولى التالية لها، أى كان هذا يتعلق بالموروث الإيديولوجى له بشكل خاص والذى كان يعتنقه جميع هؤلاء الذين لهم علاقة بشكل أو بآخر بإنتاج وتنفيذ توجهات السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى. فكرة ستالين الرئيسية جاءت فى خطابه القصير فى أثناء الجلسة الختامية للمؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعى السوفييتى فى أكتوبر ١٩٥٢، البرجوازية الوطنية "ألقت جانبا" راية النضال الوطنى التحررى، ويجب على الشيوعيين التقاطها.

يرجع الفضل فى تغير علاقة الكرملين بمصر الناصرية إلى دميترى تروفيموفيتش شيبيلوف هذا الإنسان المثقف المخلص ذى المظهر المميز الرشيق وصاحب الوجه

الرجولى الجميل، عاش حياة صعبة، ففى عام ١٩٢٦ أنهى دراسته فى كلية الحقوق بالجامعة الحكومية بموسكو، ثم تخرج فى معهد الأستاذية الأحمر.

فى أثناء الحرب الوطنية العظمى تطوع وذهب إلى الجبهة، وأنهى الحرب فى رتبة ميجور جنرال، ثم عمل عشرة أعوام فى صحيفة "البرافدا" وصل إلى منصب رئيس تحريرها. ثم أصبح سكرتيرا للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ووزيرا لخارجية الاتحاد السوفييتى. لكن فى عام ١٩٥٧ اتهم بالانضمام إلى "مجموعة مالينكوف ـ كاجانوفيتش ـ مولوتوف المعادية للحزب" التى وقفت ضد خروشوف. وتم عزله من جميع مناصبه، وفصل شيبيلوف من الحزب عام ١٩٦١ واستعاد عضويته فقط بعد مرور خمسة عشر عاما.

كم عانى هذا الإنسان الواسع الاطلاع، الذى انتخب عضوا مراسلاً فى أكاديمية العلوم السوفييتية، من صعاب، ممكن أن نفهم هذا من الرسائل الشفرية الموقعة من بولجانين وخروشوف والتى كان يتسلمها شيبيلوف عندما كان وزيرا للخارجية فى أثناء زياراته للخارج : "قبل أن تغادر اضرب هؤلاء الإمبرياليين على وجوههم" (هنا لم يستخدم خروشوف كلمة وجه لكنه استخدمها فى سياق مهين فى اللغة الروسية بما يعنى أنهم حيوانات فوجه الإنسان هو وجه عادى لكن وجه الحيوان له اسم آخر فى اللغة الروسية وهو ما استخدمه خروشوف ـ المترجم).

أنا واثق أن شيبيلوف لم يلتزم بهذه التعليمات المبتذلة، ولا بكلمات مجاملات فى التعليمات التى أعطيت له عندما غادر إلى القاهرة لحضور الذكرى الثالثة للثورة المصرية عام ١٩٥٥، وهذه كانت أول دعوة لممثل سوفييتى من موسكو للاحتفال المصرى، وكانت حقيقة تحديد شيبيلوف لهذه المهمة فى حد ذاته يشير إلى عدم رغبة المكتب السياسى للجنة المركزية فى رفع سقف علاقة الاتحاد السوفييتى بمصر، حيث كان يشغل منصب رئيس تحرير "البرافدا" حينها، وتم تقديمه إلى القيادة المصرية باعتباره رئيس لجنة العلاقات الدولية فى مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى (شيبيلوف كان يشغل هذا المنصب بالفعل، لكنه كان منصباً غير مهم فى ذلك الوقت ـ

المؤلف) بالإضافة إلى أنه سافر إلى القاهرة على رحلة طيران عادية مع ترانزيت فى روما. فى الغالب كان هدفهم من إرسال شيبيلوف هو الاستطلاع ومن ثم الإبلاغ عما شاهده، وحسناًفعلوا، أنهم أوكلوا هذه المهمة إلى شيبيلوف بالتحديد.

وأترككم لما ذكره رفيقى فالنتين ألكسندروف الذى كان يقوم بمهام مراسل وكالة تاس فى مصر عن زيارة شيبيلوف للقاهرة، كانت ملاحظات ألكسندروف مهمة لدرجة أنى توقفت عندها بالتفصيل. فى ذكرى الثورة يوم ٢٢ يوليو فى مؤتمر جماهيرى حاشد وأمام الآلاف ألقى ناصر خطابا، جلس شيبيلوف أمام المنصة فى أحد الصفوف الأولى وعن يمينه جلس السفير سولود وعن يساره جلس سوبوليف مستشار السفارة الذى أخذ على عاتقه مهمة المترجم، لأنه كان يجيد اللغة العربية. وكان ممثلو الاتحاد السوفييتى يتبعون موقف موسكو، ويربطون فكرة الاستقلال المصرى، فقط، بدور طليعى للحزب الشيوعى المحلى وبالتعاون مع الاتحاد السوفييتى، ونظرا لأن هذه العناصر لم تكن موجودة فى مصر، فإنه لم يكن هناك مجال للحديث عن الاعتراف بجوانب تقدمية فى أعمال ناصر، بل ذهبوا لأبعد من ذلك، أن السلطة استولى عليها العسكريون وحلوا البرلمان ومنعوا الأحزاب، لذلك كان تقييمهم لها كان أقرب إلى أنها فاشية. وغلب على تقييم السفارة لتصريحات ناصر الشك والسلبية، وندءات ناصر بالنضال ضد الاستبداد الأجنبى كانوا يعتبرونها ديماجوجية. هكذا وبهذا التقييم وصل شيبيلوف وبصحبته السفير إلى ميدان التحرير.

وهنا لأول مرة يتعرف شيبيلوف على تأثير فن الخطابة الشرقى الساحر، لكن محتوى خطاب ناصر السياسى أثار انتباه الضيف أكثر، والسفير سولود الذى لم يكن يعرف اللغة العربية عندما سمع الترجمة وضع ملاحظات تؤكد على أنه يجب عدم تصديق ناصر وقال : "إنها ديماجوجية. عن أى استقلال يتحدث ؟ وهو يهرول راكعًا أمام الأمريكيين؟".

كان شيبيلوف فى البداية يستمع إلى ملاحظات السفير فى أثناء المؤتمر، لكنها بعد مرور فترة قصيرة من الوقت لم تعد تثير اهتمامه، ثم انضم للتصفيق بحرارة مع

الجماهير المشاركة فى المؤتمر، وبعد مرور بعض الوقت كان رد فعل شيبيلوف مؤيدا لكل كلمة تقريبا مما قيل فى خطاب ناصر، وخاصة حديثه عن تعميق الإصلاح الزراعى وعن تطوير الاقتصاد الوطنى وتحسين التعليم والخدمات الصحية ومد الريف بمياه الشرب النقية.

مع أول تصفيق لشيبيلوف صمت السفير وعلى ما يبدو حاول أن يظهر كما لو كان يحاول فهم ما يحدث، وهل هو رغبة من الضيف شيبيلوف فى أن يثير إعجاب الناصريين أم إظهار توجه جديد لموسكو إزاء نظام ناصر، وتحسبا، غير من تعبيرات وجهه من عدم اكتراث استهزائى إلى إبداء الاهتمام والمشاركة فى التصفيق مع شيبيلوف لحديث ناصر لكن بشكل فيه نوع من التحفظ.

بعد المؤتمر طلب شيبيلوف تنظيم مقابلة شخصية له مع رئيس مصر. وقدم شيبيلوف تقريرا فى موسكو عن نتائج هذه المقابلة، لم يتم الإعلان عن هذا التقرير، لكن الصور الكثيرة التى التقطها شيبيلوف للعرض العسكرى للجيش المصرى والتى أخذها معه عندما غادر القاهرة كانت تقول الكثير، فالجيش المصرى كان مسلحا ببنادق من زمن الحرب العالمية الأولى وعدد من المدرعات القديمة.

مهمة ميكويان - قاسم بديلاً لناصر

مع العراق كان الأمر مختلفا. فالثورة العراقية عام ١٩٥٨ قوبلت مباشرة بإيجابية شديدة من جانب الاتحاد السوفييتي، وبشكل أساسى لأنهم فى موسكو كانوا مدركين جيدا لكونها ستحطم القواعد من تحت أقدام حلف بغداد، انعكست كذلك الخبرة الإيجابية المتراكمة فى العلاقات مع الثوريين المصريين القوميين. وفى رده على عملية إنزال مشاة البحرية الأمريكيين فى لبنان والجنود البريطانيين فى الأردن أعلنت وزارة الدفاع فى الاتحاد السوفييتى عن القيام بمناورات فى الدوائر العسكرية فى تركمانيا وما وراء القوقاز بمشاركة أسطول البحر الأسود، وانضمت للمناورات بلغاريا، كما اعترف الاتحاد السوفييتى وكل دول حلف وارسو فورا بحكومة عبد الكريم قاسم. على

الجانب الآخر فى الغرب لم يتعجلوا بهذا الخصوص، وخاصة لندن التى اتخذت موقفا سلبيا، أما الخارجية الأمريكية فقد فكرت بطريقة أخرى، ونظرا لمخاوفها من يؤدى عدم الاعتراف إلى ارتماء العراق فى أحضان ناصر، ومن خلال السفير البريطانى فى واشنطن تم إبلاغ الخارجية البريطانية بهذه المخاوف، هكذا فى نهاية شهر يوليو- بداية أغسطس اعترفت تركيا وإيران وباكستان، ثم تلاهم بريطانيا والولايات المتحدة بالحكومة العراقية الجديدة.

يوم ٤ أغسطس وفى اجتماع رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى (فى ذلك الوقت تم إعادة تشكيل المكتب السياسى وتحويله إلى رئاسة ـ المؤلف) أعلن خروشوف أن اعتراف دول الغرب بحكومة عبد الكريم قاسم يعنى أنهم"... لا يفكرون فى تنظيم هجوم على جمهورية العراق أو أى من دول الشرق العربى". "وهذا كان هدفنا الرئيسى ـ كما قال خروشوف ـ ولأن هذا تحقق فقد أعطيت الأوامر بوقف المناورات العسكرية"، وتم استدعاء المارشال جريتشكو الذى كان يقود المناورات إلى موسكو. بعد عام وفى ٩ يوليو عام ١٩٦٣ وفى أثناء جلسة لخروشوف مع المشير عبد الحكيم عامر قال خروشوف : " أراد الاتحاد السوفييتى أن يظهر دعمه ودفاعه آنذاك عن الثورة العراقية، لكى يمنع تركيا وباكستان وإيران الذين كانوا يستطيعون القضاء على الثورة فى ذلك الوقت، ولذلك قمنا بمناورات عسكرية على حدودنا مع تركيا وإيران وأيضا على الحدود البلغارية ـ التركية".

كانت القيادة السوفييتية متعاطفة مع عبد الكريم قاسم حتى عندما بدأ الحرب على الأكراد، لكنى لا أعتقد أنهم فى موسكو كانوا راضين عن أن إنقاذ قاسم عام ١٩٥٩ صاحبه حملة تنكيل دموية من الشيوعيين العراقيين على تمرد البعثيين فى الموصل بقيادة الشواف. هذا التمرد كان مدعوما من ناصر، الذى شدد من حملته على الشيوعيين، وقام بحملة اعتقالات للشيوعيين المصريين وفى الإقليم السورى من الجمهورية العربية المتحدة. وبدأ هذا ينعكس على علاقة مصر بالاتحاد السوفييتى، فقد استعرض ناصر إمكاناته فى تخطى القطيعة التى نشأت بين مصر والولايات المتحدة قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة بوقت قصير. ومن المؤكد أن موسكو لم تكن راضية

عن رفض ناصر طلبا للاتحاد السوفييتى بأن يطلع ممثلين سوفييت على الوثائق التى استولى عليها من مقر قيادة حلف بغداد وتم تسليمها للقاهرة بعد الانقلاب فى العراق، لكن القيادة المصرية أعربت عن استعدادها أن تعطى الاتحاد السوفييتى مقتطفات منفصلة منها، ولا أستبعد أن تكون القيادة المصرية قد أخطرت الأمريكيين برفضها إعطاء موسكو وثائق حلف بغداد، على أى حال كتب هيكل بهذا الخصوص أن الرفض كان حتى لا تعتقد الولايات المتحدة أن مصر تحولت إلى "عروس فى مسرح عرائس يحركها السوفييت"، وأضاف هيكل حينها "أنه لو حدث هذا لأصيب مستقبل العلاقات بين مصر واشنطن بالعطن".

ولك أن تتخيل رد الفعل فى موسكو، حينها وبقرار من ناصر وأصبح هذا معروفا، تم نشر كتيبات باللغة العربية وتم توزيعها فى الولايات المتحدة عما سمى "الأفعال الدموية" للاتحاد السوفييتى فى المجر عام ١٩٥٦.

توترت العلاقات السوفييتية ـ المصرية، وحدث جدل علنى حاد، وصل لمستويات عليا، وعلى خلفية هذا الجدل وبعد انتصار الثورة فى العراق انتشر فى أوساط القيادة السوفييتية رأى مفاده أنه يجب إعطاء الأولوية للجنرال قاسم، لدرجة أن رجلاً ذكيًا ودبلوماسيًا وذا خبرة مثل أ.إ. ميكويان، وفى أثناء زيارة لبغداد فى أبريل عام ١٩٦٠ قال لقاسم : "نحن دعمنا وسندعم دائما استقلال جمهورية العراق ونقدر عاليا سياسة الحياد الإيجابى التى تنتهجها (هذه كانت عبارة صحيحة، لكن بعد ذلك قرر ميكويان أن يسترسل فى فكرته ـ المؤلف) نحن نأمل فى أن تكون هذه السياسة نموذجًا للدول الأخرى. فهذا سيرفع من مكانتنا لدرجة أعلى بين الدول العربية الأخرى. ناصر أراد أن يوحد الدول العربية، واجتذب سوريا، لكنه تصرف معها بشكل سيئ جدا، ولذلك لا يوجد من يريد أن ينضم إليه بعد ذلك. وأخطأ تماما بأن قرر أن يعلن الحرب على الشيوعية ويبدأ حملة ضد الشيوعيين، وهذا سيقضى على مكانته. أراد ناصر أن يفعل مع جمهورية العراق نفس ما فعله مع سوريا، وتوجه لقاسم بقوله، إنه لمن الجيد والصحيح أنكم تقودون الأمور على أساس ديموقراطى فهذا سيكون له تأثير كبير فى

الشرق الأوسط كله والشعب سيقارن بينكم وبين ناصر، وهذه المقارنة لن تكون فى صالح ناصر".

فى نهاية الأمر، من الجانبين ـ الاتحاد السوفييى ومصر ـ انتصر طريق إعادة وتطوير العلاقات. وصل ناصر إلى هذا عن طريق إطلاق سراح الشيوعيين من السجون، واتخذ عدة إجراءات فى الاقتصاد لصالح الجماهير وأصبح مقتنعا بأن الغرب بما فيه الولايات المتحدة لا يمكن أن يكون حليفا لمصر المستقلة. وصلت موسكو من جانبها لهذا من خلال رهانها أكثر على التطور السياسى لناصر رئيسًا لمصر وزعيمًا معترفًا به فى العالم العربى. تخلى الاتحاد السوفييتى عن التصور الديماجوجى عن "النقاء الإيديولوجى"، وهذا لعب دوره كذلك فى عودة الاتحاد السوفييتى لسياسة التقارب مع مصر.

من الممكن الاعتقاد أنه بعد انهيار الدولة المصرية ـ السورية وحتى وفاة ناصر لم يحاول الاتحاد السوفييتى أبداً البحث عن بديل لمصر ناصر يرتكز عليه بين الأنظمة العربية الراديكالية، هذا التوجه استمر دون تغيير، على الرغم من كل ما حدث من صدامات وتدهور فى العلاقات السوفييتية ـ المصرية. وحتى عندما طور الاتحاد السوفييتى علاقاته فى مجالات كثيرة مع سوريا والعراق، إلا أنه لم يجعل سياساته فى هذا الاتجاه بديلا عن علاقات الشراكة مع مصر.

فيما يتعلق بالعراق، فإنه عقب وصول قاسم للسلطة نشأ فيه نظام ديكتاتورى، وتصاعدت الأزمة فى البلاد، والمزاج المعادى لقاسم فى الجيش، الذى كان يعتبره ركيزته الأساسية، تنامى بسرعة، وزادت التناقضات مع زملائه السابقين، وتزعم العقيد عبد السلام عارف المعارضة، فقد أقيل عارف من كل مناصبه وحكم عليه بالإعدام، لكن قاسم عفا عنه ونفاه إلى خارج البلاد، إلا أن عارف عاد سرا وتزعم مؤامرة وأقصاه عن الحكم، ساعدت الأزمة الداخلية فى العراق على تقوية موقف الحزب الشيوعى العراقى، الذى تحول إلى قوة واقعية على الأرض تعتمد على دعم جماهيرى متزايد، حينها وهذا بالتحديد وليس تصرفات قاسم الدكتاتورية هو ما استدعى قلق واشنطن ولندن.

في ربيع عام ١٩٥٩ توصلت الولايات المتحدة وبريطانيا إلى نتيجة مفادها أن عبد الكريم قاسم "ينزلق إلى معسكر أقصى اليسار"، وكان ذلك بالتحديد في الوقت الذى تغير فيه قاسم وأصبح شخصاً آخر - حيث بدأ اعتقالات الشيوعيين وشن حرب دموية على الأكراد في شمال العراق، لكن قاسم السابق وقاسم الذى تغير على حد سواء لم يرض لا واشنطن ولا لندن.

في منتصف الثمانينيات وفي لقاء له مع صحفيي وكالة يونايتد برس الدولية اعترف رجل المخابرات الأمريكية المتقاعد مايلز كوبلاند بأن المخابرات الأمريكية بعد وصول الجنرال عبد الكريم قاسم للسلطة حافظت على "علاقات وثيقة جدا" مع حزب "البعث" المعادى له. وبالتحديد في ذلك الوقت شارك الشاب صدام حسين في مؤامرة إسقاط وقتل قاسم، فقد أسكنوا صدام في شقة تقع في شارع الرشيد في بغداد بجوار وزارة الدفاع العراقية. مؤلف كتاب "بابل الكافر" عادل درويش مقتنع بأن المخابرات الأمريكية كانت على علم بكل جوانب الإعداد لاغتيال عبد الكريم قاسم وأن عنصر المخابرات الأمريكية للاتصال بصدام كان طبيب أسنان عراقي، وكان في الوقت نفسه يعمل لصالح المخابرات المصرية.

فشلت محاولة الاغتيال نفسها، قتل سائق الجنرال، أما عبد الكريم قاسم الذى استلقى على أرضية السيارة وجرح في يده فقط، وصدام أصيب بجرح خفيف في قدمه نتيجة خطأ في إطلاق الرصاص من متآمر آخر، وتمكن من الهرب بمساعدة المخابرات الأمريكية والمصرية، في البداية إلى تكريت مسقط رأسه ثم إلى سوريا ومنها ساعده عملاء المخابرات المصرية في الانتقال إلى بيروت، وهناك احتضنه رجال المخابرات المقيمين، حيث كانوا يدفعون عنه إيجار المسكن ويمدونه بالأموال لمصروفاته اليومية، بعد مرور بعض الوقت ساعدت المخابرات الأمريكية صدام في الانتقال إلى القاهرة. ثم عاد إلى العراق عام ١٩٦٣ وتولى رئاسة مخابرات حزب "البعث".

في فبراير ١٩٦٣ حدث انقلاب في العراق، أعدت له المخابرات الأمريكية من خلال رجالها العاملين في العراق تحت غطاء موظفين في السفارة، نتيجة الانقلاب كانت

الاستيلاء على السلطة وقتل عبد الكريم قاسم، وبعد فترة وجيزة حل محله فى السلطة رسميا عبد السلام عارف.

وصول البعثيين للسلطة بعد مقتل قاسم صاحبه تنكيل دموى بالشيوعيين ونتيجة لذلك قتل آلاف من أعضاء الحزب وأنصاره، لقد أصبحوا ضحايا المجازر التى قام بها الحرس الوطنى الذى أسسه المتآمرون، لقد كانوا يقتلونهم باقتحام منازلهم أو فى الشارع، قوائم وعناوين الشيوعيين قامت بإعدادها المخابرات الأمريكية.

علاقة الاتحاد السوفييتى بالعراق وصلت عمليا إلى نقطة الصفر بعد إسقاط ومقتل قاسم، وما رافقه من استباحة البعثيين الدموية للشيوعيين. كان عداء القيادة السوفييتية لعبد السلام عارف لا تخطئه العين، ترافق وصوله للسلطة فى العراق بالحرب ضد الشيوعيين، ويوضح هذا ما رواه صديقى أوليج كوفتونوفيتش، الذى للأسف توفى فى سن صغيرة، عندما كان مستشارا فى السفارة السوفييتية فى مصر قام بالترجمة فى أثناء جلسة لخروشوف مع ناصر عام ١٩٦٤ بعد المشاركة فى احتفالات أسوان بتحويل مجرى النيل، قرر الزعيمان أن يستريحا على اليخت "الحرية" وذهبا لصيد الأسماك، الحالة المعنوية كانت مرتفعة، وقرر ناصر أن يقدم لخروشوف الرئيس العراقى عبد السلام عارف الذى كان موجوداً معهما على نفس اليخت. قال ناصر "عارف وطنى، وهو يسعى للتقارب مع الاتحاد السوفييتى ويطلب تطوير العلاقات وفتح صفحة جديدة وطى الصفحة الحزينة". لم يخجل خروشوف وكما هى عادته فى التعبير أجاب" أنا لن أقف معه على أرض واحدة"، وعندما حاول أوليج التخفيف من وقع العبارة فى أثناء الترجمة، صاح فيه خروشوف: "ترجم كلمة كلمة". لكن الحقيقة استطاع ناصر فيما بعد بطريقة ما التخفيف من حدة الموقف.

نقلة نوعية فى العلاقات مع البعث السورى

الدفء فى علاقات الاتحاد السوفييتى مع سوريا ومن ثم ازدهارها، بشكل مباشر على كيفية تقبل السوريين البعثيين فى موسكو. وضع هذا القبول فى البداية على

أساس الانطباع بأن البعثيين السوريين يدعمون رفاقهم العراقيين فى الحزب الذى ينتهج نهجًا دمويًا ضد الشيوعية، كما انعكس سلبا أيضا أن حزب البعث العربى الاشتراكى السورى كان ينظر إليه لفترة من الزمن باعتباره حزبًا موحدًا دون فوارق بين المجموعات المنطوية داخله رغم التناقضات بينها فى المواقف السياسية.

عندما أصبحت مراسلاً لصحيفة "البرافدا" فى القاهرة، تلقيت من إدارة التحرير أمرا بعد عدة شهور بأن أسافر إلى دمشق وكان هذا فى أكتوبر عام ١٩٦٥، وكان نتيجة هذه الرحلة مقالاً نشرته فى صحيفة "البرافدا" وكان بعنوان "دمشق كثيرة الطوابق". بدأت المقال بوصف منازل دمشق التى كانت ارتفاعاتها محددة بارتفاع مآذن المساجد، وعدد من الطوابق كانت تحت الأرض لكنها لم تكن على شكل بدرومات، ففى محيط هذه الطوابق كانت توجد مساحات مخصصة للأزهار والأشجار أى حدائق ذات طابع خاص فى مستوى منخفض عن سطح الأرض التى يقع عليها المنزل، وعندما تنظر من بعيد من الصعب أن تحدد عدد طوابق المنزل إلا لو اقتربت منه جدا. هذا النوع من العمارة بالنسبة لى يتماهى مع حالة حزب "البعث" السورى. مقال "دمشق متعددة الطوابق" كان أول ما نشر فى "البرافدا" وأعطى إشارة فى ذلك الوقت لكل الصحافة السوفييتية انطباعا عن عدم تقليدية "البعث" السورى وعن وجود قوى تقدمية بداخله.

بنى المقال على مقابلات وجلسات فى دمشق مع عدد من القيادات البعثية، واحد منهم كان رئيس الاتحاد العام لنقابات العمال خالد جندى، وكونه بعثيا تحدث بصراحة عن وجهة نظره فى مستقبل تطور سوريا مقابل برنامج مؤسسى حزبه صلاح البيطار وميشيل عفلق، بعد ذلك التقيت شقيقه عبد الكريم جندى الذى أكد كذلك ضرورة الخروج من حالة الركود وعمل إصلاح زراعى لصالح الفلاحين وأبدى إصرارا على ضرورة مصادرة أراضى كبار الملاك وإنشاء تعاونيات فلاحية. كلا الأخوين وغيرهما كثيرون رفض بشكل حاسم معاداة قيادات حزب البعث العربى الاشتراكى للشيوعية. فيما بعد عرفت أنهم أرادوا فصل خالد جندى من الحزب بعد نشر المقال، إلا أنهم لم يتمكنوا بسبب وقوع انقلاب فى ٢٣ فبراير ١٩٦٦، وتم إسقاط حكومة صلاح البيطار

وفى دمشق وصل إلى السلطة الجناح اليسارى من حزب "البعث" الذى كان ينتمى إليه الأخوان جندى.

كان نائب وزير الخارجية السوفييتى ف. ف. كوزنتسوف مجتمعا مع ناصر وأبلغه بمعلومات واردة من المخابرات المصرية عن الانقلاب الذى حدث فى سوريا، ناصر أبلغ كوزنيتسوف معلومات استدعت قلقًا حقيقيًا للرئيس المصرى. بعد لقاء ناصر روى كوزنيتسوف لقيادة السفارة السوفييتية وبحضور مراسل "البرافدا" أن المعلومات الواردة من دمشق تشير إلى أنه نتيجة الاستيلاء الدموى على السلطة تم خلع البيطار، الذى كان فى الفترة الأخيرة يسعى لتحسين العلاقة مع القاهرة، وأن السلطة استولى عليها المجموعة غير الراضية عن هذا التوجه، ومن كلام ناصر وصف كوزنيتسوف الذين وصلوا للسلطة بأنهم يمينيون و"خصوم لمصر الناصرية".

فى نفس اليوم هاتفنى نائب رئيس تحرير "البرافدا" وأعطانى أمرًا بأن أذهب إلى دمشق، لقد كان الأمر صعبا فلا توجد حركة طيران مع دمشق، ولذلك سافرت إلى بيروت، بصحبة مراسلين تشيكوسلوفاكيين وبولنديين، ثم استقلينا سيارة إلى الحدود مع سوريا التى تبين أنها مغلقة، حيث كان السوريون يسمحون فقط بمرور مواطنيهم العائدين لوطنهم. عدنا إلى بيروت خاليى الوفاض حينئذ قررت السفر من بيروت إلى بغداد على طائرة الخطوط التشيكية التى كان مفترضًا أن تهبط فى دمشق لأسباب فنية، وقد حذرونى من أننى لن أتمكن من البقاء فى سوريا، وهذا ماحدث تقريبا - فى مطار دمشق أخبرنى الضباط السوريون أنهم سوف يبعدوننى إلى بيروت فورا. لكن الضابط على أى حال سمح لى بالاتصال بأحد معارفى من الزيارة السابقة لدمشق، عبد الكريم جندى، الذى كما اتضح بعد الانقلاب أصبح مشرفا على عمل أجهزة المخابرات، اندهش الضابط وبلطف أجلسنى فى السيارة التى أرسلها لى جندى وهكذا أصبحت فى دمشق.

ساعدنى مقالى فى "البرافدا" "دمشق المتعددة الطوابق"، حيث أصبحت أبواب الشخصيات التى وصلت للسلطة مفتوحة أمامى. لكنى سأتوقف عند مقابلة جرت يوم

٣ مارس مع رئيس الوزراء الزوعين، لقد كنت أول أجنبى يدعى للجلوس معه، قبل هذا اللقاء وفى أثناء الحديث مع الأخوين جندى وقيادة الحزب الشيوعى السورى ووزير الخارجية إبراهيم ماخوس استطعت التأكد من أن الذين وصلوا للسلطة فى سوريا ليسوا يمينيين على الإطلاق، بل هم خصوم القيادة اليمينية "للبعث"، وأنهم ليسوا معادين لناصر على الإطلاق، بل على العكس يسعون إلى بناء علاقة جيدة مع مصر. ولهذا عندما سمعت رواية الزوعين عن النوايا التقدمية لحكومته قلت له : "غدا حسب علمى ستعقدون مؤتمرا صحفيا، وأنا عندى معلومات أنهم فى القاهرة يعتبرونكم معادين لمصر الناصرية، وأعتقد أنه من المفيد أن تنفوا وبشكل حاسم هذه "الفكرة المغلوطة". فى اليوم التالى فعل الزوعين هذا، وكنت سعيدا أننى قدمت صنيعا لكى لا يحدث خلاف بين مصر وسوريا "من لا شىء".

أما فى موسكو فقد كانوا على ما يبدو تحت تأثير التقييم الأولى لناصر. على أى حال أول رسالتين أرسلتهما عن الأحداث فى سوريا واللتين حملتا تقييمًا إيجابيًا لما يحدث فى سوريا لم تنشرهما "البرافدا"، أخروا كذلك نشر المقابلة مع الزوعين. السفير السوفييتى فى سوريا آنذاك أناتولى ألكسندروفيتش باركوفسكى كان فى حالة قلق بسبب رد فعل قيادة وزارة الخارجية السوفييتية على المعلومات الموضوعية التى أرسلها. بعد جلستنا الطويلة لمناقشة ما يحدث فى سوريا، أرسل باركوفسكى رسالة شفرية إلى موسكو يقترح فيها استدعاءه لتقديم تقرير. فى ١١ مارس وباستدعاء من رئاسة تحرير "البرافدا" غادرت إلى موسكو فى اليوم التالى لوصولى قدمت تقريرًا عن لقاءاتى فى سوريا وانطباعاتى إلى اللجنة المركزية، كنت أنا وباركوفسكى راضين عن المبادرة التى اتخذوها. فقد أكدوا للسفير صحة تقييمه لما حدث فى سوريا فى وزارة الخارجية، وموضوعاتى ذهبت لصفحات الجريدة. وفى ٢٤ مارس غادرت موسكو إلى ة من جديد.

ـع كانت السماء مازالت بعيدة عن أن تكون صافية فى سماء سوريا فى ذلك ـبح جليا أن الذين وصلوا للسلطة قوى مستعدة لبناء علاقات قوية مع ،. إلا أن التقارب الحقيقى بين الاتحاد السوفييتى وسوريا حدث بعد

أن وصلت للسلطة مجموعة برجوازية صغيرة أكثر تطرفا عام ١٩٧٠، بقيادة حافظ الأسد.

بالمناسبة أول مقابلة لى مع حافظ الأسد كانت فى مارس عام ١٩٦٦، بعد انقلاب فبراير ولقائى برئيس الوزراء الزوعين دعيت إلى مسيرة نظمت بمناسبة ذكرى تأسيس حزب البعث. وكانت القيادة الجديدة تقف على المنصة. حينها قدمونى إلى قائد القوات الجوية السورية حافظ الأسد الذى وصل فى أثناء المسيرة وصعد إلى المنصة، وكانت تحرسة مجموعة من الحراس يحملون الأسلحة الأوتوماتيكية، وكانوا بيقظة وانتباه ينظرون لصفوف المسيرة التى تمر من أمام المنصة، فالحالة لم تكن مستقرة بعد، وانقلاب ٢٣ فبراير كان الأكثر دموية عن كل ما حدث من قبل فى سوريا.

المثير للاهتمام أنه عندما التقيت الرئيس الأسد فى السبعينيات وذكرته بتعارفنا لأول مرة مرة، اندهش جدا وسألنى "هل معقول أنك نفس مراسل البرافدا الذى تعرفت عليه فى أثناء المسيرة ؟".

الفصل السادس

غياب المستقبل الشيوعى

توجه القيادة السوفييتية فى الخمسينيات والستينيات لدعم الأحزاب الشيوعية فى الدول العربية حجب عنها واقع عدم وجود مستقبل للشيوعية فى الشرق الأوسط. لقد كتبت أنهم لم يفهموا مباشرة هذا فى موسكو لم يتجهوا مباشرة لصالح قوى الثورة الوطنيـة. إلا أن هذا التـوجـه حـدث. ومن الممكن أن تكون الأحـداث فى السـودان وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية أنهت تردد حتى هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بأنه يوجد ولو "بارقة" أمـل لانتصـار والبقـاء فى السلطة فى العالم العربى لقوى شيوعية أو حتى قريبة من الشيوعية، فى المستقبل.

الحزب الشيوعى السودانى

العداء لنميرى ونتائجه.

أول مرة زرت فيها السودان كانت فى يناير عام ١٩٦٦، وكان هذا بعد إسقاط ديكتاتورية الجنرال عبود العسكرية. وصول الحزب الوطنى الاتحادى والحزب الأكثر رجعية (الأمة) للسلطة، بعد تصفية النظام العسكرى بقى الحزب الشيوعى السودانى علنيًا وشرعيًا لعدة أشهر، لكن قبل وصولى بفترة وجيزة صدر قانون بحظر نشاط الحزب الشيوعى السودانى، وأصبح حزبًا سريًا من جديد ومع ذلك كانت لديه شعبية

كبيرة فى البلاد، فقد رفض الحزبان الحاكمان إمكانين وجود الحزب الشيوعى السودانى فى الحياة السياسية السودانية.

إلا أن علاقات العداء للشيوعيين المحليين حينئذ لم تنعكس على سعى قيادات الحزب الديموقراطى الاتحادى والمؤيدين للإصلاحات فى حزب الأمة، رغم هذا، لتطوير العلاقات مع الاتحاد السوفييتى، فرئيس الحزب الديموقراطى الاتحادى الأزهرى وزعيم حزب الأمة الثلاثينى صادق المهدى، الذى تجمع حوله "الإصلاحيون" الحزبيون، قد تحدثا معى بشكل مباشر عن ذلك. وعندما زرت وزير الإعلام وكان من حزب الأمة، شاهدت على مكتبه صورة نجله الطالب الذى كان يدرس التاريخ فى جامعة لينينجراد وقال الوزير "لقد أرسلته للدراسة فى لندن ولكنه كان يرغب فى الدراسة بالاتحاد السوفييتى"، وروى لى تفاصيل أخرى مشوقة. وفى نوفمبر عام ١٩٦٥ خرجت مظاهرات حاشدة فى الخرطوم رافعة شعارات معادية للشيوعية، فى الوقت الذى كان فيه الصادق المهدى رئيس حزب الأمة قد وصل لافتتاح مركز ثقافى روسى فى العاصمة السودانية، وألقى خطابا ضمنه كلمات دافئة بحق الاتحاد السوفييتى.

فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ قامت مجموعة من ضباط الجيش بقيادة نميرى بانقلاب، وبعد أن سيطر نميرى على السلطة غادرت القاهرة إلى الخرطوم، كانت المهمة التى كلفتنى بها رئاسة تحرير "البرافدا" أن ألتقى زعماء الانتفاضة المنتصرين والحزب الشيوعى السودانى الذى خرج للعلن. فى ٢٩ مايو عقدت لقاء مع سكرتير الحزب الشيوعى السودانى عبد الخالق محجوب، شاهدوا ماذا قال لى (أسرد ما سجلته فى أثناء اللقاء – المؤلف) : "النظام الجديد تقدمى. شارك مجموعة من رجال الجيش الشيوعيين فى إعداد وتنفيذ الانقلاب. لكن ليس هناك رغبة من الشيوعيين فى أن ينوبوا داخل مجلس قيادة الثورة الذى شكله نميرى. تم اختيار عدد من الشيوعيين فى الحكومة، لكن بصفة شخصية وليست حزبية وعلى أساس كما قال رئيس الوزراء استحقاق شخصى، اختاروا عدداً من الرفاق الجيدين، لكن عند تعيينهم لم يتشاوروا مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السودانى. نحن سنستمر فى النضال من أجل أن تكون السلطة

الجديدة مرتبطة بالشعب الثورى، ومن أجل هذا ستحتاج السلطة إلى شراكة على قدم المساواة مع الحزب الشيوعى، الذى يمثل فى اللحظة الحالية القوة الواقعية الوحيدة التى لها القدرة على العمل وسط الجماهير". عبارة "شراكة على قدم المساواة" ثقبت أذنى. الشك فى وضع الأمور بهذا الشكل تأكد بعد أن قابلت الجنرال جعفر نميرى.

لقائى بالجنرال نميرى جرى فى اليوم التالى ٣٠ مايو فى مبنى رئاسة أركان الجيش، ساعدنى، على أن أكون أول أجنبى يرى قائد الانقلاب، زميلى المستشرق المتفوق شوتا كوردجيلاشفيلى الذى كان يرأس المركز الثقافى السوفييتى فى الخرطوم، فقد كان لديه علاقات جيدة بكثير من السودانيين المقربين من القيادة الجديدة، اللقاء كان فى اليوم الخامس بعد إسقاط النظام القديم. والسلطة الجديدة لم تستقر بعد، حيث كان يعارضها بقوة الحزب الديموقراطى الاتحادى وحزب الأمة اللذان كانا يتزعمان الطائفتين الدينيتين الأكبر فى السودان. خرج لمقابلتى فى شرفة خشبية داخلية من مبنى رئاسة الأركان شخص مرهق يرتدى قميصًا كاكى اللون، عيناه حمراوان بسبب قلة النوم، إنه الجنرال جعفر نميرى، تعارفنا ووافق على الإجابة على عدد من الأسئلة للنشر فى الصحيفة، لم أستطع إرسال المقابلة إلا من خلال وسائل الاتصال فى السفارة السوفييتية، كما قلت من قبل من "أعلى". لم تكن هناك إمكانية أخرى حيث إن الاتصالات التليفونية لم تكن تعمل فى الخرطوم، ربما يكون هذا هو الحدث الوحيد، عندما ترسل رسالة شفرية تحتوى على أسئلتى وإجابات نميرى وحصلت على موافقة إيديولوجى الحزب الأول وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى الجبار م.أ. سوسلوف "ينشر فى "البرافدا".

سوف أسرد نص هذه المقابلة بالضبط نظرا لأنها تعكس الأفكار التى أتى بها نظام نميرى للسلطة، مع هذه الأفكار كان متفقًا وسافر معى على نفس الطائرة من القاهرة للخرطوم الرفيق المقرب أحمد حمروش، الذى سلم نميرى رسالة من ناصر وعقد لقاء معه.

سألت نميرى : ألا تستطيعون توصيف الوضع الحالى فى السودان؟

– السلطة الجديدة ستستقر، لقد تمكنا من أخذ إدارة البلاد فى أيدينا. النظام الذى أسقطناه كان قد تعفن. نحن نحظى بتأييد الجزء الأكبر من السكان. نحن كلنا عزم على تحطيم كل القوى التى ستقف أمام الشعب، الثورة يجب أن تدافع عن نفسها، نحن يجب ألا نسمح بتحول جنوب السودان(١٥) إلى قاعدة للثورة المضادة، لقد عقدنا اجتماعًا استمر لعدة ساعات مع الحكومة بهذا الخصوص. مشكلة الجنوب معقدة، لا يمكن حلها فى يوم أو اثنين، لكننا وضعنا هدف تسويتها وسنفعل هذا. سوف نعطى قبائل الجنوب التى تختلف أصولها العرقية ودياناتها ولغتها حقوقهم الوطنية فى إطار وحدة الدولة السودانية، سوف نقترح عليهم شكلاً محددًا من الحكم الذاتى، أمامنا أمثلة لحل الأمور القومية فى كثير من الدول بما فيها الاتحاد السوفييتى.

● أى شكل من أشكال التنمية الداخلية سيتبع السودان فى المستقبل القريب ؟

– بعد وصولنا للسلطة فى ٢٥ مايو منعنا المؤتمرات والمظاهرات، لكى لا تستخدم ردود الأفعال عليها لخلق حالة من الفوضى والصعوبات، لكن لا نعتقد أنه ممكن إدارة البلاد بالطرق الإدارية فقط، نحن لا نتصور المستقبل دون مشاركة شعبية واسعة، وبدون وحدة كل القوى التقدمية بما فيها الحزب الشيوعى السودانى. وبالطبع سنأخذ خصوصية السودان الوطنية والدينية فى الاعتبار.

● وما هى نوايا قيادتكم فيما يتعلق بالتدابير المتعلقة بالبناء الاقتصادى للسودان ؟

– تشكل مجلس قيادة الثورة لكى يوفر الظروف لتنمية البلاد بطرق تقدمية، الإجراءات العملية فى هذا الشأن بما فيها الاقتصاد سوف تقوم بها حكومة مدنية، هدفها الأساسى تطوير الاقتصاد الوطنى المتخلف جدا، ويمتلك السودان لهذا الغرض موارد طبيعية ضخمة، التنمية الاقتصادية يجب أن تكون من أجل الشعب. أول إجراءات الحكومة اتخذتها بالفعل وهى تتعلق بخفض أسعار السلع الأساسية ـ الملح والشاى والقهوة ـ أظهرت أننا مهتمون بالشعب. نحن عازمون على إعادة تنظيم إدارة إنتاج القطن الحالية، الجهاز الإدارى الجديد سيتم إنشاؤه على أساس اقتصادى

صحيح يحقق مصالح الفلاحين، المستأجرين والدولة، واتخذت الحكومة قراراً بإلغاء الديون القديمة المستحقة على زراع القطن المستأجرين للأراضى.

تحاول بعض العناصر الرجعية زرع الشكوك ونشر الإشاعات عن أن الحكومة عازمة على تأميم الممتلكات الخاصة بالجماهير بهدف تقويض ثورتنا، هذا إشاعات كاذبة. فالحكومة الثورية تعى دور رأس المال السودانى والأجنبى فى المجال الاقتصادى، وتدرك أن بلدنا سيكون ذا اقتصاد متنوع مع مرور الوقت يجب أن يشغل فيه قطاع الدولة وضع الأولوية......."

وفى معرض إجابته على سؤال حول السياسة الخارجية للسودان، هكذا أجاب الجنرال : "نحن سنكون مع كل القوى التى تقوم بالنضال ضد الاستعمار. أحد أولى الخطوات الدبلوماسية للقيادة الجديدة كانت الاعتراف بجمهورية ألمانيا الديموقراطية، كما يحمل الشعب السودانى امتناناً كبيراً للاتحاد السوفييتى على المساعدات الضخمة التى يقدمها لنضال العرب من أجل حقوقهم فى التحرر ونضالهم ضد الإمبريالية. نحن نرى مستقبلنا فى التعاون المتنوع مع كل الدول الصديقة بما فيها الاتحاد السوفييتى".

أتذكر جيدا شعورى بالرضى عما سمعت. جلست مع نميرى عدة دقائق إضافية، فيما هبط على الخرطوم ليل أسود حار، وبدأوا يضعون فى الشرفة أسرة من النوع الذى يطوى، فأعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا يقضون الليل والنهار فى هذا المكان، وكانوا ينامون ساعات قليلة. عند الحواجز التى تغلق البوابات كانت تتمركز سيارات مدرعة.

للأسف الكثير من تلك الأفكار التى قيلت فى المقابلة مع نميرى، لم يكتب لها نصيب أن تتحقق. حدث هذا وليس أخر أسباب الفشل الخط المتقوقع لقيادة الحزب الشيوعى السودانى، هذا التوجه اختلط فى الحقيقة بأفعال بطولية للشيوعيين السودانيين، الذين كانوا على استعداد للتضحية بل ضحوا بأنفسهم من أجل مصالح الشعب.

انحرف نميرى نهائيا عن الأفكار التى وصل بها للسلطة، بعد أن تمكن من سحق مؤامرة ضده عام ١٩٧١ بصعوبة بالغة، كان ضمن المتآمرين قيادات من الحزب

الشيوعي السوداني، وقد كتبت أن الأحزاب الشيوعية العربية التى احتضناها لم تكن تحيط اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى علما بمخططاتها، أو ما كانت تعد له من أعمال تتعلق بإسقاط الأنظمة التى كان للاتحاد السوفييتى علاقات وثيقة بها، هكذا تصرف الحزب الشيوعى السودانى عام ١٩٧١ عندما شارك فى مؤامرة ضد نميرى ومع حكومة كانت تطور تعاونًا وثيقًا مع الاتحاد السوفييتى. عدد كبير من خبرائنا كانوا موجودين فى السودان، بما فى ذلك فى الجيش السودانى الذى تم تزويده بأسلحة سوفييتية حديثة.

أنا متخيل مغامرة الحزب الشيوعى السودانى فى المؤامرة التى كانت تهدف لإسقاط نميرى، الذى اعتقل وحرره أتباعه، وقيادة هؤلاء الذين أرادوا إسقاطه حكم عليهم بالإعدام. فى ذلك الوقت كان ب.ن. بونوماريف موجودا بالقاهرة، وذهب إلى الرئيس السادات بصحبة السفير السوفييتى بعد منتصف الليل مؤكدا بذلك على المهمة العاجلة التى يقوم بها، وطلب من السادات الاتصال بنميرى ليمنع تنفيذ حكم الإعدام فى سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السودانى عبد الخالق محجوب، نميرى أجاب السادات بأن : "الوقت تأخر جدا فقد أعدموا بالفعل".

بعد عودته الدرامية للسلطة، اتجه نميرى بشكل حاد فى اتجاه اليمين فى سياسته سواء داخل البلاد أو فى السياسة الخارجية، وانتهت بذلك إمكانية تطور السودان ديموقراطيا، وابتعد نميرى عن التحولات التقدمية فى الاقتصاد والتى بدأت قبل الأحداث بوقت قصير. ونشطت بسرعة وحدة عملية أسلمة البلاد وحياة المجتمع بصفة عامة، وأعلن نميرى أن تشريعات السودان من الآن ستكون مرتبطة بالشريعة. وأدت الحالة الاقتصادية التى ازدادت سوءا، والحرب التى اندلعت من جديد فى الجنوب، وتصاعد عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى إلى حدوث انقلاب دون إراقة دماء فى أبريل ١٩٨٥، وتم إسقاط نميرى وهاجر إلى القاهرة، بعد ذلك تغيرت الحكومات واحدة وراء الأخرى وبسط الزعماء الدينيون نفوذهم على كل نواحى الحياة، وتم تأسيس الجبهة الوطنية الإسلامية بزعامة الشيخ حسن الترابى، وأصبح فى نفس الوقت رئيسا للبرلمان والسكرتير العام لحزب المؤتمر الوطنى الحاكم.

خلال العشر سنوات التى حكم فيها الترابى من ١٩٨٩ وحتى ١٩٩٩ تحولت البلاد فى الواقع إلى ملاذ للإسلاميين المتطرفين، وتم وضع السودان على قائمة الدول الممولة للإرهاب من قبل الولايات المتحدة. حيث أوت السودان زعيم القاعدة أسامة بن لادن على مدى عدة سنوات بعد أن أسقطت السعودية عنه الجنسية، كما كان يختبئ هناك الإرهابى كارلوس.

فى ديسمبر سعت قيادة السودان العسكرية برئاسة الجنرال عمر البشير إلى إخراج البلاد المنهارة من العزلة الدولية، وإنهاء الحرب فى الجنوب، فقام بإقالة الترابى من كل مناصبه التى كان يشغلها، وبدأت البلاد تتعافى تدريجيا.

اليمن الجنوبى:

الانحراف اليسارى المدمر

كانت نظرية التطور اللارأسمالى أو التوجه نحو الاشتراكية من اختراع الاتحاد السوفييتى وكانت تعنى مرحلتين: الأولى، ديموقراطية ـ وطنية والثانية ديموقراطية ـ شعبية وهى أقرب إلى الاشتراكية. وكانت جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية منسوبة إلى "الجيل الثانى من الدول ذات التوجه الاشتراكى" على أساس أن استقلال اليمن تم انتزاعه تحت قيادة ثورية منظمة وضعت لنفسها هدف إقامة مجتمع اشتراكى من البداية، وكما أنه فى أثناء النضال من أجل الاستقلال وبعد ذلك فى مرحلة بناء الدولة تكون حزب طليعى أعلن أن إيديولوجيته هى الاشتراكية العلمية.

هذا الثبات لم يكن إلا أن يولد الأمل فى أن دولة عربية ستظهر فى المعسكر الاشتراكى الذى يقوده الاتحاد السوفييتى وهى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، لكن مثل هذه الأحلام لم يكن مقدرا لها أن تتحقق، لم تصمد طرق البناء الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى والدول الأخرى المنتمية للنظام الاشتراكى أمام الصدام مع واقع متطلبات المجتمع ومصالحه، وأنا لا أريد هنا أن أفصل سلبيات وإيجابيات ممارسة

عملية محددة. ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن مثال جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية يشهد على الضرر المهلك "للقفز" نحو الاشتراكية دون أخذ واقع الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادى والسياسى فى البلاد بعين الاعتبار، وإلى أنه لا مفر من انتشار أفكار الانحراف اليسارى عند منظمى "القفز" وعن أن البناء الشيوعى عموما لم يكن لديه أى مستقبل فى العالم العربى فى مرحلة التطور التاريخية الحالية.

هبت الانتفاضة فى اليمن الجنوبى ضد الاستعمار فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ بزعامة الجبهة القومية، التى وضعت نصب عينيها هدفًا نهائيًا هو بناء الاشتراكية، ونتيجة كفاح مسلح استمر أعوامًا كثيرة أعلن استقلال اليمن الجنوبى فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧. تكونت حكومة جديدة من أعضاء الجبهة القومية، وكانت مدعومة من الفلاحين وعدد قليل من الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة والمثقفين واتحاد الشعب الديموقراطى الذى أسس فى بداية عام ١٩٦٠ بقيادة عبد الله باذيب. شغل اليساريون فى ذلك الوقت أغلب المواقع فى القيادة وتمركزوا على أراضى اليمن الجنوبى بينما السكرتير العام قحطان محمد الشعبى والمحيطون به كانوا موجودين فى القاهرة.

ولم تكن الدولة الوليدة قد انتزعت الاستقلال بعد حتى حدثت خلافات عميقة، وازدادت هذه الخلافات شدة نتيجة أن معظم حقائب الحكومة الأولى حصل عليها ممثلو الجناح المعتدل، وأصبح الشعبى المدعوم من مصر رئيسا للوزراء. فى المؤتمر الرابع للجبهة والذى عقد فى مارس عام ١٩٦٨، طالب الجناح اليسارى بقيادة عبد الفتاح إسماعيل الذى كان يشغل منصب وزير الثقافة فى الحكومة إجراء إصلاح زراعى فورا، وإنشاء قطاع حكومى فى الاقتصاد، وحل الجيش القديم والشرطة وتكوين جيش شعبى ثورى على أنقاضهما، الكثير من هذه المطالب تحولت إلى قرارات وافق عليها المؤتمر، إلا أنه لم يتم تنفيذها فى الواقع تحت ضغط الضباط الكبار الذين يقفون مع اليمين، والذين حاولوا القيام بانقلاب.

فى بداية عام ١٩٦٨ التقيت عبد الله باذيب وعبد الفتاح إسماعيل ومحمد عولقى والرئيس الشعبى، ومن هذه الجلسات خرجت بانطباع قوى أن اليساريين انطلاقا من دوافع أفضل، يحاولون الإسراع فى إحداث تغييرات فى مناحى الحياة فى اليمن الجنوبى، غير عابئين بعدم وجود الظروف الملائمة لتنفيذ الأفكار المتطرفة، على الرغم من أن التركيبة القبلية فى جنوب اليمن فى أثناء حكم الإنجليز اتضح أنها تجرفت بدرجة أكبر بكثير من الشمال، الذى حافظ فيه السلاطين وكبار الإقطاعيين على قوة كبيرة، كما أن إغلاق قناة السويس بعد تأميمها خلفت الآلاف من العاطلين عن العمل فى عدن. قبل خروج الإنجليز ضاعفوا ثلاث مرات رواتب الضباط والجنود، حيث أصبح الضباط يحصلون على ٢٠٠ جنيه إسترلينى والجنود على ٦٠ : ٨٠ جنيهًا، بالنسبة لعدن كان هذا المبلغ كبيرا جدا، مما أدى إلى نشوء الطبقة العسكرية التى أعاقت أى أعمال من الممكن أن تضعفها، كما أن السكان وقعوا تحت ضغط الدعاية التى تبثها الإذاعة السعودية ضد التحولات الاجتماعية التى من "الممكن أن تدعم الانسلاخ عن الإسلام".

قال لى عبد الفتاح إسماعيل متجاهلاً كل هذا الواقع :"أما وأننا اخترنا طريق الاشتراكية العلمية، فإن تقديم المساعدات لنا هو واجب الاتحاد السوفييتى. وهو بهذا الشكل إنما يقدم المساعدة لنفسه، ونحن فى هذا الوقت يجب أن نقوم بعمل التحولات الاشتراكية، وهذا ضرورى لحماية الثورة. نحن بامتلاكنا جبهة شعبية عريضة يجب أن نؤسس حزبًا، وواجبنا أن نضع النظام الجمهوري على الطريق الصحيح فى الشمال (يقصد الجمهورية العربية اليمنية - المؤلف)، إنهم يجب أن يقدموا للشعب إمكانيات كبيرة لتحقيق الشعارات الجمهورية الثورية فى الواقع".

وكان الرئيس قحطان الشعبى أكثر حذرا فيما يتعلق بخطط التحولات فى الجنوب والعلاقات مع الشمال، وتحدث عن ضرورة حل المشاكل على مراحل وإجراء تجارب مؤكدا على "التخلف الشديد" للبلاد وقال :"نحن نراهن على تقديم امتيازات للشركات الأجنبية، بما فيها الدول الصديقة، لكن ليس على أساس شروط غير متكافئة كما كان

فى السابق...... الدولة ستدير التجارة الخارجية لكن فى المستقبل فقط. نحن يجب أن نولى اهتمامًا خاصًا للتطوير الاجتماعى للريف بالدرجة الأولى، ففى بعض القرى لا يوجد حتى آبار للحصول على الماء الصالح للشرب. نحن نعول كثيرا على مساعدات الاتحاد السوفييتى، لكن مبدأنا الرئيسى هو أن هذه المساعدات يجب ألا تمس حريتنا واستقلالنا بأى حال من الأحوال". ولم يتحدث الشعبى لا عن الاشتراكية العلمية ولا عن الماركسية اللينينية.

عند تصفحى لأوراق مفكرة التدوين الخاصة بى، والتى أنقل عنها عبارات قادة اليمن الجنوبى، وجدت نفسى من جديد أنتقل إلى فكرة أن احتساب الشعبى على "اليمينيين الانتهازيين"، كما فعلت هذا العناصر اليسارية المحلية والبعض عندنا فى الاتحاد السوفييتى ليس له أساس، فالشعبى أفضل من كثيرين فى تقدير الموقف، وأقل تعرضا للتأثر "بالسطحية". ولم يغير الجناح اليسارى فى الجبهة القومية بقيادة عبد الفتاح إسماعيل موقفه، وكانت نتيجة الصراع السياسى الحاد أن ترك المجموعات المتطرفة، التى حاولت الاستيلاء على السلطة بقوة السلاح للانتقال على وجه السرعة لتكوين جبهة عريضة للتحولات الاشتراكية. بعد سحق التمرد هرب أعضاء هذه المجموعة للخارج.

تمكن عبد الفتاح إسماعيل وأتباعه خلال عامين بعد الاستقلال من تقوية مواقعهم وفى ٢٢ يونيو ١٩٦٩ استولوا على السلطة متهمين الشعبى بمخالفة مبدأ القيادة الجماعية، وتم اعتقاله، وفى صيف ١٩٧٠ قتل فى أثناء "محاولته الهرب". وتعرض الضباط وجهاز الدولة لحملة تطهير.

وأنشئ الحزب الاشتراكى اليمنى عام ١٩٧٨، وهنا يجب القول أن إعلان الحزب تأجل لعدة سنوات، بسبب الخلافات بين المنظمات المكونة له. بعد ذلك أصبحت العلاقات القبلية تلعب دورًا أكبر فى العلاقات داخل الحزب الاشتراكى اليمنى، وبدأت تظهر مجموعة يرأسها سالم ربيع على (سالمين ـ المؤلف) ووقفت خلفها قبائل من ثلاث

مناطق. معتمدا عليها، قرر سالمين إقالة عبد الفتاح إسماعيل من المجلس الرئاسى والاستيلاء على السلطة، لكن المؤامرة انكشفت وأعدم سالمين رميا بالرصاص. فى المطبوعات الحزبية اتهموا مجموعة سالمين "بالانحراف اليسارى" وبنشر "الانتهازية اليمينية".

بعد فشل مؤامرة سالمين بدأ الصراع بين عبد الفتاح إسماعيل وعلى ناصر محمد، وانتهى لصالح على ناصر محمد، واضطر عبد الفتاح إسماعيل إلى أن يقدم استقالته "لأسباب صحية"، اجتمعت اللجنة المركزية وأقالت عبد الفتاح إسماعيل من جميع مناصبه العليا فى الحزب والدولة، وهاجر إلى موسكو. وأصبح على ناصر محمد سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الاشتراكى اليمنى واحتفظ لنفسه بمنصب رئيس الوزراء، ثم بعد ذلك بوقت قصير انتخب رئيسا لمجلس الشعب الأعلى.

وكما هى العادة علقوا كل الأخطاء على الشخص الذى أقالوه من السلطة، المغامرة بمحاولة ضم جنوب اليمن لشماله بالقوة والأخطاء الاقتصادية. مع أنه من الواضح أن عدم توافق مواقف قائدى الجناح اليسارى لم يكن السبب الرئيسى للانقسام، بينما كان الدافع الرئيسى للصراع بينهما هو السعى للاستيلاء على السلطة.

ثم بدعوة لأن يعود للوطن وأن ينضم لقيادة الحزب عاد عبد الفتاح إسماعيل إلى عدن فى يناير ١٩٨٣، بسرعة انكشف سبب قرار على ناصر محمد هذا والذى أصدره كمادبدا لمصلحة وحدة الحزب وأصبح أكثر من واضح. فقد أطلق الرصاص على عبد الفتاح إسماعيل وأتباعه فى أول اجتماع للمكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الاشتراكى اليمنى، لكن الدراما لم تنته عند هذا، حيث اندلعت فى عدن مواجهات دامية راح ضحيتها عشرة آلاف شخص، وتم سحق أنصار على ناصر محمد وهرب هو نفسه إلى الشمال للجمهورية العربية اليمنية.

أتيح لى زيارة اليمن، صنعاء وعدن، فى ديسمبر ٢٠٠٥ بعد فترة انقطاع طويلة، وهناك التقيت الرئيس على عبد الله صالح ورئيس الوزراء عبد القادر باجمال. تطرقنا

فى أثناء حديثى مع رئيس الوزراء إلى أحد الموضوعات التى أصبحت من ماضى البلاد والذى كان لديه معلومات جيدة عنها، باجمال تم انتخابه عام ١٩٨٠ عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى اليمنى وأصبح وزيرا للصناعة ورئيس لجنة النفط والثروة المعدنية، وتم اتهامه فى يناير ١٩٨٦ بأنه على اتصال بالسكرتير العام للحزب الاشتراكى اليمنى على ناصر محمد وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، وهذا حكم مخفف بالنظر لأنه تم إعدام العشرات رميا بالرصاص، يبدو أنه لم يشارك بشكل مباشر فى "أنشطة انشقاقية"، لكنه قضى الثلاثة أعوام فى السجن. وحسب رواية باجمال إن تصرفات القيادة اليسارية للبلاد حينها بلغت النقطة الحرجة، وصلت الأمور إلى حد منع المسجونين وبدون تمييز من قراءة القرآن والكتب ذات الموضوعات الدينية وكانوا يجبرونهم على دراسة الأدبيات الماركسية.

بعد وحدة اليمن انتخب باجمال عضوا فى البرلمان اليمنى وأصبح عضوا فى اللجنة الدائمة لحزب "المؤتمر الشعبى العام" الحاكم. تحدث هذا الاقتصادى الواسع الاطلاع عن القتل غير المبرر الذى حدث نتيجة الانحراف اليسارى لقيادات اليمن الجنوبى، وقال إن "الثورة الحقيقية بدأت مع وحدة اليمن الشمال مع الجنوب".

بالطبع يبقى اليمن بلداً ضعيف التطور فى أشياء كثيرة، بناؤه قبلى، لكن نظريا يمكن ملاحظة تغيرات كبيرة حدثت خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة. الانتشار الواسع للبناء فى المدن، العدد الكبير من السيارات، كوادر كثيرة درست فى الاتحاد السوفييتى، عدد من أعضاء الحكومة من خريجى جامعات دول شرق أوروبا، وقيل لى إن خمسة وزراء فى الحكومة يتحدثون اللغة الروسية.

بصفة عامة ـ وهذا كان سيئًا جدا ـ أنه فى المطبوعات السوفييتية كانوا يبتعدون عن أى نقد للأحزاب الشيوعية العربية مهما كان، النقد الحاد تسمعه فقط فى حق تلك المجموعات الشيوعية التى فى ظروف الصراع الإيديولوجى ـ السياسى بين الحزب الشيوعى السوفييتى والحزب الشيوعى الصينى اختاروا أن ينحازوا للحزب الشيوعى

الصينى، وهؤلاء كانوا قليلين جدا فى صفوف الشيوعيين العرب، من الممكن أن تكون ظروف المواجهة الإيديولوجية بين الحزب الشيوعى السوفييتى والحزب الشيوعى الصينى، لم تسمح حتى بنقد غير مباشر للأحزاب الشيوعية العربية المحسوبة على السوفييت، وهذا جعل أمراضها متجذرة.

فى نهاية الأمر خرجت الحركات الشيوعية فى العالم العربى من الساحة السياسية، وهذا حدث حتى قبل أن يتوقف الحزب الشيوعى السوفييتى عن نشاطه وحتى قبل انهيار الاتحاد السوفييتى بوقت قصير، لكن غير صحيح الاعتقاد بأن الحركات الشيوعية فى العالم العربى لم تلعب أى دور فى تاريخه، فهى حتى رغم الأخطاء التى ارتكبتها وتعرضها للصعوبات ساعدت فى التطور الإيجابى للبرجوازية الصغيرة فى العالم العربى.

الفصل السابع

الولايات المتحدة تتصدر المشهد

كانت المهمة الأساسية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية هى السيطرة على المقدرات النفطية فى المنطقة، إلا أن المواجهة مع الاتحاد السوفييتى أضافت لهذا مهمة أخرى وهى إقامة رأس جسر عسكرى بالقرب من الحدود السوفييتية. حينها كان من الصعب وضع هذين الهدفين على مسار واحد، ولذلك راهنت الولايات المتحدة على تقوية العلاقات مع الأنظمة الملكية العربية، حيث توجد مكامن النفط الرئيسية على أراضيها، وهذا الرهان هو الذى حدد سلفا ضرورة المناورة فى مسألة إنشاء أحلاف عسكرية فى الشرق الأوسط، فعلى سبيل المثال رفضت الولايات المتحدة المشاركة فى حلف بغداد، على الرغم من أنها لم تدعمه فقط، بل أنشأت هذا الحلف بنفسها بأيدى لندن، تحفظ الولايات المتحدة ناجم عن علاقة المملكة العربية السعودية السلبية بحلف بغداد بسبب مشاركة العراق فيه، فالعلاقة بين السعوديين والهاشميين كانت ملبدة بالغيوم.

محاولات الولايات المتحدة بناء جسور مع مصر الناصرية جعلها تحجم عن وجود عسكرى مباشر لها فى الشرق الأوسط، لكن مع نهاية عام ١٩٥٦ أصبح من الواضح أن هذا لن يتحقق. أما أنه ولأسباب كثيرة قد فشل العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، فقد أدى هذا بلا شك لنمو التعاطف مع مصر والقومية العربية ليس فقط فى الدول العربية

ولكن فى ما يسمى "بالعالم الثالث" ككل، وتعاظم تأثير مصر فى تثوير العالم العربى، فى هذه الظروف، وفى يناير ١٩٥٧ تم الإعلان عما عرف بمبدأ أيزنهاور.

مبدأ أيزنهاور

ونهاية الغزل مع القومية العربية

تحدث مبدأ أيزنهاور عن ضرورة عزل دول الشرق الأوسط عن الشيوعية وعملائها، ولهذ الغرض فإن الولايات المتحدة كانت مستعدة لاستخدام كل إمكاناتها لدرجة التدخل المباشر فى شئون دول الشرق الأوسط. ولا أعتقد أن واشنطن فى ذلك الوقت لم تكن تدرك أن خطر الشيوعية فى الشرق الأوسط غير موجود، فواشنطن التى تمتلك مصادر معلومات قوية بما فيه الكفاية، بالبديهة، يجب ألا تنطلق من أن الاتحاد السوفييتى عازم على إقامة أنظمة شيوعية فى الدول العربية. من الواضح أن منتج مبدأ أيزنهاور المعادى للشيوعية، كان يهدف إلى استمالة حلفاء الولايات المتحدة الملكيين فى العالم العربى. وكان من الواضح تماما أنهم ما كانوا سينظرون للمبدأ بإيجابية إذا كان موجها ضد أى من الدول العربية بما فيها حتى مصر. لكن فى واقع الأمر مبدأ أيزنهاور وفق محتواه وبالظروف التى ظهر فيها وبالأحداث التى تلت الإعلان عنه كان موجها بالتحديد لوقف تأثير مصر الناصرية "حليفة الاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط"، وفى نفس الوقت احتكار الولايات المتحدة لشئون الشرق الأوسط دون وساطة بريطانية أو فرنسية.

بعد الإعلان عن المبدأ غير السفير الأمريكى – والذى ربما تلقى تعليمات من واشنطن – من لهجته فى الحديث مع ناصر. ففى لقاء لناصر مع السفير السوفييتى فى مصر فى استراحته ببرج العرب يوم ٣١ مارس ١٩٥٧ روى ناصر للسفير ما دار فى حديث له مع السفير الأمريكى. فى إجابته على كلمات ناصر عن أنه "يسعى لتحسين

العلاقات مع الولايات المتحدة"، أخبره السفير الأمريكى "نقلاً عن الرئيس الأمريكى أيزنهاور": "مادمتم أنتم الحكومة المصرية على علاقة وثيقة بالاتحاد السوفييتى، فإننا لا نستطيع أن نأتى لمساعدتكم ولن تتحسن علاقتنا بكم". ناصر أجابه "الولايات المتحدة تريد أن تدفعنا للانتحار ـ فى البداية نرفض علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفييتى، وبعد ذلك نذهب راكعين إلى أيزنهاور، لكى تمسك الولايات المتحدة برقابنا وتملى علينا شروطها".هذا الحديث دار بين ناصر والسفير الأمريكى بعد عودة الأخير من الولايات المتحدة، حيث التقى قيادته هناك، والذى رواه ناصر للسفير السوفييتى.

ونظرا لانتهاء الغزل بين الولايات المتحدة ونظام ناصر القومى، فإن اهتمام السياسة الأمريكية الأكبر أصبح متجها لإسرائيل. وازدادت أهمية إسرائيل ليس فقط لأنها أصبحت إحدى دعائم تنفيذ التوجهات الأمريكية فى الشرق الأوسط. ففى وقت الحرب الباردة أصبحت إسرائيل حليفًا أمريكيًا مباشرًا فى الصراع مع الاتحاد السوفييتى، ودور إسرائيل كان فريدا من نوعه فى هذا الخصوص وهو لم يقتصر فقط على النشاط الدعائى، بل امتد أيضا حتى إلى الجانب العسكرى. فالحروب مع العرب كانت مهمة لمصممى الأسلحة الأمريكيين حيث كانت تجرى تجربة الأسلحة الأمريكية الحديثة على أرض المعارك، وبعد هذه الحروب كانت إسرائيل ترسل المعدات العسكرية السوفييتية التى كانت تستولى عليها إلى الولايات المتحدة، وليس فقط بعد الحروب مباشرة، فعلى سبيل المثال قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيد طيار عراقى، قام بقيادة طائرة ميج ـ ٢١ وهبط بها فى إسرائيل مقابل مليون دولار وتوفير مكان لجوء له ولأسرته، ثم أرسلت الطائرة إلى الولايات المتحدة، وأبلغ رئيس الموساد عاميت نظيره الأمريكى ريتشارد هيلمس، أن الأمريكيين يستطيعون الآن تكوين تصور واقعى عن الإمكانيات القتالية لطائرات الميج، والعمل على تطوير مقاتلاتهم، حالة مشابهة حدثت مع الطائرة ميج ـ ٢٣، التى قام طيار سورى باختطافها عام ١٩٨٩ بعد أن جنده الموساد. إسرائيل "شاركت" كذلك المخابرات الأمريكية ومخابرات القوات الجوية الأمريكية فى المعلومات عن أحدث رادار سوفييتى كان منصوبا فوق الأراض المصرية بالقرب من قناة السويس.

لعب كذلك الرأى العام فى الولايات المتحدة الذى ساهم فى تكوينه بدرجة كبيرة اللوبى الإسرائيلى، خاصة فى الكونجرس ووسائل الإعلام دورا لا يمكن إنكاره فى إنتاج التوجهات الأمريكية فى الشرق الأوسط، وعن طبيعة دور إسرائيل الذى يروج له فى الولايات المتحدة تشهد خطبة إ. كينّان (هذا غير ج. كينّان الذى كان يفكر بطريقة مختلفة ـ المؤلف) أحد خبراء السياسة الأمريكيين فى أثناء جلسة استماع فى الكونجرس جرت عام ١٩٧٠ (قبل أحداث ما عرف "بأيلول الأسود" فى الأردن ـ المؤلف)، عبر عن رأى عدد كبير من المشاركين فى جلسة الاستماع وقال إنه لولا وجود إسرائيل "لابتلعت مصر أو سوريا الأردن، ولكان لبنان فى قائمة الانتظار ليبتلع"، ونفس المصير تنبأ به لليمن الشمالى والعربية السعودية وإمارات الخليج، وذهب كينّان لأبعد من ذلك عندما قال لو لم تكن إسرائيل موجودة " لملأ الروس هذا الفراغ الذى تركه الإنجليز فى عدن بأسرع ما يمكن "(١٦).

يجب القول إن الكثيرين فى الولايات المتحدة كانوا يفكرون بهذه الطريقة فى ذلك الوقت.

منذ لحظة الإعلان عن مبدأ أيزنهاور بدأت مرحلة الهجوم السياسى الأمريكى الموجه لإقامة معسكر معادٍ لناصر فى العالم العربى. ففى الأردن وقبل ثلاثة أشهر من إعلان مبدأ أيزنهاور فازت القوى الموالية لناصر فى الانتخابات وأصبح سليمان النابلسى رئيسا للوزراء، وبمساعدة المخابرات الأمريكية جرى تنظيم عملية إسقاطه، وسارعت الولايات المتحدة للإعلان عن أنها قررت تقديم مبلغ ٥٠ مليون دولار تدفع سنويا للأردن.

إسقاط النابلسى ترافق مع الضغط على ناصر بتهديدات إسرائيلية باحتلال الضفة الغربية لنهر الأردن إذا حاول التدخل فى الأحداث الأردنية، والمملكة العربية السعودية (أراد العراق أن يفعل هذا لكن إسرائيل عن طريق الولايات المتحدة أعاقت هذا ـ المؤلف) أرسلت عدة آلاف من جنودها إلى الأردن، على الرغم من أنه لا يوجد

أساس لاعتبار أن ناصر فى أثناء وجود النابلسى فى منصب رئيس الوزراء حاول "إخضاع" النظام الأردنى، على الرغم من أنه كان لديه ما يكفى من الموالين له فى هذا البلد.

رحبت إسرائيل ورئيس لبنان شمعون على الفور بمبدأ أيزنهاور، وبعد ذلك الملك سعود وملك الأردن حسين ورئيس وزراء العراق نورى السعيد.

الولايات المتحدة والإسلام المتطرف

قد يبدو ما نسمعه متناقضا، لكن بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عندما أعلن الرئيس بوش عن حربه على الإرهاب الدولى موجها سهامه ضد الأسلمة العدوانية، كانت الولايات المتحدة نفسها قد استخدمت على نطاق واسع المنظمات الإسلامية المتطرفة لمصلحتها، خاصة فى ذلك الوقت، الذى دخل فيه الجيش السوفييتى أفغانستان.

كان الكثيرون يعتقدون ومازالوا يعتقدون أن الولايات المتحدة دعمت وسلحت المجاهدين الذين يقاتلون تحت راية الإسلام، لكى تجبر الاتحاد السوفييتى على الخروج من أفغانستان، وهذا الدعم كما كانوا يزعمون خدمة لقضية سامية، وهذا تضليل واضح، فلم يكن هناك شخص آخر، بل زبيجنيف برزجينسكى المستشار السابق لشئون الأمن القومى الأمريكى هو الذى اعترف فى مقابلة معه عام ١٩٩٨ لصحيفة "لونوفيل أوبزيرفاتير" بأنه أرسل للرئيس كارتر مذكرة، فى الوقت الذى لم تكن القوات السوفييتية فيه قد دخلت أفغانستان بعد، اقترح عليه فيها إمداد المجاهدين بالسلاح لكى ندفع الاتحاد السوفييتى للتدخل من أجل الحفاظ على النظام التابع له فى أفغانستان، على حد قوله. وصرح برزجينسكى "نحن عن وعى وقصد زودنا من إمكانية أن يرسل الاتحاد السوفييتى قوات إلى أفغانستان"، وفق كلماته هكذا "عملية سرية كانت فكرة ممتازة"، بما أنها خلقت احتمال أن "يحصل الاتحاد السوفييتى على حربه الفيتنامية".

وهكذا أسرعوا بتهور لدعم الأسلمة من أجل الوصول لأهدافهم في المواجهة مع الاتحاد السوفييتي فحسب. هكذا سياسة متهورة ـ مرة أخرى أكرر هذا التعريف ـ هي التي مهدت لمأساة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ففي ذلك الوقت انتشرت شعارات إقامة دولة الخلافة الإسلامية التي تلقفها بن لادن ونشرها بين المجاهدين الأفغان بالفعل، وأصبحت الدعوة للهجوم على الولايات المتحدة أكثر شعبية، بعد أن يخرج الروس من أفغانستان.

بالمناسبة لا يستطيع أحد أن يتهم الاتحاد السوفييتي بأنه استخدم المنظمات الإسلامية المتطرفة في المواجهة مع الولايات المتحدة في أثناء الحرب الباردة. نعم، الاتحاد السوفييتي لم يكن يعمل مرتديا قفازات بيضاء، لكنه كان يفهم مدى خطورة المشاركة في دعم التطرف الإسلامي.

من المغالطات الأخرى اعتبار أن الولايات المتحدة استخدمت عدوانية الأسلمة لأول مرة فيما يتعلق بالوضع في أفغانستان فقط. لا ولكنها استخدمتها أيضا في بداية الستينيات من القرن الماضي، عندما قررت الولايات المتحدة استخدام تلك القوى التي لا تدافع فقط عن القيم الإسلامية في العالم العربي، ولكنها على استعداد لاستخدام الإرهاب في سبيل ذلك، وعندما فشلت في حصار مصر في ركن بعد هزيمة أنصار ناصر في الأردن، قامت المخابرات الأمريكية بإنشاء المركز الإسلامي "الإخوان المسلمين" في جنيف، على أساس الإعداد لاغتيال ناصر. جرت عدة محاولات لتصفية عبد الناصر، انتهت إما بالفشل وإما لسبب أو لآخر اضطروا لإلغائها.

قامت المخابرات الامريكية بمساعدة شركة "أرامكو" في الخمسينيات بإنشاء شبكة من مجموعات إسلامية صغيرة في شرق المملكة العربية السعودية، لكي تفعلها عند اللزوم في عملياتها. من غير المعروف بأي شكل استخدمت هذه المجموعات، لكن تكوينها بمعرفة المخابرات الأمريكية يعتبر حقيقة واقعية.

أفردت الولايات المتحدة اهتمامًا خاصًا باستخدام العامل الإسلامي في صراعها مع القومية العربية خلال فترة رئاسة ليندون جونسون (١٩٦٣ ـ ١٩٦٩)، وإذا نطق أي

من العاملين فى الإدارة الأمريكية بكلمة عن قصر نظر مثل هذه السياسة فإنهم على وجه السرعة كانوا يصدونه، وهذه كانت أول موجة دعم من الولايات المتحدة للإسلام المتطرف.

خلال فترة وجود جونسون فى البيت الأبيض، شددت الولايات المتحدة من توجهاتها السياسية بشكل حاد، ليس فقط فى الشرق الأوسط، فقد بدأت حكومة جونسون الحرب فى فيتنام، وتدخلت عسكريا فى جمهورية الدومينيكان، أما فيما يتعلق بالشرق الأوسط فإنه فى عهد جونسون انتهى بعض الهدوء الذى ساد العلاقات الأمريكية ـ المصرية فى أثناء رئاسة كيندى. فقد كانت العلاقات بين ناصر وكيندى ليست سيئة، نعم إنهما لم يلتقيا قط ولكنهما تبادلا الرسائل، بعد مصرع كيندى توترت العلاقات الأمريكية ـ المصرية من جديد. فى البداية بدأت حملة دعاية ضد ناصر، وبعد ذلك قام المحيطون بالرئيس جونسون بالرهان النهائى على دفع ملك العربية السعودية لقيادة المعارضة الإسلامية التى تكونت ضد ناصر.

اليمن

محاولة فاشلة لهجوم مضاد

عندما شعر ناصر بأن العربية السعودية ستصبح بدعم من الولايات المتحدة مركزا لجذب القوى المعادية لمصر، بدأ لعبة مضادة. ففى عام ١٩٦٢ وفى "خاصرة" العربية السعودية ـ اليمن ـ توفى الإمام أحمد، ووريثه محمد البدر أطيح به بعد أسبوع من وفاة والده، تمكن البدر من الاختفاء عندما ذهب الحراس للغداء وقت الظهيرة، دون أن يلحظه أحد ارتدى ملابس نسائية وركب حماراً وخرج من البوابة الخلفية. ليس هناك معلومات مباشرة تشير إلى أن الانقلاب حدث نتيجة مؤامرة تم تنفيذها وفقا لسيناريو قاهرى، لكن ما حدث وما تبع الانقلاب من أحداث يجعلنا نفترض أن المخابرات لم تكن مجرد مراقب فقط.

صحيح هذا أم لا ، لكن مصر لم تخطر الاتحاد السوفييتى بالانقلاب الذى يعد له فى اليمن. بالطبع لا يمكن القول بأن الاستخبارات السوفييتية لم يكن لديها أى معلومات عن الموقف الملتهب فى هذا البلد، لكن العقيد عبد الله السلال الذى وصل لسدة الحكم فى صنعاء بعد إسقاط الملكية لم يكن له أى علاقة من أى نوع بالاتحاد السوفييتى، بل إن الأهم من ذلك أن الاتحاد السوفييتى كان لديه علاقات جيدة بالإمام أحمد، حيث كان يعالج فى موسكو على أيدى أطباء سوفييت، وزار مع وريثه البدر بلدنا فى نهاية الخمسينيات. كما كان يدرس فى الاتحاد السوفييتى طلاب وعسكريون من اليمن، وقد عاد الكثيرون منهم إلى بلدهم بعد الإعلان عن النظام الجمهورى.

لم تكن موسكو تستهجن العلاقات مع الأنظمة الملكية العربية أبدا، ولم تسقط الحواجز الإيديولوجية فقط، ولكن لم يحدث ولا مرة وبأى شكل أن شارك الاتحاد السوفييتى فى أى أعمال من شأنها تغيير الأنظمة الملكية فى العالم العربى. وكان الاتحاد السوفييتى يتبع منطق، أن تغيير البناء الاجتماعى ـ السياسى ممكن أن يحدث، فقط، عندما يكون هناك انفجار داخلى، وليس مستورد من خارج، أى عند وجود حالة الثورية، وهذه الحالة يحددها عدم إمكانية تعايش الجماهير مع النظام القديم، وعدم القدرة على أن يقودها النظام بالطرق القديمة. الحالة الوحيدة التى تراجع فيها الاتحاد السوفييتى عن مبدئه هذا، عندما تدخل فى أفغانستان، فى الوقت الذى لم تكن فيها حالة ثورية.

لكن بعد حدوث الانقلاب فى اليمن لم يقف الاتحاد السوفييتى موقف المتفرج، ودعم مصر بسخاء ليس فقط على المستوى السياسى وإنما دعمها بوسائل نقل عسكرية كذلك، هنا ظهر نوع آخر من المنطق، هو السعى لمساعدة مصر الناصرية التى استدارت أكثر فى اتجاه الاتحاد السوفييتى بعد انهيار دولة الوحدة مع سوريا، بالإضافة إلى أن الاتحاد السوفييتى لم يكن ليستطيع ألا يكترث بأن التغير التقدمى فى اليمن يتعرض لتهديد حقيقى من قوى يتم التنسيق معها ودعمها من الخارج، ومصر تواجه هذه القوى.

بدأ الثورة فى اليمن مجموعة من الضباط الشباب، وبحكم عملهم لم يزوروا القاهرة ولا مرة، لكنهم لم يخفوا إعجابهم بالإجراءات التى اتخذها ناصر فى بلده. مثل هذا الإدراك للواقع المصرى كان أكثر من طبيعى على خلفية ركود القرون الوسطى الذى كان سائدا فى اليمن. التركيبة القبلية وجبروت الشيوخ مع الاستبداد، وسلطة مطلقة للإمام الذى كان يعتبر فى نفس الوقت الزعيم الدينى لأقوى طائفة إسلامية فى البلاد، الزيديين، هذا النظام استمر فى اليمن تقريبا فى شكلة البدائى الأولى. بالمناسبة العقيد السلال تزعم انتفاضة ضد الملكية، عندما كان رئيس حراسة البدر، وقبل هذا بخمس سنوات، وبأوامر من الإمام أحمد، سجن وهو مقيد بالسلاسل بالمعنى الحرفى فى حفرة عميقة وكانوا يلقون إليه بالطعام من أعلى الحفرة.

من كل ما ذكر لا يمكن اعتبار أن اليمن كان معزولاً أو منقطعا عن العالم كله، فصدى الأحداث التى كانت تحدث فى الدول الأخرى كان يصل إلى الحديدة وصنعاء وتعز، وهذا مهد بدرجة كبيرة لإعلان الجمهورية، كما لم تمر أصداء حركات التحرر الوطنى دون تأثير على اليمن. بالإضافة إلى أن أعمال إنجلترا فى السلطنات الواقعة فى جنوب شبه الجزيرة العربية وفى عدن استدعت مئات الآلاف من اليمنيين للتظاهر احتجاجا، هنا انسابت نهيرات ضعيفة آخذة بدايات من فيضان تطور التقنية والثقافة فى العالم. لكن مع حلول القرن العشرين فى اليمن، تشابكت فى أحيان كثيرة كومة مدهشة من التناقضات.

أهم ما يوضح هذه التناقضات الحياة الملكية اليمنية للإمام أحمد فى قصر تعز، الذى قضى فيه آخر أيام حياته. سافرت إلى اليمن بتكليف من رئاسة تحرير "البرافدا" بعد إسقاط الإمام بوقت قصير، وأتيحت لى الفرصة أن أكون فى تلك الغرفة التى كان يحتفظ فيها الإمام بمقتنياته التى جمعها حوله كما هى دون يمسسها أحد، وعلى ما يبدو مما شاهدت أن الإمام أحمد كان يحب الساعات جدا، فقد امتلأت الحوائط بالساعات المعلقة. لكن يبدو أن دقات الساعات لم تحمل إليه صدى الزمن. تحت

ساعات الحائط وبالقرب من مخدع الإمام كان يوجد كرباج جلدى، كان يقوم بجلد خدمه وجواريه بواسطته، وتحت الزجاج الموضوع على المكتب صور للإمام عند أقواس بوابات صنعاء ذات الألوان المبهجة المزخرفة بآيات القرآن. كان الإمام يراقب تنفيذ أحكام الإعدام العلنية بنفسه، وكان الجلاد الذى يقوم بتنفيذ حكم المحكمة هو الذى يحدد، بكم ضربة من السيف يمكن أن تفصل الرأس عن الجسد للشخص التعيس الذى ينفذ فيه الحكم، كما كانت توجد كذلك أغلال، وفى إجابته على سؤالى الذى ينم عن اندهاش حول الأغلال، أجاب مرافقى اليمنى إنها كانت تستخدم بأمر الإمام، كان الحراس يحضرون إليه فى الأغلال أى شخص يغضب الحاكم. على جانب آخر من الحائط ـ صورة يورى جاجارين، فقد اقتطعها الإمام بحرص من مجلة. على مكتب صغير كان يوجد اثنين من مسدسات الصوت التى تستخدم فى إعطاء إشارة البدء للمسابقات الرياضية، فقد كان الإمام يطلق منها النار على نفسه فى وجود حراسه ليثبت لهم أن أى رصاص لا يخترقه. فى وسط الغرفة حامل بثلاثة قوائم عليه شاشة عرض سينمائى سهلة الحمل، وأمام الشاشة جهاز عرض سينمائى صغير، حيث كان الإمام يشاهد كل يوم فيلما سينمائيا، وصالة العرض هذه كانت "دار السينما" الوحيدة فى عموم اليمن، فالإمام كان يحظر بشكل حاسم على رعاياه مشاهدة أفلام السينما.

وأخيرا يبقى "شيء معروض" وهو عبارة عن علبة صغيرة موضوعة على كومودينو بجوار السرير، العلبة الصغير تحتوى على سم قوى المفعول تحسبا لأى ظروف طارئة، لكنه لم يضطر لاستخدام هذا السم، فالحكم الظالم تم إسقاطه بعد سبعة أيام من وفاته.

وجدت الجمهورية العربية المتحدة نفسها متورطة مباشرة فى أحداث اليمن إلى جانب الجمهوريين، والعربية السعودية إلى جانب الملكيين. لم يكن التدخل السعودى بدافع من الصداقة مع البدر أو والده المتوفى، بل على العكس كان هناك عداء بين العائلتين الملكيتين فى الرياض وتعز. إلا أن العربية السعودية كانت تخشى من أن

تجتاحها أحداث مشابهة لما حدث فى اليمن عبر الحدود. من جانبها سعت الجمهورية العربية المتحدة لأن تقوى مواقعها فى اليمن لإحداث نوع من التوازن مع دور السعودية المعادى للسياسة الناصرية. وظهرت الولايات المتحدة وبريطانيا فى الصراع الداخلى اليمنى، فواشنطن لم تكن ترغب فى أن يكون اليمن، وهو الواقع على أعتاب الإمبراطورية النفطية الأمريكية فى شبه الجزيرة العربية، مواليًا لمصر. أما فى لندن فقد كانوا قلقين ليس فقط على النفط لكن على مستقبل القاعدة العسكرية الإنجليزية فى عدن.

وبناء على طلب الجمهوريين الذين وجدوا أنفسهم فى وضع صعب، بعد أن أصبحت العربية السعودية تدعم القبائل اليمنية التى ظلت على ولائها للملكية بالسلاح على نطاق واسع، قام ناصر بإرسال جيشه إلى اليمن، عدة آلاف من الجيش النظامى اشتركت فى المعارك، لكن النزاع أخذ طابع الاستمرارية، وتحت ضغط الأحداث بدأت مفاوضات بين العربية السعودية والجمهورية العربية المتحدة فى ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ فى جدة، وتم توقيع اتفاق بين الرئيس ناصر والملك فيصل ينص على إجراء استفتاء فى موعد أقصاه ٢٣ نوفمبر ١٩٦٦، لتحديد مستقبل اليمن، وكمقدمة تشكل حكومة مؤقتة لفترة انتقالية، وقف التدخل من جانب العربية السعودية، على أن يتم سحب القوات المصرية بالتدريج من اليمن بالتناسب مع عدم التدخل السعودى.

لكن على ما يبدو كان تولى الملك فيصل الحكم حيث خلف أخيه الملك سعود فى الحكم، وهجرة الأخير للعيش فى القاهرة جعل معاداة ناصر عبئا ثقيلاً ملقى على أكتافه. وناصر بدوره وصل لمفهوم أن تورطه فى اليمن، سيقيد يديه فى مصر نفسها وفى خارجها، ومن ثم، وهذا هو المهم، أن هذا سيضعف مصر جدا فى حالة مواجهة عسكرية مع إسرائيل.

بدا توقيع الاتفاقية كما لو أنه خلق مناخا جيدا لكى يقرر الشعب اليمنى مصيره دون تدخل من الخارج، وهكذا تم عقد مؤتمر للقوى السياسية اليمنية فى حرض فى

نوفمبر عام ١٩٦٥، سأتحدث هنا ببعض التفاصيل التى كما يبدو لى ستساعد على فهم الموقف بصورة أفضل. سافرت من القاهرة إلى صنعاء مع مجموعة من الجنود على متن طائرة نقل عسكرية سوفييتية من طراز آن ـ ١٢، الطائرة كانت محكمة الإغلاق فقط فى كابينة الطيار، وجلس المصريون وقد ارتدوا أقنعة الأوكسچين، وكان حظى جيدا حيث استدعانى قائد الطائرة الرائد زابياكا إليه فى قمرة القيادة، حيث جلست طوال وقت الرحلة التى استغرقت خمس ساعات على الأرض فى قمرة القيادة عند طيارينا، شكرت الطيار جدا من أجل هذا. فى أثناء الرحلة كانت القاذفات السعودية تقترب منا، لكننا وصلنا دون حدوث أى نوع من المغامرات. الرائد زابياكا روى لى عن أنه قام بأكثر من مائتى رحلة، عمل طيارينا العسكريين فى هذه الفترة كان مثل الأشغال الشاقة، خمس ساعات طيران من القاهرة، وبعد عشرين دقيقة ـ خمس ساعات طيران أخرى من صنعاء للعودة، وهكذا يومًا بعد يوم، وكان الطيارون يعيشون فى فندق بدون أسرهم.

من صنعاء لحرض سافرت على متن طائرة من طائرات القيادة الصغيرة التى كان يقودها طيار مصرى. كان معنا على الطائرة بعض الضباط المصريين وثلاثة من مراسلينا ومجموعة من تليفزيون ألمانيا الشرقية، أحد الضباط كان يعرف الطيار، وأراد هذا الأخير أن يستعرض أمامه قدراته، فترك الطائرة للطيران المتهور، على ارتفاع ٣٠ ـ ٥٠ مترا فوق الصحراء. كان شعوراً غير طيب للجميع، أول من احتج كان زملاؤنا الألمان، لكن الطيار المصرى هدأهم قائلاً : "لا تقلقوا ـ أنا لدى خبرة طيران عامين". مثل هذه الثقة المتهورة لعبت دورا سيئا فى مصير الطيارين المصريين فيما بعد.

فوق حرض ـ وهى قرية صغيرة ليست بعيدة عن الحدود السعودية ـ كان يرفرف علم الجمهوريين، وقريبا منها جبال خاضعة للملكيين. أكد المراسل العسكرى لصحيفة "الديلى تليجراف" الإنجليزية ديفيد سمايلى الذى كان يحضر المؤتمر أنه بالتحديد فى

هذه الجبال يوجد مركز قيادة البدر المخلوع. العقيد والملحق العسكرى لبريطانيا السابق فى ستوكهولم كان يعرف عن ماذا يتحدث المراسل، فقد قضى فى مركز قيادة البدر أكثر من عامين.

عقد المؤتمر فى شادر كبير للاجتماعات، عند مدخله كان تقف مدرعة فوقها مدفع رشاش. وكان يحرس مدينة الخيام عسكريون من السعودية ومصر. كان يمثل السعودية فى المؤتمر الأمير عبد الله الصدر ورئيس المخابرات رشاد فرعون، عندما رأى ابنه الألمان الشرقيين اعتقد أنهم من ألمانيا الغربية، الألمان بدورهم رووا لى ولمراسل راديو موسكو ألكسندر تيموشكين ومراسل "الإزفيستيا" ليونيد كوريافين، أنه يخشى النوم طوال الليل لأنه يحمل معه حقيبتين مملوءتين بسبائك من الذهب من أجل "الحديث الجاد" مع زعماء القبائل.

علق فى ذاكرتى جيدا أول يوم من عمل المؤتمر، عندما التقى ممثلو القبائل المؤيدون للجمهورية مع القبائل المؤيدة للملكية. أمام أعيننا عانقوا بعضهم بعضًا وقبلوا أيدى بعضهم بعضًا، وبعد الترحيب الأولى تنزهوا لفترة طويلة داخل معسكر الخيام، ممسكين بأيدى بعضهم بعضًا وفق العادات المحلية المتبعة، لكن فى اليوم الثالث قاموا بشحن الخيام وأمتعة "الملكيين" على عجل، مما استدعى اعتراض الكثيرين منهم على هذا التصرف. ثم نصبوا الخيام مرة أخرى، لكن هذه المرة بعيدا عن معسكر "الجمهوريين"، ومنذ هذه اللحظة توقفت اللقاءات الشخصية بين المشاركين فى المفاوضات، وفق رواية الصحفيين المصريين، ممثل العربية السعودية هو الذى أصر على إبعاد خيام "الملكيين".

تعثر المؤتمر، وفى اليوم الرابع فقط تمت الموافقة على جدول الأعمال، كان الطقس شديد الحرارة، بالإضافة إلى الرطوبة العالية التى يتميز بها طقس منطقة تهامة اليمنية و التى زادته سوءا، فى المساء كان المطر يهطل بغزارة، ولم يكن هناك وسيلة اتصال للصحفيين السوفييت برئاسة تحريرهم. عندما سألنا متى يمكننا أن نغادر أجابونا بأنه

يجب ألا تتسرب أى معلومات، لأن هذا من الممكن أن يضر بالمباحثات، لقد حاربنا ثلاث سنوات والمؤتمر يجب أن يستمر ليس أقل من ثلاثة أسابيع. لكن بعد أسبوع وبمساعدة من المصريين تمكنا من الإفلات من حرض، وانتهى المؤتمر مع حلول شهر رمضان والصيام فى ديسمبر، دون التوصل إلى نتائج.

ولا أستطيع أن أمنع نفسى من الحديث عن علاقة اليمنيين بالروس والسوفييت، فقد اصطدم بعض الجيولوجيين السوفييت الذين كانوا يعملون على بعد عدة كيلومترات من صنعاء بعدد من رجال القبائل المسلحين الذين يؤيدون البدر، وبمجرد أن عرفوا أنهم روس، لم يتركوهم فقط يمرون بسلام، بل تركوا حراسهم من الجمهوريين الذين كانوا يرافقونهم أيضا، قائلين لهم : سنحاسبكم إذا سقطت شعرة واحدة من رأس أى روسى.

لم يسلم الملكيون اليمنيون المدعومون من الخارج سلاحهم، فالتركيبة القبلية للمجتمع لم تندثر بعد إسقاط الإمام، وأمنت سلطة للشيوخ الذين اعتبروا أنفسهم أصحاب الحق الكامل فى وراثتها.

وعندما أظهر النظام الجمهورى رغبة فى بناء نظام إدارى مركزى قوى، انحاز الكثير من شيوخ القبائل بشكل تلقائى إلى الجانب الآخر، ولعب دورا كبيرا فى هذا، الدعم الذهبى الشهرى الذى كان يصل من الأعداء الخارجيين للجمهورية لزعماء القبائل، وحاول الكثير من الشيوخ أن يضربوا التأييد الحاسم للنظام الجديد عن طريق الإجراءات الدعائية بقولهم إن النظام الجديد فى اليمن صنع لمواجهة الإسلام.

من الممكن أن نفسر استمرار قدرة مقاومة شيوخ القبائل كذلك على أنها كانت بسبب عدم قدرة الحكومة الجمهورية على إنشاء جيشها على مدى الأعوام الأولى بعد الانقلاب، فقد أعلن أكثر من مرة عن فتح باب التجنيد، وأنشئت مدرسة عسكرية، كما درس عدد من الضباط اليمنيين العلوم العسكرية فى الخارج، لكن لم يكن هناك جيش فى البلاد بالمفهوم المتعارف عليه.

تكونت القوات المسلحة الجمهورية فى الأساس من التشكيلات المسلحة للقبائل، وكان قرار مشاركتها فى الأعمال العسكرية معتمدا على قرار الشيخ، وبالطبع عدد كبير من شيوخ القبائل، بما فيهم قبائل كبيرة اتخذوا قرارهم لصالح الجمهورية، لكن هذا كثيرا ما كان يحدث بسبب علاقات العداء العميقة بين الشيوخ وعائلة حميد الدين التى كان ينتسب إليها البدر. بينما قام عدد من اتحادات القبائل وليس فقط قبائل منفصلة بتغيير ألوان أعلامهم عدة مرات اعتمادا على حالة الولاء. وأصبح الأكثر تحديدا لمواقفهم وبالتالى الداعم الوفى للجمهورية هم سكان المدن من التجار وأصحاب الحرف.

وكان النشاط الكبير للقوى الملكية يشكل تهديدا فعليا للنظام، خاصة مع نهاية عام ١٩٦٧ وبداية عام ١٩٦٨، عندما سحبت القاهرة قواتها المسلحة من اليمن، فقد كانت القاهرة تحتاج إلى وحداتها العسكرية المتعلمة والمدربة جيدا وذلك لاستعادة قدراتها العسكرية. وعلى الصعيد السياسى بذلت القاهرة جهودا مضاعفة لتحقيق الوحدة فى العالم العربى، وهذا أمر مفهوم تماما، والطريق إلى هذا لابد أن يمر عبر التخفيف من حدة المواجهة مع العربية السعودية فيما يتعلق بمشكلة اليمن، وهو ما حفز على سحب القوات المصرية من اليمن.

لقد كنت فى الخرطوم فى سبتمبر ١٩٦٧ عندما عقد أول مؤتمر قمة عربية بعد حرب يونيو. كانت المسألة اليمنية أحد الموضوعات الرئيسية فى المؤتمر، وتم إيجاد صيغة حل وسط، فقد وعدت القاهرة أن تنهى انسحاب قواتها فى عام ١٩٦٧ مقابل التزام العربية السعودية بألا تتدخل فى الشئون الداخلية لليمن.

فى نفس المؤتمر تم تشكيل لجنة عمل لحل مشاكل اليمن، شارك فيها ممثلون عن السودان والعراق والمغرب. لكن فى اليمن نفسه وكان الرئيس عبدالله السلال اتخذ ومجموعة من مؤيديه موقفًا معاديًا للجنة المصالحة، وقد سمعت فى الخرطوم كيف قام وزير خارجية حكومة السلال وقرأ بيانًا تحدث فيه عن عدم اعترافه بالقرار الصادر

نتيجة مباحثات ناصر ـ فيصل، وقال الوزير إن أعضاء "لجنة الثلاثة" لن يحصلوا على تأشيرات لدخول اليمن. لكن الحقيقة أنه بعد جلسة استمرت ساعتين مع الرئيس ناصر، أصدر عبد الله السلال بيانا أكثر هدوءا.

توقع الكثيرون في أثناء مؤتمر الخرطوم أن حكومة السلال ربما تلفظ أنفاسها الأخيرة وهي تعيش آخر أيامها، فقد أصبح لديه الكثير من الأعداء حتى في المعسكر الجمهوري نفسه. البعض وقف ضد السلال لأسباب شخصية، والبعض الآخر اتهمه بعدم المرونة السياسية.

جرى تغيير الحكومة في اليمن بعد أن غادرت الوحدات العسكرية المصرية البلاد، فقد تمت تنحية السلال، وصل للسلطة مجلس جمهوري برئاسة رئيس الوزراء السابق الإيرياني، الذي قضى عاما في هجرة إجبارية بالقاهرة، بعد ذلك حاول الملكيون الاستيلاء على صنعاء، فطلب الإيرياني الدعم من الاتحاد السوفييتي، الذي نظم جسرًا جويًا بإمدادات طبية وغذائية وذخيرة لإنقاذ المدينة. انتهت الحرب الأهلية في البلاد في أبريل عام ١٩٧٠، فقد حصل الملكيون على عدة حقائب في الحكومة الجمهورية وفق اتفاقية وقعت، لكن توقف الحرب الأهلية الرسمي، لم يكن يعني استقرار الوضع الداخلي في اليمن، فقد تناوبت مجموعات على السلطة، كثيرا ما كان تغيير السلطة يتم عن طريق قتل رئيس الدولة.

كان للأوضاع في جنوب البلاد تأثير متزايد على الأحداث في اليمن حيث تمكنت القوى الثورية من فرض سيطرتها على محمية عدن الإنجليزية. ففي ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ انسحبت القوات البريطانية من أراضي ما عرف بجمهورية جنوب اليمن الشعبية، والتي وفقا للدستور اعتبارا من ٣٠ نوفمبر ١٩٧٠ أصبحت تسمى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، وهنا أيضا لم يمر الأمر دون صراع دموي داخلي.

في نهاية الأمر توحد الشمال والجنوب في دولة واحدة، بعد مجهود عنيف، وصدامات مسلحة وتدخل في شئون بعضهما بعضًا وحرب في ٢٢ مايو١٩٩٠ تم

الإعلان عن إقامة دولة اليمن الموحدة، لم تكن مصر بعيدة عن كل هذه العمليات الدائرة، لكنها لم تشارك فيها مشاركة نشطة.

هل من الممكن اعتبار تدخل مصر من البداية فى الشئون اليمنية عند إسقاط الملكية كان غير صحيح؟ أنا أسأل هذا السؤال لأن كثيرا من الباحثين يدينون ناصر بأثر رجعى لتدخله فى اليمن، الذى أصبح عبئا ثقيلاً على مصر. أنا لا أنتسب لهؤلاء الباحثين. فلو لم يكن الانقلاب اليمنى المضاد للملكية بمشاركة المصريين، لما طوت العربية السعودية عملية إنشاء مركز إسلامى معاد لناصر على أراضيها، وهو الأمر الذى كان مقترحًا بعد الإعلان عن مبدأ أيزنهاور. ولو لم تحدث التغيرات الثورية فى اليمن، لما انسحبت بريطانيا من قاعدتها فى عدن، خاصة بعد أن فقدت قاعدتها فى منطقة قناة السويس. بالطبع حدث ويحدث فى اليمن عملية تجريف للتركيبات القبلية فى المجتمع، و هى عملية غاية فى الصعوبة. لكن على أى حال لم يعبر الشيوخ الموالون للجمهورية عن استعدادهم لبذل الجهد لدمقرطة النظام القائم. لكن تطورت عملية تسييس الشعب خاصة فى المدن، ونشطت البرجوازية الوليدة، فى البداية التجارية، وبعد ذلك الصغيرة والمتوسطة فى الصناعة. كل هذا هيأ الظروف للموجة الثورية التى ارتفعت فى ربيع ٢٠١١ ضد النظام الجمهورى الملوث بالفساد والذى أصبح عائقًا على طريق كل من كان يشعر بضرورة أن يمشى فى ركاب العصر. لكن الحديث عن هذا سنستعرضه فيما بعد.

الفصل الثامن

بداية ونهاية حرب الأيام الستة

خلفية الصورة

ممكن اعتبار الحرب التى اندلعت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ بين إسرائيل من جانب وكل من مصر وسوريا والأردن من جانب آخر، نقطة تحول فى تاريخ، ليس فقط مصر وحدها، بل العالم العربى بأسره. الحرب التى سميت بحرب الأيام الستة، أدت لاحتلال القدس الشرقية والضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة ومرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء مع تنامى عدد المستوطنات الإسرائيلية الدائم فى هذه الأراضى. مركز الثقل فى المطالب العربية لعملية التسوية مع إسرائيل بعد حرب الأيام الستة تحول إلى وقف الاستيطان على هذه الأراضى وانسحاب القوات الإسرائيلية. حرب الأيام الستة دفعت الفلسطينيين الذين تحولوا إلى الشعب العربى الفلسطينى الذى يسعى إلى إقامة دولته إلى واجهة الصراع الأمامية، أدت هزيمة حرب الأيام الستة إلى بداية انهيار "الاشتراكية العربية" فى مصر. وفى النهاية أصابت هزيمة ١٩٦٧ العالم العربى كله بجرح نفسى عميق جدا.

الخسارة فى حرب ١٩٤٨ كان لها ما يبررها فهى كانت مرتبطة بالفساد، وخيانة الأنظمة العربية المتعفنة المعتمدة على الدول الاستعمارية، أما هزيمة ١٩٦٧ الساحقة خلال عدة أيام فقد لحقت بالأنظمة القومية الموجودة فى دول عربية مستقلة، بالإضافة

إلى أن العرب خسروا الحرب وهم يمتلكون أسلحة سوفييتية درجة أولى، وفى الجيشين المصرى والسورى كان يوجد خبراء عسكريين سوفييت.

انهيار ساحق - لماذا لم تتحقق استقالة ناصر؟

بعد أن بدأت إسرائيل العمليات العسكرية بعدة ساعات، اجتمعنا أنا وزملائى الصحفيون المصريون والأصدقاء فى مقر مراسل صحيفة "البرافدا" بالقاهرة، كان بيننا محمد عودة وفيليب جلاب وآخرون. رووا لى باندهاش عن عشرات الطائرات الإسرائيلية التى أسقطت، كانت إذاعة القاهرة تتحدث عن أرقام مذهلة كل نصف ساعة، التى لو جمعناها يمكن أن نتخيل أنه فى أول ساعات العمليات العسكرية فقدت إسرائيل كل قواتها الجوية تقريبا. وفى أثناء لقائى مع أصدقائى المصريين عرفت فى نفس الوقت من خبرائنا، أنه فى قاعدة غرب القاهرة تم تدمير الطائرات المصرية، ففى أول غارة إسرائيلية تم إحداث أضرار بممرات الطيران، فنصح خبراؤنا الطيارين بإلحاح بالطيران عن طريق استخدام غرفة الاحتراق الإضافية فى محرك الطائرات مع استخدام ممرات قصيرة، والتصدى للموجة الثانية من الطيران الإسرائيلى فى الجو. لكن ولا طائرة مصرية طارت، فعادت الطائرات الإسرائيلية بعد أن تزودت بالقود وبالرشاشات قصفت الطائرات المصرية على الأرض، أحبط زملائى المصريون وأصيبوا بالاكتئاب من هذه المعلومات.

بعد يومين، وبعد أن عرفت أخبار الهزيمة بشكل واسع، انتشرت فى القاهرة إشاعات، أن كل هذا حدث لأن الطائرات التى كانت تحمل علامات إسرائيلية كان يقودها طيارون أمريكيون، وفى الساعة الرابعة وعشرين دقيقة فى نشرة الأخبار ونقلاً عن القيادة العامة للقوات المسلحة أعلن عن أنه "توجد أدلة لا تقبل الشك عن مشاركة الولايات المتحدة وإنجلترا فى الغارات على مصر" كثيرون كانوا يعتقدون أن مصدر هذه المعلومة كان قائد القوات الجوية محمد صدقى محمود، ثم تبين أنه أقنع الجميع

بذلك منذ صباح ٥ يونيو" أن شمولية وتأثير طيران العدو " تشير إلى مشاركة الأمريكيين والإنجليز فى الغارات على المطارات المصرية، وفق كلامه أن أحد الطيارين المصريين، حسنى مبارك، يبدو أنه رأى طائرات أمريكية تغير على مطار الأقصر، المشير عامر تحدث شخصيا مع مبارك الذى قال إن الطائرات لم تكن أمريكية، ولكن إسرائيلية. هذا نفسه كان حسنى مبارك الذى أصبح فيما بعد رئيسا لمصر.

لكن الشعب لم يعرف شيئا عن هذا، وكان الجميع يستمع للراديو. وفى أول أيام الحرب ترددت فى كل مكان عبارة "أين الروس؟ الذين يعتبرون أنفسهم أصدقاءنا ولماذا لا يتصدون للطيارين الأمريكيين؟".

لن أصف كيف دارت العمليات العسكرية التى انتهت بهزيمة ساحقة للجيوش المصرية والسورية والأردنية، فعن هذا كتب الكثير من الخبراء العسكريين. وقد عبر عما حدث عبد اللطيف البغدادى نائب رئيس الجمهورية السابق بقوله "لقد شعرنا وكأننا فى حلم، أى مهزلة فظيعة هذه، هل معقول كل سلاح الطيران دمر فى يوم واحد، وقواتنا البرية تحطمت فى اليوم التالى ؟ هل معقول هذه القوة التى لم نستطع الوقوف أمامها أكثر من ستة وثلاثين ساعة ؟" هذه الكلمات كانت تعكس الإحباط الذى أصاب المجتمع المصرى بسبب نتائج هذه الحرب.

اعتبر ناصر نفسه مسئولاً عن حجم الهزيمة، واعتبر نفسه المذنب فيما حدث، وألقى خطابا عبر التليفزيون أعلن فيه عن استقالته. فيما بعد كتب المسئولون والكتاب الصحفيون المصريون عن رؤيتهم لما حدث، الكثير منهم كان يعتقد بأن خطاب ناصر يوم ٨ يونيو وخروج الجماهير للشارع لكى يبقى ناصر فى الحكم هو مجرد عرض مسرحى، أنا لا أصدق هذه الرواية. ولا أعتقد أن الاتحاد الاشتراكى العربى الذى ينسبون إليه تنظيم هذه المظاهرات لتأييد ناصر كان يمتلك القوة لكى ينظم مظاهرات جماهيرية مليونية لشعب مكتئب وغير ساعٍ لأى مظاهر شعبية بسبب الهزيمة فى ساعات معدودة. المظاهرات الشعبية كانت تلقائية، لدرجة أن ناصر اتصل هاتفيا بوزير

الإعلام فايق وطلب منه وقف إذاعة البرقيات التى ترد لتدعوه إلى البقاء فى السلطة عن طريق التليفزيون.

كان ناصر بالفعل مكتئبًا، وأنا واثق من أنه بالفعل قرر أن يستقيل، وعين زكريا محى الدين خليفة له، وأن هتاف الجماهير فقط ومطالبتهم له بالبقاء زعيما لمصر هو الذى أجبره على الإعلان عن أنه لن يترك منصب الرئيس. لكن بين الإعلان عن الاستقالة ثم التراجع عنها مر بعض الوقت، قبل بداية ظهور كثيف لزكريا محى الدين على شاشات التليفزيون، وفى ذلك الوقت حدثت حادثة أخرى وهى على ما يبدو لعبت دورها.

قبل يوم من خطاب التنحى لناصر وصلت برقية مشفرة للسفير الروسى د. ب. بوجيدايف من موسكو تأمره بأنه يجب إخطار ناصر أن الاتحاد السوفييتى سيقوم بتعويض مصر عن كل ما فقدته من سلاح دون مقابل، بما فى ذلك الطائرات والدبابات. لم يتمكن بوجيدايف من إخطار ناصر بذلك قبل إعلانه عن التنحى، حيث لم يستقبل ناصر أى إنسان على مدى ثلاثة أيام، والسفير تلقى أوامر بإبلاغ القرار الذى اتخذ فى الاتحاد السوفييتى لرئيس مصر شخصيا فقط. تقدمت أنا ورفيقى فاديم ميخايلوفيتش سينيلنيكوف مستشار السفارة المختص بالاتصالات مع الاتحاد الاشتراكى العربى، إلى السفير بوجيدايف باقتراح، بأن يخطر ناصر بأنه فى حالة بقائه فى منصبه فإن الاتحاد السوفييتى سيقوم بتعويض مصر عن كل الأسلحة التى فقدتها. وفق كلام السفير أنه عندما أبلغ ناصر بذلك، اغرورقت عيناه بالدموع. من الصعب التأكيد على أن هذا الأمر بالتحديد هو الذى دفع ناصر للتراجع عن الاستقالة، إلا أن هذا لم يكن من الممكن ألا يكون له تأثير، لكن رد فعل ناصر فى أثناء المقابلة مع بوجيدايف كان يشير إلى ذلك بالتأكيد.

فيما بعد روى رئيس قسم اللجنة المركزية ل. م. زمياتين، الذى كان موجودا فى اجتماع طارئ لدول حلف وارسو عقد فى موسكو، كيف تسلم ليونيد بريجنيف البرقية

الشفرية من السفير السوفييتى فى القاهرة فى أثناء الاجتماع، والتى قال فيها إنه قرر أن تجمع الرسالة بين نداء من القادة السوفييت لناصر بالبقاء فى موقعه مع وعد من الاتحاد السوفييتى بتوريد كل ما فقده فى حرب الأيام الستة من أسلحة. وأن ناصر "طلب من السفير أن يبلغ القادة السوفييت شكره الجزيل"، كما جاء فى نص البرقية المشفرة التى قرأها بريجنيف فى أثناء الاجتماع بصوت عال.

المارشال جريتشكو

عن الجيش المصرى - ناصر يخادع

كيف بدأت الحرب؟ حول هذا الموضوع هناك الكثير من الضبابية واللغط والزيف. لكن يوجد بعض ما هو معروف من أحداث لدائرة صغيرة فقط، وهم الذين يسلطون الضوء على مجرى الأحداث الحقيقى.

قبل اندلاع الحرب بعدة أشهر، وصل قائد قوات حلف وارسو المارشال جريتشكو إلى القاهرة فى زيارة، وبعد لقائه بالخبراء العسكريين السوفييت، دعاه الرئيس ناصر للقائه، كان مستشار السفارة س. ب. أراكيليان يقوم بالترجمة فى أثناء اللقاء، وهو شخص يجيد اللغة العربية، وبعد اللقاء تحدث معى عن انطباعاته. ناصر سأل جريتشكو عن رأيه فى حالة الجيش المصرى، حاول المارشال جريتشكو فى رده أن يرفع من شأن المستشارين العسكريين السوفييت الذين يعملون فى مصر منذ فترة فقال: "إن جيشكم قادر على تنفيذ أى مهمة على مسرح العمليات"، غير واثق تماما ما إذا كانت هذه الملاحظة قد مرت على مسامع ناصر مرور الكرام، وهل من الممكن أن تكون كلمات جريتشكو هى التى دفعته إلى القيام بمظاهرة استعراض القوة، على أى حال هو وثق فى تنامى القدرات القتالية للقوات المسلحة وقرر أن يستخدم هذا، لكن ورغم ذلك لم يكن ناصر يرغب فى أن يبادر ببدء عمليات عسكرية، وليس لدى أدنى شك فى هذا.

هل كانت هذه خطة لخداع كبير؟ سأستخدم تعبيراً أدق، استعراض قوة مثلاً مصر لم تفكر فى ضربة وقائية، ولكن بالغت فى إمكانات قواتها المسلحة وافترضت أنها تستطيع أن تتصدى لإسرائيل حتى لو بدأت هى الحرب أولاً. من الواضح أنهم كانوا يدركون هذا فى إسرائيل أيضا. ففى يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٦٧ أى بعد نحو نصف عام على بدء الحرب نشرت صحيفة "هآرتز" مقابلة مع رئيس الأركان الإسرائيلى حينها، إسحاق رابين، الذى اعترف بأنه :"يوجد فرق بين حشد القوات بهدف بدء الحرب، وبين تلك الحركة التى من الممكن أن تنتهى بالحرب، لكن دون أن تهدف للحرب وتتصور شيئًا ما غير ذلك. أنا أعتقد أن الأخيرة هى التى كانت فى فكر ناصر".

عندما أعطى ناصر أوامره للقوات بالتوجه إلى سيناء، فإن أرتال الدبابات والعربات المحملة بالجنود مرت أمام نوافذ السفارة الأمريكية فى القاهرة، وكان من الواضح أن ناصر أراد أن يوجه رسالة لإسرائيل من خلال الأمريكيين. فى يوم ١٦ مايو التقى السفير بوجيدايف والملحق العسكرى فورتسوف وزير حربية الجمهورية العربية المتحدة شمس بدران، الذى أبلغهما حسب ما أرسله السفير لموسكو، تأكيده على احتمال هجوم للجيش الإسرائيلى على سوريا. وقال بدران "إذا حدث هذا، فإن الجمهورية العربية المتحدة ستهب للدفاع عن سوريا". ونظرا لمعرفة بوجيدايف بالاشتباكات التى تحدث دائما على الحدود مع سوريا، قام بسؤال بدران للتدقيق، ماذا يعنى بكلمة "هجوم"، فقد كان من الممكن فهم السفير والملحق العسكرى، إذ كان عليهما إخطار موسكو بالنوايا التى تقف خلف حشد القوات المصرية فى سيناء. بدران أوضح أنه تحت مفهوم الهجوم مصر ترى القيام بعملية برية مسلحة بهدف الاستيلاء على جزء من الأرض، وأكد بدران إن النزاعات والصدامات المسلحة الحدودية لا تعتبر هجومًا والسوريون موافقون على ذلك تماما، وبعد أن أبلغ بوجيدايف موسكو، ازدادت اقتناعا بأن ناصر غير مهيأ للقيام بضربة وقائية.

فى ١٦ مايو أبلغ رئيس أركان الجيش المصرى الجنرال محمد فوزى قائد قوات الأمم المتحدة الجنرال الهندى ريكخى "أعطيت أوامرى لقوات الجمهورية العربية المتحدة أن تكون مستعدة للقيام بأى عمل، إذا بدأت إسرائيل العدوان على أى من الدول العربية. ولتنفيذ هذه الأوامر تم تعبئة جزء من قواتنا فى الجبهة الشرقية بسيناء، ولتأمين قوات الأمم المتحدة المتمركزة فى نقاط المراقبة، أرجوكم أن تسحبوا هذه القوات من نقاط المراقبة".

ربما كان فى هذه الخطوة نوع من الارتجالية، الهدف منها مرة أخرى تخويف إسرائيل، وليس توجيه ضربة لها، وربما يكون العسكريون المصريون هم من فكر فى هذا. ليس هناك شك فى أن هذه الخطوة وما تلاها من أفعال، كان لها بواعث لحظية، ولم يتم التفكير فيها مسبقا وكانت تحت تأثير حماس كل العالم العربى، الذى رفع ناصر والعسكريين المصريين إلى عنان السماء. إلا أن ناصر حتى فى هذه الظروف كان حريصا. فقد كتب تشارلز يوست مندوب الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة، أن نص نداء القيادة المصرية للسكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت لم يكن ليحظى بموافقة ناصر، الذى وفق كلمات يوست لم يكن يرغب فى أن تنسحب قوات الطوارئ من شرم الشيخ.

وكما كان يجب أن نتوقع، لم يكن السكرتير العام للأمم المتحدة ليستطيع أن يسحب القوات جزئيا، ويعرى مناطق خطوط التماس بين الجيشين المصرى والإسرائيلى، لكن مصر كانت تملك الحق القانونى فى أن ترفض بقاء قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة على أراضيها، وهنا سقطت مصر فى قلب المصيدة التى نصبت لها، فقد كانت مضطرة للموافقة. وإذا ما دخلت القوات المصرية شرم الشيخ، فإنه سيكون من الضرورى أن تبرر مصر للعالم العربى لماذا تفعل هذا، وهنا أعلنت القاهرة عن إغلاق مضايق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، وأمام السفن التى تحمل حمولات استراتيجية إسرائيلية.

يجب القول إن المضايق فتحت قبل عشر سنوات من هذا وبالتحديد عام ١٩٥٧ بمقتضى اتفاقية سحبت إسرائيل بمتقاضاها قواتها من سيناء بعد العدوان الثلاثى على مصر، أهمية نزع سدادة مضيق تيران لإسرائيل كانت واضحة، فقبل هذا كان البحر الأحمر فى واقع الأمر "بحيرة"، يقع عليها ميناء إيلات الإسرائيلى وليس له أى قيمة.

بمعنى أخر إغلاق المضيق أعاد الوضع إلى ما كان عليه قبل العدوان على مصر عام ١٩٥٦، وأراد ناصر أن يتجنب الصدام العسكرى مع إسرائيل. فقد تحدث مرتين ٢٧ و٢٩ مايو كرر خلالهما :"نحن لسنا عازمين على البدء بإطلاق النار، نحن غير ساعين للقيام بالهجوم". وبالفعل إذا اقتصر الأمر على إغلاق مضيق تيران، فإن هذا كان سيعتبر فى العالم العربى نصرا مظفرا لناصر، الذى تبوأ مكانته زعيمًا للعالم العربى كله، وكان من الواضح أن ناصر أراد أن يتوقف عند هذا، ولم تكن مصادفة أن ناصر وافق على طلب يوثانت، الذى حمل طلبا للقاهرة بتأييد من الولايات المتحدة بأن تمتنع مصر عن تفتيش السفن المارة عبر مضيق تيران، وفى نفس الوقت وجه طلبا لإسرائيل بألا ترسل سفنًا عبر خليج العقبة لكى "تختبر قرار مصر بإغلاق المضيق".

وأكدت المعلومات الكثيرة التى أضافتها المخابرات السوفييتية، الموقف الذى اتخذه ناصر. ففى ٢٦ مايو فى أثناء لقائه بناصر تحدث رئيس الوزراء السورى الزوعين مع ناصر عن ضرورة توجيه ضربة وقائية، إلا أن ناصر رفض الفكرة. وفى ٣ يونيو١٩٦٧ وفى اجتماع مغلق للقيادة العسكرية المصرية والسفراء المصريين أعلن ناصر :"لن أبدأ بالحرب أولاً، لأننى بذلك أضع نفسى موضع إدانة من حلفائى ومن دول العالم الأخرى". هذه المعلومات ترافقت مع إخطار من رجال الكى جى بى فى القاهرة نقلاً عن دوائر حكومية فى الجمهورية العربية المتحدة، عن أن سعى ناصر فى الوقت الحالى ينحصر فى أن يدعم المكاسب التى حققها بسحب الأمم المتحدة لقواتها، وهو الآن سيدعو إلى أن تنفذ إسرائيل القرارات الخاصة بفلسطين، إلا أنه فى مقابل هذا

سيوافق على إنشاء منطقة منزوعة السلاح على غرار تلك التى كانت موجودة قبل عام ١٩٥٦.

وانطلاقا من هذا التصور دعم الاتحاد السوفييتى ما تقوم به مصر، وفى رسالة شفرية للسفير السوفييتى بالقاهرة أرسلها وزير الخارجية جروميكو يوم ٢٥ مايو، وصف فيها طلب سحب قوات الأمم المتحدة من غزة وشبه جزيرة سيناء بأنه "مبرر" و"خطوة قوية أدت إلى ما يناسبها من إيجابية"، القيادة السوفييتية سعت لأن يتوقف التصعيد وتطور الأزمة عند هذه "الخطوة المبررة".

لم تكن الولايات المتحدة ترغب فى تصعيد خطير للأحداث. ففى ١ يونيو أوفد الرئيس الأمريكى جونسون سرا ممثلا شخصيا عنه إلى مصر، حيث طلب من ناصر أن يرسل المشير عامر للولايات المتحدة لعقد لقاء سرى معه، من جانبه اعتقد ناصر أن المناورة التى قام بها من الممكن أن تنتهى دون حرب وأعطى موافقته مباشرة على الطلب الأمريكى، لكن على أن يقوم بالزيارة نائب رئيس الجمهورية زكريا محى الدين وليس المشير عامر. وأكد ممثل الرئيس جونسون مرة أخرى لناصر عند مغادرته، أن إسرائيل لن تقوم بأعمال عسكرية مادامت الاتصالات الدبلوماسية مستمرة، زيارة زكريا محى الدين للولايات المتحدة لم تتم نظرا لأن الحرب كانت قد بدأت بالفعل.

غير أن موقف الولايات المتحدة طرأ عليه تغيير قبل بدء الحرب، ولعب دورا محددا فى ذلك زيارة رئيس الموساد السرية م.عاميت للولايات المتحدة، والذى التقى رئيس المخابرات الأمريكية ر.هيلموس ووزير الدفاع ر. ماكنامارا، المخابرات والعسكريون الأمريكيون بددوا شكوك الرئيس جونسون، وأقنعوه بأنه من المفيد للولايات المتحدة استغلال الظروف الحالية والموافقة على الهجوم على الجيوش العربية، لأن نتيجة العملية محسومة، وأن إسرائيل تستطيع بسهولة أن تهزم الجيوش العربية. يوم ٤ يونيو أبلغ عاميت رئيس الوزراء إشكول وعدداً من الوزراء الرئيسيين المجتمعين فى منزل رئيس الوزراء بأن الولايات المتحدة أعطت عمليا "الضوء الأخضر"، وفى اليوم التالى صوتت

الحكومة الإسرائيلية بكاملها على القيام بعملية عسكرية وقائية. ضربت إسرائيل الجيوش العربية وحققت انتصاراً سريعاً.

رواية أن ناصر أعد لتوجيه ضربة وقائية لإسرائيل والتى انتشرت فى العالم لم يكن لها أساس فى الواقع وظهرت خرافة أخرى وهى أن القيادة السوفييتية هى التى دفعت مصر إلى البدء باستعراض القوة، ومن ثم إلى توجيه ضربة عسكرية وقائية.

وتعطى أهمية خاصة لإعطاء القيادة السوفييتية معلومات لناصر عن أن القوات الإسرائيلية مستعدة لتوجيه ضربة لسوريا. وحسب كلام هيكل فإن بودجورنى ونائب وزير الخارجية سيمينوف واللذين قابلهما السادات فى أثناء زيارة لموسكو فى منتصف مايو ١٩٦٧ فى طريق عودته من كوريا الشمالية، حذرا السادات سرا من الحشود الإسرائيلية على الحدود مع سوريا، ومن أن الهجوم قد يحدث خلال الفترة من ١٨ ـ ٢٢ مايو. السادات من جانبه وعلى وجه السرعة أرسل برقية مشفرة للقاهرة عن طريق السفارة المصرية فى موسكو.

وكما هو معروف إسرائيل نفت أى خطط لديها للقيام بالهجوم على سوريا، واقترحت على السفير السوفييتى فى تل أبيب، أن تنظم له زيارة لمنطقة الحدود مع سوريا ليتأكد بنفسه أنه لا توجد حشود عسكرية للقيام بهجوم. السفير، وله الحق فى ذلك، رفض هذا الاقتراح، لأنه كان يفهم جيدا أنهم بلا شك سيقودونه إلى أماكن لا توجد فيها حشود عسكرية إسرائيلية أو معدات أو جنود، وبهذا الشكل فإن رحلته من الممكن أن تستخدم للتمويه للهجوم على المواقع السورية.

فى غضون ذلك كانت المخابرات السوفييتية تمتلك معلومات عن إعداد القوات الإسرائيلية للهجوم. فى منتصف مايو توصلت القيادة الإسرائيلية إلى نتيجة أنه من الضرورى القضاء على نشاط الفلسطينيين الذين تدعمهم سوريا، ومنع إمكانية إنشاء معسكرات فلسطينية فوق الأراضى المتاخمة لإسرائيل. وتم بحث احتمالات مختلفة بما فى ذلك عملية واسعة للقوات البرية للهجوم على القواعد العسكرية السورية. إشكول

كان مصمما على استخدام الطيران فقط، فى حين كان رئيس الأركان رابين يعتقد أن العملية يجب ألا تقتصر على الضربات الجوية.

كان لدى مصر أيضا معلوماتها الخاصة، والتى تسمح بتقييم للموقف. فى ٢٢ مايو قال ناصر للسفير بوجيدايف، إنه فى ١٢ مايو هدد عدد من السياسيين والعسكريين الإسرائيليين بالحرب على سوريا واحتلال دمشق بشكل مباشر. فى هذا اللقاء مع السفير السوفييتى ظهر بوضوح من كلمات ناصر أحد الدوافع التى جعلت ناصر يقرر استعراض القوة حيث قال "من الواضح أن إسرائيل ومن هم وراءها يعتقدون أن الجمهورية العربية المتحدة غارقة فى اليمن ولا تستطيع تقديم مساعدة فعالة لسوريا. وكان يجب على الجمهورية العربية أن تثبت أن هذه الحسابات ليس لها أساس من الصحة".

عرقل الفهم الموضوعى لموقف الاتحاد السوفييتى، ليس فقط عدم التقييم الواجب من قبل عدد من السياسيين فى الخارج، أنا لا أتحدث عن الحملة الدعائية الهرائية، ولكن عن بعض الكلمات التى التى أفلتت من عدد محدود من العسكريين السوفييت، كتب هيكل أن المارشال جريتشكو عندما كان يودع وزير الحربية المصرى شمس بدران عند سلم الطائرة عقب زيارة الأخير لموسكو:"كونوا متماسكين بقوة، ولا تسمحوا للأمريكيين أو لأى أحد كائنا من كان أن يبتزكم، ومهما حدث نحن سنكون معكم"، وعندما أقلعت الطائرة ابتسم جريتشكو قال للموجودين معه فى أثناء وداع بدران :"لقد كنت ببساطة أريد أن أعطية جرعة تفاؤل فى الطريق". على الفور أرسل السفير المصرى لدى موسكو مراد غالب رسالة شفرية للقاهرة قال فيها إنه يجب عدم أخذ كلمات جريتشكو حرفيا. لكن يبدو أن العسكريين أيضا، كما هو جريتشكو، من الممكن أن يكون عندهم رأى آخر، وقد روى لى مراد غالب أن هذا الحديث جرى بالفعل.

إلا أن هذا لا يعكس بأى حال التوجه عند القيادة السوفييتية التى لم تكن تريد حربًا على الإطلاق، وأقول أكثر من ذلك، عندما كان بدران فى موسكو قال لكوسيجين

يوم ٢٦ مايو إن الإسرائيليين حسب معلومات لدى مصر سيقومون بلا شك بضرب مصر ويجب أن نسبقهم، حذره كوسيجين من ذلك وكان يعكس وجهة نظر القيادة السوفييتية من تطور الأمور لهذا وقال :"فى هذه الحالة ستبدو مصر دولة معتدية، يجب ألا تفعلوا هذا".

ولكى تخفف موسكو من حدة التوتر قبيل الحرب، قررت القيادة السوفييتية تنظيم لقاء لرئيس الوزراء الإسرائيلى ليفى إشكول والرئيس ناصر فى موسكو، قرار تنظيم هذا اللقاء اتخذه المكتب السياسى يوم ٢٨ مايو، وطلب السفير السوفييتى لدى القاهرة من خلال المشير عامر معرفة رأى رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى ذلك. وجاء رد ناصر أنه يعتقد أن رأى الحكومة السوفييتية "حكيم وهو يوافق عليه تماما" ووفق كلماته"..... نظرا لأن الجمهورية العربية المتحدة ليست عازمة على الهجوم على إسرائيل، فإن مباحثات إشكول فى موسكو لا يمكن أن تؤدى إلى خسارة بالنسبة لها". والأهم من ذلك أنه بعد زيارة إشكول لموسكو، كما كان يعتقد ناصر"... فإن إسرائيل سوف تتصرف بهدوء".

تلقى ليلة ٢ يونيو السفير السوفييتى فى تل أبيب م. س. تشوفاخين برقية مشفرة من وزارة الخارجية مع ملاحظة "تعرض فورا"، بأمر أن يلتقى فورا رئيس الوزراء الإسرائيلى وأن يبلغه دعوة القيادة السوفييتية له بالحضور لموسكو فى نفس اليوم لعقد لقاء سرى مع الرئيس ناصر لتسوية الأزمة القائمة. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استقبل رئيس الوزراء إشكول وزير خارجيته إيبان السفير السوفييتى، وبعد اجتماع إشكول مع وزير خارجيته أعطى موافقته على لقاء ناصر فى موسكو يوم ٢ يونيو. ففى الظروف التى تقوم فيها إسرائيل بعمل حملة دعائية تقول فيها إنها لن تبدأ بإطلاق النار أولاً، فإن رفض اقتراح موسكو كان يتناقض مع ذلك تماما، ومن الواضح أن موقف إشكول نفسه، المتردد فى القيام بضربة وقائية انعكس على هذه الموافقة.

أبلغ السفير السوفييتى موسكو فورا بموافقة إشكول، إلا أنه بعد ساعتين وصلت للسفير السوفييتى رسالة شفرية أخرى من وزارة الخارجية بملاحظة "تعرض فورا"،

والتى أبلغوا فيها تشوفاخين أن اللقاء لن يتم، حيث تراجع ناصر عن موافقته على عقد اللقــاء مع إشكول، لأن رئيس الوزراء الســورى الزوعين والرئيس الســورى الأتاسى الموجودين فى زيارة لموسكو أعربا عن رفضهما القاطع لعقد هذا اللقاء، وعندما عرف ناصر رأى القيادة السورية السلبى فيما يتعلق بهذا اللقاء، أبلغ ناصر السفير السوفييتى فى القاهرة، أنه وعلى الرغم من عدم مشاركته القيادة السورية فى رأيها المتشدد، فقد توصل إلى نتيجة مفادها أنه بدون موافقة سوريا لا يمكن عقد اللقاء. استيضاح موقف السوريين فهم منه أن موقفهم أملاه الخوف من أن يشجع اللقاء على معاداة السوفييت فى العالم العربى، ولا أستبعد أن القيادة السورية كانت تثق فى إمكانية، أنه بمساعدة استعراض القوة يمكن إجبار إسرائيل على التراجع، وموافقة إشكول على لقاء ناصر، دعمت رأى السوريين، وكانوا يعتقدون أن استمرار الوضع الحالى هو فى صالح العرب.

السفير تشوفاخين أبلغ إشكول بالرسالة التى تسلمها من موسكو، الذى استقبل خبر إلغاء اللقاء مع ناصر ليس فقط بدون أسف، بل بشعور واضح بالارتياح، لأن المباحثات التى ستبدأ فى موسكو كانت من الواضح ستزيد الأمور تعقدا داخل القيادة الإسرائيلية، بالإضافة إلى أن تأجيل حسم الوضع لم يكن مجديا لتل أبيب، حيث إن الاقتصاد الإسرائيلى لم يكن ليتحمل استمرار حالة التعبئة الكاملة أكثر من ذلك.

ونظرا لأن القيادة السوفييتية كانت واثقة من أن مصر لن تبادر ببدء العمليات العسكرية، فإنها ركزت على دره بداية الحرب من جانب إسرائيل. فى ٢٦ مايو أرسل كوسيجين برقية لإشكول من خلال سفيرنا فى تل أبيب، يحذره فيه من خطورة وآثار ما يمكن أن تؤدى إليه بداية الحرب، فى البرقية دعيت الحكومة الإسرائيلية إلى اتخاذ كل الإجراءات لكى لا يحدث نزاع عسكرى. وتم توجيه نفس الخطاب إلى كل من الرئيس الأمريكى جونسون ورئيس وزراء بريطانيا ولسون، وفى الرسالة السرية التى تم توجيهها للرئيس الفرنسى ديجول، أبدى الاتحاد السوفييتى استعدادا لدعم الاتصالات والقيام بمشاورات ثنائية حول الوضع.

في ذلك الوقت، كان الوضع في إسرائيل معقدا، فالإجراءات التي اتخذها ناصر كانت تثير القلق وسط قطاع واسع من السكان وكان الاعتقاد السائد بأن الهجوم العربي المنسق على إسرائيل لم يبق على حدوثه سوى أيام معدودة. المزاج العام في المجتمع لم يكن إلا أن يترك تأثيره على القيادة الإسرائيلية، لكنها كانت في حالة من التردد. لكن تدخل الجنرالات الإسرائيليين والمعارضة في نهاية مايو- بداية يونيو بطلبهم توجيه ضربة وقائية للجيوش العربية هو الذي وضع نهاية لهذا التردد، فمن وجهة نظرهم من الممكن أن يكون خطأ فادحًا عدم استغلال الوضع الحالي. استسلم إشكول وبعض السياسيين الإسرائيليين الآخرين للضغط، حتى هؤلاء الذين كانوا يدركون أن الحديث يدور في الجانب العربي عن مجرد استعراض وليس خطة لاستخدام القوة، وكان هناك أساس لدى جزء من القيادة الإسرائيلية للاعتقاد بأنها لا تشعر بخطر شديد (خاصة بعد زيارة يوثانت للقاهرة - المؤلف) من أن ناصر سيغلق بالفعل مضايق تيران.

الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يخشيان الصدام

على الرغم من دعم الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة لطرفين مختلفين في حرب ١٩٦٧، فإن كلتا القوتين العظميين سعت لعدم تصعيد هذه الحرب إلى مواجهة عالمية، فقبل نهاية الحرب طلب كل من الاتحاد السوفييتي من الولايات المتحدة والولايات من الاتحاد السوفييتي أن يؤثر كل منهما على "حليفه" لكي لا يصل بالأمور إلى الصدام المسلح بينهما. في يوم ٢٧ مايو أرسلت موسكو للرئيس جونسون إشارة، قالت فيها إن إسرائيل تخطط للهجوم على الدول العربية، وطلبت منه التأثير على إسرائيل لإثنائها عن ذلك. والرئيس جونسون ووزير خارجيته راسك أرسلا رسالة إلى كوسيجين وجروميكو بنداء أن ينصحا مصر "بتهدئة الوضع".

في نفس يوم بداية الحرب، ٥ يونيو ١٩٦٧، اتخذت خطوات من الجانبين ليقنعا بعضهما بعضًا بأنه ليست هناك نوايا للتدخل العسكري في الأزمة، وأنهما سيبذلان

الجهد كل من جانبه فى الأمم المتحدة لإعداد قرار لوقف إطلاق النار. واستخدم رئيس حكومة الاتحاد السوفييتى كوسيجين لأول مرة "الخط الساخن" للاتصالات يوم ٥ يونيو، وخلال ستة أيام الحرب لجأت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لاستخدام "الخط الساخن" مرات كثيرة، وذلك لاستيضاح الأوضاع، وخاصة فى أثناء مناقشة مسألة التوصل إلى قرار لوقف إطلاق النار من مجلس الأمن، إلا أن الرئيس جونسون اتصل بكوسيجين ليؤكد له أن تحركات السفن الحربية فى البحر المتوسط تجرى فقط بهدف مساعدة طاقم السفينة "ليبرتى" التى قصفها الإسرائيليون وإجراء تحقيق فى الحادث، فى موسكو تقبلوا الأمر برضى واعتبروا أن هذه بادرة طيبة من جانب الولايات المتحدة لعدم التدخل فى الأحداث.

فى مذكراته كتب السفير السوفييتى لدى الولايات المتحدة أ. ف. دوبرينين"..... فى أثناء الأحداث الحاسمة كان الرئيس جونسون وراسك وماكنامارا والمستشارون الرئيسيون موجودين فى "غرفة الحالات الطارئة" بالبيب الأبيض وفى الكرملين كان المكتب السياسى مجتمعا، وجود "الخط الساخن" لعب دورا لا يقدر بثمن الحفاظ على اتصال دائم بين موسكو واشنطن، فقد أتاحت للبيت الأبيض والكرملين وضع أيديهما على نبض تطور الأحداث، ومنع أى خطورة للنوايا غير المعروفة وتصرفات كلتا الحكومتين"(١٧).

فى الحقيقة، لم تكن هناك ضرورة لتدخل الولايات المتحدة، فقد كان انتصار إسرائيل أكثر من واضح، والاتحاد السوفييتى وجد نفسه فى وضع آخر، فى الساعات الأخيرة للحرب يوم ١٠ يونيو، تجاهلت القوات الإسرائيلية قرار مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار وتحركت فى اتجاه دمشق، على أثر ذلك قام النائب الأول لوزير خارجية الاتحاد السوفييتى ف. ف. كوزنتسوف باستدعاء السفير الإسرائيلى فى الاتحاد السوفييتى ك. كاتس وسلمه مذكرة محتواها الآتى :"إذا لم تتوقف إسرائيل فورا عن العمليات العسكرية، فإن الاتحاد السوفييتى مع الدول الأخرى المحبة للسلام

(كان يعنى دول حلف وارسو- المؤلف) سوف يفرض عقوبات على إسرائيل مع كل الآثار المترتبة على ذلك". فى المذكرة كذلك إخطار :"أن حكومة الاتحاد السوفييتى قررت قطع العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى وإسرائيل".

وفى نفس الوقت تم إبلاغ الرئيس جونسون عن طريق "الخط الساخن" بأن الاتحاد السوفييتى مضطر للاستعداد "لاتخاذ قرار مستقل" و"اتخاذ ما يراه ضروريا من أعمال" فى حالة عدم توقف إسرائيل عن الأعمال العسكرية على الفور، التحذير كان شديد اللهجة للغاية ، ورد الفعل عليه كان جادا. بعد ثلاث ساعات من تسلم المذكرة السوفييتية، اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارا بوقف العمليات العسكرية على جميع الجبهات. استعداد الاتحاد السوفييتى فى تلك اللحظة لأن يتدخل عسكريا لمنع الاستيلاء على دمشق والقضاء على نظام من الممكن أن نقول إنه قريب من الاتحاد السوفييتى وحليف هو النظام السورى كانت واضحة جدا. وفى واشنطن كانوا يدركون أن إسرائيل يجب ألا تتخطى هذا "الخط الأحمر" وهى لم تتخطه بالفعل.

ومع ذلك كان الاتحاد السوفييتى بعيدا عن أن يستغل مثل هذا الوضع لصالح تقارب عسكرى ـ سياسى مع تلك الأنظمة التى كان مستعدا لاستخدام القوة من أجلها. حدث الكثير من المزايدة حول إمكانية انضمام مصر وسوريا لحلف وارسو بعد الهزيمة فى حرب الأيام الستة، وفى هذه الحالة يمكن القول بأنه ليس هناك دخان بدون نار، ففى حقيقة الأمر هذه القضية أثارها ناصر فى ٢١ يونيو فى أثناء زيارة كان يقوم بها بودجورنى للقاهرة، فقد طلب ناصر فى البداية إعطاء زيارته طابع السرية، لكن بعد ذلك تراجع عن هذا القرار، وبشكل مباشر وضع أمام بودجورنى مسألة شكل جديد للعلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفييتى، بما فى ذلك فى المجال العسكرى، للتوضيح قال إن الحديث يدور عن ابتعاد مصر عمليا عن خط عدم الانحياز، بودجورنى أجابه كما لو أنه كان يفكر فى نفس الأمر "إذا أعلنت الجمهورية العربية المتحدة رسميا عن أنها سوف تتخلى عن سياسة عدم الانحياز، فإن بعض

الدول العربية على ما يبدو سوف تبتعد عن التعاون الوثيق مع الجمهورية العربية المتحدة"، كما كان هناك تأكيد على ضرورة التحليل العميق لكل جوانب هذه المسألة، من ناحية فوائدها العسكرية والتشاور مع "الإخوة من الدول الاشتراكية". من اللقاء مع ناصر أصبح من الواضح أنه ناقش مبدئيا نواياه حول الانضمام لحلف وارسو مع الرئيس السورى الأتاسى ووزير خارجية الجزائر بوتفليقة، وقد أيده الأتاسى تماما وقال إن سوريا يجب أن تسير فى طريق واحد مع مصر، أما بوتفليقة فقد "أعرب عن دهشته" من نوايا الجمهورية العربية المتحدة.

فى نهاية الأمر وافق ناصر على أن خروج مصر عن سياسة عدم الانحياز ممكن أن يكون له أثر سلبى على وضع الجمهورية العربية المتحدة بين الدول العربية وفى "العالم الثالث" ويؤدى إلى مشاكل داخلية بصفة عامة.

ليس لدى كوسيجين تفويض

والعرب طغى عليهم الانفعال

فى الفترة من ٢٣ ـ ٢٥ يونيو التقى رئيس مجلس الوزراء السوفييتى كوسيجين ووزير الخارجية جروميكو بالرئيس جونسون، فى مدينة جلاسبورو الصغيرة بولاية نيوجيرسى. كان الجزء الأكبر من الحديث الذى جرى بين كوسيجين وجونسون على انفراد عن الوضع فى فيتنام، تقدم جونسون باقتراح حول إمكانية وقف القصف الأمريكى، بمجرد أن تبدأ المباحثات مباشرة. وبالطبع تطرق كوسيجين إلى الوضع فى الشرق الأوسط، حيث انتهت الأعمال العسكرية باحتلال مساحات كبيرة من الأراضى العربية، وافق جونسون على ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة مع الاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود، لكن كوسيجين لم يكن لديه تفويض "لوضع هذه الموافقة على الورق". وبصفة عامة كان بريجنيف فى حالة غيرة شديدة من مهمة

كوسيجين، فقد كانت هذا أول لقاء قمة سوفييتي ـ أمريكي بدون السكرتير العام، وقد سمي "تمهيدي" قبل اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، وأرسل إليه كوسيجين رئيساً للوفد السوفييتي.

أدى الوضع الملتبس لرئيس الحكومة السوفييتية، والذي لم يكن يملك تفويضاً كما أتصور إلى إهدار فرصة ربط انسحاب القوات الإسرائيلية إلى مواقع ما قبل بداية حرب الأيام الستة بمباحثات الولايات المتحدة حول فيتنام، حيث كان جونسون مهتما جدا بهذا الأمر، لأن موعد الانتخابات الرئاسية حينها كان قد اقترب، وبالطبع هذه الحزمة لم تكن لتتحقق بدون مشاركة الفيتناميين، وهناك أساس لاعتبارهم أصحاب مصلحة في الوساطة السوفييتية، وهو ما اقترحه جونسون عمليا.

الفرصة الأخرى التي من الممكن أن تكون أكثر أهمية ولم تستغل، هي إجبار إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة، حيث لم توافق الدول العربية على قبول قرار مجموعة دول أمريكا اللاتينية في الاجتماع الطارئ للجمعية العامة للأمم المتحدة التي بدأت أعمالها في يوليو. بدأت بعدم رضى ممثلي الدول العربية عن خطاب كوسيجين، الذي بالإضافة لإدانته إسرائيل ومطالبته لها بالانسحاب الفوري من الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، أعلن عن حق إسرائيل في الوجود المستقل.

أبلغ جروميكو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي عن الموقف في الجمعية العامة من خلال رسالة أرسلها قال فيها :"العلاقات بين رؤساء وفود بعض الدول العربية غير مترابطة.... ضغط الاتجاه المتطرف وغير الواقعي لقيادتي الجزائر وسوريا، بلا شك، أثر على موقف الجمهورية العربية المتحدة والعراق ودول عربية أخرى كانت تنظر إلى المتطرفين، خوفا من أن تتهم بالإفراط في تقديم تنازلات لصالح الاعتراف بإسرائيل دولة".

يوم ١٣ يوليو تم توزيع مشروع قرار من دول أمريكا اللاتينية على أعضاء الجمعية العامة، النقطة الأهم في مشروع القرار هو عدم جواز "الاستيلاء على الأرض بالقوة"، ومن ثم الإعلان عن "انسحاب القوات الإسرائيلية إلى مواقعها السابقة". بهذا

الشكل فى هذه الوثيقة الدولية كان من الممكن أن تثبت ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من كل الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧. إلا أن الدول العربية رفضت هذا القرار، الرئيس السورى الأتاسى أعلن مبررا سبب الرفض "لقد ناقشنا هذه المسألة فى اجتماع قادة الدول العربية (القمة عقدت فى القاهرة فى ١٨ يوليو – المؤلف)، ورفضنا هذا المشروع كما رفضنا مشاريع قرارات أخرى، تحتوى على أى شكل من أشكال إنهاء حالة الحرب".

بعد أن أعلنت الدول العربية رفضها القاطع لمشروع قرار دول أمريكا اللاتينية، أنهت الجمعية العامة أعمالها، وتم تسليم مشكلة الشرق الأوسط لمجلس الأمن. بسبب عدم قدرة الجانب العربى على تجاوز انفعالاته حول الأحداث مهدراً إمكانية اتخاذ قرار مناسب له على المستوى الدولى. فقرار أمريكا اللاتينية كان أكثر تحديدا فيما يخص انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضى العربية، من القرار الذى صدر بعد أربعة أشهر وحمل رقم ٢٤٢ من مجلس الأمن. لم يكن الوضع فى إسرائيل أقل أهمية، وهى التى كانت تأمل فى ألا يؤدى قرار أمريكا اللاتينية إلى رفض قاطع له من النخبة السياسية الإسرائيلية. على أى حال كانت توجد فروق واسعة فى الآراء فيما يتعلق بمصير الأراضى المحتلة، ذلك لأن ليس كل الشخصيات الرئيسية فى القيادة الإسرائيلية، أعربت عن رغبتها فى استمرار الاحتلال.

بعد أن رفض العرب مشروع قرار دول أمريكا اللاتينية، فى الجمعية العامة للأمم المتحدة جرت مياه كثيرة، لا شك كان لها تأثير على التسوية. ففى أغسطس وفى مؤتمر القمة العربى بالخرطوم، تمت الموافقة على ثلاث "لاءات"، لا للاعتراف بإسرائيل ولا للتفاوض معها ولا للسلام معها. كما تشددت الولايات المتحدة فى موقفها، بأن تخلت عن الاقتراح الذى أيدته فى أثناء الاجتماع الطارئ للجمعية العامة للأمم المتحدة.

استمر الاتحاد السوفييتى فى البحث عن مخرج من الوضع الراهن، وبأوامر من موسكو التقى دوبرينين بعد انتهاء أعمال الجمعية العامة بممثل الولايات المتحدة الدائم

فى الأمم المتحدة جولدبيرج، الذى كتب بخط يده على ورقة صيغة حل وسط، لقرار أمريكا اللاتينية، وبعد شهر من الجهد المضنى مع الدول العربية ذات الصلة بحرب الأيام الستة، استطاعت القيادة السوفييتية أن تجعلها تميل إلى قبول الحل الوسط. إلا أنه فى ١٩ أكتوبر رفض وزير الخارجية الأمريكى راسك فى لقاء مع دوبرينين أن يطرح النص الذى تم الاتفاق عليه مع الاتحاد السوفييتى على مجلس الأمن، ولم تجد نفعا الرسالة التى وجهها كوسيجين بهذا الخصوص لجونسون.

فى نهاية الأمر وبدعم من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة تمت الموافقة على القرار ٢٤٢ فى مجلس الأمن، فكرته كانت تؤدى إلى شيئين : انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة نتيجة النزاع الأخير (أى حرب ١٩٦٧ ـ المؤلف) والاعتراف بوحدة "أراضى" والاستقلال السياسى لكل دولة فى هذه المنطقة (بما فيها إسرائيل ـ المؤلف).

لكن هذا القرار الذى كان بالطبع يعتبر خطوة كبيرة للأمام، وهو ما أثبتته الأيام، كان به خلل، نتيجة البحث المعقد عن حل وسط لإصدار القرار (فى النص الإنجليزى ـ المؤلف)، اختفت أداة التعريف قبل كلمة "أراضى"، مما سمح بتأويلها بطرق مختلفة : أصر الاتحاد السوفييتى على أن الحديث يدور عن انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضى المحتلة، رفضت الولايات المتحدة هذا التفسير، لكن ليس تماما وبصفة عامة، ففى ٢ نوفمبر قال وزير الخارجية الأمريكى راسك للمصريين أن الولايات المتحدة سوف تدعم انسحاب القوات الإسرائيلية الكامل من سيناء (لكن ليس من كامل الأراضى المحتلة الأخرى ـ المؤلف) فى سياق السلام مع إسرائيل.

بعد زيارة جروميكو للقاهرة فى بداية ديسمبر عام ١٩٦٨، قدمت الحكومة السوفييتية موقفها من التسوية. فى ذلك الوقت بدأت تصل إلى السلطة فى واشنطن إدارة جديدة ـ وأصبح ريتشارد نيكسون رئيسا، وقدم له الاقتراح السوفييتى الخاص بالتسوية الشاملة، إلا أن نيكسون وكيسنجر لم يعيرا الاقتراح السوفييتى الاهتمام الواجب، وفى نفس الوقت كلفا وزير الخارجية روجرز ونائبه سيسكو بإجراء مباحثات

مع سفير الاتحاد السوفييتي دوبرينين. هذه المباحثات جرت على خلفية "حرب الاستنزاف" التى كانت تقوم بها مصر ضد إسرائيل. لكن بعد ذلك وفى ٢٠ يوليو ١٩٦٩ وعندما بدأ الطيران الإسرائيلى يهاجم المواقع المصرية، وفى أكتوبر دمر الدفاعات الجوية المصرية، توقفت المباحثات.

فى أكتوبر عام ١٩٦٩ وعندما كان وزير الخارجية السوفييتي جروميكو فى نيويورك لحضور دورة اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، اطلع على الوثيقة الأمريكية ـ "خطة روجرز"، لكن هذا تزامن مع تسليم الولايات المتحدة لإسرائيل أحدث الطائرات من طراز "فانتوم"، ولم تكن هذه خلفية جيدة لمباحثات سوفييتية ـ أمريكية بناءة، خاصة وأنه فى يناير ١٩٧٠ بدأت إسرائيل فى استخدام هذه الطائرات للإغارة على عمق الأراضى المصرية. وكان سد أسوان العالى تحت التهديد، وهو الذى إذا دمر لأصبح وجود مصر نفسها محل شك، وقد أعلن المشرف على بناء السد المهندس الكبير عالم المياه الوزير ح. زكى أنه فى حالة تدمير القصف للسد العالى، فإن الكارثة لن تلحق بمناطق معينة، بل ستجرف مياه النيل مصر كلها. فى هذه الظروف وصل ناصر إلى موسكو، وقد وعدته القيادة السوفييتية بسرعة نشر منظومات دفاع جوى حديثة فى مصر.

١٩ يونيو ١٩٧٠ دعت الولايات المتحدة من جانب واحد وبدون مشاورات مسبقة مع موسكو، الطرفين لوقف إطلاق النار. الاتحاد السوفييتى ورغم التصرف أحادى الجانب من الولايات المتحدة، كان صاحب مصلحة فى وقف إطلاق النار، ونصح مصر بالموافقة على الاقتراح الأمريكى.

هزيمة البرجوازية العسكرية المصرية

أو كيف دافع ناصر عن الصحفيين السوفييت

بعد انتهاء الحرب توترت العلاقة بين الرئيس ناصر والمشير عامر، وضع موسكو لم يكن سهلاً فى هذا النزاع. عامر الذى قاد القوات المسلحة المصرية كل سنوات ما

بعد الثورة كان شريكا لعسكريينا، وليس ناصر فقط هو الذى منح لقب بطل الاتحاد السوفييتى ولكن عامر أيضا منح لقب بطل الاتحاد السوفييتى. لكن المخابرات السوفييتية أبلغت بأن عامر يستعد للسفر إلى منطقة قناة السويس وسط وحدات موالية له، وسيوجه لناصر إنذاراً بمطالبه، وفى حالة رفض ناصر لهذه المطالب فإنه سيقوم بتنحيته. فى ظروف كهذه لم يكن لدى الاتحاد السوفييتى أى شك فى أنه يجب ألا يقف على الحياد، وكل الإمكانات تم توجيهها لدعم رئيس مصر.

بالنسبة لناصر، الصدام مع عامر لم يحدث "بدون سبب". عامر كان يسيطر على الجيش منفردا، كان يعتبر مركز قوة موازياً فى مصر، على الرغم من التأييد الشعبى الجارف لناصر. ففى عام ١٩٦٢ تحدى ناصر حين هدد بالاستقالة إذا أقالوه من قيادة القوات المسلحة دون رقابة من أحد. ناصر حينها تراجع، لكن بعد حرب ١٩٦٧ والتى أظهرت عدم قدرة عامر على قيادة الجيش، لم يتراجع ناصر. بعد الهزيمة العسكرية كان من الضرورى إجراء تغييرات فى قيادة القوات المسلحة، وتمت إقالة المشير عامر ضمن آخرين. وأبقوا له منصب نائب الرئيس، لكن عامر رفض هذا القرار.

تقع المسئولية الأكبر عن الهزيمة على عاتق قيادة القوات الجوية السابقة فى الجمهورية العربية المتحدة، التى كانت تعلم بالضربة التى كانت تعد لها إسرائيل ولم تتخذ الإجراءات اللازمة استعدادا لها، لكن عدد من الجنرالات والضباط الكبار فى القوات الجوية الذين كان يجب أن يتحملوا المسئولية، لفترة طويلة اختفوا عن الأنظار حتى لا يحاكموا، وقد وجدوا فى بيت عامر ملاذا لهم، بعد ذلك تحول مقر عامر فى وسط القاهرة إلى مركز لمعارضى حكومة ناصر. وبدأوا يحضرون أسلحة سرا، وكان يحرس البيت فصيلة خاصة مكونة من فلاحين تم تجنيدهم من العزبة التى يمتلكها أحد إخوة عامر.

حاول ناصر أكثر من مرة أن يشرح لعامر وضعه السيئ، واستقبله أكثر من مرة، وحينما وصلت معلومات مؤكدة أن عامر ومجموعته بدأوا الاستعداد النشط

للقيام بثورة، وتم تحديد موعدها ٢٧ أغسطس. فى هذا اليوم كان يجب أن يذهب عامر إلى قيادة المنطقة الشرقية الواقع فى منطقة قناة السويس، وكان من المفترض أن يصحبه ١٥٠ من طلبة مدرسة "الصاعقة" مع قائدهم المشارك فى المؤامرة، وفى نفس الوقت وزير الحربية السابق شمس الدين بدران يجب أن يصل إلى مقر قيادة الفرقة الرابعة، والاستيلاء على قيادتها ومن ثم إرسالها إلى القاهرة. أما وزير الداخلية السابق عباس رضوان فقد تم تكليفه بأن يأخذ على عاتقه حفظ الأمن فى القاهرة، وكان من المفترض أن تجرى سلسلة من الاعتقالات الخاطفة للأشخاص المحيطين بالرئيس. بعد ذلك يجب أن يعود عامر إلى القاهرة "على الحصان الأبيض". وكما قال "لندع ناصر يرى ما سيحدث".

كل هذه الحقائق تكشفت قبيل سفر الرئيس ناصر لحضور مؤتمر القمة فى الخرطوم. بعد ذلك تطورت الأحداث على النحو التالى، ناصر استدعى عامر وفى حضور نائبى الرئيس زكريا محى الدين وحسين الشافعى ورئيس مجلس الأمة أنور السادات، وتم إخطاره بأنه سوف يكون رهن الإقامة الجبرية، وتم اعتقال الضباط المختبئين فى منزله ومصادرة الأسلحة التى بحوزتهم، وتم تشكيل محكمة عسكرية، لكن عامر انتحر بإطلاق الرصاص على نفسه.

وصل رئيس تحرير صحيفة "البرافدا" لدول آسيا وأفريقيا إيجور بتروفيتش بيليايف إلى القاهرة بعد انتهاء حرب ١٩٦٧ مباشرة، وقد كتبت بالاشتراك معه عدداً من المقالات نشرت فى "البرافدا" والمجلة الأسبوعية "زا روبيجوم". تعرضنا فى هذه المقالات ودون أدنى مجاملة للموقف الاجتماعى ـ الاقتصادى المعقد فى مصر، نحن لم نصف الأحداث فقط، ولكن حاولنا كذلك تحليلها. والتحليل أوصلنا إلى عدد من نقاط الضعف العضوية فى النظام الذى نشأ فى مصر بعد انهيار النظام الاستعمارى.

قبل ثورة يوليو كانت النخبة الحاكمة فى مصر مكونة من ممثلى البلاط الملكى وكبار ملاك الأراضى ورجال الصناعة والمال، لكن بعد ثورة ١٩٥٢ النخبة الحاكمة

البيروقراطية أصبحت مكونة من أعلى إلى أسفل من الضباط. عندما يحالون للتقاعد كانوا يشغلون مناصب مختلفة في جهاز الدولة، محافظين في نفس الوقت على علاقاتهم المهنية الأصلية. والكثير سواء كانوا في الخدمة أو أحيلوا للتقاعد استغلوا أوضاعهم المؤثرة في المجتمع، لكي يحصلوا على مكاسب سواء لأنفسهم أو لمجموعة من الناس المرتبطين بهم. ونشأ نتيجة لذلك نوع من عدم التوزيع العادل في مصر، فمن ناحية كانت توجد إصلاحات لصالح الجماهير، ومن ناحية أخرى نتيجة هذه الإصلاحات استغلتها "البرجوازية العسكرية" التي تواءمت مع الظروف الجديدة.

وقد أظهرت حرب ١٩٦٧ ما كان خافيا من قبل، وهو أن الضباط الذين أصبحوا "طبقة عسكرية"، أو"برجوازية عسكرية"، موجهين ضد خط القيام بتحولات اجتماعية عميقة، وعمليا تبين أنهم غير مستعدين للقيام بواجباتهم الوظيفية والوطنية. وقد كتبنا "أنه من الصعب تصور أن الجنرالات والضباط الكبار الذين انتقصت مصالحهم بالإصلاحات التي تمت، يستطيعون أن يدعموا هذه الإصلاحات والسياسة الداخلية لناصر بإخلاص". استخدم الجنرالات والضباط الامتيازات لزيادة رفاهيتهم. وعندما كانوا يتقاعدون من الخدمة في الجيش لانتهاء فترة خدمتهم، فإنهم كقاعدة، كانوا يشغلون مناصب "مدنية" عليا، ويحصلون على إمكانيات واسعة للثراء، وظهر نوع من الضباط ـ الوسطاء، الذين كانوا مشغولين أكثر بالأعمال التجارية أكثر من إعداد الجنود وضباط الصف.

حسب رأينا فإن التغييرات الشخصية التي حدثت في الجيش بعد الهزيمة العسكرية مباشرة، لم تشكل في حد ذاتها حلاً للمشاكل، فقد بقيت "البرجوازية العسكرية" كطبقة اجتماعية، وفضلت قيادة الجمهورية العربية المتحدة الحل من أسفل عن الحل من أعلى، وهذه كانت نقطة ضعفها وكما كتبنا أنا وبليايف " في واقع الأمر ممكن إقالة الجنرالات، لكن هذا لن يحل المشاكل المهمة الأخرى المرتبطة بمستقبل البلاد.... وتقريبا كل من قابلناهم كانوا يعتقدون أن الجبهة التي ستدور عليها المعركة الرئيسية، هي السياسة الداخلية... الديموقراطية؟ نعم بالطبع، ينتظر الشعب، وخاصة

قواه التقدمية أن تستغل خدماته فى كل شىء، من إدارة الاقتصاد فى القرى الصغيرة وحتى التخطيط على المستوى القومى الواسع".

لم يتحقق شىء من المتوقع للأسف، بسبب الأحداث، وخاصة بعد وفاة ناصر. كان توجه المقالات يتناقض مع آراء من كان يرأس القسم الدولى فى اللجنة المركزية ر.أ. أوليانوفسكى، الذى كانت وجهة نظره أن التوجه الاشتراكى لا يمكن أن يكون ضحية التطور الداخلى بالتحديد، بنشوء برجوازية عسكرية تغلغلت فى كل مسام حياة المجتمع، بهذا الخصوص قرر أوليانوفسكى أن يكتب ضدنا مذكرة لسكرتارية اللجنة المركزية، ولعلكم تعرفون كم كان سيكون تأثير هذه المذكرة على عملنا فى تلك الفترة لولا جمال عبد الناصر، فقد ترجموا له مقالاتنا، وكان هناك موعد لقاء مع السفير السوفييتى، وقال له إنه قرأ المقالات وهو موافق على النتائج التى توصل إليها الكاتبان، وأبلغ السفير هذه المعلومات لموسكو، وهكذا بقيت مذكرة أوليانوفسكى إلى سكرتارية اللجنة المركزية على مكتبه ولم تقدم.

يمكن اليوم أن يضاف إلى تحليلنا تحديد أكثر مما كان فى ذلك الوقت. أن التناقضات الداخلية التى تصاعدت فى مصر ، وفى بعض الدول العربية الأخرى، كانت توضح حدود تطور القومية العربية للأمام فى شكلها الأولى. ولم يعد البديل الاشتراكى، الذى كنا حينها ندفع الدول العربية تجاهه، موجودا، وضعفت شعارات الاشتراكية العربية، وبدأ نموذج التطور اللارأسمالى يتحطم.

الفصل التاسع

نيكسون وكارتر

تكتيك شرق أوسطى جديد

كان ينظر لنتائج حرب الأيام الستة فى واشنطن بعيدا عن أن تكون نظرة أحادية الجانب. خلقت حرب ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط وضعًا جديداً من حيث المبدأ، احتلت إسرائيل أراضى ليس فقط مصرية وسورية ولكن أيضا جزءًا كبيراً من دولة الأردن المقربة من الولايات المتحدة. كما أظهرت التعاطف مع مصر وسوريا والأردن كل الدول العربية، ومنها دول ذات أنظمة محافظة ممن كانت الولايات المتحدة تراهن عليها فى معاداتها للسياسة الناصرية. تصاعد فى الشرق الأوسط اتجاه معادٍ للأمركة لم يسبق له مثيل، بلا شك كسب إسرائيل للحرب أمام مصر وسوريا لم يعوض الولايات المتحدة عن الخسارة السياسية فى العالم العربى ككل. كان الكثير من المتخصصين الأمريكيين فى العلوم السياسية ـ ليس دون أسباب ـ ينطلقون من أنه دون تغيير فى التوجه الأمريكى فى العلاقة بالعالم العربى، فإنه سيحدث تهديد للغرب فى المجال النفطى.

مناقشات حول التوجه الشرق أوسطى فى الولايات المتحدة

دارت المناقشات فى المؤتمرات وحلقات النقاش التى عقدت فى أواخر الستينيات ـ بداية السبعينيات فى الولايات المتحدة حول الاتجاه الذى يجب البحث فيه عن مدخل

جديد للوضع فى الشرق الأوسط. فى إطار المناقشات فى الكونجرس قال السفير السابق فى مصر ومدير معهد الشرق الأوسط والأدنى فى جامعة كولومبيا ج. بادو[١٨] إن "الشائع حاليا هو الاعتقاد بأن الولايات المتحدة بدعمها لإسرائيل المدججة بالسلاح ستستطيع بشكل ما إعاقة تقوية المواقع السوفييتية فى الدول القريبة من حدود الاتحاد السوفييتى أو ستساعد على الأقل فى تجريفها، وهذا ليس له أساس من الصحة". وأكد البروفيسور فى جامعة برينستون، م. بيرنستين فى جلسات الاستماع هذه على أن الولايات المتحدة تحتاج إلى الابتعاد عن هذه الإجراءات التى من الممكن أن "تضع تحت التهديد النفط ومصالح مادية أمريكية أخرى"[١٩]، فى الشرق الأوسط.

لم تنحصر المناقشات فى الجدل بخصوص الاستمرار فى دعم إسرائيل والأنظمة العربية المحافظة من عدمه، فقد كان يوجد رأى واحد بهذا الخصوص، الاستمرار فى الدعم. لكن الكثيرين من ممثلى المرجعيات السياسية الأمريكية والدوائر العلمية والأعمال أكدوا على أن هذا الدعم يجب ألا يعيق توسيع قواعد الارتكاز الأمريكية فى الشرق الأوسط على حساب التوقف عن عداء الولايات المتحدة المستحكم للأنظمة القومية. وكان البعض يعنى احتمال تطور فى مواقف هذه الأنظمة - التى أبدت عدم رضاها عن "المساعدات المحدودة" المقدمة من جانب الاتحاد السوفييتى على أعتاب السبعينيات - فى المستقبل.

حصلت المناقشات على دفعة جديدة بعد أن فاز ريتشارد نيكسون فى الانتخابات الأمريكية عام ١٩٦٨، تميز ما عرف بمبدأ نيكسون بضرورة تقريب الإمكانيات الأمريكية من واقع الحياة الدولية. خلقت مقارنة الموقف الأمريكى تجاه الشرق الأوسط مع الوضع فى ذات المنطقة وجهتى نظر متناقضتين، كتب عنهما فى ذلك الوقت هال سونديرس، فقد لاحظ أن البعض يعتقد أن قوة مواقف الولايات المتحدة فى المنطقة تعتمد على قدرتها على دعم الأنظمة الصديقة "لا تسمح بسقوطها" وتأخذ بيدها. فيما يرى آخرون أنه من الضرورى دعم "قوى التجديد" والبحث عن وسيلة للتواصل معها ،

أو بمعنى آخر الرهان كذلك على الأنظمة القومية. البعض يعتقد أن المهمة الأولى تعتبر بناء "إجماع استراتيجى" مع الدول الصديقة للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، بحيث تكون الأولوية لإعداد المنطقة "للصراع" مع الاتحاد السوفييتى، ومن خلال هذا، كما يزعمون، من الممكن تقريب حل نزاع الشرق الأوسط. وآخرون يرون أنه من الضرورى محاولة تسوية هذا النزاع من خلال هذا الحفاظ على المواقع الأمريكية وتقويتها. البعض يعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن تساند إسرائيل دون شروط، وأى محاولة للضغط عليها بهدف الوصول لتوافق مع الفلسطينيين يمكن أن تضعف إسرائيل بوصفها مركزًا متقدمًا للتأثير الأمريكى، نعم، وتضعف بالتالى المواقع الأمريكية. وآخرون يعتقدون، أنه فقط من خلال حل المشكلة الفلسطينية ممكن أن تضعف القوى الأمريكية، وتهدد إمدادات النفط من المنطقة. البعض يرى أنه لا يجوز الاستسلام "للابتزاز من جانب الدول المنتجة للنفط"، "كما فعلت هذا أوروبا الغربية"، ويجب الاستمرار فى اتباع نهج متشدد فى العلاقات مع هذه الدول. فيما يرى آخرون أن "العالم الحر" يعتمد اعتمادا كاملاً على واردات النفط من الشرق الأوسط، ويجب الانطلاق من هذا عند اتخاذ "قرار توافقى"[٢٠].

كان هال سونديرس ينتمى بلا شك إلى "الآخرين"، لقد اقتربت منه فى أثناء مشاركتنا فى لقاءات دارتموث[٢١]، وكان ممثلاً للجانب الأمريكى، وأنا السوفييتى، وكنا نرأس مجموعة تناقش مشاكل الشرق الأوسط. لقد عملت هذه المجموعة بنشاط كبير عندما كانت الاتصالات بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة محدودة على المستوى الرسمى. هال حينها كان نائبًا سابقًا لوزير الخارجية الأمريكى، وأنا لم أكن وجها رسميا، حيث كنت أعمل فى معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية. لكن مواقفنا "الشخصية" لم تمنعنا على الإطلاق من فهم أن نتيجة المناقشات وإمكانية تقريب المداخل لمصلحة الاستقرار وتحقيق السلام فى الشرق الأوسط بين القوتين العظميين، سيتم إبلاغها إلى المؤسسات الرسمية سواء فى الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة.

كان تقييم هال سونديرس لنشاطنا عاليا فى ما كتبه عن لقاءات دارتموت. وأنا أؤيده فى تقييمه، خاصة فيما يخص مجموعتنا الشرق الأوسطية، وكنت أود أن أضيف، أن أشياء كثيرة مشتركة كانت موجودة فى مدخلنا لواقع الشرق الأوسط، ليس فقط مع هال سونديرس، بل أيضا مع بيل بولك وبيل كواندت وإدوارد دجاريجان، أنا ذكرت فقط هؤلاء الذين كانوا قبل أو فى أثناء الحديث معهم مسئولين فى الخارجية أو مجلس الدفاع الوطنى الأمريكى.

لكن المقابلات جرت مع أمريكيين آخرين منهم علماء وخبراء وصحفيون، كانوا يفهمون جيدا فكرة ما يحدث فى هذه المنطقة الشديدة الغليان، ويستوعبون التفاصيل، لم يتفقوا دائما مع هؤلاء الذين كانوا يعوضون غياب الوعى والخبرة بالعداء الموجه للاتحاد السوفييتى من جانب واحد. من هنا يجب ألا نصف كل من أثر أو حاول التأثير فى إنتاج سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية بأنهم على شاكلة واحدة.

"نحن نعطى اهتمامًا غير عادى للتهديد العسكرى السوفييتى، الذى لم يثبت فى الواقع، والتهديدات العظيمة لأمننا تبقى هى نفسها التى كانت موجودة من قبل، والمتمثلة فيما خلقناه بأنفسنا بالاعتماد على النفط العربى وانجرارنا إلى العلاقات العربية ـ الإسرائيلية غير المستقرة على الإطلاق. هل نسينا أنه لا هؤلاء ولا أولئك يمكن تقويمهم بالقوة العسكرية، ولا فى هذا ولا فى ذاك يعتبر الاتحاد السوفييتى هو العامل الرئيسى؟" طرح ج. كينان هذا السؤال على صفحات "نيويورك تايمز". ولم يكن وحيدا فى طرح مثل هذه الأسئلة.

اعتبر ممثل الولايات المتحدة السابق فى الأمم المتحدة تشى. يوست توضيح كينان "مقنع"، وكان لدى يوست أفكار كثيرة بوصفه "دبلوماسى سياسى"، وقد التقيته أكثر من مرة وتحادثت معه، فقد كان لديه معلومات ممتازة ويتميز بوعى عميق مستقل وأفكار متحررة لمشاكل الشرق الأوسط، كما تميز باللطف والسعى لإدراك الحقيقة عند جليسه، وكان يدرك ويتحدث عن ذلك بشكل محدد تماما فيما يتعلق بمسألة أنه بدون

حل المشاكل الفلسطينية لا يمكن أن تكون هناك تسوية فى الشرق الأوسط، ولا يمكن الوصول إلى هذا بدون إقامة دولة فلسطينية.

التركيز على الاقتصاد

بدأ تصحيح التوجهات السياسية الشرق أوسطية فى عهد نيكسون، لكن لم يكن من المفترض وفق هذا التصحيح حدوث تغيير استراتيجي للتوجه أو رفض الأهداف التى حددت من قبل، لكن تم إدخال بعض العناصر الجديدة على سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وكانت تمس العلاقات مع الأنظمة العربية الراديكالية، على الرغم من وجود خلافات فى القيادة الأمريكية حول هذا الموضوع. إسرائيل من جانبها سواء على انفراد أو من خلال اللوبى المؤيد لها فى الولايات المتحدة كانت تبدى مقاومة شديدة لتطوير وتجديد مداخل الولايات المتحدة لقضايا الشرق الأوسط. لم يكن هذا آخر ما كان يحدث فى تلك المرحلة، لأن نيكسون كان يولى جل اهتمامه للوضع فى فيتنام، حيث نشأ وضع غاية فى الصعوبة للأمريكيين، وكان مستعداً لخفض التوتر الملتهب فى الشرق الأوسط وأكثر من هذا حسب كلام كيسنجر من خلال استخدام الشرق الأوسط وسيلة لحل مشاكل فيتنام فى إطار خطة "صفقة مع الاتحاد السوفييتى"[٢٢]. الصفقة لم تتم، لكن الرئيس نيكسون وخاصة مساعده لشئون الأمن القومى كيسنجر، مع الوقت، استطاعا استخدام حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى جذب مصر لعملية توقيع اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل. سنتحدث عن هذا لاحقا.

ظهرت أكثر الناحية الاقتصادية فى التوجه الأمريكى الجديد فى الشرق الأوسط، مع التركيز أكثر على استخدامها، ففى إحدى الجلسات التى عقدت عندنا فى بداية السبعينيات ضرب و.كواندت مثالاً عندما قال : قطعت الجزائر علاقتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة عام ١٩٦٧، وقبل ذلك أعلنت عن خيارها الاشتراكى، وعلى الرغم من الصوت العالى المعادى للإمبريالية فى تصريحات قادتها، فإن الولايات المتحدة أقامت مع الجزائر علاقات جيدة قائمة على التعاون الاقتصادى.

تميز رد فعل واشنطن بالهدوء على الانقلاب الذى أسقط الملكية وأقام نظام جمهورى فى ليبيا على رأسه معمر القذافى، على مدار السبعينيات حدث أكبر تطور فى العلاقات الاقتصادية بين ليبيا والولايات المتحدة عما كان عليه أيام الملكية، خاصة فى مجال النفط. ولم يعق هذا توجهات السياسة الخارجية لليبيا، والتى أغلقت بمقتضاها القواعد الأمريكية والإنجليزية على أراضيها، بما فى ذلك أكبر قاعدة جوية أمريكية فى الشرق الأوسط هويلس فيلد.

أفلحت الولايات المتحدة فى السبعينيات فى جمع ما بدا أنه واضح التناقض السياسى فيما يخص ليبيا. فالعلاقات السياسية كانت مشدودة للغاية، خرق دائم للمجال الجوى قرب السواحل الليبية من القوات الجوية الأمريكية، بما فى ذلك فوق خليج سرت الذى تعتبره ليبيا مياهها الإقليمية، وفى نفس الوقت أصبحت فى نهاية السبعينيات ثالث أكبر مصدر للنفط للولايات المتحدة، بالإضافة إلى ذلك كانت تعمل فى ليبيا أكثر من ٥٠ شركة أمريكية مختلفة، بالدرجة الأولى فى مجال إنتاج واستكشاف النفط، وكان يوجد فى ليبيا من ٢٠٠٠ : ٢٥٠٠ مواطن أمريكى يعيشون بصفة دائمة.

استطاعت الولايات المتحدة فى نهاية السبعينيات أن تجد كذلك مدخلاً للعراق وإلى سوريا، هذه المداخل لم تؤد إلى تحسين العلاقة مع الولايات المتحدة، لكن المحاولات من جانبها للوصول إلى هذا الهدف كانت حاضرة.

اتصالات واعدة بالكثير مع السادات

ظلت مصر هى الهدف الرئيسى للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. وبدأ القادة الأمريكيون يبحثون عن مدخل للسادات بعد فترة قصيرة من وفاة ناصر، آملين فى أن يتمكنوا من وضعه تحت سيطرتهم. سهل الانقلاب الذى قام به السادات يوم ١٥ مايو ١٩٧١ على تنفيذ المخطط الأمريكى، وذلك عندما أطاح بكل الذين كانوا يحيطون بالرئيس الراحل.

عملت الولايات المتحدة فى البداية بشكل سرى عن طريق العربية السعودية، على ما يبدو خوفا من أن يكون الاتصال المباشر غير مثمر فى ذلك الوقت، خاصة وأن السادات كان طوال الوقت يخلق وهما باستمرار نهج سلفه، كما أنه كان يسعى لأن لا يفقد الاتحاد السوفييتى الثقة فى ذلك، ففى تلك الفترة كان السادات فى حاجة لاستمرار تدفق السلاح السوفييتى، ولم يدخل بعد فى "اللعبة" التى أدت فيما بعد به إلى الاتفاق المنفرد مع إسرائيل بمشاركة الولايات المتحدة فى ذلك.

قام كمال أدهم رئيس المخابرات السعودية مفوضا عن ملك السعودية فيصل بزيارة للقاهرة فى النصف الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٧٠ للقاء السادات، قال أدهم للرئيس، إن الأمريكيين منزعجون تماما من وجود الروس فى مصر، فهم السادات أن الولايات المتحدة تضع شروطًا لتحسين العلاقة مع مصر، ودون تردد أجاب السادات بأنه مستعد أن ينهى "الوجود السوفييتى" فى مصر، لكن بعد تحقيق أول مرحلة من الانسحاب الإسرائيلى من سيناء. طلب السادات ثمنًا، لكنه ليس باهظاً لكى يقوم بخطوة مؤلمة لمصر مثل هذه للتنازل أمام الأمريكيين، فقط أول مرحلة لانسحاب القوات الإسرائيلية. فمن غير المعقول ألا يفهم أن هذا الانسحاب، الذى لا يمكن بدونه فتح قناة السويس، لا يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة نفسها. ثم سأل كمال أدهم السادات هل من الممكن أن يبلغ الأمريكيين بهذا، وافق السادات مؤكدا. هذه كانت أول إشارة تحصل عليها الولايات المتحدة من رئيس مصر الجديد[٢٣]..

استطاعت وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومى فى الولايات المتحدة التأكد من شىء ما، من خلال تحليل الخطابات العلنية للسادات. أحاديثه ولقاءاته الصحفية بدت عبارات عن "استمرار نهج ناصر"، وعن "الشكر للاتحاد السوفييتى" وعن "واجب الدفاع عن مصالح أمته العربية القومية" وهكذا وما شابه ذلك. إلا أنه فى أول هذه التصريحات كانت توجد نغمات تشير إلى استعداد السادات "للعب" مع الولايات المتحدة.

هكذا، أكد السادات فى مقابلة مع و.كرونكيت تم بثها عبر التليفزيون الأمريكى يومى ٧ـ٨ يناير ١٩٧١ "أنه مهيأ تماما للتسوية السلمية" وأضاف "أنا لا أعتمد على أى ضمانات سوفييتية" و"سياستنا نصنعها بأنفسنا فى القاهرة، وليس عن طريق دول أخرى على الإطلاق"، وأخيرا كان اقتراح السادات الذى تقدم به يوم ٤ فبراير ١٩٧١ بفتح قناة السويس، و"وقف العداء" مع بعض الانسحاب للقوات الإسرائيلية إلى الشرق من قناة السويس، بمثابة "إشارة" حقيقية للأمريكيين.

كل هذا مجتمعاً، بالإضافة إلى تقييم شخصية السادات وتحليل خطاباته الأولى، بالإضافة إلى معلومات من مصادر سعودية، حدد قرار الولايات المتحدة فى إطلاق بالون اختبار، فتم تكليف وزير الخارجية روجرز بلقاء وزير الخارجية المصرى محمود رياض. وصل روجرز فى زيارة للقاهرة فى مايو ١٩٧١ للقاء السادات نفسه بعد نجاح حديثه مع وزير الخارجية المصرى.

لم يكن لدى نيكسون ولا كيسينجر ولا وزارة الخارجية وعلى رأسها روجرز أساس لتوقع أن تصبح أول مقابلة مع الرئيس المصرى الجديد مثمرة للولايات المتحدة لهذا الحد. ففى أثناء لقائه مع روجرز، فجأة انتقل السادات إلى موضوع آخر ودون مواربة سأل روجرز، لماذا لا تثيرون مسألة "الوجود السوفييتى فى مصر". وزير الخارجية الأمريكى الذى كان يعرف توجهات الرئيس المصرى الجديد من خلال كمال أدهم وجد فرصة نادرة للحصول تأكيد للمعلومات التى أبلغه بها رئيس المخابرات السعودية من السادات نفسه، دون بذل أى مجهود يذكر. كرر السادات لروجرز أنه بعد أول مرحلة لانسحاب القوات الإسرائيلية عن قناة السويس، سيغادر الخبراء السوفييت مصر.

مع ذلك لم تكن، الولايات المتحدة تثق فى السادات حتى هذه اللحظة، خاصة بعد أن أعطى الحق للسفن الحربية السوفييتية بدخول بعض الموانى المصرية. حقيقة أن طلب السادات من نيكسون فى رسالة سرية ألا يمانع فى ذلك، لكن المخابرات الأمريكية

أبلغت، أن الرئيس المصرى فى الوقت الذى يتجه فيه ناحية الولايات المتحدة، مازال ينتهج سياسة موالية للسوفييت.

أرسل السادات رسالة للقادة السوفييت يوم ٤ فبراير ١٩٧١ قال فيها يجب مواجهة "الحلف غير الشريف لأعداء التقدم والحرية والسلام"، بالتحديد فى نفس اليوم الذى أعلن السادات عن أنه سيفتح قناة السويس من جانب واحد، حمل الرسالة شخصية معروفة جيدا فى الاتحاد السوفييتى هو شعرواى جمعة أحد المقربين من ناصر، لزيادة التأكيد على أن السادات لن ينحرف عن نهج ناصر، تم تقديم جمعة فى الرسالة على أنه صديقه الشخصى وزميله الذى يثق فيه تماما، بعد ثلاثة أشهر تم وضع هذا الصديق والزميل فى السجن.

بقيت واشنطن تنتظر، ولم تنجرف إلى تقارب حاد مع السادات، حتى بعد أن تم وضع المحيطين المقربين من ناصر فى السجن. تردد واشنطن عمقه موقف إسرائيل والرئيس نيكسون نفسه، الذى كان يفكر بجدية فى كيفية الخروج من المأزق الفيتنامى، ولم يكن من مصلحته فى ذلك الوقت إدخال عنصر إثارة فى العلاقات الأمريكية ـ السوفييتية مثل غزل الولايات المتحدة مع "خليفة" ناصر، بدأ السادات يشعر بالخوف من أن تكون إشاراته التى وجهها للأمريكيين لم تفهم وتؤثر بما فيه الكفاية، فهو راهن كثيرا على هذه الورقة.

أرسل السادات قبل اعتقال رفاق ناصر على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف وآخرين رسالة للقيادة السوفييتية فى أثناء انعقاد المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى اقترح فيها توقيع اتفاق تعاون بين البلدين بهدف تدعيم العلاقات السوفييتية ـ المصرية، وقد وقع السادات على هذه الاتفاقية بعد اعتقال الشخصيات الموالية للسوفييت، خوفا من الانهيار الكامل لسياسته، وكما كان يعتقد أمن نفسه من ناحية الاتحاد السوفييتى. وفى نفس الوقت أخطر الأمريكيين أن هذا الاتفاق لا يعنى بأى حال السعى إلى رفض التقارب مع الولايات المتحدة، لكن هذا التقارب سيساعد على خلق نوع من التغطية على مناوراته.

استمرت الولايات المتحدة على حالها من الانتظار، في هذه الظروف قام السادات بزيارة لموسكو عام ١٩٧١، كل شيء كما كان في "الزمن الجميل" قال السادات في أثناء المباحثات في موسكو" دائما ما أقول لشعبي، إنكم وقفتم معنا في النكسة كأصدقاء مخلصين، وأنا أعتقد أن هدف الدول الإمبريالية دق أسفين بيننا وبين الاتحاد السوفييتي، وهذا في صالح أمريكا والصهيونية فقط".

للأسف الشديد في الكرملين صدقوا هذه الكلمات، قال لي رجل المخابرات في القاهرة فاديم كيريتشينكو، وكان صديقي منذ أن تزاملنا في معهد الاستشراق حيث درسنا معا (تعمقت صداقتنا عندما توليت منصب رئيس الاستخبارات الخارجية والجنرال كيريتشينكو ساعدني على فهم مهام عملي الجديدة ـ المؤلف) إنه أبلغ قيادته عن سعي السادات لأن يغير توجهه السياسي، لكن كان من الصعب، حتى إذا كان ممكنا، اختراق الحائط الذي أقامته الشخصيات التي وقعت الاتفاق مع السادات في ذلك الوقت، وهو الرجل القوي في ذلك الوقت رئيس مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي نيكولاي بودجورني، والذين رافقوه إلى القاهرة وشاركوه في توقيع الاتفاق وهم جروميكو وزير الخارجية وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بونوماريوف، والشخصان الأخيران كانا مسئولين عن السياسة الخارجية للبلاد، حيث "أشركهما" بودجورني بشكل خاص في الاتفاقية وقدمها للمكتب السياسي باعتبارها إنجازاً يضمن تواصل نهج ناصر في مصر. وسار السفير السوفييتي في القاهرة في. م.فينوجرادوف على نفس النهج.

بلاغي لموسكو ـ لا يرضي الجميع

غير أن البعض في القيادة السوفييتية بدأ يشكك في هذا، ففي الأيام الأولى لشهر يونيو ١٩٧١، طلبني ل.م.زمياتين المدير العام لوكالة تاس أن أذهب إليه بصفة عاجلة وقال لي "أنا كنت في اجتماع سكرتارية اللجنة المركزية، حيث سأل فيه سكرتير اللجنة

المركزية ديميتشيوف، لماذا لا توجد معلومات عن مصر من بريماكوف (في ذلك الوقت كنت قد انتقلت من العمل في صحيفة "البرافدا" إلى العمل في معهد الاقتصاد الدولي والعلاقات الدولية التابع لأكاديمية العلوم ـ المؤلف)، أنا مكلف بإرسالك للشرق الأوسط لمدة شهر كمراسل خاص لوكالة تاس. ثم سألني زمياتين السؤال التقليدي. "موافق؟".

سافرت إلى القاهرة على وجه السرعة، حيث جرت مقابلات كثيرة مع من كنت أعرفهم جيدا في أثناء إقامتي في مصر لمدة خمس سنوات عشتها في القاهرة من قبل مراسلاً لصحيفة "البرافدا". من خلال جلساتي مع القائم بأعمال رئيس الاتحاد الاشتراكي العربي في ذلك الوقت، والذي لم يكن قد حل بعد، ورئيس الوزراء السابق عزيز صدقي (في مكتبه كانت معلقة صورتان لناصر والسادات، لكن في غرفة السكرتارية كانت صورة السادات فقط ـ المؤلف) ووزير الدولة الزيات وشخصيات سياسية خالد محي الدين وأحمد حمروش وفؤاد مرسي، والصحفيين من المحللين السياسيين للصحف القاهرية الرئيسية، محمد عودة وفيليب جلاب ومحمد سيد أحمد وعادل حسين، وممثل حكومة الجمهورية العربية المتحدة تحسين بشير وآخرين، وقد تكون عندي تصور عما يجري في مصر من عمليات تحول بعد وفاة ناصر.

أرسلت إلى موسكو رسالة شفرية حول هذه التصورات ولكن ليس من القاهرة وإنما من بيروت، لماذا من بيروت، سأحكي عن هذا فيما بعد. والآن أود أن ألقي الضوء بالتفصيل على مقابلتي مع الصحفي الأمريكي آر.أنديرسون مراسل "نيويورك تايمز" في القاهرة يوم ١٢ يونيو. عرفت منه تاريخ حياته في موسكو حيث كان مراسلاً لنفس الصحيفة "نيويورك تايمز"، وأحب أنديرسون طالبة في معهد العلاقات الدولية، وبعد فضيحة مدوية تزوجها، حيث كانت الزواج من الأجانب لا يلقى ترحيبا في ذلك الوقت، لكنه بعد الزواج كان مضطرا نتيجة لذلك لأن يغادر الاتحاد السوفييتي، لا أدري بعد ذلك مباشرة أم لا، لكنهم سمحوا لزوجته بأن تسافر، إلا أنهم منعوها من العودة للاتحاد السوفييتي، كما فهمت الطريق لعودة زوجته كان مغلقا. كان أقارب زوجته من

كبار السن ويعيشون فى مدينة كويبيشيف (سمارا حاليا ـ المؤلف) والزوج كان يزيد بأى شكل اختراق هذا المنع وتنظيم رحلة لزوجته إلى أقاربها. أكتب عن هذا بالتفصيل لأنى أعتقد أن الوضوح فى الجلسة معى والتى كانت بمبادرة من أنديرسون من الممكن أن تكون مرتبطة بسعيه لتنظيم رحلة لزوجته.

دعانى أنديرسون للغداء معه من خلال صديقى المتوفى حاليا للأسف فيكتور كودريافتسوف والذى كان يرأس مكتب مراسلى الراديو والتليفزيون السوفييتى فى القاهرة، وذهبت مع فيكتور إلى مطعم هادئ فى ضواحى المدينة، وهناك فى أثناء الغداء روى لى أنديرسون حديثًا جرى قبل عدة أيام من لقائنا، الحديث دار عند السادات مع بورجاس الذى كان يتأهب للسفر إلى واشنطن (بورجاس كان يمثل مصالح الولايات المتحدة بعد قطع العلاقات معها على أثر حرب الأيام الستة – المؤلف).

وكما روى لى أنديرسون، طلب السادات من بورجاس أن يبلغ الرئيس نيكسون أن كل اتفاقاته مع روجرز عن أنه سينهى الوجود الروسى فى مصر تظل قائمة. وقال "لا تعيروا بعض تصريحاتى اهتمامًا، فهى ذات طابع اضطرارى، والقرار الرئيسى أنا اتخذته بالفعل".

كانت هذه معلومات مهمة جدا حملتها فورا وذهبت إلى السفير فينوجرادوف، وقد رويت له فى وجود كيريتشينكو ما دار من حديث مع أنديرسون وكذلك عن انطباعاتى التى خرجت بها من لقاءات كثيرة أخرى. السفير لم يستطع أن يسيطر على نفسه وقال بعصبية : أنت حضرت لعدة أيام وتدعى أنك توصلت إلى نتائج مذهلة، وأنا يمكن أن تعتبرنى ألتقى السادات خمس مرات فى الأسبوع، وصدقنى أنا أعرف الموقف أفضل منك. فقلت له : عندك أوامر من موسكو أن تتيحوا لى استخدام جهاز كتابة البرقيات الشفرية، أنا سأبلغ المركز فى موسكو بكل شىء، وأنت من الممكن أن تضيف إلى ما أكتب أن كل ما هو مكتوب هو زيف كامل. هنا، بدأت أنا كذلك أخرج عن وعيى. فقال السفير : أنا لن أرسل برقيتك، لأنى لا أريد تضليل القيادة.

انتهى الحديث عند هذا، وقررت أن أسافر إلى بيروت، كما كان من المفترض أن أذهب من قبل، وأن أرسل البرقية الشفرية من هناك، وقد ضمنت البرقية بالإضافة إلى حديث أنديرسون، رؤيتى عن الموقف فى الجمهورية العربية المتحدة (حينها مصر كانت تحتفظ بهذا الاسم ـ المؤلف)، نص البرقية كان على هذا النحو:

ـ لوحظ أن مصر تتجه إلى اليمين. وهناك أساس للاعتقاد أن عمليات أعد لها لاعتقال الشخصيات المقربة والتى كانت محيطة بناصر سوف تستخدم ضد الإرث الناصرى فى مجمله. وأن المجموعة التى تمت إقالتها تمثل نوعًا من المنتمين لإيديولجية البرجوازية الصغيرة مع الاشتراكية، وما بقى فى السلطة مجموعة تمثل مصالح البرجوازية المصرية، وهذه ليست البرجوازية "القديمة" التى صودرت أو تقلصت ملكيتها، وإنما برجوازية "جديدة" قويت فى عهد ناصر نتيجة لتطور القطاع الحكومى، لكن حينها لم تكن تمتلك أى مدخل مباشر للسلطة. ما حدث بعد ١٥ مايو من تغيير، أعقد كثيرا من مجرد تغيير وجوه فى القيادة.

ـ اشتد بشكل حاد نشاط دوائر الرجعية الإسلامية. وعلت أصواتها هنا، فى أثناء مناقشة مشروع دستور الجمهورية العربية المتحدة الجديد، طالبت "بأن يكون كل ما تم فعله وما سيفعل يجب أن يكون مطابقا للإسلام"، وشرح نائب رئيس الجمهورية حسين الشافعى هذا بأن يكون كل ما يحدث يجب أن يكون منصوصا عليه فى القرآن.

ـ اعتقال وإقالة مجموعة من الشخصيات القيادية فى الاتحاد الاشتراكى العربى، والذى ترافق مع حل المنظمات السرية "طليعة الاشتراكيين" التى كانت تمثل نواة الاتحاد الاشتراكى العربى، سيغير بشكل حاد الأوضاع السياسية. عمليا لم يعمل الاتحاد الاشتراكى بعد عام ١٩٦٧، لكن القيادة على أى حال حافظت على تماسك ٦ ملايين عضو فى الاتحاد الاشتراكى العربى، كأحد "مراكز القوى" فى الجمهورية العربية المتحدة. كانت القيادات الجديدة من أعلى إلى أسفل تستكمل، باستثناء حالات

نادرة، من عناصر محافظة. تم حل منظمات للاتحاد الاشتراكى التى بلغ تعداد أعضائها ٢٠٠ عضو، والتى كانت أساسا موجودة وسط التجمعات العمالية بناء على طلب شخصى من السادات.

ـ قيام الجيش بحركة مضادة كوحدة واحدة احتماله ضعيف، خاصة بعد إقالة مجموعة عامر، الذى كانت من خلاله قيادة الجيش تؤثر فى السياسة، لكن من غير المستبعد إمكانية قيام بعض المجموعات العسكرية اليمينية بانقلاب بهدف إن لم يكن الاستيلاء على السلطة، فمن الممكن الحصول على مواقع تهدف إلى تغيير توازن القوى فى البلاد.

ـ الخطاب الذى أعده هيكل للسادات والذى ألقاه يوم ١١ يونيو، وأشار إلى اتباع نهج مقاومة الرجعية والاستمرار فى التحولات الاشتراكية فى الجمهورية العربية المتحدة، يظهر أن هناك من يحاول "توجيهه" ويسعى لأن يحتفظ الرئيس الجديد بمواقف وسطية. لكن السادات يختلف عن ناصر، وصنع ناصر منه غير ممكن، والوضع فى الجمهورية العربية المتحدة سيختلف عما كان عليه.

أرسلت البرقيات الثلاثة من بيروت "بعلامات كبيرة"، لكل الأعضاء والمرشحين للمكتب السياسى وسكرتيرى اللجنة المركزية، وزارة الخارجية لجروميكو ونائبه كوزنتسوف. بعد وصولى إلى موسكو اقترح على زمياتين كتابة انطباعاتى فى مقالة يمكن تسميتها "معلومات" تتضمن المعلومات المعروفة التى أرسلتها وكالة تاس إلى عدد محدود من القيادات فى الاتحاد السوفييتى. أعددت هذه المواد وكانت الفكرة الأساسية تدور حول أنه رغم الأهمية الإيجابية للاتفاق الموقع بيننا وبين السادات، فهذا لا يمكن أن يكون حماية عامة من تحركات وتغيرات داخل مصر، وتوجهات غير مفيدة وتتعارض مع مصالح الاتحاد السوفييتى فى سياسته الخارجية.

بعد أن خرجت "المعلومات" الشاملة إلى النور، اتصل بى يفجينى ساموتيكين سكرتير ل. إ. بريجنيف وقال: المقال أثار اهتمام السكرتير العام، وأخذه معه للمنزل لكى يقرأه بالتفصيل، أنا بالطبع سعدت بهذا. إلا أن ساموتيكين اتصل بى بعد يومين

مرة أخرى وقال لى "لقد أنقذتك"، وتبين أن بودجورنى هاج و غضب وطالب بسحب المقال الذى نشرته وكالة تاس، وكان قد أرسل إلى عدد أكبر من عدد المسئولين الذين أرسلت لهم البرقية المشفرة، بالإضافة إلى أننى فى المقال عرضت المشكلة بشكل أكثر حدة. ولم يهدأ بودجورنى عند هذا الحد، بل اطلع على قائمة أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى المعدة سلفا للانتخاب فى المؤتمر الدورى، وقام بشطب اسم زمياتين، الذى أصبح عضو لجنة تفتيش فى اللجنة المركزية فقط.

بعد نصف عام من إرسالى للمعلومات من القاهرة والتى أثارت غضب بودجورنى العاصف، السادات بنفسه وعلنا فى مقابلة مع أ. د. بورتشجريف، نشرت فى مجلة "النيوزويك" طرح موقفه دون مواربة، وأشار إلى جلسته مع رئيس القسم المصرى فى وزارة الخارجية الأمريكية إم. ستيرنير الذى زار مصر فى يوليو، حيث قال السادات فى هذه المقابلة :"أراد نيكسون أن يعرف هل غير اتفاق الصداقة والتعاون بين مصر والاتحاد السوفييتى من موقفنا كما تمت صياغته فى لقائى الأخير مع روجرز بأى شكل، أجبته أنا لا "وفق كلام السادات "سؤال نيكسون الثانى" كان ينحصر فى ما إذا كنت كما فى الماضى عند وعدى باستئناف العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة بعد أول مرحلة لانسحاب القوات الإسرائيلية. أجبته بنعم" والسؤال الثالث كان، هل مازلت عند موقفى من إرسال العسكريين السوفييت إلى بلادهم بعد أول مرحلة لانسحاب القوات الإسرائيلية "وقلت نعم"(٢٤).

كيسنجر يدخل اللعبة

فى ذلك الوقت انتقلت المسئولية عن تطوير وتنفيذ السياسة الشرق أوسطية من روجرز إلى كيسنجر، وترافق هذا الانتقال مع تخلى واشنطن عن فكرة التسوية الشاملة فى الشرق الأوسط. وقد كتب كسينجر "فى ديسمبر ١٩٧١، أقدم نيكسون على خطوة بدأت بها سيطرتى الميدانية على الدبلوماسية الشرق أوسطية" ماذا كانت هذه الخطوة؟

في ديسمبر قامت رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير بزيارة للرئيس نيكسون، "توصل خلالها كلا الزعيمين إلى تفاهم مشترك حول مشاكل استراتيجية وتكتيكية، منها وقف البحث عن طرق لتسوية شاملة لبعض الوقت... وفي مقابل هذا، من الضروري بذل الجهود الموجهة لعقد اتفاق مؤقت مع مصر"[٢٥].

يبدو أنه في ذلك الوقت لم تعد قناة الاتصال عبر السعودية تحقق طموح الولايات المتحدة والسادات، ولذلك تم فتح قناة اتصال مباشرة بين جهازي المخابرات في البلدين، والتي استخدمها البيت الأبيض متخطيا وزارة الخارجية والسادات متخطيا وزارة الخارجية المصرية. هذا الأمر كان أبعد ما يكون عن المفاهيم المهنية، كل ما في الأمر أن وزير الخارجية المصري محمود رياض كان مصرا على أن يربط فتح قناة السويس بتحرك محدد نحو تسوية شاملة، ذاع كذلك صيت وزير الخارجية الأمريكي بأنه مؤيد للتسوية الشاملة، ونتيجة لهذا بقي كلاهما خارج عملية التسوية.

في عام ١٩٧٢ أبلغ السادات الأمريكيين موافقته على تفسيرهم لما يسمى الاتفاقية الجزئية. وفيما يتعلق بالروايات الدعائية للسادات من أنه يرفض مبدأ التسوية الجزئية، والتي كان ينشرها في أثناء زياراته لموسكو عند وفي لقاءاته مع القادة السوفييت في القاهرة، عن هذا كتب كيسنجر في مذكراته: "كنا بالطبع نرى أفضل"[٢٦].

من الممكن بل من المحتمل أن السادات في البداية كان يعتقد أن الاتفاقية الجزئية خطوة لاتفاقيات أخرى بين إسرائيل والدول العربية الأخرى والفلسطينيين. لكن ما حدث في الواقع، أن السادات في نهاية ١٩٧١ وبداية ١٩٧٢ رفض داخليا الربط القاسي بين الاتفاقية الجزئية المصرية - الإسرائيلية والتسوية الشاملة للنزاع في الشرق الأوسط.

بعد فتح قناة الاتصال السرية بين السادات وكيسنجر، سرعان ما اتخذ الرئيس المصري قرارا بإنهاء مهمة المستشارين العسكريين السوفييت في مصر، وكانت هذه الفكرة مسيطرة عليه لدرجة أنه حتى لم يدخل في مساومات سياسية مع الولايات

المتحدة، لكى يحصل على ثمن يتناسب مع هذا القرار من الأمريكيين، كان كيسنجر وفق مذكراته ينتظر أن يدفع السادات بشروط محددة مقابل هذا، وكان يعتقد بأنه سيكون عليهم أن يقدموا له تنازلات.

كان دخول السادات "اللعبة" مع الولايات المتحدة له منطقه، فهو ربما كان يعتقد أن ابتعاده عن الاتحاد السوفييتى سيجعل الولايات المتحدة تضع القاهرة على نفس مستوى علاقاتها مع تل أبيب، مدركا للدور المهم الذى تلعبه مصر فى العالم العربى. ولذلك احتج بشدة عندما اصطدم بموقف الولايات المتحدة، الذى حافظ دون مواربة على أولوية العلاقات مع إسرائيل، ورغم ذلك استمر يحدوه الأمل.

بعد أن رفض الأمريكيون اقتراح السادات بلقاء نيكسون، تم الاتفاق على سفر مستشار الرئيس المصرى لشئون الأمن القومى حافظ إسماعيل للولايات المتحدة. الذى سافر فى فبراير ١٩٧٣ إلى واشنطن، كان ضمن برنامج الزيارة لقاء الرئيس نيكسون فى البيت الأبيض، وحضر كيسنجر للبيت الأبيض فى نفس الوقت لعدة دقائق فقط، لكى لا يؤخذ انطباع أنه هو، وليس وزارة الخارجية هى التى تدير مشكلة الشرق الأوسط. لكن كيسنجر التقى سرا وبشكل خاص مع حافظ إسماعيل ثلاث مرات، وتباحث معه لساعات طويلة فى منزل رئيس شركة "بيبسى كولا" دونالد كينديللا فى كونّيكتيكوت، فقد كان كينديللا صديقًا شخصيًا لنيكسون، وهذا يدل على أن الرئيس كان موافقا على ما يقوم به كيسنجر من أعمال متخطيا وزارة الخارجية، التى لم يكن كيسنجر رئيسا لها بعد، فى ذلك الوقت.

أتيحت لى الفرصة بعد عدة سنوات للمشاركة فى لقاء دارتموت، الذى عقد هذه المرة فى منطقة يورمولا على بحر البلطيق، وشارك فيه كذلك رئيس شركة "بيبسى كولا" دى. كينديللا، وفى أثناء قيامنا بجولة ترفيهية نظمت لنا بسيارة، سألت كينديللا هل حقيقى أن مباحثات سرية جرت فى منزله بين مستشارى الأمن القومى للرئيسين الأمريكى والمصرى، فسألنى كينديللا بتوتر "من أين عرفتم هذا؟"، فقررت أن أتلاعب به

وماطلت فى إعطائه إجابة، لكن عندما أصبحت نظراته تجاهى تعبر عن شك من الصعب إخفاؤه قلت له أنا قرأت كل هذا فى كتاب هيكل الذى صدر لتوه والذى أهداه لى المؤلف. وبدا لى أن رئيس "بيبسى كولا" استخدم أقوى ما يمكن أن يستخدم فى اللغة الإنجليزية من ألفاظ فى حق الكاتب المصرى، الذى حمل إلى العلن بعض لحظات العلاقات المصرية ـ الأمريكية السرية قبيل حرب ١٩٧٣.

وصل الرئيس فورد للرئاسة خلفا لنيكسون عام ١٩٧٤ ولم يكن يمتلك خبرة كافية فى القضايا الدولية. واستمرت سيطرة كيسنجر الكاملة على السياسة الخارجية، ولم يكن الكونجرس راضيًا عن أن مثل هذا المجال المهم من عمل الدولة مركز فى يد شخص واحد، وتصاعد النقد من جانب الرأى العام، وفى نهاية عام ١٩٧٥ عين فورد فى منصب مستشار الأمن القومى الجنرال برينت سكوكروفت، لكن كما كتب كيسنجر فى مذكراته، هذا التعيين لم يؤثر ولو بقدر قليل على سلطاته فى السياسة الخارجية، فقد كانت علاقته بسكوكروفت قديمة وجيدة ولم تتغير، وبالإضافة لهذا سكوكروفت كان نائبا لكيسنجر عندما كان يشغل هذا الأخير منصب مستشار الأمن القومى. وهكذا استمر كيسنجر مسيطرا على سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية، ونشاطه فى هذا الاتجاه كان مكرسا لإعداد السادات لتوقيع اتفاق منفرد مع إسرائيل، لكن فى البداية سنتحدث عن حرب ١٩٧٣، التى لعبت دورا خاصا فى هذا الإعداد.

الفصل العاشر

حرب أكتوبر ١٩٧٣

قوى الدفع السرية

قليل فى الولايات المتحدة من كان يصدق أن الدول العربية ستبدأ الحرب مع إسرائيل، خاصة بعد الهزيمة الساحقة عام ١٩٦٧. اشتباكات مسلحة، نعم، تبادل إطلاق نار بالمدفعية والدبابات عبر قناة السويس للمواقع الإسرائيلية، هذا حدث أيضا. لكن الهجوم على "خط بارليف" "المنيع" الذى بنته إسرائيل بمحاذاة الشاطئ الشرقى المحتل للقناة، أو تزامن العمليات العسكرية لمصر وسوريا، وعبور قناة السويس والهجوم على مرتفعات الجولان؟ هذا ما لم يخطر على بال أحد فى الولايات المتحدة.

أتذكر عندما كنا فى مايو ١٩٧٣ مع الأكاديمى ف.ف. جوركين فى نيويورك، حيث دعينا للتحدث فى مجلس العلاقات الخارجية، وهو نادٍ للسياسة الخارجية ذو سمعة حسنة. كلماتنا التى ألقيت أدت عمليا إلى حوار داخل القاعة التى كان موجوداً فيها أساسا خبراء أمريكيون من المتخصصين فى مشاكل الشرق الأوسط. وكأحد الاحتمالات المتوقعة لتطور الأوضاع طرحنا احتمال أن يبادر الجانب العربى بالحرب ضد إسرائيل، وقد يشمل هذا استخدام حظر بترولى. تعرض هذا الاحتمال لنقد حاد، فقد تحدثت إحدى السيدات وكانت تعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية وقالت إن الدول العربية تدرك جيدا مدى تفوق إسرائيل العسكرى، بالإضافة إلى أنها ليس لها مصلحة فى استعداء كل العالم الغربى، وتحدث آخرون من المشاركين بنفس الطريقة.

يجب أن أقول إننى وجوركين حقيقة لم نكن نعلم أن مصر وسوريا تعدان لعملية عسكرية، لكن وفق المنطق ما كان يجب استبعاد ذلك فى ظروف عدم الرضى الناتج عن عدم اتخاذ إجراءات حاسمة لتحرير الأرض، التى احتلت عام ١٩٦٧ فى "الشارع العربى". فيما بعد عندما اندلعت الحرب، وتقريبا بنفس السيناريو الذى وصفناه أنا وجوركين، ظهرت لدينا صعوبات فى الحصول على تأشيرة دخول للولايات المتحدة، وأول إشارة كانت ما حدث عام ١٩٧٦ عندما رفضوا تمديد التأشيرة للمشاركة فى اجتماع جمعية تفعيل الأمم المتحدة، وفقط بعد تدخل زميلنا المحترم مارشال شولمان، الذى بقى عالما حتى وهو يعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية، هو الذى ساعدنا فى تخطى هذا المنع.

السادات يفشى السرّ

كان من الواضح أنه لم يتم إخطار الولايات المتحدة بنوايا مصر وسوريا ببدء عمليات عسكرية واسعة. ويؤكد كيسينجر فى مذكراته إن حجم العمليات العسكرية وتزامن جزأيها المصرى والسورى كانت غير متوقعة للقيادة الأمريكية.

لكن هل تم إخطار الاتحاد السوفييتى قبل الإعداد لعمل عسكرى بوقت كاف؟ فى وقت سابق فى أثناء حكم ناصر وبمشاركة مباشرة من الخبراء العسكريين السوفييت، كانت خطة عملية عبور قناة السويس قد استكملت، بهدف تحرير الأرض المصرية فى سيناء باسم "جرانيت" وجرى تطويرها إلى "جرانيت ــ ٢" و"جرانيت ـ ٣" وهى التى استخدمها السادات. وفى أثناء لقاء معه، سنتحدث عنه فيما بعد، أكد السادات أنه أعطى أوامر "بعرض خريطة العمليات" على المارشال جريتشكو فى فبراير عام ١٩٧٣، من هذه الكلمات، واضح أنه على المستوى العملياتى للأعمال العسكرية لم تستكمل الخطة مع خبراء سوفييت. الخريطة أظهروها لوزير الدفاع السوفييتى فحسب، وتم هذا فى فبراير والحرب بدأت بعد ثمانية أشهر، فى أكتوبر، واعتمادا على معلومات من

مصادر عليمة، يمكن التأكيد على أن السادات لم يخطر موسكو بالساعة "X" لبدء العمليات العسكرية الواسعة ضد إسرائيل. ويؤكد هذا أن أول بيان عن بدء العمليات العسكرية صدر من القاهرة ودمشق (كما اتضح فيما بعد، البيان كان متفقا عليه من قيادة البلدين ـ المؤلف)، وأكد أن إسرائيل هى التى بدأت العمليات العسكرية. على ما يبدو أن السادات كان يخشى أن يمنع الاتحاد السوفييتى العملية العسكرية، لعدم مصلحته فى أن ينجر إلى حالة أزمة حادة فى الشرق الأوسط. والأسد انضم إلى الاتفاق مع السادات فيما يخص "السرية الشديدة للغاية" فى الإعداد للعملية.

أبلغت المخابرات السوفييتية عن تحركات لوحدات عسكرية مصرية وسورية، وهذا استدعى القلق فى موسكو، حيث لم يستبعدوا ضربة إسرائيلية وقائية كما حدث عام ١٩٦٧، فى هذه الظروف تقرر البدء فى إخلاء أسر الدبلوماسيين والخبراء السوفييت من مصر وسوريا. بالطبع الاهتمام الأكبر فى هذه الحالة انصب على أمن النساء والأطفال، لكن فى نفس الوقت "أضيئت" "إشارة" خاصة عن تهديد بخطر صدام عسكرى. كل الدلائل كانت تشير إلى أن الاتحاد السوفييتى لم يكن يريد أن تعتقد الولايات المتحدة أنه يريد حلاً عسكريًا، وهذه الإشارة كان ينظر إليها على أنها تحذير جدى من الخطر القادم.

يمكن تقسم حرب أكتوبر إلى جزأين : فجيعة الكثيرين، وبالدرجة الأولى الإسرائيليون، من ظهور نمو فى الكفاءة العسكرية للجيشين المصرى والسورى، وبعد ذلك أخذ الإسرائيليون زمام المبادرة، مما وضع الجيشين المصرى والسورى اللذين بدأ الحرب على حافة الانهيار. كنت فى دمشق فى أثناء الحرب ورأيت بعينى الخسائر الكبيرة التى تكبدها سلاح الجو الإسرائيلى فى الساعات الأولى للحرب فوق العاصمة السورية، عندما تعرضت الطائرات الإسرائيلية لإطلاق منظومة "المربع" من صواريخ التوجيه الذاتى. كانت الأسلحة من إنتاج سوفييتى، لكن السوريين هم من كان يستخدمها، ولم يكن هناك أى شك فى هذا، وفى دمشق أيضا لاحظت الحزن والمزاج الاكتئابى الحقيقى، عندما تبين أن القوات السورية انسحبت من القنيطرة، التى كان تحريرها قبل عدة أيام مدعاة لفرح لا يوصف فى الشارع السورى.

لم أضع فى هذا الكتاب هدف استيضاح أسباب التحول فى مسار الحرب، لندع الخبراء العسكريين يعملون على هذا بموضوعية، وليس فى نواياى الخوض فى شرح العمليات العسكرية إطلاقا، فقد قيل الكثير عن هذا فى مقالات وكتب مختلفة. لكن حدود اهتمامى خلفيات الحرب وظلالها والجانب الذى لم تلق عليه الأضواء حتى الآن.

سأبدأ من أنه ربما كان أسهل على الأمريكيين أن يعرفوا خطط السادات المتعلقة بحرب أكتوبر ١٩٧٣ أكثر منا ، وهنا أستحضر رواية حدثت فى نوفمبر ١٩٧٥، هذا سيساعد بشكل أفضل على فهم الأهداف الساداتية التى تدخلت فى أساس المبادرة ببدء العمليات العسكرية. تقرر منحى والصحفى المعروف والعالم إ.ب.بيليايف ميدالية جائزة جمال عبد الناصر الدولية، وأعطيت الجائزة لنا عن كتاب "مصر فى عصر عبد الناصر"، وذات مرة أبلغنا صديقنا لطفى الخولى، الذى كان يرأس لفترة طويلة مجلة شهرية محترمة فى مصر هى "الطليعة"، بدعوة السادات لنا للقائه، ولكى يؤكد على أن اللقاء غير رسمى، حدد مكان اللقاء فى مقره خارج المدينة ببرج العرب. هذه الدعوة كانت بلا شك خطيرة نظرا لأن السادات فى ذلك الوقت كان قد توقف عن لقاء أى ممثلين عن الجانب السوفييتى، بما فى ذلك دبلوماسيينا، اللقاء جرى يوم ٢٥ نوفمبر واستمر لثلاث ساعات، واتسم الحديث بأنه تناول أشياء كثيرة مختلطة، ومن جانب واحد حكى لنا السادات كيف حارب جيشه، مع توجيه اللوم للاتحاد السوفييتى. من جانبنا لم نبتلع الاتهامات، وكان نتيجة هذا أننا سمعنا أنه "كما كان فى وقت ناصر بروحه وقلبه مرتبطا بالاتحاد السوفييتى".

التقينا أنا وبيليايف بالسادات عدة مرات، وعلى ما يبدو أن هذا جعله أكثر ميلاً للصراحة معنا، خاصة وأنه كان يحاول أن يبدو أمامنا على أنه "أبو الأمة" (هذه كلماته - المؤلف)، والشخص الذى يتحكم فى التاريخ، وكان هناك شعور بأن مجد ناصر يصيبه بالتوتر، وكان يريد أن يبين لنا أنه كانت يقوده فى الحرب "إلهام من أعلى"، وليس منطق العمل العسكرى، من إحدى قصص السادات، وأنا سأذكره كما سجلته عمليا بدقة فى دفتر التسجيل ما قاله السادات : "الجبهة كانت عبارة عن فطيرة ذات

طبقات، جيشى الثالث تعرض لحصار من الإسرائيليين فى سيناء، والقوات المصرية بدورها قامت بحصار دبابات الجنرال شارون، الذى عبر إلى الضفة الغربية لقناة السويس، بما يعنى أنه حتى المرحلة الأخيرة من الحرب كان الموقف متوازن. مارس جنرالاتى ضغوطا على، لقطع الممر الضيق الذى يصل دبابات شارون بالقوات الإسرائيلية الأساسية، وضرب رأس الجسر الذى استولى عليه. كان كل شىء لهذا الغرض موجودا، وكان لدينا ضعف عدد الدبابات والمدفعية. لكن هنرى كيسنجر أرسل لى رسالة قال فيها : "سيادة الرئيس، إذا انتصرت الأسلحة السوفييتية على الأسلحة الأمريكية مرة ثانية، فإنه لن يكون لدى قدرة لمقاومة البنتاجون، واتفاقنا معكم سيتعرض للخطر" فسألناه فى صوت واحد أنا وبيليايف : عن أى اتفاق تتحدث ؟ لكن السادات غير الموضوع.

والحديث مع وزير الدفاع السابق محمد صادق من الممكن أن يعطى انطباعًا عن الأهداف الأساسية للحرب، فعندما كنت مراسلاً لصحيفة "البرافدا" كنت أقيم فى عمارة واحدة مع صادق، ونشأت بيننا معرفة سطحية. ففى الصباح عندما يخرج لفسحة كلبه، كنت ألتقيه فى الشارع بالقرب من المنزل، وكان صادق يقول لى باللغة الروسية "مساء الخير". ذات مرة طلبت لقاءه، فدعانى لزيارته فى شقته. كان اللقاء وديا قال لى "أنا الآن متقاعد، أفكر كثيرا فى حياتى التى عشتها، السادات فى خطابه منذ فترة ليست بالبعيدة أعلن أنه عندما بدأ حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان يمتلك ذخيرة تكفى ليومين فقط، فى حين أن سوريا كانت تملك ذخيرة تكفيها لعشرين يومًا، هذه الأرقام كان يعلنها للجدل مع حافظ الأسد، وإذا فكرنا قليلاً نجد أن السادات هو الذى بدأ الحرب، وهذا يعنى أنه إما مخبول جدا (صادق استخدم كلمة أشد من ذلك ـ المؤلف) وإما كان لديه فى ذلك الوقت اتفاق حديدى أنهم سيوقفونه".

كان صادق يعرف عن أى شىء يتحدث، فقد كان له مع الرئيس خلاف حاد بشأن العمليات العسكرية التى كان يخطط لها. فقد اجتمع السادات بكبار القادة العسكريين

يوم ٢٤ اكتوبر عام ١٩٧٢ أى قبل عام من بداية الحرب، وتحدث عن "الحرب المحدودة" وسرد وقائع : إذا تحرر فقط عشرة ملليمترات من الأراضى شرق القناة، فإن هذا سيقوى موقفه فى المفاوضات الدبلوماسية. كان أغلبية الجنرالات ينظرون بشكوك فى إمكان حصر الحرب فى إطار محدود. وبعد يومين زاره سكرتير الرئيس فى منزله، وسلمه رسالة من السادات، قال فيها إنه يقبل استقالة صادق، رغم أن صادق لم يتقدم باستقالته.

سافرت أنا وبيلايف إلى عمّان يوم ١ ديسمبر ١٩٧٥، وفى اليوم التالى لوصولنا دعانا ملك الأردن حسين على الغداء، جلسنا للمائدة وكنا خمسة أشخاص، الملك ورئيس الوزراء زيد الرفاعى وأنا وبيليايف ور.فى. يوشوك[٢٧]. لم تكن هذه مقابلتى الأولى مع الملك حسين، فقد دعانى لمقابلة معه لأول مرة فى نهاية الستينيات، فى ذلك اليوم تأخرت وقابلنى وهو يرتدى قميصا ملونا، مطويا عن ساعديه، فقلت له "أنا أسف جلالتكم على التأخير، لكنى غير مذنب فى هذا، فالأردن هو البلد الوحيد فى الشرق الأوسط الذى لا تستطيع فيه السيارة ارتكاب مخالفة مرورية بالسير عندما تكون الإشارة حمراء". الملك كان يقدر الفكاهة، وبعد ذلك أصبحت العلاقة بيننا قوية، واستمرت لأعوام كثير حتى وفاة هذا الشخص الذكى، المتعلم والملتزم، وعن مدى قوة العلاقة القريبة والودية معه إليكم هذه الواقعة : ذات مرة عرف أننى موجود فى عمان فى ضواحى المدينة فى منزل رئيس الوزراء، فحضر الملك بمفرده على دراجة بخارية لكى يلتقى بى، لقد كان من الصعب تصور مدى الغضب الذى صب على من حراسه الشخصيين من الشراكسة، الذين خرجوا على وجه السرعة خلف ملكهم المحبوب.

بالطبع، ليس من الممكن أن تتفق فى كل شىء مع سياسة الملك حسين، لكن أنا شخصيا كنت معجبا جدا بشجاعته، وفطنته التى كثيرا ما كانت تظهر فى الوقت المناسب، بالتحديد هاتان الصفتان ساعدتاه على قيادة سفينة دولته بين الشعاب الوعرة الكثيرة، وفى ظروف غاية فى الصعوبة.

كان الملك يجيد بأستاذية مواصلة الحديث فى جلساته غير الرسمية ، وكان فى مرات ليست نادرة، ومع ابتسامة خجولة يتحدث عن أشياء مهمة جدا، هكذا كان الأمر هذه المرة، لم يكن هناك شعور بالقيود، لأن زيد الرفاعى كان موجودا وهو يحافظ على المسافة فى العلاقة بينهما أمام الناس، فقد كان رفيقه فى الكلية، وعلاقتهما كانت ودية، كان من الواضح جدا أن القائد الأردنى غاضب من سلوكيات السادات، قال الملك حسين : "نحن أظهرنا ومعنا الدول العربية الأخرى التضامن مع مصر، وشاركنا فى حروب ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧، ولكنه عندما بدأ حرب ١٩٧٣ لم يخطرنا السادات بها، والآن بنفسه وقّع، ودون التشاور مع أحد، على اتفاق (بجلاء إسرائيل عن جزء من الأرض المحتلة فى سيناء ـ المؤلف)، لقد أضاع السادات التفوق التى حصل عليه الجانب العربى، وبدلاً من صفقة واحدة اعتمادا على الظروف الجديدة التى ظهرت بعد أكتوبر ١٩٧٣، أعطى كل شىء للأمريكيين منفردا "وهنا تدخل الرفاعى فى الحديث "أعتقد أن السادات اتفق بالفعل مع كيسنجر قبل عام ونصف من اندلاع حرب أكتوبر. فقد كنت عند السادات قبل حرب أكتوبر، بهدف استئناف العلاقات الدبلوماسية بين بلدينا، وفى نوبة صراحة قال لى السادات إن كيسنجر يقترح عليه "أن يقوم بعمل ما، لكى يسمح له بالدخول إلى فضاء النشاط السياسى بغرض تسوية النزاع"، السادات ربط كلمات كيسنجر هذه بنواياه عبور قناة السويس والاستيلاء على رأس جسر بطول القناة على الضفة الشرقية، على الرغم من أن هذا سيكلفه ١٠ـ ١٥ ألف جندى وضابط، فسأله الرفاعى أوليس الثمن باهظا ؟ هنا، وفق كلام الرفاعى، أجابه السادات "حجم الخسائر يمكن تقليله بالوسائل السياسية".

مهمة "الحرب المحدودة" لم تكن موجهة إلى تحرير الأرض المحتلة، ولكن لتحرير رأس جسر صغير بطول القناة، بغرض التخلص من جمود النزاع مع إسرائيل، ويؤكد هذا بوضوح اجتماع مجلس الأمن القومى المصرى، والذى قرر فيه السادات الإعلان عن بدء عمليات عسكرية مفترضة خلال "الأيام القادمة"، عندما سئل السادات عن حجم العملية العسكرية المزمعة قال السادات بما لا يدع مجالاً للشك "محدودة"[٢٨].

الأسد يضع النقاط على الحروف

في غضون ذلك السادات لم يخطر الأسد الذى حارب مع مصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، بخططه حول محدودية العمليات العسكرية، شهادة مهمة فى هذا الصدد ترجع إلى رئيس أركان القوات المسلحة المصرية سعد الشاذلى، الذى كتب عن حديث دار مع وزير الدفاع المصرى الجنرال أحمد إسماعيل على، الذى خلف صادق، دار هذا الحديث فى إبريل عام ١٩٧٣، فقد أعطى وزير الحربية للشاذلى "تعليمات الرئيس السادات السياسية، حين كان على اتصال مع الحكومة السورية" وكتب الشاذلى" كان من الواضح جدا أن السوريين سيفهمون أن خططنا تنحصر فى الاستيلاء على شريط بعمق ١٠ أميال إلى الشرق من القناة، وبهذا لن يبدأوا الحرب معنا......، نتيجة لذلك اقترح إسماعيل حلاً، أصدر أمرا لى بإعداد خطة أخرى منفصلة عن خطة عبور القناة، الخطة الأخرى، تنص على تطوير الهجوم حتى الممرات وقال "تفاصيل هذه الخطة الأخرى تستخدم لإرضاء السوريين"، وأضاف هذه الخطة لن يتم تنفيذها فى الواقع أبدا، إلا فى أكثر الظروف ملاءمة..... يقول الشاذلى أنا كنت مصدومًا من هذه المواسة، ولكنى كنت ملزما بتنفيذ الأوامر والحفاظ على السر[٢٩].

وبالطبع، سيكون رأى الرئيس السورى حافظ الأسد مثيرا للاهتمام بهذا الخصوص، وفى لقاء معه يوم ٢ يونيو ١٩٨٣، سألت الأسد سؤالاً ماذا يعتقد فيما يتعلق بأفكار السادات المتعلقة بحرب أكتوبر ١٩٧٣، قال حافظ الأسد (مرة أخرى أعود لما كتبته تقريبا من محضر التسجيل بدقة ــ المؤلف) : "كان بيننا اتفاق مسبق مع السادات، أن نعمل بصدق معا، بالطبع هو لم يخطرنا بأهدافه الحقيقية، أى أنه كان يفكر فى الحرب كوسيلة لتحريك الموقف من الجمود، ثم يبدأ فى المفاوضات، نحن كنا نفهم فى سوريا، أن النتيجة النهائية للحرب يجب أن تكون تسوية سياسية على أساس قرار مجلس الأمن، إلا أننا بنينا خططنا على أساس أنه عند تدخل الأمم المتحدة نكون قد تمكنا على كلا الجبهتين من تحرير الأرضى التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧،

ولهذا فإن خطط العمليات العسكرية تم تطويرها على هذا الأساس، أى أن الحديث يدور عن أن الجيش السورى يجب أن يصل إلى نهاية الجولان".

ـ وسألت الأسد : هل أخطركم السادات بخطط إدارة الحرب على جبهته؟ هل كان بينكما توافق على الخطط؟ أجاب الرئيس السورى كان بيننا اتفاق أن القوات السورية والمصرية سيهاجمان فى وقت واحد، وكان يفترض أنه بمجرد وصول القوات المصرية للممرات يقوم "بتوقف عملياتى"، فيما ستستمر القوات السورية فى الهجوم فى مرتفعات الجولان. هذا "التوقف" فى منطقة الممرات كان ضرورة موضوعية، لأنه كما كان متوقعا أن يتكبد الجيش المصرى خسائر كبيرة، سواء فى الأفراد أو السلاح والذخيرة وسيحتاج إلى تعويضها. إلا أن الاتفاق مع السادات افترض أيضا أنه بعد "التوقف" سيستمر الجيش المصرى فى الهجوم حتى يصل إلى الحدود مع إسرائيل.

ـ وسألت الأسد : وماذا حدث فى واقع الأمر؟

ـ أجاب الأسد بقوله : فى الواقع كل شىء كان مختلفًا، فقد بدأت العمليات العسكرية يوم ٦ أكتوبر على أساس الخطة المشتركة، وسوريا التزمت بها دون تغيير، لكن السادات كان يعمل وفق السيناريو الخاص به كما اتضح، فبعد عبور قناة السويس بدأت القوات المصرية تحفر لتتمركز. وأعلن ديان يوم ٨ أكتوبر أن الوضع على الجبهة الغربية قد استقر، وهو ما سمح لإسرائيل بأن تلقى بثقل قواتها الرئيسى على الجبهة السورية، كان من الممكن أن نصمد أمام هذا الهجوم حتى لو كان الثمن فقدان أرض، لو استمر الهجوم المصرى، لأنه فى هذه الحالة سيكون الإسرائيليون مضطرين لأن يلقوا بقواتهم على الجبهة الغربية. إلا أن هذا لم يحدث فى الواقع، ولذلك كانت الضربة الإسرائيلية الرئيسية موجهة للقوات السورية، لقد كان لدى المصريين قوات احتياطية، وكان يجب استخدامها خلال فترة محددة، ومر يومان وتمت مخالفة الفترة الزمنية، وأرسلنا للسادات برقية وراء أخرى نرجوه أن ينفذ الاتفاق بهذا الخصوص، لكن دون رد.

واستطرد الأسد، نحن لم نكن نعرف باتصالات السادات السياسية التى قام بها فى أثناء الحرب، وكانت برقيته التى تسلمتها سوريا غير متوقعة، فقد قال فيها إنه توجه إلى مجلس الأمن بطلب لوقف إطلاق النار، وأرجع السادات هذا إلى أنه قرر إنهاء الحرب، لأنه كما زعم، انضمت الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل فى العمليات العسكرية، وأنه لا يستطيع محاربتهما معا، وفى ردى عليه أكدت على أنه لدى سوريا إمكانية إغلاق الثغرة فى منطقة مرتفعات الجولان، ثم القيام بضربات مضادة قوية، لم يجب السادات على هذه البرقية، وأعطى موافقة من جانب واحد على وقف إطلاق النار، فى الوقت الذى استمرت فيه العمليات العسكرية على الجبهة السورية. اتصل السادات بى بالتليفون عندما اكتشف أن سوريا لم توافق على وقف إطلاق النار وحاول إقناعى بضرورة خطوة كهذه، وأكد على أن وقف إطلاق النار يشترط ضمانًا أمريكيًا بالانسحاب من الأراضى التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧، هذا الحديث جرى يوم ٢٢ أكتوبر.

المشاكل التى حلها كيسنجر

نفى وزير الخارجية الأمريكى فى مذكراته أن "يكون أحد قد فهم أفكار السادات قبلها بوقت كاف"، لكن من الصعب تصديق أن هكذا "أحد" من الممكن أن يكون هنرى كيسنجر، محلل لامع، بالإضافة إلى أنه وعلى مدى عدة أشهر قبل بداية الحرب كان على اتصال سرى بالسادات، وهو بالذات يكتب فى مذكراته "عرفت السادات من لقاءين سريين فى بداية عام ١٩٧٣ بين مستشاره لشئون الأمن القومى حافظ إسماعيل وبينى، وأنه كانت لدينا نوايا للبدء فى تسوية دبلوماسية للنزاع الشرق أوسطى، لكن يجب أن نخرج باستنتاجين. الأول، أن البرنامج العربى الكامل عن انسحاب كامل للقوات الإسرائيلية لن نبلغه، والثانى، أن الحل السريع لن تقبله مصر، مادام هناك انطباع أنها تفعل ذلك من موقع ضعف. وبهذا الشكل دخل السادات الحرب لا لكى يحصل

على الأرض، ولكن لكى يعيد لمصر الشعور باحترام النفس ومن خلال هذا يمكنه أن يزيد من مرونته السياسية"(٣٠).

ويدل رد فعل وزير الخارجية الأمريكى القلق على معلومات عن تحركات للقوات المصرية على أشياء كثيرة ، وفورا تدخل ضد أن تقوم إسرائيل بإجراءات وقائية، بالمناسبة أصبح هذا لحنًا رئيسيًا فى مكالماته التليفونية مع وزير خارجية إسرائيل إيبان والقائم بالأعمال فى واشنطن شاليف، وأنا أعتقد أنه بالإضافة إلى سعى كيسينجر لعدم اشتعال حرب عربية ـ إسرائيلية كبيرة، كان لدى كيسنجر أهداف أخرى من موقفه ضد الضربة الوقائية لإسرائيل: كان يخشى أن يخالف هذا خطة العمل الموضوعة مع السادات.

أتصور أن الفعل الأمريكى أو على الأصح عدم الفعل الأمريكى فى الأيام الأولى للحرب، عندما لم تأخذ الأحداث طابعًا يهدد الجيش الإسرائيلى بعد ، كانت مرتبطة بحسابات تفكير كيسينجر الذى لعب فى ذلك الوقت دور القائد فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة، على الرغم من الهيستيريا ونداءات القادة الإسرائيليين. تأخرت الولايات المتحدة فى فتح جسر جوى لإمداد إسرائيل بالسلاح وقطع الغيار، بدأ الجسر يعمل فقط يوم ١٢ أكتوبر، ومن هذه اللحظة وقفت الولايات المتحدة على طريق الدعم المطلق لإسرائيل، لكنها فى نفس الوقت لم تنس أن تعطى إشارات منفصلة فى اتجاه مصر مفادها إظهار أن واشنطن مهتمة بألا تؤثر الحرب على هيبة السادات.

الوقائع التى ذكرت تصب فى اتجاه أن كيسينجر فكر فى حل مشكلته السياسية ـ الدبلوماسية عن طريق "انتصار عسكرى ساداتى صغير"، ويدعمها اتصال كيسينجر التليفونى مع سفير الاتحاد السوفييتى فى واشنطن دوبرينين ظهر يوم ٦ أكتوبر، فيما يتعلق باقتراح دعوة مجلس الأمن للانعقاد، طلب وزير الخارجية الأمريكى أن تعطى أوامر إلى ممثل الاتحاد السوفييتى أن يتخذ موقف الانتظار، وألا يبقى بالكامل كما هى العادة فى صف "حليفه". "وأكد كيسينجر على أن الولايات المتحدة ستتصرف

بنفس الطريقـة، وهذا بناء على طلب الرئيس نيكسـون الذى طلب إخطار القـيـادة السوفييتية بذلك"[٣١]..

يوم ٧ أكتوبر قام ليونيد بريجنيف بتخطى مسألة دعوة مجلس الأمن للانعقاد، وأبلغ بريجنيف الرئيس الأمريكى نيكسون عن طريق قناة اتصال سرية الرسالة التالية: "كان سيصبح من المهم للغاية، لو تبع ذلك تعهد غير مشروط من جانب إسرائيل بالإعلان عن استعدادها للانسحاب من الأراضى العربية، أعنى فى نفس الوقت ضمان أمن إسرائيل ودول المنطقة الأخرى، ما الذى يمكن أن يكون غير مقبول بالنسبة لإسرائيل ؟". واضح من هذا الرد أن الاتحاد السوفييتى اعتقد أن نجاحات العرب فى أول أيام الحرب يجب أن تخلق ظروفًا لتسوية من كل الجوانب فى الشرق الأوسط.

لم يتغير موقف الاتحاد السوفييتى حتى بعد حدوث تحول فى العمليات العسكرية لصالح إسرائيل، فتدخل بريجنيف لوقف إطلاق النار، ولكنه مرة أخرى أكد فى رسالته لنيكسون على ضرورة التوصل إلى تسوية شاملة، كان السادات يثق فى استمرار "اللعبة" مع كيسينجر، حتى عندما توقف الانطلاق الهجومى للقوات العربية، وإلا كان من الصعب تفسير لماذا قام السادات بتسليمه رسالة بالقناة الشفرية السرية فى أثناء وجود وزير الخارجية الأمريكى فى موسكو من خلال حافظ إسماعيل، عن أنه مستعد "لفصل وقف إطلاق النار عن التسوية الشاملة". لم يبلغ كيسينجر القادة السوفييت بأى شيء عن هذا، وهكذا شرح "مبادرة السادات" فى مذكراته:"..... اقتراح موسكو بوقف إطلاق النار، كان مرتبطا بحقيقة أن الدور السوفييتى فى المؤتمر (الداعي لبحث تسوية شاملة ـ المؤلف) سيكون ضمانًا لضغط متناسب على الولايات المتحدة وإسرائيل. لكن مصر بالفعل تحولت للتركيز فى سياستها وتوجهاتها إلى الولايات المتحدة، وبالتالى تحولت من المدخل الشامل للتسوية إلى مدخل "الخطوة خطوة". وفى مثل هذه الظروف سيبدو الدور الروسى أقل تفضيلاً، بل يمكن أن يكون خطيرا، لأن موسكو كانت من الممكن أن تكون مدافعة عن حلول راديكالية وبهذا الشكل ستلعب ضد ما فكر السادات فى الحصول عليه لنفسه"[٣٢].

الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة

بين فكى كماشة الأزمة العربية ـ الإسرائيلية

يقولون عادة إن القوتين العظميين ضغطتا بين فكى كماشتهما طرفى النزاع الشرق أوسطى، إلا أن فى الواقع حدث العكس. فالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وجدا نفسيهما عالقين فى الأزمة الحادة فى الشرق الأوسط ولا يمتلكان إمكانيات حاسمة لتوجيه تطور الأحداث، ومن الضرورى أن أذكر بأن هذا التصعيد فى صورة حرب أكتوبر جاء فى وقت كانت فيه القوتين الأعظم تبذلان جهودا لإيجاد طريق للتهدئة فى العلاقات فيما بينهما، وبقيام الحرب موضوعيا أصبح العالم على حافة فشل عملية التهدئة، يوم ١٤ أكتوبر بعد الاحتفال بالإعلان عن فورد نائباً للرئيس الأمريكى، انتحى نيكسون بالسفير السوفييتى دوبرينين جانبا وطلب منه إبلاغ بريجنيف، أنه، أى نيكسون، "يستفزونه فى الولايات المتحدة لكى يفشلوا التهدئة". فى ذلك الوقت كانت توجد مساعٍ للقيادة الأمريكية لاتخاذ خطوات لدعم التهدئة. وبعد الإعلان عن إرسال أسلحة أمريكية لإسرائيل (تم توريد أسلحة قيمتها ٢.٢ مليار دولار ـ المؤلف)، اقترح البيت الأبيض على موسكو امتناع مشترك عن توريد السلاح بعد وقف إطلاق النار. لكن موسكو فى ذلك الوقت وجدت نفسها أسيرة علاقتها بالدرجة الأولى مع مصر، وكان هذا الموقف يشبه ما يقولون فى المثل عندما "يتحكم الذيل فى الكلب".

٢٠ أكتوبر وصل كيسينجر إلى موسكو، وتم التوصل إلى اتفاق بأن يتقدما بمشروع قرار مشترك إلى مجلس الأمن، دعا القرار ليس فقط إلى الوقف الفورى لإطلاق النار، بل (بإلحاح من الجانب السوفييتى ـ المؤلف) وتنفيذ القرار ٢٤٢ لعام ١٩٦٧، إلا أن الوقت كان قد تأخر واستطاعت إسرائيل تحويل مسار العمليات العسكرية لصالحها، ولم تكن متعجلة على الإطلاق لوقف إطلاق النار، وعلى أساس الاتفاق مع الولايات المتحدة اتخذ مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨ يوم ٢٢ أكتوبر، لكن

القوات الإسرائيلية وبعد الموافقة على القرار هاجمت فى اتجاه قناة السويس وحاصرت الجيش المصرى الثالث، واستعدت لتدميره.

حسب ما هو واضح للعيان، فإن كيسينجر فى هذه الظروف استمر فى "لعبته"، وللحقيقة أدخلت الأحداث عليها تعديلات محددة، فهو الآن ركز على "إنقاذ السادات"، وفى نفس الوقت كان يجب إقناع الرئيس المصرى بأن الولايات المتحدة فقط هى التى تستطيع أن توقف الإسرائيليين والضغط عليهم حتى لا يدمروا الجيش الثالث.

فى الوقت نفسه بدأت الأوضاع الداخلية داخل القوتين العظميين فى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة تنعكس بدرجة كبيرة على موقفهما، ففى داخل القيادة السوفييتية تصاعد الغضب من أن إسرائيل تتجاهل قرار مجلس الأمن المتفق عليه بين موسكو واشنطن. واضطر بريجنيف المعروف بهدوئه وعدم ميله لردود الأفعال الحادة إلى إبلاغ نيكسون" بواسطة "الخط الساخن" رسالة بعيدة عن لغة الدبلوماسية، تحدث فيها : "لماذا سمحت للإسرائيليين بالغدر، أنتم أدرى بذلك ، ولكننا نرى أن الإمكانية الوحيدة لتصحيح الوضع وتنفيذ الاتفاق هو إجبار إسرائيل على الانصياع لقرار مجلس الأمن فورا". واحتوت الرسالة على إشارة إلى أنه فى حالة عدم اتخاذ الولايات المتحدة لإجراء فورى، فإن هذا سيؤدى إلى انهيار التهدئة : "أشياء كثيرة جدا تغامرون بها، ليس فقط فى الشرق الأوسط، ولكن أيضا فى علاقاتنا".

فهموا فى الولايات المتحدة مدى خطورة الوضع. وجاء رد نيكسون فى نفس اليوم، بأن الولايات المتحدة "تأخذ على عاتقها مسئولية وقف العمليات العسكرية بالكامل من جانب إسرائيل. وتحدثت رسالة نيكسون لبريجنيف عن: "لقد توصلنا معكم إلى تسوية تاريخية، ونحن لن نسمح بنسفها".

إلا أن إسرائيل استمرت فى تجاهل مطالب مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وسحب القوات إلى مواقعها التى كانت فيها لحظة صدور القرار ٣٣٨. وفى موسكو عقد اجتماع عاصف للمكتب السياسى، وزاد من الانفعال اتصال من السادات

بالتليفون الخاص توسل فيه لعمل كل شيء "لإنقاذه وإنقاذ العاصمة المصرية، التى تحاصرها الدبابات الإسرائيلية". هنا تم استدعاء كبير الخبراء السوفييت الذين عملوا فى القاهرة والذى أبلغ بريجنيف، أن السادات فقد عقله عندما عرف أن بضع دبابات إسرائيلية عبرت القناة، لكن ليس هناك تهديد مباشر للقاهرة. ورغم هذه المعلومات، طالب عدد من أعضاء المكتب السياسى باتخاذ إجراءات عسكرية ـ سياسية عنيفة.

انطلق الكثيرون من أعضاء القيادة السوفييتية من أن إسرائيل لا تستطيع أن تتحدى الجميع والكل وتتجاهل قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار دون موافقة من الولايات المتحدة. وروى مساعد جروميكو الذى رافقه إلى اجتماع المكتب السياسى، للسفير السوفييتى فى واشنطن الذى استدعى لموسكو، أن وزير الدفاع جريتشكو طلب "استعراض لوجود قوات سوفييتية فى مصر". رفض كوسيجين بشدة مثل هذا الإجراء وانضم إليه جروميكو. أما بريجنيف الذى كان يتخذ موقفا حذرًا، فقد رفض أى تورط للقوات السوفييتية فى النزاع[٣٣]، لكنه اضطر على أى حال للموافقة، لكن بشروط، أولا، إرسال رسالة قاسية إلى نيكسون، مع الإشارة إلى احتمال تدخل الاتحاد السوفييتى عسكريا وثانيا، إجراء مناورات بمشاركة القوات الجوية في منطقة ما وراء القوقاز.

قرروا على أى حال أنه يجب أن تغلف الرسالة التى ستوجه لنيكسون، باقتراح إرسال قوات سوفييتية وأمريكية إلى مصر بهدف إجبار إسرائيل على وقف العمليات العسكرية. يوم ٢٤ أكتوبر وجه بريجنيف رسالة إلى نيكسون اقترح فيها العمل المشترك، وبعد ذلك تحدث : "أقول لكم مباشرة، إذا رأيتم أنه من غير الممكن أن تعملوا معنا، فإننا سنجد أنفسنا أمام ضرورة أن نبحث على وجه السرعة مسألة الخطوات المناسبة التى قررناها من جانبنا... نحن نقدر عاليا الاتفاق الذى بيننا بأن نعمل سويا، فهيا لنطبق الاتفاق على هذا الوضع المعقد، فهذا سيكون نموذجًا للعمل المشترك من أجل السلام".

أنا كنت متأكدًا بأنه لم يكن خلف هذه الرسالة نوايا حقيقية لتدخل عسكرى سوفييتى مباشر، لكنها كانت خطوة تطلبتها "تهدئة" إسرائيل. وفى نفس الوقت مثل

هذه الخطوة أملاها الوضع الداخلى، ففى الاتحاد السوفييتى تنامى الغضب من الأعمال الإسرائيلية، وكان بريجنيف يخشى أن يستغل هذا معارضوه فى القيادة، وكان أقواهم ألكسندر نيكولايفتش شيليبين وكان يلقب "شوريك الحديدى"، والذى أنقذ عمليا خروشوف عام ١٩٥٧، فى أثناء تنفيذ محاولة خلعة من كل مناصبه القيادية، والتى قام بها كل من مالينكوف ومولوتوف وكاجانوفيتش، ثم أصبح عام ١٩٦٤ الشخصية المحورية التى ساهمت فى تغيير بريجنيف بخروشوف.

قرر بريجنيف، بعد مرور بعض الوقت، بدعم كثيرين من المحيطين من تنحية شيليبين، الذى كان يشغل العديد من المناصب العليا فى الحزب والحكومة، وكان من الممكن حسب رأيه أن يطمع فى مكانه، وفى لحظة إرسال الرسالة لنيكسون، كان شيليبين قد نقل إلى منصب درجة ثانية رئيسًا للاتحاد المركزى للنقابات السوفييتية، وظل حتى عام ١٩٧٥ عضوا فى المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى. لكن بريجنيف كان يخشاه، خاصة عندما وصلته معلومات عن أن شيليبين يحظى بتأييد فى أوساط أعضاء الكومسومول السابقين، الذين كانوا من الممكن أن يتهموا السكرتير العام بريجنيف بعدم الحسم، فى لحظة موقف تحدٍّ إسرائيلى واضح مدعوم من الولايات المتحدة.

رد الفعل الأمريكى على رسالة بريجنيف أملته أيضا فى الغالب ليس عدم الرغبة فى إرهاب الاتحاد السوفييتى، ولكن ظروف داخلية. برفضه التدخل العسكرى المشترك، وهو ما كان متوقعا، أعرب نيكسون عن قلقه الشديد من إمكانية عمل أحادى من جانب الاتحاد السوفييتى، الذى من "الممكن أن يؤدى إلى نتائج لا يعلم مداها أحد". وأعلنت الولايات المتحدة حالة التأهب القصوى فى صفوف قواتها" لإحداث تأثير قوى. وعندما هاتف السفير السوفييتى كيسينجر احتجاجا على استعراض القوة الأمريكى، أجابه بأن موسكو يجب ألا تنظر إلى هذا على أنه عمل عدائى، فهو فى الأساس عمل فرضته مفاهيم داخلية، وهو ما أكده الرئيس نيكسون نفسه الذى قال لدوبرينين: " من الممكن أن أكون قد احتديت فى أثناء الأزمة، وهذا ليس من قبيل

التبرير، ولكنى أتعرض الآن إلى حصار شديد ودائم من قبل المعارضة وكل أعدائى الذين توحدوا ضدى حول "وترجيت".

يصور بعض الكتاب الأمريكيون رد فعل الولايات المتحدة كأنه أنقذ الموقف من نوايا الاتحاد السوفييتى لإرسال قواته إلى الشرق الأوسط، هذه الرواية ليس لها أى علاقة بالحقيقة، فبعد أن أرهبت كلتا القوتين العظميين بعضهما بعضًا، قامتا بتوحيد جهودهما للإعداد وعقد مؤتمر جنيف.

مدخلان لمؤتمر جنيف

كان قبول القرار ٣٣٨ كما تحدثنا قبل لقاء وزير الخارجية الأمريكى مع القيادة السوفييتية فى موسكو، حيث وافقت الولايات المتحدة على ربط وقف العمليات العسكرية فى الشرق الأوسط مع بداية تسوية سياسية شاملة، وكان من الواضح أن سعى الولايات المتحدة للخروج من الحظر النفطى قد لعب دورا أساسيا فى موافقة الولايات المتحدة على هذا الربط ، فقد استخدمت الدول العربية سلاح البترول يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣، أى بعد ١٣ يوم من بداية حرب أكتوبر، وفى ١٦ أكتوبر رفعت كل من العربية السعودية والعراق والإمارات العربية المتحدة والكويت وقطر وإيران أسعار نفطها بنسبة ١٧٪ لتصل إلى ٣.٦٥ دولار للبرميل (كم هى مضحكة ومنخفضة هذه الأسعار عندما كتبت هذه السطور - المؤلف) وبعد ذلك أعلنت العربية السعودية وليبيا وآخرين من الدول العربية عن منع تصدير النفط عموما للولايات المتحدة، وذكروا أن السبب ينحصر فى أن الأمريكيين يقدمون الدعم العسكرى لإسرائيل. يوم ٢٣ أكتوبر شمل الحظر النفطى هولندا، لأنها سمحت للولايات المتحدة باستخدام مطاراتها لنقل العتاد لإسرائيل. يوم ٥ نوفمبر أعلنت الدول العربية عن تخفيض إنتاجها من النفط بنسبة ٢٥٪. وبعد ١٨ يومًا شمل الحظر كلا من البرتغال وروديسيا وجنوب أفريقيا.

توقف حظر النفط فى ١٧ مارس ١٩٧٤ (باستثناء ليبيا ـ المؤلف)، وحدث هذا بعد أن حاولت الولايات المتحدة أن تظهر وكأنها "عدّلت" سياستها فى الشرق الأوسط، على حساب إجراءات فصل القوات. لكن ظهر وضع جديد فى الأزمة النفطية، فأسعار النفط قبل هذا كانت قليلاً ما تتحرك. من الممكن أن نتذكر أنه فى عام ١٩٤٥ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفى فترة إعادة بناء الاقتصاد العالمى كان سعر برميل النفط يقترب من الدولار، وقبل حظر البترول عام ١٩٧٣ زاد سعر البرميل ليصل إلى ٣ دولارات للبرميل، إلا أنه فى لحظة وقف الحظر ارتفع متوسط سعر البرميل إلى ١٢ دولار.

لقد فتح حظر النفط عام ١٩٧٣ عصرا جديدا، واتضح أن ديناميكية أسعار النفط مرتبطة ارتباطا شديدا بالأحداث فى الشرق الأوسط، الذى اعتبر ويعتبر المنطقة الرئيسية المصدرة للنفط لأوروبا واليابان والولايات المتحدة. فى عام ١٩٧٩ حدث ما يسمى بالثورة الإسلامية فى إيران وأصبح متوسط سعر برميل النفط خلال العام ٣٠ دولارًا، فى عام ١٩٨٠ عندما بدأت الحرب الإيرانية ـ العراقية وصل سعر البرميل إلى ٣٥.٧ دولارًا. ثم انخفضت الأسعار فى عام ١٩٨٦ لتصل إلى ١٤.٣ دولارا للبرميل من نفط بحر الشمال الذى يطلق عليه خام برنت، الذى أصبح مقياس للأسعار، لكن عام ١٩٩٠ عندما دخل العراق الكويت، ارتفعت الأسعار مرة أخرى.

كان من الممكن أن نفترض، أن الكثيرين من رجال السياسة فى الولايات المتحدة وبالطبع فى الاتحاد السوفييتى كانوا يأملون بعد هدوء الأوضاع فى الشرق الأوسط أن يحدث انخفاض لأسعار النفط، وهذا ما حدث بالفعل، وفى عام ١٩٩٨ بعد الأزمة المالية الآسيوية، الأسعار عادت إلى المستوى الذى كانت عليه بعد عام من حظر عام ١٩٧٣. لكن فى عام ٢٠٠٢ ارتفعت أسعار النفط بشكل حاد، واستمرت فى الارتفاع دون توقف، وفى وقت إصدار هذا الكتاب تخطت ١٠٠ دولار للبرميل. تتعايش الدول الصناعية مع أسعار النفط بالطبع على حساب توفير وتنشيط مصادر أخرى للطاقة. لكن الحقيقة تبقى، أن حظر النفط الذى أدت إليه حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وضع نهاية لأسعار النفط الرخيصة.

لنعد من هذا "التقهقر النفطى" إلى مؤتمر جنيف. فقد بدا أن موافقة الولايات المتحدة على ربط مؤتمر جنيف بالتسوية الشاملة قد فتح الطريق لعملها الناجح، لكن فى

واقع الأمر تبين أن الأمر أعقد من ذلك بكثير، والسبب الرئيسى كان ينحصر فى أن الولايات المتحدة عمليا ذهبت إلى مؤتمر جنيف بمواصفات لا تتناسب مع التفويض الذى أنتجته من البداية بالمشاركة مع الاتحاد السوفييتى. كتب عن هذا، بصراحة، كيسنجر فى مذكراته فيما بعد عن مؤتمر جنيف"...... كان وسيلة لجمع كل الأطراف أصحاب المصلحة فى حزمة واحدة، لعمل شيء رمزى، وعن طريق هذا، يستطيع كل طرف على حده أن ينتهج توجها منفصلا، حتى لو لبعض الوقت. فقد كان من الصعب تنظيم لقاء كبير كهذا، ويعد هذا ممكن أن نبقيه فى حالة عدم فعل، فى الوقت الذى تعود فيه الدبلوماسية إلى قنوات ثنائية الأطراف[٣٤]". لا يوجد حديث أوضح من هذا، وكنا قد اتفقنا فى أثناء وجود وزير الخارجية الأمريكى فى موسكو على أشياء أخرى تماما.

لم يتوقف كيسنجر عن الضغط حتى على إسرائيل عندما استطاعت منعه من تحقيق مساعيه فى تحقيق فصل القوات على الجبهات وذلك لتحقيق فكرة الاتفاق المنفرد بين مصر وإسرائيل بما هو معروف عنه من دأب خاص. فى ١٦ أكتوبر عندما كان كيسينجر فى القدس، وصف "استرتيجيته العامة" للقيادة الإسرائيلية (أنقل النص عن كتاب الصحفى الإسرائيلى م. جولان، الذى حصل على مسودة محضر لقاءات كيسينجر فى إسرائيل ضد رغبة القيادة الإسرائيلية، وأعلنها على الملأ، متخطيا بذلك عقبات كثيرة فى طريقه ـ المؤلف) على الوجه التالى: "شرح كيسينجر، أن الهدف من المفاوضات على فصل القوات ينحصر فى أنه التفاف على ضرورة إجراء مباحثات على الحدود، وتسوية نهائية. ونجاح المفاوضات (حول فصل القوات ـ المؤلف) ممكن أن يؤدى كذلك إلى إنجاز آخر وهو إلغاء حظر النفط وفى نفس الوقت هذا سينهى عزلة إسرائيل، ويخفف الضغط عليها بشكل أساسى من دول غرب أوروبا واليابان. ويجب ألا يكون لدى أحد فى إسرائيل أى شك، محذرا، من أن فشل مفاوضات فصل القوات سيحطم السد الذى يصد الضغط عن إسرائيل، الذى يمارس هذه المرة ليس من أجل الانسحاب الجزئى بل من أجل الانسحاب الكامل لحدود ٤ يونيو ١٩٦٧"[٣٥]. فى هذا الشرح ظهر موقف كيسينجر الذى استعرض فيه حتى الضغوط على إسرائيل إذا لم تتبع التوجيهات المفروضة عليها.

وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة اختلفا في تقييم ما يجب أن يبحثه مؤتمر جنيف، فإن مصالحهما تطابقت ـ للحق لأسباب مختلفة جدا ـ في التوصل لفصل القوات، كانت الولايات المتحدة كما تحدثت يقودها أساسا السعي إلى إلغاء الحظر النفطي، وركز الاتحاد السوفييتي على إعداد اتفاقية عاجلة لفصل القوات بين سوريا وإسرائيل، وكانت موسكو تخشى من أنه بعد فصل القوات في سيناء أن تصبح سوريا هدفا لهجمات إسرائيلية، وزادت الخشية بعد ظهور اتجاه معادٍ لسوريا في الولايات المتحدة.

وبعد عدة زيارات قام بها وزير الخارجية السوفييتي جروميكو للشرق الأوسط ولقاءات مع وزير الخارجية الأمريكي، تم توقيع وثائق بمحصلة هذه اللقاءات، حددت نظام وقت فصل القوات بين سوريا وإسرائيل، وكذلك انسحاب القوات الإسرائيلية من أجزاء من الأراضي السورية التي كانت تحتلها، هذه الوثائق كانت تنص على تحرير أراضٍ مساحتها ٦٦٣ كيلومترا مربعًا احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧. شكر حافظ الأسد بريجنيف في رسالة أرسلها إليه أعرب فيها عن تقديره العميق لدعم الاتحاد السوفييتي.

يوم ٤ سبتمبر ١٩٧٥ وقعت مصر وإسرائيل الاتفاقية الثانية الخاصة بانسحاب القوات الإسرائيلية، وعاد إلى مصر ممرا متلا والجدي، وتم توسيع المنطقة العازلة للأمم المتحدة. لكن جزءا كبيراً من سيناء بقي تحت الاحتلال حتى توقيع اتفاق الصلح المنفرد بين السادات وبيجين.

تدابير جزئية أم مرحلية

لم تظهر المداخل المختلفة للتسوية السلمية في الشرق الأوسط بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في مؤتمر جنيف بالصدفة، التباين في التكتيك السوفييتي والأمريكي برز قبل الدعوة لمؤتمر جنيف بفترة طويلة.

مما لا شك فيه أن النزاع فى الشرق الأوسط ولأسباب عديدة يعتبر واحداً من النزاعات الأعقد فى تسويتها. يعتبر الفلسطينيون أنفسهم جزءاً من العالم العربى أخرج من أرضه. ويسعى لاستعادة الأرض التى عاش عليها منذ قرون عديدة، وعاش عليها عشرات الأجيال. كذلك من الممكن تفهم الطرف الآخر، وخوف اليهود الذى له ما يبرره، والذين أنشأوا دولتهم، المعترف بها من المجتمع الدولى، لكن وعلى مدى عشرات السنين مرفوضة من المحيط العربى الذى يهدد بتدميرها. تعقيدات تسوية هذا النزاع بين قوميتين ـ تعترف بهذا أم لا ـ ينحصر فى أنه نتيجة الحروب توسعت إسرائيل على حساب الدول العربية المجاورة.

وعقد الأوضاع أكثر أن القوتين العظميين بحثتا هذا النزاع من خلال منظور المواجهة، الذى كان من خصائص الحرب الباردة، وهذا لم يكن يعنى دفع "حليف" أى منهما فى الشرق الأوسط لأعمال عدوانية ضد بعضهما بعضًا، بل على العكس يمكن التأكيد على أن القوتين العظميين ـ أنا لا أتحدث فى هذه الحالة عن أهواء بعض الشخصيات فى قيادتهما، ليس هم من كان "يحدد الأجواء" ـ كانتا تسعيان لاستقرار الأوضاع فى الشرق الأوسط، ولا يمكن الوصول لهذا دون التوصل لتسوية النزاع. لم يكن لا الاتحاد السوفييتى ولا الولايات المتحدة يريدان أن يسمحا بهذا التطور للأحداث الذى من الممكن أن يجرهما إلى مواجهة عسكرية مباشرة. لقد أملى على الولايات المتحدة خط عدم جواز التصعيد فى الشرق الأوسط، بالنسبة للولايات المتحدة كانوا يدركون فى البيت الأبيض أنه يوجد اختلاف بين تصعيد النزاع ومرحلة الأزمة، كما حدث على سبيل المثال فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وابتعاد حتى تلك الدول التى كانت فى منطقة النفوذ الأمريكى ـ ومنها دول شبه الجزيرة العربية أى المصدر الرئيسى للنفط للولايات المتحدة وحلفائها فى الحرب الباردة.

لم يوقف اهتمام الولايات المتحدة الموضوعى بالاستقرار فى الشرق الأوسط، قط عن دعم إسرائيل، ولا نتحدث عن مواجهتها، حتى عندما كانت عدوانية سياستها أكثر

من واضحة للعيان. نعم استطاعت الولايات المتحدة، وهذا حدث، أن تمنع القيادة الإسرائيلية عدة مرات وأحيانا بلهجة حادة عن خطوات كان من الممكن أن تؤدى إلى خسارة للمصالح الأمريكية. لكنها لم تذهب لأبعد من ذلك.

وبهذا الشكل نشأت مهمتان غالبا متناقضتان لبعضهما بعضًا فى السياسة الأمريكية: العمل لصالح الاستقرار فى الشرق الأوسط وفى نفس الوقت دعم إسرائيل، التى كان من الصعب أن نصدق رغبتها فى تسوية النزاع مع العرب على أساس قرارت مجلس الأمن والجمعية العام للأمم المتحدة، وكانت واشنطن تراهن على حل هذا التناقض من خلال التجزئة، أو بكلمات أخرى خطوات منفصلة لتسوية النزاع العربى ـ الإسرائيلى.

فى الحقيقة، إن نزاعًا مرشحًا للتصعيد ومعقدًا مثل النزاع فى الشرق الأوسط، لا يمكن إنهاؤه مباشرة وبحركة واحدة، وكانوا فى موسكو يدركون هذا أيضا، إلا أن جوهر الخلاف كان ينحصر فى أن الولايات المتحدة اقترحت وعملت باستقلالية، وتوصلت لهذا من خلال اتفاقية جزئية، بينما كان الاتحاد السوفييتى ينطلق، آخذا فى الاعتبار تعقيدات التسوية، من ضرورة اتخاذ خطوات وسيطة تؤدى إلى أهداف محددة ومتفق عليها سلفا وهى تسوية شاملة. أملى منطق السوفييت أنه عند توالى الاتفاقيات المنفصلة، وبقدر خروج دولة عربية وراء الأخرى من عملية التسوية، إسرائيل ستحصل على إمكانية الحصول على الحلول اللازمة لها، كما أن غياب الحلول التوافقية المتوازنة التى تضم كل الدول المشاركة فى النزاع، لا يمكن أن يؤدى إلى بناء سلام دائم فى الشرق الأوسط.

كانت هناك فترة عندما كانت واشنطن أيضا تميل إلى الابتعاد عن الاتفاقيات المنفصلة، وتوجهت إلى تسوية شاملة على مراحل. فى ذلك الوقت وفى صيف عام ١٩٧٦، عندما كان فريق كارتر يسعى إلى انتخابه رئيسا، اتيحت لى الفرصة للقاء أحد ممثلى حملة كارتر، فيما بعد أصبح مستشار كارتر لشئون الأمن القومى هو برزجينسكى، وبعدها بأسبوعين مع س. فانس الذى كان يعمل فى حملة كارتر ثم أصبح وزيرا للخارجية فى إدارته، وكنا نشارك فى ندوة سوفييتية ـ أمريكية حول

تفعيل دور الأمم المتحدة. وتحدث في البداية برزجينسكي ثم تلاه فانس حول الوضع في الشرق الأوسط وقالا تقريبا نفس الكلام: سياسة كيسينجر المرتكزة على الحلول المنفصلة، على ما يبدو استنفذت الغرض منها، ويجب الآن أن نتحرك في اتجاه تسوية سياسية شاملة، ويجب أن تشارك الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في عملية التسوية ، وأن ينسقا جهودهما.

وكان للنشرة التي أصدرها معهد بوركينجسكي في واشنطن صدى واسع في الولايات المتحدة، وكان ضمن مؤلفي النشرة برزجينسكي وكوانت، اللذان شغلا منصب رؤساء قسم الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي وآخرون، وبالتحديد الذين شاركوا بشكل مباشر في إنتاج السياسة الشرق أوسطية في إدارة كارتر. ركزت الدراسة على ضرورة التسوية الشاملة، التي لا يمكن التوصل إليها دون اتفاق على إنشاء "وطن فلسطيني" في الضفة الغربية لنهر الأردن.

بعد شهرين وعندما تولى كارتر مقاليد الأمور أعلن أنه "يجب أن يكون للفلسطينيين وطن"، وكانت هناك عدة تصريحات رسمية حول الرغبة في استئناف عمل مؤتمر جنيف للتسوية في الشرق الأوسط. وتم خلق تربة صالحة لإعلان سوفييتي - أمريكي مشترك حول الشرق الأوسط، نشر يوم ٢ أكتوبر ١٩٧٧، تحدث الإعلان بشكل مباشر عن تسوية شاملة لمشكلة الشرق الأوسط، وعن طريق حل المشاكل المهمة، مثل "انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، والمشكلة الفلسطينية، بما فيها تأمين الحقوق القانونية للشعب الفلسطيني، وإنهاء حالة الحرب، وإقامة علاقات سلام عادية على أساس الاعتراف المتبادل بمبادئ الاستقلال، ووحدة الأراضي والاستقلال السياسي". أي كل ما نصت عليه بعد ٣٥ عاما! "خارطة الطريق".

وبدا الأمر وكأن كل شيء انتظم لدى الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، يوجد تفاهم مشترك ويوجد كذلك بشر يفكرون بطريقة واحدة، مدعوون لأن ينفذا هذا التفاهم على أرض الواقع. لكن تبين أنهما لم يأخذا في اعتبارهما إمكانيات إسرائيل التي

اتضح أنها تستطيع أن تظهر تأثيراً حاسماً فى اللحظات الحاسمة على سياسة الأمريكيين الشرق أوسطية. فعندما قرأت القيادة الإسرائيلية الإعلان المشترك، قامت بتنشيط جماعات الضغط فى الولايات المتحدة وخاصة فى الكونجرس. وبدأ هجوم غير مسبوق على الإعلان، الذى باعتراف فانس كان إصداره لمصلحة السلام فى الشرق الأوسط. واهتز البيت الأبيض، وفى يوم ٤ أكتوبر أى فى اليوم الثالث على نشر الإعلان المشترك، دعى وزير الخارجية الإسرائيلى ديان، الذى كان موجودا فى نيويورك فى أثناء دورة انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة، للقاء الرئيس كارتر، وطال اللقاء الذى كما أعلن كان من المفترض أن يكون قصيرا، ليوم كامل، وانتهى باستسلام الولايات المتحدة. فقد تم إصدار ما عرف بوثيقة عمل مع إسرائيل، ألغت عمليا التوقيع الأمريكى على الإعلان السوفييتى ـ الأمريكى.

منذ هذه اللحظة بدأ تحول الولايات المتحدة إلى ما كان فى السابق، ليس فقط فى الواقع، ولكن شكليا إلى موقف رفض التعاون مع الاتحاد السوفييتى فى قضية تسوية النزاع الشرق أوسطى، وواقعيا رفض التسوية الشاملة. كانت الولايات المتحدة تتذكر مؤتمر جنيف، لكنها بعد عدة أشهر من توقيع وثيقة العمل مع إسرائيل، توقفت عن ذلك.

تقارب مواقف الولايات المتحدة مع وريث الاتحاد السوفييتى، روسيا، حول التسوية فى الشرق الأوسط حدث من جديد. لكن بعد عدة سنوات شقت طريقها فى توسيع مهمة الوساطة على حساب ضم الاتحاد الأوروبى ومنظمة الأمم المتحدة. من الواضح أن خلق هذا "الرباعى" من الوسطاء كان له علاقة بتفهم واشنطن أن احتكار الولايات المتحدة للتسوية ليس له مستقبل، وفى عام ٢٠٠٣ تم عمل "خارطة الطريق" التى أقرتها إدارة بوش الابن، وصفت بأنها الطريق الوحيد للسلام، إلا أنه لم يحدث عبور لهذا الطريق.....

الفصل الحادى عشر

كيف صنع الاتفاق المصرى - الإسرائيلى؟

وصلت حكومة مناحم بيجين للسلطة فى إسرائيل فى منتصف عام ١٩٧٧، وأصبح موشى ديان وزيرا للخارجية. وكان سيروس فانس بعد أن استقال من منصب وزير الخارجية فى لقاء لنا قد قال لى، إن هذا لم يكن متوقعا "للمستعربين" (هكذا كانوا يسمون فى الولايات المتحدة ممثلى وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومى الذين كانوا يكررون الحديث عن سياسة أكثر توازنا فى الشرق الأوسط ـ المؤلف) فقد راهن أتيرتون وسونديرس وكوانت وآخرون فى مايو ١٩٧٧ على فوز حزب العمل بقيادة بيريز. تقبل السادات أيضا فى البداية وصول بيجين للسلطة بحذر، ولهذا قام فانس بصحبة مجموعة مكونة من أمريكيين معتدلين، بعد شهرين من الانتخابات فى إسرائيل، برحلات مكوكية بين القاهرة وتل أبيب. فانس كان متفهما للصعوبات التى يمر بها السادات ولذلك سعى لطمأنته والتأكيد له على أن الاتفاق المصرى ـ الإسرائيلى سيترافق مع تحرك فى الاتجاهات الأخرى للتسوية، ولن يبقى منفصلا.

لكن بيجين اتخذ موقفًا عكسيًا تمامًا. كتب سايروس فانس فى مذكراته فيما بعد: "أصبح واضحًا عند رئيس الوزراء مناحم بيجين أوضح من الوضوح، أن حكومته الائتلافية تكتل الليكود قد عقدت العزم على إعلان حقها فى ضم الضفة الغربية، ومن الممكن غزة، وعدم الموافقة على انسحاب قواتها من هذه الأراضى[٣٦]".

رحلات ديان السرية

من هذا الموقف بدأت إسرائيل تعمل، وأخذت في يدها زمام مبادرة "اللعب" مع السادات، وكانت كل الشواهد تشير إلى أن الولايات المتحدة قررت ألا تعوقها. من الممكن أن تكون المعلومات التي لدى الولايات المتحدة عن بعض الخلاف في وجهات النظر بين بيجين وديان، هو الذى استمال الولايات المتحدة لهذا الخط، لأنها كانت تعتقد أنها بذلك ستخفف من موقف بيجين، الذى بذل جهودا كبيرة لتحريك المستوطنات الإسرائيلية للضفة الغربية وغزة. وفيما يتعلق بديان فهو كان حاسما فى هذه المسألة، ومدركا أن سياسة الاستيطان فى الأرضى المحتلة، وإنشاء مستوطنات جديدة وتوسيع الموجود منها، من الممكن أن يصبح سببا فى تعقد العلاقات مع الولايات المتحدة.

كان ديان فى الأساس يشارك زملاءه فى حزب العمل وجهة نظرهم، حيث كانوا يراهنون على تحقيق "توافق على الأرض" على حساب تقسيم الضفة الغربية بين إسرائيل والأردن، إلا أنه اختلف معهم بخصوص تنظيم العملية وقبل اقتراح بيجين بشغل منصب وزير الخارجية في حكومته، وذلك لأنهما كانا لديهما نفس الفكرة فى أنه من الضرورى البدء بعزل مصر، وهذا ممكن فقط فى حالة توقيع اتفاق منفصل معها. وكان من الواضح أن الأولوية التى منحت لتوقيع اتفاق منفصل مع مصر لم تكن مرتبطة فى آخر المطاف بقلق ديان الشخصى بسبب حرب أكتوبر ١٩٧٣، التى اضطرته إلى التقدم باستقالته مع مائير بعد تقرير "لجنة أجرانات".

وبيجين دعا ديان إلى حكومته أيضا انطلاقا من أنهما، بيجين وديان، كان لديهما توجه واحد فيما يخص ضرورة جذب السادات لتوقيع اتفاق مع إسرائيل، وقد استغل بيجين الوزن السياسى لديان فى إسرائيل كذلك لرفع مكانته. بالإضافة لذلك شاع صيت ديان على أنه "شخصية لينة الطباع" فى الولايات المتحدة، ومشاركته فى الحكومة وزيراً للخارجية، من الممكن تفسيره على أنه سعى من بيجين ألا يحشر السادات فى زاوية فيما يخص مسألة الضفة الغربية.

كان السادات مازال يؤمن بإمكانية توقيع اتفاق مع إسرائيل، مع ربط "لين" بتسوية مشكلة الضفة الغربية، فى الوقت الذى وصل فيه إلى القاهرة فانس باقتراح أمريكى جديد، حيث اقترحت الولايات المتحدة، اتخاذ إجراءات انتقالية فى الضفة الغربية مع الاحتفاظ بالقوات الإسرائيلية فى الضفة الغربية، فى الوقت الذى ستكون فيه هذه الأراضى تحت سيطرة الأمم المتحدة، بعد ذلك وبعد عدة سنوات يجرى استفتاء لتحديد مستقبلها. فانس "أرضى" السادات. وعندما وصل إلى إسرائيل أعاد الحديث الذى دار مع السادات، وهو ما أرضى كذلك القيادة الإسرائيلية، على أى حال، فتحت الولايات المتحدة طريقًا للاتصال بين مصر وإسرائيل، وكان هذا هو المهم جدا لبيجين وديان.

بعد محادثاته مع فانس قام ديان بسلسلة من الزيارات السرية شملت دلهى وطهران وبعد ذلك فاس. وإذا كان ديان قد تحدث فى دلهى أساسا عن إقامة علاقات دبلوماسية بين إسرائيل والهند، فإنه فى طهران استعرض مناقشة المشاريع المشتركة، كما حصل ديان على تأكيد من الشاه أنه سيدعم موقف إسرائيل، المعادى لإقامة دولة فلسطينية.

وتلقى ديان فى لندن "دش بارد". فقد كان لديه أمل فى إقناع الملك حسين بأن يشارك حتى لو مشاركة سلبية فى "اللعبة" الإسرائيلية مع السادات فى أثناء لقاءات سرية جرت معه فى العاصمة الإنجليزية. لكن الملك رد عليه بأن السلام غير ممكن بدون عودة إسرائيل للحدود التى كانت عليها قبل ٥ يونيو ١٩٦٧، ولم تفلح عملية إخافة الملك حسين من أن الدولة الفلسطينية ستشكل تهديدا للعرش الهاشمى. وأراد ديان أن يوصل رسالة للسادات، لكن الملك حسين كان حذرا ولم يأخذ على نفسه مهمة "ساعى البريد".

عاد ديان إلى إسرائيل بخيبة أمل واضحة، وهو ما يمكن فهمه مما كتب فى مذكراته "بعد أسبوعين كان أمامى تجربة أكثر بكثير من حيث فوائدها، لقاء سرى مع

حاكم عربي آخر. وهي التجربة التي دعمت مستقبل الاتفاق مع دولة مجاورة أكثر أهمية من الأردن[٣٧]". كان ديان يعني بذلك رحلته القادمة إلى المغرب.

يوم ٤ سبتمبر ١٩٧٧ سافر ديان سرا إلى باريس، ثم منها إلى فاس بالمغرب، بهدف الحصول على مساعدة مغربية في تنظيم لقاء مباشر وإجراء محادثات سلام مع مسئولين مصريين. يوم ٩ سبتمبر وبعد أربعة أيام من عودته إلى إسرائيل، تلقى ديان رسالة من المغرب بأن المصريين موافقين على الاتصالات على مستوى عال. وتحدد لقاء ديان مع نائب رئيس وزراء مصر حسن التهامي يوم ١٦ سبتمبر، قبلها بيوم واحد طار ديان إلى بروكسل، حيث عقد لقاء مع سفراء إسرائيل في أوروبا وكانوا قد تجمعوا في بروكسل، ومع قائد قوات الناتو الجنرال أ.هيج، فقد كانت تربط ديان بهيج سنوات كثيرة من علاقات الصداقة، ففي عام ١٩٦٦ وفي أثناء زيارة لمدة شهر لفيتنام تعرف على قائد الكتيبة هيج، وشارك معه في عمليات "تمشيط الغابات" أي في حملات تأديبية.

كانت سفرية ديان لبروكسل معلنة، بعد ذلك بدأت القصة البوليسية الحقيقية. توجه كل الفريق المرافق لوزير الخارجية الإسرائيلي إلى المطار ليستقل الطائرة المتوجهة إلى نيويورك، حيث ستعقد اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، السيارة الموجود فيها ديان انحرفت إلى شارع جانبي وتوقفت عند منزل خاص مملوك للمخابرات الإسرائيلية. هنا قاموا بعمل مكياج لديان، وخلعوا عنه عصابة عينه المعروف بها (فقد ديان عينه في الحرب العالمية الثانية، وكان دائما يضع عصابة على عينه - المؤلف)، وقد وضعوا له شوارب ووضع نظارة سوداء على عينيه، بعد ذلك غير ديان السيارة، واتجه إلى باريس ومنها استقل طائرة إلى الرباط. حيث كان حسن التهامي في انتظاره هناك.

أكد ديان في تقريره الذي قدمه لبيجين عن مباحثاته مع حسن التهامي[٣٨] أن المصريين برروا ضرورة ضم حل المشكلات الفلسطينية إلى التسوية المصرية - الإسرائيلية، بأنه في حالة عدم فعل ذلك سيفتح الفلسطينيون "الطريق لتجدد نفاذ

السوفييت لمنطقتنا"، لم يؤثر هذا المبرر على ديان، لكن الانطباع الرئيسى الذى حمله ديان من المباحثات مع التهامى، انحصر فى أن السادات يريد لقاء سريا مع بيجين، ويسعى للابتعاد عن مؤتمر جنيف، ويريد لو أن الروس لم يكن لهم أى مشاركة فى التسوية. وكان تقييم ديان لرغبة السادات بجمع حل المشكلات الفلسطينية مع التسوية المصرية ـ الإسرائيلية بأنه ليس فيه جدية شديدة، فهو استطاع أن يفهم من حديث التهامى أن القيادة المصرية لا تعنى من هذا القرار إقامة دولة فلسطينية، وإنما شىء ما خاص بالمشكلة الفلسطينية، لربط الضفة الغربية بالأردن، لكن الأساس هو عودة سيناء للسيادة المصرية.

قبيل لقاء ديان مع التهامى، تم إقامة قناة اتصال، لكن ليس من خلال المخابرات الأمريكية، وإنما بين الموساد والمخابرات المصرية، وبالعمل من خلال الموساد أراد بيجين أن يستعرض للسادات أنه يسعى لحمايته من خصومه داخل مصر والعالم العربى بشكل عام. وقد أبلغ بالفعل رئيس الموساد خ. خوفى نظيره المصرى أن ليبيا تعد لمحاولة اغتيال للسادات. فقام السادات بالإغارة على عمق الأراضى الليبية بعد ذلك بعدة أيام، وأعلن بيجين لأعضاء الكنيست، الذين أعربوا عن دهشتهم، عن خططه للقاء الرئيس المصرى، وأن إسرائيل يجب أن تتوقف عن الأعمال المعادية لمصر فى سيناء.

السادات :

طريق نهاية العالم ـ الكنيست

اقترب السادات أكثر من فكرة لقاء بيجين، وألغى اقتراح مستشاريه بلقاء سرى، وعلى ما يبدو أنه كان على حق فى هذا، ففى مصر وفى إسرائيل كذلك لا يحافظون على الأسرار كقاعدة عامة، وفضح دبلوماسية خلف الكواليس من الممكن أن تكلفه ثمنًا غاليًا ليس فى مصر فقط بل العالم العربى بشكل عام.

أول شخص خارج مصر عرف نوايا السادات لزيارة القدس كان شاه إيران الذى أبلغه السادات وهو فى طريق عودته من أوروبا لمصر، ورحب بحرارة بنوايا السادات، وكانت المحطة الثانية العربية السعودية، لكن السادات لم يبلغ الملك فهد بخططه. قرر السادات جس النبض لمعرفة رد الفعل داخل البلاد وفى إسرائيل وفى العالم بشكل عام، ولهذ الغرض أعلن فى افتتاح جلسة مجلس الشعب المصرى يوم ٩ نوفمبر، أنه لتسوية أزمة الشرق الأوسط "مستعد لأن يذهب إلى آخر العالم، وحتى الكنيست نفسه". واعتبرت سكرتارية رئيس الوزراء أن السادات ربما بالغ فى التعبير، فأصدرت تعليمات للصحف بعدم تركيز الاهتمام على هذه العبارة. وعندما فتح السادات صحف الصباح، غضب أن طريق "آخر العالم" والكنيست الإسرائيلى لم يتم اختيارها عنوانًا رئيسيًا فى الصحف. فى حين أن السادات فى ذلك الوقت كان يلعب بآخر أوراقه، وكان يحتاج إلى أن تصل الأخبار عن نواياه للأمريكيين والإسرائيليين "بشكل واضح".

هبطت طائرة السادات فى مطار بن جوريون بعد عشرة أيام من جس النبض هذا، يوم ١٩ نوفمبر فى تمام الساعة الثامنة والنصف مساء. السجادة الحمراء وبيجين عند سلم الطائرة فى الاستقبال وطلقات المدفعية للتحية، وعزف السلام الوطنى واستعراض حرس الشرف، كل شىء من الجانب الإسرائيلى كان يخدم فكرة التأكيد على الطابع الرسمى لزيارة السادات الذى وصل للقدس وفق الرواية المصرية لكى يصلى فى المسجد الأقصى لكن كان هناك أساس للاعتقاد بأن السادات الذى كان تحت تأثير الزهو، وأنه أراد هذه المقابلة الفخمة ، على أى حال هو لم يشترط أى شىء آخر.

لكن بعد هذه اللقاء الاحتفالى سكبوا على رأس السادات "جردل ماء بارد". فالحديث الذى دار بين موشى ديان ووزير الدولة للشئون الخارجية بطرس غالى اللذين انتقلا بالسيارات معا بعد الاستقبال فى المطار، يؤكد عدم وجود أى نوايا لدى إسرائيل للتخلى عن مواقفها السابقة أو حتى مجرد التخفيف منها. وعن هذا كتب ديان فى

كتابه "الاختراق" وغالى أكد من حيث المبدأ نفس الكلام فى لقاء لى معه عندما أصبح سكرتيرا عاما للأمم المتحدة، فقد تحدث غالى إلى ديان، وجعل ارتكازه على أن مصر لا تستطيع توقيع اتفاق منفصل، وإسرائيل تعرف جيدا موقف الدول العربية من زيارة السادات للقدس، وهم بلا شك يتهمونه بتفجير الجبهة الموحدة للعرب، التى كان يجب أن تذهب إلى مؤتمر جنيف. وفق كلام ديان أنه أجابه على النحو التالى :"أنا أعرف جيدا معارضة العالم العربى للسادات، لكن أنا أعرف بلا شك أنه ليست هناك إمكانية إحضار الفلسطينيين والأردن إلى طاولة المفاوضات، لهذا فإنه يجب على مصر أن تكون مستعدة لتوقيع اتفاق معنا، حتى لو لم ينضم إليه الآخرون"(٣٩).

أبلغ بطرس غالى حديثه مع ديان للسادات، وهو بذلك أصبح يعرف من البداية الحدود التى وضعها الجانب الإسرائيلى للاتفاق معه. وحتى الآن لا توجد معلومات يقينية عن محادثات السادات فى القدس، من الممكن حينها لم يكن قد تخلى عن موقفه بشكل نهائى بعد. وأعلن السادت عقب عودته إلى القاهرة :"لن أوقع أبدا اتفاقا منفصلا"، وفى نفس الوقت اقترح الدعوة إلى مؤتمر سلام فى القاهرة تحضره الدول العربية وإسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وممثلون عن الأمم المتحدة، ويبدو أن فكرة مؤتمر سلام بهذا الحجم، كان يجب أن تضفى صبغة عربية على زيارته للقدس.

وافقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة على المشاركة فى المؤتمر، بينما قررت الأمم المتحدة أن تأخذ على نفسها دور المراقب، وإسرائيل أرادت بالمشاركة أن تظهر نفسها كمسيطر على الوضع. فى يوم افتتاح ما يسمى بمؤتمر السلام بالقاهرة (على الرغم من أنه لم يجمع الكثيرين من الذين كانوا يجب أن يشاركوا_ المؤلف)، رفض رئيس الوفد الإسرائيلى، المدير العام لديوان رئيس الوزراء بن إليسار الدخول إلى القاعة بسبب وجود لافتة مكتوب عليها "فلسطين"، كانت أسماء الوفود قد وضعت سلفا وعليها أسماء الوفود التى من المفترض أن تشارك فى المؤتمر، وأعلن أنه لن يدخل إلى

القاعة. بن إليسار لم يهدأ حتى بعد أن أصبح على مائدة المؤتمر لافتات "إسرائيل" "مصر" و"الولايات المتحدة" و"الأمم المتحدة"، وهذه المرة لم تعجبه الأعلام التى رفعت أمام فندق "مينا هاوس" حيث كان يعقد المؤتمر، فقد كان يرفرف علم فلسطين. شرحوا له أنهم هكذا يحتفلون بنزلاء الفندق المقيمين فيه من الدول والمناطق المختلفة، إلا أن بن إليسار أصر على موقفه، وبقى الصارى أمام فندق "مينا هاوس" عارياً أى أزيل منه العلم.

لم يكن ليحرز المؤتمر نجاحًا بمن حضروا، وهذا ما حدث بالفعل. تلى ذلك لقاء عقد بين ديان والتهامى فى المغرب، تم إرسال خطة مكتوبة بخط اليد لمشروع اتفاق سلام إسرائيلى للسادات. بعد ذلك سافر بيجين إلى واشنطن، حيث وافق كارتر على خطته. بعد ذلك وصل بيجين بنفسه إلى القاهرة، وقام كارتر بزيارة العربية السعودية وإيران، حيث لحق به للقائه ملك الأردن حسين، ولم ينجح الرئيس الأمريكى فى مسعاه لجلب الدعم للسادات من جانب الأنظمة العربية المعتدلة. حينها ولنفس الهدف توقف كارتر فى أسوان حيث التقى السادات.

لم يجد كارتر ما يساعد به السادات. ففى نظر العالم العربى بقى سياسيا وحيدا، أخذ اتجاهًا لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل فى إطار علاقات مصرية ـ إسرائيلية خاصة. وكانت الضربة القاصمة التى وجهت إلى مكانته، قرار إسرائيل بالقيام بتوسيع المستوطنات اليهودية فى سيناء، وإنشاء ٢٣ مستوطنة فى منطقة رفح، وأعلن شارون حينها "إن هذا من المهم أن يفعل، قبل أن تبدأ اللجان الإسرائيلية ـ المصرية العمل". وفى نفس الوقت تقرر إنشاء ثلاث مستوطنات فى الضفة الغربية.

الفلسطينيون خارج الإطار

انتقد فانس وفريقه تصرفات إسرائيل واعتبرها أدت إلى "الإضرار بمبادرة السادات[٤٠]". لكن فى هذا الوقت أخذ زمام المبادرة من فانس، المحاط بما يسمى

"المستعربين" الأمريكيين، برزجينسكى الذى دفع به إلى صدارة المشهد، حيث التقاه كارتر بعد عودته من منطقة الشرق الأوسط يوم ٢٠ يناير ١٩٧٨، وأصر برزجينسكى مستشار الأمن القومى على ضرورة مشاركة الرئيس الأمريكى مباشرة فى المفاوضات الإسرائيلية ـ المصرية، واقترح برزجينسكى تنظيم لقاء بين كارتر وبيجين والسادات فى كامب ديفيد، وحسب رأيه هذا للتحايل، بل "للضغط بأقصى درجة" على الأطراف، وإعطاء السادات "ورقة توت" وإخضاعه لوثيقة اتفاق منفرد "إطار سلام فى الشرق الأوسط"، استخدم برزجينسكى تعبير "ورقة توت" بنفسه، والذى كان يفهم من البداية أن مثل هذه الوثيقة للإيحاء بأن اتفاق مصر وإسرائيل لا يعتبر اتفاقا منفصلا، لا أكثر(٤١).

استمرت مفاوضات ثنائية وثلاثية طوال ربيع وصيف عام ١٩٧٨، بهدف أساسى هو إنشاء معادلة تسوية للضفة الغربية وغزة، يمكن أن ترضى إسرائيل، ولا تجعل السادات يمتعض. ولو حللنا باهتمام مذكرات كارتر وفانس وبرزجينسكى وديان ووايزمان، سنجد أن الولايات المتحدة عمليا كانت تحاول فقط أن تكبح جماح إسرائيل فيما يتعلق بإنشاء مستوطنات يهودية فى الأراضى المحتلة. لكن فى ظروف عدم ربط الولايات المتحدة هذا بالتوقف عن بناء مستوطنات، واتخذت قرار إعطاء إسرائيل ٧٥ طائرة إف ـ ١٦ وإف ـ ١٥ (للحق فى نفس الوقت قررت تقديم ٥٠ طائرة إف ـ ٥ لمصر، وهى لا تقارن بالطائرات التى قدمت لإسرائيل ـ المؤلف)، شعرت إسرائيل بأن يديها مطلقة حتى فى مسألة المستوطنات.

نتيجة هذا كتب فانس فى مذكراته".... على الرغم من الاتفاق الموقع بذلك، لم يجر تبادل الرسائل بين كارتر وبيجين حول حظر إقامة مستوطنات إسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة"، وكان السفير الإسرائيلى فى الولايات المتحدة دينيتس قد أبلغ نائب وزير الخارجية الأمريكى سونديرس، أن التأخير، فى إرسال الخطابات، حدث لأن بيجين يحرر خطابًا. هذا التحرير أدى إلى الموافقة على حظر بناء المستوطنات فقط فى أثناء

إجراء المفاوضات المصرية ـ الإسرائيلية للاتفاق، أى لمدة ثلاثة أشهر. لم يخف فانس احتجاجه على "التكييف الكامل" من بيجين للاتفاق المبدئى، ويختتم فانس بقوله "إلا أن هذا كان موقف بيجين، وهو رفض أن يتنازل عنه(٤٢)".

وهكذا كان "التنازل" الإسرائيلى ، الموافقة على سحب القوات من سيناء كان مرتبط بقوة "بالمرونة" التى أبداها السادات تجاه مسألة الضفة الغربية وغزة، حيث لم تسحب إسرائيل قواتها منهما بموافقة صامتة من الرئيس المصرى، الذى وضع توقيعه على "إطار السلام فى الشرق الأوسط".

فى ١٧ سبتمبر، وقع السادات وبيجين وكارتر على الوثيقتين فى احتفال فخم بالغرفة الشرقية فى البيت الأبيض، قبل هذا بيومين قدم وزير الخارجية المصرى محمد إبراهيم كامل وكبير المستشارين القانونيين نبيل العربى وكانا ضمن أعضاء الوفد المفاوض فى كامب ديفيد استقالتهما، وأعلن كامل أنه لا يريد المشاركة فى صفقة على حساب الفلسطينيين، وقبل السادات الاستقالة.

وفق كلمات وزير الدفاع الإسرائيلى السابق وايزمان "بمجرد توقيع الاتفاق (مع مصر ـ المؤلف) رفض بيجين أى تحرك فى عملية السلام" وأكد وايزمان عند ذلك تصور بيجين وأتباعه اتفاقية كامب ديفيد على أنها "وسيلة للإبقاء بشكل ما على إدارة إسرائيلية للضفة الغربية لنهر الأردن(٤٣)".

يتضح من الحديث عن كل هذه الأحداث من الذى فاز فى "اللعبة" التى بدأها السادات. فقد تبين أن تسوية المشكلة الفلسطينية مؤجل لعشرات السنين. بالإضافة لهذا، أصبح نفوذ منظمة التحرير فى قطاع غزة فى خطر حقيقى بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد. وفى لقاء فى دمشق يوم ٩ سبتمبر ١٩٧٩ قال أبومازن(٤٤) إن "الخطر الأكبر على منظمة التحرير الفلسطينية يعتبر قرار الاتفاق المصرى ـ الإسرائيلى المنفرد بإدارة غزة" وأكد "من الآن يوجد فى مصر ٦٠ ألف عامل وموظف فلسطينى من غزة، و١٠ ـ ١٢ ألف طالب يدرسون فى المؤسسات التعليمية، بالإضافة إلى حوالى ١٠

آلاف يحصلون على رواتب من مصادر مصرية وهم مقيمون فى غزة. منظمة التحرير فى غزة تعتمد فقط على الحاكم الذى يرفض ضم غزة لمصر أو الحكم المصرى للقطاع"

تحدث بصورة أوضح فى هذا الخصوص رئيس الوزراء الأردنى السابق زيد الرفاعى. وفى أثناء لقاء لى معه فى منزله يوم ٣٠ مارس ١٩٨١ سألنى "تريد، أن أتنبأ لك بتطور الأحداث؟" وبعد ذلك سمعت منه: "عندما يحل السادات مشكلته مع أرضه، سيستدير تجاه العرب ويقول، أنا الآن يمكننى أن أركز على حل المشاكل الأخرى، تعالوا لكى نحل المشاكل كلا على حدة، لنحل مشكلة غزة أو على سبيل المثال مرتفعات الجولان، أما العرب الذين كثيرا ما ينسون كل شىء، سوف يتراجعون عن سياسة عزل مصر".

اغتيل السادات يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١.

كنت أود أن يكون لدى القارئ تصور صحيح عن موقفى، كان من الممكن أن يكون توقيع اتفاق السلام المصرى ـ الإسرائيلى نفسه خطوة للأمام، لكن ما حدث أن السادات استسلم وتخلى عن المواقف التى كان من الممكن أن تؤدى إلى عدم انقطاع عملية التسوية، هذه حقيقة لا يمكن نفيها. وأدت قومية السادات المصرية، وانصياعه لشروط واشنطن إلى إضعاف المواقف التفاوضية له وللفلسطينيين وللسوريين كذلك. أما الأردن فيمكن حذفها من هذه القائمة، لأنه لا يوجد بينها وبين إسرائيل مشكلة على أراضٍ. وحتى الاتفاق مع إسرائيل لم يغير حدود هذه المملكة العربية القائمة فى ذلك الوقت.

الفصل الثانى عشر

لبنان فى قلب التناقض

أثارت الأحداث فى لبنان فى منتصف السبعينيات اهتمامًا خاصًا. ففى لبنان بالذات تركزت أكثر الأشكال الحادة والمكشوفة للعلاقات الداخلية اللبنانية ـ اللبنانية المعتمدة على كل من العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية والسورية ـ اللبنانية والفلسطينية ـ الإسرائيلية واللبنانية ـ الإسرائيلية.

كنت موجودا فى لبنان وسوريا فى أبريل ١٩٧٦. وخلال الفترة من يوليو إلى أغسطس ١٩٧٨، وفى الفترة من أغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٩ وفى مارس ١٩٨١ وفى مايو ١٩٨٣. طوال هذا الوقت كنت أعمل فى منظومة أكاديمية العلوم السوفييتية فى معهد العلاقات الدولية والاقتصاد العالمى ومعهد الاستشراق، وكنت فى مهمة علمية بتكليفات من اللجنة المركزية للحزب، والتى سأتحدث عنها لأنها كانت محصورة فى تطور الأوضاع المتشابكة فى المنطقة، لكن سأبدأ من تلك الأسباب التى أدت إلى أطالة الأزمة فى هذه الدولة العربية. وبدون وصف تقلبات هذه الأزمة ستكون صورة تاريخ الشرق الأوسط فى القرن العشرين وحتى بداية القرن الحادى والعشرين، كما أتصور، غير مكتملة.

دولة كثيرة الطبقات

السبب الأول. بعد "أيلول الأسود" ١٩٧٠، الذى انتهى بأن المنظمات الفلسطينية وحركات المقاومة الفلسطينية اضطرت إلى مغادرة الأردن، وتمركزت القوى الفلسطينية

الرئيسية فى لبنان. وإذا أخذنا فى الاعتبار أنه يوجد معسكرات لاجئين فلسطينيين منذ الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى، وأضيف إليهم لاجئون من الموجة الثانية بعد حرب ١٩٦٧، فإننا نلاحظ أن فى لبنان نشأت "كتلة حرجة" من الفلسطينيين حوالى ٦٠٠ ألف بالنسبة لعدد سكان الدولة القليل، ناهيك عن أن المنظمات الفلسطينية، وليس فقط فتح، ولكن "الصاعقة"، والجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية وغيرها، كان لهم تشكيلات مسلحة فى لبنان.

السبب الثانى، لبنان دولة متعددة الطوائف، يتكون سكانه من المسيحيين ـ الموارنة [٤٥] والكاثوليك، والأرثوذكس والمسلمين الشيعة والسنة والدروز[٤٦]، وبناء الدولة فى لبنان على أساس ربط دائم لأعلى المناصب بالموارنة، الرئيس، والقائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس البنك المركزى، وهو ما استدعى عدم رضا الجزء المسلم من السكان، الذين فاق عددهم فى الوقت الحالى عدد المسيحيين.

السبب الثالث، التناقض، الذى تزايد وبشكل أساسى بين الموارنة والشيعة، تزايد نتيجة أن "الشارع المسلم" كان يؤيد منظمة التحرير الفلسطينية، والجزء المسيحى من السكان وخاصة الموارنة، كانوا يخشون من أن يهدم الوجود الدائم للفلسطينيين فى لبنان، تماما، الطابع الطائفى للدولة، التى من الممكن أن يسيطر عليها المسلمون.

لم يكن كل شيء على ما يرام فى المعسكرين، سواء المسيحى أو الإسلامى، حيث كانت تتغير توازنات القوى بشكل دائم، وكان التناقض بين مجموعات منفصلة يؤدى أحيانا إلى القتل والصدام المسلح. كانت خصوصية الوضع اللبنانى تنحصر فى أن أغلبية الأحزاب اللبنانية باستثناء القليل جدا منها، من بينها الحزب الشيوعى اللبنانى مبنية على أساس طائفى، والأحزاب الكبيرة منها كانت تمتلك تشكيلات مسلحة.

السبب الرابع. أصبحت الحدود الممتدة لمائة كيلومتر بين إسرائيل ولبنان، فى منتصف السبعينيات، هى الأكثر توترا، فقد كان الفلسطينيون يتسللون عبرها، بالإضافة إلى إطلاق النار عبر الحدود على المناطق السكنية فى الجليل الشمالى. كان التسلل يتم من لبنان ومن البحر، فكانت إسرائيل تقوم بعمليات قمع عنيفة، ولهذا الغرض دخلت إلى

الأراضى اللبنانية. وأصبح واضحا أن فى إسرائيل يشتد المزاج الداعى "لحرب كبيرة" بهدف القضاء على حركة المقاومة الفلسطينية على الأراضى اللبنانية.

السبب الخامس. كانت العلاقات السورية ـ اللبنانية لها أهمية خاصة. وهنا سأسمح لنفسى بالتعمق فى تاريخ هذه العلاقات، الذى بدونه، كما أتصور، لا يمكن فهم هذه العلاقة. كان لبنان فى عصر الإمبراطورية العثمانية يتمتع بنوع من الحكم الذاتى (لبنان الجبلى كان يسكنة أغلبية من المسيحيين الموارنة ـ المؤلف) ضمن سوريا، لكن بعد انتصار دول الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى، مرت الأراضى السورية الحالية ولبنان عبر عدة مراحل تحت الإدارة الفرنسية، استيلاء فرنسا بعد نهاية الحرب العالمية على دمشق (المناطق الداخلية السورية كانت تحت سلطة الأمير فيصل، نجل شريف مكة حسين الهاشمى، الذى أعلن نفسه ملكا على الحجاز ـ المؤلف) وإنشاء المندوب السامى الفرنسى فى بيروت لبنان العظيم الذى كان يضم بالإضافة لبيروت كلا من طرابلس وصور ووادى البقاع، وإعطاء عصبة الأمم لفرنسا تفويضاً لإدارة سوريا ولبنان. استقلت سوريا عام ١٩٤١، وبعد ذلك لبنان استقل عام ١٩٤٣، فى البداية كان استقلالاً شكليا، ثم أصبح واقعيا بعد خروج القوات الفرنسية. تطور تاريخ العلاقات السورية ـ اللبنانية، عبر قرب الدولتين وفى نفس الوقت اختلاط ذلك بالتناقضات الحادة.

فيما يتعلق بالدول العربية الأخرى وبالدرجة الأولى العراق والعربية السعودية ومصر، فإنهم كانوا ينظرون إلى الأحداث فى لبنان فى ذلك الوقت من زاوية يحكمها سعيهم لإضعاف سوريا.

فى تصورى أن الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة كان من مصلحتهما استقرار الأوضاع فى لبنان، إلا أنه مع هذا، كان التعاطف والأهداف عند هذه القوة العظمى أو تلك مختلفًا. لم يكن الاتحاد السوفييتى يريد إضعاف الحركات الفلسطينية، بينما سعت الولايات المتحدة لهذا بالتحديد، لم يكن الاتحاد السوفييتى يريد إضعاف موقف الحليف الرئيسى له فى الشرق الأوسط فى السبعينيات وهى سوريا، بينما كانت الولايات المتحدة تسعى لترويض سوريا.

هذه كانت خلفية الصدامات التى بدأت فى لبنان. ففى أبريل ١٩٧٥ اغتيل الحراس الشخصيين لبيير الجميل زعيم حزب "الكتائب"، وردا على ذلك قامت الميليشيات المسلحة للكتائب بإطلاق النار على حافلة كان يستقلها فلسطينيون. وهذه كانت بداية الحرب الأهلية.

كانت قوى اليمين المسيحية مكونة من حزب "الكتائب" وجناحه المسلح "الميليشيات" وميليشيات عشيرة فرنجية وفرقة "النمور" التى أنشأها الحزب القومى الليبرالى بقيادة شمعون، مدعومين من مجموعات مسلحة قليلة العدد من أحزاب اليمين المسيحى الأخرى، والجميع اتحدوا فيما عرف بالجبهة اللبنانية.

على الجانب الآخر المسلمون وقوى اليسار ممثلين بالدروز وفرق الحزب الاشتراكى التقدمى بزعامة جنبلاط وفرق حزب المحرومين الشيعى (تم تغيير الاسم إلى حركة "أمل" فى عام ١٩٧٨)، ومقاتلو حزب البعث العربى الاشتراكى، والتشكيلات المسلحة للحزب الشيوعى اللبنانى. كان يدعمهم الناصريون من طرابلس وصيدا، والمنظمة السنية "المرابطون". كل هؤلاء شكلوا تكتل القوى القومية - الوطنية، ويتزعمه واقعيا زعيم الدروز كمال جنبلاط، وكان يقف إلى جانب القوى الإسلامية واليسارية بالطبع حركة المقاومة الفلسطينية، مخالفة بذلك اتفاق القاهرة الذى وقع عام ١٩٦٩ بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية، والذى ينص على عدم تدخل الفلسطينيين فى الشئون الداخلية للبنان.

كانت المعارك تجرى بنجاحات متقطعة سواء لهذا الطرف أو ذاك ، لن أطرح هنا كل تقلبات الحرب الأهلية، لكنى سأتوقف عند تلك المقاطع التى تظهر تعامل الاتحاد السوفييتى مع هذه الحرب، ومع التغيرات الدائمة فى موازين القوى داخل اللبنانيين المشاركين فى الحرب وسياسة سوريا المتعددة الأوجه. لعب شمعون القابع خارج بيروت الدور الأساسى فى المعسكر المسيحى، استخدم الظروف المواتية وقرر تدمير منظمة التحرير الفلسطينية، وإزاحة عرفات والمحيطين به عن المسرح السياسى، ولكى يمنع الاتحاد السوفييتى هذا، قام بجهود وساطة، شملت عرفات ودمشق، وكان من الضرورى لقاء شمعون، لكن الأمر كان صعبا بسبب اندلاع المعارك فى الشوارع

المؤدية إلى خارج المدينة، كما أنه كان ممنوعا على دبلوماسيينا الكبار "إظهار العلم". فى مثل هذه الظروف كلفت أنا بمهمة لقاء شمعون فى ديسمبر ١٩٧٥، وكنت آنذاك أشغل منصب نائب مدير معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية. تنفيذا للمهمة أبلغت شمعون أن الاتحاد السوفييتى غير عازم على إشعال الموقف فى لبنان بدعمه لأى طرف فى النزاع الحالى، نحن نطالب بوقف نزيف الدم. وهذه كانت أول إشارة تصل من جانبنا، مباشرة إلى زعيم المسيحيين، فى ذلك الوقت كان شمعون.

لم يمر الأمر هكذا دون مغامرة، حيث انطلقنا مع سيارة حراسة، كان يقودها أحد رجال المخابرات ف. ب. زايتسوف، فيما بعد أصبح جنرالاً، ورقى لأعلى المناصب فى أفغانستان ويوغسلافيا. لقد كنا محظوظين، حيث كان الهدوء يسود، ولم يكن هناك إطلاق نار واستطعنا عبور "خط الجبهة" بسهولة. لكن فى أثناء جلوسنا، اتصلوا بشمعون، فتغير وجهه، عندما عرف أن صداما مسلحا اندلع بقوة، حيث قامت الكتائب بقتل عشرات من المسلمين فى ميناء بيروت، ردا على مقتل عدد من أتباعهم فى الجبل. هذا اليوم سمى "السبت الدامى". فى أثناء عودتنا إلى السفارة، تعرضت سيارة الحراسة لإطلاق نار، وكان فيها شخصان، أحدهما روبرت ماتيروسيان، أصيب إصابة بالغة، وكان حظ زايتسوف جيدا، حيث اخترقت الرصاصة العجلة الخلفية للسيارة، وخدشت ظهره فقط.

دخول القوات السورية

كان بتأييد من الولايات المتحدة

تصدى السوريون فى البداية لمهمة المصالحة، لكنها لم تنجح، لأن القوى القومية ـ الوطنية، افترضت أنها كان من الممكن أن تحصل على مكاسب أكثر بالقوة، وتقدمت بمطالب خارجة عن حدود التوافق المقترح من سوريا. فى هذه الظروف وفى أبريل ١٩٧٦

دخلت لبنان وحدات من القوات السورية، وفى ١ يونيو بدأ التدخل والتحرك الواسع للقوات السورية فى الأراضى اللبنانية. قدمت القوات السورية فى هذه المرحلة الدعم لليمين المسيحى، فاللحظة كانت بالفعل حرجة، وكما قال لى كمال جنبلاط يوم ١٧ أبريل ١٩٧٦"..... لو بقيت سوريا على الحياد فقط، لاستولينا على السلطة خلال ثلاثة أشهر".

اضطرت دمشق، فى عام ٢٠٠٥، لسحب قواتها من لبنان، بعد مصرع رئيس الوزراء رفيق الحريرى، بضغط من الولايات المتحدة بالدرجة الأولى. ولذلك وبالتحديد فى الوقت الحاضر من المهم أن نتصور بالضبط كيف تدخلت القوات السورية فى لبنان. طلب تدخل القوات السورية جاء من الرئيس اللبنانى، كما دعت لذلك الأحزاب المسيحية، التى اتضح أنها فى وضع صعب للغاية، وفى حاجة بالفعل للتدخل السورى. لم تكن القوى الوطنية ـ القومية ضد دخول القوات السورية، على أى حال لم يعلنوا أنهم ضد. لكن كيف كان موقف الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة حينها؟.

لم يتم إخطار الاتحاد السوفييتى بنوايا السوريين قبل التدخل. ولم يبلغوا فى سوريا كوسيجين، الذى كان فى زيارة لسوريا، لا الأسد ولا المقربين منه أى شىء بهذا الخصوص. كان كوسيجين فى جولة داخل سوريا، عندما أخبره نائب رئيس قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية السوفييتية و. أ. جرينيفسكى على وجه السرعة من دمشق بهذه الأخبار. المهم هنا رد فعل كوسيجين. قال كوسيجين" كل هذه الحكاية عن دخول القوات تضع الاتحاد السوفييتى وأنا شخصيا فى موقف حرج، وأى شىء سأفعله بهذا الخصوص سيكون إما سيئًا أو سيئًا جدا، إذا قلت علنا إن حلفاءنا السوريين لم يتشاوروا معنا فلن يصدقنا أحد هذا أولاً، وثانيا سيسألون، أى قوة تقود فى التحالف، الاتحاد السوفييتى أم سوريا؟ المحصلة أن الذيل هو الذى يقود الكلب، وهذا سيئ جدا. والأسوأ (مازال الحديث لكوسيجين ــ المترجم) لو أدنت التدخل، فهذا سيكون بمثابة سكب الزيت على نار الحرب الأهلية فى لبنان، ومن الممكن أن يدفع إسرائيل والأمريكيين لأن يتدخلا بقواتهما. يجب ألا نصرح لا بالإدانة ولا بتأييد التدخل

السورى، فهذا سيجعل الروس الساخنة توسع النزاع وتجر إسرائيل إليه. حينها ماذا نفعل، نتدخل فى نزاعهم؟ يبقى شىء واحد، مجرد التدخل شىء سيئ والصمت كذلك، على الرغم من أن الجميع سيعتقد أن هذا العمل تم بصمت الموافقة منا، كما لو أن وجودى فى سوريا فى هذه الأيام لم يكن عبثا(٤٧)".

حاول سفير الاتحاد السوفييتى فى دمشق إ.أ. موختدينوف أن يخفف من غضب كوسيجين بأن يزعم "أن السوريين كانوا يدركون أن الاتحاد السوفييتى لن يؤيد هذه الخطوة، وهذا من الممكن أن يفسد مباحثات الرفيق الأسد مع كوسيجين، الذى تكن له القيادة السورية عظيم الاحترام". أما حقيقة أن دخول القوات السورية للبنان تم فى أثناء زيارة رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى" فهذا بالتحديد يؤكد حرص سوريا لأن تظهر للجميع أن العلاقة مع الاتحاد السوفييتى لا تشوبها شائبة". كان من الواضح أن هذه المبررات لم ترض كوسيجين، الذى سئم أن يلعب الاتحاد السوفييتى دور"المنساق" خلف شركائه فى الشرق الأوسط، الذين كانوا دائما واثقين من أن موسكو تحت ضغط الظروف ستوافق فى نهاية الأمر على أى أعمال لم يتم التنسيق معها فيها. وهذا ما حدث هذه المرة. أيد الاتحاد السوفييتى دخول القوات السورية للبنان بعد حدوثه، على أمل أن يدعم هذا التدخل استقرار الوضع فى هذا البلد.

وكانت الولايات المتحدة، كما اتضح، هى مصدر القرار السورى بدخول القوات المسلحة للبنان. فقد ذكر حافظ الأسد فى أحد لقاءاته مع القادة الفلسطينيين، وفق كلام نايف حواتمة إن حافظ الأسد ناقش هذه الفكرة مع السفير الأمريكى فى دمشق، وأخطرته الولايات المتحدة بموافقتها على دخول القوات السورية إلى لبنان، لكن السفير الأمريكى طلب، كما روى الأسد للفلسطينيين، عدم دخول وحدات من الجيش النظامى.

وتحدث معى عن دور الولايات المتحدة كذلك عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ياسر عبد ربه"... طلب السوريون من الملك حسين إقناع الأمريكيين، لكى يدعموا أو على الأقل لا يمنعوا سوريا من دخول قواتها للبنان". كانت دمشق تريد"....

أن تمسك بيدها ورقة مهمة لتعزيز دورها بشكل حاد، ولهذا فإن عليها السيطرة على لبنان وحركات المقاومة الفلسطينية". فيما بعد، وبعد دخول الجيش السورى، وحسب رواية كمال جنبلاط، طلب المبعوث الأمريكى براون منه أن يقوم بدور الوسيط بين اليساريين والسوريين، وأكد أن "هناك اتفاقًا فى التوجه العام بين دمشق وواشنطن".

غير أنه فى ذلك الوقت ظهرت خلافات بين الولايات المتحدة وسوريا. فقد اعتقد الأمريكيون أن التدخل العسكرى السورى فقط لن يكون مؤثرا لأسباب كثيرة جذورها عميقة فى العلاقات اللبنانية - السورية، واقترحوا عملاً عسكريًا عربيًا مشتركًا، وكانوا يعنون أن يكون ٨٠٪ من القوات العربية، سورية. أيد الاقتراح الأمريكى مصر والعربية السعودية والعراق، ورأوا فيه طريقًا لإضعاف وضع سوريا فى لبنان. فيما يتعلق بكمال جنبلاط، فإنه لم يوافق على فكرة قوات عربية مشتركة، وأصر على استخدام قوات مختلطة من اللبنانيين والفلسطينيين، لتجنب الفوضى فى البلد.

وأجريت لقاءات مع كل من نايف حواتمة وياسر عبد ربه وكمال جنبلاط فى بيروت فى شهر أبريل ١٩٧٦. وكل منهم دعا إلى تقوية الدور السوفييتى، لحل الأزمة الداخلية اللبنانية، التى أصبحت مصدر استقطاب لقوى خارجية، تزايد مع الوقت بدرجة كبيرة. لكن كيف سينظر المسيحيون الموارنة لتنشيط دور الاتحاد السوفييتى؟ ولأى درجة وصل عداؤهم للمنظمات الفلسطينية؟ ولأى درجة تقاربوا، من ناحية مع سوريا ومن الأخرى مع إسرائيل؟ هذان السؤالان وغيرهما ظلا بلا جواب. وبالتحديد فى هذه الظروف ولدت فكرة لقاء مع بيير الجميل زعيم الحزب المارونى "الكتائب".

فى حين أن اللقاء مع الرئيس فرنجية فى هذه الظروف كان أقل أهمية، فقد طالبت القوى الإسلامية والقومية - الوطنية باستقالته، وعلى الرغم من رفضه تنفيذ هذا المطلب، فإن الانتخابات كان من المفترض أن تجرى فى مايو، وكان كل من يتابع تطور الأحداث باهتمام يدرك أن فرنجية لن يبقى فى مقعد الرئاسة، بالإضافة إلى أن فترة رئاسته الدستورية انتهت فى شهر سبتمبر. وكان من الطبيعى الاهتمام الكبير

باستيضاح مواقف الجانب المسيحي حول كل المشاكل التي ذكرت من قبل، وهو الأمر الذي لم يكن دون فائدة لتحديد توجهات الاتحاد السوفييتي في الموقف اللبناني المعقد للغاية، والذي استدعى اللقاء مع الزعيم الواقعي للموارنة بيير الجميل.

عقيد في الجيش اللبناني:

سأقود المروحية بنفسي.

قبل اللقاء قمت بالتعرف على حياة بيير الجميل من خلال ما هو متاح من وثائق وما هو منشور عن مشوار حياته. في شبابه كان رياضيا، حتى إنه شارك في دورة الألعاب الأوليمبية عام ١٩٣٦، والتي أقيمت في برلين. وهناك لم يهتم فقط بالرياضة، وإنما استحوذ على اهتمامه الشكل التنظيمي وطرق الفاشية. في نفس ذلك العام ١٩٣٦، لأول مرة تم إنشاء "ميليشيا"، وأصبحت جزءًا من حزب "الكتائب"، وهو عبارة عن تشكيل شبابي ماروني نصف عسكري وليس مجرد حركة سياسية فقط. تعاونت "الميليشيا" مع الفرنسيين تعاونا وثيقا، لكن هذا لم يمنعهم من المطالبة بالاستقلال، مما أدى إلى حظرهم. لكن بعد استقلال لبنان عادت "الميليشيا" من جديد وحصلت على الشرعية، وفي هذه الظروف الجديدة طورت علاقات متينة مع فرنسا.

وحقق حزب "الكتائب" نتائج لا بأس بها في الانتخابات البرلمانية، نتيجة لهذا شغل بيير الجميل عدة مناصب وزارية في الحكومة عدة مرات. وعند بداية الحرب الأهلية أصبحت "الميليشيات المسلحة" هي الجبهة اللبنانية الأساسية، التي توحد التشكيلات المسلحة للأحزاب اللبنانية المسيحية. كان بيير الجميل يصر على الحفاظ على النظام الطائفي في لبنان، في الشكل الذي نشأ عليه عندما كان المسيحيون أغلبية، وعلى رفض عروبة لبنان "نحن لسنا عربًا، نحن فينيقيون" ويفضل التعاون الوثيق مع الدول الغربية، ولم يكن يقبل على الإطلاق الوجود الفلسطيني في لبنان. كانت هذه رؤية بيير

الجميل من الناحية الاستراتيجية. لكن هل كان لديه خطوات تكتيكية من الممكن أن تستخدم لاستقرار الوضع في البلاد؟.

كان بيير الجميل موجودا في مقر قيادة الكتائب في الأشرفية (بيروت الشرقية ـ المؤلف)، خلف الخط الفاصل بين القوى، معرضا لإطلاق النار من جانبين، والوصول إلى هناك في شوارع بيروت كان ببساطة غير ممكن، اقترح قادة الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، الذين تشاورت معهم أن يوصلونا مع فلاديمير جوكايف وهو موظف في السفارة، وحينها كان يعمل مترجما، فيما بعد ترقى وأصبح دبلوماسيًا ممتازًا (الجميل كان يتحدث بالفرنسية، وأنا للأسف لا أعرف الفرنسية ـ المؤلف). ذهبنا إلى قاعدة للجيش اللبناني غرب بيروت، ومن هناك بواسطة مروحية كنا نستطيع أن نهبط بعد الضاحية الشرقية للمدينة. لم يحضر أحد من السفارة يوم ١٧ أبريل في الوقت المحدد، وقررنا أن نذهب إلى القاعدة بأنفسنا. وهناك اصطحبونا بود شديد إلى قائد القاعدة وهو عقيد في الجيش اللبناني، لم يخطروه مسبقا بهدف زيارتنا، لكنه بمجرد أن عرف أن هناك اتفاقًا على لقاء مع الجميل قال: "أنا سأقود المروحية بنفسي، وأضاف أنا ماروني وعندي رغبة شديدة في أن يكون للاتحاد السوفييتي دور، ليس فقط مع المسلمين". توضيح صغير، انضم إلينا كاردينال وصل من روما، وجاء مع خادمه بطائرة أيضا للجميل، كان يعبث بمسبحته، أخذ نفسا عميقا مسموعا، عندما كنا نشاهد من كوة المروحية حريقا ناتجا عن إطلاق رصاص. كانت تنتظرنا سيارات، وكان يجلس إلى جواري عضو المكتب السياسي لحزب "الكتائب" كريم باقرادوني. بعد ذلك انطلقنا عبر الشوارع الخاوية، ولم يقابلنا سوى دوريات ميليشيات الكتائب. الحوائط كان عليها ملصقات عليها صور القتلى والأشخاص المفقودين.

والآن مما سجلته لعدة ساعات من الحديث مع الزعيم الماروني قال الجميل: "نحن لا نريد أن نكون أعداء للاتحاد السوفييتي، لكن لبنان يجب أن يكون على علاقة صداقة بالدرجة الأولى مع الولايات المتحدة، ولو حتى لأن مليوني لبناني يعيشون هناك". من

هذا الجزء من اللقاء خرجت منه بنتيجة (سجلتها ـ المؤلف): الكتائبيون لا يريدون أن يدخلوا معنا فى مواجهة، لكنهم بشكل محدد جدا يوجهون سياستهم للتقارب مع الولايات المتحدة. وهنا فى الغالب، لا توجد إمكانية للمناورة.

ولم يكن موقف الجميل من الفلسطينيين أقل تخييبا للآمال، فى البداية "نحن لا نستطيع أن نضحى باستقلالنا من أجل حرب العصابات التى يشنها الفلسطينيون" وبدا تصريح الجميل هذا وكأنه طبيعى، ولكنه أضاف: "نعم، وبعد التسوية فى لبنان ستبقى الكتائب هى القوة التى ستقف ضد الوجود الفلسطينى فى البلاد، الكتائب لا يريدون العودة إلى الوضع الذى تكون فيه فى لبنان حكومة لبنانية واحدة وخمس حكومات فلسطينية، جيش لبنانى واحد وخمسة جيوش فلسطينية".

وعلى أى حال فى مدخل زعيم الكتائب للمشكلة الفلسطينية كان من الممكن أن نشعر ببعض المساحة للتفاهم قال الجميل "وقعنا عدة مرات اتفاقيات مع عرفات، وعلى الرغم من عدم الالتزام بها، فهو أقرب إلينا من السياسيين الفلسطينيين الآخرين، وأعتقد أنه من الممكن أن نجد لغة مشتركة معه"، وفى إجاباته على أسئلتى، وسع الجميل موضوع "إمكانية الاتفاق مع عرفات"، وحسب كلامه، موقف "الكتائب" فيما يتعلق بالحركات الفلسطينية تغير فى الآونة الأخيرة: "إذ لم تؤيد الكتائب فى السابق، اتفاق القاهرة لعام ١٩٦٩، الذى يضع لوائح لإقامة الفرق الفلسطينية المسلحة فى لبنان، فإنها الآن على استعداد لتأييده، لكن فقط فى حالة تنفيذ الفلسطينيين له". عند هذا لاحظ باقرادونى أن عرفات اقترح القيام بمبادرة للوساطة، لتنظيم لقاء بين بيير الجميل وكمال جنبلاط، ولهذا الغرض فتح باقرادونى قناة للاتصال به.

وأعرب قائد "الكتائب" عن تأكيده على موافقته التامة على "مهمة سوريا" فى لبنان، وقال إن الكتائب فى البداية كانوا يخشون التدخل السورى، إلا أن "سوريا مدت لنا يدها"، ففى أثناء جلسة استمرت أربع ساعات مع الرئيس السورى حافظ الأسد بدمشق فى بداية ديسمبر ١٩٧٥ أدرك الجميل أن "الزعيم السورى إنسان شريف،

قبل هذا كانوا ينصحوننا، ماذا يجب أن نفعل فقط، لكن القوة الوحيدة التي ساعدتنا، هي سوريا". وركزت في تسجيلاتي بشكل خاص على كلماته عن استعداده "حل ميليشياته"، لو وجدت قوة لديها القدرة على الدفاع عنا".

انضم باقرادوني الذي كان يتصرف في أثناء اللقاء بكامل الحرية والثقة قائلاً "إن لدى الجناح العسكري للكتائب اتصالاً دائمًا بدمشق، يسمح لهم بتنسيق مواقفهم مع السوريين". وفي أثناء عودتنا، وفي الطريق إلى الطائرة المروحية، روى لي باقرادوني في السيارة أحد الأسرار، عن الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين سوريا و"الكتائب"، والذي ينص على أن الرئيس اللبناني الذي سينتخب خلال الفترة القصيرة القادمة، يجب أن يتوجه للسوريين باقتراح توقيع اتفاق أمني، لأن هذا سيعطي وجود القوات السورية في لبنان الأساس الشرعي المطلوب، وحسب كلام باقرادوني، قيادة الكتائب تفضل ألا يقوم بهذا فرنجية، لأنه شخصية ستخرج من المسرح السياسي، ومن الممكن أن يكون الاتفاق عرضة للتشكيك إذا وضع اسمه عليه.

النتيجة الرئيسية التي خرجت بها من زيارتي لمقر قيادة الجميل ينحصر في أنه يوجد مستقبل للتسوية في لبنان على الرغم من أنها ليست مؤكدة وأصبح من الواضح أن زعيم الكتائب لديه اتصال وثيق مع سوريا، ومن الممكن، بمساعدة سورية بحث التقارب مع عرفات. وكان هذا بلا شك ما يمكن أن ينهي الحرب الأهلية في لبنان، خاصة وأن اللقاء مع الجميل انتهى بهذه الكلمات "أكبر خدمة من الممكن أن يقدمها الاتحاد السوفييتي لهذا البلد التعيس، أن يساعد على إطفاء الحريق، وبعد ذلك سنكون منفتحين على أي نقاش".

آمال لا تتحقق

التقيت في اليوم التالي ١٨ أبريل بكمال جنبلاط ، ولم يكن لقائي به هو الأول، جنبلاط هو قائد الطائفة الدرزية في لبنان، ومؤسس وزعيم الحزب التقدمي الاشتراكي

اللبنانى، وكانوا يعرفونه جيدا فى الاتحاد السوفييتى. فقد تم منحه جائزة لينين الدولية عام ١٩٧٢ لدوره فى "دعم السلام بين الشعوب". كان جنبلاط بعيدا فى وجهة نظره عن الإيديولوجية الشيوعية، لكن علاقته بالاتحاد السوفييتى كانت جيدة، على الرغم من أنه لم يصل إلى ذلك مباشرة، وتوجد كتابات لكمال جنبلاط، لم ينتقد فيها الماركسية فقط، ولكن أيضا النظام السوفييتى الشمولى، الذى يقسم "الشعب إلى طبقات"، وكزعيم للدروز كان يرفض المادية، ويؤمن بالتحديد يؤمن ولم يتصنع، بأسبقية الروح. وكان قد حدثنى عن الفلسفة الهندوسية، التى تتطابق فى الكثير مع تعاليم الدروز. فقد كان شخصية واسعة الاطلاع، درس فى أعلى المؤسسات التعليمية اللبنانية والإنجليزية والفرنسية. وكان مظهر جنبلاط الخارجى يختلف بشدة عن القادة الآخرين للقوى اللبنانية الأخرى، المشاركين فى الحرب الأهلية فى لبنان، فقد كان طويل القامة، نحيف، وجهه يوحى بأنه مفكر روحى، يرتدى ملابس مدنية حديثة، ولا يحمل أى سلاح. كان يستمع إلى هذا الصوت المنخفض الضعيف الصادر من هذا الشخص مئات الآلاف من الدروز، وهم على استعداد لتنفيذ أى أمر منه. فى منتصف السبعينيات أصبح جنبلاط القائد المعترف به لتكتل الأحزاب الإسلامية واليسارية، فيما عرف "القوى القومية - الوطنية للبنان"، وكان مصير البلاد يعتمد على موقف جنبلاط.

فهمت من حديثى مع جنبلاط إلى أى درجة كان غير راض عن سياسة سوريا، وكما لو كان جنبلاط يفكر بصوت عال قال "نحن ليس لدينا أى ثقة فى سوريا، شعبنا مزاجه ضد السوريين، وغاضب من أعمال السوريين فى لبنان وأيضا العراق والعربية السعودية. غير الأمريكيون موقفهم، وبدأوا يمارسون الضغط على دمشق والرئيس اللبنانى فرنجية، وفرنسا أيضا ضد الأعمال السورية. اتضح أن السوريين غير مستعدين للاتفاق معنا (كان يقصد تكتل القوى القومية - الوطنية - المؤلف) حول من سيكون الرئيس اللبنانى".

جرى هذا الحديث مع كمال جنبلاط، فى الوقت الذى كانت فيه القوات السورية، الموجودة فى لبنان، مستمرة فى شغل مساحات أكبر من حديثه، كان واضحا أن جنبلاط رافض للسيناريو الذى سمعته من باقرادونى بشكل حاسم، والمتمثل فى أن

يلجأ رئيس لبنان إلى سوريا طالبا أن تعمل قواتها على فرض النظام فى البلاد، وبعد أن تتحرك سوريا إيجابيا، ستشترك سوريا فى إنشاء مؤسسات السلطة فى لبنان اعتمادا على وجودها العسكرى. كان جنبلاط يعرف هذا الاتفاق، ففى لبنان من الصعب الحفاظ على الأسرار.

بالإضافة لهذا، تذكر لقاءه الذى جرى منذ فترة قصيرة مع السفير السوفييتى فى لبنان سولداتوف "الذى غير وجهة نظرى" وقال جنبلاط بصراحته المعهودة: "تعرفون أنه حتى وقت قريب، كنت أعتقد أن تصرفات السوريين تتم بالتوافق مع الأمريكيين، وبلا شك مدعومة من الاتحاد السوفييتى. الآن بدأت أشك فى هذا، ومع هذا الشك يتنامى اهتمامى بكيفية أن يقوم الاتحاد السوفييتى بالمساعدة فى جعل علاقاتى مع سوريا طبيعية".

وكان من الممكن أن أفهم من الحديث مع الفلسطينيين، أنه فى القيادة السورية ليس الجميع على قلب رجل واحد فيما يتعلق بلبنان. فحسب رأى حواتمة، الذى التقى الرئيس السورى حافظ الأسد مع آخرين من أعضاء المكتب السياسى للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين "أنه لا يصر على توسيع الوجود العسكرى السورى فى لبنان، فى الوقت الذى يؤيد فيه وزير الدفاع الشهابى وجهة نظر أخرى"، وعندما أعد البيان الخاص بهذا اللقاء، أصر حواتمة على أن يحتوى البيان على انتقاد حاد لدور الولايات المتحدة. وهنا سأله الأسد: "تريدون جر سوريا للصدام مع الأمريكيين؟" وأجاب حواتمة، حسب كلامه: "نحن نريد أن يكون الطريق إلى المصيدة الأمريكية مغلقا أمام كل واحد منا".

فى ذلك الوقت كما قال لى حواتمة، ظهرت بوادر خلاف بين السوريين وعرفات، الذى كان يصر على "تعريب" النزاع. وأوضح حواتمة "أن هذا كان مرتبطًا باتصالاته بمصر والعراق والعربية السعودية حول القضية اللبنانية، على أى حال كان عرفات نفسه ضد توسيع الوجود العسكرى ـ السياسى السورى فى لبنان".

بذل الاتحاد السوفييتي جهودا لإحداث تقارب بين حافظ الأسد وكمال جنبلاط، والتخفيف من الأجواء المحتقنة بين حركة المقاومة الفلسطينية ودمشق، وتهدئة التوتر الإسلامي - المسيحي، ووقف الحرب الأهلية في لبنان. بينما كانت الأحداث تتطور في طريقها بشكل تلقائي. حيث بدأت سوريا في ١ يونيو ١٩٧٦ عملية دخول واسعة للبنان، وفي شهر سبتمبر وصل إلى كرسي الرئاسة في لبنان صنيعة سوريا إلياس سركيس. وفي شهر أكتوبر عقد مؤتمر في الرياض على مستوى زعماء كل من العربية السعودية ومصر وسوريا والكويت ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية، والذى اتخذ قرار "إعادة الوضع في لبنان إلى ما كان عليه عام ١٩٧٥، وإحياء الاتفاق بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وإنشاء "قوات ردع عربية"، مكونة من ٨٥٪ من القوات السورية الموجودة بالفعل في لبنان، والسماح لقوات الردع العربية بالعمل في كل لبنان حتى نهر الليطاني، لم تنص الوثيقة الصادرة عن المؤتمر رسميا على هذا التقييد، لكن المشاركين في المؤتمر واقعيا توصلوا إلى خلاصة تشير إلى أن الجزء الجنوبي من لبنان فيما وراء نهر الليطاني سيكون منطقة نفوذ إسرائيل، لم يتأخر الأمر كثيرا، وطبق على أرض الواقع. حيث تم إنشاء وتنظيم ما عرف بجيش جنوب لبنان، الذى سيطر على تلك المنطقة، بدعم مباشر من إسرائيل. إلا أن هذه الاتفاقيات لم تؤد إلى الاستقرار المنشود في البلاد، وفي مارس ١٩٧٧ قتل كمال جنبلاط.

سوريا تغير الجبهة

بدأت الصدامات بين الوحدات السورية والمجموعات المسلحة التابعة للجميل وشمعون في فبراير ١٩٧٨، من الممكن أن نعتبر أن هذا لم يكن مجرد صدفة، بل وصول سياسة دمشق الداعمة للمسيحيين في لبنان إلى نهايتها. وهذا له عدة أسباب واضحة، بعد مصرع كمال جنبلاط، الجانب الإسلامي في النزاع اللبناني الداخلي ضعف، وميزان القوى بدأ يميل لصالح تشكيلات قوى اليمين المسيحي، وبدأت تخرج منها تهديدات بتقسيم لبنان، هذا في نفس الوقت الذى شهدت فيه العلاقات بين

إسرائيل والموارنة تطورا سريعا. بالإضافة إلى أن إلياس سركيس، وعلى الرغم من أنه مدين لسوريا بوصوله لمنصب الرئيس، فإنه لم يكن تابعا لسوريا تماما مثل فرنجية. كما أن زيارة السادات للقدس قاربت بين عرفات والأسد، وفى معسكر اليمين المسيحى تصاعد الخلاف بين التابعين لفرنجية والمدعومين من القوات السورية والكتائب فى لبنان، بعد أن قتل طونى نجل فرنجية بوحشية. وظهرت بوادر خلاف فى تقييم الموقف فى لبنان بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وهو ما رصدته دمشق بوضوح. كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت سوريا تستدير فى اتجاه القوى القومية ـ الوطنية.

ما يميز هذه المرحلة أنه لم يحدث توتر فى العلاقات بين الولايات المتحدة وسوريا، وبمنطق الأشياء يجب ألا يحدث هذا، كانت الولايات المتحدة متعاطفة مع اليمين المسيحى، الذى أصبح هذه المرة هدفا سوريا، زد على ذلك أن القوى الفلسطينية المكروهة من الولايات المتحدة، تقاربت مع دمشق. كان نهج الولايات المتحدة هو السعى على الأقل لئلا يتضرر الاتفاق المنفرد بين مصر وإسرائيل، وعلى الأكثر استخدام اتصالاتها مع دمشق لإضعاف مقاومة سوريا والفلسطينيين للتقارب بين مصر وإسرائيل.

بحثت فى جلسات كثيرة فى أسباب تغير موقف سوريا، وأهداف السياسة الأمريكية، عندما كنت فى سوريا ولبنان، وفى لقاءات مع عاصم قنصوة قائد حزب البعث اللبنانى، وعضو القيادة القومية لحزب البعث العربى الاشتراكى السورى، والذى كان واحداً من أهم صنائع دمشق فى لبنان، وزهير محسن قائد المنظمة الفلسطينية التابعة لسوريا "الصاعقة" (يومى ١ و٢ أغسطس ١٩٧٨ ـ المؤلف)، تحدثا إلى فى صوت واحد عن مساعى دمشق لإنهاء مقاومة اليمين المسيحى. وأن دمشق أصرت على تحريك وحدات الجيش اللبنانى، التى دربها عسكريون سوريون، إلى منطقة البقاع، جنوب نهر الليطانى، بالقرب من الحدود مع إسرائيل، وكما قال قنصوة مثل هذه العملية"..... ستطهر جنوب البلاد من جيش جنوب لبنان، وهذا سيضعف بشكل حاد

اليمينيين المسيحيين، ويعزلهم عن إسرائيل". وكان قنصوة يعتقد أن دمشق تأمل فى نجاح هذه العملية، لأن "الموقفين السورى والأمريكى حول لبنان متطابقان فى كثير من الجوانب، الولايات المتحدة ضد تفجر الوضع، وأعلنت ذلك مباشرة لشمعون، كما أنها ضد أى صدام بين سوريا وإسرائيل، وهو الأمر الذى من الممكن أن يفشل مبادرة السادات". ولهذا كانت الولايات المتحدة تبحث عن أقل الضرر، إذن إلى جنوب لبنان "ما دامت لن تذهب القوات السورية بنفسها، دعوا الوحدات اللبنانية تذهب، حتى لو كانت مدربة بواسطة السوريين". وأكد قنصوة أن القيادة السورية تراهن على نجاح فكرتها من العملية، التى "ستضع حدا للنزاع بين الطوائف فى لبنان"، وفى الوقت الذى كان يحدثنى فيه قنصوة عن ذلك، وكما لو كان هذا تأكيداً لما يقول من كلام، طلبوا منه أن يخطرنى بأن السفارة الأمريكية وعدت الرئيس سركيس بالدعم إذا أعطى أوامره بإعادة تمركز وحدات الجيش اللبنانى فى جنوب البلاد، وأضاف قنصوة أن "الأسد يأمل فى أن تسيطر الولايات المتحدة على إسرائيل".

أما زهير محسن فلم يكن قاطعا لهذه الدرجة فى حديثه، فقد تحدث عن العملية التى خططت لها دمشق، ولكنه أشار إلى أن الولايات المتحدة حذرت السوريين من أنها لا تستطيع ضمان عدم تدخل إسرائيل، وأن الأسد مستعد لدفع الثمن على شكل ضربات جوية إسرائيلية، ولكنه يخشى أن تدخل إسرائيل قواتها عن طريق الحدود البرية"، محسن أكد كذلك على أن السوريين يحتاجون إلى "غطاء"، ويحتاجون إلى أمر للجيش اللبنانى من جانب الرئيس سركيس، وهو يرفض تماما حتى الآن الموافقة على القيام بالعملية. وأضاف محسن أنه من الممكن أن يبدأ اليمين المسيحى فى التدخل، ذلك أن إسرائيل أمدتهم بكميات كبيرة من الأسلحة، ويمنعهم عن القيام بضربة وقائية عدم تطابق مواقف الولايات المتحدة وإسرائيل.

والآن عن لقاء مع الرئيس سركيس جرى يوم ٣ أغسطس ١٩٧٨، حيث حضر لاصطحابى من السفارة ضابط من المخابرات اللبنانية، مررنا عبر شوارع الجزء الإسلامى الخالية من البشر بسرعة كبيرة، بينما كانت سيارة الحراسة ملاصقة لنا فى

الخلف. توقفنا فقط عند حاجز، لكنهم بدون كلام سمحوا لنا بالمرور بعد أن قدم ملازم نفسه لأشخاص مسلحين ينتمون لإحدى الفرق المسلحة التابعة لليمينيين المسيحيين. انطلقنا إلى خارج المدينة، واللقاء تم فى قصر الرئاسة.

هذا ما سجلته مما قال رئيس لبنان سركيس "أنا قبلت الرئاسة على أساس قرارات القمتين العربيتين اللتين عقدتا فى الرياض والقاهرة. وطبقا لهذه القرارات كان يجب أن أنزع سلاح الأطراف المتحاربة، بما فى ذلك الفلسطينيين، وأن أقوم بسن لوائح تحكم وجودهم فى لبنان ولهذا الغرض طالب لبنان "بقوات ردع عربية"، لكنهم لم يدخلوا إلى الجنوب وبالتالى لم يستطيعوا تنفيذ مهمتهم. الوضع تدهور بعد زيارة السادات للقدس، حيث أصبح الفلسطينيون والسوريون فى خندق واحد، والمسيحيون أصابهم الرعب الشديد، وبدأوا من جانبهم حملة معادية لسوريا، وصل الأمر لصدامات مسلحة، مستمرة منذ شهر فبراير، وأنا لا أسيطر على الوضع. وفى أثناء الحديث سمعنا صوت قذيفة مدفعية. فقال سركيس "لعلكم ترون كيف أعيش وأعمل هنا فى القصر الرئاسى".

بعد إطلاق القذيفة هذه، تحول إلى القسوة فى حديثه، وانتقل من نغمة الصوت الهادئة الحكيمة إلى ما هو أكثر حدة: "البعض يريد أن يفرض نظامًا عن طريق ضرب المسيحيين، لكن أنا لن أتغاضى عن هذا مهما ضربوا فى الطرف المسيحى، ليس من أجل هذا حصلت قوات الردع العربية على تفويضها".

والتقيت فى اليوم التالى للقائى بسركيس بنجل شمعون دانى فى بيروت الشرقية (الأشرفية - المؤلف). حيث مرقنا أنا وأحد موظفى سفارتنا ي. ن. بيرفيليوف بالسيارة من أمام المتحف فى المنطقة المحايدة، ومررنا بتلك الشوارع الخاوية، والتى أصبحت الآن الجزء المسيحى من العاصمة اللبنانية. طول الوقت فى أثناء سيرنا كان نضال نجم مندوب دانى الذى رافقنا يشير إلى البيوت المهدمة. المدفعية كانت تقصف الأحياء السكنية المسالمة، الجزء المسيحى من المدينة تضرر كما تضرر الجزء المسلم. التقينا

داني شمعون، وهو شاب متناسق، يرتدي سروالاً جينز، وحذاء عاليًا، كأنه كاوبوى حقيقى، ويجيد اللغة الإنجليزية بطلاقة. فى هذا اللقاء، والمقابلة التالية الذى جرت بعد عام، تحدث دانى عن محاولات وساطة لشمعون بين إسرائيل وياسر عرفات.

ولكى نفهم الموقف بشكل أفضل ركزنا على مسألتين، وضع معسكر اليمين المسيحى، ومدى واقعية الاتصالات بإسرائيل. وإليكم ما قاله دانى: "لقد كان اغتيال طونى فرنجية فى إهدين جريمة بشعة، فقد كان صديقى، قضت أسرتانا آخر عطلة أسبوعية معا، للأسف بعد الاغتيال تعرضت مناطق لمسيحيين مسالمين للقصف بالمدفعية، وللأسف منظمو اغتيال بشير الجميل (نجل بيير الجميل - المؤلف)، والمشاركون فى قتل ضباط ميليشات الكتائب، مازالوا يتنزهون بهدوء فى شوارع الأشرفية". وعند إجابته على سؤالى حول مدى ارتباط مجموعة شمعون بإسرائيل، قال دانى: "عندما كنا على وشك الإبادة، لم يأت لمساعدتنا لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفييتى ولا فرنسا، لكن فقط إسرائيل هى التى أتت لمساعدتنا. الحقيقة أننا توقفنا عن تدريب كوادرنا فى إسرائيل منذ عشرين شهرا، لكننا حافظنا على العلاقات، عندما كانت علاقاتنا ودية مع السوريين، أنا قلت هذا للأسد، حينها كان رد فعله سلبيا، أما فيما يخص نوعية علاقات الجميل بإسرائيل، فإننى لا أتحمل المسئولية نيابة عنهم".

وأكد دانى شمعون أن "العلاقة مع إسرائيل مشروطة بالوضع فى جنوب لبنان. ونحن لا نسيطر على قائد جيش جنوب لبنان حداد، لا نحن ولا الكتائب، ولكن يوجد معه بصفة دائمة ضابطان إسرائيليان، وهو فى أيديهما يسيطران عليه تماما". وقال دانى عند وداعه لنا، نحن معجبون جدا بموقف الاتحاد السوفييتى من بداية دخول القوات السورية. فقلت له، لكنكم دعوتموهم بأنفسكم وصفقتم لهم عندما كانوا يضربون أعداءكم، فأجاب دانى: لقد أخطأنا، ولم يخف شعوره المعادى لسوريا.

ركزت سوريا بشكل أساسى فى ذلك الوقت على إنشاء حلف بين فرنجية ورشيد كرامى، الزعيم السنى المعروف ورئيس الوزراء اللبنانى السابق، وكان قد أعد بيانًا عن

الهدف الأساسى للتحالف، وهو الحفاظ على وحدة لبنان والديموقراطية فى البلاد، وأكد البيان على دور سوريا الإيجابى، فى نشر الأمن لجميع الطوائف الدينية، وأدان البيان تلك القوى اللبنانية التى لها علاقات بإسرائيل، واحتوى على مطالب بإخراج ميليشيات اليمين المسيحى من بيروت الغربية. وأصبح معروفا أنه مع بيان بهذا المحتوى سيقوم وزير خارجية سوريا خدام بزيارة فرنجية فى ٨ أغسطس، وبعد عودته سيلتقى بالفلسطينيين.

فى هذه الأجواء قمت يومى ٩ ـ ١٠ أغسطس بزيارة لشمال لبنان عن طريق دمشق، حيث زرت إهدن وزغرتا وبقاع سافرين. التقيت فى إهدن مع فرنجية، الذى بدا مكتئبا، لكنه لم يكن ذليلاً، بسبب المصيبة التى ألمت به، كان إلى جواره حفيده، نجل طونى، والذى بقى على قيد الحياة بأعجوبة، لأنه فى أثناء الهجوم على والده كان مع جده. وبعد أن أعربت له عن تعازى الحارة. تحدث فرنجية بعبارات متقطعة، مقتضبة، وشعور كأنه يكتم ألمه "وصلت ميليشيات الكتائب بالسيارات، وكثيرون بواسطة تاكسى أجرة، وقاموا بتخريم جسد طونى وزوجته وابنته البالغة من العمر ثلاثة أعوام بالرصاص وجعلوهم مثل المصفاة، وبقروا بطن طونى بعد أن مات" أنا نفسى شعرت بالألم عندما استمعت إلى هذا الإنسان الذى قتله الحزن، جريمة القتل البشعة والسافلة والدموية هذه ارتكبها مسيحيون، كيف يمكن أن يكونوا مؤمنين بالرب؟ بالمناسبة كثيرا ما كانوا يتهمون السوريين بتنظيم وارتكاب الإرهاب الشخصى فى لبنان. أنا غير واثق من أن كل هذه الاتهامات بدون أساس، ولا أريد أن أبرئ أحداً، لكن القتل الوحشى لأسرة طونى، وبعد ذلك رشيد كرامى، ورئيسين لبنانيين مدينين لدمشق بانتخابهم، كل هذا القتل ليس من أفعال السوريين. من الممكن أن تنسب هذه الجرائم إلى المجموعات المختلفة لليمين المسيحى بوضوح شديد.

ويعتقد فرنجية أن الأحداث التراجيدية التى تحدث وراءها سعى إسرائيلى لتنويب الفلسطينيين فى لبنان، ولهذا من الضرورى لهم تقسيم الدولة إلى قسمين. أحدهما إسلامى علاقته جيدة بالفلسطينيين، وسيأوونهم فى دولتهم، وأضاف فرنجية "للأسف يوجد أشخاص فى لبنان أصبحوا ينفذون هذا المخطط"، ولا أستبعد أن يكون من بين

القادة الإسرائيليين فى النصف الثانى من السبعينيات من كان يحمل خطة لحل المشكلة الفلسطينية على حساب تسكين الفلسطينيين على الأراضى اللبنانية، لكن من الصعب، بل ليس من العدل، أن نتهم إسرائيل فقط بالمأساة اللبنانية.

فى الطريق إلى مقر قوات فرنجية، كنا نشاهد صبية يرتدون زيًا عسكريًا ومسلحين جيدا. ومن زغرتا على الطريق كانت هناك مأساة أخرى، مقر إقامة رشيد كرامى، على مدى ساعتين على الطريق ليلاً، لم أشاهد أى شىء يدعو للريبة، فقد كان الهدوء هو السائد. منطقة بقاع سافرين، حيث كان يوجد كرامى، إسلامية، فى حين منطقة إهدين مسيحية، لم يكن هناك توتر أو عداوة أو صدامات دموية بينهما، وخطرت على بالى فكرة، كان من الممكن أن يعيش جميع اللبنانيين هكذا. انعكس كذلك قدوم شهر رمضان، بعد الغروب كانوا يأكلون، وكل من كان يجلس على المقاعد مع كرامى تحت السماء المفتوحة وحول المائدة، وعددهم حوالى ٣٠ ـ ٤٠ شخصًا وصلوا إلى حالة سكينة. شخص واحد فقط كان يحمل بندقية آلية عند البوابة كان يفكرنا، بأن حربًا أهلية تدور رحاها فى البلاد. كان كرامى يتميز عن الآخرين بطريقة ملبسه، فقد كان يرتدى برنس بنى اللون، خرج لاستقبالنا، وتبادلنا القبلات، وكان من الواضح أنه سعيد بلقائنا.

أصبح واضحا من لقائى مع كرامى أن قبوله اقتراح رئاسة مؤسسة مع فرنجية، من شأنه أن يكون مدعاة للهدوء فى لبنان. وقال كرامى بما لا يدع مجالاً للشك أن "ارتباطه" بفرنجية سيكون مدعاة لتغيير هيئات دستورية فى هذه المرحلة فى لبنان، أو على الأقل تضيف إليها ولكن من "أعلى" وأنه "ليس لدى الرغبة فى أن أصبح رئيسا للوزراء مرة أخرى، وغير عازم على ذلك، وأعتقد أن وجودى فى مكانى الحالى أكثر فائدة لشعبى".

وزرت المخيم الفلسطينى باداون، القريب من طرابلس اللبنانية، وكتبت فى مفكرتى: "مشهد مُبكٍ، نقاط حراسة لمنظمات مختلفة، فتح، الصاعقة، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، الجميع يجلس وفى يده السلاح، إنهم لا ينتظرون هجوما من الخارج، بل من بعضهم بعضاً"!.

وعندما سافرت إلى لبنان لمرة تالية فى سبتمبر عام ١٩٧٩، وجدت أن الوضع لم يتغير كثيرا، وزرت الرئيس سركيس مرة أخرى، وقال لى مرة أخرى إن حالة الانفراجة بعض الشىء التى ترونها، هى ظاهرية وفقط على السطح، والانفجار من الممكن أن يحدث فى أى لحظة. وجنوب لبنان كان عبارة عن قذيفة قابلة للانفجار، وحداد الذى يسيطر على الشريط الحدودى مع إسرائيل لا ينفذ إلا أوامر الإسرائيليين، وبعد ذلك منطقة تسيطر عليها قوات الأمم المتحدة، ويتبعها كتيبة لبنانية. وفق معلومات حصل عليها من الأمم المتحدة، قال سركيس إن حوالى ٣٠٠ مقاتل فلسطينى وحوالى ٢٠٠٠ فلسطينى تسللوا إلى هذه المنطقة "حتى الآن، مؤقتا، بدون سلاح". من هنا يقومون بغارات بحرية، ويطلقون النار على الأراضى الإسرائيلية، "المثلث الفلسطينى" يحاصر كل تلك المنطقة.

وبعد أن سحبت العربية السعودية وحداتها من قوة الردع العربية، كان يجب إدخال الجيش اللبنانى إلى شرق البلاد. وحسب كلام سركيس، كان هذا هو البديل الوحيد لإعطاء لبنان بكامله تحت سيطرة ميليشيات الكتائب. لكن لم يتم إدخال الجيش اللبنانى للغرب أيضا، حيث تسيطر عليه القوى الإسلامية واليسارية، واعترضت على هذا ليس القوى القومية ـ الوطنية فقط ولكن سوريا أيضا. لن يسمحوا للجيش بالتحرك، فى مثل هذه الظروف اعتمد سركيس على "عمل القوات العربية المشتركة" (لاحظوا ليس السورية، ولكن القوات العربية المشتركة ـ المؤلف)، "لندعهم يعدون استراتيجية عامة، وإذا كانوا غير قادرين على مواجهة إسرائيل الآن، فعليهم أن يحاصروا الأفعال الفلسطينية التى تنطلق من الأراضى اللبنانية". وفى إجابته على سؤال، هل يعتقد أنه فى هذه الحالة سوف تتخلى إسرائيل عن فكرة احتلال الجنوب، وتتوقف عن قصف الأراضى اللبنانية، فأجاب سركيس مؤكدا بالإيجاب، و أنا لا أستبعد أن إجابة حاسمة مثل هذه لا يمكن أن يكون فيها مثل هذه الثقة إلا بعد تأكيد لهذا من جانب الولايات المتحدة، التى كان سركيس على اتصال دائم بممثليها.

وأكمل الصورة كريم باقرادوني: " يعتبر بشير الجميل هو الخطر الأكبر، فهو أقرب من جميع اللبنانيين إلى الإسرائيليين، وهو ينام ويحلم بخروج سوريا، والوسيلة عملية استفزاز لإحداث صدام بين السوريين والإسرائيليين، إذا خرج السوريون فإنه سيحاول ضرب منطقة فرنجية، وحلمه توحيد كل الأراضي المسيحية في لبنان من الشمال للجنوب بما في ذلك "منطقة حداد". وفي أولويات خطته أن يتقدم إلى ممثلي جيل الشباب من القيادات اللبنانية، أمين الجميل (شقيق بيير المؤلف)، وداني شمعون، ووليد جنبلاط، إذا وجدوا لغة مشتركة فيما بينهم فهذه ستكون نهاية بيير. لكن على أي حال يجب أن يبدأ الحوار بمباحثات اللبنانيين مع السوريين".

التقيت الرئيس سركيس مرة أخرى في مارس عام ١٩٨١، وكان الشعور بالتشاؤم مازال يسيطر عليه أكثر من المرة السابقة. تذكرت ما قاله لي عن رهانه على إحياء الجيش اللبناني من جديد، لكنه الآن لا يتحدث عن مثل هذه الآمال، وبرر بحسم تضامن القوى المسيحية، وقال إن الوجود السوري الآن ليس من الأهمية بمكان كما كان في السابق، فالقوات السورية غير موجودة في المناطق التي تسيطر عليها ميليشيات الكتائب، وعن سؤال لي حول أين المخرج من المأزق في لبنان، أجاب: فقط عندما تكون هناك تسوية شاملة، وعند إقامة دولة فلسطينية تخرج إليها مجموعات الفلسطينيين المسلحين من لبنان، واختتم سركيس اللقاء بكلمات: كفاني هذا، ستنتهي فترة رئاستي، وسأكتب مذكراتي".

لماذا تناولت هذه المرحلة من تطور الأوضاع في لبنان بهذه التفاصيل؟ لأنني أتصور أنه يتميز بعلاقات مصالح مستترة لقوى مختلفة، تتغير الارتباطات فيما بينها بصفة دائمة، وكبادرة لهذا دخول إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ وإنشاء منطقة خاصة حتى نهر الليطاني، والذي لم يكن من الممكن أن يحدث بدون علاقات إسرائيل المتنامية باليمين المسيحي في هذا البلد. وليس أقل أهمية، يمكن أن يكون، الوصف المفصل جدا لفهم تقلبات الحرب الإسرائيلية عام ٢٠٠٦ بصورة أفضل.

بذل الاتحاد السوفييتى جهودا كبيرة فى فترة الحرب الأهلية بهدف وقف إراقة الدماء فى لبنان، ومنع تقسيم هذا البلد إلى أجزاء، ووقف القضاء على المجموعات الفلسطينية. وفى نفس الوقت كان الاتحاد السوفييتى يشعر بالقلق، خوفا من أن تؤدى، الأحداث فى لبنان إلى صدام واسع بين إسرائيل وسوريا، هذا من ناحية والقلق من أن تؤدى إلى خسائر فى علاقات الاتحاد السوفييتى بسوريا أو منظمة التحرير الفلسطينية من ناحية أخرى. ومع ذلك لم تستطع موسكو أن تراهن على أى قوة داخل لبنان، هذه الخلاصة تنطبق كذلك على الحزب الشيوعى اللبنانى، على الرغم من رغبته فى أن يظهر "للرفاق السوفييت" أهميته، فهو لم يلعب دورًا حاسمًا فى ميزان القوى اللبنانية الداخلية، وخاصة أنه لم يرأس الجبهة القومية - الوطنية. ومع ذلك تعاون الحزب الشيوعى اللبنانى مع العراق بقوة، حيث كان العراق يقدم له دعما ماليا، وهو الأمر الذى لم يحظ على الإطلاق برضى موسكو. وكما أكد لى طارق عزيز فى لقاء معى عام ١٩٨١ "…. قالت لنا قيادة الشيوعيين اللبنانيين، إنها الوحيدة المستقلة عن الاتحاد السوفييتى من الأحزاب الشيوعية العربية".

ولم يستطع الاتحاد السوفييتى الاعتماد على سوريا فى سياسته تجاه لبنان، التى لم تكن كل أعمالها ونشاطها تتماشى مع التوجهات والمصالح السوفييتية، والتى بررتها موسكو، على الرغم من أن القيادة السورية كانت أقرب شريك للاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط.

حرب إسرائيل في لبنان عام ١٩٨٢

فى عام ١٩٨٢، انتصر داخل وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومى والمخابرات الأمريكية اتجاه أن يتم التركيز على لبنان فى الوقت الحالى. فقد اعتبر الرئيس ريجان الذى وصل للسلطة عام ١٩٨١ لبنان أرض "مصالح حيوية للولايات المتحدة"، على الرغم من أن الأحداث التى جرت فى لبنان لم تكن تمثل تهديدا لا سياسيا

ولا اقتصاديا ولا عسكريا لمصالح الولايات المتحدة. يمكن التوصل إلى نتيجة مفادها أن واشنطن كانت تنظر إلى الأحداث فى لبنان فى حزمة واحدة مع مساعيها، أولاً، ليس الحفاظ فقط على الاتفاق المصرى - الإسرائيلى الذى تم التوصل إليه بصعوبة، ولكن أيضا من الممكن استمرار سلسلة الاتفاقيات المنفردة مع لبنان والأردن، ثانيا، عدم إعطاء الأحداث اللبنانية فرصة لأن تتصاعد لحرب إسرائيلية - سورية مما يؤدى إلى عدم استقرار عام فى الشرق الأوسط. كانت الولايات المتحدة تخشى كذلك من أن تتحول العملية فى لبنان ضد منظمة التحرير الفلسطينية، فى حالة نجاحها الحاسم، أن تدعم هؤلاء الذين يريدون إسقاط نظام الملك حسين فى الأردن داخل القيادة الإسرائيلية و"حل" المشكلة الفلسطينية على حساب الضفة الشرقية لنهر الأردن، والولايات المتحدة كانت ضد هذا الحل، الذى تكون ضحيته الأردن. فيما يخص الأحداث الداخلية فى لبنان، فإن واشنطن، لم تستطع فهم أنه فى حالة انتصار أى طرف، سواء المسيحى أو المسلم، سيخلق تربة لتقوية الاتجاه المعادى للأمريكيين فى الدول الغربية ذات الأنظمة المحافظة، خاصة الدول المنتجة للنفط فى الخليج.

أعطى ريجان والمحيطون به، أهمية ليست بالقليلة، للاتجاه الدولى لاستعراض القوة والحسم الأمريكى فى لبنان، وعندما أعلن ريجان أن لبنان "يشغل وضعًا محوريًا، ودليل على القدرة الحقيقية التى تظهرتها الولايات المتحدة على مستوى العالم"، فإنه كما هو واضح تماما كان يعنى المواجهة مع الاتحاد السوفييتى.

لم تتطابق نظرة إسرائيل للأحداث اللبنانية مع درجات الأهداف التى حددتها الولايات المتحدة، فقد ركزت القيادة الإسرائيلية على تدمير القوة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وإخراجها من لبنان، وكانت إسرائيل تنطلق فى هذا من أن عملياتها فى لبنان يجب أن تضعف سوريا، ولم تستبعد توجيه ضربات مباشرة للقوات السورية فى لبنان، وإذا تطلب الأمر خارج حدوده. ويؤكد ترتيب الأهداف الأمريكية والإسرائيلية عدد من التصريحات والمذكرات والوقائع التى عرفت فيما بعد.

يوم ١٨ يناير ١٩٨٢ عقد اجتماع للعاملين فى وزارة الخارجية الأمريكية، تحدث فى أثنائه وزير الخارجية هيج وأعرب عن مخاوفه على مصير الاتفاقية المصرية ـ الإسرائيلية، بعد مقتل السادات، وبعد أسبوع من دخول القوات الإسرائيلية لبنان وفى مقابلة تليفزيونية يوم ١٣ يونيو أعلن هيج أن "كامب ديفيد لم تمت، وأستطيع أن آمل أن الأحداث المأساوية فى لبنان سوف تقدم إمكانيات جديدة لإحياء عملية السلام تلك".

قال الجنرال شارون فى مقابلة منشورة فى مجلة "تايم" بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٨٢: "كلما وجهنا ضربات أقوى، وسببنا خسائر أكبر للبنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية، أظهر عرب أكثر فى الضفة الغربية وقطاع غزة الاستعداد لأن يجروا معنا مفاوضات، ويقيموا معنا وجوداً مشتركا". وفى ٢٧ أغسطس عام ١٩٨٢، أعلن شارون بعد لقاء مع وزير الخارجية الأمريكى شولتز فى الولايات المتحدة، وأمام غابة من ميكروفونات المراسلين، "إسرائيل لم توافق قط ولن توافق على دولة فلسطينية ثانية..... الدولة الفلسطينية موجودة بالفعل .. الأردن تعتبر دولة فلسطينية".

وفى أغسطس ١٩٨٢، وأمام مجلس الشيوخ الأمريكى، تحدث نائب وزير الخارجية السابق وممثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة السابق جورج بول، أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ وقال: "الهجوم على لبنان، خدم هدف إسرائيل فى أنها بدون مقاومة استطاعت التحرك للاستيلاء على أراضٍ احتلتها. فى أثناء حديث لى مع الجنرال شارون فى إسرائيل، جعلنى أفهم بوضوح تام أن استراتيجيته البعيدة تنحصر فى أن يطرد الفلسطينيين من الضفة الغربية، والحفاظ فيها، كما قال شارون، على واحد من أصدقائى وعدد كاف من الأشخاص للعمل".

هل كان دخول إسرائيل لبنان فى ٦ يونيو ١٩٨٢، بالاتفاق مع الولايات المتحدة ؟، لا أعتقد أن الولايات المتحدة دفعت إسرائيل لهذا العمل، لكن هناك أسساً للاعتقاد بأن الولايات المتحدة لم ترفض رفضا قاطعا. فقد زار شارون واشنطن فى الأيام الأولى من يونيو، حيث أجرى عدداً من اللقاءات السرية مع قيادات المؤسسة العسكرية الأمريكية،

ومن الصعب تصديق أنه لم تخرج منه دون قصد ولو كلمة عن تلك العملية العسكرية، التى تم تنفيذها بعد عدة أيام من هذا اللقاء. ربما كان لدى الجانب الأمريكى بعض الشكوك، لكنها ليست رفضًا حاسمًا فيما يتعلق بالاستعداد لدخول لبنان، وكما كتب وليم كواندت: إن وزير الخارجية هيج عندما أخبره رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلى بمعلومات عن العملية التى يخططون لها قال: "ليس قبل انسحاب القوات من سيناء[٤٨]".

قرار دخول لبنان اتخذته تل أبيب، وحاولت الولايات المتحدة التهرب من العملية الإسرائيلية، فقط، عندما تم تنفيذها، ولم يمثل هذا عائقا حقيقيا لإسرائيل، التى عاثت فى لبنان دون أى وازع، معتبرة أن واشنطن ستضطر إلى تأييدها. وعندما تمت إقالة وزير الخارجية الأمريكى هيج، كتبت الصحافة عن مجموعة كاملة من الأسباب للإقالة، وكان من بينها أنه "تلاعب" مع الإسرائيليين، أو بمعنى أدق يمكن القول أن القيادة الإسرائيلية "تلاعبت" بالبيت الأبيض.

وقعت الولايات المتحدة فى وضع ليس سهلاً. يوم ٩ يونيو حاصرت القوات الإسرائيلية صيدا واقتربت من الدامور، ووصلت إلى بعد ١٥ كم من بيروت، وحاولت عزل القوات السورية المتمركزة فى القاع، وبدأت الصدام معها. فى ذلك اليوم استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو معترضة على قرار من مجلس الأمن طالب إسرائيل بوقف إطلاق النار فى غضون ست ساعات، وانسحاب القوات إلى الحدود الدولية المعترف بها للبنان، فى حين وافق على القرار الأربع عشرة دولة الأعضاء الآخرين فى مجلس الأمن.

واستخدمت الولايات المتحدة كذلك حق الفيتو يوم ٢٦ يونيو على مشروع قرار فرنسى، طالب بفصل القوات فى بيروت، وقد وافق عليه باقى أعضاء مجلس الأمن. فى ذلك الوقت كانت إسرائيل قد تمكنت من حصار غرب بيروت ، وقطعت طريق بيروت – دمشق على الأراضى اللبنانية، وبدأت فى قصف العاصمة اللبنانية، استعداد لاقتحام

بيروت. فى اليوم التالى بقيت الولايات المتحدة مع إسرائيل فى عزلة كاملة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث اتخذ قرار مدعوم من ١٢٧ دولة (مقابل دولتين ـ المؤلف)، طالب القرار بانسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان.

استمرت عملية اقتحام بيروت على الرغم من اقتراح عرفات إجراء مباحثات حول إخلاء مقاتليه من بيروت، لإنقاذ سكانها من الهلاك. أيدت فرنسا ومصر فصل القوات، ضمن عملية إخلاء للمقاتلين الفلسطينيين على أن ينسحب الجيش الإسرائيلى لمسافة ٥ كم عن بيروت، مع ربط كل هذا بالتحرك بتسوية شاملة للنزاع. لكن الحكومة الإسرائيلية اتخذت قراراً بعدم قبول المعادلة المقترحة.

بحثت الولايات المتحدة عن مخرج من الوضع الصعب بالنسبة لها. وفى يوم ٢٩ يوليو، لم يشارك ممثلها فى التصويت على قرار فى مجلس الأمن يدعو إسرائيل إلى رفع الحصار عن بيروت، وفى ٤ أغسطس امتنع مندوبها عن التصويت على قرار مجلس الأمن حول الوقف الفورى لوقف إطلاق النار وعودة إسرائيل إلى مواقعها قبل ١ أغسطس، مع التهديد بفرض عقوبات عليها. لكن القرارات لم تؤثر. وأعلنت إسرائيل فى خطاب للسكرتير العام للأمم المتحدة عن رفضها سحب قواتها من بيروت الغربية. حينها تقدم الاتحاد السوفييتى بمشروع قرار، يطالب باتخاذ جميع الإجراءات لتنفيذ كل القرارات التى صدرت من قبل، وقبل كل شىء وقف إطلاق النار وإرسال مراقبين من الأمم المتحدة إلى بيروت وما حولها. وافق على القرار إحدى عشرة دولة، بينما امتنعت ثلاث عن التصريت (إنجلترا وزائير وتوجو) بينما استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو من جديد. لكن يوم ١٠ أغسطس، على أى حال تم التوافق على خطة خروج القوات الفلسطينية المسلحة من بيروت، لقد اضطروا إلى أن يغادروا لبنان.

مواقف الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة أدت إلى أن تفقد الكثير فى العالم العربى، وهو ما أدركوه بالفعل فى واشنطن، فقد وضعوا مكانة الولايات المتحدة الطاغية فى تسوية النزاع الشرق أوسطى فى مهب الريح، عندما كانت كامب ديفيد

علامة "فخر" للدبلوماسية الأمريكية. لقد اهتز العالم بأسره من قيام ميليشيات الكتائب، بإشراف القيادة الإسرائيلية، بمذابح دموية للاجئين الفلسطينيين فى مخيمى صابرا وشاتيلا، ولم يستثنوا حتى النساء والأطفال. فى مثل هذه الظروف أظهرت الولايات المتحدة نشاطًا من أجل التوصل إلى اتفاق لبنانى - إسرائيلى، فقام وزير الخارجية الأمريكى برحلات بين إسرائيل ولبنان على مدى أسبوعين، واستطاع التوصل إلى تفاصيل اتفاق بصعوبة، وكان ينص على إنشاء منطقة أمنية عازلة فى جنوب لبنان، وكان هذا هو ثمن انسحاب القوات الإسرائيلية. فرضت الاتفاقية على لبنان فى ١٧ مايو ١٩٨٣.

وأدخلت قوات "متعددة الجنسيات" مكونة من ١٢٠٠ من مشاة البحرية الأمريكية، ووحدات عسكرية من فرنسا وإيطاليا إلى لبنان فى نهاية ديسمبر عام، ١٩٨٢ وقد وصف الرئيس السورى الأسد الاتفاقية اللبنانية - الإسرائيلية، فى لقاء مع كاتب هذه السطور جرى فى دمشق يوم ٢ يونيو١٩٨٣ ، حين قال: "بالنسبة لنا هذه الاتفاقية غير مقبولة، لسببين أساسيين، أولاً، لاعتبارات مصالح أمن سوريا وثانيا، لأنها تحد من استقلال لبنان، وتحرمه من حرية اتخاذ القرار، وهى الحرية التى تستخدمها أى دولة مستقلة، لك أن تحكم بنفسك، وفقا للاتفاقية ليس لدى لبنان حق فى امتلاك سلاح مضاد للطائرات يزيد مداه عن ٥ كم، على كل أراضيه، وهذا يعنى أن إسرائيل سوف تسيطر على سماء لبنان دون رادع. وإلى جانب هذا وفق الاتفاقية، ممنوع على الطائرات اللبنانية التحليق فوق الجزء الجنوبى من البلاد، وهو ما يعتبر بلا شك أراضى لبنانية، إذا لم يتم إخطار السلطات الإسرائيلية بذلك فى وقت سابق. أو هذه نقطة مذلة، تتناقض مع حقوق لبنان بوصفها دولة مستقلة، وفق الاتفاقية، أى دولة سواء عربية أو غير عربية، ليس لها علاقات دبلوماسية مع إسرائيل ليس لها الحق أن تحمل أسلحة مرورا بلبنان سواء على الأراضى اللبنانية أو المياه الإقليمية أو عن طريق المجال الجوى اللبنانى، أو على سبيل المثال ماذا يساوى ما تمخضت عنه الاتفاقية عن

أن كل القرارات المتعلقة بجنوب لبنان، يجب أن تتخذها لبنان وإسرائيل معا". وفق كلمات الرئيس الأسد، بهذه الاتفاقية سيكون الجنود الإسرائيليون على بعد ٢٤ كم من دمشق، والجنود السوريون على بعد ٢٥٠ كم من تل أبيب. ثم لخص الرئيس "أليس من الواضح أن هذا كاف لأن تكون علاقة سوريا سلبية بهذه الاتفاقية، وخاصة أنها فى حالة حرب مع إسرائيل".

لم تستقر الحالة فى لبنان لفترة طويلة بعد توقيع الاتفاقية، وفى أغسطس ١٩٨٢، تم انتخاب قائد الجبهة اللبنانية بيير الجميل رئيسا للبلاد، ولكنه قتل قبل أن يتولى مقاليد الحكم، وأصبح شقيقه أمين الجميل رئيسا. وتم تنفيذ عمل إرهابى ضد السفارة الأمريكية فى بيروت، وتعرض مشاة البحرية الأمريكيون لتفجير معسكرهم ، وقامت الفصائل المسلحة للدروز وحركة "أمل" الشيعية، بالسيطرة على بيروت الغربية. وفى منتصف فبراير ١٩٨٤ غادرت القوات المتعددة الجنسيات لبنان، وبعد عدة أسابيع، وتحت ضغط دمشق، ألغى الرئيس أمين الجميل الاتفاقية الإسرائيلية ـ اللبنانية.

مصرع الحريرى

قمة التوتر السورى ـ اللبنانى

أخذ وجود القوات المسلحة السورية فى لبنان طابع الوجود الدائم، وسيطرت المخابرات السورية على مؤسسات الدولة اللبنانية، وأصبح الوضع الاقتصادى فى سوريا يعتمد كثيرا على التهريب والعمليات السرية المرتبطة بوجود الجيش السورى على الأراضى اللبنانية.

استمر جيش جنوب لبنان، وهو الآن تحت قيادة أنطوان لحد، فى السيطرة على "المنطقة العازلة" فى جنوب لبنان، بعد أن انسحبت إسرائيل من جانب واحد من الجزء الأكبر من الأراضى اللبنانية، وتغير كذلك توازن القوى، فقد ضعف العامل الفلسطينى

فى السياسة الداخلية، والصراع الداخلى حدث فى داخل معسكر اليمين المسيحى، والآن شمل المعسكر الإسلامى، حيث حصل "حزب الله"، الذى يمتلك جناحًا عسكريًا قويًا على وزن أكبر. وفى النهاية وصلت الأمور إلى ظهور معارضة شديدة، هذه المرة من مختلف الطوائف، للوجود العسكرى السورى فى لبنان، الجميع انضم إليها، قوى اليمين المسيحى والدروز والسنة واليسار اللبنانى، ومع ضغط هذه القوى المعارضة، والتى أصبح قائدها رئيس وزراء لبنان رفيق الحريرى، والذى كان يعتبر منذ فترة قصيرة شخصية ذات توجهات مؤيدة لسوريا. وفى عام ٢٠٠٤ اتخذ مجلس الأمن القرار رقم ١٥٥٩ بضرورة خروج القوات السورية من لبنان.

التقيت رفيق الحريرى فى فبراير ٢٠٠٥ فى بيروت، وهو شخص أعرفه منذ فترة طويلة جدا، وكان قد دعانى على الإفطار فى منزله فى الصباح الباكر، وكان من الطبيعى أن يدور الحديث عن العلاقات اللبنانية ـ السورية، خاصة وأن الحريرى عرف أننى سأذهب إلى دمشق بعد اللقاء معه، وتحدث بامتعاض وروى لى، كيف تعطى المخابرات السورية الأوامر للجميع والكل فى بيروت، وحسب كلامه "حتى رئيس الأطباء فى أى منشأة طبية لا يمكن تعيينه دون موافقة ممثلى سوريا"، وكان مقتنعا بضرورة وضع نهاية لمثل هذه التصرفات، وتحقيق خروج السوريين من بيروت، وبالدرجة الأولى وقف "التصرفات المتهورة" للمخابرات السورية فى العاصمة اللبنانية. ورغم ذلك كان الحريرى موافق تماما على أن القوات السورية لعبت دورا كبيرا فى وقف الحرب الأهلية فى بلاده. لكن الآن، فإنه يصر على "لندعهم يبقوا ولكن فقط فى سهل البقاع".

وعندما عرف الحريرى أننى سوف ألتقى فى دمشق بشار الأسد، طلب منى أن أبلغ الرئيس السورى، أنه هو المحيطون به على استعداد فى أثناء المباحثات أن "يبددوا قلق السوريين"، وضمن هذا "القلق" ذكر تخوف دمشق من أن يقدم لبنان من جانب واحد على توقيع اتفاق منفرد مع إسرائيل، وقال الحريرى "نحن على استعداد، حتى لإدخال تعديل على الدستور ينص على أن أى اتفاق سلام مع إسرائيل لن يوقعه

لبنان إلا مع سوريا". كان الحريرى يسعى لأن يدعوه إلى دمشق للقاء بشار الأسد، وقال "نحن نريد أن نتفق على كيفية عمل السوريين فيما يتعلق بتنفيذ قرار مجلس الأمن. أنا أتفهم الصعوبات التى يواجهونها، ونحن على استعداد لمناقشة إمكانية تنفيذ القرار على مراحل".

وكما لو كان هذا الإنسان القوى والذى يجتذبك إليه يشعر بالخطر على حياته، قلت للحريرى: "ما لى لا أرى حراسة شديدة عندك بالمنزل" فأجاب "لا تقلق. أنا محمى جيدا". وصلت إلى دمشق ورويت ما دار من حديث مع الحريرى للأسد، وتكون عندى انطباع أنه لا يحمل أى شعور شرير تجاه الحريرى، بل على العكس وافق على أنه من المفيد أن يلتقى به.

وفى يوم ١٤ فبراير عام ٢٠٠٥، تحت قاع سيارة الحريرى المدرعة، انفجرت بقوة هائلة قنبلة، ولقى الحريرى مصرعه فى الحال، وبدأت تظاهرات احتجاج واسعة ضد السوريين، الذين وفق الرأى الذى انتشر فى لبنان أنهم قتلوا خصمهم. واشتعل الوضع السياسى فى لبنان، وفازت القوى المعادية لسوريا فى الانتخابات.

ولا أرغب ولا أمتلك أى حقائق لتأييد هذه الرواية أو تلك فيما يخص مصرع الحريرى، لكنى أتحدث فقط عن انطباعاتى، وتفكيرى، وكما أتصور، وراء مصرع الحريرى لم يكن السياسيون السوريون، الذين من غير الممكن ألا يفهموا أنه فى كل الأحوال سيؤدى هذا إلى انفجار العداء للسوريين فى لبنان وسيجبر المجتمع الدولى أن يطلب بشكل أكثر حسما من دمشق تنفيذ قرار مجلس الأمن، وفى الحقيقة هذا ما حدث بالفعل. بالإضافة لهذا لا أعتقد أنه فى دمشق شخص واحد يسيطر على كل شىء هو الرئيس، بالطبع سلطاته واسعة جدا، لكن لا أعتقد أنه فقط وبأوامره فقط تعمل هذه المؤسسة أو تلك أو مجموعة منفصلة لها مصلحة فى نفس الوقت فى إضعاف بشار الأسد نفسه. كما أن رفيق الحريرى كان لديه خصوم كثيرون بما فيه الكفاية فى لبنان نفسه، وكانوا يريدون إزاحته من المسرح السياسى.

حرب إسرائيل في لبنان عام ٢٠٠٦

بدأت الأحداث على الحدود اللبنانية الإسرائيلية. حيث قام "حزب الله" بالهجوم على نقطة عسكرية داخل الأراضى الإسرائيلية، قتل ثلاثة، وخطف اثنين من الجنود الإسرائيليين. من الصعب القول من كان وراء هجمة "حزب الله" هذه. كان كثير من المراقبين يعتقدون أنها إيران أو سوريا، اللذان لهما ارتباط وثيق "بحزب الله". لا أصدق هذه الفرضية، فقد كانت إيران فى ذلك الوقت تعيش فترة صعبة، لأنه فى ذلك الوقت بالتحديد وافق جميع مفاوضى إيران دون استثناء بما فيهم روسيا والصين على تسليم "الملف النووى" الإيرانى إلى مجلس الأمن، ومن غير المحتمل فى مثل هذه الظروف أن يكون من المفيد لإيران فتح جبهة جديدة.

ومن غير المنطقى على الإطلاق الحديث عن محاولات إيران صرف الأنظار عن برنامجها النووى بالأحداث فى لبنان، هذه الرواية كانت تحظى بانتشار واسع فى إسرائيل والولايات المتحدة. على العكس تماما، التصعيد فى لبنان، والمرتبط بأنشطة "حزب الله" غير مجدٍ تماما لإيران استنادا إلى أنه سيظهر مخاطر كبيرة من البرنامج النووى الإيرانى.

أما فيما يتعلق بسوريا، فإنها كما أتصور، لم يكن لها مصلحة كبيرة لكى تصعد الوضع على الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، لإدراكها أنه لا مناص من رد فعل إسرائيلى، من الممكن أن يكون موجها كذلك ضد سوريا، ودمشق كانت واثقة تماما من هذا، وهى لا تريد صداما مع إسرائيل خاصة بمفردها وجها لوجه.

أتصور أن عمل "حزب الله" كان وليد أسباب داخلية. وبدون أى تبرير لهذا العمل بأى حال من الأحوال، أنا أجد تفسيرها فى السعى لاستخدام الرهائن لتحرير معتقلين فلسطينيين (حماس ـ المؤلف) ولبنانيين (حزب الله ـ المؤلف) من السجون الإسرائيلية. أثير موضوع تحرير عدد محدد من المعتقلين الفلسطينيين أكثر من مرة فى أثناء مباحثات محمود عباس مع القيادة الإسرائيلية. وحسب رأى سائد فى السلطة الوطنية الفلسطينية،

هذا كان أحد شروط توافق وسطى. مات الجنود الإسرائيليون المختطفون، لكن "حزب الله" اعترف بوفاتهم فقط فى يوليو ٢٠٠٨، وسلم جثثهم فى إطار صفقة لتبادل الأسرى.

وبدأت إسرائيل عملية عسكرية، ذهبت بعيدا عن حدودها معتبرة أنها عملية ضد الإرهاب، ردا على غارة "حزب الله"، فقد اقتحمت الدبابات الإسرائيلية جنوب لبنان، وقصف الطيران الإسرائيلى مطار بيروت الدولى والجسور، كما تعرضت المناطق السكنية فى بيروت وبعض المدن الأخرى للقصف الجوى ومن البحر. وأعلن أن ما يجرى هو تدمير أهداف تابعة "لحزب الله"، وتم تدمير البنية التحتية الضرورية لحياة لبنان، وقتلت النساء والأطفال. وتعرض السكان المدنيون للقتل فى جنوب لبنان بذريعة أنه من هناك (من مساكن المواطنين ــ المؤلف) تدار عملية إطلاق الصواريخ على المدن الإسرائيلية. وكانت التبريرات التى تساق تزعم "أخطأ الهدف"، وعند الضربات الدقيقة من الجو للسيارات التى يستقلها قادة المقاتلين، لم يخطئ الطيارون الإسرائيليون!

بدأت الأحداث تذكرنا بحرب عام ١٩٨٢، لقد كانت الأكثر فى إراقة الدماء، بما فى ذلك لإسرائيل، مما أجبرها على وقف العمليات العسكرية، وفى نهاية الأمر الانسحاب من لبنان. لكن حرب عام ٢٠٠٦ لم تكن تشبه حرب ١٩٨٢، حينها اعتمدت إسرائيل على قوى داخلية، ميليشيات الكتائب، وهدف إسرائيل كان ينحصر فى إخراج القوات المسلحة الفلسطينية من لبنان. فى عام ٢٠٠٦ أصبح الهدف الإسرائيلى القضاء على قوات مسلحة داخل لبنان، "حزب الله". وبقصفها الجوى الدائم لأهداف مدنية، سعت إسرائيل إلى تفتيت الوسط السياسى فى لبنان، وخلق قوة مستعدة لبدء صراع مسلح ضد "حزب الله"، بمعنى آخر إغراق لبنان من جديد فى أتون حرب أهلية.

اختلفت حرب ٢٠٠٦ عن حرب ١٩٨٢، بأن "حزب الله" رد بإطلاق الصواريخ ليس فقط على المناطق الحدودية، بل على المناطق السكنية الإسرائيلية فى العمق، التى تبعد ٣٠ كم عن الحدود، حيفا مثلاً، وهنا أيضا تضرر السكان المدنيون.

فى واقع الأمر خسرت إسرائيل الحرب، و"حزب الله" لم يبق فقط، ولكنه عزز مواقعه فى لبنان. وفى إسرائيل توالت الاستقالات، فى البداية قادة الكتائب، المسئولون عن تأمين الحدود مع لبنان، وبعد ذلك قائد الدائرة العسكرية الشمالية، ثم رئيس أركان الجيش الإسرائيلى، وفى نفس الوقت اهتز وضع رئيس الوزراء أولمرت، الذى تذكروا له ماضيه فى الفساد، وتم تحويله للتحقيق أمام القضاء.

الفصل الثالث عشر

الولايات المتحدة تتشدد فى سياستها من جديد

من جديد، وفى الثمانينيات، وبعد انتخاب ريجان رئيسا للولايات المتحدة، حدث تشدد فى توجهات الولايات المتحدة السياسية فى الشرق الأوسط، وساعد على هذا بدرجة ليست قليلة شيئان، الابتعاد عن سياسة التهدئة والانفراج الدولى وسقوط نظام الشاه فى إيران.

ليبيا هدفاً للاستعراض

رفض ريجان فى أول أعوام رئاسته الحوار البناء مع القيادة السوفييتية، وأعلن أدلجة السياسة الأمريكية من خلال "حملة صليبية" ضد ما أسماه "إمبراطورية الشر"، تضمنت هذه "الحملة" مبدأ "الصراع المباشر"، ونشر التسلح، وبرنامج حرب النجوم. بينما جند الاتحاد السوفييتى الذى تغير فيه ثلاثة من القادة، بريجنيف وأندروبوف وتشيرنينكو خلال فترة رئاسة ريجان الأولى (١٩٨١ ـ ١٩٨٥) كل إمكاناته للسير فى اتجاه الحفاظ على التوازن الدولى.

فوجئت الولايات المتحدة بتصعيد الموقف فى الشرق الأوسط وسقوط الشاه فى إيران ١٩٧٩، حيث كانت تعتبره الحليف القوى والوفى، مما دفع الولايات المتحدة إلى الخوف من تكرار "السيناريو الإيرانى"، فقررت إظهار استعدادها لاستخدام القوة عند

الضـرورة فى منطقـة الشـرق الأوسط وشـمـال أفـريقـيـا، وهنـاك أسـاس للاعـتـقـاد بأنه "كـهدف للاسـتـعراض" تم اخـتيار ليبيا، وكان من الواضح أن الكثير من تلك الأسباب التي على أساسها تم هذا الاختيار أصبحت قائمة لفترة طويلة. وتحسبا لأى احتمال، فى غضون ذلك هناك الكثير من نقاط الانطلاق، لماذا ليبيا بالتحديد، وليست أى دولة عربية أخرى هى التى أصبحت "هدفا للاستعراض" لكبح جماح العالم العربى فى الثمانينيات وفى أثناء "الربيع العربى" ٢٠١١.

وفقًا لشهادة نائب وزير الخارجية الأمريكى السابق ج. سيسكو، كان من المناسب لإدارة ريجان إظهار "التوجه الحديدى" على ليبيا[٤٩]. توقف اختيار الولايات المتحدة على ليبيا، لأنها فى الغالب كانت الأقل تأييدا من الدول العربية الأخرى، سواء من الدول المحافظة أو الراديكالية. واستطاعت إدارة ريجان أن تنطلق من ملاحظة زيادة المعروض فى سوق النفط، وعنصر النفط بالتالى لم يكن له أهمية حاسمة عند القيام بعملية ضغط واسعة على ليبيا، فى حال تصعيد الأعمال المعادية لليبيا والتى شملت أيضا المجالات الاقتصادية والعسكرية.

كان الرئيس كارتر فى عام ١٩٧٩ قد تعرض لحملة واسعة، بسبب الاتصالات مع ليبيا، فقام باستدعاء كل الدبلوماسيين الأمريكيين من ليبيا، حيث زعموا أنهم من الممكن أن يتحولوا إلى رهائن كما حدث فى طهران. وفى عام ١٩٨١ أعلن عن إغلاق نهائى للسفارة الليبية (مكتب الاتصال الخارجى ـ المؤلف) فى واشنطن.

و"نصحت" وزارة الخارجية شركات النفط الأمريكية بسحب العاملين فيها من ليبيا، وعندما لم تستمع الشركات لهذه النصيحة، وجه الرئيس ريجان بنفسه نداء إلى المواطنين الأمريكيين بأن يغادروا ليبيا، وأعلن بطلان جوازات السفر التى منحت للمواطنين الأمريكيين للسفر إلى هذه الدولة. وكان قمة الضغط الاقتصادى على ليبيا، فرض حظر أمريكى على استيراد النفط الليبى وعلى تصدير المعدات عالية التكنولوجيا لهذه الدولة عام ١٩٨٢، ولم تقتصر سياسة الضغط العنيف عند هذا الحد، بل قامت الولايات المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا.

عادة ما يضعون على رأس قائمة جرائم العقيد القذافى العمل الإرهابى الذى كانت نتيجته تفجير طائرة ركاب تابعة لشركة "بان أمريكان" فوق مدينة لوكيربى الاسكتلندية، والتى راح ضحيته ٢٧٠ شخصًا. هذا العمل الذى اعترفت ليبيا بمسئوليتها عنه رسميا متأخرا جدا، تم تنفيذه فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨. بالطبع هذه جريمة بشعة، ليس لها مبرر ولا يمكن أن يكون لها مبرر، ولا أريد التقليل من ذنب هؤلاء الذين يتحملون المسئولية، لكنى على أى حال سأسرد بعض أحداث الثمانينيات. فى أغسطس ١٩٨١، قامت الطائرات الأمريكية المقاتلة بإسقاط طائرتين ليبيتين حربيتين. وبعد قطع العلاقات مع ليبيا، أصبحت الطائرات الحربية الأمريكية تحلق بشكل استعراضى فوق الأراضى الليبية. وفى عام ١٩٨٦ قامت القاذفات الأمريكية بقصف طرابلس وبنغازى بالقنابل والصواريخ، تعرضت للقصف الجوى ليس فقط الأهداف العسكرية من مطارات ووسائل دفاع جوى، ولكن الضربة الرئيسية وجهت لقصر القذافى، الواقع فى منطقة سكنية، نجا القذافى لكن لقى ١٠١ مواطن ليبى مصرعهم، من بينهم ابنة العقيد بالتبنى البالغة من العمر عاما واحدا.

إلا أن الوضع بدأ فى التغير عام ٢٠٠٣، وكان أساس التغيير إعلان القذافى عن أنه على استعداد للتخلى عن إنتاج أسلحة دمار شامل، وأن يستقبل مفتشين دوليين. وفى عام ٢٠٠٤ وفى أثناء مباحثات مع الولايات المتحدة الأمريكية تم إعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ووعدت ليبيا بالتخلى عن دعم أى نوع من الإرهاب، ثم تلى ذلك موافقة ليبيا على دفع تعويضات لأسر ضحايا الطائرة التى فجرت فوق لوكيربى، وأنهى الحصار.

كان من الواضح أنه ليس هذا فقط هو الذى فتح الباب على مصراعيه للقادة الغربيين إلى ليبيا، وفى زيارته لليبيا لم يكن رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير وحيدا، فقد أخذ تطبيع العلاقات وتيرة متسارعة. وكان من الواضح أن العلاقات الشخصية المدعومة بمصالح مالية ربطت القذافى بالكثير من قادة الدول، بيرلسكونى وتونى بلير

ونيكولا ساركوزى وآخرين. ونشرت الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات أنشطتها فى ربوع البلاد، وكان المغناطيس الأساسى الذى جذبهم إلى ليبيا الاحتياطى الضخم من النفط عالى الجودة والغاز.

لماذا إذن دب البرود فى أوصال العلاقات الليبية ـ الغربية، والذى تنامى ليتحول إلى حرب ضد ليبيا قادتها الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلنطى فى ربيع عام ٢٠١١؟ سنرجع هنا إلى الوثائق السرية الأمريكية، والمنشورة على موقع "ويكيليكس"، ففى برقية مشفرة من السفارة الأمريكية فى نوفمبر عام ٢٠٠٧، لفتت فيها نظر واشنطن إلى ضرورة وجود رد فعل على "التوجه القومى الليبى فيما يخص الثروات"، واقترحت السفارة إظهار "العيب الواضح" لهذا المدخل. "كما أن سياسة الحكومة الليبية الموجهة لزيادة حصتها من دخل المواد الهيدروكربونية" كان الغرب ينظر إليها على أنها "تهديد". وكان نتيجة لهذا أن اضطرت شركات إكسون موبيل الأمريكية وتوتال الفرنسية وأوكسيدنتال الأمريكية وإينى الإيطالية وغيرها إلى الرضوخ وتوقيع اتفاقيات جديدة مع الشركة الوطنية الليبية للنفط فى ٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨، لتغير الشروط، التى أصبحت أقل فائدة من السابق للشركات الأجنبية. زد على ذلك فى بداية من يونيو ٢٠٠٨، وفى عدد من الرسائل العاجلة تعرب فيها السفارة الأمريكية فى طرابلس عن قلقها من أن هذه الشروط الجديدة لن تستمر طويلا لأن ليبيا سوف "تسعى لزيادة حصتها". وأشارت السفارة فى رسالة مشفرة بهذا الخصوص إلى أن الشركات القادمة فى الدور لتغيير الشروط من الممكن أن تكون، أوازيس جروب التى تضم الشركات الأمريكية كونوكوفيليبس وماراثون أند هيس. والمشكلة لم تكن فى أن الشروط غير مقبولة للشركات الأمريكية والغربية الأخرى العاملة فى ليبيا، فهم وكما فى السابق يستطيعون "تحقيق أرباح كبيرة فى كل برميل نفط مستخرج"، لكن المشكلة فى "استعراض ليبيا الجديد"، كما تقول رسالة عاجلة، أن هذا "من الممكن تكراره فى كل العالم، وفى عدد متزايد من الدول المنتجة للنفط".

وأخيرا، وفي لقاء مع طلاب جامعة جورج تاون عبر شاشات الفيديوكونفرنس في يناير عام ٢٠٠٩، تحدث القذافي عن إمكانية تأميم قطاعي النفط والغاز في ليبيا.

لكن العامل النفطي - الغازي، لم يكن هو الوحيد الذي أشعل غضب الغرب من سياسة ليبيا. بل لأن ليبيا أصبحت إحدى الأسواق الرئيسية للأسلحة الروسية الحديثة. حاولت فرنسا أن تنافس روسيا الاتحادية، لكنها عمليا فشلت في ذلك. وقام الرئيس الروسي بوتين بزيارة لليبيا في أبريل ٢٠٠٨، حيث تنازلت روسيا عن ديون لها كانت تقدر بحوالي ٤.٥ مليار دولار مقابل عقود قيمتها مليارات كثيرة وقعتها شركات روسية.

كل هذا حدث بالفعل لكنه لم يكن يعني تغييرًا في توجهات القذافي، واستمر في سياسته المتعددة القوائم ولم يتخل بأي حال عن تنمية علاقاته مع الغرب. ووصفت الصحف العالمية الزيارة التي قامت بها وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليز رايس لطرابلس في سبتمبر ٢٠٠٨ بأنها "تاريخية"، حيث أعلنت: "لقد حان الوقت لتطوير علاقات التعاون البناء بين ليبيا والولايات المتحدة"، هذا التصريح جاء بعد عدة أشهر من زيارة بوتين لليبيا. ثم جاء تصريح السيناتور جون ماكين الموحي أيضا في أثناء زيارته لطرابلس في أغسطس ٢٠٠٩ على رأس وفد من أعضاء حزبي الكونجرس الأمريكي حيث التقى في أثنائها بالقذافي، ووصف "نوعية تطور العلاقات الثنائية" بأنه "مبهر". بعد أقل من عامين على النطق بهذه الكلمات، حدث قصف ليبيا بالقنابل، وطوال هذا الوقت كانت ليبيا مرتبطة ارتباطًا وثيقا بالغرب، وكما جاء في المراسلات الدبلوماسية السرية التي نشرتها "ويكيليكس" التقى السفير الأمريكي في طرابلس بأحد القادة الليبيين يوم ٢٠ يناير ٢٠١١ وأبلغه أن الأموال الموجودة في الصندوق الليبي المستقل وقيمتها ٣٢ مليار دولار أمريكي، ستقوم بعض البنوك الأمريكية بإدارتها، بالإضافة إلى ذلك، فإن الجزء الأساسي من هذا الصندوق يستثمر في بنوك إنجليزية في الإسكان والعقارات التجارية. لكن عدم الرضا عن السياسة ليس داخليا،

ولكنه بالتحديد فى قضايا الثروات الطبيعية، وفى الخط التخريبى للسياسة الخارجية، الذى تراكم، وفاض فى شكل ما قام به الناتو. سأتحدث بالتفصيل عن هذا فيما بعد.

خطة ريجان

لغم تحت قرارات فاس.

نعود إلى التوجه الأمريكى، الذى اتبع، فى الشرق الأوسط، فى أثناء رئاسة ريجان، تحدثنا عن أن تشديد هذا التوجه حدث فى ظروف الابتعاد عن سياسة الانفراج فى العلاقات مع الاتحاد السوفييتى، وانتصار الثورة الإسلامية فى إيران. لكن الغريب شىء آخر وهو أن التشدد فى السياسة الشرق أوسطية فى أثناء حكم ريجان، جاء فى نفس الوقت الذى بدأ الجانب العربى يتخذ خطوات إيجابية، بما فى ذلك الفلسطينيون الذين ابتعدوا ببطء وبشكل محدد بما فيه الكفاية، عن خطهم بأنه لا بديل عن الكفاح المسلح ضد إسرائيل. وسيكون من الخطأ لو اعتقدنا أن واشنطن كانت تعمل بدون ملاحظة هذه العملية، لكن هل دعمت تطوره؟ هذا هو السؤال.

وفق المعلومات المتوفرة، واشنطن أخطرت مبكرا من قبل بعض الدول العربية المقربة منها، بأنه بعد فك الحصار عن بيروت عام ١٩٨٢، فإن رؤساء وملوك الدول العربية سيعملون على طرح موقف إيجابى فى اللقاء الثانى الذى سيعقد فى فاس. قال لى ممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى الأمم المتحدة الطرزى إنه فى دوائر الأمم المتحدة كانوا يعرفون خطة فاس قبل إقرارها بأسبوعين، ولذلك توجد كل الأسس للاعتقاد بأن الإدارة الأمريكية كانت على علم بها، وبالتالى "خطة ريجان" التى نشرت قبل أسبوع من اتخاذ القرار فى القمة العربية فى فاس، لم تكن "بالتوازى" مع خطة فاس، ولكنها وثيقة استدعت خطف الجهود السياسية للدول العربية، وفى نفس الوقت لكى يظهر لإسرائيل أنها تذهب بعيدا جدا فى لبنان، غير عابئة بالمصالح الأمريكية فى المنطقة بشكل عام.

كانت أرضية فاس تطرح انسحاب القوات الإسرائيلية من كل الأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧ (بهذا الشكل ستبقى لإسرائيل الأراضى التى ضمتها نتيجة الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٤٨ ـ المؤلف). ونادت بتصفية المستوطنات، التى أقامتها إسرائيل فى الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧، صرف تعويضات للاجئين الفلسطينيين الذين يرفضون العودة لموطنهم الأصلى (أى مرهونة بإمكانية أن هذا التعويض سيقلل بشكل حاد عدد الفلسطينيين الذين سيرغبون فى العودة إلى الأراضى التى يعيش عليها إسرائيليون ـ المؤلف). كانت خطة فاس تطرح كذلك إعطاء الضفة الغربية وقطاع غزة تحت سيطرة الأمم المتحدة لفترة انتقالية تستمر لعدة أشهر، ومن ثم إقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس (يعنى فى القدس الشرقية، لأنه لم يقل أى كلمة عن فصل القدس عن إسرائيل أو عن إعطائها وضعًا دوليًا ـ المؤلف)، وإعطاء مجلس الأمن ضمان الحفاظ على السلام لكل دول المنطقة (لإسرائيل الاعتراف بها، فحتى الآن كانوا يتحدثون عن ذلك بلغة مواربة، لكن هنا بشكل محدد تماما ـ المؤلف)، يقوم مجلس الأمن بضمان تنفيذ هذه الخطة.

للحقيقة اشترط كذلك التخلص من المستوطنات الإسرائيلية الموجودة فى الأراضى المحتلة، لكن التغيرات فى الأرضية الجديدة كان يفهمها الخبراء فى شئون الشرق الأوسط، ويمكن تدقيقها وتحديثها فى أثناء المباحثات.

واحتوت "خطة ريجان" الموازية على المقترحات التالية: "حكم ذاتى للفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة، مع أشكال محددة للشراكة مع الأردن (فى الجوهر رفض قيام دولة فلسطينية مستقلة ـ المؤلف)، وقف إنشاء مستوطنات إسرائيلية جديدة فى تلك الأراضى (لكن عند هذا إبقاء مسألة مصير المستوطنات الموجودة مفتوحًا، والتى تخطى عددها فى ذلك الوقت المائة، فى أثناء فترة حكم الرئيس جونسون أعلن أن "القانونى" هو تلك المستوطنات التى أنشئت قبل عام ١٩٦٧ ـ المؤلف).

صاغ استراتيجية ريجان التى أعلنت، بوضوح تام، وحملت اسمه، واحد من ألمع المعلقين السياسيين وهو لـ. جيلب. ونقلا عن ممثلين فى الإدارة الأمريكية، أنه كتب أن هدف ريجان "إقناع العرب المعتدلين والفلسطينيين بأنه، إما الآن، وإما إلى الأبد تقريبا، إما الاعتراف بإسرائيل وإعطاء الضوء الأخضر للملك حسين بالتفاوض على الضفة الغربية وقطاع غزة (مع إسرائيل ـ المؤلف)، وإما سيصطدمون فى المستقبل بضم هذه الأراضى لإسرائيل فى الواقع(٥٠)".

واعترضت إسرائيل على الخطة العربية التى أقرت فى فاس، واعترضت قيادة بيجين ـ شارون على "مبادرة ريجان"، لأنها لم تؤيد مباشرة وبوضوح موقف إسرائيل فيما يتعلق بالضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة. ومع ذلك أيد حزب العمل المعارض "العناصر الإيجابية" فى "خطة ريجان"، وظهرت تعليقات بهذا الخصوص فى الصحف الإسرائيلية، تؤكد على التشابه بين مبادرة ريجان و"خطة آلون"، الذى وضع خطة حزب العمل الخاصة بمستقبل الأراضى المحتلة، والتى تشترط الحفاظ على السيطرة العسكرية الإسرائيلية عليها عن طريق نشر قوات إسرائيلية فى منطقة بطول ١٥ كيلومتر على نهر الأردن (حدود إسرائيل العسكرية ـ المؤلف)، وعدد من "النقاط"، مع إعطاء باقى أراضى الضفة الغربية تحت "سيطرة إدارية" للأردن.

وأتيحت لى فرصة أن أكون فى الولايات المتحدة فى يناير ١٩٨٣، وجلست مع مساعد وزير الخارجية الأمريكى ن. فيليوتيس، المسئول عن مشاكل الشرق الأوسط، وفى سؤال له حول ما إذا كان لديه تصور آلية محددة "لخطة ريجان"، ـ أجاب فيليوتيس: من الضرورى بدء مفاوضات بين الأردن والأطراف المعنية، وحينها سيبدأ منطق المفاوضات يفرض نفسه فى أثنائها.

ـ اسمحوا لى، فى أى إطار تفترضون إجراء هذه المفاوضات؟ وهل تدعون الأردن ليصبح محرضا على المفاوضات، بهدف تشكيل "حكومة حكم ذاتى" للفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة مع احتفاظ إسرائيل بالسيطرة على تلك الأراضى، أم تقصدون شيئًا آخر؟

ولم يترك ممثل الدوائر الأكاديمية فيليوتيس لدى انطباع الشخص "التقليدى" بمفهوم وزارة الخارجية لهذه الكلمة، حيث كان يقود الحديث بحرية، وكان يتطرق للمشاكل ليس بالمجاز، ولكن مباشرة، ساعيا لتجسيد ما يقول فى إطارات تصورية. لكن فيليوتيس نفسه فضل أن يتهرب من الإجابة عن هذا السؤال الذى توجهت به إليه.

ويقى هذا السؤال بدون إجابة، والسؤال الثانى الذى وجهته فى أثناء جلستى مع فيليوتيس: هل تعنى "خطة ريجان" نداء أمريكيًا من الولايات المتحدة لبحث "المصير النهائى" للأراضى المحتلة فى الظروف الحالية، أم أن الحديث يدور عن مباحثات فترة انتقالية للضفة الغربية وقطاع غزة؟ فى أثناء وجودى فى الولايات المتحدة تولد عندى انطباع قوى، أن إدارة ريجان ترفض تماما تحديد الهدف النهائى للتسوية كما فى التفسير الذى أعطى للقرار ٢٤٢.

رغم ذلك لم يكن كل شىء بهذه البساطة فى العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. الولايات المتحدة تقوم بضغط إسرائيل فى "أحضانها". ما هو معروف أن إسرائيل تعمل من خلال لوبى فى الولايات المتحدة، وتجيد توجيه السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، حدث هذا بالفعل أكثر من مرة لكن ليس عندما يكون مثل هذا التأثير متناقضًا مع مصالح القيادة الأمريكية، أو مصالح الأعمال الأمريكية الكبيرة. وهذا ما تميز به عصر رئاسة ريجان فيما يتعلق بالعلاقة مع إسرائيل.

قدم وزير الخارجية الأمريكى ج. شولتز لمجلس الأمن القومى الأمريكى فى ١٨ أكتوبر، اقتراحًا ببحث إعلان إسرائيل رسميا "الشريك الرئيسى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط". لكن تقرر عمل هذا على شكل موافقة الرئيس ريجان على درجات الأولويات الأمريكية الشرق أوسطية. وقع ريجان فى ٢٩ أكتوبر المرسوم رقم ١١١، الذى كانت أهم نقطة فيه إقامة حلف عسكرى مع إسرائيل، هكذا بجرة قلم تم تجديد "الاتفاقية الاستراتيجية" مع إسرائيل والتى وقعت فى ٣٠ نوفمبر ١٩٨١، والتى كانت الولايات قد جمدتها نتيجة أن الأعمال الإسرائيلية ضد لبنان خرجت عن الإطار المتفق عليه مع واشنطن، والآن عاد كل شىء إلى أصله.

لكن هذا لم يكن يعنى أن تضحى واشنطن بمصالحها الخاصة من أجل "حليف عسكرى"، ففى عام ١٩٨٣، بالتحديد فى هذا العام الذى تم التوقيع فيه على المرسوم رقم ١١١، كلف وزير الدفاع الأمريكى كاسبار واينبرجر بإعداد خطة لمواجهة إنتاج إسرائيل للطائرة المقاتلة "لافى". لم يكن البرنامج الإسرائيلى فى مصلحة الولايات المتحدة من ناحيتين: من ناحية سيكون على الولايات المتحدة تمويله، وستنفق عليه مليارات الدولارات، وهذا أكثر بكثير، من ثمن الطائرات المنتجة فى أمريكا والتى يجرى توريدها لإسرائيل، كما أن استقلال إسرائيل فى هذا المجال، كان من الممكن أن يسبب ضررا لمنتجى التقنيات العسكرية الأمريكيين. ومن ناحية أخرى، كان البنتاجون يخشى أن تبيع إسرائيل هذه القاذفات الإسرائيلية فى المستقبل للصين أو لجنوب أفريقيا. وهكذا فشل مشروع إنتاج "لافى"، على الرغم من الخطوات النشطة للإسرائيليين التى قاموا بها بهذا الخصوص، حيث حاولوا تنشيط اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة، لكى يثنى الولايات المتحدة عن الحسم الذى أظهرته بهذا الشأن. والطريف أن تنفيذ خطة إفشال المشروع الإسرائيلى كلف بها أحد الموظفين المسئولين عن ميزانية البنتاجون فى وزارة الدفاع الأمريكية وهو دوف زاكهييم، المعروف بعلاقاته الوثيقة بالدوائر اليهودية فى الولايات المتحدة، والمجمع العسكرى الصناعى. بعد أن نفذ دوف زاكهييم المهمة التى كلفه بها واينبرجر، أطلق عليه أرينز "خائن الأسرة"، الطريف أن زاكهييم هذا كان فى السابق يعد لكى يصبح حاخاما.

كان حماس زاكهييم ملحوظا، لدرجة أنه ترقى فى السلك الوظيفى من عام ١٩٨٥ وحتى ١٩٨٧، حيث عمل نائبا لوزير الدفاع، مشرفا على التخطيط والموارد، وفى بداية التسعينيات أصبح مستشارا لشركة "دوجلاس" (McDonnell Douglas) التى كان ضمن منتجاتها القاذفة إف ـ ١٥، وتم استخدامه من قبل هذه الشركة ومن البنتاجون، للقضاء على مقاومة إسرائيل لبيع عدد من هذه الطائرات للعربية السعودية.

جدير بالاهتمام ملاحظة أن زاكهييم فيما بعد أصبح أحد نشطاء المحافظين، الذين ساعدوا بوش الابن للوصول إلى السلطة، ودفعته مجموعة نائب الرئيس تشينى لمنصب المفتش والمدير المالى للبنتاجون، وفي منتصف عام ٢٠٠٤ شارك فى إحياء "لجنة التهديدات الحديثة" التى أعلنت أن من مهام إدارة الولايات المتحدة مكافحة الإسلام.

مثال دوف زاكهييم هو نموذج مزدوج: أولا هو يؤكد على أنه حتى فى عصر ريجان الذى يعتبر من أكثر الرؤساء الأمريكيين المؤيدين لإسرائيل، ولأسباب معروفة، وضعت الولايات المتحدة مصالحها فوق أى اعتبار، ثانيا، أن اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة ينطلق من أن المهم لإسرائيل ألا تخرج من الأرضية المتماشية مع مصالح الولايات المتحدة، وهذا يفسر ظهور اختلاف فى وجهات النظر حاليا للوبى اليهودى فى أمريكا مع الصقور الإسرائيليين.

أو مثال آخر؛ لما اعتقل جوناثان بولارد، الذى كان يعمل فى مركز مكافحة الإرهاب التابع للبحرية الأمريكية فى نوفمبر ١٩٨٥، متهما بالتجسس لصالح إسرائيل. حينها تساءل الرئيس ريجان عندما أبلغوه بما حدث "لماذا يفعلون هذا؟ نحن لهم بكل أرواحنا، وهم يردون بهذا النكران الأسود". وعلى الرغم من الضغط الهائل على الإدارة الأمريكية من إسرائيل والدوائر اليهودية فى الولايات المتحدة، فقد حكم على بولارد بالسجن مدى الحياة. المعلومات التى سرقها بولارد وأعطاها لإسرائيل، حسب كلمات وزير الدفاع الأمريكة واينبرجر "..... كانت مخصصة للاستخدام الداخلى، والكشف عنها خارج الولايات المتحدة يؤدى إلى ضربة قوية للأمن فى بلدنا". كانت الولايات المتحدة بالطبع تتقاسم المعلومات الاستخبارية مع المخابرات الإسرائيلية، لكن، من الواضح، على جرعات، وبدرجة محدودة، حتى لا تحصل إسرائيل على إمكانية العمل المستقل غير المسيطر عليه من جانب الولايات المتحدة، ومخالفة هذا التخطيط بواسطة إسرائيل عوقب بطريقة قاسية بما فيه الكفاية وهذا ما أظهرته "قضية بولارد".

طالما وجد ويوجد حتى الآن فى إسرائيل نفسها أشخاص يعرفون مدى أهمية العلاقات الوثيقة مع الولايات المتحدة، ولكنهم يرغبون فى أن تترك لهم "أحضان" واشنطن مكانًا أكبر لمناوراتهم. لقد كانت مشكلة المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة، الضفة الغربية وقطاع غزة، محل غضب شديد فى العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية. لم تكن الولايات المتحدة تظهر غضبها، ولكنها كانت دائما ما تعطى إشارات لإسرائيل بأنها لن تؤيد النشاط الاستيطانى. هكذا كان فى فترة جورج بوش الأب ووزير الخارجية جيمس بيكر، اللذين بقيا حلفاء لإسرائيل، وكانا قلقين من الانتفاضة الأولى، وتظاهرات سكان الضفة الغربية. وطالبا رئيس الوزراء شامير أن يهدئ من "غبار الاستيطان". وفى شكل أكثر تركيزا، كان نداء الرئيس أوباما لإسرائيل الذى أطلقه فى أيامه الأولى بعد تولى الرئاسة، بالتوقف عن النشاط الاستيطانى.

وأصبح تجميد بناء المستوطنات الجديدة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، نداء واشنطن الدائم، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد، فقد كانت تظهر من وقت لآخر مشكلات فى العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية. ففى فترة الأزمة الكويتية، فى أثناء حرب الخليج، كانت إسرائيل تعرض خدماتها بإلحاح على القيادة الأمريكية، لكن بوش الأب كان يراهن على تشكيل تحالف أمريكى، مع ضرورة مشاركة دول عربية، وبالدرجة الأولى مصر وسوريا والعربية السعودية، ومشاركة إسرائيل كان من الممكن أن تهدم هذا البناء، بل ذهبت واشنطن لأبعد من هذا، حيث طلبت بإلحاح من شامير لكى لا يقوم بأى رد على الضربات العراقية، إذا تعرضت إسرائيل لهجمات عراقية بالصواريخ. أطلق العراق على إسرائيل أكثر من ٤٠ صاروخًا، لكن شامير لم يخالف بوش، على الرغم مما أحدثه القصف بالصواريخ من صدمة نفسية فى البلاد.

وهكذا كانت مصالح الولايات المتحدة لها الأولوية ، على الرغم من مما سببه هذا من مشاكل مؤلمة لإسرائيل، مثل مشكلة الأمن. لكن الحقيقة قامت الولايات المتحدة، لكى تهدئ الموقف، بتزويد إسرائيل بعدد من المنظومات المضادة للصواريخ "باتريوت"،

والتى لم يكن لها فعالية كبيرة، لكن فى الوقت نفسه لم تحدث الصواريخ العراقية عمليا أى أضرار، سواء ضحايا أو تدمير، لكن المخاطر كانت كبيرة. انضممت فى أثناء هذه الأحداث إلى "مجموعة الأزمة" التى شكلها الكرملين. وفى سؤال لى عما إذا كان يمكن للعراق أن يزود رءوس الصواريخ برءوس نووية (كانت المخابرات الفضائية قد أخطرت بأن المفاعل العراقى لا يعمل - المؤلف) ويحول صواريخه إلى سلاح مشع، أجاب وزير الدفاع د. ت. يازوف بالإيجاب، وفى نفس الوقت كان هناك خوف من أن صدام يستطيع استخدام الصواريخ كسلاح كيميائى، لحسن الحظ أنه لم يغامر باتخاذ هذه الخطوة.

فى نهاية الأمر عبأ شامير وشارون اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة ضد بوش، لكن بوش قبل التحدى وحصل على دعم الكونجرس، عندما انتقد فى خطابه للشعب الأمريكى فى ١٢ سبتمبر ١٩٩١، المنظمات المؤيدة لإسرائيل فى الولايات المتحدة. حدثت مواجهة إذن، ولم تكن السبب الوحيد فى عدم انتخاب بوش لفترة رئاسية جديدة، وفى إسرائيل خسر شامير الانتخابات عام ١٩٩٢ لصالح رابين. يعتقد عدد من الخبراء أن هذا حدث لأنه تحدى رئيس الولايات المتحدة. وبوش خسر لأن الجزء الأكبر من الطائفة اليهودية الأمريكية صوت ضد بوش.

خمد النشاط فى قضية تسوية النزاع الشرق أوسطى بعد مؤتمر مدريد فى أثناء حكم بوش الأب، وتجدد فى أثناء حكم الرئيس كلينتون، وخاصة فى فترة رئاسته الثانية، لكن دون تحقيق نتائج محددة.

الفصل الرابع عشر

الولايات المتحدة تتشدد فى سياستها من جديد

ظاهرة عرفات

كان لنضال الفلسطينيين من أجل حقوقهم تأثير كبير على الوضع فى الشرق الأوسط ، وقد بدأ النضال الفلسطينى كنضال بعض الشخصيات الذين أجبروا على ترك الأراضى التى كانوا يعيشون عليها، والذين كانوا يعتمدون على دعم دول عربية فى مسعاهم للعودة. ظهرت وحدة العرب الفلسطينيين، بوصفهم شعبًا، نتيجة تكوين المنظمات الفلسطينية العسكرية ومن خلال النضال من أجل دولتهم، الذى حصل على دعم واسع فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل، وبين التجمعات الفلسطينية فى الدول العربية. دور ياسر عرفات، المعروف باسم "أبو عمار"، عظيم فى عملية وحدة الفلسطينيين التاريخية.

شخصية القائد الفلسطينى

مثل ناصر، صدرت عن عرفات مؤلفات كثيرة متعددة الأجزاء، وآلاف المقالات، كتبها من كان على معرفة شخصية به ومنهم من التقى أبوعمار، ومن لم يكن يعرفه لكنه مهتم بتاريخ الصراع الإسرائيلى ـ العربى. إلا أنه بين من كتبوا عن عرفات، عدد غير قليل من هؤلاء الذين ينطلقون فى كتاباتهم من خلط الحقائق، والإشاعات، والأوهام، التى تهدف إلى إظهار الزعيم الفلسطينى فى صورة غير جذابة.

بعضهم يصفه بأنه رجل سلام، ويؤكدون على أنه حصل على جائزة نوبل لتوقيعه اتفاقية فلسطينية ـ إسرائيلية عام ١٩٩٩، أدخل بمقتضاها غزة وأريحا للحكم الذاتي الفسطيني. وتصافح عرفات مع رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين، عند توقيع الاتفاقية في شرفة البيت الأبيض. فيما ينعته آخرون بالإرهابي.

من هو ياسر عرفات الذي انفرد بقيادة حركة المقاومة الفلسطينية على مدى عشرات السنين؟ في واقع الأمر. لقد التقيته مرات عديدة، في أماكن وظروف مختلفة، في دمشق وبيروت وصيدا وطرابلس اللبنانية وفي عمان وبغداد وفي موسكو وبراغ، في القاهرة وفي غزة، وكانت لي جلسات طويلة معه، ويبدو لي أنني في حالة تسمح لي بوصف هذه الشخصية التاريخية، والتي تعتبر بسيطة للغاية في نفس الوقت.

ليس هناك شك في أن عرفات كان يعيش نمط حياة متقشف، وقد ظهر هذا في كل شيء، فقد كان يعيش على أثاث متنقل في غرفة صغيرة في بيروت، وكذلك في دمشق، وكان يعيش ويأكل ويعمل في نفس الغرفة، ومن خلال الطعام البسيط الذي كان يقتات عليه، والمظهر الخارجي، حيث كان يرتدي سترة نصف عسكرية كاكية اللون، وجراب بمسدس على خصره، والكوفية، التي لم تتغير ذات المربعات على الرأس. أنا واثق من أنه كان ينفق على نفسه أقل ما يمكن من الأموال، على الرغم من أن أموالاً ضخمة محولة من مختلف الدول العربية، مخصصة للحركة الفلسطينية مرت من خلاله. وسمح لنفسه بتكوين أسرة فقط عندما بلغ عامه الثالث والستين، حيث تزوج من سيدة مسيحية جميلة هي سها الطويل التي أسلمت وأنجبت له ابنة. لكن حتى بعد الزواج لم يعرف الاستقرار الأسري الطريق إلى حياته، وعندما انتخب رئيسا للسلطة الفلسطينية، كانت زوجته وابنته بعيدتين عن أماكن أقامته غير الثابتة والمملوءة بالمخاطر. يقال إنه قبل زواجه كانت سكرتيرته الشخصية نجلاء ياسين مقربة منه. من الممكن تصديق هذا، لكني أعرف، من أحد رجاله، أن عرفات قطع علاقته بها في عام ١٩٨٥، بعد أن قال له زملاؤه، إن علاقته بالسكرتيرة لا تخدم القضية المشتركة. والقضية المشتركة، كانت "الثورة الفلسطينية" وفقًا لكلمات عرفات.

حتى الآن غير معروف أين ولد عرفات، ففى المقابلات التى جرت معه ذكر عدة أماكن ولد فيها، لكن كلها فى فلسطين، القدس، غزة، صفد، البعض يؤكد أنه ولد فى القاهرة. صحيح هذا أم لا لا أعرف، لكن الذى لا شك فيه أن والده كان من ملاك الأراضى فى غزة، والأم تنتسب إلى أسرة مقدسية معروفة. استوطن والدا عرفات مصر، حيث تم تسجيل هذا الطفل ذى الترتيب السادس فى الأسرة، وهو ما فتح له فى المستقبل الطريق للالتحاق بجامعة القاهرة عام ١٩٤٨. لكن بعد وفاة والدته، عاش عرفات عدة أعوام عند خاله فى القدس.

لم يرو لى عرفات أبدا أى شىء عن طفولته وصباه. لكنى عرفت أنه قبل الالتحاق بجامعة القاهرة، أرسل أوراقه إلى جامعة تكساس، لكنه لم يحصل على تأشيرة سفر أمريكية. ربما كان قد تغير شىء فى حياته، إذا لم يعش طفولته فى القدس، ولكن فى القاهرة، وإذا درس فى كلية الهندسة ليس فى القاهرة، ولكن فى جامعة أمريكية. بالطبع كان كل هذا كان سيؤثر فى عرفات بشكل ما، وكان من الممكن، أن يكون له تأثير فى علاقته بالحياة، ولانعكس على شخصيته، لكنى لا أعتقد أنها كان من الممكن أن تؤثر فى نمط تفكيره، فقد بقى فلسطينيا على مدى حياته فلسطينيًا قوميًا، وطنيًا، وأنا واثق من أن هذين المفهومين من الممكن أن يتطابقا، الاختلاف فقط فى أن القومى، المحب لوطنه وشعبه، يضعهما فى مواجهة آخرين، هم حسب رأيه، شعب وبلد أقل كرامة، خاصة عندما يأخذ هذا خصائص عدائية، وهنا يخرج القومى عن إطار الوطنية.

هذا لم يحدث عند عرفات، فالكره الذى سيطر عليه لإسرائيل فى الفترة ١٩٥٠ـ ١٩٦٠ ، لم ينمُ إلى كره لليهود. عندما التقيت عرفات لأول مرة عام ١٩٦٨، فى المواقع التى كان يتمركز فيها الفلسطينيون بالقرب من نهر الأردن على الضفة الشرقية، لفت نظرى مظهره السامى. بعد مرور بعض الوقت وفى جلسة ودية قلت له إن وجهك يشبه الكثيرين من سكان إسرائيل فأجاب: "ليس فى ذلك أى خصوصية" وكرر عبارة ناصر

التى تحدث فيها عن العلاقة الجينية بين العرب واليهود: "الفلسطينيون واليهود أبناء عمومة".

معروف أن إحدى الشخصيات المعروفة فى حركة المقاومة الفلسطينية هو نبيل شعث، تقدم بفكرة إقامة دولة فلسطينية ديموقراطية عام ١٩٦٠، والتى من الممكن أن يعيش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون متساوى الحقوق، لم يرفض عرفات تلك الفكرة وأصبح صاحب الفكرة فيما بعد عضوا فى اللجنة المركزية لحركة فتح. لكن فكرة دولة واحدة لليهود والعرب، التى من البداية، وقبل قيام إسرائيل، تقدم بها الاتحاد السوفييتى، تبين حينها أنها ليست قابلة للحياة.

وعند الحديث عن تركيبة عرفات النفسية، وهذا هو المهم، لا يمكن تصور هذا دون التركيز على مرحلتين مختلفتين من حياته، الأولى الكفاح، وفهم هدف ومهام الحركة الفلسطينية. ويجب القول أنه مر بطريق طويل وصعب، متخطيا فى ذلك حواجز مختلفة، والثانية وعى بالذات، تاركا كل ما لا يصمد أمام تصوره للحياة، ومع كل هذا ظل محافظا على الإخلاص للقضية التى وهبها نفسه بالكامل.

قطع عرفات دراسته عام ١٩٤٨، وذهب إلى الجبهة حيث الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى. وبعد هزيمة العرب، مكث عرفات فى غزة، التى تحولت للسيطرة الإدارية المصرية، حتى عام ١٩٥٠، ثم عاد بعد ذلك للدراسة فى جامعة القاهرة. وهناك أنشأ وترأس اتحاد الطلاب الفلسطينيين. وبعد أن أنهى مرحلة إعداد عسكرى حصل بعدها على رتبة ضابط، وقاد فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر فصيلة من كتيبة فلسطينية وكان برتبة ملازم.

لعبت الحركة الطلابية فى الخمسينيات دورا كبيرا فى تشكيل الوحدة الفلسطينية. فقد نظمت مجموعات منفصلة من الطلبة الفلسطينيين، ليس فقط فى مصر، ولكن فى الدول العربية الأخرى. ولم تكن حركة الطلاب الفلسطينيين ذات اتجاه سياسى واحد، على سبيل المثال كانت اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة الفلسطينيين فى القاهرة مكونة

من أربعة مستقلين، أحدهم بعثى، وآخر عضو فى "الإخوان المسلمين" والثالث شيوعى. وفيما يخص عرفات الذى كان يرأس هذه اللجنة التنفيذية المتعددة الأحزاب، فهناك دلائل لاعتبار أنه فى ذلك الوقت، كان أقرب إلى "الإخوان المسلمين".

دفعه إلى ذلك بالدرجة الأولى ليس فقط المعلومات التى تسربت حول اتصالات سرية لناصر مع الإسرائيليين، ولكن السياسة الواقعية التى انتهجها الزعيم المصرى والتى لم تسمح بأى نشاط مسلح للفلسطينيين المقيمين فى مصر أو الموجودين فى قطاع غزة تحت الإدارة المصرية ضد الإسرائيليين. كان الفلسطينيون الموجودون فى مصر يستطيعون فقط النقاش حول موضوع العودة للوطن، لكن أى نشاط لهم بما فى ذلك إقامة معسكرات للتدريب العسكرى فى غزة ، كان يتم بموافقة السلطات المصرية فقط. قلنا من قبل إن عرفات عندما حاول العمل دون موافقة فى عام ١٩٥٤، سجن، لكن للحقيقة ليس لفترة طويلة.

كان توجه عرفات فى ذلك الوقت معاديًا لناصر، فانتقل إلى الكويت عام ١٩٥٨، حيث تكون فى ذلك الوقت مجتمع فلسطينى كبير، يمارس الأعمال بنجاح، فقرر الاعتماد على الفلسطينيين المقيمين فى الكويت، وفى نفس الوقت بدأ يقيم علاقات مع الأنظمة العربية الأخرى التى أصبحت غنية من تصدير النفط، وحصل منهم على معونات للمقاومة الفلسطينية، فيما يتعلق بالعربية السعودية والكويت فقد أفلح فى ذلك إلى حد كبير.

بعد الانتقال للكويت، بدأت مرحلة جديدة من حياة عرفات العملية ففى عام ١٩٥٨، أنشئت حركة المقاومة الفلسطينية فتح، والتى وضعت لنفسها هدف الكفاح المسلح ضد إسرائيل، وأصبح ياسر عرفات زعيما لفتح. وكان الفدائيون يقومون بالتسلل الفردى للأراضى الإسرائيلية، وزادت هذه الاختراقات بعد أن تم نقل مقر قيادة فتح إلى دمشق عام ١٩٦١.

الابتعاد عن الخلافات العربية

فى عام ١٩٦١ حدثت قطيعة بين سوريا ومصر، أنهت دولة الوحدة المصرية - السورية التى كانت قائمة بينهما على مدى ثلاث سنوات ونصف. حيث زاد نفوذ حزب "البعث" فى سوريا، مما أدى إلى تصعيد التناقض بين جزأى الدولة الواحدة السابقة. لكن الخط الفاصل الرئيسى كان قد رسم بين مصر الناصرية والعربية السعودية، التى دعا ملكها فيصل لعقد مؤتمر قمة إسلامى بمشاركة ليس فقط الدول العربية، ولكن أيضا تركيا وإيران وباكستان. هذا الحلف الجديد كان هدفه أن يحدث توازن على أساس دينى للقومية العربية الناصرية، وكان هذا عودة بدرجة ما لما كان يدعو إليه نورى السعيد من قبل.

بعد عام من هذا وبعد الانقلاب فى اليمن. اصطدمت مصر بشكل مباشر مع العربية السعودية، فقد نشرت مصر قواتها المسلحة التى أرسلتها لليمن لدعم الجمهوريين، بينما زودت العربية السعودية التى تعاونت معها بريطانيا من مساعداتها للأمير البدر فى اليمن. كيف كانت علاقة عرفات بكل هذه الأحداث؟ لم يكن نقل مقر قيادة فتح من الكويت إلى دمشق يعنى على الإطلاق أن الحركة الفلسطينية تنحاز لأى جانب فيما يجرى من صراعات عربية داخلية فى اتجاهات عديدة. لقد تم اختيار دمشق للتمركز لأنها قريبة جدا من الحدود الإسرائيلية مع سوريا ومع الأردن ومع لبنان، مقارنة بالكويت. بالإضافة إلى أنه من بين كل الدول التى لها حدود مع إسرائيل، سوريا كانت أكثر من الآخرين جنوحا للكفاح المسلح.

إلا أن الابتعاد عن الخلافات بين الدول العربية لم يكن يعنى على الإطلاق أنه لا يوجد ميل أو كره لهذه الدولة العربية أو تلك وقائدها، استمر عرفات داخليا ميالاً إلى "الإخوان المسلمين" ليس فقط بالمفهوم الإيديولوجى، بل دفعته لذلك أحاسيسة المعادية لناصر وقربه من العربية السعودية والكويت، المانحين الرئيسيين لفتح.

تنامى عداء عرفات لناصر نتيجة موافقة رئيس مصر على السماح بنشر قوات الأمم المتحدة على الأراضى المصرية على الحدود مع إسرائيل، فى الوقت نفسه بدأ عرفات يشعر بخيبة الأمل فى أن "القضية الفلسطينية" من الممكن أن يكون لها مستقبل نتيجة قيام الدول العربية بأى أعمال ضد إسرائيل، وأصبح أكثر اقتناعا بأن الفلسطينيين أنفسهم يجب أن يستعيدوا حقوقهم القومية بأنفسهم. وظهر هذا من خلال تاريخ إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤.

من الصعب الاتفاق مع محمود عباس (أبومازن) الذى كتب فى كتابه "الطريق إلى أوسلو": "تشكلت منظمتان (منظمة التحرير الفلسطينية وفتح ـ المؤلف) لكى يكملا بعضهما فى عملية كفاح الشعب الفلسطينى من أجل حقوقه". فيما بعد هذا الاستنتاج تحقق، لكن فى لحظة تكوين منظمة التحرير الفلسطينية كان هذا غير دقيق. وحقيقة اعترف محمود عباس بأن منظمة التحرير الفلسطينية كانت "طفل الأنظمة العربية" وهذا "لم يكن يتطابق مع المزاج الجماهيرى"، ولكنه يؤكد "..... على الرغم من هذا، كان الفلسطينيون يرون فى منظمة التحرير الفلسطينية بيتهم". رغم أن كل هذا لم يتحقق مباشرة على الإطلاق.

تم "التخطيط" لإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية باقتراح من ناصر فى أثناء القمة العربية التى عقدت فى القاهرة فى يناير عام ١٩٦٤. هذه القمة عقدت للنظر فى نوايا الإسرائيليين تحويل جزء كبير من مجرى نهر الأردن لرى صحراء النقب. كان ناصر غير مستعد لمواجهة عسكرية واسعة مع إسرائيل، وحاول تجنبها. بينما كان لسوريا والفلسطينيين موقف آخر، وتعرضت المنشآت الإسرائيلية المخصصة لتحويل مياه الأردن للهجمات، وردت إسرائيل باستخدام الطيران، فدمرت إحدى أنظمة المياه السورية، وهددت "بحرب شاملة". عندما قدمت مصر اقتراحًا بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية فى هذه الظروف، كانت بدرجة محددة تسعى لتقسيم مسئولية موقفها المتحفظ مع منظمة الفلسطينيين السياسية، لكن اللجنة العربية العليا التى يرأسها مفتى القدس واقعيا تلاشت فى عام ١٩٥٦، والمنظمة الوحيدة التى كانت مؤثرة فى ذلك الوقت كانت المنظمة الفلسطينية فتح، وكانت مستقلة، وأنشئت من أجل الكفاح المسلح.

أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية فى مايو ١٩٦٤، فى المؤتمر الفلسطينى الذى عقد فى فندق "أمباسادور" بالقدس الشرقية. لم يشارك ياسر عرفات لا فى القمة العربية فى القاهرة ولا فى مؤتمر القدس. شارك أبو جهاد مراقباً، لكنه لم يشارك حتى فى النقاشات. وأصبح ممثل منظمة التحرير الفلسطينية، الموظف فى الخارجية المصرية والفلسطينى الجنسية أحمد الشقيرى، وهو شخصية لا تصلح لشىء، وأبعد ما يكون عن الاستقلالية، ولهذا السبب وافقت على ترشحه كل الدول العربية، وعلى الأرجح ولا دولة من الدول العربية كانت تريد أن تتمتع منظمة التحرير الفلسطينية بالاستقلال.

رفضت فتح الانضمام لمنظمة التحرير الفلسطينية. فقد برزت فتح وكانت تعمل بالتوازى مع منظمة التحرير الفلسطينية. وكان عرفات ومنظمة فتح التى يقودها ينطلقان فى ذلك الوقت من أن الكفاح المسلح فقط هو الذى من الممكن أن يضمن استعادة حقوق الشعب الفلسطينى. ولم يفكر عرفات وزملاؤه فى فتح فى انتزاع هذه الحقوق بطرق سياسية. ولم يفعل أحمد الشقيرى عمليا شيئًا، ومن أجل الحفاظ على سمعته، دعا بحماس فى الإذاعة إلى تدمير إسرائيل. وأظهر "جيش التحرير الفلسطينى" الذى أنشأته منظمة التحرير الفلسطينية نشاطًا محدوداً، وانتشرت بشكل واسع فى الدول العربية أفلام عن إعداد جنوده وقادته لكى يصنعوا "المعجزات" فى أرض المعارك. والمقارنة بين المنظمتين بين الجماهير الفلسطينية، كانت تأتى دائما بشكل واضح فى صالح فتح، التى أظهرت استقلاليتها حتى عن ناصر وجامعة الدول العربية، التى كانت تنتقد منظمة التحرير بسبب عدم عمل أى شىء لدعم الكفاح الفلسطينى. هذه الازدواجية فى الحركة الفلسطينية كانت تناسب تلك الأنظمة العربية التى تخشى تأثير ناصر على مواطنيها، فكانت تمول فتح.

حازت فتح على مواقع أقوى فى أوساط التجمعات الفلسطينية فى مختلف دول العالم العربى، وخارجه، وهو ما جعل المنظمات الفلسطينية الأخرى تتقرب منها، ومنها حركة القوميين العرب ذات التوجهات الناصرية، والتى نشأت على قاعدتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومنظمة "الصاعقة" ذات التوجه السورى وغيرها.

من المميز في هذه الفترة، أن فتح لم تكن منظمة معادية للغرب على الإطلاق. وبالتالى كان عرفات يتمسك بهذا الخط. فقد ظهر التوجه المعادى للدول الغربية التى تمد إسرائيل بالأسلحة الحديثة وتمدها بالأموال عند عرفات فيما بعد. فى ذلك الوقت الموقف المعادى للغرب من بين كل المنظمات الفلسطينية اتخذته فقط حركة القوميين العرب، التى كان يقودها جورج حبش، الذى دعا إلى بدء النضال من أجل الحقوق الفلسطينية بإسقاط الحكومات التابعة للغرب فى أوساط الدول العربية.

دعمت حرب الأيام الستة ١٩٦٧، والتى خسرتها الدول العربية، أفكار عرفات فى أن انتزاع الحقوق الفلسطينية هو عمل يجب أن يتبناه الفلسطينيون بأنفسهم.

تمركزت فتح فى الأردن بعد حرب الأيام الستة، وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة، فإنها كانت تقوم بالتسلل إلى الأرض المحتلة عبر نهر الأردن، والاشتباك مع الجيش الإسرائيلى. وفى ديسمبر ١٩٦٧ ترك الشقيرى منصبه مجبرا، فقد كان الفلسطينيون غير راضين عنه قائداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، كما أنه بعد الحرب فقد تأييد مصر. وفى فبراير ١٩٦٩ وفى الدورة الخامسة للمجلس الوطنى الفلسطينى (أعلى هيئة فى منظمة التحرير الفلسطينية ـ المؤلف)، انتخب ياسر عرفات قائد فتح رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهكذا انتهت الازدواجية بين منظمة التحرير الفلسطينية وفتح، وأصبحت فتح القوة الرئيسية التى توجه أعمال منظمة التحرير الفلسطينية. انحصرت أهمية ما حدث من تغيرات فى أنه بالإضافة إلى الفتحاويين فى اللجنة التنفيذية، انضم ممثلو منظمات سياسية ـ عسكرية فلسطينية أخرى.

معركة الكرامة

نقطة تحول في العلاقة مع ناصر

تعززت مرجعية فتح كقوة قائدة فى منظمة التحرير الفلسطينية، بعد معركة مع الجيش الإسرائيلى عند قرية الكرامة فى الضفة الشرقية لنهر الأردن. يمكن الاعتقاد

هنا بأن منظمة التحرير الفلسطينية حصلت على ملامح مؤسسة فلسطينية. قرر موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى توجيه ضربة لمقاتلى فتح. الهدف تم اختياره بالقرب من قرية الكرامة التى يقع بالقرب منها معسكر يضم ٤٠ ألف لاجئ فلسطينى. وكان يقع بالقرب مخيم آخر يسمى شون، عند جسر اللينبى (كان هكذا يسمى قبل تغيير الاسم إلى جسر الحسين ـ المؤلف) على نهر الأردن. بدأت المعركة التى شارك فيها ثلاث لواءات، تعدادهم ١٠ آلاف فرد، يوم ٢١ مارس ١٩٦٨، تحركوا إلى الضفة الشرقية، المدفعية الثقيلة قصفت المواقع الفلسطينية من الضفة الغربية، دبابات طائرات مروحيات حربية. ولعدة ساعات تصدى لها مقاتلو فتح بمفردهم، ثم انضمت إليهم وحدات من الجيش الأردنى، التى عندما فشل قائدها "فى الاتصال بالملك حسين" اتخذ قرارا بدعم الفلسطينيين بنفسه. وقعت دبابات إسرائيلية فى كمين، ما أدى إلى خسائر كبيرة حيث قتل ٢٨ وجرح ٧٠، وتم تدمير عدد من الدبابات، وانسحب الإسرائيليون. كانت الخسائر البشرية الفلسطينية من الأفراد أكثر بثلاث مرات، لكن بلا شك بدا واضحا أن هذا انتصار كبير، خاصة، على خلفية الهزيمة الساحقة التى منيت بها كل من مصر وسوريا والأردن فى حرب الأيام الستة. بعد ذلك انضم المتطوعون من مختلف الدول العربية إلى صفوف فتح بما فى ذلك من مصر.

بعد أسبوع من معركة الكرامة، دعا ناصر عرفات للقائه فى القاهرة. منذ هذه اللحظة بدأت مرحلة أخرى من حياة عرفات الذى دفعته الأحداث إلى الدور القائد فى المواجهة مع إسرائيل. رافق عرفات إلى القاهرة أبو إياد وفاروق قدومى، لكن المباحثات جرت بين ناصر وعرفات على انفراد، وهذا كان أول لقاء لهما "وجها لوجه"، سأل رئيس مصر عرفات، هل تعتقد أنه من الممكن الانتصار على إسرائيل؟، أجاب أبوعمار، نعم، وسكت ولم يرد على ملاحظة ناصر عن أنه من الضرورى التفكير كذلك فى وسائل سياسية لإقامة دولة فلسطينية، لكنه وافق بدون تردد على اقتراح رئيس مصر بأن يسافر معه إلى موسكو. وتمت الزيارة فى يوليو ١٩٦٨ ، واعتبر عرفات عضوا فى الوفد المصرى رسميا، بجواز سفر دبلوماسى باسم محسن أمين. وقدمه ناصر للقادة

السوفييت بوضعه الحقيقى، التقى عرفات مع ب. ن. بونوماريوف. فى هذه اللقاء لم يدر الحديث فقط عن مشاكل "حرب الاستنزاف" النشطة من خلال القصف بالمدفعية والهاون للمواقع الإسرائيلية عبر قناة السويس على الشاطئ وفى عمق سيناء التى تحتلها إسرائيل، ولكن أيضا تناول مشاكل التسوية السلمية الشاملة. ربما فكر عرفات حينها لأول مرة فى دعم الكفاح المسلح ضد إسرائيل بوسائل سياسية.

حينها فكر عرفات فى العمليات العسكرية والوسائل السياسية معا، بترتيب ونسب. لم تزعجه الشعارات الماركسية، التى ترفعها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، وخاصة تصريحاتهم الصاخبة عن توجهات برامجهم الماركسية. هذا "التحمل" ساعد فتح، بالطبع أكبر منظمة بين المنظمات الفلسطينية فى ذلك الوقت، أن تكون على رأس حركة المقاومة الفلسطينية.

ظل موضوع "تدمير إسرائيل" ثابتا ومعلنًا ويشغل عرفات وحركات المقاومة الفلسطينية كلها فى الفترة من نهاية الستينيات وبداية السبعينيات. لكن يا للعجب ماذا حدث فى واقع الأمر، أى أنغام جديدة كانت لفترة ما مكتومة، وبعد ذلك أصبحت أكثر صخبا لفكرة إقامة دولة فلسطينية ومكانها على خريطة الشرق الأوسط؟.

أفتح الآن دفتر التسجيل، الذى سجلت فيه لقاءات لتلك الأعوام مع عرفات. مما سجلت التالى، أن أبوعمار ولد فى لهيب عدم وجود بديل عن القتال المسلح من أجل "تحرير كامل فلسطين"، وبالتدريج، بالتدريج الشديد، تطور، ويمكننى القول إنه تحول إلى مناضل - سياسى. بالطبع، وخاصة فى الفترة الأولى، رأيت عرفات من خلال العبارات شديدة اللهجة المعادية لإسرائيل التى كانت تغذيها، بالمناسبة، أعمال الجيش الإسرائيلى غير المتناسبة ضد المواطنين الفلسطينيين. لكن فى بداية السبعينيات يبدأ عرفات فى التفكير فى إمكانية إنشاء دولة فلسطينية، ليس محل إسرائيل، ولكن فى الفترة الأولى إلى جوارها، لاحظوا "فى الفترة الأولى" فقط، ثم بالتدريج تغير، لكن هذا ليس البداية الأولى للسبعينيات و إنما فيما بعد.

مقابلتان مع أبوعمار ـ قبل وبعد أيلول الأسود

لعبت أحداث الأردن دورا خاصا فى هذا التطور، ففى عام ١٩٧٠ تصاعد التوتر بين الملك حسين وحركة المقاومة الفلسطينية، وقد كانت حركة المقاومة الفلسطينية موحدة، وبالدرجة الأولى فتح بزعامة أبوعمار، التى اتخذت اتجاهاً للسيطرة الكاملة لحركة المقاومة الفلسطينية على الأردن وتحويلها إلى جبهة للعمليات العسكرية ضد إسرائيل. لم تقبل القيادة الملكية على الإطلاق إمكانية وصول الأحداث إلى هذا الحد، وبدأت "تحاصر" الفلسطينيين، لدرجة منعهم من حمل السلاح فى عمان وإنشاء مخازن ذخيرة فى الأحياء السكنية. لكن حقيقة أن الفلسطينيين كانوا يريدون السيطرة على الوضع فى الأردن، والأردن دولة بدورها كانت تسعى للسيطرة على حركة المقاومة الفلسطينية لا يعكس جوهر التناقض العميق وتوازن القوى فى ذروة الأزمة، فقد وقفت إسرائيل عمليا إلى جانب الأردن، بينما وقفت سوريا إلى جانب الفلسطينيين. المشكلة كانت تنحصر فى أن القيادة الأردنية كانت على اتصال مع الإسرائيليين حول مصير الضفة الغربية. فى هذه الظروف كانت عمان ترى أن الحل فى إنشاء منطقة حكم ذاتى للفلسطينيين فى الضفة الغربية فى إطار الدولة الأردنية. الفلسطينيون من جانبهم اتخذوا قرارا فى دورة المجلس الوطنى الفلسطينى الذى عقد فى عمان (! ـ المؤلف) فى أغسطس ١٩٧٠ مفاده "..... بأى طريقة يجب تحويل المسرح الأردنى ـ الفلسطينى إلى حصن للثورة الفلسطينية الشاملة"، فى ذلك الوقت، على سبيل المثال، صرح جورج حبش بأنه "ليس هناك فرق، على الإطلاق، بين ديان وحسين".

تصاعد الموقف، وفرض الملك حالة الطوارئ، وعين حكومة عسكرية برئاسة الجنرال داود، وأصبح الجنرال حابس المجالى، الذى لم يخف عداءه للفلسطينيين، حاكما عسكرياً للأردن بصلاحيات واسعة. يوم ٦ سبتمبر قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعملية ليس لها مثيل فى ذلك الوقت، حيث اختطفت أربع طائرات ركاب، وأجبرتها على الهبوط فى مطار قريب من عمان، ووجهت إنذاراً مهددة بتفجير الركاب

والأطقم، إذا لم يطلق سراح المعتقلين الفلسطينيين المحتجزين فى السجون الإسرائيلية. رد ديان بأنه حتى لوكانت ابنته ضمن ركاب الطائرات المختطفة فإنه لن يوافق على طلبات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، لأن هذا سيفتح الطريق لتكرار لن ينتهى من عمليات خطف الرهائن. بعد رفض إسرائيل تنفيذ مطالب الخاطفين، تم إطلاق سراح الركاب والأطقم، والطائرات تم تفجيرها.

التقيت أبو عمار قبيل "أيلول الأسود" عام ١٩٧٠، كانت حينها السماء فوق الأردن قد تلبدت بغيوم المواجهة الفلسطينية ـ الأردنية الآخذه فى التصاعد. جلسنا عدة ساعات فى غرفته الصغيرة فى دمشق، وكانت محتوياتها مكونة من مكتب صغير، سرير متنقل ضيق. قال عرفات بحزم، إن اليد العليا بلا شك ستكون للفلسطينيين فى الأردن، لأن كثيراً جدا من ضباط الجيش الملكى الأردنى فلسطينيين، وهم لن يرفعوا أيديهم على إخوتهم، ولم يقبل أى وقائع فى اتجاه أن الأمور ليست هكذا بهذه البساطة، وأن إسرائيل لن تبقى دون أن تشارك، إذا زحفت منظمة التحرير الفسطينية للاستيلاء على السلطة فى عمان. قاطعنى أبو عمار "فى هذه الحالة سيتحول العالم العربى كله إلى فيتنام الثانية".

جرت المقابلة التالية مع ياسر عرفات كذلك فى دمشق يوم ٢٧ يونيو ١٩٧١، على خلفية هزيمة الفلسطينيين فى الأردن. لم تأت الوحدات العراقية الموجودة فى الأردن والتى راهن عليها عرفات، انضم إلى جانب الفلسطينيين فقط، عدد محدود من عساكر وضباط الجيش الأردنى، لكن لم تنضم أى وحدة أردنية، وهو ما راهن عليه عرفات أيضا. دخل جيش التحرير الفلسطينى مدعوما بمدرعات سورية إلى الأراضى الأردنية، وتحرك فى اتجاه عمان، ردا على ذلك أعلنت إسرائيل التعبئة، وأرسلت الولايات المتحدة سفن الأسطول السادس إلى المنطقة ما بين قبرص وسوريا. وعلى الرغم من توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار، اضطرت المجموعات المسلحة الفلسطينية لمغادرة الأردن.

تأكيدا لطبيعة الثقة فى الحديث، قال لى عرفات فى أثناء لقائى معه يوم ٢٧ يونيو: "الوضع سيئ، لكن على الصعيد السياسى استخلصنا بعض الإيجابيات من سبتمبر ١٩٧٠، الآن رؤيتنا أفضل لمن هو عدونا، وننسب للإنجازات أيضا قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر فى نوفمبر ١٩٧٠، والذى تعترف فيه بحقوق الفلسطينيين".

فبادرته بالسؤال - تعنى إقامة دولة فلسطينية، على الرغم من أنه حسب علمى، حقوق الفلسطينيين فى قرار الجمعية العامة لم تحدد؟

بدوره سألنى عرفات - عن أى دولة تتحدث؟

فوضعت أنا النقاط على الحروف وأجبته - عن تلك التى ممكن أن توجد فى ظروف وجود إسرائيل.

فقال عرفات - سأجيبك بشكل مباشر، نحن ليس لدينا القدرة على تدمير إسرائيل فى الوقت الحاضر، والصراع مع قادتها عملية طويلة، نحن مع محاولة حل الوضع لصالح الفلسطينيين فى الوقت الراهن، ولكى يسمع صوتنا، وتصان مصالحنا، نحن نحتاج إلى تغيير التكتيك. نحن ضد القرار الذى صدر فى ٢٢ نوفمبر[٥١]. لكن مهما فعلنا، فإن التسوية السياسية لا تعتمد علينا، وإذا لم نشارك فيها لن نستطيع الدفاع عن مصالحنا، والتسوية ستمر من أمامنا. فى مثل هذه الظروف، الدفاع عن حقوقنا ينحصر فى ألا تعود الضفة الغربية المحتلة إلى الأردن، وغزة إلى مصر، كما كان الوضع قبل ١٩٦٧، نحن مع إقامة دولة فلسطينية على هذه الأراضى، لكنها لن تكون مستقرة إذا لم تشمل الضفة الشرقية للأردن - أضاف عرفات - حتى تشرشل فى مذكراته كتب بعد الحرب العالمية الأولى، أن الضفة الشرقية حكمتها السلطة الفلسطينية.

- أشكرك على صراحتك، لكن هناك سؤالاً لا يقل أهمية: كيف سيكون الموقف من هذه المبادرة داخل الحركة الفلسطينية؟

أجاب عرفات ــ هذا لا يقلقنا، وأين كانوا هم عندما حاربنا فى الأردن؟ بالطبع سيكون لدينا متاعب، لكننا لا نخشاها.

وفى إجابته على سؤالى حول كيف سيكون رد فعل الدول العربية قال عرفات ــ سيكون العراق وحده ضد، وممكن تكون العربية السعودية ضد فى داخلها، فهى لها رجالها بيننا، والذين من الممكن أن تستخدمهم، ولكن نحن أيضا لدينا مائة ألف فلسطينى يعملون فى العربية السعودية، بما فى ذلك فى صناعة النفط، أى أن العربية السعودية تدرك أننا نستطيع أن نفعل، ومن غير المحتمل أن تنشط. فقد صرح الملك فيصل فى الولايات المتحدة أنهم سيقبلون كل ما يوافق عليه الفلسطينيون. كان فيصل يرفض من قبل معادلة "دولة ديموقراطية لقوميتين فى فلسطين"، والتى وصفها فى السابق بأنها خروج عن الإسلام، لكنه سيقبل الآن معادلتنا الجديدة، سيكون الملك حسين معارضا بشدة، ومن الممكن أن يرغب فى هذه الظروف فى عقد اتفاق منفرد مع إسرائيل. لدينا علم باتصالاته مع أبا إيبان فى لندن، ومع موشى ديان فى نيويورك ومع إيجال ألون على البحر الميت، لكن إسرائيل لا تريد الاتفاق معه، بل مع الفلسطينيين. والفلسطينيون يرون أن الطريق للتسوية السياسية من خلال إقامة دولة فلسطينية، وليس تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، كما كان يعنى أبوعمار.

وقام عرفات للتأكيد على كلامه، برسم خريطة فلسطين، التى كانت مقسمة إلى جزأين وأشار عرفات "هنا سنكون نحن، وهنا ستكون إسرائيل". وبناء على طلبى، دون تردد قام بالتوقيع على الخريطة. كان هذا فى صيف ١٩٧١، أى قبل حوالى عشرين عاما من إعلان عرفات على مسمع من الجميع، أن تدمير إسرائيل لا يعتبر هدفا للحركة الفلسطينية.

عندما أخبرت موسكو بما دار فى هذا اللقاء، أكدت فى البرقية الشفرية على بعض الظروف، ستأتى لحظات جديدة فى عملية التسوية، سيشارك فيها الفلسطينيون. عرفات يتجه إلى إنشاء دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل، وحديثه عن عدم إمكانية

تدمير هذه الدولة فى الوقت الراهن، مجرد لغة منمقة وتمويه للابتعاد عن الموقف المعلن السابق. وعلى الرغم من تأكيد عرفات أنه لا يقلقه الوضع الفلسطينى الداخلى، فقد كان هناك أساس للاعتقاد بأنه لن يحدث انقسام حقيقى فى حركة المقاومة الفلسطينية، بسبب فكرة دولة فلسطينية على الأرض التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧، الضفة الغربية وقطاع غزة، (أجريت فى دمشق لقاءات مع قائد "الصاعقة" زهير محسن وزعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جورج حبش، وكلاهما كانت علاقته بفكرة الدولة الفلسطينية سلبية للغاية، حتى إن حبش وصف هذا بأنه"خيانة" - المؤلف). جرى حديثى مع عرفات بعد لقائه مع السادات والملك السعودى فيصل فى القاهرة مباشرة، وبالتالى توجد دلائل للاعتقاد أنهما وافقا على مناقشة السياسة الجديدة للفلسطينيين، بما فى ذلك مستقبل علاقتهم بالملك الأردنى حسين.

كانت الخلاصة كالآتى: التوجه الصريح المتخذ بإنشاء دولة فلسطينية، سيحمل تحديثًا مهمًا فى عملية التسوية الفلسطينية. وكان يجب استيضاح لأى درجة ستشارك الولايات المتحدة فى هذا التوجه الجديد، على أى حال من غير المحبذ أن يبقى الاتحاد السوفييتى بعيدا عن هذه العملية، خاصة وأن له أفقًا من الناحية التاريخية، وعلاقتنا مع فتح فى هذه الظروف من الممكن، ليس فقط أن تساعد التسوية السياسية فى الشرق الأوسط، ولكن فى تعاظم دور الاتحاد السوفييتى فى المنطقة، سيشمل بما فى ذلك فى الدولة المزمعة، التى ستنشأ بهذا الشكل أو ذاك.

فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ كنت فى سوريا ولبنان. تلك الحرب التى بدأت هذه المرة بمبادرة من مصر وسوريا، أعادت عرفات وأغلب زملائه، من جديد ولفترة ما، لفكرة أن الطريق للتسوية الفلسطينية يمر عبر الحرب ضد إسرائيل بواسطة القوات المسلحة النظامية للدول العربية، فقد استمال النجاح الذى حققته مصر وسوريا فى المرحلة الأولى للحرب، عرفات، لمثل هذا الاستنتاج. وفى ذلك الوقت تلاشى وهم مؤامرة الدول العظمى ضد الفلسطينيين، وعدم جودة الأسلحة السوفييتية، التى زود بها

الجيشان المصرى والسورى، مثل فقاعة الصابون، وسمع الجميع عن صواريخ سام ـ ٦ وسام ـ ٧ التى أسقطت الطائرات الإسرائيلية، وقد عبر عن ذلك محمد عودة الذى التقيته فى بيروت يوم ١٣ أكتوبر وكان قد وصل لتوه من القاهرة عندما قال مقارنا الوضع الحالى بعام ١٩٦٧، أستطيع القول "إن الإسرائيليين أصبحوا يشبهون العرب، والعرب أكثر شبها باليهود".

لا تجاهل للسياسة

رسخت هزيمة العرب فى الحرب وما تلاها من أحداث، أفكار عرفات على ضرورة حل المشكلة الفلسطينية فى الوقت الراهن بالطرق السياسية، ودفعه لهذا الاستنتاج بلا شك، الموقف الذى اتخذه الملك حسين. فقد أرسل عرفات العضو القيادى فى الجبهة الشعبية الديموقراطية صالح رأفت إلى عمان يوم ٩ أكتوبر، حيث التقى الملك حسين، وكان مكلفا بإثارة مسألتين مع حسين، دخول الأردن الحرب، والسماح لحركة المقاومة الفلسطينية بالعودة للأردن. وأجاب الملك على النحو التالى، "لقد حذرنى الأمريكيون من أنه خلال عدة أيام سيتم تدمير المجموعات المصرية والسورية، فى مثل هذه الظروف سأبدأ العمل العسكرى فقط فى حالة تحرير مرتفعات الجولان وتمكن المصريون من السيطرة على الضفة الشرقية لقناة السويس بدون بدء العمليات العسكرية من جانبى، ولا يمكن الحديث عن السماح لحركة المقاومة الفلسطينية بالعودة إلى الأردن".

أنا أتصور أن هذا كان نوعًا من الاختبار لموقف حسين، وجرى تنفيذه بأوامر مباشرة من عرفات، وعلى أى حال هو كان يعلم موقف الملك من قبل، وهو لا يستطيع ألا يفهم أن الطريق لتحويل الأردن لجبهة للعمليات العسكرية ضد إسرائيل مقطوع. فى ١٣ أكتوبر، أكد حواتمة، ويعتقد أن أبوعمار يشاركه الرأى، عندما قال لى "إن الحرب ستؤدى إلى إضعاف دور حركة المقاومة الفلسطينية، ولهذا فإن الأهم أن يكون لدينا برنامج بنّاء لإقامة دولة فلسطينية". لكن أى دولة وبأى طريقة؟

فى هذا الوقت كان هناك ثلاثة احتمالات، إما إدارة القضية لتحرير الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة عن طريق السلاح، وهذا كان غير ممكن بدون حرب كبرى جديدة مع إسرائيل، وإما بالطرق السياسية الحصول على قرار بإقامة دولة فلسطينية تكون فى الضفة الغربية كجزء من الأردن، ومن الممكن تكوين كونفدرالية، وإما الوصول إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة. الاحتمال الثانى أيدته الولايات المتحدة، ويمكن الاعتقاد أن هذا الحل لم يكن مقبولا فقط، ولكنه كان يروق لعمان. فيما يتعلق بالموقف السورى فقد قال لى خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطنى الفلسطينى والمقرب من القيادة السورية، فى لقاء لى معه فى دمشق يوم ١٥ أكتوبر، حيث وصلت قادما من بيروت، وفق كلامه إن حافظ الأسد يعتقد أن المخرج الوحيد للفلسطينيين من الوضع الحالى، قبل أى شىء تحرير الضفة الغربية، وبعد ذلك التفكير مع الأردن فى دولة مشتركة. بالنسبة لعرفات هذه معادلة، كانت غير مقبولة، بقسميها، وهو ما أكده لى مرة أخرى فى أثناء لقائنا فى صيدا يوم ٢٣ أكتوبر (حضر معى أحد دبلوماسيينا فى إ.كولوتوشا ـ المؤلف)، حيث قال عرفات "نحن نريد فقط الدولة المستقلة، التى تسعى لإقامة مزيج من الوسائل العسكرية والسياسية، إلا أنه لا أحد ولا شىء يجبرنا مرة أخرى أن نذهب تحت سلطة البدو، المرتبطين بالأمريكيين والإنجليز". بدأ الحديث حول هذا الموضوع من تلقاء نفسه، وتحدث بحسم، من الواضح، أنه فى ذلك الوقت كان قلقا من رد فعل الأردن وسوريا على فكرة الدولة الفلسطينية. من الممكن الظن أنه كان داخليا يأمل فى دعم القاهرة. على أى حال هو قال إنه يرى خطأ الفلسطينيين "فى عدم المرونة الكافية" فيما يخص "مبادرة روجرز" (كما هو معروف قبلها ناصر ـ المؤلف)، ثم فكر مليا وأضاف "والنتيجة فى سبتمبر ١٩٧٠ لم يكن لدينا الظهير المصرى. لن نكرر مثل هذا الخطأ".

أصبح عرفات بالتدريج أكثر واقعية، وأقل تأرجحا تارة إلى اليسار وأخرى إلى اليمين، وغدا يتعامل بجدية مع المشكلات السياسية، وقد بدا هذا واضحا على خلفية بعض القادة الفلسطينيين الآخرين. وكنت أود بهذا الخصوص أن ألتقى بشخص لطيف

بالنسبة لي، ذكي، لكنه "يساري" حتى النخاع هو الدكتور جورج حبش الذي التقيته في بيروت، حيث كنت عائدا من صيدا، بعد أن التقيت عرفات، بدأ حبش الحديث معي من تأكيده على "كل شيء تقرره جماهير الكادحين وهبّاتها الثورية في الحركة الفلسطينية"، وأنا قاطعته دون حرج، فنحن كنا على علاقة ودية لأعوام طويلة قائلا: يوجد على أي حال فرق بين الثورية الرومانسية والثورية الواقعية، وأضفت أنني أمجد تشي جيفارا، وحتى أحيانا مبهور به، لكنه لم يصنع ثورة في بوليفيا. فقال حبش: حسنا، حينئذ أنا سأحدد لك سياسة الجبهة الشعبية في النقاط التالية، ضد القرار ٢٤٢، وضد معاداة السوفييت، وفيما يخص التسوية السياسية ليس لدينا قرار.

أصبح مجال مناورة عرفات فسيحا بعد حرب أكتوبر، فقد اعترفت القمة العربية التي عقدت في الجزائر في نوفمبر ١٩٧٣ بمنظمة التحرير الفلسطينية، والتي كان في السابق تتغلب في داخلها مواقف فتح، "ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني". وفي ٢٦ سبتمبر ١٩٧٤، خرجت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كانت ترفض الحل السياسي للمشكلة الفلسطينية، من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

فيما يخص الأردن، فإن الملك حسين جرب "شد الحبل"، ونجح في ذلك عندما ظفر بأن يشمل بيان مباحثات الإسكندرية مع السادات عام ١٩٧٤، على وضع "منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر الممثل الشرعي للفلسطينيين باستثناء هؤلاء الذين يعيشون على أراضي المملكة الأردنية الهاشمية". إلا أنه كان مضطرا للموافقة على قرارات قمة الرباط (أكتوبر ١٩٧٤ ـ المؤلف)، بعد ذلك "أخرج الأردن الضفة الغربية من مسئوليته"(هذا بالتالي أعطاه إمكانية، توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل، وهو بذلك ليس لديه أي نزاع حول أراض مع إسرائيل ـ المؤلف).

تحرك الملك حسين في طريقه الأردني، منذ لحظة تخليه عن السيطرة على الضفة الغربية. ذات مرة في إحدى جلساتنا قال لي "أنا دخلت الحرب مع إسرائيل عام ١٩٦٧ بمبادرة مني، وخسرت الضفة الغربية، وهذا علمني الكثير"، ولم يضف أي شيء لهذه

الكلمات، لكن أنا فى داخلى أكملت عبارته "والآن لا أريد أن أفقد دولتى وعرشى بسبب الضفة الغربية". وكان من الممكن فهم موقفه أيضا.

بعد كل ما مضى، أصبحت المشكلة الرئيسية لعرفات وفتح ومنظمة التحرير الفلسطينية، هى الاعتراف بقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨. وكان موقف الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة متطابقا حول هذا الأمر، لكن الفارق كان ينحصر فى أن الولايات المتحدة وإسرائيل استخدمتا عدم قبول منظمة التحرير الفلسطينية للقرارين كدليل على عدم إمكانية الاتفاق مع الفلسطينيين. كتب محمود عباس "مر الوقت، وكل مرة عندما تذهب وفود رسمية فلسطينية إلى موسكو، كان أندريه جروميكو وزير الخارجية السوفييتى يتحدث معهم فى اللقاءات ويقول ليس أمامكم خيار آخر غير الاعتراف بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨، هذان القراران ورقة قوية فى أيديكم، من الممكن استخدامها فى اللحظة المناسبة، تنبهوا لا تفوتوا الفرصة، أرجوكم أعطونا إمكانية اللعب بهذه الورقة فى مباحثاتنا مع الأمريكيين والأوروبيين والإسرائيليين، من ممكن حينها أن نتمكن من إيجاد الحل الذى نحتاجه. وكان رد الفلسطينيين الدائم والمتصلب "لا، نحن لا نستطيع قبول هذين القرارين" (٥٢).

كل مرة فى موسكو كانت تحدث مثل هذه الحوارات، لكن من الواضح أن هذه الحوارات فى النهاية لعبت دورا محددا فى تغيير موقف منظمة التحرير الفلسطينية من هذين القرارين. ومن السهل الوصول لهذا الاستنتاج دون السقوط فى مبالغات عن تأثير "العامل السوفييتى". كل ما فى الأمر، أن منظمة التحرير الفلسطينية كان من الممكن أن ترفض القرارين كما فى السابق (كان الخوف من أن الموافقة على القرارين تعنى الاعتراف بإسرائيل فى ذلك الوقت، كما أن المسألة الفلسطينية فى القرارين لا تؤدى إلى قيام دولة، ولكن إلى مشكلة لاجئين، هذا الخوف هو الذى وقف خلف رفض القرارين - المؤلف) إذا كانت حتى إحدى القوتين العظميين على الأقل محايدة فيما يخص القرارين، لكن هذا لم يحدث فكلتا القوتين مؤيدتين للقرارين، وفى نفس الوقت،

تم استعراض مستقبل عزل الفلسطينيين، حتى فى العالم العربى، الذى قبلت الأغلبية الساحقة من دوله هذين القرارين، هذا بخلاف المجتمع الدولى. وزاد الطين بلة، أن أصبح عدم الاعتراف بقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ واقعيا عقبة لا يمكن تخطيها على طريق تطوير اتصالات الفلسطينيين التى بدأت مع الدوائر الأمريكية ـ الأوروبية، وبعد ذلك مع قوى إسرائيلية مختلفة.

لا أعتقد أن القيادة الفلسطينية لم تقدر دور الولايات المتحدة جيدا. ففى منتصف السبعينيات تم تنشيط قناة سرية، خط اتصال بين المخابرات الأمريكية وجهاز الاستطلاع فى منظمة التحرير الفلسطينية "جهاز الرصد"، وكانت الاتصالات كذلك تجرى عبر السفارة الأمريكية فى بيروت، ومع عرفات أيضا من خلال العربية السعودية. استخدم الجانب الأمريكى قنوات الاتصال هذه لتأمين السفارة فى لبنان فى أثناء الحرب الأهلية فى هذا البلد. وفى عام ١٩٧٦ توجهت الولايات المتحدة إلى منظمة التحرير الفلسطينية بطلب تأمين إخلاء المواطنين الأمريكيين من بيروت، وبعد أن استجاب الفلسطينيون للطلب الأمريكى، وجه هنرى كيسينجر رسالة شكر لياسر عرفات. ونشطت الاتصالات الأمريكية ـ الفلسطينية عبر القناة السرية فى أثناء احتجاز الرهائن الأمريكيين فى إيران، تم إرسال اثنين من ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية بشكل خاص بناء على طلب من المخابرات الأمريكية إلى طهران، وتمكنا من تحرير النساء، وأمريكيين من أصول أفريقية من بين الرهائن.

حدث كل هذا على خلفية تصريحات الرئيس كارتر، عن أن الفلسطينيين لهم الحق فى إقامة "وطن قومى". لكن الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية، التى كان يقوم بها الجانب الأمريكى، كانت تجرى من منطلق براجماتى بحت وليس حول المشاكل السياسية، وبدون أى إعلان، انعكس على ذلك الخوف من رد فعل إسرائيل واللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة، اللذين تحت ضغطهما اضطرت الولايات المتحدة لأن تطلب من مندوبها فى الأمم المتحدة أندرو يانج تقديم استقالته، بسبب لقائه مع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى منظمة الأمم المتحدة "بدون إذن".

لم يكن تطور موقف عرفات سهلا، فقد ساعده على ذلك فى مراحل مختلفة كل من أبوإياد وأبومازن وياسر عبد ربه ونبيل شعث ومحمود درويش (شاعر فلسطينى عاش فى إسرائيل ـ المؤلف) وخالد الحسن وأبو علاء، وآخرون، البعض لا تشمله هذه القائمة وهو من مؤسسى الحركة الفلسطينية إنه أبوجهاد، وأنا لا أوافق على هذا، ففى أثناء جلسات مع كل القيادات التى ذكرتها، كان من الممكن رصد بعض الاختلافات فى تصورهم لعملية التسوية. لكن ها هو أبوجهاد فى ٥ سبتمبر ١٩٧٩ فى بيروت، كشف لى عن أنه وافق على لقاء ممثله النتشة مع ديان، وحصل منه على تقرير مكتوب. فقد طرح ديان عدة أسئلة، من ضمنها "هل سيعترف الفلسطينيون بخطة حكم ذاتى فى إطار الأردن، وهل من الممكن بحث تسوية منفصلة فى غزة عن الضفة الغربية "، لكن النتشة قال إنه شخص غير مسئول والإجابة على هذه الأسئلة يمكن الحصول عليها فى المفاوضات مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وفق كلمات أبوجهاد الذى لم يفكر فى أن ينكر على ممثله، أنه صرح لديان بإمكانية إجراء مفاوضات مع إسرائيل على مستوى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، هذه "كانت هذه المرة الثانية لاتصال الإسرائيليين به". وأضاف أن الأمريكيين يقومون بعملية اختبار لإمكانية الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية، على سبيل المثال طلب سونديرس من البروفيسور وليد الخالدى الأستاذ فى جامعة هارفارد استشارة حول قضايانا، ولكنه أجابه "أنا مواطن أمريكى، إذا أردتم مفاوضات، يمكن إجراؤها مع منظمة التحرير الفلسطينية". لا أعتقد أن الشخص الذى يروى كل هذا، من الممكن أن يكون موقفه حول مفاوضات القيادة الفلسطينية، بهدف الوصول لتسوية سياسية للمشكلة الفلسطينية، سلبى جدا[٥٣].

كل هذا حدث وتم فعله بعلم عرفات فى ذلك الوقت، من خلال قناة سرية لتنظيم اللقاءات مع الإسرائيليين. ودخل الوساطة الزعيم المسيحى اللبنانى شمعون، وفى البداية عضو المكتب السياسى للحزب الليبرالى الديموقراطى نبيل نجم، ثم روى لى نجل شمعون دانى أن "مهمة الوساطة" كانت معدة بكل تفاصيلها، ووايزمان أعطى "موافقة". وكان يجب أن يمثل الفلسطينيين أبو حسن، لكن قبيل اللقاء قتلوه، وفق

كلمات نبيل نجم، هذا عقد الموقف، لكنه لم يوقف الشمعونين عن تنظيم لقاء سرى فلسطيني ـ إسرائيلى. هذا الموضوع نوقش سرا مع مدحت مساعد أبو إياد، وربط شمعون تنظيم لقاء سرى فلسطينى ـ إسرائيلى بسحب الفصائل الفلسطينية المسلحة من جنوب لبنان، مع تركز الفلسطينيين غير المسلحين فى مخيمات فى الجنوب.

تحدث دانى شمعون بدوره عن أن مقتل أبو حسن لم ينه ضرورة الاتصالات السرية لممثلى القيادات الفلسطينية والإسرائيلية، وربط هذا بوايزمان بمستقبل الذى سيصبح رئيس إسرائيل القادم، بالطبع فى ذلك الوقت لم تكن كل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تؤيد المفاوضات السرية مع إسرائيل، وهو حسب تصورى، ما يدل عليه مقتل أبو حسن المفاوض القوى، لكن الحقائق تتحدث عن أنه منذ عام ١٩٧٩، لم تكن فكرة الاتصالات السرية مرفوضة من هؤلاء الذين كانوا واقعيا يديرون دفة الأمور فى الحركة الفلسطينية.

وفى عام ١٩٧٨ اتخذت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قرارا بإنشاء منظمات داخل الأرض المحتلة، ينحصر دورها فى النضال بأشكاله المشروعة، وقد قال لى ياسر عبد ربه إنه "بزرع جذور داخل الأرض المحتلة، فقط، نستطيع الحفاظ على فرصة للمشاركة فى عملية التسوية السياسية".

توتر مع سوريا: رسالة أندروبوف

لا أريد أن أبقى علاقة عرفات مع سوريا خلف الأقواس ، فقد بدأت تتوتر فى نهاية السبعينيات، وبعد دخول إسرائيل للبنان، والخروج الاضطرارى للمقاتلين الفلسطينيين من هناك، ووصل التوتر إلى مداه، حيث اعتبر الكثيرون أن عرفات هو السبب فيما يحدث، فوفقا لمنطقهم، كما كانوا يزعمون هو من تنازل عن مصلحة الشعب الفلسطينى مبكرا، قبل أن تحصر إسرائيل الكفاح المسلح للفلسطينيين فى الزاوية، ولم يستبعد الاتفاق معها، وأضيف إلى هذا وقائع أخرى، أن عرفات بعد أن

خسر الفلسطينيون فى بيروت، ذهب مباشرة للقاء الملك حسين وناقش معه مسألة الكونفيدرالية مع الأردن، متناسيا "أيلول الأسود"، وضموا إلى اتهامات عرفات زيارته للقاهرة التى لم تخرج بعد من اتفاقية كامب ديفيد عقب مصرع السادات. وانتشر رأى، ودعمته القيادة السورية والمنظمات الفلسطينية المنجذبة لدمشق بحماس، أن عرفات اتخذ موقف يمينى استسلامى.

نمت هذه الآراء إلى علم موسكو بقوة، لكن من الضرورى الاعتراف، بأنه على الرغم من انتشار مثل هذه التقييمات، بما فى ذلك انتشارها بين عدد من خبراء الشرق الأوسط السوفييت، فإن هذا الخط المعادى لعرفات لم يكن مقبولا من القيادة السوفييتية بصفة عامة ، ولم يسر الاتحاد السوفييتى فى ركاب سياسة دمشق، مدركا أن أحد أهداف سوريا الرئيسية فى ذلك الوقت كان وضع الحركة الفلسطينية تحت سيطرتها، واستخدامها فى تقوية موقفها عند الاتصال بالولايات المتحدة بغرض البحث عن تسوية سياسية مقبولة بالنسبة لها مع إسرائيل، إلا أن القيادة السوفييتية وجدت نفسها فى موقف ليس سهلا، فمن ناحية، أصبحت سوريا دعامة أساسية للسياسة السوفييتية فى الشرق الأوسط بعد أن ابتعدت مصر الساداتية عن الاتحاد السوفييتى، وظهور تعقيدات فى العلاقة مع عراق صدام، ومن ثم حدوث تقارب على كل الأصعدة مع حافظ الأسد، من ناحية أخرى موسكو هى التى سعت للعب دور نشط فى التسوية الشرق أوسطية وكانت تؤيد حل المشكلة الرئيسية، قيام دولة فلسطينية، وكان لها مصلحة فى تقوية اتصالاتها مع القوة الفلسطينية الرئيسية، حركة فتح وقائدها ياسر عرفات، ولم تستطع المقابلات الكثيرة مع ممثلى المنظمات الفلسطينية الأخرى الأقرب من الناحية الإيديولوجية، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، أن تقلل من أهمية علاقات الثقة مع قيادة فتح.

لكن أحداث ذلك الوقت لم تتماش تماما مع مصالح الاتحاد السوفييتى، فقد دفعت ليبيا وسوريا اثنين من القادة العسكريين فى حركة فتح هما أبو موسى وأبوصالح إلى التمرد على عرفات. كان أبو موسى معروفا على نطاق واسع كأحد أبطال معارك

بيروت، وهو الأمر الذى كفل له دعم عدد من أعضاء حركة فتح، وخاصة من مجموعة العسكريين. وفى الوثيقة التى نشرها أبوموسى وزملاؤه ضد اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، رفض تماما أى حل توافقى مع إسرائيل، وأعلن أن هدفه تحرير كامل فلسطين. وأعلن أبوموسى ومجموعته أنهم ضد "خطة ريجان" وضد مبادرة فاس، وضد تعاون منظمة التحرير الفلسطينية مع الأنظمة العربية المحافظة، وحدثت صدامات بين بعض الفصائل الفلسطينية فى سهل البقاع اللبنانى، ثم فى طرابلس اللبنانية، مما اضطر عرفات للخروج مع أربعة آلاف من مقاتليه من لبنان إلى تونس.

كنت فى بيروت قبل هذا بوقت قصير، حيث كان من المقرر أن أجرى بعض اللقاءات مع قيادات سورية بما فيها الرئيس حافظ الأسد، وكان من الطبيعى أن يكون أحد الموضوعات الرئيسية لهذه اللقاءات، توجيه نداء للسوريين بالتخلى عن مواقفهم المعادية لحركة فتح وقائدها. وفى يوم ٢ يوليو ١٩٨٣ وصلت إلى مقر الرئيس السورى بصحبة سفيرنا فى دمشق ف. إ. يوخين، ومن جلستنا مع حافظ الأسد اتضحت لنا بعض الأشياء التى تشخص موقف سوريا، وقال الأسد "التسوية الشرق أوسطية الشاملة، ممكنة فقط عندما يوجد تكافؤ بين القوى المشاركة فى المفاوضات، ثم أوضح "والآن بعد خروج مصر من المواجهة، فإن مثل هذه التسوية ممكنة فقط، عند التكافؤ بين سوريا وإسرائيل". وفى أثناء حديثه عن علاقته الإيجابية بفكرة الدعوة لمؤتمر سلام للشرق الأوسط برئاسة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة قال الأسد، رغم ذلك، إنه يعتقد أن الدعوة لمؤتمر سلام يعتبر واقعيا فقط عندما يكون فى الشرق الأوسط توازن قوى واضح.

فهمت أنا ويوخين، بالطبع (فيما بعد جلسنا وتبادلنا الآراء حول الجلسة ـ المؤلف) أنه بتأكيده على أهمية "تساوى القوى" لتسوية النزاع، فإن الأسد آخذ فى الاعتبار عدم الشك فى أن للاتحاد السوفييتى مصلحة فى مثل هذه التسوية، وهو يريد أن يدفع الاتحاد السوفييتى لزيادة توريد أنواع مختلفة من الأسلحة لسوريا، بالإضافة لهذا، هذه التصريحات التى لا تحتمل الشك ضد التسوية فى الظروف التى كانت موجودة

حينها، ساعدت على فهم حجم مكنون عداء السوريين المتنامى للقوى الفلسطينية التى تختبر إمكانية الاتفاق مع إسرائيل على أساس حل توافقى.

وعلى الرغم من طول مدة الجلسة، فإن الأسد لم يتعمق فى رده على الأسئلة التى أثرتها حول ضرورة تخفيف التوتر فى العلاقات مع عرفات سواء متفق هو معه أم لا، حيث إن عرفات قائد فلسطينى معترف به، والرهان على خصومه لا مستقبل له، والسعى إلى تقسيم الحركة الفلسطينية سيضعف بشكل حاد الجانب العربى ولا يساعد على تسوية النزاع مع إسرائيل، حتى انطلاقا من منطقه هو الخاص.

وأنا أقول كل هذا انطلاقا من عدة لقاءات فى دمشق، وقد كتبت فى برقيتى التى أرسلتها إلى موسكو فى ١ يونيو، أننى أحطت الفلسطينيين علما بالموقف السورى بعدم التدخل فى أمورهم، والموافقة على الحفاظ على عرفات قائداً لحركة المقاومة الفلسطينية لا يعكس الواقع. ففى لقاء معى قال وزير الخارجية السورى خدام إن "عرفات أصبح ضعيفا جدا، ومجموعة أبوصالح أصبحت أقوى من أنصاره". وذهب رئيس قسم دول شرق أوروبا فى الخارجية السورية كافرى (سفير سابق فى موسكو- المؤلف) لأبعد من ذلك، ففى جلسة ودية معى صرح بأن "السوريين سيكونون سعداء فقط إذا أتيح لهم إمكانية تنحية عرفات". فى غضون ذلك، أكدت فى برقيتى، أن نزعة تنحية عرفات لا يؤيدها معظم الفلسطينيين، وأن موقف عرفات سيقوى، لأنه بالإضافة إلى أنه مؤيد من معظم المنظمات الفلسطينية، فهو يقف ضد تدخلات الدول العربية فى شئونهم. واقترحت بهذا الخصوص، كإجراء عاجل، أن يقوم راديو موسكو والصحف السوفييتية بإذاعة ونشر مواد إعلامية لافتة للأنظار، ضد انقسام الحركة الفلسطينية والإعراب عن دعم عرفات قائداً معترفًا به لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفى ذلك الوقت، فى بداية يونيو ١٩٨٣، تسلم سفير الاتحاد السوفييتى فى سوريا يوخين أوامر عاجلة من موسكو، بإبلاغ عرفات رسالة شفهية من أندروبوف، الذى أصبح سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، بالفعل. كانت

الرسالة مهمة جدا، الفكرة الرئيسية فيها كانت تنحصر فى ضرورة التنازل عن الخط المتشدد فيما يخص العلاقة مع سوريا، وإيجاد توافق، وكذلك تجاوز الخلافات فى الصف الفلسطينى، وفى نفس الوقت تحدثت الرسالة عن جهودنا فى التأثير فى الجانب السورى فى نفس الاتجاه. كان لحقيقة توجيه رسالة من أكبر قائد سوفييتى لعرفات، فى حد ذاته، معنى كبير، فبهذا الشكل تأكيد على أن الاتحاد السوفييتى، الذى له علاقات وثيقة بسوريا لا يتبع التوجه الذى من الممكن اعتباره فى ذلك الوقت معادياً لعرفات.

ولكن كيف يبلغ السفير الرسالة لعرفات وهو غير موجود فى دمشق. لكن وصلتنا معلومات تفيد أن عرفات لوقت قصير جدا سيكون فى دمشق فى طريقه لزيارة سيقوم بها لرومانيا، وأنه سيكون فى ممثلية فتح، لكن السفير يوخين لم يأخذ على نفسه مغامرة تشويه علاقاته بدمشق الرسمية، بأن يزور عرفات الذى وصل بدون إذن إلى العاصمة السورية، ولم يستطع يوخين تنفيذ أوامر موسكو، إلا فى السفارة السوفييتية، لكن عرفات حسب مفهومه ولأسباب سياسية مرتبطة بأمنه، فضل ألا يذهب إلى السفارة. فأخذوا بعين الاعتبار علاقتى الودية بعرفات وطلبوا منى أن أذهب إليه فى مكتب فتح، وإقناعه بالحضور إلى السفارة السوفييتية. قمت أنا و ر. ف. يوشوك، الذى كان موجودا فى دمشق فى ذلك الوقت بإقناع عرفات بجدوى اللقاء مع يوخين لتسلم رسالة أندروبوف على أرض البعثة الدبلوماسية السوفييتية.

وتحركنا إلى السفارة وبصحبتنا عرفات فى سيارة مدرعة، وكانت ترافقنا سيارة جيب محملة بأشخاص يحملون البنادق الآلية، لهذه الدرجة تصاعد الخلاف فى علاقات سوريا مع القائد الفلسطينى. وأكد عرفات أنه لديه ما يثبت تورط دمشق فى محاولة الاغتيال التى تعرض لها من فترة قصيرة.

وفى أثناء اللقاء فى السفارة السوفييتية طلب عرفات إبلاغ شكره لأندروبوف على هذا الدعم المباشر الضرورى، وصرح بأنه لا يشك فى موقف الاتحاد السوفييتى، وأكد أنه لن يسمح بتصاعد تدهور علاقات الفلسطينيين مع القيادة السورية، فى غضون ذلك

أكد أنه واقع "بين نارين"، إما المواجهة مع القوات السورية التى تحمى المتمردين فى سهل البقاع، أو سيستمر التمرد. سألنا عرفات عما إذا كانت لديه نوايا فى اتخاذ خطوات عملية لتحسين العلاقات مع القيادة السورية، فى هذه الظروف المعقدة، أجاب عرفات أن الأزمة الحالية هى نتيجة استفزاز السوريين، وهم الذين يجب أن يأخذوا خطوة للتقارب مع الفلسطينيين، وبالتحديد التوقف عن التدخل فى شئونهم، وأكد قائد منظمة التحرير الفلسطينية فى نفس الوقت أنه سيحافظ على ضبط النفس، والدليل أنه لم يقم بإخماد التمرد، الذى كان يهدد بصدام مع السوريين، عسكريا، وأنه شخصيا لديه أمل فى الرئيس السورى الذى يستطيع أن يقوم بالخطوة الأولى للتقارب مع فتح، ومن ثم فتح للتقارب معه.

كان عرفات متعجلا ليذهب إلى المطار، والوقت المتبقى قليل، فطلب منى ومن يوشوك بإلحاح أن نذهب إليه فى طرابلس اللبنانية، بعد عودته من سفره للخارج. وقال عرفات إن "الوضع يتطلب جلسات مفصلة".

وعاد عرفات من جولة شملت رومانيا والجزائر والعراق وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية والكويت، آملا فى أن يحصل على دعم قادة هذه الدول فى التأثير فى سوريا، ومن خلال ممثله فى دمشق أعرب عن رغبته "فى مقابلة بريماكوف ويوشوك بأسرع ما يمكن"، فى إحدى القواعد الواقعة فى شمال لبنان. ذهبنا يوم ١٥ يونيو عن طريق مدينة حمص، تحت حراسة أفراد فلسطينيين مسلحين، اجتزنا نقاط الحدود على الحدود السورية ـ اللبنانية، وبعد ذلك من قاعدة فتح غير البعيدة عن طرابلس، بمصاحبة أفراد أرسلهم عرفات، تابعنا الانطلاق عبر عدد من الكردونات الفلسطينية، وصلنا إلى مقر قيادة عرفات المؤقت فى الجبال. وهناك بين أحراش الزيتون جرى اللقاء، الذى استمر ثلاث ساعات مع عرفات.

ومن خلالنا أبلغ عرفات رده الشفهى على رسالة أندروبوف والذى أعرب فيه " عن شكره العميق للقيادة السوفييتية، لرد فعلها فى الوقت المناسب، على محاولات إحداث انقسام فى الصفوف الفلسطينية ". وفق كلمات عرفات "..... رسالة أندروبوف التى تسلمتها يوم ٢ يونيو وخطوات القيادة السوفييتية جعلت قيادة منظمة التحرير

الفلسطينية، تشعر بانخفاض النشاط السورى الموجه ضده" وطلب الزعيم الفلسطينى إبلاغ أندروبوف أنه " سيبذل كل ما يعتمد عليه لتهدئة الأوضاع فى صفوف الفلسطينيين، وتسوية العلاقات مع دمشق، التى لا تستطيع الآن عدم الأخذ فى الاعتبار رأى الاتحاد السوفييتى".

وهنا علق عرفات على حقيقة أن "السوريين بدأوا بالتدريج التخلى عن خططهم الساعى إلى إحداث انقسام فى الحركة الفلسطينية". قال شقيق الأسد رفعت له، إن القيادة السورية حصلت على معلومات خاطئة جدا من البداية ، مفادها أن المتمردين يملكون تأييداً عامًا، وأنهم يستطيعون سحب الأغلبية فى فتح خلفهم، وعندما اقتنع الأسد بعدم مطابقة هذه المعلومات للواقع، قام بتشكيل لجنة للوساطة بين المجموعات الفلسطينية المتصارعة، ولم يضم للجنة لا خدام ولا قائد مكافحة التجسس على دوبا، اللذين لهما مواقف ضد تقارب سوريا مع عرفات.

ورسم عرفات موقفه فيما يخص التسوية وحدد عدداً من النقاط، الخروج الاضطرارى لقوات الفلسطينيين المسلحة من بيروت، لا يعنى بأى حال، أن منظمة التحرير الفلسطينية تعتمد فى مناوراتها السياسية على "خطة ريجان"، و"الحل الأردنى" يعنى بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية إقامة دولة فلسطينية، ثم بعد ذلك تأتى إمكانية إقامة كونفيدرالية الضفة الغربية والضفة الشرقية للأردن. وفى حديث عرفات مع الملك حسين وفق كلماته، لم يخرج عرفات عن هذا الحل، وقال عرفات كذلك، إنه كان وسيظل معاديًا لاتفاقية كامب ديفيد، لكنه عازم على تنشيط العمل السياسى، لكى "لا نعطى وقتًا للعمل ضد مصالح الشعب الفلسطينى"، عند ذلك تحدث عرفات عن استمرار الاستيطان الإسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وهو الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى "وضع فى غير صالح الفلسطينيين" لا يمكن التراجع عنه.

ودعنا عرفات بدفء، ورحلنا بمرافقة سيارتين محملتين بمسلحين فلسطينيين، حتى السفارة السوفييتية فى دمشق، هكذا عدنا من شمال لبنان بسلام قبل منتصف ليل ١٤ يونيو، لكن هذه الرحلة كان لها توابع، فقد طلبت لقاء الأسد لكى أعرض عليه

انطباعاتى عن لقائى مع عرفات، وفى ١٦ يونيو استقبلنى الرئيس السورى، وكان من الطبيعى أن أروى له تفاصيل لقائى بعرفات بطريقة من شأنها أن تحدث أكبر قدر من تقارب مواقفه مع مواقف السوريين، وكان الرئيس الأسد فى ذلك الوقت قد تسلم رسالة القيادة السوفييتية الخاصة بالوضع فى لبنان، وأعتقد أن هذه الرسالة وروايتى عن لقاء عرفات قد أذابا الجليد، والأسد تحدث بطريقة غير تلك التى تحدث بها فى أثناء لقائى معه منذ اثنى عشر يوما، وقال إنه متفق مع القيادة السوفييتية، وإن سوريا يجب أن تتقدم بأفكار بنّاءة فيما يتعلق بلبنان، وفيما يخص التسوية الشرق أوسطية بشكل عام، مع تنسيق المواقف مع الاتحاد السوفييتى. فيما يتعلق بالعلاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية قال الأسد "سوريا من مصلحتها الحفاظ على وحدتها، وفى نفس الوقت لكى تستطيع أن تلعب العناصر التقدمية وبالدرجة الأولى فتح دورا أساسيا فى إنتاج التوجه السياسى للقيادة الفلسطينية، سوريا مستمرة فى الاتصالات بالأطراف المعنية فى الحركة الفلسطينية، بما فيهم أتباع عرفات" وعد الأسد أن يزن الأمور كلها "مع" و"ضد" فيما يخص لقاء يجمعه بعرفات.

لم تستطع بالطبع اللقاءات التى تحدثت عنها أن تعيد العلاقات بين فتح ودمشق إلى وضعها الطبيعى ، لكن على ما يبدو خففت من حدة التوتر، فالوضع وصل لدرجة أنه كان من الممكن أن يبدأ صدام سورى ـ فلسطينى مسلح واسع، لحسن الحظ أنه لم يحدث.

السلام للفلسطينيين والإسرائيليين على قدم المساواة

كان إنجاز عرفات وزملائه ينحصر فى أنه تخطى مقاومة قوى فى منظمة التحرير الفلسطينية وخارجها، كانت تتخذ مواقف سلبية من قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و٣٣٨. ففى عام ١٩٨٨ وفى أثناء انعقاد المجلس الوطنى الفلسطينى تم الاعتراف بهذين القرارين. كان إنجازه أنه استطاع ربط الاعتراف بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ بموافقة

الولايات المتحدة وإسرائيل على قيام دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة. هذا الربط تم التوصل إليه بعد المرور عبر الانتفاضة التى اندلعت ٧ ديسمبر عام ١٩٨٧، ومن خلال قرار الملك حسين بالتخلى عن سيطرته على الضفة الغربية، هذا فى الواقع قاد فى النهاية إلى الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلاً للشعب الفلسطينى، والذى ستقوم إسرائيل بشكل أو بآخر بإجراء مفاوضات معها. جاء هذا فى الوقت الذى ازداد فيه الدعم الدولى لمنظمة التحرير بصفتها طرفًا فى مفاوضات حل المشكلة الفلسطينية.

بعد قليل من التردد، وليس دون صراع، حدد عرفات موقفه فى مؤتمر صحفى فى جنيف فى اليوم التالى بعد خطابه الذى ألقاه يوم ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ فى الجمعية العامة للأمم المتحدة[٥٤]، كانت تصريحاته، فى الغالب، أهم من خطابه أمام الجمعية العامة، لأن عرفات فى هذا المؤتمر الصحفى، رد فى الأساس على هؤلاء الذين حاولوا تقديمه كما لو كان فى أثناء وجوده على منصة الجمعية العامة، تهرب من العديد من المشاكل. سأورد الأجزاء الأهم من تصريحات عرفات، قال " إقامة دولتنا ستعطى الفلسطينيين الحرية، وستحقق السلام للفلسطينيين والإسرائيليين على قدم المساواة..... تحدثت بالأمس فى خطابى عن القرار ١٨١ الذى اصدرته الجمعية العامة كأساس للاستقلال الفلسطينى، وأنا أيضا أكدت، أننا نعترف بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨، كأساس للمفاوضات مع إسرائيل، فى إطار مؤتمر دولى. بالتحديد أعلن المجلس الوطنى الفلسطينى عن الاعتراف بهذه القرارات الثلاثة فى دورته التى عقدت بالجزائر.

فى خطابى كان الكلام واضحا، أنه تحت كلمة حقوق شعبنا، نحن نفهم، حقه فى الحرية، والاستقلال الوطنى وفقا للقرار ١٨١، وحق كل أطراف النزاع فى الشرق الأوسط فى العيش فى سلام وأمن بما فى ذلك دولة فلسطين وإسرائيل ودول الجوار الأخرى، وفق قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و٣٣٨. فيما يخص الإرهاب، فإننى أعلنت بكل وضوح، وأكرر، لكى أؤكد على موقفنا، أننا نرفض تماما وبحسم كل أشكال الإرهاب، الفردى والجماعى وإرهاب الدولة.... لندع الجميع يفهم، أنه لا عرفات ولا أى أحد آخر يستطيع وقف الانتفاضة، فهى ستتوقف فقط عندما يتم اتخاذ خطوات عملية

محددة للوصول إلى أهدافنا الوطنية، وإقامة الدولة الفلسطينية"..... وفى الختام قال عرفات، "أعلن أمامكم وأرجو أن تنقلوا كلماتى، نحن نريد السلام، نحن نلتزم بالحفاظ على السلام، نحن نريد العيش فى دولتنا الفلسطينية، ولندع الآخرين يعيشون".

عدد من الكتاب الغربيين، وغير الغربيين، الذين كتبوا عن الفترة التى تبعت ذلك، وخاصة عن المفاوضات الفلسطينية ـ الإسرائيلية فى أوسلو، والتى لعب فيها محمود عباس الدور الرئيسى، وعن الإعداد الصعب لبيان عن إعلان المبادئ الموقع فى واشنطن فى ٣ سبتمبر ١٩٩٣، وبعد ذلك عن عملية مفاوضات ليست أقل صعوبة فى إطار "الترويكا" الثنائية الجوانب، خلال مؤتمر السلام بمدريد، يقومون عن قصد بالتقليل من دور عرفات، حتى إن بعضهم اتفق قبل ذلك على أن الاتصالات السياسية حدثت ضد رغبته، وأنه أصبح "رهينة للأحداث". لكن وعلى أساس جلساتى مع أبوعمار، أرفض مثل هذه الاستنتاج، وأكثر من ذلك بدون عرفات لم يتخذ عمليا أى قرار مبدئى من جانب ممثلى الفلسطينيين، سواء فى أوسلو أو فى المفاوضات الرسمية الفلسطينية ـ الإسرائيلية فى واشنطن. فى غضون ذلك، كان عرفات يدرك أفضل من الآخرين، ضرورة دفع الاتفاق مع إسرائيل إلى هذا المستوى، مما يسمح بقبوله من معظم الفلسطينيين. وعندما أبلغوه بنتائج أحد اللقاءات فى أوسلو، والذى كان ممثلو إسرائيل، الذين كان لديهم اتصال مسبق مع قيادتهم الأعلى، فى أثنائه، قد وافقوا على بدء "فترة انتقالية" بانسحاب القوات من قطاع غزة، قال عرفات "هذا غير كاف، ومن الضرورى إضافة أريحا، إسرائيل من السهل أن توافق على هذا، لأنه لا يوجد مستوطنات يهودية فى هذه المنطقة"، وأعطى عرفات أوامر بالإصرار على قبول مشروع "غزة ـ أريحا". ويصف أبومازن كم كان الأمر صعبا لاختراق المقاومة الإسرائيلية لهذا الأمر، ويعترف أن هذا الموضوع أصبح نقطة لها وضع خاص فى إعلان المبادئ، "صارت ورقة عباد الشمس، التى بمساعدتها ظهر واختبر مدى صدق الإسرائيليين وخططهم للمستقبل"(٥٣).

بالتحديد عرفات هو الذى أصر، بل هدد، فى اللحظة الأخيرة قبل توقيع الإعلان بأن الفلسطينيين لن يذهبوا إلى البيت الأبيض إذا لم يكن فى نصه الإشارة إلى الوفد

الفلسطيني وليس إلى منظمة التحرير، وتحت تهديد إفشال التوقيع وافقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة على إعادة طباعة آخر ورقة من النسخ المعدة لإعلان المبادئ، في ذلك كان عرفات، الذى تعلم أن يظهر المرونة السياسية، وكان يعرف جيدا حدودها التى لا يمكن تخطيها وإلا يحطم بناء التسوية مع إسرائيل الذى بنى بصعوبة بالغة، كان عرفات يدرك جيدا توازن القوى فى حركة المقاومة الفلسطينية، وكان يشعر بدقة اتجاهات الجماهير الفلسطينية، وأجاد بمهارة استخدام الوقائع فى صالح الاتفاقية الفلسطينية.

الموضوعية فى مواجهة التشويه

كما أى قائد فلسطيني آخر، كان لدى عرفات أخطاء وهفوات، وهى ببساطة ما كان يمكن ألا تكون موجودة، خاصة فى أوضاع عاصفة كما هى فى الشرق الأوسط، فقد انتقد بشدة بسبب موقفه فى تأييد صدام حسين عندما احتل الكويت، أتذكر هذا اللقاء مع عرفات عام ١٩٩١، فى أثناء الأزمة الناجمة عن استيلاء العراق على الكويت. بتكليف من الرئيس جورباتشوف، عندما كنت عضوا فى مجلس الأمن القومى لروسيا الاتحادية، سافرت إلى بغداد بهدف اختبار إمكانية سحب قوات صدام حسين من الدولة جارته دون حرب. وفى الطريق إلى بغداد قررت القيام بزيارة عمان، والتشاور مع عرفات، استجاب فورا لطلبى، ووصل إلى العاصمة الأردنية مع كل المحيطين به. وبدأ حديثه بأنه "إذا بدأت الحرب ضد العراق، فإن العالم العربى كله سيغضب، وسيتحول إلى فيتنام أخرى"، ثم مر بنظرة على زملائه الموجودين فى اللقاء. لكنى ذكرته بحديثنا فى دمشق عام ١٩٧٠، وكيف أن تحول الأحداث لم يؤكد تنبؤاته. جلس عرفات صامتا لمدة دقيقة، ثم أعطى أمر بتجهيز طائرته للطيران إلى بغداد، وقال "سأحاول خلق تربة صالحة لنجاح مهمتك". يجب القول إنه منذ بداية هذا اللقاء كنت أشعر بتأييد من جانب أبو إياد وأبومازن، فقد كانا أقل ما يقال إنهما كانا ينظران بعين الشك للخطوات التى اتخذها صدام حسين.

وأنا أثق من سعى عرفات فى واقع الأمر لدفع صدام حسين إلى اتخاذ قرار بسحب قواته من الكويت، على الرغم من التصريحات المعلنة، قد لا يعرف الجميع هذا الأمر، لكن هذا تحديدا ما حدث، وبالمناسبة، فى أثناء زيارتى الثانية لبغداد بعد أسبوعين من الزيارة الأولى، اشتكى المحيطون بصدام حسين من أن الفلسطينيين لا يدعمون العراق "كما يجب".

ما قيمة عرفات كشخصية تاريخية؟ فهو قبل كل شىء أصبح كذلك، وما كان ليستطيع أن يبقى كذلك لو سار ضد التيار بصورة مكشوفة فى لحظة ما متجاهلا مزاج الطبقات الفلسطينية الواسعة، وكذلك رفاقه فى حركة فتح، التى أصبحت قلب منظمة التحرير الفلسطينية، لكنه تطور فى رؤيته، ومداخله، وهو ما كان له أهمية كبيرة فى تطور المقاومة الفلسطينية نفسها هناك. سؤال لهؤلاء الذين يقيمون عرفات كمتطرف: هل سمع أحد منه أى دعوة للجهاد أو رأى فى أعماله محاولة لتلوين نضال الفلسطينيين من أجل حقوقهم بلون دينى؟ ممكن الاعتقاد أن فتح بشكل عام حافظت على نفسها فى شكل حركة عسكرية ـ سياسية، ليست ذات طبيعة دينية، وذلك نتيجة تأثير مؤسسها وقائدها ياسر عرفات على مدى عشرات السنين.

لقد زرت غزة عندما كنت وزيرا لخارجية روسيا الاتحادية عام ١٩٩٦، حيث كانت الإدارة الفلسطينية موجودة بالفعل برئاسة عرفات، ولن أنسى أبدا لقائى به فى هذه الفترة، فقد ظهر إنسانا اندمج فى عصر جديد انفتح باتفاقية السلام مع إسرائيل. لم يكن لدى أى ظلال شك فى أن عرفات ينظر إلى الوثيقة التى ولدت بواسطته وإسحاق رابين، على أنها ليست خطوة تكتيكية على الإطلاق. فقد كان يتحدث بفخر، عن أن عصر المنفى السياسى فى تونس قد ولى، وأن المستقبل الواقعى مفتوح لقيام دولة فلسطينية. فى غضون ذلك لم يضل أبدا فيما يتعلق بالصعوبات التى ستواجهه فى الطريق المفتوح أمامه. تحدث عرفات بانفعال عن أنه بصعوبة شديدة يتمكن من تنفيذ حتى ما تم التوصل إليه مع إسرائيل من اتفاقيات، حول المطار فى غزة، حول الطريق الذى يربط قطاع غزة بالضفة الغربية.

من حديثى مع عرفات حملت انطباعًا عن استعداده للحلول التوافقية، وليس فقط استعداد، ولكن ثقة فى ضرورة الحلول التوافقية. نعم، وهو حاليا يخطئ باعتقاده أن وضعا ملائما اقترب من أن يتكون، ويمد يده إليه لكى يوقع اتفاقًا أكثر فائدة للفلسطينيين. لكن من معصوم من الخطأ فى مثل هذه الظروف؟

الكثير من المزايدة بخصوص خطيئته، كما أتصور، والمتمثلة فى موقف عرفات السلبى من "خطة كلينتون"، والتى اقترح فيها لأول مرة تقسيم القدس إلى جزأين، وإعطاء ٩٥٪ من الأراضى المحتلة تحت الدولة الفلسطينية. لكن ماذا كان وراء هذه السلبية؟ عرفات حاول أن يقنعنى بأن العالم العربى لن يقبل اتفاقية موسعة، ليس فيها تحديد لحق جميع الفلسطينيين فى العودة إلى وطنهم. لكنه لم يقنعنى. وفق رأى كثير من السياسيين، حق العودة للاجئين الفلسطينيين لا جدال فيه، ويمكن فصله عند التنفيذ العملى، عندما يفضل بعض اللاجئين العودة، وآخرون يحصلون على تعويضات تسمح لهم ببناء حياتهم فى الدول العربية. أنا واثق أن عرفات أدرك هذا، لكن ضغط عليه الموقف الذى أعلنه المشاركون فى دورة جامعة الدول العربية. ومن الممكن أنه كان يأمل، أن يتمكن فى اللقاء المزمع بعد "خطة كلينتون" فى طابا، من الاتفاق حول كل مشاكل التسوية مع الإسرائيليين أنفسهم. وفعلا اتفقوا فى طابا إلى أقصى درجة ممكنة، لكن لم يتمكن من وضع الاتفاق فى صورة معاهدة، ففى إسرائيل كانت الانتخابات على الأبواب، وصل للسلطة نتيجة لها أرييل شارون.

تشدد عرفات عندما كان باراك على رأس السلطة فى إسرائيل، كان من الممكن أن يكون محل نقد، لكن لا يجوز نسيان أن الجانب الإسرائيلى لم يظهر أنه بنّاء وأنه مستعد للتوافق العادل مع الفلسطينيين بما فيه الكفاية، وليس عرفات هو الذى أفشل المفاوضات، وليس هو الذى قام بالاستفزاز ليحدث صدام فلسطينى ـ إسرائيلى، الذى حدث نتيجة زيارة شارون باستعراض لقبة الصخرة، حيث توجد أحد المقدسات الإسلامية الرئيسية، المسجد الأقصى، لا يتحمل عرفات مسئولية بداية تصعيد أحداث العنف.

كما هو معروف، من الجانب الفلسطينى أحيانا يتم القيام بأعمال إرهابية تستهدف المواطنين الإسرائيليين العزل. وفق الافتراضات التى تتصورها القيادة الإسرائيلية وأن عرفات هو من يقف خلف هذه الأعمال. أنا لا أوافق على هذا مطلقا. وليس الأمر فى إعلان القائد الفلسطينى على الملأ أنه يدين بما لا يدع مجالا للشك العنف ضد المواطنين العزل. والموضوع وما فيه أن عرفات البراجماتى والواقعى، يدرك أنه عن طريق الإرهاب لا يمكن الانتصار، بل على العكس هذا يسىء للمقاومة الفلسطينية ويضعف التضامن مع الفلسطينيين ومع هؤلاء الذين يسعون لتسوية عادلة للنزاع فى الشرق الأوسط.

ويؤكد البعض أن عرفات لم يمنع العمليات الإرهابية، عن عمد، معتقدين كما يزعمون أنهم بذلك، يدفعون القيادة الإسرائيلية لحل توافقى، وهو ما أستبعده؛ ففى الظروف التى تؤدى فيها الردود الإسرائيلية لمقتل مئات من المواطنين الأبرياء على الجانب الفلسطينى، من الصعب، والصعب جدا قطع هذه الدائرة المحكمة. ليس من الممكن ألا يرى عرفات ما يحدث نتيجة انفجار الانتحاريين، واتجاه المجتمع الإسرائيلى إلى اليمين، ونشاط العناصر المتطرفة. فى نهاية الأمر عندما كان محاصرا فى رام الله، لم يكن لديه إمكانية أن يتحكم وحده دون شريك، كما فى السابق، فى حركة المقاومة الفلسطينية.

بلا شك كان عرفات زعيمًا ساطعًا، وواجهةً لنضال الشعب الفلسطينى من أجل حقوقه. وأصبح رمزا للمناضلين من أجل الدولة الفلسطينية. انتشرت رواية أن عرفات تم تسميمه، إذا كان هذا صحيحا، وإذا فعل هذا من كان يعتقد أنه عائق للتسوية الفلسطينية مع إسرائيل، فهذا ليس فقط جريمة بشعة، ولكنه خطأ فادح. فقد أراد عرفات تسوية وفعل كل شىء من أجل أن تؤدى التسوية إلى دولة فلسطينية قادرة على العيش، وكان عرفات يدرك أنها الطريق الوحيد لحصار الهجمات الإرهابية. وأخيرا عرفات بمرجعيته التى لا تقبل الجدل، استطاع أن يواجه المجموعات الفلسطينية التى تحاول إفشال عملية السلام فى الشرق الأوسط أفضل من أى شخص آخر.

عندما زرت رام الله، أحنيت رأسى أمام ضريح عرفات. وفاة ياسر عرفات غيرت وستغير الوضع السياسى فى الإدارة الفلسطينية، وهو ما سينعكس بلا شك على مستقبل ونوع التسوية مع إسرائيل. كان اختيار محمود عباس رئيسا للإدارة الفلسطينية، من وجهة نظرى قرارا مثاليا، إلا أنه لا يملك كاريزما عرفات، وبالفعل بدأ يعانى من أوقات صعبة فى قيادته فى أثناء كتابة هذا الكتاب. وتعززت مواقف الذين لا يعترفون بإسرائيل فى منظمة حماس التى فازت فى الانتخابات البرلمانية الفلسطينية فى يناير ٢٠٠٦، وازدادت نزعة الطرد المركزى فى فتح ذاتها، أنا أعتقد أنهم سيتذكرون بمرارة، ليس الفلسطينيون فقط، أن عرفات غير موجود.

الفصل الخامس عشر

الاتحاد السوفييتى وإسرائيل

كانت طبيعة العلاقات السوفييتية ـ الإسرائيلية معقدة وذات منعطفات، وطبع تأثيره على تطورها، الوضع الدولى، وقبل كل شىء المواجهة الكونية بين المنظومتين العالميتين، والنزاع العربى ـ الإسرائيلى، والوضع الداخلى داخل كلتا الدولتين، والإيديولوجية الحكومية السائدة بداخلهما.

فى النصف الثانى من القرن العشرين، أصبحت علاقة الاتحاد السوفييتى بإسرائيل نتاج الآلية المعقدة للنزاع فى الشرق الأوسط. هذا النزاع كان يندرج بقوة فى إطار المواجهة بين القوتين الأعظم. أيدت الولايات المتحدة الجانب الإسرائيلى، بينما أيد الاتحاد السوفييتى الجانب العربى. ولم يكن هناك مدخل مقابل لخصوم "حليف" كل منهما موجودا والتأكيد على هذا ضرورى، لأن الفرق فى مدخل الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة خلق واحدا من الملامح المميزة للموقف السوفييتى، الذى ليس من الدقة يمكن أن نعتبره معادياً لإسرائيل، حتى فى لحظات التوتر بين البلدين.

إذا كانت الولايات المتحدة، بدعمها لإسرائيل، عملت فى الوقت نفسه على إزالة تلك الأنظمة العربية، التى تناضل من أجل حقوقها أو تلك التى لا توافق على أن تسيطر الولايات المتحدة على تصرفاتها، من المسرح السياسى وهذا ينطبق كذلك على الحركة الفلسطينية. فى حين أن الاتحاد السوفييتى بدعمه للجانب العربى فى النزاع مع

إسرائيل، لم يقرن أبدا ذلك تحت أى ظروف نفسه بقوى متطرفة داعية لتدمير إسرائيل. علاوة على هذا، فى اتصالاته بالعرب، بما فيهم الفلسطينيون، كان ممثلو الاتحاد السوفييتى يصرحون بشكل مباشر أنهم ضد النزعات المتطرفة.

ومع هذا الاختلاف فى تعامل مواقف الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، كان لديهما سمات مشتركة. كلتا القوتين العظميين، كانت تخشى انتقال النزاع العربى ـ الإسرائيلى إلى المستوى الدولى، وقامت بكبح جماح "حليفيهما" أكثر من مرة، وبدا أن هذا كان سيساعد على تحرك عملية السلام. إلا أنه وللأسف، أهدر المشاركون فى النزاع بشكل أساسى فرص التسوية، فى البداية بدرجة أكبر العرب، وبعد ذلك إسرائيل.

فى البداية الإيديولوجية

ثم تأتى بعد ذلك السياسة

أثر المدخل الإيديولوجى، وخاصة فى الخمسينيات والستينيات، فى سياسة الاتحاد السوفييتى، أكثر منه فى السياسة الأمريكية. وكان هذا يسرى ليس فقط على الأنظمة العربية المتحررة من الاستعمار، كما ذكرنا، ولكن على إسرائيل أيضا.

وكما هو معروف، فالاتحاد السوفييتى أول من اعترف بإسرائيل، وساعد الاتحاد السوفييتى إسرائيل بالسلاح فى حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩. وخلف هذا كان تقف حسابات ستالين المبنية على أن دولة موالية للاتحاد السوفييتى ستنشأ فى الشرق الأوسط، وهى من الممكن أن تتحول إلى "جزيرة للاشتراكية"، بالنسبة للمحيط العربى، المتحلل، الإقطاعى، وللحد من نفوذ بريطانيا فى الشرق الأوسط.

وكان لدى ستالين معلومات عن أن الطائفة اليهودية فى فلسطين، وعلى مدى عشرات السنين تكونت من الفقراء، ومن الطبقات العمالية اليهودية، التى هاجرت من

أوروبا. تدفق الجزء الأكبر من المهاجرين اليهود إلى فلسطين حدث فى أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، وقد مر الكثيرون منهم عبر معسكرات الاعتقال الفاشية، وجزء حارب فى صفوف الجيش السوفييتى، وفى فصائل الفدائيين فى روسيا البيضاء وأوكرانيا ويوغسلافيا وفرنسا، وخلال هذه الفترة كان الاتحاد السوفييتى يحظى بتعاطف واسع من اليهود فى فلسطين.

كما أن المستوطنات اليهودية التى أنشئت فى فلسطين، قبل كل شىء كانت مجتمعات زارعية (قرى) وكوميونات (كيوبتز)، كان لها سمات الملكية الاشتراكية، وتنظيم العمل. وفى فلسطين فى بداية العشرينيات كان الحزب الشيوعى الفلسطينى موجودا وقد كان حزبا قويا نسبيا وأعضاؤه كثيرون. كل هذا اجتذب ستالين، بالإضافة إلى أنه فى لحظة إقامة إسرائيل لم يكن صدام المصالح بين القوتين العظميين قد بلغ ذروته بعد.

إلا أنه بعد ذلك بفترة قصيرة، وصلت فكرة الصهيونية التى كانت فى صلب تأسيس وتطور دولة إسرائيل، إلى تناقض غير قابل للتماهى مع الأيديولوجية الماركسية ـ اللينينية السائدة فى الاتحاد السوفييتى. والقضية لم تكن فقط فى الصدام الإيديولوجى للقومية والأممية كأفكار بطبيعتهما، فقد كانت توجد تناقضات، تحدثنا عنها من قبل، بين القومية العربية والإيديولوجية الاشتراكية، المتبعة فى الاتحاد السوفييتى. لكن مع الصهيونية كل شىء كان يجرى بصورة أكثر انحدارا. فالهدف الرئيسى للصهيونية انحصر فى تنظيم هجرة اليهود إلى إسرائيل من "دول الشتات"، وفى إطار ذلك صبت اهتمامها على تهجير اليهود من الاتحاد السوفييتى، أى من مجتمع اشتراكى، الذى كان يعتقد حينها أنه "الأكثر تقدمية وعدالة". فى ظروف كهذه، كانت الهجرة الجماعية من الاتحاد السوفييتى تعتبر نسفًا للأركان الفكرية، ولقدرات الاتحاد السوفييتى.

وكان ستالين من الممكن أن يسمح لتيار صغير بالهجرة، لديه القدرة، حسب رأيه، أن يقوى البداية الاشتراكية لإسرائيل. لكن القيادة الإسرائيلية بدأت تسعى للحصول

على هجرة جماعية لليهود من الاتحاد السوفييتى، ولهذا الغرض قاموا بعمل حملة دعائية ـ سياسية، شملت كل أراضى الاتحاد السوفييتى. ووصلت معلومات لستالين عن هذا العمل الدعائى النشيط جدا، الذى تقوم به جولدا مائير سفيرة إسرائيل فى الاتحاد السوفييتى آنذاك مع المواطنين السوفييت اليهود، وقد وقع فى دائرة تأثيرها عدد من المسئولين الكبار وأعضاء من أسرهم. لكن ما استدعى الغضب، التوجهات الإسرائيلية لوزارة الخارجية السوفييتية بطلبات السماح بعمل "أنشطة ثقافية تنويرية" على الأراضى السوفييتية، مع المواطنين السوفييت من اليهود. كل هذا استخدم فى الاتحاد السوفييتى من جانب عدد من الانتهازيين المجرمين فى إطار سعيهم للتزلف، وأحيانا إزالة المنافسين الذين كما زعموا يغضون الطرف عن المؤامرة الصهيونية من طريقهم. هكذا نشأت ما عرف "بقضية الأطباء" الذين كما يدعون سعوا لتسميم ستالين، وبدأت حملة لمكافحة "الكوزموبوليتانية"، واتخذت إجراءات للحد من قبول اليهود فى جهاز الدولة، وفى الجامعات التى تجهز الكوادر لمؤسسات الدولة.

فى فبراير عام ١٩٥٣، انفجرت قنبلة فى السفارة السوفييتية فى تل أبيب، مما أسفر عن جرح ثلاثة من العاملين فى السفارة. سارعت الحكومة الإسرائيلية بالاعتذار، ووعدت بالقبض على الجناة. لكن موسكو أعلنت عن قطع العلاقات الدبلوماسية. بعد أربعة أشهر من وفاة ستالين، تم إعادة العلاقات الدبلوماسية من جديد، ترافق هذا مع حملة للقيادة السوفييتية الجديدة ضد منظمى ومنفذى أعمال وصفت بأنها معادية للسامية بوضوح.

ورقة رد اعتبار الأطباء التى لعب بها بيريا

بعد وفاة ستالين، وقف بيريا الذى عين وزيرا للداخلية من جديد، على رأس عمليات الفضائح، ليس فقط فى "قضية الأطباء"، ولكن فى عدد كبير من الأعمال المخالفة للقانون. وكان بيريا أحد ثلاث شخصيات أساسية تقود البلاد فى ذلك الوقت

مع ج. م. مالينكوف وخروشوف، لكنه سعى لأن يؤمن لنفسه وضع الشخصية القائدة الوحيدة. ونظرا لأنه كان مسئولا عن الكثير من هذه الجرائم التى ارتكبت (والحقيقة، كما عن غيرها ـ المؤلف)، فقد تميز بيريا عن الآخرين، خاصة عندما كان فى جورجيا، بأنه اختار من أهدافه نزع مجد ستالين، وسار خروشوف معه فى هذا الطريق، لكن متأخرا بعض الشىء، فحينها لم يكن يفكر هو ولا القادة السوفييت الآخرون فى هدم الستالينية. ولكى يترقى بيريا قام بحزم بإعادة النظر فى القضايا، التى شارك هو شخصيا فى تلفيقها، والتى من الممكن أن تلقى "بظلالها البشعة" على منافسيه. وتصور أن اقتباس مما هو سرى للغاية من أرشيف ذلك الوقت، تعتبر أدلة من وجهة نظر الأسباب الداخلية المؤثرة على علاقة الاتحاد السوفييتى بإسرائيل فى الأعوام الأخيرة من حياة ستالين. وهذه بعض المذكرات التى تقدم بها بيريا.

مذكرة ل. ب. بيريا إلى رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى حول رد اعتبار الشخصيات التى اتهمت بما يسمى قضية الأطباء ـ الضارين

١ أبريل ١٩٥٣

سرى للغاية

إلى الرفيق. مالينكوف ج.م

ظهرت فى وزارة أمن الدولة السوفييتية عام ١٩٥٢ قضية حول ما يسمى مجموعة أطباء الجاسوسية والإرهاب، الذين كما يزعم وضعوا هدفًا لهم، عن طريق العلاج الضار، يمكن تقليل فترة حياة الشخصيات النشطة فى الدولة السوفييتية. وأعطيت القضية أهمية مثيرة، وقبل انتهاء التحقيقات، نشرت وكالة تاس نبأ خاصًا، مترافقًا مع مقالات من صحيفة "البرافدا" و"الإزفيستيا" وغيرها من الصحف المركزية.

ونظرا للأهمية الخاصة لهذه القضية، قررت وزارة الداخلية السوفييتية القيام بعملية فحص دقيق لكل أوراق التحقيق، من الفحص اتضح أن كل هذه القضية من

البداية للنهاية تعتبر تلفيقًا مستفزًا من نائب وزير أمن الدولة السوفييتية السابق ريومين. ولأهداف إجرامية انتهازية فى أثناء عمله فى منصب كبير المحققين فى وزارة أمن الدولة، وتحت مظهر شهادات غير مسجلة، لمن مات بالفعل فى السجن، المسجون البروفيسور إنتيرجيرا، لفق رواية وجود مجموعة أطباء التجسس والإرهاب.

ولم يترك أى وسيلة، لخرق القوانين السوفييتية وأبسط حقوق المواطنين السوفييت إلا واستخدمها، فوزارة أمن الدولة سعت تحت أى مسمى أن تقدم أشخاصًا من أكبر العاملين فى مجال الطب وغير مذنبين فى أى شىء على أنهم جواسيس وقتلة، وباستخدام وسائل غير مسموح بها، فقط، استطاع المحققون إجبار المحبوسين على التوقيع على ما أملوه عليهم من أكاذيب، تزعم استخدامهم طرقًا إجرامية لعلاج شخصيات من رجال الدولة السوفييتية الكبار، واتصالات تجسسية غير موجودة مع الخارج.

هكذا تم تلفيق "قضية الأطباء الضارين" المشينة، التى أحدثت ضجة فى بلادنا، وفى خارجها، مما أدى إلى جلب ضرر سياسى كبير لمكانة الاتحاد السوفييتى.

وقد جرى القبض على من بدأ هذه القضية ريومين، وعدد آخر من العاملين فى وزارة أمن الدولة ممن قاموا بدور فاعل فى استخدام طرق غير قانونية فى التحقيقات، وزوروا وثائق التحقيق.

مذكرة ل. ب.بيريا إلى رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى

حول توجيهة المسئولية الجنائية لشخصيات متهمة بقتل س.م.ميخويلس وف.إ.جولوبوف

٢ أبريل ١٩٥٣

سرى للغاية

إلى الرفيق مالينكوف ج. م.

فى أثناء، فحص مستندات التحقيق فيما يسمى "قضية الأطباء الضارين"، المحبوسين من قبل وزارة أمن الدولة السوفييتية سابقا، تبين وجود عدد من الشخصيات السوفييتية الطبية الشهيرة من اليهود. ضمن التهم المجرمة التى وجهت إليهم، علاقة مع شخصية عامة وفنان الشعب السوفييتى ميخويلس. فى هذه المستندات تم تصوير ميخويلس على أنه قائد للمركز اليهودى القومى المعادى للسوفييت، وزعموا أنه قام بأعمال تخريبية ضد الاتحاد السوفييتى بأوامر من الولايات المتحدة.

الاتهام بالإرهاب وأعمال التجسس للأطباء المحبوسين، فوفسى م.س. وكوجان ب. ب. وجرينشتين أ.م " بنيت " على أساس أنهم كانوا يعرفون بعضهم بعضًا، وفوفسى له صلة قرابة مع ميخويلس.

يجب ملاحظة أن حقيقة المعرفة بميخويلس، تم استخدامها من قبل مزورين من وزارة أمن الدولة السوفييتية السابقة لتلفيق تهم مستفزة بأعمال معادية للسوفييت لجيمشوجينا.ب.س(٥٦)، والتى على أساس هذه المعلومات الكاذبة جرى اعتقالها، وحكم عليها فى جلسة خاصة لوزارة أمن الدولة السوفييتية بالنفى.

نتيجة الفحص كذلك أثبتت أن ميخويلس على مدار عدة سنوات كان تحت مراقبة عملاء هيئات الدولة الأمنية، وبالإضافة إلى النقد الإيجابى الصحيح لبعض النواقص فى مجالات مختلفة من بناء الاتحاد السوفييتى، وأحيانا كان يعبر عن عدم رضائه عن بعض المشاكل، المرتبطة بشكل أساسى بوضع اليهود فى الاتحاد السوفييتى.

ويجب التأكيد على أن أجهزة أمن الدولة لم يكن لديها عمليا أى معلومات عن معاداة السوفييت، ناهيك عن التجسس والإرهاب أو أى عمل تخريبى لميخويلس ضد الاتحاد السوفييتى.

من الضرورى كذلك ملاحظة أن ميخويلس فى عام ١٩٤٢، عندما كان رئيسا للجنة السوفييتية اليهودية المعادية للفاشية، سافر كما هو معروف إلى الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وإنجلترا، كانت خطاباته هناك ذات طابع وطنى.

فى أثناء فحص مستندات التحقيق الخاصة بقضية ميخويلس، ثبت أنه فى فبراير ١٩٤٨ قام نائب وزير أمن الدولة السوفييتى أوجوليدوف، بالاشتراك مع وزير أمن الدولة فى روسيا البيضاء تساناف، وبتكليف وزير أمن الدولة السابق أباكوموف، بعملية تصفية جسدية غير قانونية لميخويلس فى مدينة مينسك. وعن ملابسات القيام بهذه العملية الإجرامية شهد أباكوموف "على ما أتذكر فى عام ١٩٤٨. وكلفنى رئيس الحكومة السوفييتية إ. ف. ستالين بمهمة عاجلة، وهى أن يقوم العاملون فى وزارة أمن الدولة السوفييتية بتصفية ميخويلس، عن طريق تكليف شخصيات متخصصة.....".

تم القبض على كل المشاركين فى جريمة القتل، وتوجيه التهم الجنائية لهم، وأعدموا رميا بالرصاص.

السبب الحقيقي

لقطع العلاقات الدبلوماسية الثانى

تجاهلت إسرائيل فى أثناء حرب الأيام الستة، كما كتبت من قبل، تحذير الاتحاد السوفييتى الذى طالبها بوقف فورى لإطلاق النار، وقطعت العلاقات الدبلوماسية مباشرة بعد استيلاء إسرائيل على مرتفعات الجولان.

يعتقد البعض أن تكرار قطع الاتحاد السوفييتى لعلاقته الدبلوماسية مع إسرائيل إجراء مبالغ فيه، خاصة وأن إعادة العلاقات استغرق أعوامًا طويلة، فى الوقت الذى كان فيه الاتحاد السوفييتى مثل من يقف فى الشرق الأوسط "بقدم واحدة" وكان وضعه لا يقارن بأى حال بوضع الولايات المتحدة، مما أضعف إمكانياته فى التأثير على سير التسوية السياسية للنزاع العربى ـ الإسرائيلى. وحتى مع اعترافى بمنطقية وضع هذه القضية ، لكن بالتأكيد لا يمكن عزل قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل عن السياق الذى اتخذ فيه القرار.

اقتضى انتصار إسرائيل عام ١٩٦٧ على الدول العربية، التى كان لديها أسلحة سوفييتية وفى ظروف وجود مستشارين عسكريين سوفييت فى مصر وسوريا، رد فعل حاسماً من جانب الاتحاد السوفييتى أدى إلى ضرورة اتخاذ هذا رد الفعل. كما كان التأييد المطلق من الولايات المتحدة لإسرائيل، وتنامى عدم الرضى عن "سلبية" الاتحاد السوفييتى فى العالم العربى إضافة للأسباب السابقة. كان استخدام الاتحاد السوفييتى لقواته المسلحة أمرا مستبعدا، لأن ذلك سيؤدى إلى حرب مع الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة كانا يخشيان أن تتطور الأمور إلى هذا الحد، وكانا يسعيان إلى عدم السماح بذلك. ولم يستطع النشاط الدبلوماسى للاتحاد السوفييتى الهادف لإجبار إسرائيل على وقف إطلاق النار ومن ثم الانسحاب من الأراضى المحتلة فى مجلس الأمن الدولى التأثير فى مواجهة الولايات المتحدة وحلفائها، ولم تدعم موقف الاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط. ودارت الآلة الإعلامية السوفييتية، لتقنع بأنهم فى العالم العربى ينظرون للاتحاد السوفييتى باعتباره "منقذهم"، وهذا كان يتماشى مع الواقع، لكن ليس إلى حد كبير. فقد سمعت فى القاهرة، كيف أن الكثيرين ممن عرفوا بتدمير كل القوات الجوية المصرية، أكدوا أن الطيارين الأمريكيين هم الذين فعلوا هذا - حسب زعمهم - وكانوا يصيحون "أين الطيارين الروس؟".

اتخذ قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، بالتحديد، فى هذه الظروف، وكان يعتقد أنه فى الظروف التى اتخذ فيها القرار ، يعتبر خطوة مثالية. أما تلك الحقيقة، الخاصة بأن العلاقات ظلت مقطوعة لفترة طويلة، أتصور أنها ألحقت الضرر بدور الاتحاد السوفييتى فى التسوية العربية ـ الإسرائيلية.

بعد قطع العلاقات، فى البداية، لم تظهر أسباب تحفز على البحث عن وسيلة للاتصال بين البلدين. كان الموقف السوفييتى عموما ينطلق من أن إسرائيل كان يدعمها بوضوح "العدو الرئيسى" للاتحاد السوفييتى، هكذا كانوا يلقبون الولايات

المتحدة فى أثناء الحرب الباردة. فى غضون ذلك، بقيت إسرائيل دولة عدوة فى علاقتها بتلك الدول التى كان الاتحاد السوفييتى يعتمد عليها فى سياسته بالشرق الأوسط، وهذا كان له أهمية ليست بالقليلة بالنسبة لموسكو. واستمرت إسرائيل فى احتلال الأراضى العربية، ولم تعترف، فى الحقيقة، بقرارات مجلس الأمن، المطالبة بإنهاء الاحتلال.

جعل هذا الوضع الاتحاد السوفييتى فى موقف صعب، وتفاقم الوضع نتيجة أن الولايات المتحدة التى اتخذت اتجاه المبادرات المنفردة من جانبها فى مجال التسوية السياسية للنزاع العربى ـ الإسرائيلى، فقلصت بهذا الشكل من إمكانيات الاتحاد السوفييتى فى التأثير فى سير هذه العملية. مثال مميز على ذلك "مبادرة روجرز"، فقد كتب الصحفى الأمريكى الشهير جوزيف أولسوب، الذى كان يستقى معلوماته من وزارة الخارجية، فى "واشنطن بوست"، "يزعمون، أن المقترحات الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط، كان يتم الاتفاق عليها سلفا مع الاتحاد السوفييتى. وهذا لم يحدث مطلقا".

رفضت إسرائيل عمليا "مبادرة روجرز"، لكن كما تؤكد إ.د. زفياجيلسكايا، أحد أفضل المتخصصين فى السياسة الإسرائيلية، فى ردها على النقد الشديد الذى وجهته جولدا مائير لمبادرة وزير الخارجية الأمريكى، وجد الرئيس نيكسون وسيلة لإبلاغ القادة الإسرائيليين، أن الولايات المتحدة ليست عازمة على فرض أى شىء عليهم. وبعد ذلك فى ١٩ أغسطس ١٩٧٠، مما أدى إلى تقديم "مبادرة روجرز" الثانية، التى لم يقترح فيها تسوية شاملة، ولكن تسوية "مرحلية". قبلت كل من مصر و الأردن وإسرائيل هذه المبادرة. وبعد شهرين اعترفت إسرائيل بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

استطاع هذا أن يفتح إمكانيات محددة تعطى آلية لعملية التسوية. إلا أنه بالتوازى مع هذا التحرك الإيجابى، ظهر تهديد حقيقى كان من الممكن أن يورط الاتحاد السوفييتى إلى مواجهة عسكرية فى منطقة قناة السويس، كتب عن هذا من

قبل ولكنى سأكرر، فى عام ١٩٦٩، كان الطيران الإسرائيلى يقوم بغارات فى العمق على الأراضى المصرية، وسافر ناصر إلى موسكو فى يناير ١٩٧٠، واتخذت القيادة السوفييتية قرارا بإمداد مصر بوسائل دفاع جوى عبارة عن منظومات صواريخ "أرض ـ جو"، ولسرعة تفعيل هذه المجموعات، أرسل الاتحاد السوفييتى إلى مصر بعض الأفراد، وللتمويه على وجودهم، أرسل قاذفات مع طيارين سوفييت.

بعد ذلك أصبحت الإشارات تأتى من كل جانب، عن ضرورة الاتصالات السوفييتية ـ الإسرائيلية، وفى هذه الظروف المعقدة والمتناقضة، أتت إشارات من القادة الإسرائيليين. واهتم بإرسال الإشارات حتى هؤلاء الذين كانوا يفضلون احتكار الولايات المتحدة لعملية التسوية. فقد كانت واشنطن كثيرا ما ترجع احتكارها للتسوية إلى أن الاتحاد السوفييتى ليس لديه وسيلة للاتصال بإسرائيل، ولا يمكن أن يكون وسيطًا كامل الأهلية فى قضية إنهاء النزاع. الإشارة جاءت أيضا من السادات نفسه.

ملف خاص للجنة المركزية

عن الاتصالات السرية مع القيادة الإسرائيلية

لم يخف سكرتير ل إ. بريجنيف، إ. ساموتييكين أمامى، عدم رضائه عن أن بودجورنى كما كتبت من قبل، أصر على سحب الموضوع الخاص بى، والذى نشر فى "نشرة" وكالة تاس، حيث أكدت أن التغييرات فى مصر والشرق الأوسط بشكل عام غير مواتية للاتحاد السوفييتى. رغم ذلك طلب منى ساموتييكين أن أكتب عن رؤيتى للموقف فى الشرق الأوسط لبريجنيف شخصيا، وهكذا ولدت مذكرتى بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٧١، "بعض المشاكل المرتبطة بأزمة الشرق الأوسط"[٥٧].

كتب ساموتييكين فى خطاب التغطية لمذكرتى الموجهة لبريجنيف "تصور، اقتراح من الرفيق بريماكوف، على الرغم من أن الصياغة عامة إلى حد ما، فإنها تستحق الاهتمام"، وهذه مقتطفات من هذه المذكرة:

"مرت أربعة أعوام على الأزمة فى الشرق الأوسط الحالية. ومن الممكن أن أورد بعض اللحظات السلبية الملموسة التى يمكن تلخيصها على النحو التالى:

١ ـ توازن القوى العربية ـ الإسرائيلية لم يحدث فيه تغير جذرى فى صالح الدول العربية. يتحدثون كثيرا عن أن عامل الوقت يعمل ضد إسرائيل. هذا صحيح خاصة إذا نظرنا للمشكلة فى المستقبل البعيد، آخذين فى الاعتبار قبل كل شىء، عدم توازن الاحتياطى البشرى الكبير، وكذلك تطور العمليات المؤدية إلى المستقبل التكنولوجى ـ الاقتصادى للدول العربية قياسا بإسرائيل. لكن إذا حللنا إمكانيات المستقبل القريب والمتوسط، ولنقل ١٥ ـ ٢٠ عام على سبيل المثال، فإنه من غير المحتمل أن تتساوى الإمكانيات العسكرية للطرفين خلال هذا الوقت.

٢ ـ رغم التصورات الكثيرة السابقة، اتضح أن قوى الطرد المركزى، التى تقسم العالم العربى فى المرحلة الحالية أكبر من قوى الجذب المركزى المؤدية إلى الوحدة العربية. حتى هكذا عامل مثل ضرورة النضال المشترك للقضاء على خطر عام على الجميع والذى يأتى بصفة دائمة من إسرائيل، لم يوحد العرب.

٣ ـ أظهرت الأحداث، أنه على مدى فترة أربع سنوات صراع من أجل إزالة آثار العدوان الإسرائيلى، لم يحدث تطور سريع فى العملية الثورية فى العالم العربى، بل فى عدد من الأحداث، جرت حركات فى الاتجاه العكسى، وهو ما يهدد بانتكاسة ثورات التحرر ـ الوطنى.

٤ ـ على الرغم من التراجع الملحوظ فى سمعة وتأثير الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى الفترة الأولى بعد "حرب الأيام الستة"، فإن هذه العملية توقفت بعد ذلك، ومن الممكن الاعتقاد أن الولايات المتحدة فى عدد من الأحداث ستتمكن من استعادة مواقعها. يلاحظ فى الدول العربية اتجاه يتعاظم يرى فى الولايات المتحدة عنصر الحسم، الذى يمكنه أن يلعب دوره فى تسوية النزاع فى الشرق الأوسط.

من الواضح أن للاتحاد السوفييتى، وضع فى الشرق الأوسط لدرجة أن له الحق أن يراهن على أن تتصرف الحكومات فى كل المشاكل الخاصة "بالتحالف" معه بصدق وبلا مواربة، والأهم ليس ضد مصالحنا.

إلى جانب قوة توجهاتنا فى الدول العربية، كما أتصور، كان يجب أن نقوم ببعض المبادرات فى اتجاه إسرائيل والولايات المتحدة. تمتلك الولايات المتحدة إمكانيات للمناورة، لأنها تنتهج سياسة نشطة تجاه جانبى النزاع فى الشرق الأوسط".

عندما كتبت كل هذا، لم أكن أعرف أنه منذ شهر وصلت برقية شفرية من هلسنكي، محتواها: أن وزير خارجية فنلندا ليسكينين أبلغ القائم بالأعمال السوفييتى فى جلسة ودية جمعته به، عن جلسة مع جولدا مائير، فى أثناء استراحة بين جلسات اجتماعات الاشتراكية الدولية، وقد طلبت منه مائير تنظيم لقاء مع ممثلين للاتحاد السوفييتى " فى أى وقت وفى أى مكان وعلى أى مستوى، لتبادل الآراء حول الوضع فى الشرق الأوسط".

فى ٣ يونيو اتخذت اللجنة المركزية قرارا "بتكليف الرفيق أندروبوف، أن يفكر فى الأمر مليا وفقا للآراء التى تمت مناقشتها فى المكتب السياسى".

فى ٢٣ يوليو قام سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى بتوجيه مذكرة لليونيد بريجنيف:

إلى المحترم ليونيد إليتش.

هذا تسجيل مختصر لجلسة مع ممثل أستراليا ر.هوك، أرسلها الرفيق شيليبين أ.ن.وقد هاتفنى بشكل خاص وطلب أن أرسلها لكم فقط.

مع تحياتى ـ ك.تشيرنينكو

محتوى الجلسة نوردها دون تغيير مع الاحتفاظ حتى بالأخطاء الإملائية.

سرى للغاية

ترسل فقط لشخصين

إلى الرفيق كيريلينكو أ.ب. (شخصى جدا)

إلى الرفيق جروميكو أ.أ.(شخصى جدا، تسلم فى الحال)

طلب رئيس المركز النقابى لاستراليا ر.فوك بعد رحلات إلى جنيف وروما وتل أبيب، عقد لقاء فى الاتحاد السوفييتى لإجراء محادثات معه، وبناء على إلحاح فوك قمت بلقائه...

تحدث على نحو غير متوقع بالنسبة لى عن النزاع فى الشرق الأوسط. وقال فوك إنه عندما كان فى إسرائيل التقى برئيس الوزراء ونائب رئيس الوزراء وزير خارجية إسرائيل، وعندما علما أنه سيسافر إلى الاتحاد السوفييتى، طلبا منه أن يبلغ الحكومة السوفييتية الآتى: أن الحكومة الإسرائيلية لا تتمسك بهذه الحدود التى وصلت إليها نتيجة لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وهم مستعدون لتقديم تنازلات، والانسحاب من هذه الحدود الموجودون عندها الآن، وطلبوا منه إبلاغ رأى الحكومة الإسرائيلية هذا إلى الدوائر الحكومية فى الاتحاد السوفييتى... حكومة إسرائيل على استعداد لبحث مشكلة مرتفعات الجولان بشكل إيجابى، وحلها بطريقة متعقلة، بحيث تكون مقبولة لإسرائيل وللدول العربية. وهم على استعداد لإجراء مباحثات بناءة حول هذه المشكلة، وتقديم تنازلات. وإسرائيل مستعدة للانسحاب من أرض سيناء، باستثناء منطقة شرم الشيخ، التى لها أهمية خاصة لأمن حدود إسرائيل، وهذا يجب أن تتفهمه الحكومة السوفييتية.

حكومة إسرائيل مستعدة كذلك لحل مشكلة قناة السويس والضفة الغربية لنهر الأردن وتعتقد أنه توجد ظروف ملائمة لمفاوضات ناجحة حول هذه المشكلات، وأنه من الممكن الاتفاق الإيجابى حولها. غير أن حكومة إسرائيل لا تريد أن يشغل الجيش الأردنى الضفة الغربية. أما المشكلة الأعقد بالنسبة لإسرائيل، فهى القدس، نحن نريد، واصلوا حديثهم، الانسحاب من معظم الأراضى المحتلة، هذا موقف صادق للحكومة الإسرائيلية، وهى تطلب من الحكومة السوفييتية أن تثق فى هذا. وتطلب الحكومة الإسرائيلية من الحكومة السوفييتية أن تستخدم بهذا الخصوص تأثيرها ونفوذها لدى الدول العربية. وطلب رئيس وزراء ووزير خارجية إسرائيل من فوك أن يبلغ الدوائر

الحكومية للاتحاد السوفييتى رأيهم فيما يخص " أن حكومة إسرائيل لديها رغبة ملحة فى استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى".

من جانبه، صرح فوك بالآتى: "يتحدث العالم اليوم عن زيارة نيكسون المزمعة إلى بكين، ووفق رأى فوك، يجب على الاتحاد السوفييتى أن يأخذ زمام المبادرة من نيكسون، وعلى الفور يتخذ خطوات فورية لإعادة العلاقات مع إسرائيل، وهذا حسب رأيه سيغطى فى الرأى العام العالمى على زيارة نيكسون إلى بكين، ويسمح للاتحاد السوفييتى أن يأخذ زمام المبادرة بالتسوية فى الشرق الأوسط فى يده. الاتحاد السوفييتى سيكسب فقط من هذا، فى حين ستخسر الولايات المتحدة.

١٩٧١/١٢/٢٢

أ. شيليبين.

فى نفس الوقت وصلت إشارة من السادات عبر برقية مشفرة فى ٢٣ يوليو، من القاهرة، عن طريق سكرتير اللجنة المركزية ب. ن. بونوماريوف، الذى أشار إلى أن السادت قال له: "هذا شىء سيئ أن يتحدث مع إسرائيل عبر الولايات المتحدة فقط، وليس من خلال الاتحاد السوفييتى. وأكد على أن طريقة إمكانية بناء علاقاتنا مع إسرائيل متروكة لرؤية الجانب السوفييتى نفسه".

هكذا نشأ "ملف خاص" سرى للغاية. وهو ينظم إجراء الاتصالات السرية مع القيادة الإسرائيلية، والتى بدأت بالفعل، مع بعض الانقطاع من أغسطس ١٩٧١ وحتى سبتمبر ١٩٧٧. فى البداية عملت فى هذه الاتصالات بمفردى، وفيما بعد مع يورى فاسيليوفيتش كوتوف، وهو أحد المسئولين فى الكى جى بى، ومع الوقت ظهرت قنوات اتصال أخرى غير رسمية، لكن على حد علمى قناتنا كانت هى الأساسية. والكلام عنها مثير للاهتمام لأنه يظهر: أنه حتى فى فترة غياب العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، حاول الاتحاد السوفييتى العمل فى جميع الاتجاهات لكى يوجه الأمور لحل توافقى فى مصلحة جميع أطراف التسوية فى الشرق الأوسط.

لقاءات مع إيبان ومائير وديان

سرى للغاية

ملف خاص

إلى الرفيقين أندروبوف، وجروميكو

مقتطف من البروتوكول رقم ١٢ لاجتماع المكتب السياسى فى ٥ أغسطس ١٩٧١.

وزارة الخارجية السوفييتية (حول إسرائيل)

١ـ إرسال الرفيق بريماكوف إلى إسرائيل لإجراء اتصالات غير رسمية مع ممثلين رسميين إسرائيليين.

٢ـ التصديق على مشروع مرسوم للرفيق بريماكوف للاجتماع مع قيادات إسرائيلية.

٣ـ التصديق على مرسوم للسفير السوفييتى فى القاهرة.

الإمضاء سكرتير اللجنة المركزية.

من الضرورى القول إن كل المستندات التى أنقل عنها، رأيتها منذ حوالى ثلاثين عاما، عندما تم الكشف عنها وبطلب منى مرتبط بكتابة هذا الكتاب. وعرفت أننى معين للقيام بمهمة على هذه الدرجة من الأهمية، فقط بعد اتخاذ قرار بذلك. عندما كنت أشغل منصب نائب رئيس معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية، كنت أقضى إجازتى مع زوجتى فى المجر، على بحيرة بالاتون، وعندما وصلت إليها قادما من بودابست، قال لى أحد العاملين فى سفارتنا: "من الضرورى على وجه السرعة أن تغادر إلى موسكو".

ماذا حدث؟ أفكار مرعبة جالت برأسى، ربما حدث مكروه لنجلى الذى لم يكن معنا، بعد قليل هدأنى توضيح ممثل السفارة الذى كان يقوم بمهمته المكلف بها

بحماس: "الزوجة يمكنها أن تبقى للاستجمام، فهم يستدعونك أنت بمفردك على وجة السرعة".

ها أنا فى موسكو. وعلى سلم الطائرة استقبلنى رفيقى فلاديلين نيكولايفتش فيودروف، الذى شارك معى فى المرحلة الأولى من "الملحمة الكردية"، والتى أكتب عنها فى هذا الكتاب. فى لحظة استقبالى فى المطار كان الجنرال فيودروف مدير قسم الشرق الأوسط فى المخابرات الخارجية السوفييتية، ومنه عرفت مباشرة سبب استدعائى. ثم تلى ذلك مقابلة ى.ف. أندروبوف، وجروميكو، حيث تلقيت التعليمات الخاصة بالسفر.

لقد قرروا تنفيذ المهمة بمساعدة رئيس لجنة الطاقة النووية الإسرائيلية ش.فريير، الذى تعرفت عليه فى أثناء إحدى جلسات مؤتمر باجوش. كان البروفيسور فريير إنسانا لطيفا، وصاحب رؤية ليبرالية، ويميل إلى الجلسات الصريحة، وكان ينتمى إلى الدوائر الإسرائيلية، التى ترغب فى التقارب مع الاتحاد السوفييتى. وكان وضعه يسمح له أن يتواصل مع "القيادات الإسرائيلية". قال لى حينها، إنه سيكون من المفيد تنظيم اتصال للاتحاد السوفييتى بإسرائيل "حتى ولو بشكل سرى".

أبلغوا فريير أننى أود لقاءه فى روما. وهناك هو سيكون على استعداد لأن يأخذ على عاتقه تنظيم رحلتى السرية إلى تل أبيب. لم يمل جميع الذين قابلتهم قبل السفر فى موسكو من الحديث عن السرية التامة للمهمة. وصل فريير إلى روما بصحبة بارون مدير مكتب وزير الخارجية الإسرائيلى. بتذكرة إلى كولن عبر صالة ترانزيت مطار روما يوم ٢٨ أغسطس ١٩٧١، وصلت إلى طائرة الخطوط الإسرائيلية "العال" المتجهة إلى تل أبيب.

فى تل أبيب أسكنونى فى شقة بمنزل عادى، لا أخفى، شعرت بعدم راحة، وحيدا فى بلد لا أعرفه، فكرت فى أنه قد يحدث لى مكروه وحتى لن يعرف أحد، لكنى فكرت فى أن هذا غير مفيد للإسرائيليين، "أن يحدث لى مكروه"، كنت مرهقا، توارت كل هذه

الأفكار ونمت نوما عميقا. في اليوم التالى من وصولى جرت مقابلة مع آبا إيبان وزير خارجية إسرائيل. قرر فى البداية أن يقرأ على محاضرة، كيف نشأت إسرائيل، وعن العلاقات مع الدول العربية، ثم بحرارة أصبح يكيل الاتهامات للسياسة السوفييتية. هنا قررت أن أقاطعه: "لدينا أكثر من هذا بكثير لنقوله عن نواقص سياستكم، لكنى لا أعتقد أن الفكرة من لقائنا تبادل مثل هذه "اللطافة". وليس دون اهتمام يمكن ملاحظة أن إيبان كان يقرأ نصًا من ورقة معدة سلفا، واقترح عمل محضر بالمقابلة وهو الأمر الذى رفضته، مبررا ذلك بعدم رسمية مهمتى. حينها حاول أن يفسر مبادرة جولدا مائير فى فنلندا باعتبارها "اقتراحًا يعنى اتصالات رسمية"، لكن، عندما شعر مستشار رئيس الوزراء دينريخ الذى كان يحضر اللقاء، أن إيبان تطرف فى الحديث، وظهر الانفعال على وجهى، تدخل فى الحديث وقال إن مائير فى أثناء وجودها اقترحت أن تكون بيننا اتصالات على أى شكل، ولم يكتف دينريخ بذلك، وأعطى ورقة لإيبان، إلا أن هذا الأخير استمر يستوضح، "من أمثل، هل جروميكو أم أندروبوف، أم شخص آخر غيرهما؟، فقلت له أنا أرسلت فى مهمة سرية وغير رسمية من القيادة السوفييتية، بناء على اقتراح رئيس وزراء إسرائيل باللقاء.

وبعد هذه البداية، كان من الممكن أن أصل إلى استنتاج بعدم فائدة مهمتى. لكن اختفى التشاؤم فى اللقاء التالى وكان مع رئيسة الوزراء جولدا مائير ووزير الدفاع موشى ديان، على أى حال، اللقاءات معهما جعلتنى أحدد بشكل أفضل الموقف الإسرائيلى.

كانت جولدا مائير سياسية ذات خبرة، وتجيد إخفاء وجهة نظرها الحقيقية خلف ابتسامة بريئة حنونة، رغم أن وجهات النظر هذه كانت دائما أبعد ما تكون عن العواطف. ذات مرة قال بن جوريون، إن فى حكومته رجل حقيقى واحد فقط، هو جولدا مائير، وأنا أضيف لهذا، أحيانا يكون "رجلاً" انفعاليًا جدا، ولدت جولدا مائير عام ١٨٩٨ فى كييف عاصمة أوكرانيا، لكنها منذ صغرها عاشت فى الولايات المتحدة حيث

هاجرت أسرتها، وعندما بلغت ٢٣ عاما بدأت العيش فى فلسطين، حيث شاركت بنشاط فى الحركة الصهيونية.

أما فيما يتعلق بديان، فقد كان يتميز عن مائير بالتحفظ والصراحة العسكرية، وقد ولد ١٩١٥ فى فلسطين، وانضم إلى منظمة الهاجاناه العسكرية وهو مازال فى سن المراهقة، أعتقلته سلطات الانتداب البريطانى، لكن أطلق سراحه فى ذروة اشتعال الحرب العالمية الثانية، شارك فى عملية استطلاع قام بها الإنجليز قبل عملية إنزال فى سوريا، وهناك أصيب نتيجة وصول شظايا من زجاج منظار إلى عينه، لكنه بقى حيا، وحمل عصابة سوداء على عينه لإخفاء الجرح حتى آخر أيام حياته. ترقى بسرعة فى السلك العسكرى، شغل منصب رئيس أركان ووزير دفاع، فى عام ١٩٧٧ بدعوة من رئيس الوزراء بيجين أصبح وزيرا للخارجية، على الرغم من أنه لم يكن عضوا فى حزب الليكود.

وبالمخالفة لكل الآراء المنتشرة، لم يتحدث بالروسية لا مائير ولا ديان.

تميزت مائير عن إيبان فى أنها حاولت أن تعطى طابع حسن النوايا للجلسة، فقد أخطروها بلا شك كيف انتهى لقائى مع إيبان، قلت للمترجم الإسرائيلى (كان الحديث يجرى من خلال مترجم روسى - عبرى ـ المؤلف): " من الواضح أننى بلا فائدة استجبت لاقتراح حول بداية الاتصالات"، وعلى ما يبدو ليس صدفة أن اللقاء مع مائير لم يجر فى مقر رئيس الوزراء، ولكن فى منزلها الواقع فى القدس الغربية. وبعد الترحيب، بدأت الحديث من أنها مبهورة بموسكو (كم هى جميلة ! ـ المؤلف) وباللغة الروسية (كم هو رنان ! ـ المؤلف)، وتذكرت سفيرنا بودروف (كم هو ذكى ! ـ المؤلف)، ابنتها وزوج ابنتها اليهودى اليمنى (كان يتحدث الروسية بطلاقة ! ـ المؤلف).

ثم قالت: "والآن ندخل فى الموضوع، إسرائيل مهتمة بتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتى. نحن لن ننضم إلى أى عمل موجه ضد الاتحاد السوفييتى مهما كان، والولايات المتحدة تعرف أنها لا تستطيع أن تملى علينا سياستنا التى نتبعها". لكن

نحن كنا نعرف أن مائير أجرت مباحثات فى واشنطن حول إمكانية انضمام إسرائيل للناتو، فقررت عدم الحديث عن ذلك مباشرة، لكنى سألتها كيف تنظر إلى تصريحات ديان التى أدلى بها منذ فترة ليست بالبعيدة عن أن "الولايات المتحدة تهمل الأهمية العسكرية لإسرائيل، وحتى الآن لم تضمها للمنظومة العسكرية للناتو". كان من الواضح أن ملحوظتى أصابت الهدف، لأن ديان فى اليوم التالى أشار إلى حديثى مع مائير، وقال:"أريد أن أؤكد، مباشرة، أن تصريحاتى تم تحريفها عند النشر فى الصحف الإسرائيلية. نحن لا نحتاج حماية من الولايات المتحدة، وفى نفس الوقت نحن لا نريد أن نحارب من أجل أهدافها ومصالحها، نحن يلزمنا فقط الأسلحة، ونحن نحصل عليها دون الانضمام للناتو".

اعتمدت مائير كذلك على جهود إسرائيل فى تأمين الحماية لنفسها، لكنها أشاحت بوجهها عندما قلت"ممكن ويجب فصل الأمن عن مشكلة الأراضى، التى تعنى الحياة من حيث الأهمية للعرب، أنا مكثت فترة طويلة فى العالم العربى، وأعرف أن الشارع سيسقط أى حكومة عربية، رافضة لتحرير الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧".

هنا استشاطت مائير غضبا "حتى تحت التهديد بجولة جديدة من الحرب، لن تقبل إسرائيل إملاءات لا من جانب العرب ولا من جانب الولايات المتحدة، أو من أى قوى عظمى أخرى للعودة إلى وضع ما قبل يونيو ١٩٦٧"، ولم تؤثر فيها فى الواقع، ملاحظاتى حول تنفيذ قرار مجلس الأمن الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧، وأنه لا يعنى عودة الوضع كما كان فى السابق، لأنه يحمل لإسرائيل الاعتراف من جانب الجيران، ويخلق وضعًا دوليًا ـ قانونيًا لحدودها، التى بالمناسبة توسعت مقارنة بتلك التى حددها قرار الأمم المتحدة عند إنشاء هذه الدولة، وأخيرا يضمن أمن إسرائيل.

استطردت مائير " لا يمكن الوصول إلى الأمن عن طريق الكلام الأجوف، كله تبخر، أين كانت قوات الأمم المتحدة بضمانات السكرتير العام همرشيلد، التى سوف تحمى الملاحة؟ وفى هضبة الجولان صعدت دباباتنا وهى فى وضع رأسى تقريبا وفقدنا

الكثير من الناس، ماذا تعتقدون هل نعيدها مرة أخرى؟ عندما بدأ ناصر "حرب الاستنزاف" في منطقة قناة السويس، كان يعرف، أننا كل يوم ننشر في الصحف أخباراً عن القتلى، وصورهم. وقال ناصر إن أمة كهذه لا يمكن أن تنتصر. وهو ببساطة لم يفهم شيئاً".

لم تكن نستطيع أن نأخذ محاولات الإسرائيليين إظهار أنفسهم بأنهم مستقلين عن الولايات المتحدة، مأخذ الجد، فقد كانت لدينا معلومات أخرى. لكن بهذه المقاييس يجب ألا يتم التعامل مع النفى المطلق لضرورة ضمان أمن إسرائيل من جانب الأمم المتحدة والولايات المتحدة والقوى العظمى الأخرى. لا أخفى أنهم فى موسكو كانوا يعتقدون أن هذا كان من أسس التعليمات، للجلوس مع القادة الإسرائيليين، وأن أى اقتراح بضمان دولى لأمن إسرائيل سيسمح سيجعل إسرائيل أكثر مرونة فى مسألة الانسحاب من الأراضى المحتلة، لكن أصبح من الواضح أن هذا الربط يشكل مشكلة. فقد تحدث عن هذا ديان فى اليوم التالى للقائى بجولدا مائير بشكل أوضح من الوضوح نفسه عندما قال: "إذا وضعتم المسألة بهذا الشكل: انسحبوا إلى خطوط ٤ يونيو، ونحن على استعداد أن نناقش أى اقتراح لكم يضمن أمن إسرائيل، فإننى ضد هذا الحل بشكل حاسم. الحل التوافقى مع العرب يجب أن يشمل فى طياته مشاكل الأرض".

وفى نهاية اللقاء لم تعد مائير تذكرنى بالسياسى ذى الدم البارد وقالت "إذا كانت الحرب ستحدث، فنحن سنخوضها، وإذا أزعجتنا أى طائرات، فإننا سنقوم بإسقاطها". قيل هذا الكلام فى ظروف، عندما كان هناك خطر مباشر بحدوث صدام بين الطيارين السوفييت والطيارين الإسرائيليين فى سماء مصر. ومن خلال رد فعلى أدركت مائير أنها ذهبت بعيدا جدا. وفى إجابتها عن سؤال لى: "أى طائرات عازمين على إسقاطها؟" فاستشاطت وبدون تفكير قالت: "فى عام ١٩٤٨ (فى أثناء الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى - المؤلف) أسقطنا خمس طائرات إنجليزية". وفى نفس الوقت تحدثت إسرائيل عن أهمية التواصل مع الاتحاد السوفييتى بالنسبة لإسرائيل.

بعد هذه اللقاءات دعاني بارون للغداء معه على انفراد في مطعم صيني، فقلت له بصراحة، أنه عند اتخاذ القرار بإرسال ممثل سوفييتي لإسرائيل للتواصل مع القيادة الإسرائيلية، انطلقنا من معلومات إسرائيلية وصلتنا عن الاستعداد لمناقشة مشاكل محددة في التسوية. زد على ذلك أنه بالرجوع إلى قيادات إسرائيل، كان هناك تأكيد، على أن في موقفهم توجد عناصر جديدة، لها القدرة على دفع عملية التسوية، لكني لم أجد هذا.

واقترح بارون في إجابته، كما قال "بحث عدد من الأفكار النظرية المجردة"، على سبيل المثال، هل تستطيع مصر أن توافق على إعطاء شرم الشيخ لإسرائيل، مع الأخذ في الاعتبار أن الأخيرة ستعترف بها جزءًا من الأراضي المصرية. فقلت له من وجهة نظري هذا غير ممكن. وتلقى بارون إجابة مشابهة عندما سأل عن رأيي، هل من الممكن أن توافق سوريا على تمركز نقاط عسكرية دائمة على مرتفعات الجولان، على أن تحتفظ سوريا بالسيادة على الجزء المتبقي.

من الواضح أن بارون تعصب عندما تطرقت إلى إشارة مائير، عن استعدادها إسقاط طائراتنا. وقال "هل معقول أنها لا تدرك، كم سندفع ثمنا لهذا، أم تعتقد أن الأمريكيين سيساعدوننا ويدخلون في مغامرة حرب نووية؟" "لا بالطبع لا ـ قال بارون بسرعة ـ زيارتكم مهمة جدا، من الضروري أن نصل لحالة من الثقة، وهي لا تنشأ بسرعة". تحدث بارون كذلك عن إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي وإسرائيل. وأنا لم يكن لدي تفويض لمناقشة هذه المسألة، وقلت لبارون هذا.

واللقاء مع ديان جرى في القدس الغربية في فندق "هيلتون". دخلنا عبر جراج تحت الأرض، وصعدنا بواسطة مصعد، إلى أحد غرف الفندق حيث كان ينتظرنا ديان، الذي قال: "أمرت أن آتي إلى هنا وألتقي بكم"، وابتسم عندما سمع إجابتي: "وأنا كنت أعتقد أنك أنت فقط من تعطي الأوامر". تحدث ديان عن سعي إسرائيل لتجنب حدوث أي صدام مع الأفراد العسكريين السوفييت في مصر، القوات الجوية الإسرائيلية لديها تعليمات في هذا الشأن" وكان من الواضح أنه تحدث هكذا، ليس دون أن يعرف ما دار

فى جلساتى مع مائير وبارون. فى غضون ذلك، وفق كلماته، قبيل وقف إطلاق النار فى منطقة القناة، جرت مهاجمة للطائرات الإسرائيلية من قبل طائراتنا. وقال "فى حالة استمرار مثل هذه الهجمات سيكون من الضرورى علينا الانسحاب بعيدا عن القناة، أو الدفاع عن أنفسنا فى الجو. ليس لدينا خيار آخر غير قبول البديل الأخير". فسألت ديان، وهل يعتقد أن اختيار البديل غير موجود عند الآخرين، على سبيل المثال الاتحاد السوفييتى. ومع تأكيدى على سعى الاتحاد السوفييتى لتخفيف التوتر وتوصيل قضية الشرق الأوسط للتسوية، لفت انتباهه إلى أن بلادنا لديها عدد من الالتزامات، تنبع من سياسة التوصل لسلام لمصلحة إسرائيل والشعوب العربية، وأشرت كذلك إلى قرب منطقة الشرق الأوسط من حدودنا، ولهذا لدى الاتحاد السوفييتى حساسية خاصة للأحداث فى الشرق الأوسط، والاهتمام بتسوية مستقرة للنزاع. وهذا الاستقرار يمكن التوصل إليه فقط بحل توافقى.

لم يجادل ديان فى هذا الأمر، ولم يجادل فى استنتاجاتى فى شأن أن ليس هناك حل عسكرى. وحول كلماتى: "أن إسرائيل ليس لديها القدرة على احتلال مصر وسوريا، والاستمرار فى هذا الاحتلال، كما أنه لن يسمح لها أحد بفعل هذا"، كان رد فعل ديان على النحو التالى:" نحن نعرف أن الأعمال العسكرية مع العرب ستنتهى بنفس الوضع الحالى، الموجود اليوم، خط فاصل بين القوات، لكن فى نفس الوقت العرب لن يصلوا إلى شىء باستئناف العمليات العسكرية".

وكان من الطبيعى ألا نتخطى السؤال عن الدولة الفلسطينية. وفى هذا الشأن كان ديان صريحا لأقصى درجة: "نحن موجودون على الأراضى الفلسطينية والأردن موجود وهذا الوضع يناسبنا"، كنت أعتقد أنه كان من الضرورى أن أقول لديان، إن حل مشكلة الدولة تخص الفلسطينيين، ومن غير المتوقع أن يسمحوا لأحد أن يحل هذه المشكلة بدلا عنهم.

وكان من الممكن أن أشعر من الأحاديث، اهتمام القيادة الإسرائيلية، فى نهاية الأمر، بالموافقة فى أحسن الأحوال على انسحاب جزئى من سيناء. لكن مائير وخاصة إيبان أظهرا موقفًا سلبيًا، من الممكن أن يكون ظاهريا من هذه "الفكرة الأمريكية".

ومن خلال جلساتي فهمت، أن القيادة الإسرائيلية راهنت على الحفاظ على الوضع الذى نشأ بعد حرب ١٩٦٧، وكانت تريد تجميد الوضع فى الشرق الأوسط لفترة طويلة، ويجب أن أقول: على الرغم من التمسك بوجهات نظر متناقضة فى أغلبية المشاكل التى نوقشت، وأحيانا تم التعبير عنها بشكل حاد بما فيه الكفاية، فإنى شعرت بوجود سعي، خاصة من جانب بارون وفريير، فى أن يخففا من حدة التوتر عن طريق حسن الاستقبال والكرم. بقى فى ذاكرتى عشاء دعانى إليه بارون فى حانة مجرية بتل أبيب، وحضر بارون مع زوجته، والسكرتيرة الشخصية لرئيسة الوزراء ليو كادّار، التى تدخلت فى حديث عام بطريقة فجة، مما صدم زوجة بارون، التى لم تتقبل هذه الفظاظة، لكنها على أى حال عاملت السيدة كادّار باحترام ظاهرى، على ما يبدو كانت تدرك أهميتها.

وذهبت مع فريير للسينما، لا اتذكر أى فيلم شاهدنا، لكنى كنت مندهشا أن المشاهدين الذين ملأوا صالة السينما، كانوا يشبهون العرب، فى وجوههم، وفى سلوكهم كذلك، فقد كانوا يطلقون الصافرات عندما يتوقف شريط الفليم، كما لو كنت أجلس فى دار سينما فى دمشق أو بغداد. سافرت إلى شمال إسرائيل، لكنى رفضت زيارة الأراضى المحتلة، مرتفعات الجولان والضفة الغربية. وقدموا لى الدليل المرافق على أنه "عالم من فنلندا".

(سجلت انطباعاتى المختصرة عن الرحلة فى كراسة: "فى المناطق الشمالية الخنادق منتشرة فى كل مكان للحماية من القصف. فى الكيوبتزات التأثير الدينى ضعيف. لا يوجد معبد. الأطفال يعيشون منفصلين، ساحة رياضة، حمام سباحة ليس كبيرا. من الساعة ٤ وحتى الساعة ٧ كل يوم بالإضافة للسبت يأخذ الوالدان الأطفال. المطاعم عامة للجميع. إذا حضر ضيوف يمكن أخذ الطعام للمنزل. الكوميونة تمتلك وسائل الإنتاج، الكثير من الكيوبتزات لديها مصانع. كل شىء يحل من خلال الاجتماعات، حتى التحاق الابن بالجامعة. الخروج من الكيوبتز ممكن، لكن يجب ترك كل شىء للطائفة. مدن المهجرين، المنازل متنوعة جدا، فى كل بيت توجد غرفة خاصة

مضـادة للرصـاص. جنود كثيرون فى الطرقات. يلوحـون للسيـارات بايديهم ويطلبون توصيلهم. فترة الخدمة العسكرية الإلزامية ثلاث سنوات للشباب، وعامان للفتيات".

وقبل عودتى إلى روما، قال لى بارون نقلا عن رأى لمائير، إنها تعتقد أن اتصالاتنا ناجحة من وجهة نظر توضيح المواقف، لأن هذه الاتصـالات جرت، أخيرا، حتى ولو بعد أربع سنوات من القطيعة، واقترح بارون أن يكون التواصل موجودا على أساس دائم.

وفى مـوسكو استـقبلوا التقرير المفصل الذى قدمتـه بإيجـابية، وصـدرت أوامر للسفير السـوفييتى فى القاهرة بإخطار الرئيس السـادات عن مـهمة الممثل السـوفييتى فى إسرائيل.

اتصالات فى فيينا

محاولة إثارة اهتمام إسرائيل بالوساطة السوفييتية

فى يوم ٢٤ سـبـتمـبر أصـدر المكتب السيـاسى قـرارا بإجـراء لقاءات أخـرى مع ممثلى حكومـة إسـرائيل، فى فـيينا أو فى لاهاى "بـهدف توثيق التـواصل مع القـادة الإسـرائيليين، ومناقشـة مـواقف أطراف النزاع الشـرق أوسطى بالتفصـيل"، وتم تكليف المخابرات بتأمين الاتصالات واللقاءات، مثل ما حدث فى المرة الأولى.

وجرى الاتفـاق على اللقاء فى فـيينا، وأخطرونـا أن المدير العام لوزارة الخـارجية الإسـرائيلية جـازيت وبارون سيغـادران إلى فيينا للقائى. سـافرت يوم ٧ أكتـوبر ١٩٧١ إلى فيينا، حيث كان ممثـلا إسـرائيل قد وصـلا بالفعل إلى هـناك، وجـرت المقابلات فى مطاعم صـغيرة مـختلفة فى ضـواحى المدينة.

كانت مـوسكو تعلق أهمية كبيرة على هذه اللقـاءات، لأنها جاءت بعد تقدم الاتحـاد السـوفييتى بخطة للتسوية السيـاسية للأزمـة الشرق أوسطية. كانت الخطة السـوفييتية

تقترح، أولا على شكل إجراءات تخفف من حدة النزاع، عن طريق ربط انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ مع وقف الحرب وإقامة سلام بين كل الدول العربية وإسرائيل. ثانيا تشترط أن يتم الانسحاب على مرحلتين، بعد المرحلة الأولى يتم إنهاء حالة الحرب وإقامة السلام، ثالثا، تقترح الخطة منظومة من الإجراءات لتحقيق حدود آمنة لكل دول المنطقة. جدير بالذكر أن الأجزاء الرئيسية من الخطة السوفييتية كانت مقبولة من الدول العربية التى نسفت منذ أربع سنوات مشروع قرار من دول أمريكا اللاتينية في دورة الانعقاد الطارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة، لأنها لم تكن توافق تحت أى شروط أن تنهى حالة الحرب وإقامة سلام مع إسرائيل. حدث تطور فى الموقف العربى كان من ضمن أسبابه العمل المكثف الذى قام به الاتحاد السوفييتى.

من الواضح أن اللقاءات المقررة فى فيينا كانت موجهة لتحريك عملية التسوية. ففى الأوامر التى أعطيت للجلوس مع ممثلى القيادة الإسرائيلية التى أقرها المكتب السياسى جرى التركيز على توضيح موقفنا، وليس الدعاية، فقد تم التوصل لهذا الموقف لمصلحة جميع أطراف النزاع. واقترح فى هذا الشأن "عند تحليل الاقتراح السوفييتى بالتفصيل، يجب لفت انتباه إسرائيل إلى احتوائه على إجراءات لتوفير حدود آمنة لإسرائيل، وحرية الملاحة فى كل الممرات البحرية فى المنطقة" وكان من الواضح أن الاتحاد السوفييتى يريد أن يلعب دور وساطة بنّاء فى التسوية. فقد كانت التعليمات التى أعطيت لى، ليس فقط عرض خطتنا، لكن الوصول بالأمر، بحيث "يقف ممثل إسرائيل على تفاصيل موقف بلادى فيما يتعلق بعدد من القضايا المرتبطة بالأراضى ومستقبل الحدود، وكذلك وضع قوات أو مراقبين للأمم المتحدة". عند هذا سيكون على التأكيد على استعدادنا لدراسة مقترحات إسرائيلية محددة، خاصة إذا كانت ستحمل طابعًا بنّاء.

من جانبنا لم نرفض "تسوية مرحلية" - فتح قناة السويس - بالإضافة لهذا الإشارة إلى ضرورة بحث اقتراح رئيس مصر حول فتح قناة السويس، وذلك للحصول

على معلومات عن استعداد إسرائيل قبول هذا الوضع أو ذاك من خطة السادات. في غضون ذلك اقترح بوضوح أن نقول إنه عند عدم وجود المرونة في المدخل الإسرائيلي، فإن مصر ستحصل على أنواع جديدة من الأسلحة، خاصة في الطيران، حيث إنها متأخرة في الوسائل الهجومية عن إسرائيل، وسيكون من الصعب على الاتحاد السوفييتي، ألا يستجيب لطلب القاهرة إيجابيا.

غير أن جلسائي لم يكن لديهم الرغبة لمناقشة قضايا محددة، وأضاعوا إمكانية واقعية للتحرك في التسوية. وكما قال جازيت الاقتراح السوفييتي غير مناسب لأنه يستند إلى استخدام آلية الأمم المتحدة، وهذا لا توافق عليه إسرائيل، كما أن ضمانات الدول العظمى غير مقبولة. ومرة أخرى سمعنا نفس المبررات - أن الحفاظ على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ فقط هي التي تضمن الأمن لإسرائيل. الإحساس الذي ساد حينها، أنه بموافقة الولايات المتحدة، أو بدونها، إسرائيل تقوم دون حساب بترتيب المواقف، ربما تحت تأثير زهو نصر ١٩٦٧ كانت تريد فرض شروطها على الدول العربية.

وسأسبق الأحداث وأقول إن الخطة السوفييتية كان من الممكن تطويرها، لتصبح "خارطة الطريق" التي أصبحت في بداية القرن الحادي والعشرين طريق التسوية للنزاع الشرق أوسطي المعترف به من المجتمع الدولي. كان لدى القيادة الإسرائيلية فرصة منذ عام ١٩٧١ للتحرك بحسم نحو السلام مع العرب. وأريد أن أؤكد، ليس فقط مع السادات ولكن مع العرب بشكل عام، وهو ما كان الاتحاد السوفييتي على استعداد للمساعدة فيه.

في غضون ذلك، حاول جازيت وبارون بشكل شخصي مناقشة قضايا غير مرتبطة بالتسوية العامة، وأكدا على ذلك. على سبيل المثال، بعد التوصل لاتفاق بتسوية مرحلية (حل فتح قناة السويس - المؤلف)، ثم القيام بالمرحلة الثانية من انسحاب القوات الإسرائيلية، على فترة أطول، على مدى عدد من السنوات (١٥،١٠،٥)، لكن هنا يدور

الحديث عن سيناء فقط. أو مرة أخرى المشكلة التى أثيرت من قبل عن إمكانية منح شرم الشيخ وغزة لإسرائيل "مع احتفاظ الدول العربية بحقوق السيادة عليهما"، أو ضم قوات إسرائيلية إلى قوات الأمم المتحدة، إذا تقرر نشر هذه القوات فى مناطق منفصلة. من جانبى لفت نظر جلسائى، أن هذه القضايا يمكن مناقشتها، لكن فى إطار تسوية شاملة، ويجب فصلها عن معادلة "الأرض مقابل السلام". رفض جازيت هذه الوضع من البداية، وبارون نفاه، لكن بشكل لطيف.

تطرق الإسرائيليون كذلك إلى تسعة أسرى من جنودهم موجودين فى مصر، وطلبوا إطلاق سراح أربعة منهم جراحهم شديدة، أو حتى على الأقل الطيار إيال أخيكار، الذى يعانى من الشلل نتيجة إصابته بالرصاص، وأعربا عن استعدادهما لمناقشة أى اقتراح مقابل من المصريين فيما يتعلق بأكثر من ٦٠ عسكرى مصرى أسرى لدى إسرائيل. تم إبلاغ السادات بطلب الإسرائيليين بالتفصيل ضمن المعلومات التى أرسلت له عن اتصالات فيينا.

وفى أثناء لقاءات فيينا ظهرت كذلك رغبة من الإسرائيليين فى إنهاء مهمة مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة يارنج، والاكتفاء " بالخدمات الطيبة " التى تقدمها الولايات المتحدة.

وكما فى تل أبيب، أثاروا مسألة هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتى، فى ذلك الوقت لم تكن هناك عقبات تعيق الهجرة، لكن لكى لا نشجع عليها، تم اتخاذ منظومة إجراءات، مثل الفصل من العمل لهؤلاء الذين يبدون الرغبة فى الهجرة، والمطالبة بدفع تكاليف التعليم الذى حصلوا عليه فى الاتحاد السوفييتى. وبدأت فى إسرائيل حملة معادية للاتحاد السوفييتى، ساهم فيها غلمان مائير كاهانا. قلت لجازيت: " إذا قمتم علنا بإدانة أعمال كاهانا الاستفزازية، لتقبلت موسكو هذا بشكل جيد".

وفى أثناء آخر لقاء، والذى جرى يوم ١٥ أكتوبر، أكد بارون أن سفرهم إلى فيينا تم إعطاؤه أهمية كبرى، فقد استقبلتهما مائير مرتين. ووفق كلماته، كان التركيز على لقاء فيينا ناجما عن أن السادات سيكون فى نفس الوقت فى موسكو.

متاعب مع استمرار الاتصالات

وبعد عودتي إلى موسكو، أرسل ى. ف. أندروبوف و أ. أ. جروميكو مذكرة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى:

اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى

فى يوم ١٣ نوفمبر من العام الحالى، ووفق الاتفاق مع ممثلى إسرائيل، تلقت القناة السرية خطابًا باسم بريماكوف ى. م. يقيم فيها الجانب الإسرائيلى لقاء فيينا وتبادل الآراء الذى تم فيه على النحو التالى:

"بعد عودتنا قدمنا تقريرا شاملا لقيادتنا، التى قابلتموها فى أثناء وجودكم هنا (يعنى إسرائيل - المترجم)، ونعتقد أن جلساتنا كانت مفيدة، على الرغم من بقاء التباين فى الآراء، لكن على أى حال كان من المهم التعرف على طريقة تفكير بعضنا بعضًا. نحن واثقون أن تبادل الآراء دوريا، من الممكن أن يأتى بفوائد".

الخطاب موقع من مدير مكتب وزير خارجية إسرائيل خ. بارون.

بناء على ما ذكر يفضل إرسال رد عن طريق قناة الاتصال السرية. الرد يكون على النحو التالى وبتوقيع بريماكوف. ى. م:

"تسلمت خطابكم المؤرخ ٤ نوفمبر من العام الجارى. وبعودتى من فيينا قدمت تقريرا عن محتوى جلساتنا. ولدينا هنا نفس التقييم لنتائجها.

برجاء الاطلاع.

أندروبوف جروميكو

٣ ديسمبر ١٩٧١

وعلى المذكرة توقيع موافقة، وتحت الموافقة ثلاثة توقيعات: سوسلوف، كوسيجين، بودجورنى - وفى النهاية تذييل تشيرنينكو: بعلم بريجنيف.

وصل اقتراح من إسرائيل فى نهاية مارس بإجراء مقابلة جديدة، فى الخطاب أكدوا أن اللقاءات تعتبر مفيدة، على الرغم من أنه "لا شىء جديد فى الموقف الإسرائيلى". اقتراح مقابلة جديدة، كانت لها ارتباط مباشر (حتى لا تكون هناك أوهام! - المؤلف) بأنه فى موقف إسرائيل لم يتغير شىء، ونحن أبقينا الأمر دون جواب.

وفى سبتمبر عام ١٩٧٢ شاركت فى مؤتمر باجوش رقم ٢٢ فى أكسفورد (إنجلترا ـ المؤلف). وصل إلى هناك فريير، الذى قال لى إن هدف حضوره هو الرغبة فى لقائى "لمناقشة القضايا التى تهم الجانبين" وفق كلامه، أنه تلقى تعليمات من جاريت و"قادة إسرائيليين آخرين" بعقد لقاءات معى.

وكان فريير دائما ما يتحدث معى بصراحة. وفى هذه المرة بدون أى مواربة أكد لى أنه وفق التقييم الإسرائيلى خروج الخبراء السوفييت من مصر يجب أن ينعكس إيجابيا على علاقات الاتحاد السوفييتى بإسرائيل. وتذرع بالتعليمات فقال إن الجانب الإسرائيلى يخطط لأن يضع أمامنا مسألة استئناف العلاقات الدبلوماسية، إلا أنه أضاف "بشروط جديدة"، هذا يجب أن يكون منفصلا عن مشكلة العلاقة بين إسرائيل والدول العربية، أو بمعنى آخر منفصلا عن التسوية فى الشرق الأوسط.

أنا من جانبى سألت فريير: ألا تستخدم إسرائيل الاتصالات معنا للضغط على الأمريكيين، الذين يلعبون مع مصر، لمحاولة تعقيد العلاقات السوفييتية ـ العربية؟ ولفت نظر فريير إلى أن الاتحاد السوفييتى لديه مواقع قوية ليس فقط فى مصر، ولكن فى عدد من الدول العربية، وفى الحركة الفلسطينية، ولهذ فإن سياسة الاتحاد السوفييتى ستظل أحد العناصر الرئيسية لتطور الوضع فى الشرق الأوسط. وافق فريير على ما قلت من أفكار عن تلك الأهداف التى كما قال هو"البعض فى إسرائيل" يربطها بلقاءاتنا، لكن، وفق كلماته مائير ليست ضمن "البعض". وقال فريير إنه من خلال السفارة الإسرائيلية فى لندن سيخطر القدس بالتفصيل بمحتوى جلساتنا.

وقدم ندروبوف تقريرا عن اللقاء الذى حدث مع فريير إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى. وكان على المذكرة التى قدمها ثلاثة توقيعات، تحت عبارة تم الاطلاع عليها وكانت لسوسلوف وبودجورنى وكوسيجين.

واللقاء السرى الجديد مع ممثلى إسرائيل على أساس غير رسمى جرى فى الفترة من ٢٢ ـ ٢٦ مارس ١٩٧٣ فى فيينا مرة أخرى. والجانب الإسرائيلى مثله جازيت مرة أخرى، الذى أصبح يشغل مدير ديوان رئيس الوزراء منذ فترة قصيرة، وبارون المدير السابق لمكتب وزير الخارجية الإسرائيلى، الذى عين سفيرا فى هولندا. من جانبنا حضر أيضا شخصان، فقد حضر معى إلى فيينا ى. ف. كوتوف، وهو يعتبر واحدًا من أفضل محللى الاستخبارات الخارجية، وخبيرًا ممتازًا فى قضايا الشرق الأوسط. اللقاءات جرت فى ضواحى العاصمة النمساوية، فى فيلا مكونة من دورين باقتراح من الجانب الإسرائيلى.

من الانطباعات الجديدة عن الموقف الإسرائيلى يمكن ملاحظة الآتى. القيادة الإسرائيلية اقتربت من عقد اتفاق مع مصر حول تسوية جزئية مع فتح قناة السويس. فى هذه القضية هى على استعداد حتى أن تعلن موافقتها على عدم الوقوف عند انسحاب القوات فى سيناء إلى "مواقع انتقالية". فى ذات الوقت استبعدت إسرائيل من خططها تحديد جداول مسبقة لسحب قواتها من الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧، حتى من سيناء. عند هذا كان الإسرائيليون يعتقدون أن الولايات المتحدة يجب أن تساعد إسرائيل على الدخول فى مفاوضات مباشرة مع السادات، فالإسرائيليون كانوا يراهنون على مفاوضات مباشرة معه.

كان جازيت يسعى لأن يظهر عدم الاهتمام بمشاركة الاتحاد السوفييتى فى التسوية الجزئية مع مصر، ومن جانبنا أضفنا، معروف أن الإسرائيليين اتفقوا مع الولايات المتحدة على إخراج الاتحاد السوفييتى من عملية إعداد التسوية الانتقالية مع مصر. لكن فى المرحلة الأخيرة، على ما يبدو، كان من الضرورى لهم، لأسباب عديدة، الحصول على موافقتنا على الاتفاق بين إسرائيل ومصر على فتح قناة السويس.

فيما يتعلق بالمشاكل الفلسطينية، فإنه حسب رأى الإسرائيليين، هذا ممكن أن يحدث فى إطار الأردن، عمليا راوغ جلساؤنا الإسرائيليون فى مناقشة الوقائع الخاصة بأن قرارات مجلس الأمن أعطت الحق للفلسطينيين فى العودة لوطنهم، ومن لا يستخدم هذا الحق يحصل على تعويض. ولفتنا نظر جلسائنا إلى عدم الرغبة فى مناقشة مشكلة تحديد المصير للفلسطينيين، مؤكدين، على أن الحياة ستجبر إسرائيل على الاعتراف بحقوق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم.

وكان ملحوظا أن جازيت، وأنا لا أتحدث عن بارون، لم ينجر إلى التصعيد، بل خفف من نغمة حديثه، وخلق انطباعًا بأن الإسرائيليين عندما كانوا واثقين تماما فى تفوقهم العسكرى على العرب، ولم يتوقعوا أعمالاً عسكرية من جانبهم، ويعتقدون أنهم يجب أن يمر وقت طويل لاستخدام التناقضات البين عربية للحفاظ على السلبية فيما يتعلق بتسوية شاملة. لكن مقابلاتنا حدثت قبل شهور معدودة من بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبين هذه اللقاءات، والمقابلات السابقة مرت فترة مهمة. ملاحظا هذا، قال بارون وهو جالس معنا بمفرده: تكون عند القيادة الإسرائيلية فى البداية رأى أن شكل اللقاءات السرية المنتظمة، سيكون على الأقل، فى الفترة الحالية بدرجة ما تعويضاً عن عدم وجود العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. لاحظت أنا وكوتوف أن سبب التأخر فى الرد على اقتراح الإسرائيليين حول إعادة الاتصال، يعتبر تأكيداً قوياً من الجانب الإسرائيلى على غياب "موضوعات جديدة للمناقشة" لديه.

فى واقع الأمر كان هذا أحد الأسباب. السبب الآخر، على ما يبدو، والذى لم نتحدث عن هذا من قبل، وينحصر فى أن عنصر إعاقة تطور التواصل مع إسرائيل كان تأثير طرحنا لمعادلة، أن استئناف العلاقات الدبلوماسية السوفييتية ـ الإسرائيلية، ممكنًا فقط، بعد القضاء على الأسباب التى أدت إلى قرار قطعها عام ١٩٦٧، وبالتحديد تحرير الأراضى العربية التى تحتلها إسرائيل، ومنح الفلسطينيين حقوقهم

المشروعة، بما فيها إقامة دولتهم. لم يستطع أى من القادة السوفييت أن يتخذ قراراً بتأييد تغيير هذه المعادلة، لكى لا يتعرض للاتهام "بالتوافقية"، و"بمساعدة المعتدى".

كان فى الواقع يميل لاستئناف العلاقات كل من أندروبوف، والاستخبارات الخارجية، بينما كان جروميكو مترددا وبريجنيف "لم يمانع"، إلا أن الكثيرين كانوا ضد. من اللافت أنه فى مذكرة ى. ف. أندروبوف وأ.أ. جروميكو إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى حول نتائج مباحثاتنا فى فيينا ١٩٧٣، كان هناك اقتراح "بإخطار الإسرائيليين أننا على استعداد لدراسة طلبهم الخاص بتوسيع مقر القطاع القنصلى لسفارة هولندا، الذى يقوم برعاية المصالح الإسرائيلية فى موسكو، إذا طلبت إسرائيل هذا من الخارجية السوفييتية"(٥٨). فى قرار المكتب السياسى بتاريخ ١٨ أبريل عام ١٩٧٣، وبناء على مذكرة أندروبوف وجروميكو نص: "تمت الموافقة على الاقتراح بدراسة موضوع توسيع مقر القطاع القنصلى لسفارة هولندا بموسكو".

لكن المكتب السياسى اتخذ قرارا باتصالات فى مارس، واقترح تنظيم لقاء جديد مع ممثلين إسرائيليين فى فيينا من ١٠ إلى ١٥ يونيو. ويبدو أن سرية وعدم رسمية اللقاءات كانت تناسب حينها القيادة السوفييتية، كما أن كثافة اللقاءات، كان من الممكن أن تجعلها تنمو إلى مستوى رسمى. أنا أعتقد أن الأغلبية فى المكتب السياسى كانت تدفع بالتحديد فى هذا الاتجاه، على الرغم من أن أحدا لم يقل هذا بصوت مسموع. لكن بدأت مماطلة غير مفهومة من الجانب الإسرائيلى، فلم نتسلم ردا على الخطابات التى كما هو مؤكد أرسلناها، بعد ذلك عبروا عن استعداداهم لرؤيتنا فى أثناء سفر جازيت إلى أوروبا. هكذا جعلونا نفهم بوضوح أن اللقاء معنا هى على هامش هذه الرحلة. ثم مرة أخرى تأكد عدم وجود مواقف إسرائيلية جديدة. كل هذا لم يكن جاذبا لاستئناف الاتصالات من جديد.

فى غضون ذلك بدأ مؤتمر جنيف، الخاص بالشرق الأوسط عمله، وقبل إحدى جلسات المؤتمر، سأل كيسنجر جروميكو، ألا يمكن أن يوافق على أن يقوم المشاركون

فى المؤتمر على انفصال بزيارة لوزير الخارجية الأمريكى ووزير الخارجية السوفييتى، وكان واضحا أن الحديث يدور عن زيارة آبا إيبان لجروميكو، الذى وافق على استقباله. بدأ إيبان حديثه بأن كلمة جروميكو فى المؤتمر كان لها رد فعل جيد جدا فى إسرائيل، والتى أعلن خلالها بشكل تقريرى الموقف السوفييتى الذى لم يتغير والذى يعترف بحق إسرائيل فى الوجود دولةً مستقلة، بعد ذلك استمع إيبان إلى توضيح مفصل من جروميكو، أن سياسة العداء مع الدول العربية وضم الأراضى بالقوة لا يمكن أن يجتمعا مع الإعلان عن الرغبة فى حصول إسرائيل على الأمن.

وقال إيبان إن "الحديث يدور عن الشروط الأقل، وليس الأكثر التى تضمن أمنها". ولكن نظرا لأن موعد الانتخابات فى إسرائيل كان قد اقترب فإنه، كما يزعم، لا يستطيع طرح وجهة نظره بشكل محدد، على الرغم من أنه لا يشك فى نجاح جولدا مائير فى الانتخابات.

اللقاء فى جوهره كان فارغا، فقد أداره إيبان فى الحلقة المعروفة، رفض إسرائيل إنهاء احتلال الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧، وفى نفس الوقت خلق وهم بأن هناك إمكانية لتحريك ما فى مواقفها، مع عدم رغبة عنيدة فى مناقشة قضايا محددة. وعندما بقى جروميكو مع إيبان على انفراد، تطرق جروميكو لجس النبض، حول ما الذى ستقوم به إسرائيل من أجل استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى، فتحدث عن إمكانية بحث هذا الموضوع الآن "بقدر ما سيحققه المؤتمر من تقدم، وضمان اتفاقية حول حل نهائى، حينها ستنضج المشكلة للحل" هكذا كرر جروميكو موقف الاتحاد السوفييتى. بعد هذا اللقاء لم يكن على ما يبدو، من الضرورى تنشيط التواصل مع الإسرائيليين بواسطة القناة الخاصة بنا.

قيادة إسرائيلية جديدة، ورغبة من الجانبين لاستئناف اللقاءات

وظهرت على السطح من جديد فكرة اللقاءات السرية غير الرسمية بعد أن قدمت مائير استقالتها عام ١٩٧٤ ووصول إسحاق رابين لمنصب رئيس الوزراء، وحل آلون محل

إيبان. فى ذلك الوقت ميز الوضع فى الشرق الأوسط عدد من الأمور الجديدة. خروج مائير من منصب رئيس الحكومة حدث بعد نشر تقرير"لجنة أجرانات" عن أسباب إخفاق إسرائيل الشديد فى المرحلة الأولى لحرب ١٩٧٣، وحتى النجاحات فى المرحلة الأخيرة، لم تستطع أن تضعف من الأثر النفسى فى المجتمع الإسرائيلى، الذى لأول مرة أصبح يشك فى أن التفوق العسكرى على العرب، الذين حصلوا على أسلحة سوفييتية حديثة، سيكون دائمًا، وأن أمن إسرائيل المعتمد على القوة العسكرية راسخ. فى نفس الوقت حدث تغير مهم ، تحدثت عن ذلك من قبل، وهو مرونة فى مواقف منظمة التحرير الفلسطينية فيما يتعلق بإسرائيل. فقد تم قبول المعادلة، التى لم تبحث الاعتراف بإسرائيل بعد، ولكن كانت هناك خطوات قد اتخذت فى هذا الاتجاه، إقامة دولة فلسطينية، كما أعلن " على الأراضى المحررة من الاحتلال". وانهارت عزلة منظمة التحرير الفلسطينية، ولأول مرة على جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة تم إدراج القضية الفلسطينية، ليس فى شكلها الإنسانى الخالص (اللاجئين - المؤلف)، ولكن باعتبارها مشكلة تقرير مصير قومى للفلسطينيين. وأصدرت الجمعية العامة قرارا حسب خطاب عرفات، أعلنت فيه حق الشعب الفسطينى فى تقرير مصيره، والاستقلال الوطنى. فى مثل هذه الظروف انتفى اتفاق إسرائيل عن "الاحتمال الأردنى" لحل القضية الفلسطينية.

وفى موسكو كانوا يعتقدون أن الوضع الجديد الذى نشأ يجب يؤثر فى إسرائيل لإقامة دولة وطنية فلسطينية، مع ذلك كان التركيز على "وضع" الحل الجزئى لإسرائيل مع مصر فى المسار العام لمؤتمر جنيف. نحن لم نكن نريد إعاقة هذه الاتفاقيات، ولكن كان يلزم ربطها بالتسوية الشاملة للنزاع، خاصة وأن موقف السادات، فى الاحتمالات التى وضعها كيسنجر، كان الانحياز للرهان على الاتفاق المصرى - الإسرائيلى المنفرد.

والولايات المتحدة التى اندمجت مع السادات فى "اللعب"، قللت قليلا من سقف علاقتها بإسرائيل. الرئيس فورد الذى خلف نيكسون فى منصب رئيس الولايات المتحدة فى أغسطس ١٩٧٤، ركز بدرجة أكبر على تقوية المواقع الأمريكية فى مصر، نتيجة هذا أوقف خلال الفترة من مارس إلى يونيو ١٩٧٥ توقيع عقود عسكرية أمريكية مع إسرائيل.

عملت إسرائيل بقوة الدفع فى محاولة لتغيير الوضع الجديد الذى نشأ فى غير صالحها. وظهر هذا فى تبنى خطة لرفض استئناف مؤتمر جنيف. وهكذا دفنت فكرة استمراره، على الرغم من أنه فى أثناء لقاء جروميكو إيبان اتفقا على أن يستمر المؤتمر دون توقف. وكان هناك اتجاه لأن يؤخذ نموذج الاتفاق الذى يقترحه كيسنجر للتوقيع مع مصر، لكن رابين فى ذلك الوقت اتخذ قرارا ببناء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية ومرتفعات الجولان، وتغاضى عن نشاط منظمة "جوش أمونيم"، التى كانت تبنى مستوطنات فى الأراضى المحتلة دون تصريح من الحكومة. ومن العدم حاولوا استدعاء "الاحتمال الأردنى" لحل المشكلة الفلسطينية.

على خلفية هذه الخطوات المتناقضة، والنتائج المثيرة للجدل لحرب ١٩٧٣ تعاظم الانقسام فى المجتمع الإسرائيلى. ولم تكن هناك وحدة فى التكتل الحاكم المعراخ، ولا فى حزب أوفود الذى نشأ فيه صراع على القيادة بين رئيس الوزراء رابين ووزير الدفاع بيريز. ومع الأخذ فى الاعتبار كل هذه العمليات والتناقضات مجتمعة، والتى تشخص فى الوقت ذاته الوضع فى الشرق الأوسط. أصدر المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى يوم ٩ مارس ١٩٧٥ قرارا بتنظيم لقاءات سرية مع شخصيات إسرائيل القيادية ("ملف خاص" - المؤلف)، ولهذا الغرض تقرر إرسال اثنين من ممثلى السوفييت، بريماكوف وكوتوف.

إلى إسرائيل من جديد
جلسات مع رابين وآلون وبيريز

جرت لقاءات مع رئيس الوزراء رابين ووزير الخارجية إيجال آلون ووزير الدفاع بيريز فى إسرائيل خلال الفترة من ٤ وحتى ٦ أبريل، كانت اللقاءات مع وزير الخارجية آلون فى منزله، ومع رابين فى منطقة جديدة بتل أبيب، ومع آلون فى الحى اليهودى فى

القدس القديمة، ومع بيريز فى شقته بحى رامات أبيب وهو أحد الأحياء الراقية فى تل أبيب. وبالطبع فى البداية التقينا بشريكنا الدائم جازيت فى فندق "دان".

تطرقنا فى حديثنا مع جازيت إلى قضيتين، كانتا أقرب إلى الطابع الفنى.الأولى كما قال جازيت بالنسبة للإسرائيليين، "تناسبنا" شخصيات أخرى ممثلة للقيادة السوفييتية. وسأل "ما هى المكانة التى تشغلها قناتنا للاتصال؟"، من الواضح هنا أن الحديث كان يجرى عن فيكتور لوى، مراسل صحيفة "إيفنينج ستار" الإنجليزية فى موسكو، والذى كانوا يعتقدون فى الغرب أنه عميل للكى جى بى، وقد زار إسرائيل وكتب عن إمكانيات استئناف العلاقات السوفييتية - الإسرائيلية. وتقريبا فى نفس الوقت توجه السفير الإسرائيلى فى واشنطن دينيتس إلى سفير الاتحاد السوفييتى فى واشنطن دوبرينين، واقترح من خلاله إقامة اتصالات مع القيادة الإسرائيلية. لم ترفض القيادة السوفييتية حتى هذه الإمكانية، على الرغم من أنه من غير المستبعد أن الإسرائيليين بهذه الطريقة كانوا يختبرون متانة والطابع الحقيقى لقناة الاتصال الخاصة بنا. فى الغالب كان من الممكن أن تطرأ على بالهم فكرة عن أنها ذات طابع "إدارى". وفى تعليمات المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى لدوبرينين تحدثوا عن أنهم موافقون على إقامة اتصال مع قيادة إسرائيل من خلال دينيتس، وقالوا نحن ننطلق من أن هذا سيساعد على التوصل إلى سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط، ويضمن مصالح كل الدول بما فيها إسرائيل.

ولكن قناة دوبرينين - دينيتس لم تر النور، ولهذا ركزوا فى موسكو على استئناف اللقاءات عن طريقنا. ونحن قلنا هذا لجازيت، مؤكدين أننا نتحدث إلى أعلى القيادات السوفييتية ونقدم لها تقاريرنا مباشرة، ونتلقى منها التعليمات. وعلى ما يبدو أننا اجتزنا امتحانًا دوريًا "لاختبار صلاحياتنا"، وإلا لما حدثت هذه اللقاءات، التى حضرنا من أجلها إلى إسرائيل.

أما القضية الثانية فقد أثرناها نحن، وهي تنحصر في أنه في وسائل الإعلام الغربية، ظهرت معلومات عن وجود اتصالات سوفييتية ـ إسرائيلية. وكنا قد أثرنا هذا الموضوع، واقترحنا من البداية أن جازيت سيؤكد على أن بلاده سوف تلتزم بشدة بالاتفاق الخاص بسرية اللقاءات. إلا أنه كان مدهشا عندما شرح لنا كيفية ظهور هذه المعلومات في الغرب، وحسب كلامه التسريب لم تفعله "إسرائيل بل عدوكم"، وكان يشير هنا إلى الولايات المتحدة. في الحقيقة أن الصحف اليمينية كانت ترى في زيارة ممثلين سوفييت لإسرائيل، مثال "لدسائس الاتحاد السوفييتي" في ظروف الانفراج، كما أنه يحدث في "منطقة حيوية بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة"، مثل هذا التبرير كان يصب في مصلحة أعداء تخفيف التوتر مع الاتحاد السوفييتي. ربما كان الإسرائيليون هم من أبلغ القيادة الأمريكية بلقاءاتنا، وأن تسرب المعلومات حدث عن طريق هؤلاء الذين كانت بحوزتهم هذه المعلومات، على سبيل المثال عن طريق المخابرات الأمريكية. إلا أنه من الممكن توسيع دائرة الاشتباه لتشمل بشكل مباشر الجانب الإسرائيلي، حيث أبلغ السفير السوفييتي في الولايات المتحدة دوبريني موسكو، أن معظم الخبراء يتفقون في الرأي على أن القيادة الإسرائيلية هي التي أقدمت على هذه الخطوة لكي تضغط على الأمريكيين ، وربما أرادت بذلك نخز واشنطن، وإظهار أن لدى إسرائيل طرقا بديلة أخرى للبحث عن حلول للقضايا الشرق أوسطية، وبهذا الشكل كانت تقوم بضغط مضاد على الولايات المتحدة.

لكن عن هذا البديل لم يقل جلساؤنا الإسرائيليون ولا كلمة، ومن جانبنا لم نذهب إليهم بأيد خالية، ولأول مرة تم تكليفنا بالإعلان عن أن الهدف من اللقاءات تحفيز عملية قيام علاقات طبيعية بين البلدين، وهذا ما أكدنا عليه في اجتماعاتنا مع القادة الإسرائيليين الثلاثة. ولم يكن نداؤنا الخاص باستئناف عمل مؤتمر جنيف مسموعا، خاصة وأنه الممكن أن يصبح المكان المناسب لبحث كل مشاكل التسوية سواء الكبيرة أو الصغيرة. ومع ذلك أكدنا أن الاتحاد السوفييتي لا يضع أي نوع من المحرمات على أي اقتراح، من الممكن أن يقدمه هذا الطرف أو ذاك للمؤتمر مهما كان، وعلى استعداد

لبحث مشترك لأى منها. ولم يلاحظ الإسرائيليون ربطنا بين مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية فى المؤتمر من بداية استئناف عمله، مع سعى الاتحاد السوفييتى مساعدة القيادة لمواجهة النزعات المتطرفة لبعض مجموعات الحركة الفلسطينية. وقلنا مباشرة إنه فى حالة إظهار إسرائيل علاقة إيجابية بإمكانية إقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، فإن الاتحاد السوفييتى على استعداد للعب دور إيجابى، أخذا فى الاعتبار علاقته بمنظمة التحرير الفلسطينية.

كل هذا كان من الممكن أن يؤدى إلى أن يكون موضوعا لتعميق النقاش، اعتقادا بأنه مدخل واقعى لقادة إسرائيل فيما يتعلق بقضايا أمن بلادهم، خاصة وأننا كلفنا (ونحن فعلنا هذا - المؤلف) بالقول بأنه من الممكن الاتفاق سرا على أن الاتحاد السوفييتى سيفعل كل ما فى وسعه لكى لا يسمح بأى خرق لاتفاق التسوية السلمية فى الشرق الأوسط لأى طرف مهما كان، وأكدنا على أن الاتحاد السوفييتى يسعى لتهدئة الأوضاع فى الشرق الأوسط على أساس عقلانى، وسيفعل كل شىء لكى يمنع العرب من أى خطوات طائشة، لكن المهم ألا تقدم إسرائيل على الأعمال التى من شأنها أن تعقد الموقف، الذى هو بدون ذلك عرضة للانفجار فى هذه المنطقة.

وركزنا على أننا ندرك جيدا، أنه بدون الولايات المتحدة لا يمكن تسوية النزاع، ولا نسعى بالتأكيد ولا نستطيع، حتى إذا أردنا، أن نخترق العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية.

تعتقدون ما هى الإجابة التى سمعناها؟

كل جلسائنا تحدثوا مرة أخرى عن أنهم لا يستطيعون أن ينسحبوا إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧، لأنها كما يزعمون ستكون قاتلة لأمن إسرائيل. لكن كل منهم أدلى بدلوه فى الاتجاه الذى يناسبه، لإثبات صحة وضع هذه القضية، وكل منهم ركز على نقد السياسة السوفييتية. وأن أهم شىء فى هذه الاجتماعات أن القادة الإسرائيليون كانوا يتهربون من مناقشة قضايا محددة، رغم أن نقاشا كهذا كان من الممكن أن يكون مفيدا للتسوية الشاملة، بما فى ذلك لأمن إسرائيل.

من نوتة التسجيل الخاصة بى:"فى المقابلة مع رابين يوم ٥ أبريل ١٩٧٥ برر رابين توجه إسرائيل للولايات المتحدة لتسوية النزاع الشرق أوسطى ,,بأحادية الجانب,, للسياسة السوفييتية. وقال لى: ,,أنتم تمثلون الموقف العربى، وعلى هذا الأساس كان يمكننا إجراء مفاوضات معهم بدون وسطاء ثم التقط ملامح السخرية التى بدت على وجهينا، وأضاف "صدقونى إننا نستطيع هذا". عند هذا كان من الواضح أنه يعنى السادات والملك حسين، وكان هذا واضحا من كلماته التى أتت بعد ذلك: ,,نحن نأمل أن السادات لن يختار الحرب. لكنه من الممكن أن يتخذ قرارا بعمليات حربية غير واسعة، تكون نوعًا من التحفيز لحل سياسى".

فيما يخص القضية الفلسطينية، فإنه قال بشكل مباشر:,,نظام الملك ليس خالدًا على الأرض الأردنية، وعلى جزء من الضفة الغربية بالتحديد، من الممكن أن توجد بؤرة فلسطينية ,,عندما كان جنرالا، لم يرفض هكذا صياغة: ",,نحن نسعى للسلام، ومن خلال الحرب نحصل على حركة فى اتجاه السلام.,,وعلى ما يبدو أراد أن يخفى معلومات عن توتر فى علاقات إسرائيل مع الولايات المتحدة، فأكد رابين:,,أزمة الطاقة ستضعف، والولايات المتحدة ستتخذ من جديد دون تردد موقفًا داعمًا لإسرائيل".

بعد ذلك بوقت كثير، وفى عام ٢٠٠٤، صدرت مذكرات بيل كلينتون بعنوان "حياتى". ضمن ما ورد فيها، وصفه للقاء له مع رابين، فى أثناء غداء غير رسمى بعد توقيع الاتفاقية فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، سأنقل عبارات الرئيس الأمريكى: "كما شرح لى رابين، أن الأراضى التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧، لم نعد نحتاجها لتأمين بلادنا، فهى فى الواقع أصبحت مصدراً لعدم الاستقرار. رابين أكد أنه، كما أظهرت الانتفاضة التى بدأت منذ عدة أعوام، أن احتلال أراضٍ يعيش فيها الكثير من الناس غير الراضين، لا يدعم أمن إسرائيل، بل على العكس يجعله معرضا للهجوم من الداخل، ثم أنه فى أثناء الحرب فى الخليج، قام العراق بقصف إسرائيل بصواريخ سكود. أدرك رابين أنه لا يمكن اعتبار هذه الأرض مصدر أمن، يؤمن من توجيه الضربات من الخارج باستخدام أسلحة حديثة. وأخيرا حسب كلامه، إذا استمرت

إسرائيل في الاحتفاظ بالضفة الغربية لنهر الأردن، سيكون عليها حل مشكلة هل يجب السماح للعرب الذين يعيشون هناك بالتصويت في الانتخابات الإسرائيلية، كما يفعل من منهم يعيش في حدود الأراضي الموجودة قبل عام ١٩٦٧. إذا حصل هؤلاء الفلسطينيون على حق التصويت، وإذا أخذنا في الاعتبار مستوى التكاثر العالي عندهم، فإن إسرائيل خلال عدة عشرات من السنين لن تكون دولة يهودية. ورفض حق التصويت سيعني أن إسرائيل بلد غير ديموقراطي، ودولة ذات نظام فصل عنصري"(٥٩).

لم أصدق عيني حين قرأت هذا، فكل هذا قلناه لرابين أنا وكوتوف في عام ١٩٧٥، وحينها قطع الطريق على كل الوقائع التي أوردناها. هل من المعقول أن الأمر كان يحتاج إلى هذه الأعوام الثماني عشر الدموية منذ تلك اللحظة، لكي يصبح واقعيا؟ أم من الممكن أن يكون رابين والقيادات الإسرائيلية الأخرى رفضوا كل هذا تلقائيا لأنه جاء من طرف الاتحاد السوفييتي؟ شيء مؤسف.

كان علينا يوم ٦ أبريل أن نجتمع بإيجال آلون، الذي ترك انطباعًا إيجابيًا. فقد قال " أنا أؤمن أن الاتحاد السوفييتي يسعى بإخلاص للسلام، وأعتقد أنه بدون مباحثات بمشاركة الاتحاد السوفييتي، لن نتحرك في اتجاه التسوية. ونحن لا نعتقد بأنه أمامنا، إما الولايات المتحدة وإما الاتحاد السوفييتي وسطاء. الولايات المتحدة وأنتم ضروريان، لكن بالطبع، في ظل عدم وجود علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي، تبقى الغلبة للولايات المتحدة"، ثم قال آلون مبتسما ممكن نكون أخطأنا عندما وافقنا أن يكون الاتحاد السوفييتي الرئيس المشترك مع الولايات المتحدة في مؤتمر جنيف فهو لديه علاقات مع طرف واحد فقط في النزاع". الحديث في جوهره مثل ما قاله رابين ولكن بعبارات أخرى، عندما تطرق إلى القضية الفلسطينية قال: "عرب الضفتين الغربية والشرقية شعب واحد، ومن الضروري تقوية علاقاتهم، كل المشاكل من الضروري تسويتها، لكن من المبكر إقامة شكل عملياتي لحل المشكلة الفلسطينية، لندع مؤتمر جنيف ينعقد بدون منظمة التحرير الفلسطينية، على الرغم من أن إسرائيل

تعترف بالقرار ٢٤٢ ووجود المشكلة الفلسطينية". من كلمات آلون كان من الممكن أن ندرك أنه لا يراهن على تغيير النظام فى الأردن، ويوجد عنده تناقض مع رابين فيما يخص هذا الأمر، قال آلون "الملك حسين لم يتخل فعلا عن الضفة الغربية، هذا تكتيك فقط".

تطرق آلون لمشكلة الهجرة من الاتحاد السوفييتى بطريقة خاصة وسأل: "لماذا لا تقومون ببادرة طيبة وتطلقون سراح المحكومين فى لينينجراد؟ كما هو معروف كانت مجموعة من الشخصيات محبوسة هناك، بعد أن حاولوا اختطاف طائرة. نحن أجبناه، بأنهم مجرمون جنائيون، وأضفنا أنه من الضرورى التمييز بين قضيتين، السماح بالهجرة وتشجيع الهجرة، ونحن لن نفعل الثانية.

كان الاجتماع مع بيريز بدون أفق بصفة عامة، فقد اقترح علينا فى البداية الاختيار بين الفودكا والويسكى. وانضم إلينا وشرب أكثر من كأس فودكا، وبعد ذلك بدأ يتفلسف فى موضوع "التحليل الماركسى للوضع" لكن "ماركسية" بيريز لم تقرب على الإطلاق من وجهات نظرنا.

عمليا فى كل اجتماع، كان جلساؤنا الإسرائيليون يتهمون الاتحاد السوفييتى بأنه يسلح العرب، الذين لم يتخلوا عن نواياهم "إلقاء إسرائيل فى البحر"، وإمداد العرب بالمعلومات الاستخباراتية عن القوات الإسرائيلية المسلحة، نفس الشىء فعله بيريز. فى اللقاء مع بيريز والذى امتد إلى ما بعد منتصف الليل، تحدث عن هذا الموضوع، ولكن بلهجة عدوانية، من الممكن أن تكون قد انعكست على لهجته هذه رغبته فى فتح زجاجة الفودكا الثانية، وهو الأمر الذى لم يمكنه منه مساعد وزير الدفاع الذى كان موجودا فى الاجتماع، هكذا أم لأسباب أخرى، لكن بيريز أكد بقوة أن "المخابرات السوفييتية تقوم بالتجسس على إسرائيل على مدار الأربع وعشرين ساعة، وأحاطتها بمحطات الرادار، وتقوم بتسليم هذه المعلومات للعرب". واستمر بيريز، بمحاذاة الحدود البحرية، تسير بانتظام ذهابا وإيابا سفينة من البحرية السوفييتية تقوم بالتجسس الإلكترونى،

وأضاف بيريز زاعما أن العاملين على ظهر السفينة كانوا يجيدون اللغة العبرية، وكانوا يتنصتون، ويحلون شفرة الاتصالات اللاسلكية العسكرية الإسرائيلية.

وعندما أبدينا تشككنا فيما يقوله بيريز، قاطعنا وقال إنه سيعطى أوامر فورية، وسيحملونا بواسطة مروحية عسكرية إسرائيلية إلى منطقة وجود السفينة السوفييتية فى البحر المتوسط، وحتى يمكنهم أن يهبطوا بكم على ظهرها. نحن أجبناه بهدوء أننا لن نذهب إلى أى مكان، ولا ننصحه بإرسال مروحية إلى سفينة حربية سوفييتية. من الواضح أنه فهم أن الحديث أخذ طابع التوتر، فحول بيريز اقتراحه إلى مجرد مزاح، وغير مسار الحديث.

ونحن من جانبنا خففنا من سخونة الاجتماع، عندما قلنا لبيريز، إن الاتحاد السوفييتى لم يغير دعمه الثابت لحق إسرائيل فى الوجود باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة. نحن ليس فقط لم نؤيد أى نداء بتدمير إسرائيل، ولكن لن نسمح بهذا، كما لن نسمح بربط حل مشاكل الشرق الأوسط بالقوة المسلحة. نعم، نحن نزود الدول العربية بأسلحة دفاعية، ووسائل دفاع جوى، وقاذفات، ومجموعات مدفعية، ونفعل هذا لإحداث توازن فى القوة العسكرية بين الجانبين، فى ظروف تحصل فيها إسرائيل على كل ما يلزمها من أسلحة من الولايات المتحدة. هذا التوازن، كما يبدو، ضرورى لكى نصل إلى ظروف توافقية لتسوية.

على الرغم من إظهار مساعٍ لاستمرار اتصالاتنا، كان من الواضح أن فى القيادة الإسرائيلية من يريد قطع الاتصالات. ففى نفس اليوم بعد عودتنا من تل أبيب إلى فيينا، ٨ أبريل، فى العدد الصباحى من صحيفة "كورير"، نشر خبر عن وصول ممثلين سوفييت إلى إسرائيل، أجريا مباحثات سرية مع قادة إسرائيليين.

الخبر صاحبه رسم كاريكاتير عبارة عن شخص بزى عسكرى سوفييتى برتبة عقيد، يمسك فى إحدى يديه غصن زيتون، وفى اليد الأخرى يخفى خلف ظهره صاروخ. هنا قام كوتوف بالاتصال بجازيت فى إسرائيل وسأله، كيف يمكن فهم

المنشور فى صحيفة "كورير". كان جازيت قد عرف بالفعل بما نشر، وأجاب بصوت فيه نبرة اعتذار، أن الجانب الإسرائيلى يأسف جدا لما حدث. وحسب كلامه فى تل أبيب يفترضون أن التسريب قام به أحد المعادين للتقارب الإسرائيلى ـ السوفييتى، بهدف تخريب الاتصالات، وأضاف جازيت "من الممكن جدا، أن يكون هذا التصرف من أحد الموظفين الإسرائيليين الكبار، الذين يستطيعون الوصول للمعلومات عن إقامتكم فى إسرائيل". وأعرب جازيت بالنيابة عن قيادته عن الرغبة "فى ألا تكون هذه الحادثة قد أخلت بالحوار المفيد القائم بين بلدينا".

عندما لاحظ كوتوف عدم قدرة الجانب الإسرائيلى على تأمين سرية اللقاءات، قال إن مصير الاتصالات فيما بعد سوف يتقرر فى موسكو. لكن القيادة السوفييتية قررت الاستمرار فى الاتصالات مع القيادة الإسرائيلية.

عندما عدنا إلى موسكو، استقبلنا أندروبوف، تحدثنا إليه عن انطباعاتنا عن الرحلة، وهنا اتصل أندروبوف بجروميكو قال له إنه سيكون من المثير للاهتمام أن يستمع إلينا. ومن عند أندروبوف توجهنا مباشرة إلى جروميكو، الذى قام بتوجيه الأسئلة لنا عن تفاصيل انطباعاتنا عن اجتماعاتنا مع القادة الإسرائيليين مثل ما فعل أندروبوف.

بعد تقديم تقرير لأندروبوف حول نتائج اجتماعاتنا فى إسرائيل، عرضت عليه الكاريكاتير الذى نشرته صحيفة كورير بكلمات: " يورى فلاديميروفيتش، إنها تزييف واضح"، وافق أندروبوف أن الكاريكاتير لا يعكس على الإطلاق مهمتنا. وأكملت من جانبى " ليس هذا فقط ولكنه غير مطابق للحقيقة، ففى الكاريكاتير مرسوم عقيد وكوتوف مقدم" وهنا ضحك الجميع. ثم خارج باب أندروبوف، وفى أثناء اجتماعنا مع نائب رئيس الاستخبارات الخارجية ب.س. إيفانوف وأ. س. فوسكوبوى، ناقشنا مسألة ترقية عاجلة لكوتوف فى الرتبة، كنوع من التشجيع لقيامه بعمله بنجاح، وهكذا أصبح كوتوف عن استحقاق يحمل رتبة عقيد.

من جديد إلي إسرائيل

اجتماع مع بيجين

حكومة رابين، ثم من بعد استقالته، حكومة بيريز كانتا ضعيفتين للغاية، بما فى ذلك لأنهما لم يأخذا فى اعتبارهما الواقعية. ومرجعية المعراخ سقطت فى عيون الناخبين. وفى مايو ١٩٧٧ ولأول مرة فى تاريخ إسرائيل يفوز فى الانتخابات الليكود، وشكلت الحكومة الجديدة برئاسة مناحيم بيجين، ووزير الخارجية أصبح موشى ديان، ولم يكن من حزب بيجين.

وقررت الحكومة السوفييتية تنشيط اتصالاتنا، باعتبار أنه من الممكن أن نتمكن من مناقشة تسوية محددة للنزاع الشرق أوسطى مع القادة الإسرائيليين الجدد، هذه المرة سافرنا إلى تل أبيب من خلال فيينا وزيوريخ. فى فيينا قابلنا ونظم سفرنا التالى يفريم بالتى، بعد عشر سنوات أصبح يفريم هاليفى (هذا لقبه الأصلى ـ المؤلف) مديرا للموساد. وفى تل أبيب استقبلنا مدير ديوان رئيس الوزراء إلياهو بن إليسار، الذى كان كذلك يقود الحملة الانتخابية لليكود، وكان لديه فرصة كبيرة للترقى، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد، حيث أصبح رئيسا للكنيست، وعندما خسر حزب بيجين الانتخابات الدورية، بقى قائدا لتكتل الليكود فى الكنيست. وعين أول سفير لإسرائيل فى مصر، ثم سفيرا لإسرائيل فى الولايات المتحدة ومن بعد فى فرنسا. وكان من الواضح أن ظهور بن إليسار، شريكًا مباشرًا جديدًا، مرتبط بدرجة ليست بالقليلة، بأنهم أرادوا أن يظهروا أن حكومة بيجين تعطى أهمية كبيرة للاتصالات.

اللقاء مع بيجين جرى مساء فى وقت متأخر يوم ١٧ سبتمبر، فى القدس بمقر رئيس الوزراء، وهذا أيضا كان من الواضح لإظهار جدية علاقة قيادة إسرائيل الجديدة بالجلوس مع الممثلين السوفييت.

كان مناحيم بيجين شخصية معقدة. ولد فى مدينة بريست ـ ليتوفسك البولندية عام ١٩١٣، درس فى كلية الحقوق بجامعة وارسو. فى صباه كان عضوا نشطا فى

منظمة الشباب الصهيونى ذات الطابع العسكرى والتى تسمى بيطار. وعندما دخلت القوات الفاشية بولندا، هرب بيجين إلى ليتوانيا، وبعد ضم ليتوانيا للاتحاد السوفييتى عام ١٩٤٠، ونظرا لأن بيجين كان عضوا نشطا معروفا فى منظمة صهيونية، فقد تم اعتقاله وسجنه فى معسكر بمنطقة كومى بشمال الاتحاد السوفييتى، وبعد الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفييتى، أطلق سراحه مع مواطنين بولنديين آخرين، وتم إلحاقهم بجيش أنديرس البولندى، فى صفوفه وجد نفسه فى شرق الأردن، الذى كان حينها أرض تحت الانتداب البريطانى، وفى مايو ١٩٤٢، وجد نفسه فى فلسطين، حيث انضم لمنظمة "أرجون تسفاى ليومى" (إتسيل) بمجرد مغادرته للجيش البولندى. هذه المنظمة مثل تلك التى انفصلت عنها ليخى، كانت من طراز التشكيلات المخربة ـ الإرهابية. رمز إتسيل كان عبارة عن يد تقبض على بندقية، خلفيتها خريطة فلسطين، وشرق الأردن ! ومكتوب "هكذا فقط". أصبح مناحيم بيجين عام ١٩٤٤ زعيما لإتسيل، بعد أن قام مقاتلو إتسيل بتفجير فندق "الملك داود"فى القدس. كما كانت المنظمة تمارس خطف الرهائن. وفى عام ١٩٤٧ قام مقاتلو إتسيل بخطف وإعدام رقيبين بريطانيين. وعرضت بريطانيا جائزة قيمتها ٣٠ ألف دولار، وكان هذا مبلغا كبيرا بمقاييس ذلك الوقت، لمن يسلمها بيجين حيا أو ميتا.

بعد إنشاء إسرائيل، أصبح الإرهابى بيجين رجل سياسة، وتزعم حزب هيروت، متحولا إلى المعارض الرئيسى لحزب الماباى الحاكم، ولبن جوريون شخصيا، الذى اتهم من الهيروتيين بالتعاون مع الإنجليز، وفى وقت لاحق مع الأمريكيين. فى عام ١٩٧٣ رأس بيجين أول تكتل لليكود، الذى كانت نواته الأساسية حزب هيروت.

جرى لقاؤنا معه قبل ثلاثة أشهر من "الزيارة التاريخية" للسادات للقدس، والتى تلتها اتفاقية كامب ديفيد وتوقيع معاهدة السلام المصرى ـ الإسرائيلى عام ١٩٧٩. فى عام ١٩٧٨ حصل بيجين مع السادات على جائزة نوبل للسلام. المعاهدة كما قلنا من قبل، كانت معدة بدعم نشط من الولايات المتحدة. إلا أن بيجين كان أبعد ما يكون عن

دور رجل السياسة الذى ينفذ تعليمات من واشنطن، بل أكثر من ذلك كانت الحكومة الإسرائيلية الجديدة تعانى من صعوبات فى تطوير علاقتها بالولايات المتحدة، والإدارة الأمريكية بدورها كانت علاقتها بها باردة، ولم تكن تثق فى بيجين للنهاية.

كان بيجين شخصاً لديه القدرة على القيام بتصرفات غير متوقعة. وكان يتميز عن قادة إسرائيل الآخرين، بأنه لم يكن يخشى اتخاذ القرار، لأنه لم يكن يخشى الضربات من اليمين، فليس هناك من هو أكثر يمينية منه، وفى الغالب لا يوجد أحد على الساحة السياسية الإسرائيلية أكثر يمينية من بيجين.

بالمناسبة بيجين كان الوحيد من بين كل من اجتمعنا بهم من القادة الإسرائيليين، الذى كان يتحدث الروسية بطلاقة. بدأ الجلسة معنا بذكريات وحنين للاتحاد السوفييتى. من الضرورى القول أنه لم يكن يحمل مرارة فى هذه الذكريات مما عاناه، بل على العكس، وبدون تصنع قال إن "الشعب الروسى أنبل وأعظم وأخير شعب، وهذا ما أكرره لمساعدى من الشباب"، وأكد أن هذا الرأى ازداد قوة عندما كان فى "ظروف صعبة معتقلا فى كومى" (كومى منطقة بشمال روسيا - تعتبر منطقة مناجم فحم - المترجم) وبالمناسبة كتب بيجين كتاب بعنوان "ضياء الشمال"، لم يكن غاضبا فيه من الاتحاد السوفييتى.

فى جلساتنا التالية مع بيجين، ظهر بوضوح عدم تطابق وجهات النظر فيما يتعلق بالتسوية الشرق أوسطية، فقد تحدث عن أنه ضد استئناف عمل مؤتمر جنيف الخاص بالشرق الأوسط، ثم تطرق إلى مشكلة الهجرة، ومع ذلك أكد بيجين أكثر من مرة على دور الاتحاد السوفييتى بصفته إحدى القوى الرئيسية الفاعلة فى الشرق الأوسط وعلى الساحة الدولية بشكل عام. واستطرد مطورا فكرته قائلا، إن عملية التسوية "لن تحدث فى يوم واحد"، والاتحاد السوفييتى فقط هو الذى يستطيع أن يؤثر على العرب، وهذا ما نقدره جدا فى إسرائيل. لكن اللافت أنه عندما دار الحديث عن مشاركة الولايات المتحدة فى التسوية قال بيجين: "نحن توجهنا حاسم فيما يخص هذا، أننا نستطيع التوصل إلى تسوية بأقل ما يمكن من التنازلات".

كان هناك إحساس، بأن ما يقف خلف هذه الكلمات، ليس فقط الأمل، ولكن أيضا الثقة في أن إسرائيل ستتمكن من سحب السادات لقرار منفرد. نحن دخلنا إلى مكتب بيجين، بعد خروج ديان، الذى كان قد وصل لتوه من المغرب، منه مباشرة، حيث التقى ديان هناك بنائب رئيس الوزراء المصرى. لم يقل بيجين ولا كلمة عن هذا، لكن من الطبيعى أنه كان تحت تأثير تقرير ديان، الذى كان يجب أن يكون عن "طفرة" فى الاتجاه المصرى، وهذا فى الحقيقة كان إنجازا لإسرائيل.

فى أثناء الحديث مع بيجين لم نشعر بمزاج عنيف، كما كنا نشعر بذلك من جانب شركائنا خلال الاتصالات السابقة. الفرق بين بيجين والسابقين ظهر عندما تطرقنا للحديث عن هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتى. حتى عندما أثار مشكلة محددة، هى قضية شارانسكى[٦٠]، أظهر بيجين عدم رغبته فى تصعيد الموقف.

كنا نحتفظ بالأهم لنهاية اللقاء، فقد تم تكليفنا بأن نخطر بيجين، أنه مع بداية استئناف عمل مؤتمر جنيف، ستكون قيادة الاتحاد السوفييتى على استعداد للإعلان عن استئناف العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل. هذه المعادلة من جانبنا، لأول مرة نتحدث عنها، أعتقد أن موسكو وجدت طريقة لحل هذه المشكلة الصعبة، استئناف العلاقات دون " إراقة ماء الوجه"، واستمرار ربطها بالتسوية فى الشرق الأوسط، لكن الآن بدون محو آثار حرب ١٩٦٧. استمع بيجين بانتباه إلى اقتراحنا، لكنه لم يقدر الأفق الذى فتحه له وقال: "دعوا بريجنيف يدعونى إلى موسكو، وأنا أعد بأننى سأتفق معه حول كل المشاكل"، وأكد بيجين أن زيارته يجب ألا تكون سرية، ولكن زيارة رسمية لرئيس وزراء إسرائيل. من جانبنا حاولنا أن نقنعه بعدم إمكانية مثل هذه الزيارة فى ظروف عدم وجود علاقات دبلوماسية بين بلدينا، لكنه دون السماح لنا باستئناف الحكم، كرر: "أبلغوا بريجنيف باقتراحى. أنا واثق من أنه سيستقبلنى، وسنتفق على كل شىء".

فسرنا الأمر بأن بيجين ببساطة لم يفهم أن القادة السوفييت قد قاموا بخطوة نوعية جديدة، على طريق استئناف العلاقات مع إسرائيل وربطها بعقد مؤتمر جنيف وهذا لا يحتوى على أى شيء سيئ لإسرائيل. وبهذا الشكل ضاعت إمكانية استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى وإسرائيل فى عام ١٩٧٧، وهو الأمر الذى كان من الممكن أن يؤثر على تطور الأحداث فى الشرق الأوسط للأفضل. فيما يخص الاتحاد السوفييتى كذلك، فقد كانت عودة العلاقات مهمة، حيث كان سيستطيع أن يساعد فى تخفيف الضغط الدولى على بلادنا باستخدام "المشكلة اليهودية". ممكن أن أضيف أنه فى موسكو على المستوى المتوسط حتى لم يجرؤ أحد على إخطار، حتى ولو قيادة اللجنة المركزية وزارة الخارجية، باقتراح بيجين.

على أى حال شعرنا برغبة القيادة الإسرائيلية الجديدة فى إظهار نواياها الطيبة لاستمرار الحوار مع الاتحاد السوفييتى، ولتأكيد ذلك سأورد مجرد واقعة. عندما كنا لا نزال فى موسكو، عرفنا أنه رغم موقفها المتخذ المعادى لإسرائيل بالكلمات، كانت القيادة الإثيوبية بزعامة منجيستو تحصل على أسلحة من إسرائيل بانتظام، وهذه الأسلحة تصلها عن طريق البحر عبر ميناء مومباسا. وكانت إثيوبيا فى ذلك الوقت تقود حربًا ضد الصومال، ومنجيستو أقسم على الإخلاص لموسكو، لكنه أخفى بعناية حقيقة اتفاقياته السرية مع إسرائيل. وعندما كنا ننتظر أن يستقبلنا رئيس الوزراء فى غرفة مدير مكتبه، سألنا بن إليسار، الذى أكد حقيقة توريد السلاح وقال: "طبيعى، كانت الصفقة سرية جدا. وإسرائيل لم تكن ترغب على الإطلاق فى أن تعلن عن تلك الصفقة الحساسة، وكتعويض عن توريد السلاح، التزمت القيادة الإثيوبية بالسماح لعشرين ألفًا من يهود الفلاشا، وهم مواطنون إثيوبيون يعتنقون اليهودية. بالسفر لإسرائيل ، فيما يتعلق بإثيوبيا، فإنه لم يكن من المفيد لها أن تدخل فى تناقض مع قرار جامعة الدول العربية، الخاص بمقاطعة إسرائيل. وأضاف، أكثر من هذا، بالنسبة لإسرائيل من المهم ترتيب العلاقات مع إثيوبيا، بهدف كسر الجبهة المعادية لإسرائيل فى أفريقيا.

أصبحت زيارتنا لإسرائيل التى جرت فى سبتمبر هى الأخيرة، والاتصال السرى التى أنشأناه استمر موجودا، حتى ديسمبر ١٩٩١، واستخدم بانتظام لحل بعض القضايا الفنية والعملياتية، وكان فى الأساس عن طريق مخابرات البلدين. لكنى لم أشارك فى هذا، وفى هذه الفترة أيضا حدثت لقاءات غير مرتبة سلفا لممثلى إسرائيل والاتحاد السوفييتى، فى دول مختلفة وفى الأمم المتحدة، وكانت فى الغالب بمبادرة من الجانب الإسرائيلى. إلا أن هذه اللقاءات لم تحمل بعدا سياسيا جادا.

لقاءات رسمية:

نتنياهو مفاوضاً

استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فى الشهور الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتى فقط. وزرت إسرائيل بالفعل زيارة رسمية بوصفى وزيراً للخارجية ثلاث مرات خلال الفترة ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧.

يوم ٢٢ أبريل ١٩٩٦ جرت مقابلة مع رئيس الوزراء بيريز، وهو لم يختلف كثيرا عن ذلك اللقاء الذى جرى فى بداية السبعينيات، على مستوى غير رسمى. قال بيريز بصوت رنان "نحن نحتاج إلى وسيط واحد، ويجب أن يكون الولايات المتحدة"، عندما كان يرد على اقتراح لى، حاولت من خلاله أن أعطى نوعًا من الديناميكية لعملية التسوية فى الشرق الأوسط والذى وصل لطريق مسدود. اقترحت لكى ندعم النتائج التى وصلنا إليها، أن يأخذ كل أطراف النزاع فى الشرق الأوسط على أنفسهم التزاماً بعدم رفض الاتفاق الذى تم التوصل إليه، من خلال من سبقوهم، وهذا كان يعتبر مهماً جدا، لأن هناك تغييرات قادمة، على جانبى النزاع، فمن الممكن أن يأتى للسلطة قادة أكثر شبابا، وغير مرتبطين بأى التزامات. وفى نفس تقدمنا باقتراح إيجاد حركة للتسوية على كل "الحلبات"، دون التخلى عن أى منها.

هذا الاقتراح وافق عليه بالكامل رئيس مصر مبارك، الذى التقيته قبل هذا فى القاهرة، كما كانت علاقة رئيس سوريا حافظ الأسد إيجابية بهذا الاقتراح، فى أثناء الاجتماع معه فى دمشق. الحديث كان يدور عن وثيقة، من الممكن توقيعها، بنظام عمل، دون الدعوة إلى مؤتمر، بيريز رفض رفضا قاطعا هذه الفكرة.

وفى ٣١ أكتوبر، وفى أثناء زيارتى التالية للشرق الأوسط، التقيت رئيس الوزراء إسرائيل الجديد بنيامين نتنياهو. على عكس بيريز قال، إنه مهتم بدور نشط لروسيا، مؤكدا على أنه بالإضافة إلى الولايات المتحدة، تعتبر روسيا الرئيس المشترك لمؤتمر مدريد للسلام. إلا أن الحياة معقدة، وعندما استمال إليه المدخل البناء للدور الروسى فى التسوية السياسية، انحرف نتانياهو عن الاتفاق مع الفلسطينيين، والذى حدث فى أثناء حكم رابين، الذى قتل على يد إرهابى يهودى عام ١٩٩٥، وبيريز. وتحقق ما كنت أحاول أن أمنعه بتوقيع وثيقة للالتزام ببنود وتوجهات التسوية، وقال نتنياهو إن روسيا لن تتخلى تحت أى ظروف عن موقفها فيما يتعلق بضرورة إقامة دولة فلسطينية، وأكد هذا، أننى بعد هذا اللقاء واللقاء التالى مع نتنياهو الذى جرى بعد عام، زرت قطاع غزة، حيث استقبلتنى القيادة الفلسطينية برئاسة عرفات، وصرحت فى مؤتمر صحفى هناك، وفى القدس أن روسيا تصر بحسم على تنفيذ إسرائيل معادلة مؤتمر مدريد "الأرض مقابل السلام".

ورغم ذلك بدا أنه من الممكن عمل شىء مع نتنياهو، أول زيارة لى فى فترة تصعيد التوتر على خط وقف إطلاق النار بين سوريا وإسرائيل. كان السوريون يعتقدون أن الإسرائيليين يجرون مناورات عسكرية فى مرتفعات الجولان، وأن إسرائيل تستعد لتوجيه ضربة لسوريا. والإسرائيليون من جانبهم اعتقدوا أن تحرك وحدات قوات النخبة السورية للمرتفعات يعنى سعى دمشق لبدء هجوم على المواقع الإسرائيلية. وسأل نتنياهو بعدم ثقة: "ألا تستطيعون الإعلان فى المؤتمر الصحفى عن أن روسيا ضد خرق وقف إطلاق النار فى مرتفعات الجولان؟". فأجبته "بالطبع أستطيع فعل هذا"

وأكدت على هذا فى تصريحات للصحفيين الإسرائيليين. حينها طلب منى نتنياهو إبلاغ السوريين، أن إسرائيل ليس لديها نية للقيام بأى عمليات عسكرية فى مرتفعات الجولان، وكان مهتما بتلقى رد مماثل من دمشق. قمت بهذه "الدبلوماسية المكوكية" بناء على طلبه، فقد ذهبت من جديد إلى دمشق لإبلاغ الأسد كلمات نتنياهو، ثم أبلغت نتنياهو أن السوريين ليس لديهم نوايا لخرق اتفاقية وقف إطلاق النار.

فهمت سبب قلق رئيس الوزراء الإسرائيلى فيما بعد، المخابرات العسكرية الإسرائيلية كذبت فى إسرائيل نفسها أكثر من مرة، وكنوع من الخداع الهادف إلى إظهار "إمكانياتهم الكبيرة" أبلغوا عن معلومات حصلوا عليها من مصدر لهم فى دمشق، كأن سوريا تستعد للقيام باختراق فى مرتفعات الجولان، مع مرور الوقت تبين أن تقرير المخابرات لا يعكس الحقيقة. لكن الجانب الروسى هو أول من أبلغ عن أن السوريين ليس لهم مصلحة فى الصدام العسكرى. كنت متأكداً أن هذا الموقف، كان من الممكن أن يساعد على تقوية وجهة النظر عند نتنياهو فى الفائدة من الاتصالات مع روسيا.

وتأكد هذا مرة أخرى عندما التقيت نتنياهو فى موسكو، عندما كنت رئيسا للحكومة الروسية. فقد كان يلتسين مريضا، وكلفنى بالقيام بدور "صاحب المكان". لم يكن نتنياهو مثل سابقيه، فقد كان يميل للصراحة، ومنفتحًا لتبادل وجهات النظر. من الضرورى أن أعترف بأن هذا أعجبنى، فمعه كان يمكننى مناقشة أشد المشاكل حدة، دون رفض من جانبه من البداية، كما كان يفعل الكثيرون من القادة الإسرائيليين الآخرين. وهذا عدد من الأمثلة، كان نتنياهو يدرك، أنه من الممكن أفضل من سابقيه حتى، ضرورة التسوية مع سوريا، وأنا أؤكد هنا على فهمه لهذه المشكلة، لكنى غير موافق على المحتوى، الذى يسعى لإعطائه لهذه الاتفاقيات، وقلت له مباشرة، إن دمشق لن توافق على رفض سيادتها على مرتفعات الجولان، وروسيا تؤيدها فى ذلك، غير أن نتنياهو استمع إلى كلماتى، بأنه لا يجوز تجاهل سوريا، وضعها فى لبنان، وعدم

مناقشتها مبدئيا سواء سرا أو مباشرة أو عبر وسطاء، لسحب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان. وقد كان الكثيرون فى إسرائيل يدفعون بالتحديد فى اتجاه أن يؤدى الانسحاب الإسرائيلى لاهتزاز الوضع فى لبنان لأقصى درجة، ويدعم العناصر المعادية لسوريا، واتفق معى نتنياهو فى ذلك.

وأكد لى "أن الأهم بالنسبة له هو أمن إسرائيل، ومع أخذ هذا فى الاعتبار، نحن على استعداد لمناقشة أى مشكلة حول مرتفعات الجولان" لكن عندما سألته، هل الحكومة موافقة على الإعلان عن أنها مستعدة لإجلاء قواتها من مرتفعات الجولان والاعتراف بسيادة سوريا عليها، مع وجود الكثير من "لو"، لم يعط إجابة على هذا السؤال.

وأنا بالطبع بعيد عن أن أجعل شخصية نتنياهو مثالية، بالطبع كانت عندنا مداخل مختلفة للتسوية، لكن المهم أنه من الممكن الحديث معه بشكل مباشر. اتفقنا على أن نستمر فى الاتصالات وتبادل الآراء، من خلال الأشخاص المخصصين لذلك. جرت عدة لقاءات بيننا فى أوروبا، استمر خلالها تبادل الآراء.

وفى ١٢ مايو ١٩٩٩ لم أعد أشغل منصب رئيس الوزراء، وبعد خمسة أيام فى ١٧ مايو ١٩٩٩، جرت انتخابات طارئة فى إسرائيل، وأصبح إيهودا باراك رئيسا للوزراء خلفا "لبيبى" لنتنياهو. فى عهده حدث تنشيط للمفاوضات الفلسطينية ـ الإسرائيلية. استمرت المفاوضات والاتصالات، بما فى ذلك بوساطة الأمريكيين، لكنها لم تؤد إلى نتائج جوهرية. فى بداية سبتمبر ٢٠٠٠، جرى تنظيم لقاء للرئيس الأمريكى كلينتون وباراك وعرفات فى نيويورك، لكن هذا أيضا لم يأت بنتائج. ثم جاءت النسخة الثانية من الانتفاضة، التى بدأت نتيجة زيارة شارون لقبة الصخرة، وبدأ بعد ذلك حكم شارون.

ويوم ٢ مايو جمعت الولايات المتحدة وروسيا "الرباعية" (الولايات المتحدة، روسيا، الاتحاد الأوروبى، الأمم المتحدة ـ المؤلف). هكذا ولدت "خارطة الطريق" التى كانت تمثل

تنفيذ ثلاث مراحل للتسوية الفلسطينية ـ الإسرائيلية. الأهم فى "خارطة الطريق"، ليس فقط المراحل، ولكن الإعلان عن الهدف النهائى وهو، إقامة دولة فلسطينية. روسيا وقفت ضد أى محاولات لشطب هذا الهدف، وقفت مع وقف العنف المسلح، ناهيك عن الأعمال الإرهابية ضد السكان العزل. لكن كل هذا كان بدون مشاركة مباشرة منى.

وفى عام ٢٠٠٦ قمت بزيارة إسرائيل بصحبة زوجتى إيرينا باريسوفنا، كان الهدف من الزيارة هو تهنئة حفيدى يفجينى ساندرو، الذى أهديته هذا الكتاب، ببلوغه العام الثلاثين من عمره. فى ذلك الوقت كان يعمل مراسلا للقناة الأولى الروسية فى الشرق الأوسط، واتخذ مقرا له تل أبيب. عندما عرف نتنياهو بقدومى، اقترح أن نلتقى فى البرلمان الإسرائيلى، حينها كان نائبا فى البرلمان. ذهبت مع سفيرنا بيوتر فلاديميروفيتش ستيجن، وهو دبلوماسى مؤهل على مستوى عال، لديه فى الحقيقة معلومات موسوعية، ورافقتنا ممثلة عن الخارجية الإسرائيلية تدعى أوليا، مظهرها سلوفينى جدا، وكان ينطبق عليها اسمها البعيد كل البعد عن أن يكون إسرائيلياً.

ويبدو أنهم فى إسرائيل لا يستقبلون الضيوف عند المدخل، على أى حال وقفنا ننتظر، بجوار أوليا التى بدا عليها التوتر، حوالى عشر دقائق، حتى وصلت معلومات النوبتجى، هل نحن بالفعل مدعوون من قبل نتنياهو. ثم تلى ذلك طلب بأن نخلع أحذيتنا، وأن نعطيه أحزمتنا لفحصها. أوليا، أتت بحركات عصبية (فقد كانت بالفعل محتجة ـ المؤلف)، وحاولت قول شىء له بالعبرية، يبدو أنها كانت تعدد له مناصبى التى شغلتها فى الماضى. أجابها الحارس (أوليا ترجمت لى ـ المؤلف)، أنه لديه رئيس واحد، يقف على بعد خطوتين منه وكان رقيباً أسود، يبدو أنه من أصل إثيوبى. بالطبع خضعنا للإجراءات وخرجنا، وبمجرد أن خرجنا من مبنى البرلمان، اتصل نتنياهو بى تليفونيا و أنا فى السيارة واعتذر، وقال إنه يقترح أن ألتقى به فى أى وقت يناسبنى، لكنى أجبته، بأننى سأسافر، وكان هذا حقيقة بالفعل.

الفصل السادس عشر

ظاهرة صدام حسين

كيف نشأت وتكونت ظاهرة صدام حسين؟ تعتبر الإجابة على هذا السؤال جزءًا مهمًا من تحليل الوضع فى الشرق الأوسط فى الثلاثين عامًا الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الحادى وعشرين.

إن إعدام صدام حسين شنقًا فى العراق مرتبط بالدرجة الأولى، بصفاته الشخصية. فبعد وصول قادة جدد للسلطة فى بغداد عام ١٩٦٨ بقيادة الرئيس البكر، قليل من كان يستطيع افتراض أن الشخص المشار إليه تحت رقم خمسة فى قائمة من سبعة أشخاص فى قيادة المجلس الأعلى للثورة فى العراق، سيكون بعد عامين فقط، معترفا به قائدا، ثم يعزل عن السلطة قريبه الرئيس البكر، ويحتل مكانه.

فى البداية صعد نجم عماش، وآخرين، لكن صدام حسين استطاع أن ينحيهم جانبا، بعضهم أنهى حياة البعض، وأصبح هو أقرب من الآخرين إلى البكر. هكذا انعكست نوعية شخصيته القوية العزم، المحددة الهدف، والشجاعة، وبالطبع، أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها تتميز بغياب الإحساس العاطفى، خاصة عندما قضى على زملائه. ولعب الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة دورا كبيرا فى تشكيل صدام حسين الذى عرفه الشعب العراقى والشرق الأوسط والمجتمع الدولى بأسره. الأول ساعد على تقدمه قائدًا للعراق، والثانية ساعدت موضوعيا فى تكوين عقيدته، التى أثرت فى أسس سياسة صدام الخارجية.

الاتحاد السوفييتى:

الرهان على صدام المبكر

سأبدأ من موسكو حيث كانوا ينظرون بحذر إلى الانقلاب الذى قام به البعثيون فى ١٧ يوليو ١٩٦٨، فقد كان الجميع يتذكر الانقلاب الدموى الأول، والذى قام به البعثيون أيضا، وكان من نتيجته إسقاط نظام قاسم. وكانوا فى سفارتنا فى بغداد يراقبون ما يحدث فى العراق بعد وصول البعثيين العراقيين للسلطة للمرة الثانية، فى ذلك الوقت كان القائم بأعمال السفير السوفييتى مستشار السفارة فيلكس نيكولايفتش فيدوتوف، وهو شخص مستنير ومهنى، ولديه ذهن قادر على التحليل. تحدثت معه فى بغداد حيث وصلت إليها، لعدد كبير من الساعات ناقشنا الوضع الذى نشأ فى البلاد، مع وصول الرئيس الجديد أحمد حسن البكر للحكم.

عندما استندت مجموعة من الجناح العسكرى لحزب "البعث" على التعاون مع عدد من الضباط "المستقلين" قامت فى ليلة ١٧ يوليو بالاستيلاء على السلطة، وبقى سكان بغداد غير مبالين بالأحداث. حدث إسقاط الرئيس عارف[٦١] بشكل سرى. وكان الحرس الرئاسى بقيادة المقدم داود هو القوة الرئيسية الفاعلة فى الانقلاب. وكان نايف رئيس المخابرات الحربية هو الشخصية الهامة فى الإعداد السرى للانقلاب، وفى الوقت الذى كانت توجه فيه دبابات الحراسة مدافعها إلى القصر الرئاسى، اتصل قائد العملية الجنرال البكر هاتفيا بعارف واقترح عليه الاستسلام، وافق الرئيس فورا، وتم إرساله فى نفس اللحظة إلى مطار بغداد، ونفى إلى خارج العراق.

لم يبد البغداديون رد فعل عاصفًا تجاه الانقلاب الجديد، فالبلاد والشعب كانا مرهقين من الانقلابات. وسادت حالة من الترقب تجاه الأشخاص الذين قاموا بالانقلاب بين طبقات الشعب الواسعة. وساعدت حقيقة أن عدد كبير من الانقلابيين كانوا أعضاء فى حكومة البعث الأولى، التى استولت على السلطة فى فبراير ١٩٦٣، وقامت بالتنكيل العنيف بشخصيات يسارية على ذلك. ولهذا كان لافتًا للنظر أن قادة انقلاب ١٧ يوليو

كانوا يحاولون بأى شكل تجنب أى تشابه مع النظام البعثى الأول فى العراق. فقد أعلن الرئيس البكر أن ١٧ يوليو هو استمرار لثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨، التى لن تتكرر فى جوهرها فى أى نظام يعقبها فى السلطة.

تطرق الجزء الأكبر من حديثى مع فيلكس نيكولايفتش عن موازين القوى داخل القيادة العراقية الجديدة، فى ذلك الوقت تمت إقالة داود ونايف من القيادة. المعلومات التى تم جمعها، وكذلك الحدس الداخلى، كانت تشير إلى أن المنافسة تجرى بين اثنين من أعضاء المجلس الأعلى لثورة العراق، صدام حسين ووزير الداخلية صالح مهدى عماش، واتفق معنا فى الرأى رجل المخابرات الخارجية السوفييتية الذى كان يشاركنا الحديث الرفاقى، وكان يعمل تحت غطاء السفارة، وهو أيضا رجل ذكى وذو خبرة وعلم.

كان هناك عدد من الحقائق فى صالح صدام حسين، الذى لقبناه فيما بيننا تشى بى (اختصار لكلمتى "الحالة الطارئة" فى اللغة الروسية ـ المؤلف)، ربما لأن هذا التعريف ينطبق على شخصيته، صدام كما عماش كان يمتلك وضعًا خاصًا داخل حزب البعث. لكن ما كان يرجح كفة صدام كان بلا شك ميل مؤسس حزب "البعث" والسكرتير العام ميشيل عفلق إليه، من الممكن أن تكون علاقته بصدام، والتى استمرت حتى وفاة عفلق، ناتجة عن خطاب صدام الشجاع والفاضح ضد السعدى السكرتير العام للقسم العراقى فى الحزب فى أثناء المؤتمر السادس الذى عقد فى دمشق على مستوى العالم العربى للحزب، وبتوصية من المؤتمر القومى قام مؤتمر القطر للبعثيين العراقيين بإقالة السعدى من منصبه. ولفت الأنظار إليه أكثر أنه بعد إقالة السعدى قام صدام باتهامه بأنه السبب فى موجات الدماء التى اجتاحت العراق خلال التسعة أشهر الأولى من وجود البعثيين فى السلطة فى البلاد. أنا وفيدوتوف ربطنا اسم صدام بالإرهاب الدموى ضد الشيوعيين، وكان لهذا ما يبرره فى ذلك الوقت.

بعد أن سقطت أول حكومة بعثية فى العراق بواسطة الجنرال عارف، كان صدام تحت الأرض مستمرا فى العمل بعناد لاستكمال بناء الجهاز الحزبى استعدادا للاستيلاء على السلطة من جديد. وليس مصادفة، أنه خلال ثلاثة أشهر بعد خروجه من

العمل السرى تحت الأرض، تم ضمه لقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى العراقى المكونة من خمسة أعضاء، بتوصية من عفلق. لكن الأهم أنه أنشأ وترأس جهاز الأمن الحزبى، وكان مكونًا من شخصيات يثق فيها بقوة.

أضاف تعارفى وجلساتى مع صدام حسين والشخص المقرب منه طارق عزيز، الذى كان فى ذلك الوقت رئيس تحرير صحيفة الحزب "الثورة"، رتوشًا لصورة صدام.

الاتصالات المستمرة مع صدام حسين وطارق عزيز نشأت فى أثناء مهمتى، الموجهة لإحداث تقارب وإقامة سلام بين بغداد وأكراد شمال العراق، وهو ما سأتعرض له فيما بعد فى هذا الكتاب. تم تعيين صدام من قبل القيادة البغدادية، ليمثلها فى قضية التقارب الصعب مع الأكراد. مما لا شك فيه أن النجاح الذى تحقق كان بدرجة كبيرة بجهود وساطة سوفييتية، وهو ما كان له تأثير ليس أقل أهمية فى ترقى صدام حسين فى البداية بصفته قائدا موجودا فى الظل، ثم رئيسا للعراق، ومن بعد القائد الأعلى للقوات المسلحة والسكرتير العام لحزب البعث العراقى.

يجب القول، إن أعمال صدام حسين عمليا حتى عام ١٩٧٥، كانت تؤكد الرهان الذى وضع عليه، فى البداية فى السفارة السوفييتية فى بغداد، ثم بعد ذلك فى موسكو. فى ١٠ مارس ١٩٧٠ تم توقيع اتفاقية مع الأكراد تتضمن إعطاء الأكراد حكما ذاتيًا فى إطار العراق. لعب صدام حسين بلا شك دورًا إيجابيًا فى إنشاء الجبهة الوطنية الشعبية، وبمبادرة من صدام حسين اقترح على الحزب الشيوعى العراقى الانضمام للجبهة التى أنشئت بشرط تنفيذ الشروط التالية: "الاعتراف بالطابع التقدمى لثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨" وكذلك "الدور القيادى لحزب البعث العربى الاشتراكى فى الحكومة، والمنظمات الجماهيرية وفى الجبهة". فى ذلك الوقت كان الحزب الشيوعى العراقى فى الواقع قد انقسم إلى قسمين، القيادة المركزية بقيادة عزيز الحاج، بدأت النضال ضد حزب البعث العربى الاشتراكى، واللجنة المركزية برئاسة عزيز محمد، واتخذت موقف الصلح مع السلطات الجديدة، ليس دون مساعدة اللجنة المركزية من الحزب الشيوعى

السوفييتى، استطاع الحزب الشيوعى العراقى تجاوز "الانحراف اليسارى"، وفى يوليو عام ١٩٧٣ وقع السكرتير العام لحزب البعث العربى الاشتراكى البكر والسكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى العراقى عزيز محمد على ميثاق العمل الوطنى، والذى يتضمن انضمام الشيوعيين للجبهة. فى أثناء وجودى فى كردستان العراق، كان عندى إحساس بأن الكثيرين فى قيادة الحزب الديموقراطى الكردستانى كانوا يرغبون أيضا فى الانضمام إلى الجبهة، لكن فى النهاية انتصر الاتجاه الرافض لهذا، خاصة بعد أن وقعت اتفاقية تعطى للأكراد الحق فى إقامة حكم ذاتى، وحدث انقسام فى الحركة القومية الكردية، ونتج عنه خروج عدد من أعضاء الحزب الديموقراطى الكردستانى من الحزب.

فى عام ١٩٧٥ فى الجزائر، وبوساطة من الرئيس الجزائرى هوارى بومدين، وقع صدام حسين مع شاه إيران محمد رضا بهلوى اتفاقية ترسيم الحدود فى منطقة شط العرب. وفق الاتفاقية تم إعادة الحدود بحيث تمر بأعمق نقطة (الخط الواصل بين النقاط الأعمق فى مجرى شط العرب ـ المؤلف)، وهو ما كانت تسعى إليه إيران منذ عشرات السنين، ثم بعد توقيع اتفاق الحدود، مع اتفاق علاقات حسن جوار بين العراق وإيران. موسكو كانت تنظر بعين الرضا لتطبيع العلاقات بين الدولتين، اللتين كان للاتحاد السوفييتى علاقات متعددة الجوانب تتطور مع كل منهما.

اعتقد أن القليلين فقط كانوا يستطيعون الشك فى أن الخط الذى اختاره العراق، لا يتعارض مع المبادئ السياسية والإيديولوجية التى كان الاتحاد السوفييتى يؤمن بها ويدافع عنها فى ذلك الوقت. وهذا الخط ارتبط بصدام حسين مباشرة. من نوتة تسجيلاتى: يوم ٢٢ يناير ١٩٧٣، فى الساعة الثامنة مساء التقيت بصدام حسين فى القصر الجمهورى ببغداد. كنا أربعة أشخاص أنا و ف. ف. بوسفاليوك وطارق عزيز، قال صدام فى البداية، إنه جعل اللقاء فى المساء خصيصا، وأنا أستطيع فى أى وقت. لقد تغير عن آخر مرة التقينا به، ففى خلال ثلاث سنوات أصبح أكثر رصانة وأكثر

حرصا، وعندما تطرق إلى السياسة الداخلية فى البلاد، أكد على أن "خلع النظام من الداخل الآن، أصبح صعبًا جدا" (ليس غير ممكن، ولكن صعب ـ المؤلف)، إلى جانب هذا وفق كلامه، أنه يلاحظ حركة تصحيح سياسى فى العالم العربى، خاصة فى مصر. ومن الأهمية بمكان هنا معرفة توصيفه للسادات:"ناصر لم يعطه صلاحيات خاصة على الإطلاق، بعد وفاة ناصر كان من الممكن أن يصبح قائدا، إذا استمر فى التحولات الداخلية الاجتماعية ـ الاقتصادية، لكنه راهن على التحولات الديموقراطية، مستغلاً أن ليست البرجوازية فقط هى التى عانت من الدولة البوليسية التى كانت سائدة أيام ناصر، ولكن الجماهير بمفهومها الواسع عانت أيضا. غير أنه بعد القبض على الطلاب والتضييق عليهم، فقد السادات المبادرة وآخر ورقة، وبدأ فى استغلال الشعارات الدينية، وكان نتيجة هذا أن ظهرت على مسرح الحياة قوى سرية، سيكون من الصعب عليه السيطرة عليها".

لعلكم تتفقون معى أن هذا استنتاج ناضج لا يتفق على الإطلاق مع بدائية صدام "المبكر". حينها لم يكن يشبه بأى حال الإنسان الذى كان يقف على المنصة، محييا العروض اللانهائية التى تمر أمامه بإطلاق الرصاص من البندقية فى الهواء، هذه الصورة التى طافت العالم وظهرت على جميع شاشات التلفزة عام ٢٠٠٣ كانت لصدام البدائى، لكن صدام "المبكر" كان شخصا آخر، وموسكو، ليس دون أساس اعتبرته قائدا له مستقبل. فى هذا الحديث شرح بطريقة بعيدة عن البدائية، لماذا يسعى العراق لعلاقات خاصة مع الاتحاد السوفييتى وقال صدام "القضية ليست فى مساعدات إضافية لنا، العراق دولة غنية. لكننا نحتاج لأن تساعدونا على بناء البلد على أساس علمى. ويلزمنا مشورة سياسية نثق فيها".

اتخذ العراق قرارا بتأميم، ليس شيئًا درجة ثانية، بل شركة النفط الأجنبية، "العراق بتروليوم كومبانى" تأميم هذه الشركة يعادل فى أهميته، تأميم قناة السويس بالنسبة لمصر، التى أصبحت علامة فارقة فى حياة الشعب المصرى.

توقع بعض المحللين الغربيين، أن تلقى قيادة العراق الثورية مصير حكومة مصدق فى إيران، عندما أمم صناعة النفط فى إيران عام ١٩٥١، لكنه لم يستطع أن يفلت من أحضان الأخطبوط النفطى. بعد تأميم "العراق بتروليوم كومبانينى" فى العراق عام ١٩٧٢، قامت الشركة بالتهديد باللجوء للمحاكم، ضد كل من يتجرأ ويشترى النفط العراقى على اعتبار أن هذا النفط انتزع بطريقة غير قانونية كما فعلت فى وقتها "الشركة الإنجليزية ـ الإيرانية للنفط"، إلا أنه لم يحدث أى شىء مثل الذى حدث مع إيران. وفى بداية السبعينيات ما كان من الممكن أن يحدث، وبمساعدة الاتحاد السوفييتى للعراق تمكن الأخير من إنشاء شركة وطنية لصناعة استخراج النفط فى شمال الرميلة، وتوقيع عقود لتوريد النفط العراقى للاتحاد السوفييتى وألمانيا الشرقية وبلغاريا والمجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وكذلك فرنسا وإيطاليا.

وتعزز موقف العراق بتأييد سوريا التى قامت بتأميم ممتلكات شركة "العراق بتروليوم كومبانى" على أراضيها، وقعت اتفاقية مع العراق لنقل النفط العراقى إلى البحر المتوسط. وفى نهاية الأمر تم توقيع اتفاقية مع "العراق بتروليوم كومبانى" لم تحدد حجم التعويض عن التأميم. والتزمت شركتا "موصل بتروليوم كومبانى" و"البصرة بتروليوم كومبانى" وهما شركتان فرعيتان لشركة "العراق بتروليوم كومبانى" بدفع مبلغ ضخم من ديون العراق، وفق الاتفاقية انتقلت الشركة الأولى لملكية العراق بداية من ٣١ مارس ١٩٧٣ بدون أى تعويض، والشركة الثانية زودت مدفوعاتها للحكومة العراقية.

كل هذا كان من الطبيعى أن يجعل الاتحاد السوفييتى ينحاز إلى القيادة العراقية، التى لعب الدور الرئيسى فيها صدام حسين.

تعززت العلاقات السوفييتية ـ العراقية المتعددة الجوانب، فى المجالات الاقتصادية والعسكرية ـ التقنية، بعد توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفييتى والعراق. وفى عام ١٩٧٥ وقع العراق اتفاق تعاون مع المجلس الاقتصادى لتبادل المساعدات، والذى كان يضم دول المنظومة الاشتراكية فقط.

غير أن السياسة الداخلية فى العراق فى منتصف السبعينيات، أصبحت تتغير للأسوأ. فقد حدثت عملية بعثنة شاملة للجيش، وكل مؤسسات السلطة التنفيذية، واندلعت المعارك مع الأكراد، وتم تهجير ٣٥٠ ألف كردى بالقوة، وتم حرق ٢٥٠ قرية كردية، وبمحاذاة الحدود مع إيران أنشئ "حزام عربى" بعمق ٢٥ كم، حيث تم تهجير سكان عراقيين عرب إليه. وتم سحق الشيعة فى جنوب البلاد بمساعدة الجيش. وفى مايو ١٩٧٨ دارت حملة معادية للشيوعية بكل قوة، وتم اعتقال كل ممثلى الحزب الشيوعى العراقى فى الجبهة الشعبية الوطنية، ومنعت كل صحف الحزب الشيوعى العراقى من الصدور، وأعدم ٣١ شيوعيًا اتهموا بتكوين خلايا حزبية فى الجيش، وصفهم صدام حسين بأنهم "عملاء أجانب". فى أثناء لقاءاته مع ممثلى الاتحاد السوفييتى استمر فى تبرير سياسات العراق الداخلية بزعم أن حزب البعث العربى الاشتراكى يقود نضالاً صعبًا من أجل إنشاء دولة شعبية ديموقراطية، وحدد هذا النضال بأنه موجه ضد من يعملون بأوامر من شاه إيران، من المتمردين الأكراد والشيعة، وضد هؤلاء الشيوعيين الذين يهدفون للإطاحة بالنظام البعثى. وأكد صدام بطرق مختلفة أن قيادة العراق، قامت ببناء وستدعم علاقات وثيقة مع هؤلاء الأكراد والشيعة والشيوعيين الذين اتجهوا للتعاون مع النظام.

أتذكر أن صدام عندما كان موجودا فى موسكو فى أبريل عام ١٩٧٥، دعانى إليه فى الصباح الباكر فى الجناح الذى كان يقيم فيه، فى منطقة مرتفعات لينين، حيث كان من المفترض فى التاسعة صباحا أن يأتى إليه أ. ن. كوسيجين، ليرافقه إلى المطار.

قال صدام موجها حديثه إلى كوسيجين، يبدو أنه كان يعنى تلك الملحوظات التى قيلت له فى أثناء لقاءاته فى موسكو، "إذا ظهر عند الأصدقاء السوفييت شك فى سياستنا، أرسلوا مجموعة من المراقبين إلى العراق، وأنا سأسمح لهم بالذهاب لكل الأماكن، حتى لمنظمات حزب البعث العربى الاشتراكى فى الجيش، سندعهم يتأكدون من سياستنا على أرض الواقع، وليس من المعلومات التى يستقونها من أعدائنا

"وأضاف صدام سيكون جيدا أن يرأس هذه المجموعة بريماكوف" وكان من الواضح أنه يعطى العلاقة التى نشأت معه شخصيا من خلال المفاوضات مع الأكراد أهمية فى هذا الشأن. وكان رد كوسيجين الصمت.

حقيقة أن القيادة العليا التى استقبلت صدام حسين كان رئيس مجلس الوزراء المسئول عن الملف الاقتصادى، كان له دلالة. ففي ذلك الوقت نشأت علاقة بعراق صدام كشريك بشكل أساسى فى المجالات الاقتصادية والعلاقات التقنية ـ العسكرية. كان فى العراق آلاف من المستشارين المدنيين والعسكريين السوفييت. لم يستطع الاتحاد السوفييتى الاستهانة بالعلاقات مع العراق، خاصة فى المجالات الاقتصادية، والتقنية ـ العسكرية، وأنها جاءت بعد التقارب الذى استمر لفترة قصيرة مع مصر فى أثناء حرب ١٩٧٣، وفى أثناء حكم السادات، ومن ثم ضعف مواقع الاتحاد السوفييتى فى هذا البلد. وكان يجب أخذ هذا بعين الاعتبار، كما أن الحرب الباردة مازالت مستمرة.

بالإضافة إلى ما سبق، كان صدام يعرف كيف يثير إعجاب الجلساء السوفييت بنمط حديثه المفكر المتروى، وموافقته على البراهين التى يستمع لها. وبالطبع هكذا أحاديث على مستوى القمة السوفييتية، لم تكن تمتد إلى نقد مباشر لأعمال صدام، وإذا دار الحديث عن السلبيات فإنه كان يدور دون عنوان. لكن على أى حال يجب الاعتراف بأنه حتى النقد بهذا الشكل الموارب، كان يتقبله بهدوء. لكن فى نفس الوقت لم يكن ليتجرأ أحد من زملائه العراقيين أن يقول له شيئًا مشابهًا!.

فى الاحتفال بالذكرى السنوية "للثورة البعثية" فى العراق يوم ١٧ يوليو ١٩٧٩، تم تجريد البكر من كل مناصبه، واعتقاله فى منزله. الرواية الرسمية قالت إنه مريض وقدم استقالته، وصدام حسين الذى كان يقود العراق فعليا، قانونيا، أصبح قائدا للدولة والحزب. فى ذلك الوقت لم يكن له منافسون بالفعل، فبمجرد أن عين البكر، صالح عماش والجنرال حردان التكريتى نائبين لرئيس البلاد عام ١٩٧٦، كان مصيرهما قد حسم، فبعد عدة أشهر تمت إقالة التكريتى ومن بعده عماش من كل مناصبهما.

أخطروا الجنرال التكريتى بذلك فى أثناء زيارة له خارج البلاد، واقترحوا عليه منصب سفير، لكنه لم يستوعب ذلك فرفض، وبعد ذلك بفترة قصيرة قتله أشخاص مجهولون فى الكويت. بينما قبل عماش التعيين فى منصب سفير فى فنلندا، فى ذلك الوقت كان صدام قد سيطر تماما على الجيش والحزب، والأهم أن مخابرات الحزب والأجهزة الأمنية الأخرى انضمت إليه.

بسيطرته التامة على الوضع فى العراق، بدأ صدام يبتعد عن الاتحاد السوفييتى، ولعبت الحرب العراقية ـ الإيرانية دوراً خاصاً فى هذا.

بدأ صدام فى سبتمبر ١٩٨٠ حرباً شاملة ضد إيران، ولم يخبر حتى الاتحاد السوفييتى بذلك، حدث هذا بعد أن أكد صدام للسفير السوفييتى أ.باركوفسكى أنه "لن تكون هناك أى عمليات عسكرية ضخمة ضد إيران فى القريب المنظور". قام باركوفسكى كما كان يجب أن يفعل بإخطار موسكو بذلك على وجه السرعة، هذا التضليل أدى إلى عدم رضى شديد فى الكرملين، واتخذ قرار بوقف توريد السلاح للعراق، وفى محاولة منه لتهدئة الوضع، أرسل طارق عزيز إلى موسكو. وفى أثناء الاجتماع به، اقترح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ب. ن. بونوماريوف، وقف العمليات العسكرية فورا، والتقى طارق عزيز بى، وعن سؤالى لماذا لم تبلغ بغداد حليفها بمقتضى الاتفاقية الموقعة بيننا ببدء الحرب، ودخولها الأراضى الإيرانية، حاول طارق عزيز أن يصور الأمر وكأن الإيرانيين هم الذين بدأوا الحرب، ولم يكن لدى بغداد مخرج آخر، سوى أن تضرب الجيش الإيرانى.

وليس أدل على عدم رضى القيادة السوفييتية عن تصرفات صدام أكثر من أنها كلفت السفير السوفييتى فى طهران أن يقترح على رئيس الوزراء الإيرانى مساعدات عسكرية، لكن إيران رفضت هذا الاقتراح. حينها قررت موسكو أن تتخذ موقف الحياد لبعض الوقت، لكن بعد أن استطاع الجانب الإيرانى أن يأخذ زمام المبادرة، وأصبحت القوات الإيرانية رغم الخسائر البشرية الفادحة تقترب من بغداد، قرر الاتحاد السوفييتى استئناف توريد السلاح للعراق.

لم يكن رد الفعل السلبى الأولى، والذى لم يعلن الاتحاد السوفييتى عنه من قبل ليس بسبب مفاجأة توجيه ضربة لإيران، ففى موسكو كانوا يتوقعون إمكانية حدوث هذا. على الأرجح كانت عدم رغبة العراق فى التشاور مع القيادة السوفييتية، تفسر على أنها سعى من صدام حسين لتوريط الاتحاد السوفييتى فى مغامرته، على أساس أنه سيحصل على دعم تلقائى من الاتحاد السوفييتى لأى عمل يقوم به، وهذا لم يكن فى مخططات الاتحاد السوفييتى على الإطلاق.

بمجرد وصول الخومينى للسلطة فى إيران، قامت موسكو بعمل "تحليل حالة "، واحدة من "الهجمات العقلية" (من أجل تطوير طرق واختبار تأثيرها فى الواقع العملى، تكونت مجموعة من العلميين برئاستى، حصلت حينها على جائزة الدولة السوفييتية - المؤلف). فى تحليل مكرس للتغييرات المتوقعة فى منطقة الشرق الأوسط نتيجة انتصار "الثورة الإسلامية" فى إيران، شارك فيها بالإضافة إلى العلماء، العاملين الحقليين فى عدد من المؤسسات، انحصر أحد استنتاجات النقاش فى أنه ولأسباب موضوعية وذاتية، فى الغالب ستبدأ الحرب بين إيران والعراق. نتيجة إعلان إيران عن سعيها لتصدير "الثورة الإسلامية"، خاصة للدول المجاورة، أضيف إليها العامل الذاتى. فقد كان الخومينى يكره صدام حسين، الذى كان يعتبره السبب الرئيسى فى إنهاء هجرته وإقامته التى امتدت لسنوات طويلة فى العراق بطريقة مهينة عام ١٩٧٨، وبناء على طلب شاه إيران تم وضع الخومينى رهن الإقامة الجبرية، حيث أحاطت أجهزة المخابرات العراقية منزله فى النجف، وبعد ذلك طرد من البلاد، فقد تم دفعه بالمعنى الحرفى عبر الحدود مع الكويت، التى رفضت استقباله، وفى نهاية الأمر اضطر للبحث عن ملجأ فى فرنسا.

فيما يخص صدام حسين، فقد توقعنا محاولته استغلال ضعف الجيش الإيرانى بعد إسقاط نظام الشاه، لتعديل الحدود لصالحه، حيث انخفض عدد أفراد الجيش الإيرانى من ٢٤٠ ألف إلى ١٨٠ ألف، و٢٥٠ جنرال تم تغييرهم بآخرين من" حرس

الثورة الإسلامية" ليس لديهم خبرة، كما أن الاتفاقية التي وقعها مع شاه إيران حول تعديل الحدود في شط العرب، كانت بالنسبة لصدام حسين كالشوكة في العين، فقد اضطر حينها إلى التخلي عن حدوده التي تصل إلى الشط الإيراني. وقد كان قبل هذه الاتفاقية، ومنذ عام ١٩٧٢ كل شط العرب يعتبر مساحة مائية عراقية. وكان صدام حسين يهدف كذلك إلى إجبار إيران على سحب قواتها من الثلاث جزر التي احتلتها عام ١٩٧١ في مضيق أرمود وهي أبوموسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى، والاستيلاء على منطقة خوزستان الغنية بالنفط في إيران، والتي يسكنها عرب. كما أن انتصار العراق كان من الممكن أن يغلق الحدود الإيرانية مع كردستان العراق، وهو الأمر الذي بدونه لا يستطيع صدام سحق المتمردين الأكراد. بالإضافة لذلك شعرت بغداد بالقلق من نشاط الشيعة العراقيين، بعد إقامة نظام إسلامي شيعي في إيران.

تحققت التوقعات فيما يتعلق بالحرب، في ذلك الوقت تجلت تماما إحدى صفات شخصية صدام حسين، مثل قدرته على التنكر، ومهارته في التكيف مع الموقف. وإدراكا من أن حليفه في الأعمال المعادية لإيران سيكون النظام السني في العربية السعودية، اعتمد على مذهبه الديني. وعندما ظهر صدام في أثناء جلسة محاكمته في بغداد متهمًا، كان القرآن دائما في يده، وكان هذا يبدو طبيعيا. ولا أستبعد أنه عندما تعرض لهزيمة ساحقة لطموحاته، أوغل في التدين. لكن على أي حال هذا لم يكن موجودا عند صدام "المبكر"، فهو بالطبع لم يتراجع عن تطبيق قواعد الدين في مناحي الحياة، ولكنه لم يعلن ابدا عن تدينه، إلا أن صدام حسين قبيل بدء الحرب ضد نظام الخوميني الإسلامي، قام بزيارة الأماكن الشيعية المقدسة في مدينة النجف، واستعرض شجرته الجينية، وقامت وسائل الإعلام بتغطية الحدث بقوة. و"اتضح" وفق وسائل الإعلام حينها أن نسب صدام حسين يمتد تقريبا إلى نسل النبي محمد. وفي أغسطس ١٩٨٠، أي قبل الحرب مع إيران مباشرة، قام صدام بأداء فريضة الحج، وعرضوا صوره في أثناء أداء مناسك الحج لكل العالم العربي، عندما كان يرتدي ملابس الإحرام ويطوف حول الكعبة[٦٢] بصحبة ولي العهد السعودي فهد، فيما بعد أصبح الملك فهد.

قبل عشرة أيام من بدء الحرب، أعلن صدام حسين فى جلسة طارئة للبرلمان العراقى عن إلغاء اتفاقية الجزائر، وسيادة العرب والعراقيين على منطقة شط العرب.

لكن الحياة أظهرت أن حسابات الطرفين الأولية لم تتحقق، فالعراق راهن على أن منطقة خوزستان الإيرانية، التى يسكنها عرب سوف تنتفض، وإيران اعتمدت على المساعدة من الشيعة العراقيين. كلا الجانبين راهنا على دعم كردى قوى، إيران على هؤلاء الذين يقطنون شمال العراق، وكانوا دائمى الخلاف مع بغداد، والعراق على الأكراد هؤلاء الذين يسكنون فى إيران وفى حالة عداء مع طهران. ولم يحدث شىء من هذا. فالحرب التى كان ثمنها ضحايا كثيرين، طال أمدها، حتى إننى لم أتصور حجم ذلك الدمار الذى رأيته بعينى عندما ذهبت إلى الأراضى الإيرانية المتاخمة للحدود العراقية فى أثناء مهمتى لبغداد فى أثناء أزمة الكويت عام ١٩٩١، على جانبى الطريق ولكيلومترات طويلة، كانت الأراضى بدون حياة، مناطق سكانية تم تسويتها بالأرض، بقايا دبابات محترقة. سارت الحرب وتبادل الجانبان فيها النجاحات، وانتهت بتوقيع معاهدة سلام.

الولايات المتحدة تساعد صدام «المتأخر»

عندما كان صدام حسين يستعد للحرب مع إيران، لم يكن ليستطيع ألا يراهن على دعم الولايات المتحدة، خاصة بعد الأعمال المعادية للولايات المتحدة التى قام بها النظام الإيرانى الجديد.

وجدت واشنطن بدورها فى هذه الحرب هدية أهداها لها القدر لتصفية حساباتها، أو على الأقل إضعاف إيران ما بعد الشاه بشكل حاد، فقررت الإدارة الأمريكية دعم العراق، وهذا كان يعنى دعمًا مباشرًا ومساعدات لصدام حسين.

لم يبلغ لا صدام حسين ولا طارق عزيز الجانب السوفييتى عن اتصالات القيادة العراقية مع الإدارة الأمريكية، خاصة حول قضايا توريد السلاح. والحد الأقصى من

المعلومات، التى حصلت عليها بشكل مجرد جدا، فى أثناء مقابلاتى الطويلة مع طارق عزيز فى بغداد فى ٢٨ مارس ١٩٨١: "نحن حلينا مشكلة مصادر السلاح للعراق. لكن الآن جاء الوقت، عندما سيكون من الضرورى الإجابة على سؤال: هل سيكون هناك تقليص لتوريد السلاح من الاتحاد السوفييتى، أم سيكون هذا بمثابة إضافة للمصدر الآخر أو العكس؟" وأضاف طارق عزيز "يجب ملاحظة أن الموقف لم يكن حرجا، حتى عندما توقفت توريداتكم". وجه طارق عزيز فى هذه الجلسة اللوم للقيادة السوفييتية، بسبب عدم اعتبارها فى الوقت الحاضر صدام حسين أفضل شخصية لقيادة العراق.

لوحظ بوضوح أن توجهات صدام حسين تغيرت فى اتجاه أن تكون الغلبة للعلاقات مع الولايات المتحدة، بعد بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية، وقد ساعدت سياسة الولايات المتحدة عن عمد فى هذا الأمر. فقد عرفنا أن توريد السلاح الأمريكى للعراق، بدأ بقرار من الرئيس ريجان بعد مناقشة أجراها مع وزير خارجيته شولتز ووزير الدفاع واينبرجر، ومدير المخابرات كيسى، كما قامت المخابرات الأمريكية بتزويد الجانب العراقى، بصورة منتظمة، بمعلومات عن أماكن تمركز القوات الإيرانية، وذلك عن طريق طائراتها البعيدة المدى من طراز (أواكس)، المتمركزة فى العربية السعودية. الطريف أن توريد السلاح الأمريكى للعراق وإمداده بالمعلومات عن أماكن تمركز القوات الإيرانية، لم يتوقف بسبب الغارة الجوية الإسرائيلية وتدمير المفاعل النوى العراقى "أوزيراك"، بل ذهبت لأكثر من هذا، حيث اعترضت الولايات المتحدة على هذا العمل الذى وصفته بالقرصنة. يمكن للشخص غير المدرك أن يعتقد بأنه لم يكن لدى المخابرات الأمريكية وسيلة للوصول لمعلومات عن الإعداد للعملية والتى نفذت باستخدام طائرات إف ـ ١٦ وإف ـ ١٥ الأمريكية التى قدمتها لإسرائيل، ولذلك لم تستطع الولايات المتحدة منعها.

تطورت "اللعبة" الأمريكية مع صدام حسين. ففى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٣، قام المبعوث الأمريكى الخاص للشرق الأوسط دونالد رامسفيلد، الذى أصبح فيما بعد وزيرا

للدفاع، بلقاء صدام حسين فى بغداد، وسلمه رسالة خاصة من الرئيس ريجان. والجلسة المطولة كما هو واضح مثل الرسالة كانت مكرسة لمشكلة استئناف العلاقات الدبلوماسية التى قطعت بين البلدين منذ عام ١٩٦٧. وأكد رامسفيلد على أن لدى الولايات المتحدة والعراق أعداء مشتركين هما إيران وسوريا، ويدعمهما الاتحاد السوفييتى وعندما ودع طارق عزيز وزير خارجية العراق رامسفيلد بتكليف من صدام حسين، أبلغه بأن صدام حسين راض بشكل غير عادى عن اللقاء.

فى نفس العام ومن نفس الإدارة الأمريكية، إدارة ريجان، تم شطب العراق من قائمة "الأنظمة الإرهابية". فى ٥ يونيو ١٩٨٤ أسقطت المقاتلات السعودية بمساعدة الطائرات الأمريكية التى تعمل بنظام أواكس طائرتين عسكريتين إيرانيتين. وفى نفس العام استأنفت الولايات المتحدة علاقاتها الدبلوماسية مع العراق.

لم تستطع الولايات المتحدة دعم بغداد فى كل شىء فى أثناء حربها مع إيران، فعندما ناقش مجلس الأمن استخدام العراق للأسلحة الكيميائية، قام المندوب الأمريكى بإدانة ذلك علنا وبشدة، غير أنه أعقب هذه الإدانة، التى استدعت عدم الرضى الواضح من القيادة العراقية، بأن قام رامسفيلد بزيارة أخرى للعاصمة العراقية فى مارس ١٩٨٤، لم يستقبله خلالها صدام حسين، لكن مهمة "تلطيف الأجواء" قام بها رامسفيلد كما يجب، فقد وعد العراق بالمساعدة فى الحصول على قروض من بنك التصدير - الاستيراد الأمريكى، وشراء معدات تقنية أمريكية ذات استخدام مزدوج. وسرعان ما تم بيع وزارة الفلاحة؟! العراقية سيارات نقل ثقيل، ومروحيات "بيل" من شركة "تيكسترون".

فى الثمانينيات أصبح التعاون بين العراق والشركات الأمريكية وثيقًا، لكن فيما بعد فى عام ١٩٩١، وقع رئيس إحدى لجان مجلس النواب صمويل جيدجينسون تقريرا تحدث عن أن صدام بمساعدة هذه الشركات بدأ فى إنتاج أسلحة دمار شامل.

حصل صدام حسين على إشارات من الولايات المتحدة، عن رضى الدوائر الأمريكية عنه، حتى بعد انتهاء الحرب مع إيران. وهكذا فى شهر أبريل عام ١٩٩٠، أى

قبل أشهر معدودة من بداية احتلال الجيش العراقى للكويت، وصل إلى بغداد وفد رفيع من مجلس الشيوخ الأمريكى، وفى أثناء لقائهم بصدام أكدوا له أن النظام العراقى "مقبول ومستحسن لدى واشنطن الرسمية".

بلا شك أثرت سلوكيات الولايات المتحدة، فى أثناء وبعد الحرب العراقية ـ الإيرانية، فى قناعات ووجهات نظر صدام حسين. لكن لم يقتصر التأثير الأمريكى عند التأثير فى نفسيته وسلوكياته.

سياسة الإيحاء النفسى الأمريكية

من المعروف، أن صدام حسين ـ كتبت عن هذا من قبل ـ كان يعمل بشكل مباشر مع عملاء من المخابرات المركزية الأمريكية فى أثناء محاولة اغتيال قاسم، لكن ليست هناك أى معلومات تشير إلى أنه تم تجنيده عميلاً للمخابرات الأمريكية، وأنا لا أصدق أنه كان عميلاً، لأنه لوكان كذلك، لأعلنت هذه "الفضيحة" بكل سرور فى واشنطن، فى اللحظة التى تحول فيها إلى شخص مكروه من واشنطن الرسمية. ولم يحدث هذا أى أنه لم تقم المخابرات الأمريكية بتجنيده.

لكن على أى حال فقد أثرت الولايات المتحدة تأثيرا كبيرا فى تكوين الجانب النفسى لصدام، وأعتقد ليس فقط لأنه فهم أهمية الولايات المتحدة بصفتها دولة عظمى ويجب أخذها فى الاعتبار. كان من الواضح أن صدام حسين ينطلق من أن هذه القوة الجبارة، تستطيع حتى أن تضغط عليه لحدود معينة إذا قام بالسباحة ضد توجهاتها، لكنها لن تغرقه نهائيا، لأنها صاحبة مصلحة فى توازن للقوى بين الدول الغنية بالنفط فى منطقة الخليج. الحلقة الرئيسية فى هذا التكوين، عدم إعطاء إمكانية لصعود إيران ما بعد الشاه لمستوى السيطرة على المنطقة، الآلية الرئيسية لحل هذه المسألة، هو توازن إيران بالعراق. خدمت الأحداث صدام حسين بهذا الاستنتاج، عندما دعمته الولايات المتحدة بحسم فى حربه مع إيران، وكان هو ينطلق من أنه مادام عداء

الولايات المتحدة والنظام الإسلامى فى إيران قائما، فإن واشنطن لن تسمح بإضعاف العراق. ونظرا لأنه ربط العراق فقط بنظام السلطة الذى أنشأه هو، فإنه كان واثقا من أن الولايات المتحدة سوف تصبر على نزواته، إذا لم يوجه سهامه بالطبع إلى المصالح الأمريكية بشكل مباشر. صحيح هذا أم لا، لكن الولايات المتحدة، سواء كانت تقصد هذا أم لا ساعدته على أن يثق "بنجمه".

لم يكن تأثير الخليج بعيدا عن تشكيل معتقدات صدام حسين، فعندما أدرك جيدا أن العراق يتصدى لمساعى التوسع الإيرانية فى تلك المنطقة، دعمت دول الخليج صدام ليس فقط معنويا بل ماديا، وقد ظهر هذا الدعم جليا و ملموسا فى أثناء الحرب الإيرانية ــ العراقية. هنا يجب القول أن صدام قبل المساعدات وكأنها واجب. فى أثناء احتلال القوات العراقية للكويت، جرى لقاء فى العربية السعودية، بينى وبين أمير الكويت الشيخ جابر الصباح، الذى غادر بلاده، وقد اشتكى لى من "الجحود المتناهى" لصدام. فالكويت لم تتوقف عند مساعدته ماديا فى أثناء الحرب، بل سخرت ميناءها لنقل السلاح إلى العراق، ولام صدام كذلك على "جحوده" ملك العربية السعودية فهد، فى لقاء معى، وأيضا فى أثناء الأزمة الكويتية.

كثيرا ما انزلق الإعلام إلى السطحية فى أثناء تغطية بداية هذه الأزمة إعلاميا، بالقول إن صدام قرر هكذا مباشرة وبدون مقدمات، ضم الكويت إلى العراق، واحتل هذا البلد. كل هذا حدث فى الواقع، لكن لا يمكن هنا أن نتجرد من "الخلفية النفطية"- التى لا تبرر عمل صدام بأى حال من الأحوال - والمرور على العنصر النفطى، الذى جعله يفعل فعلته، مرور الكرام. لقد ربط صدام مصيره بالثروة النفطية للعراق، وكان يعتقد أنه بالاعتماد على هذا لا يستطيع فقط تقوية نظامه فى البلاد، ولكن أن يصبح قائدا لكل العرب. فى غضون ذلك عندما حاول تبرير تدخله فى الكويت، قال لى صدام بشكل مباشر: "ما كان لى أن أسكت، عندما قررت الكويت بالاتفاق مع العربية السعودية، وتحت ضغط الولايات المتحدة، خفض أسعار النفط العالمية بدرجة حادة".

بعد الحرب مع إيران توجه صدام إلى العربية السعودية والكويت وأبوظبي بطلب تقديم قروض له، والحفاظ على حصص إنتاج النفط المقررة في الأوبك، للحفاظ على أسعار النفط المرتفعة. أجابته الكويت بأنه، نظرا لعدم وجود تهديد إيراني، ليست هناك ضرورة للاستمرار في المساعدات المالية للعراق. في نفس الوقت قامت الكويت وأبوظبي بزيادة حصصهما من إنتاج النفط، والأسعار انخفضت من ١٩ حتى ١١ دولار للبرميل. وفق كلمات صدام، في هذه الحالة من الممكن أن يتحول العراق إلى دولة مفلسة. ومع ضم الكويت، التي لم تعترف بغداد باستقلالها أبدا حتى في أثناء الحكم الأميري، سيصبح العراق أهم مركز نفطي وسيتحكم في أسعار النفط العالمية.

لكن هل كان يعتقد أن الولايات المتحدة ستقوم بإخراجه من الكويت حتى لوكان الثمن هو إنهاء التوازن تماما مع إيران، في حالة احتلال القوات العراقية للكويت؟ قبل بداية عملية الاستيلاء على الكويت، وفي لقاء لصدام مع السفيرة الأمريكية في العراق إبريل جليسبي، سألها صدام، ماذا سيكون رد فعل الولايات المتحدة على سعي العراق حل الخلافات الحدودية مع الكويت، أجابته جليسبي، هذه "قضية عربية داخلية"، كان صدام حسين يريد معرفة رد فعل الولايات المتحدة بالتحديد، وليس أي دولة أخرى. في حين أنه حتى لم يلمح للاتحاد السوفييتي الذي وقع معه صدام معاهدات، بخططه لضم الكويت. موقف الولايات المتحدة "المحايد" الذي أبلغ به، لم يكن إلا أن يدعم رأيه، بأن الولايات المتحدة ستحدث ضجيجا، ولكنها في نهاية الأمر ستبتلع عمليته بضم الكويت.

التقيت صدام حسين ثلاث مرات في أثناء الأزمة الكويتية، وفي كل مرة كانت تطرأ على ذهني فكرة، أنه يصدق أن كل شيء سيتم تسويته. في البداية كان يقول، مباشرة، إن رد الفعل الأمريكي العنيف، ليس أكثر من خدعة، لأن الولايات المتحدة لا تريد استخدام قواتها المسلحة بكاملها ضد العراق في الوضع الحالي. بعد ذلك، وعندما بدأ القصف، كان صدام واثق بأن الأمور ستقتصر على هذا، لأن الولايات المتحدة "لن تقدم على عملية برية". لكن بعد أن دمرت الولايات المتحدة الجيش العراقي في الكويت، دعم افتراضاته، عدم اتخاذ الرئيس بوش الاب قرارا بالزحف على بغداد لإسقاط نظامه.

كان صدام، بلا شك، يؤمن بالقدر، الذى وفر له الحماية لأعوام طويلة متتالية، وأنقذه من مواقف صعبة. ولكنه أخطأ، بالطبع على أساس منطقه هو، فى كيف ستتصرف الولايات المتحدة فى هذا الموقف أو ذاك. ربما أقنعه بهذا "المنطق"، تصريح جورج بوش الأب، فى أثناء تحقيق الجيش الإيرانى لأكبر نجاحاته، بتقدمه نحو البصرة، والذى قال فيه إن "انتصار إيران سيخل تماما باستقرار الأوضاع فى الخليج".

على أى حال تحلت الولايات المتحدة بالصبر عندما اكتفت بالعمليات العسكرية على الحدود العراقية ـ الكويتية، وهذا كما تبين كان قرارا صحيحا، وهو ما أكدته نتائج أعمال جورج بوش الابن عام ٢٠٠٣. لكن فى هذه الحالة نحن غير معنيين بالحالة النفسية، الخاصة بهذا القائد الأمريكى أو ذاك، ولكن حالة صدام حسين نفسه.

وعندما أسترجع ترتيب جميع اللقاءات الثلاثة مع صدام حسين فى ذاكرتى، فى أثناء الأزمة الكويتية، فإن كل شىء يبدو أكثر وضوحا، أنه فى كل مرة كان يقترب فيها من القرار الذى كان من الممكن أن يمنع الحرب، أو على الأقل العملية البرية لقوات التحالف ضد العراق، كان شىء ما يمنعه، لقد كان لديه أمل فى شىء ما.

كان يقوده الأمل، فى أن كل شىء سيتم تسويته، حتى بعد الحرب فى منطقة الخليج، فى ذلك الوقت عندما كان "يعيق" عمل اللجنة الخاصة التى شكلتها الأمم المتحدة للبحث عن أدلة على امتلاك العراق أسلحة دمار شامل. وللحق يجب أن أقول، إن هذه اللجنة عندما كان يرأسها باتلر، انطلقت تصريحات عراقية تطلب عدم تمكينها من تفتيش قصور صدام حسين وتغيير أعضائها وهكذا، وهذه اللجنة لم تكن موضوعية، وقامت بمهمة، تخالف التفويض الممنوح لها. وفى كتاب لسكوت ريتير بعنوان "السر العراقى: التاريخ المتكرر لمؤامرة المخابرات الأمريكية" الذى صدر عام ٢٠٠٥ يتحدث عن أنه ما بين ١٩٩٦ و١٩٩٧، استخدمت المخابرات الأمريكية التفتيش الدولى للأمم المتحدة، بهدف إسقاط صدام حسين، وفق كلمات ريتير، سعت المخابرات الأمريكية بمساعدة عدد من المفتشين، معرفة أماكن القوات، وأماكن وجود الحرس الجمهوري

لصدام، ومواقع الغرف الداخلية فى القصور الرئاسية. سكوت ريتير ليس فقط أحد المؤلفين الذين وصفوا الأحداث، ولكنه كان نائب رئيس هذه اللجنة الخاصة، التى يكتب عن عملها، يجب القول، أن صدام حسين بصراحة وعلنية عمل ضد اللجنة الخاصة للأمم المتحدة، لأنه بذلك كان يريد أن يقنع إيران بأن لدى العراق أسلحة نووية، وقد قال ذلك للمحققين فى أثناء المحاكمة، وقد عرف هذا بعد أن أصبح محتوى التحقيق معروفا بعد وفاته.

بذلت روسيا كل ما فى وسعها لكى تبعد صدام عن حافة الخطر، وحثه على التخلى عن سلوك توجيه الإنذارات للجنة الخاصة للأمم المتحدة، وفى نفس الوقت إدخال تعديلات مهمة على عمل وأعضاء اللجنة. وليس تقليلاً من تأثير روسيا، إلا أنه يجب القول إن صدام استمر يؤمن "بنجمه"، والعناية الإلهية، وأن الله سينقذه فى نهاية الأمر من الضربة!

كل هذا ظهر فى عام ١٩٩٧ عندما رفض العراقيون السماح للأمريكيين من أعضاء اللجنة الخاصة، بدخول إحدى المنشآت المرتبطة بعمل اللجنة، وتم تجميد عمل اللجنة الخاصة. لم يفقد صدام حسين تماسكه، على الأقل أمام الناس، لا فيما يخص قرار مجلس الأمن الذى أدان العراق، ولا حتى عندما استعرضت الولايات المتحدة الاستعدادات العسكرية، التى بدأت، بل أكثر من ذلك، تشدد فى موقفه وطالب بطرد المفتشين الأمريكيين من العراق فورا. كان صدام كثيرا ما يمارس سياسة خاصية "الأرجوحة"، فى البداية تصريحات جريئة، وأحيانا حتى عمل، ثم يتلوه تراجع. لكن عندما أصبح من الواضح أنه يضغط بشدة على الجرح الأمريكى، طارت من صدام العجرفة. وأنا كنت مشاركا فى الأحداث، التى أرويها بشكل أكثر تفصيلا.

فى أثناء تحايل صدام على اللجنة الخاصة، أصبح معروفا لنا، بلا شك، أن الأمريكيين مستعدون فقط لأن يقتصروا على استعراض القوة. وبنصيحة من وزير الخارجية الروسى، الذى كان أنا فى ذلك الوقت، أرسل الرئيس يلتسين فى ١٧ نوفمبر ١٩٩٧ رسالة إلى صدام حسين، سأعرض جزءا من هذه الرسالة "أنا قررت أن أتوجه إليكم شخصيا فى هذه اللحظة الحرجة. يعتمد عليكم عمليا الآن كيف ستتطور الأحداث فيما بعد فى بلدكم، أنا أدرك هذا جيدا، نحن نعمل كل ما فى وسعنا، لكى لا توجه ضربات

للعراق. لقد تحدثت اليوم الساعة ١٠.٠٠، هاتفيا عن ذلك مع الرئيس ب. كلينتون..... سأطلب منكم، ألا تعلنوا علنا فقط أن العراق لا يرفض التعاون مع اللجنة الخاصة، ولكن أن تقترحوا أيضا عودة المفتشين إلى العراق، للاستمرار فى عملهم العادى. الحقيقة أنا أعنى هنا عودة اللجنة الخاصة بأعضائها السابقين... وأود أن أطلب منكم أن تنظروا بجدية لرسالتى".

أخذ صدام بالفعل الرسالة مأخذ الجد، وفى نفس اللحظة سافر طارق عزيز إلى موسكو، حيث دارت معه مباحثات على مدى يومى ١٨ ـ ١٩ نوفمبر، حول خطوات دبلوماسية وسياسية محددة للخروج من الوضع الشديد التأزم الذى نشأ. فى الوثيقة التى وقعتها مع طارق عزيز، تم تسجيل، أن اللجنة الخاصة ستعود بكامل تشكيلها إلى العراق، لاستمرار عملها العادى. واتخذت القيادة العراقية قرارها فى هذا الشأن يوم ٢٠ نوفمبر، أى بعد يوم من مباحثاتنا فى موسكو. بالطبع أخذنا فى الاعتبار خصوصية اللحظة فى عمل اللجنة، والتى ذكرت من قبل، وللحفاظ على ماء وجه العراق أكدت الوثيقة أن روسيا، مصممة على إعطاء تكوين اللجنة الخاصة شكلا أكثر توازنا، والتزمت روسيا بأنها ستسعى لذلك فى الجولة القادمة من عمل اللجنة، بحيث لا تتعرض المقرات الرئاسية للتفتيش، وألا تقوم طائرة الاستطلاع الأمريكية من طراز يو ـ ٢ بطلعات فوق العراق شمال خط العرض ٣٢، قبل إعادة النظر فى تشكيل اللجنة الخاصة، فى نفس الوقت نصحنا بعدم القيام بأى عمل ضد هذه الطائرات.

ما إن عرفت بقرار العراق السماح بعودة اللجنة الخاصة، فى الوقت الذى كانت الإيدى على زناد آلة الحرب الأمريكية، اتصلت بى وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت، وكانت فى زيارة للهند واقترحت عقد اجتماع لوزراء خارجية الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الأمن، وقالت أولبرايت آخذة فى الاعتبار الموقف الخطير والاستثنائى "أنا على استعداد لقطع زيارتى". وفى ليلة ٢٠ نوفمبر جرى لقاء وزراء خارجية كل من بريطانيا، روسيا الاتحادية، الولايات المتحدة، فرنسا، وممثل عن وزير الخارجية الصينى.

بمجرد أن رأتني أولبرايت سألتني مباشرة: "يفجيني بماذا وعدت صدام؟". هدأتها عندما أجبتها، بأن كل الوعود كانت في إطار طلبات روسيا إلى الأمم المتحدة. كان من الواضح أنهم في واشنطن كانوا يخشون أن يكون قرار صدام حسين غير المتوقع، على حساب تنازلات للعراق غير متوافقة مع قرار مجلس الأمن. وتحدث البيان المشترك الصادر عن لقاء جنيف، أن المشاركين فيه "يرحبون بالمبادرة الدبلوماسية، التي قامت بها روسيا بالاتصال مع كل الأعضاء الباقين الدائمين في مجلس الأمن"، ودعموا جهود اللجنة الخاصة المنبثقة عن مجلس الأمن لعقد لقاء يوم ٢١ نوفمبر بهدف المناقشة والخروج بتوصيات حول طريق رفع كفاءة عملها، وتم التأكيد على أن توصيات هذه الدورة ستقدم لمجلس الأمن للحصول على موافقته عليها. وهكذا وبذلك الجدول المشحون بجهود روسيا، تم وقف توجيه ضربة للعراق.

غير أن صدام حسين سرعان ما عاد مرة أخرى إلى سياسية "الأرجوحة". ففي ٣١ أكتوبر ١٩٩٨ أعلنت القيادة العراقية عن وقف أعمال اللجنة الخاصة للأمم المتحدة، وبمجهود جبار من روسيا وفرنسا، والسكرتير العام للأمم المتحدة وحينها كان كوفي أنان، جرى منع اتخاذ إجراءات عسكرية ضد العراق. وفي ١٨ نوفمبر قرر العراق "استئناف التعاون مع اللجنة الخاصة، والسماح لها بالعمل العادي" لكن في نفس الوقت وضع عدة شروط. وبعد أن أعلن الرئيس كلينتون أنه غير راض عن مثل هذا القرار العراقي، جاء توضيح من بغداد، أن هذه لم تكن شروطاً، ولكن الرغبات غير المرتبطة "بالقرار الواضح وغير المشروط" والعراق سيستأنف التعاون مع اللجنة الخاصة للأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية. وكل هذا لم يساعد على تجنب الضربة، ووجهت ضربة للعراق.

عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي وأقيم تلك "اللعبة" الخطيرة التي كان يلعبها صدام حسين، والذي (كما اتضح بعد العملية العسكرية للولايات المتحدة عام ٢٠٠٣ - المؤلف) كان يدرك جيدا أن اللجنة الخاصة، لم تكن لتستطيع اكتشاف أي شيء في العراق، لأن العراق لم يكن يمتلك، ولم ينتج في ذلك الوقت أسلحة دمار شامل، من

الممكن أن نصل إلى استنتاج، أن صدام حسين كان يصعد الموقف عن قصد، مراهنا على أنه من الممكن تبادل المواقف بتخفيف عقوبات الأمم المتحدة على العراق. لكنه استطاع فعل هذا فقط لأنه كان يستبعد عملية أمريكية برية، كما اتضح من كلمات طارق عزيز، فالضربات من الجو لم تكن تخيفهم. مرة أخرى إيمان صدام بقدره، وكذلك الكلمات التى تروق له من المحيطين به من أنه "استراتيجى وتكتيكى عبقرى"، والثقة فى أن "لعبة" هكذا مع اللجنة الخاصة لن تنتهى بعملية أمريكية لإسقاطه.

الفشل والنهاية

التقيت صدام حسين قبل ثلاثة أسابيع من بدء العملية العسكرية ضد العراق عام ٢٠٠٣، عندما ذهبت الولايات المتحدة للنهاية، وغزت العراق وأسقطت نظامه. ذهبت إلى بغداد بعد حديث ليلى مع الرئيس بوتين، الذى كلفنى بإبلاغ رسالة شفهية عاجلة لصدام حسين. فكرة الرسالة تنحصر فى دعوته لترك منصب الرئيس، والتوجه للبرلمان العراقى باقتراح إجراء انتخابات ديموقراطية، وخوفا من احتمال أن يؤدى خروج صدام إلى حدوث فوضى فى العراق، كلفنى بوتين بأن أقول لصدام إنه من الممكن على سبيل المثال أن يحتفظ بمنصبه فى الحزب. بوصولى إلى بغداد، رفضت فى البداية لقاء طارق عزيز، لإدراكى أنه سيحاول معرفة تفاصيل مهمتى، لكن، وكما اشترط بوتين أن يكون اقتراحه موجها لصدام شخصيا، وإعطاؤه إمكانية أن يظهر كما لو كان القرار قد اتخذه بمبادرة شخصية، وقال بوتين عندما كلفنى بهذه المهمة، إن هذه من الممكن أن تكون آخر فرصة، لمنع الأعمال العسكرية الأمريكية ضد العراق.

تم لقائى بصدام على انفراد كما طلبت، وجها لوجه، لم يكن موجودا غير مترجم وزارة الخارجية الروسية، الذى وصل معى على نفس الطائرة. كان صدام حسين يكتب ما أقوله فى نوتة، لدرجة أن الأمل راودنى فى أنه سيقبل اقتراح بوتين. بعد ذلك سألنى صدام: هل من الممكن تكرار هذا، فى وجود طارق عزيز وممثل البرلمان العراقى،

الموجودين فى الغرفة المجاورة؟. فى وجودهم عرضت رسالة رئيس روسيا مرة أخرى. رد صدام كان فى صورة اتهام لبلادنا بأنها مرة أخرى تكذب عليه، كما حدث فى أثناء حرب الخليج، وزعم أننا قلنا حينها إنه إذا وافق على سحب قواته من الكويت، لن تكون هناك عملية برية ضد الجيش العراقى. من جانبى قلت بشكل ليس أقل حدة، إنه تباطأ فى اتخاذ قرار سحب القوات، حتى توجيه الإنذار الأمريكى، وحينها كان الوقت قد تأخر. عندما سمع صدام هذا ربت على كتفى بصمت، وخرج، وبعد خروج صدام قال طارق عزيز بصوت عال لكى يسمع صدام: "بعد عشر سنوات سنعرف من كان على حق، رئيسنا المحبوب أم بريماكوف".

هذه كانت آخر مقابلة لى مع صدام حسين، بدا فيها هادئا، ولديه ثقة لا أدرى من أين استمدها "لعشر سنوات" للأمام، ربما خلقها ليس فقط الوضع المحيط، ولكن أيضا تأثير المحيطين. كان من الممكن أن يكون هذا التأثير كبيرا جدا، فإحدى صفات شخصية صدام أنه لم يكن يسعى للحصول على معلومات موضوعية. من لقاءاتى معه، اقتنعت بهذا أكثر من مرة. ففى اللقاء الأول وفى قمة الأزمة الكويتية، أكد لى، وأعتقد أنه كان جادا فى اعتقاده، أن الجماهير العربية فى كل مكان ترحب بدخول القوات العراقية للكويت، والفلسطينيون كما لو أدركوا أن انتصارهم الآن أصبح وشيكا. القضية فى أن الخوف من نقمته عليهم، كان يجعل المحيطون يعطونه معلومات عن تلك الأحداث والعمليات، والاتجاهات، بما يؤكد "عمق بصيرة، وبعد نظر وعبقرية" الزعيم، ومن الواضح أنهم كانوا يتجنبون إعطاءه المعلومات السلبية حتى لو كانت هى الحقيقة. ربما كان لديه إمكانية التعرف على الصورة الواقعية، فى أثناء الأزمة الكويتية، من خلال لقاءاته مع الأجانب وبالدرجة الأولى مع الممثلين السوفييت، رغم أن هذه اللقاءات كانت قليلة جدا.

أنا لا أستبعد، أنه قبل العملية الأمريكية عام ٢٠٠٣، وصلت "إشارات تعطى الأمل" لصدام من الأجهزة السرية الأمريكية، من خلال أشخاص مقربين منه، وإذا حدث هذا بالفعل، فإن هذا يعنى أنه تم تنفيذ تدبير تقليدى نشط. على أى حال تبقى الكثير من الأسئلة، والتى عدم وجود إجابات عليها من الممكن أن تؤكد هذه الرواية التى

تقول لماذا لم يتم تفجير الجسور التى عبرت من فوقها الدبابات الأمريكية إلى بغداد؟ لماذا توقفت، فى لحظة، ليس فقط مقاومة الجيش العراقى، ولكن الحرس الجمهورى ذى الإعداد الجيد والقادر على القتال وفق تقدير الخبراء الأمريكيين؟ من أعطى الأوامر بوقف إطلاق النار؟ وأخيرا رواية القبض على صدام التى لم تكن تتطابق مع ما نشر، من أنه تم إخراجه من الحفرة، التى اختبأ فيها القائد العراقى، والذى أطلق لحيه طويلة، تكاد تصل إلى صدره. كل هذا لم يكن كما صوروه.

حتى عندما أسقط صدام حسين، وأصبح فى السجن، كان يعتقد أن "الولايات المتحدة تحتاج لخدماته"، وقد صرح بذلك فى لقاء له مع محاميه خليل الدليمى. وكرر المحامى كلمات صدام حسين، عن أنه "القائد الوحيد القادر على مقاومة النفوذ الإيرانى والتطرف الشيعى المتنامى، والولايات المتحدة يجب أن تستوعب "الواقع الصعب" فى المنطقة. إيران عدو العرب، والوحيد الذى يستطيع الانتصار على إيران، هو صدام حسين".

وفق كلمات المحامى، حتى طلب النيابة الحكم بالإعدام، كان موكله يعتبره محاولة للضغط من جانب الأمريكيين، الذين بهذا الشكل يحاولون الحصول على مساعدة من صدام حسين.

هل معقول أن الحياة لم تعلمه أى شىء؟

فى ٣٠ ديسمبر عام ٢٠٠٦، الساعة ٦,٠٥، تم شنق صدام حسين. تنفيذ الحكم، كان فقط عن الجزء الأول من الاتهامات كان للأغلبية الساحقة غير متوقع، فقد بدأ الجزء الثانى من نظر القضية، والذى وجهت فيه لصدام تهمة استخدام الغازات، التى كان نتيجتها قتل آلاف الأكراد. غير أنه، لم يتم انتظار الحكم فى هذا الجزء من جلسات المحكمة، وأنهوا حياة صدام حسين. ما سبب هذا الاستعجال؟ ممكن أن يتضح الأمر يوما ما. لكن حتى الآن من الممكن أن نقدم فرضيات فحسب، والبحث عن توضيح بواسطة التفكير المنطقى فى الأحداث.

تبين أن محاكمة صدام، ليس فقط بسبب قتله للشيعة، ولكن أيضا بسبب القتل الجماعي للأكراد كان في صالح إدارة بوش. فهذا بدرجة ما كان من الممكن أن يخفف من الانتقاد، من جانب هؤلاء الذين اكتشفوا عدم وجود علاقة بين العملية الأمريكية في العراق، والتأكيد على أن صدام يمتلك أسلحة نووية.

وتبين كذلك أن الإدارة الأمريكية، التي كانت تسعى لخلق ظروف ملائمة للخروج من "المأزق العراقي"، لم يكن يناسبها تماما تنبؤاتها السهلة عما سيأتي بعد إعدام صدام من تصاعد للصراع بين السنة والشيعة في العراق. وهذا الأمر كان من المفترض أنه مؤكد، وهو ما حدث بالفعل وفي الواقع. غالبا كانت الظروف حتى خارج العراق ملائمة للإعدام المتعجل لصدام، اعترض تقريبا كل شركاء الولايات المتحدة في أوروبا على تنفيذ حكم الإعدام، بما فيهم الشريك المقرب من الولايات المتحدة رئيس وزراء بريطانيا بلير. ولا يمكن أن يكون هناك وقت أسوأ من الوقت الذي اختير لتنفيذ الحكم العاجل على صدام. يوم العيد الأكبر عند المسلمين عيد الأضحى، وقبيل حلول العام الجديد.

كان تنفيذ الحكم قبل انتهاء محاكمته مفاجأة لصدام نفسه، ومن الممكن أن يكون السعي لعدم إعطائه فرصة ليقول كلمته الأخيرة التي كان بالتأكيد قد استعد لها، هو ما عجل بتنفيذ الحكم، فكل كلماته داخل جلسات المحكمة كانت "فواصل" مرتبطة بهذه الملاحظة أو تلك من الاتهامات، أو للرد على القضاة. لكن في كلمته الأخيرة والخاتمة، كان يمكن أن يقول الكثير. من الممكن أنهم أرادوا تجنب هذا، بالتحديد هؤلاء الذين اتضح أنهم أقل حسن نية من الديكتاتور نفسه، والذي كان واثقا من أنه يسيطر على اللعبة السياسية.

الفصل السابع عشر

المصيدة العراقية

ليس صدام حسين وحده هو الذى كان يقوده الوهم. ففى عام ٢٠٠٢، أصبح العراق هدفًا مشبعًا بوهم سياسة الولايات المتحدة. وأصبح محور السياسة الخارجية الأمريكية فى فترة حكم جورج بوش الابن، عقيدة الانفراد. بتعبير آخر، أخذت الولايات المتحدة على نفسها منفردة دور تحديد أى دولة تمثل خطورة على الأمن الدولى، ودون قرار من مجلس الأمن، وبمفردها تستخدم الضربات الوقائية ضد هذه الدولة بقواتها المسلحة. هذه العقيدة كانت من إنتاج المحافظين الجدد الأمريكيين، الذين أصبحوا ذوى تأثير غالب ومباشر على تحديد توجهات إيديولوجية السياسة الخارجية بعد الأحداث المأساوية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وعن "العقيدة الشرق أوسطية" للمحافظين الجدد، يشهد واحد من ممثليهم المعروفين، وهو ر. بيرل، عندما كان يعرض على زملائه فى البنتاجون وجهة نظره، فيما يتعلق باستراتيجية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وفتح خريطة، عليها كل فلسطين تسمى إسرائيل، بينما الأردن تسمى فلسطين. كان هذا فى أثناء رئاسة بوش الابن، حيث كان بيرل يشغل منصب رئيس مجلس السياسة الدفاعية. واحد آخر من المحافظين الجدد المعروفين، وهو نائب وزير الدفاع الأمريكى خلال الفترة من ٢٠٠١ و٢٠٠٥ ب. فولفوتس، صرح بضرورة إسقاط النظام الموجود فى العراق، لأنه يجب تحويل العراق إلى "أول ديموقراطية عربية"، وهو نفسه الذى طالب بضرب العراق ردا على العمل الإرهابى الذى ضرب الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. غير أن رأى هؤلاء الذين اختاروا أفغانستان للضربة وليس العراق هو الذى انتصر فى الإدارة الأمريكية.

فشل فى التبرير

خلافا للتفكير السليم، بدأ الهجوم الأمريكى على العراق فى ٢٠٠٣. وسرعان ما تلاشت تلك المبررات، التى أعلنتها الولايات المتحدة لتبرير عملها. وصمتت التصريحات الصاخبة للمسئولين الأمريكيين الرسميين عن أنه، بالتحديد الآن بعد احتلال العراق، سيجد الخبراء العسكريون، أدلة تثبت بلا شك، أن العراق إما كان لديه، وإما كان قريباً من امتلاك سلاح نووى، وكان ينتج أيضا أسلحة دمار شامل أخرى، كيميائية وبيولوجية. ثم استبدلت بهذه الأصوات تصريحات رسمية، إذ لم يتم العثور على أى أسلحة دمار شامل فى العراق، وأن اللجنة التى كان يجب أن تجد أسلحة الدمار الشامل من الخبراء العسكريين الأمريكيين تم حلها.

يمكن الاعتقاد بأن كل إمكانيات الاستخبارات الأمريكية تم تفعيلها، لكى تؤكد اتهامات أخرى ضد العراق، استخدمت لتبرير عملية الولايات المتحدة العسكرية هى، "علاقة بغداد بالإرهاب الدولى"، وأعلنت شخصيات رسمية على مسمع من الجميع عن العلاقات الوثيقة التى بناها العراق مع "القاعدة". هؤلاء كما هو معروف ليسوا مجردين، ولكن التهم لم تصمد للتلامس مع الواقع. ولم يكن شخص آخر غير مدير المخابرات الأمريكية هو الذى تحدث أمام لجنة استماع فى الكونجرس الأمريكى وصرح بأنه لم يكن للعراق أى علاقات مع بن لادن ومنظمته. معنى آخر، وهكذا اتضح أن السبب الآخر لدخول الولايات المتحدة العراق مجرد فقاعة صابون.

فى غضون ذلك، العملية الأمريكية نفسها، موضوعيا، ساعدت على توسيع النشاط الإرهابى، لقد خلق الوضع الذى نشأ فى العراق بعد احتلاله تربة خصبة لتحويل هذا البلد إلى مركز دعم "للقاعدة"، التى نشطت ضد بعض الأنظمة العربية وغير العربية فى نفس الوقت، العربية السعودية وتركيا والكويت. فالإرهاب الدولى يعمل دائما على أساس "الأوعية التى تنقله"، أفغانستان والبلقان والشيشان، وهذه المرة رأس الجسر أصبح العراق، حيث تسرب آلاف المقاتلين من منطقة القبائل الواقعة بين أفغانستان وباكستان.

بعد الفشل فى روايات توصل العراق سرا لامتلاك أسلحة دمار شامل، وعلاقته مع القاعدة، أصبحت الولايات المتحدة، أكثر فأكثر، تبرر عملها بسعيها لنشر الديموقراطية، ليس فقط فى هذا البلد، ولكن بصفة عامة فى كل الشرق الأوسط الكبير. ومن هذا يفهم أنهم يسعون لنشر النموذج الأمريكى للديموقراطية، الذى ليس له بصفة عامة أى شىء مشترك، لا تاريخى ولا مع التقاليد الدينية، ولا مع الوضع الاقتصادى ـ الاجتماعى، ولا طريقة تفكير الشعوب العربية. بالطبع، لا يفصل الشرق الأوسط حائط عن بقية العالم. وهو بالطبع أصبح هدفا، وبفضل التقدم التقنى يتعرض لتأثير هبوب رياح الديموقراطية العالمية عموما. لكن هذا ليس له علاقة بالسعى "لتمشيط" الشرق الأوسط، وأجزاء أخرى من العالم، بواسطة "الأمشاط الديموقراطية" الأمريكية. بالمناسبة عن بعد، تظهر أخطاء الديموقراطية الأمريكية نفسها، وعدم جدوى تطبيقها فى كل مكان، كما هو واضح من النماذج الديموقراطية للدول الأخرى.

لقد اصطدم العالم بظاهرة، عندما تتهم دولة دولة أخرى، بأنها بنت عندها نظاماً معادياً للديموقراطية، وحتى دون اتهام، ولكن تتدخل هى بمفردها بقوة السلاح فى الوضع الداخلى، وتسقط النظام، الذى لم يقف على عتباتها، طالبا الرضى.

أنشأ السكرتير العام للأمم المتحدة عام ٢٠٠٤ ما يسمى "بمجموعة الحكماء"، مطلوب منها تقديم نصائح لمواجهة التهديدات، بما فيها تلك التى تنطلق من الأوضاع داخل الدول نفسها، وتم ضمى لهذه المجموعة المكونة من ١٦ شخصًا، اختارهم السكرتير العام. وقد توصل أعضاء "مجموعة الحكماء" بالإجماع إلى رأى حول ضرورة مواجهة العمليات السلبية، مثل القتل الجماعى للمدنيين، والسعى الحثيث لامتلاك أسلحة نووية، وإمكانية إعطائه فى المستقبل للمنظمات الإرهابية وإعطاء الأنظمة الحاكمة أراضيها لتتمركز فيها منظمات الإرهاب الدولى. غير أن وجود تهديد داخل الدولة، فإنه يجب استكشافه ليس عن طريق دولة واحدة مهما كانت، ولكن مجموعة دول وعن طريق مجلس الأمن. وتحديدا، مجلس الأمن هو الذى يجب أن يحدد الإجراءات للتخلص من هذه التهديدات.

يجب فصل النافع عن الضار، والنظر إلى الأوضاع داخل البلاد من ناحية تهديدها للسلام والأمن، هذه واحدة. أما محاولة فرض هذا النموذج أو ذاك على الدول الأخرى، لبناء الدولة أو المجتمع، فهذا شيء آخر تماما.

من المعروف جدا أن التروتسكيين، فى وقتهم، أنهم كانوا يعتقدون أنه ليس فقط ممكنًا، ولكن من الضرورى تصدير الثورة لأى بلد، بصرف النظر ما إذا كانت هناك ظروف مواتية لتطور العملية الثورية أم أن هذه الظروف غير موجودة. وفى الوقت الحاضر هناك من يعمل مثل التروتسكيين، هؤلاء الذين يفترضون أنه يمكن تصدير الديموقراطية إلى أى دولة، بصرف النظر عن الظروف الموجودة فى هذا البلد، وتاريخها، وعاداتها، وشكل الأفكار، والتفكير ونمط الحياة.

نتائج العمليات

ما الذى تم إحضاره للعراق فى واقع الأمر، لقد أظهرت ما يقرب من تسعة أعوام من الاحتلال الأمريكى أن العلاقات السنية ـ الشيعية تحولت إلى صدامات دموية دون توقف. ونتيجة الأعمال العسكرية للولايات المتحدة، والصراع الداخلى بين الطوائف وبعضها، قتل أكثر من مليون مواطن عراقى، وغادر البلاد ما يقرب من خمسة ملايين، ومازالت تسمع أصوات الانفجارات التى تقتل العشرات فى شوارع المدن العراقية حتى اليوم.

وتجرى عملية أسلمة لمؤسسات الدولة، تشغل الأحزاب الشيعية ذات الطابع الدينى المناصب القيادية فى حكومة بغداد وفى البرلمان. لقد كان العراق دولة علمانية، ولا أريد بأى حال الدفاع عن نظام صدام حسين الذى ارتكب أخطاء وجرائم كثيرة، ولكن لم يستطع أحد أن يتهمه بأنه أقام نظاما دينيا فى البلاد. لقد سار العراق بعد الاحتلال الأمريكى فى اتجاه أن يصبح دولة تدار وفق النموذج الإسلامى، الإسلام أحد الأديان العالمية، ويؤمن به جزء كبير من سكان الكرة الأرضية، وله إسهامات كبيرة فى

الحضارة الإنسانية، لكن عندما تبنى الدولة على أساس دينى فى الظروف الحديثة، بصرف النظر عن أن هذا إسلام أو مسيحية أو يهودية، وكل أفرع السلطة يتم قيادتها بمفاهيم دينية، فهذه بالطبع ليست خطوة على طريق الديموقراطية.

بالإضافة إلى ذلك، قبل الاحتلال الأمريكى كان العراق دولة موحدة بما يكفى. ولفترة طويلة كانت المشكلة الكردية قائمة وكان الأكراد فى الشمال يطالبون بالحكم الذاتى وحصلوا عليه، لكنهم استمروا فى الحرب، لأنهم كانوا غير راضين عن بعض شروط تنفيذ الحكم الذاتى فى الواقع. لكن فى نفس الوقت لم يعلن الأكراد العراقيون عن أنهم يهدفون من نضالهم إلى الانفصال عن الدولة العراقية. بعد الاحتلال الأمريكى، أصبح العراق على حافة التقسيم إلى أجزاء. يفجر الشيعة والسنة مساجد بعضهم بعضًا، وصداماتهم تحدث على أساس دينى. للحقيقة حدثت انتفاضة شيعية فى السابق، لكنها كانت ضد النظام، أما الآن فالصدامات تحدث بين الشيعة والسنة على أساس مذهبى، وهذا يخلق وضعًا مبدئيًا مختلفًا.

يريد الشيعة أن يحصلوا على دولة ذات حكم ذاتى فى جنوب البلاد، وهذا سينعكس بشكل سلبى للغاية، ليس فقط على العراق، ولكن سيضعف تلك القوى التى تسعى لدمقرطة المجتمع الإيرانى، فى الجارة إيران.

حصلت المشكلة الكردية على إشارات جديدة فى تطورها. فقد أيد الأكراد الولايات المتحدة عندما دخلت بقواتها للعراق. لكن الأكراد سياسيا ليسوا وحدة واحدة، ويمكن أن يكون أهم شىء فى شمال العراق أن المزاج الانفصالى يشتد. وإذا تم إقامة دولة قومية كردية، رغم أن هذا يبدو عادلاً، فإنه سيحدث تغييرا جذريًا فى الخرائط، وأعلن الأتراك أنهم حينها سيدخلون بقواتهم إلى شمال العراق. وحتى إذا قنع الأكراد بالحكم الذاتى، فإنهم يطالبون بضم منطقة كركوك بحقولها الغنية بالنفط إلى منطقة الحكم الذاتى، وهذا سيخلق صدامًا مع الجزء العربى من السكان.

انطلقت الولايات المتحدة عندما فكرت فى العملية العراقية، من أن الشعب العراقى سيرحب بقوات الاحتلال، كقوة محررة. لكن فى واقع الأمر تحول "الترحيب" إلى المقاومة المسلحة، التى أخذت طابعا ثابتا. وعلى ما يبدو أن الشعب العراقى اعتقد أن نظام الاحتلال الأجنبى المسيطر فى البلاد شر كبير بالنسبة للنظام الذى كان سائدا فى بغداد. واعتقد الأمريكيون أن اعتقال صدام حسين سيقلل من المقاومة، ولم يحدث هذا. وهذه شهادة أخرى على أن الذى يقاوم الاحتلال بشكل رئيسى ليسوا أتباع النظام الذى سقط، ولكن طبقات واسعة من السكان لا تقبل الاحتلال الأجنبى.

حدث كل هذا نتيجة العملية الأمريكية المغامرة فى العراق. وقد أتيحت لى إمكانية الحديث مع كونداليزا رايس، قبل بداية العملية العسكرية فى العراق بثلاثة أشهر، وكانت تشغل منصب مساعد الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى، وقلت لها: "بدخولكم العراق سترتكبون خطأ تاريخيًا". فأجابتنى "لا تقلق، أولاً القرار السياسى لم يتخذ بعد، وثانيا، إذا قررنا أن نضرب، فإننا فكرنا فى كل شىء جيدا".

ولم يأخذوا فى اعتبارهم أى شىء. فعندما دخل الأمريكيون العراق، فى حقيقة الأمر أحضروا معهم إلى هذا البلد النموذج الألمانى، الذى طبق بعد انهيار نظام هتلر، فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وكما هو معروف، تم حظر الحزب النازى، وهذا صحيح تماما. وفى العراق أعلن عن حظر حزب البعث ذى المليونى عضو، وهو الحزب الوحيد الذى كان يضم الشيعة والسنة والعرب والأكراد، وحوالى ٨٠ ـ ٩٠٪ من أعضائه كانوا أعضاء دون أى مفهوم إيديولوجى، ولكنهم أعضاء من أجل الترقى الوظيفى فقط. وبفصل المجموعة الصغيرة، التى كان لديها أيضا استعداد أن تقطع صلاتها بماضيها السياسى، كان من الممكن أن يكون هذا الحزب قوة داخلية، تعمل على تحقيق الاستقرار، وهذا ما لم يفعل. وقاموا بحل الجيش والشرطة، ثم بدأوا يجمعونهم مرة أخرى، لكن فى وضع الفرص الضائعة.

المآزق السياسية والعسكرية

كانوا على الأرجح فى البيت الأبيض ينطلقون من أن بناء عراق ما بعد الحرب لن يمثل متاعب خاصة. فى البداية تم الرهان على المهاجرين السياسيين، الذين هجروا البلاد فى أثناء وجود نظام صدام حسين، وراهنوا على أنهم سيقودون أجهزة الدولة التى ستحقق استقرار الأوضاع. عاد المهاجرون السياسيون، غير أنهم ركزوا على الصراع فيما بينهم، واتضح أن دورهم فى قيادة البلاد ضئيل، لأنه لم يكن لديهم دعم جماهيرى.

وعندما أصبح واضحا أن المهاجرين الذين عادوا "لم يحققوا المرجو منهم"، والمقاومة ضد قوات الاحتلال فى تلك الفترة اعتمدت على "المثلث السنى"، بمساعدة الشيعة العراقيين. لقد تعرض سكان العراق من الشيعة، الذين يمثلون الأغلبية، فى أثناء حكم صدام حسين لتمييز حقيقى، ولهذا كان الأمريكيون يراهنون على دعم الشيعة، تلك القوة التى أسقطت نظام صدام حسين. إلا أنه كما اتضح لم تكن الأمور بهذه البساطة، فبين السكان الشيعة تنامى التشدد تجاه الاحتلال الأجنبى، وظهر هذا جليا فى انتفاضات شيعية مسلحة بزعامة مقتدى الصدر فى الفالوجا والناصرية.

وعبر عملية ثقيلة، تم إقرار دستور مؤقت، وأجريت انتخابات برلمانية، ثم تشكيل حكومات، مؤقتة ودائمة، وأنشئ هيكل واضح لما ستكون عليه مؤسسات السلطة، غير أن هذه المؤسسات تقف على أساس مترنح، فالعنصر السنى، الذى يشكل ٢٠٪ من تعداد السكان (بدون الأكراد الذين فى أغلبيتهم سنة - المؤلف)، وجدوا أنفسهم مستبعدين من السلطة. فى حالة إقامة دولة فيدرالية، فإن السنة، الذين يعيشون أساسا فى مناطق وسط العراق، سيحرمون من الثروة النفطية للبلاد، حيث تقع حقول النفط فى الجنوب والشمال.

فى غضون ذلك، هناك شخصيات مهمة فى الولايات المتحدة لا تتحدث حتى لصالح الفيدرالية، ولكن لصالح الكونفيدرالية فى العراق، أى عمليا تقسيم البلاد. نائب الرئيس الأمريكى حينها عندما كان سيناتور (وقتها كان يرأس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ - المؤلف)، دافع بشدة عن فكرة إقامة دولة كونفيدرالية

فى العـراق، تشمــل دولة شيعـية وأخـرى سنية، وكردية، مع حكومة مركزية شكلية فى بغداد.

كيفية الخروج من الوضع الحالى فى العراق؟

فى البداية قرر الرئيس جورج بوش الابن قطع عقدة الكبرياء العراقى بمساعدة نشر قوات الاحتلال، ونشرت "الاستراتيجية الجديدة"، التى وفقا لها تم إرسال قوات إضافية قوامها ٢٢ ألف جندى وضابط أمريكى، وذلك لكى يسيطروا على بغداد والمناطق التى أصبحت حصونًا لمقاومة قوات الاحتلال بشكل أكثر كثافة. لكن سرعان ما اتضح أن "الاستراتيجية الجديدة" غير قادرة على إحداث تغيير جذرى فى الوضع فى العراق. وفى نفس الوقت أدى تنشيط قوات الاحتلال إلى تنامى الخسائر الأمريكية فى الأرواح.

صرحت لجنة بيكر ـ هاميلتون الخاصة بضرورة سرعة الإعلان عن فترة خفض وسحب القوات الأمريكية، وبدء المفاوضات مع إيران وسوريا، اللتين تستطيعان تسوية الأوضاع فى العراق. أيد توصيات هذه اللجنة الكثير من الخبراء السياسيين. فمن المعروف على نطاق واسع، أن ج. بيكر من أكثر وزراء الخارجية الأمريكيين ديناميكية، وكان الذراع اليمنى للرئيس بوش الأب. وربط بيكر ـ هاميلتون معا كان يرمز لمدخل الحزبين الجمهورى والديموقراطى. وأخيرا، على ما يبدو، لعب دورًا مهمًا كذلك فى إعداد التوصيات، كما أعتقد أحد أفضل العارفين بمنطقة الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة، هو السفير إ. جاريجان، والذى يرأس قسم الشرق الأوسط فى صندوق بيكر. لكن بوش الابن تجاهل توصيات لجنة بيكر ـ هاميلتون.

أدى الوضع المتأزم الذى آلت إليه السياسة الأمريكية فى العراق إلى تغير حاد فى الرأى العام ضد بوش، إلى الاستقالة الاضطرارية لأحد مؤيدى العمل الأحادى (العمل الأحادى ينحصر فى إعطاء الحق للولايات المتحدة التدخل فى هذه الدولة أو تلك

دون قرار من مجلس الأمن - المترجم) المتعصبين وهو رامسفيلد، وترك عدد من المحافظين الجدد مبتكرى هذا التصور مناصبهم، مثل فولفوفيتس وبيرل.

فى ٢٣ أغسطس ٢٠٠٨، أعلن مدير هيئة الاستخبارات القومية الأمريكية ما عرف باسم "التقييم الاستخباراتى القومى"، عن الأوضاع فى العراق " تطور الأحداث فى المجال السياسى والأمن فى العراق - يركز التقرير- كما كان فى السابق؛ يحدد قبل أى شىء مخاوف الشيعة من فقدان الغلبة السياسية، وعدم الرغبة العنيدة للسنة فى أن يعترفوا بوضعهم سياسيا من الدرجة الثانية، والمنافسة مع مجموعات كتل متعصبة، تتحول إلى نزاعات مسلحة، وزحف للتشكيلات المتطرفة، مثل "القاعدة فى العراق" والمقاتلين المقربين من جيش المهدى "الذين يحاولون دعم الاعتداءات من جانب المتعصبين". هذا التقييم يمكن اعتباره اعترافًا بالفشل الكامل لسياسة الولايات المتحدة خلال فترة احتلالها للعراق.

نجحت الولايات المتحدة على الأرجح فى شىء واحد فى مجال الأمن، طوال فترة الاحتلال، وهو أنها منعت أو على الأرجح أوقفت فى اللحظة الآنية اتحاد السنة مع "القاعدة". ونتيجة مفاوضات سرية مع تحالف قادة القبائل السنية فى محافظتى الأنبار ونينوى، أنشأت تشكيلات مسلحة، لتنظيف أراضى هذه القبائل من مقاتلى "القاعدة". ولم تبخل القيادة الأمريكية على تنظيم هذه العملية، لا بالسلاح الخفيف، الذى سلم للقبائل، ولا بالأموال ولا بالوعود بأن ممثلى الطائفة السنية سيشغلون أماكن لائقة فى بنيان السلطة العراقية. وصلت الأمور لدرجة أن مدير الاستخبارات القومية د. نيجروبونتى، الذى وصل إلى بغداد، أعلن عن إمكانية عودة "كوادر عصر صدام" إلى الخدمة فى الأجهزة الأمنية (أغلبهم من السنة - المؤلف) وذهب لأبعد من ذلك، حيث قام نيجروبونتى بإعطاء إشارة لاسترضاء السنة، عندما أصر على خلع شهوانى الشيعى من منصب رئيس الاستخبارات العراقية. فى هذا الخصوص يجب أن نشير إلى أن

الهيئة التى كان يرأسها شهوانى أسستها المخابرات الأمريكية بعد احتلال العراق، خصيصى للعمل ضد المقاومة السنية.

وهكذا تم التضييق على مقاتلى "القاعدة" فى المثلث السنى، لكن هذا لم يؤد إلى تغييرات فى بنية السلطة العراقية لمصلحة السنة.

وعلى الرغم من أنه فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة التى جرت عام ٢٠١٠، حصل تكتل "العراقية" المكون على أساس غير دينى والذى يرأسه رئيس الوزراء العراقى المؤقت السابق إياد علاوى، على أعلى الأصوات، فإن ائتلاف الأحزاب الشيعية احتفظ بالسلطة، وبقى نورى المالكى رئيسا للوزراء.

غير أنه هل يجب أن ننظر إلى الوضع فى العراق من خلال الشكل فقط، والمتمثل فى التناقض الشيعى ـ السنى، والعربى ـ الكردى، إن هذا يعنى أنه توجد وحدة بين الشيعة، بما فى ذلك داخل الائتلاف الشيعى الكبير، الذى يحدد سياسة الحكومة. فرئيس الوزراء نورى المالكى لا يستطيع القول أنه يعتمد على دعم كامل وغير مشروط من الزعيم الروحى للشيعة آية الله على السيستانى، ولا نتحدث عن دعم أتباع الزعيم الشيعى الشاب الصدر، الذى يقف خلفه "جيش المهدى". فقد وصلت الأمور إلى معارك دموية داخل الشيعة أنفسهم.

غياب الوحدة صفة مميزة للوضع السنى أيضا، فالجزء الأكبر يميل إلى تأييد البعثيين الذين يوسعون من مجال تأثيرهم. من الممكن أن يعتقد البعض أن كل أعضاء حزب البعث الذين يعملون تحت الأرض هم فى معسكر صدام حسين، هذه الرؤية تبسيط للأمور. بين البعثيين بدأت تظهر بالتدريج قيادة جديدة، مهتمة بكيفية إدارة البلاد بعد خروج قوات الاحتلال، وهى مدركة أن إعادة نظام صدام غير ممكن، ولا يحقق متطلبات العراق فى الوقت الحالى.

ومع أن كل الاستنتاجات السياسية لا تؤدى لنتيجة واحدة فيما يتعلق بتكتيك واستراتيجية توجهات الأحزاب العراقية الرئيسية، فإن كفة الميزان كما فى السابق

تميل ناحية تأثير إيران الكبير، إذا لم نقل، إنها تحدد الوضع الداخلى فى العراق.

يوم ١٥ ديسمبر ٢٠١١ قام وزير الدفاع الأمريكى ليون بانيتا بإنزال علم القوات الأمريكية، وأعلن عن انتهاء العملية الأمريكية فى تلك العراق. والرئيس أوباما ألقى خطاباً فى قاعدة عسكرية بشمال كارولينا، قال إن الولايات المتحدة "تترك العراق دولة ذات سيادة، مستقرة، ومكتفية ذاتيا".

من الصعب أن نفترض، أن العراق سيستطيع خلال عدد كبير من الأعوام أن يحظى بالاستقرار والهدوء بعد انتهاء الاحتلال، لقد بلغت الفوضى لدرجة أن العراق أصبح غارقا فيها منذ عام ٢٠٠٣.

السؤال المتجذر ينحصر فى الآتى: هل تستطيع الولايات المتحدة، التى فشلت فى سياسة احتلال العراق، أن تخرج هذا البلد من هوة الإرهاب السحيقة، الإجابة على هذا السؤال تبقى معلقة وبدون إجابة.

الفصل الثامن عشر

الملحمة الكردية

تبقى المشكلة الكردية إحدى المشكلات الرئيسية فى العراق. وأعتقد أنه يجب التعمق فى جوهرها بعض الشىء، خاصة وأنه أتيح لى متابعتها من مسافة قريبة بما فيه الكفاية وكنت أنا الصحفى السوفييتى الأول، الذى التقى قائد حركة التحرر القومية الكردية الملا مصطفى البرزانى عام ١٩٦٦، بعد أن قطع علاقته مع بغداد مرة أخرى، وأخذ شمال العراق، كردستان، تحت سيطرته. واندلعت الأعمال العسكرية بين القوات الحكومية والأكراد من جديد فى تلك الفترة، مرة تنخفض وتيرتها، ومرة تشتد.

كان ذهابى إلى شمال العراق، يدخل فى إطار الخط الذى بدأت موسكو تنتهجه، عندما أصبح شقيق عبد السلام عارف، الذى قضى فى حادث سقوط طائرة، رئيسا، والذى لم يكن متورطا فى أحداث دموية ضد قوى اليسار. ومع الأخذ فى الاعتبار أهمية العراق بوصفها منطقة نفوذ للاتحاد السوفييتى، فقد تم اتخاذ عدد من الخطوات للتقارب مع القيادة العراقية الجديدة. وقد أعطيت أهمية ليست بالقليلة لمحاولات إحداث التقارب بين بغداد والمتمردين الأكراد، الذين سيطروا عمليا على شمال العراق. كانت موسكو مهتمة بحل المشكلة الكردية بالطرق السلمية.

من هو الملا مصطفى البرزانى ؟

جعلت خصوصية الموقف، والعلاقات الودية القديمة التى كانت قائمة مع قائد حركة التحرر الوطنى الكردية الملا مصطفى البرزانى، الاتحاد السوفييتى يتمتع بأفضلية فى هذا الصدد.

المثير للاهتمام هو تاريخ هذا الشخص. فعندما كان طفلا صغيرا فى عام ١٩٠٥، أودع الملا مصطفى البرزانى السجن مع والدته، عندما قاد شقيقه الأكبر انتفاضة ضد السلطات التركية. وانخرط فى النضال وهو مازال صبيا ١٩١٤ ـ ١٩١٦. وفى عام ١٩٣١ شارك إلى جانب أخيه الشيخ أحمد فى القتال لطرد جنود الحكومة العراقية من أراضى قبيلة البرزانى. وبمساعدة سلاح الجو الإنجليزى فقط، تم إخماد ثورة الأكراد. وقع الملا مصطفى فى الأسر، قضى أحد عشر عاما فى المنفى. وفى عام ١٩٤٣، عاد سرا إلى منطقته وبدأ النضال من جديد، وحقق نجاحًا، حيث قبل نورى السعيد رئيس الوزراء العراقى آنذاك شروط الأكراد. لكن بعد عامين وبمساعدة الإنجليز وجهت ضربة لمعسكرات البرزانى.

فى أثناء الحرب العالمية الثانية أنشئت جمهورية مهاباد الكردية، شغل فيها الملا مصطفى البرزانى منصب وزير الحربية. وبعد انتهاء الحرب وخروج القوات السوفييتية من إيران، تم تدمير الجمهورية. قام برزانى ومعه ٥٠٠ مقاتل، بشكل أساسى من قبيلة برزانى، بعبور حدود إيران مع الاتحاد السوفييتى. وتم نزع أسلحة المقاتلين الأكراد، واستقر بعض منهم فى أذربيجان، وآخرون فى وسط آسيا، بينما عاش البرزانى فى الاتحاد السوفييتى باسم ماميدوف. لم يعلن عن إقامته هو ومقاتليه من قبيلته، كما أنه لا هو ولا أحد ممن عبروا الحدود معه ووجدوا أنفسهم فى بلادنا خدم فى القوات المسلحة السوفييتية. وهكذا تكون الإشاعات التى انتشرت عن أن برزانى كان جنرالاً فى الجيش السوفييتى تظل محض كذب من البداية للنهاية. إلا أن الإشاعات هذه، كانت مرتبطة بحادثة، رواها لى فيما بعد البرزانى نفسه. فعندما كان فى موسكو اشترى من محل للملابس العسكرية (فى ذلك الوقت كان هذا ممكنا ـ

المؤلف) زى جنرال، والتقطت له صورة مرتديا هذا الزى، ووصلت الصورة للمخابرات الإنجليزية، هذا كل ما حدث.

حدثت الانكسارات فى حياة برزانى والمحيطين به بعد وفاة ستالين. وهذا ما سجلته من روايته كان البرزانى يتحدث اللغة الروسية، لكن، ليس بشكل جيد، ولذلك عندما كتبت (أعدت صياغة الرواية باللغة الفصحى ـ المؤلف): "ذهبت إلى بوابات سباسكى بالكرملين، وصرت أطرقها. هرع إلى ضابط، جميل متناسق، ذو عينين رماديتين، وسألنى: لماذا تطرق الباب؟ فأجبته إن من يطرق أبواب الكرملين ليس البرزانى، ولكنها الثورة الكردية". استقبل البرزانى وفق كلماته ج. م. مالينكوف، وبعد أن جلس معه أرسله إلى المدرسة الحزبية العليا للدراسة، وتم قبول أبناء قبيلته فى معاهد متوسطة مختلفة، وعاشوا كلهم فى الاتحاد السوفييتى ١٢ عاما. وبعد انتصار الثورة العراقية عام ١٩٥٨، عاد البرزانى للعراق، وأصبح نائبا لرئيس الجمهورية العراقية نظرا لاهتمام السلطة الجديدة بقيادة عبد الكريم قاسم بالوحدة مع الأكراد. غير أن العلاقات ساءت من جديد، وذهب البرزانى إلى كردستان فى شمال العراق، واندلعت من جديد حرب دموية بين بغداد والأكراد.

اشتدت الحرب فى أثناء حكم عبد السلام عارف، واستمرت حتى الأوقات الأولى من حكم أخيه عبد الرحمن. فى يوليو عام ١٩٦٦، اتفق الرئيس الجديد عارف والبرزانى على السلام. وهدأت الحرب الكبيرة، رغم استمرار بعض الصدامات المسلحة. فى هذه الظروف وفى أثناء وجودى فى القاهرة، حيث يوجد مركز مراسل صحيفة "البرافدا"، وصل أمر من رئاسة التحرير، أن أذهب إلى شمال العراق.

لم يكن البرزانى معزولاً. كان من الممكن الحديث معه، بما فى ذلك الصحفيون، لكن كان الجميع يعبرون إلى شمال العراق من خلال إيران. أنا لم أستطع أن أسمح لنفسى بتخطى السلطات العراقية الرسمية، فقد كان هذا سيعتبر غير مثمر، مع الأخذ فى الاعتبار سعينا لإحداث تقارب بين البرزانى وبغداد.

في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦، استقبلني الرئيس عارف. وقبل ذلك حصلت على إجابات مكتوبة على أسئلة مقابلة صحفية، كان من المفروض أن تنشر في صحيفة "البرافدا". ذكر عارف أن إحدى المشاكل العاجلة، تطبيع العلاقات مع شمال العراق. معتمدا على هذا التصريح، قلت لعارف، ألم يحن الوقت لأن يتوقف وصول الصحفي السوفييتي إلى كردستان العراق عبر إيران، رغم أننا نعتقد أن المنطقة الكردية جزءًا لا يتجزأ من العراق. يبدو أن هذه الحقيقة أثرت، وأعطى عارف موافقة مبدئية، بإرسالي إلى وزير الدفاع العراقي لتنظيم "تسليمي" للأكراد. في نهاية الأمر كل التفاصيل كانت محسوبة، وسافرت إلى الشمال بصحبة ضابطين من الجيش العراقي، وسيارة مدرعة يستقلها جنود. أحد الضباط المرافقين حسب ما أخبروني في السفارة كان شقيق وزير الدفاع العراقي، والثاني كما عرفت بنفسي عند التوقف حيث تبادلنا النكات مع المترجم الذي كان يرافقني، وهو موظف شاب من سفارتنا في بغداد اسمه ساشا زوتوف، رقي فيما بعد ليصبح سفيرا في سوريا، هذا الضابط لم يستطع أن يسيطر على نفسه عن الضحك، وفهمنا أنه يجيد اللغة الروسية بامتياز. وفقط في أثناء عودتنا، وفي رد على مخاطبته، لا داعي لأن نلعب كما يقولون لعبة الصمت، فهو يفهم اللغة الروسية بامتياز، وعندما بقي الملازم بمفرده معنا في السيارة قال بالروسية "إذن حسنا، كفى تظاهرًا بعدم الفهم".

اتصلنا بالأكراد عن طريق جهاز اللاسلكي، فطالب هؤلاء بقطع الطريق على السيارة المصفحة، لكنهم سمحوا للضباط، وذهبنا لمقر قيادة البرزاني الشتوي، الذي لم يصل إليه أحد من ممثلي بغداد.

وها نحن في كردستان، لم أستطع السيطرة على التراجع الوجداني الذي اجتاحني، في هذه الأماكن الأسطورية في جمالها، يعيش شعب أبي، محب للحرية، هم الأكراد، الذين كما يطلقون عليهم أحيانا "فرسان الشرق". لديهم ما يفتخرون به، ويكفيهم أن صلاح الدين الكردي لم يهزم من الصليبيين. لم يجلب لهم السعادة كثيرا

حقيقة أن رئيس الوزراء نورى السعيد كان كردياً. لكن يا لها من طبيعة! الجبال تصل إلى السماء، تدفق المياه العاصف، محدثا صوتا من كثرتها. وأى تناغم شجاع بين الأزهار والقمم الثلجية البيضاء، والأحجار البرونزية الساطعة، والسجادة الخضراء الداكنة من الطحالب المفروشة تحت الأقدام ويبدو كأن جلاميد ضخمة ألقى بها خصيصى على الطحالب، لكى لا تحمل الرياح هذه السجادة. بميل موازٍ للأرض تقريبا عيدان أشجار متساوية ممتدة، لا يدرى أحد كيف تستقر هكذا.

تسير السيارة فى طريق ضيق، ونخرج من ممر ضيق يسمى شعاب غالى على بك طولها اثنا عشر كيلومتراً. ثم مفترق طريق، إلى اليمين الطريق إلى راوندوز، وإلى اليسار إلى ديانا، وإلى الأمام الطريق إلى حاج عمران، الذى يصل إلى الحدود الإيرانية نفسها. نحن نتحرك إلى الأمام، تسمح آخر دورية للجيش العراقى للسيارة بالمرور، بعد ذلك لا يوجد أى جندى عراقى، ولا أى موظف حكومى. هذه المنطقة تحت سيطرة فصائل الملا مصطفى البرزانى.

جاء للقائنا سيارة ويليز، بها ثلاثة أفراد مسلحين، عضو اللجنة المركزية للحزب الديموقراطى الكردستانى سامى، مكلفا من برزانى والسائق، فوق ركبتيه بندقية آلية، ترحيب، ثم تتحرك الويليز إلى الأمام، لترشدنا للطريق. بعد ذلك إلى الملا مدق ضيق بين أحجار رأسية، وهاوية. وفق كلمات سامى عدد قليل من البشمركة (هكذا يسمى المتمردون الأكراد ـ تعنى "الشخص الذى ينظر فى وجه الموت" ـ المؤلف) يمكنهم التصدى فى هذا المكان لوحدات عسكرية كاملة.

استقبلنى البرزانى مع ولديه إدريس ومسعود. مسعود البالغ من العمر سبعة عشر عاما، كان حينها رئيس محطة الإذاعة. كنت أحمل هدايا لأبناء البرزانى عبارة عن ساعات يد روسية "بوليوت"، لكنى كنت محرجا بعض الشىء عندما رأيت ساعات "رولكس" فى أيديهما. استقبلنى الملا مصطفى البرزانى بسعادة واضحة. فى نفس اللحظة دعانى إلى غرفة محفورة فى الأرض، حيث كان الحطب مشتعلاً بحرارة فى

فرن محمول على عجلات، والسقف معلق، ومربوط من عدة أماكن تثبته المياه، خارج حوائط الغرفة كانت الأمطار المصحوبة بالثلوج الذائبة تتساقط. كانوا يطرقون أكياس الماء التى تغطى الحفرة بالعصى، فتنساب المياه فى خط مستقيم، لتملأ الأوانى الموضوعة لذلك.

على الأرض، المغطاة بسجادة، تم وضع الطعام. جلس معنا الضابطان العراقيان، مربعين أرجلهما، أحدهما كان يستمع إلى الحديث الذى كان باللغة الروسية. لكنى كنت قد حذرت البرزانى، من خلال سامى، أن أحد العراقيين يعرف الروسية، ولهذا كانت الجلسة "موجهة". قالى لى البرزانى: "كلهم فى بغداد لصوص ومحتالين (هكذا قال ـ المؤلف)، لكن يوجد واحد شريف وإنسان جيد، هو وزير الدفاع". بالطبع كل هذا كان مخصصا لشقيق الوزير الذى كان يجلس بجوارنا.

الجلسة الحقيقية جرت بعد منتصف الليل، عندما أيقظنى اثنان من الأكراد يحملان بنادق آلية، وقادونى لغرفة أخرى تحت الأرض، ضمنى البرزانى إلى صدره بقوة وقال "الاتحاد السوفييتى ـ أبى"، وقال البرزانى إنه يرحب باتفاق السلام، لكنه لا يثق فى بغداد، حيث يبدى المتطرفون مقاومة قوية لتوجهات تنفيذ الحكومة لاتفاق السلام مع الأكراد. وأضاف إن الانتظار الدائم لاستئناف العمليات العسكرية الواسعة، لا يسمح بجدية العمل على تحسين حياة المواطنين الأكراد (لأى درجة يعيش الأكراد حياة صعبة، رأيت ذلك بنفسى: البيوت ملتصقة بالجبال المائلة، حوائط المساكن مصنوعة من الأحجار، والأسقف طينية بصفة دائمة يجب إصلاحها لكى لا تنفذ منها المياه، لا توجد كهرباء، زينة الغرف مكونة من مصابيح الكيروسين والحصير المفروش ليوم واحد على الأرض الطينية ـ المؤلف)، وبغداد لا تقدم مساعدات، على الرغم من الوعود الكثيرة التى وعدت بها.

وعن سؤال له عم إذا كانت له علاقات مع إيران، كان لدينا معلومات سرية عن زيارات برزانى للشاه، لم يفكر برزانى وأجاب مؤكدا: "لا أريد أن أخفى شيئا، ماذا

أفعل، المنفذ الوحيد على العالم هو من خلال الحدود الإيرانية؟" لكن على الأرجح الأهم بالنسبة لى كانت إجابة برزانى على سؤالى: "كيف تفكرون فى مستقبلكم، فأنتم بلا شك تعرفون الإشاعات التى تقول بأن الأكراد يريدون فصل الأراضى التى يسكنونها عن العراق.

ـ أجاب برزانى، أعداء السلام على الأراضى العراقية هم من يتحدثون بهذا الشكل عنا. وحتى إذا طلبت مننا الحكومة العراقية أن ننفصل، لما وافقنا على ذلك؟ نحن لا نريد الانفصال عن العراق، هذا وطننا. لكن الأكراد يجب أن يتمتعوا فيه بكل الحقوق على قدم المساواة مع العرب، وهذا ما يدور الصراع من أجله.

فى أثناء جلسة لى مع سامى، عرفت منه، أنه قبل عدة أيام من وصولنا، قاموا بوضع واحد من البشمركة فى السجن، عبارة عن غرفة محفورة فى الأرض ولها باب يحرسه شخص بالبندقية الآلية، وشرح سامى "لأنه تفوه بحديث معادٍ للعرب كان به مسحة من العنصرية، نحن لا نسمح لأحد أن يشوه طابع نضالنا".

وتحدث إدريس نجل البرزانى إلى وقال "كل فصائل الثوار مكونة فى الأساس من الأكراد لكن لدينا آشوريين كثيرين، كما يوجد أرمن. أحد أعضاء أعلى هيئة، القيادة الوطنية للثورة، عربى، قائد الكتيبة الشيوعية. هذه الكتيبة تشكلت من أعضاء الحزب الشيوعى العراقى، العرب والأكراد الذين خرجوا للشمال لينجوا بأنفسهم من المذابح الدموية التى جرت عام ١٩٦٣".

التوصل لاتفاق، احتفال، لكن ماذا بعد؟

جرت زيارتى التالية للعراق بعد تغيير السلطة فى بغداد مباشرة. جلستى مع البرزانى أظهرت أن الأمل صار ضعيفا لديه، فى أن القيادة العراقية الجديدة تستطيع أكثر من سابقتها، أن تتجه لحل المشاكل الكردية، فهم بعد توقيع الاتفاقية مع الرئيس،

حاليا السابق، عارف، استمرت الصدامات، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هذا السؤال المبهم كان موجودا فى أثناء جلستى مع القائد الكردى.

كانت الأوضاع داخل الحركة الكردية تقلق كذلك البرزانى والمحيطين به. فقد حدثت صدامات بين فصائل البشمركة، ليس فقط مع وحدات الجيش العراقى، ولكن اشتباكات دموية كبيرة أحيانا حدثت مع تشكيلات مسلحة تابعة لجلال طالبانى. وقد أسماهم البرزانى باحتقار دجاش، وهى كلمة كردية تعنى "حمار". واستغلت بغداد التى كثيرا ما كانت تعمل بأيدى غريبة، الشرخ فى الحائط الكردى.

قررت موسكو، أن سفر مراسل "البرافدا" إلى كردستان العراقية يجب أن يستمر، ماذا سيحمل للعراق والعرب والأكراد المستقبل القريب؟ بهذا السؤال الصعب سافرت للمرة الثانية إلى المنطقة الكردية فى شمال العراق. فى هذه المرة لم ترافقنى "حراسة عراقية"، بل سيارة يقودها سائق كردى وصلت مباشرة إلى الفندق فى بغداد، ومن هناك توجهنا إلى الشمال. على طول الطريق كان المشهد مختلفًا عما كان عليه فى نهاية عام ١٩٦٦. اختفت الألوان الشتوية، ولونت الشمس الجبال المائلة، بأطياف مفروشة باللون الأخضر الشاحب مع الأصفر الشاحب. واحتفظت الذاكرة بالشتاء، فقط من خلال المياه الثلجية، والأنهار السريعة الجريان فى قاع المغارات. سيارتنا "اللاندروفر" التى تستطيع عبور أى مكان، فى كل دقيقة تعبر من هذه الضفة لتلك، وتخفض السرعة فقط على الجسور العالية. كان السائق هادئا، عند بداية الشعاب، سمحوا لنا بالمرور، هذا يعنى أنه لا توجد أى سيارة فى الاتجاه المعاكس فى هذا الجزء من الطريق.

كان السائق الكردى طويل القامة متناسق الجسد، شعره أسود ضارب إلى الزرقة، عيناه خضروان تماما، قاد السيارة بمجازفة، فقد كان يجلس خلف عجلة القيادة، رابطا بقوة حزام به جراب الطلقات الذى يحتوى على خزنتين لطلقات سلاحه الآلى كاحتياط، لقد حملنا إلى الشمال مقاتل من البشمركة من فصائل مصطفى البرزانى.

قضيت أسبوعًا كاملاً، مملوءًا بالانطباعات، التقيت مع البرازانى، وولديه، وأعضاء المكتب السياسى للحزب الديموقراطى الكردستانى، والكثيرين الكثيرين من البشمركة البسطاء، كلهم تحدثوا عن الأهم وهو الطريق لحل المشاكل، التى كان ثمنها الكثير من الضحايا، وخسائر للشعب العراقى. إذا كان أول زيارتين إلى كردستان العراقية، حملتا بصفة عامة طابع التعارف، واقتصرتا على العمل الصحفى، فإن الزيارة التالية لهما، أصبحت أكثر يناسبها وصف مهمة وساطة.

قبل الزيارة الثالثة، التقيت صدام حسين فى بغداد حيث عينته القيادة العراقية "مشرفًا على قضايا" الأكراد. لم يكن صدام حسين حينها يشغل موقعا مهما فى القيادة، وكان ينظر إلى حل المشكلة الكردية كنقطة ارتكاز ينطلق من خلالها للترقى. وهذا خلق مقدمة لا بأس بها، لمحاولة إعطاء حكم ذاتى متكامل للأكراد فى إطار العراق، وكان يتفق معى فى هذه الفكرة القائم بأعمال السفير السوفييتى فى بغداد ف. ن. فيدوتوف، ولم يكن من قبيل الصدفة أن صدام حسين فى أثناء جلساته معى، أكد أن مواقفه ستكون بناءة، وطلب حتى أن أبلغ البرزانى، أنه مستعد لعمل الكثير جدا، لكى يتوصل إلى تسوية فى العلاقات بين العرب والأكراد.

وهكذا فى لقاء جرى فى ٢٣ يناير ١٩٧٠، تحدث عن ضرورة الحوار مع "الإخوة من قيادة البرزانى"، "لكى نتفق على حكم ذاتى حقيقى مضمون للأكراد". المشكلة الوحيدة، وفق كلماته، التى من الممكن أن تعيق هذا، هى أزمة الثقة. وقال صدام حسين "لا يتحمل لا حزب" البعث ولا البرزانى المسئولية الكاملة عن الصدام والعداء خلال الأعوام التى مضت، لكن سالت دماء، ولهذا لكى نعيد الثقة، لابد من وجود النوايا الحسنة، وعزل تلك الشخصيات والمجموعات التى تقف مواقف متطرفة من الجانبين". تأكيد هكذا كان يدعو للتفاؤل ولعلاقات إيجابية مع صدام نفسه، خاصة وأنه أكد اهتمامه بأن أزور كردستان بانتظام.

من الممكن اعتبار أننى خلال الفترة من ١٩٦٦ وحتى ١٩٧٠، كنت الممثل السوفييتى الوحيد الذى التقى البرزانى. صيفا أقمت فى خص، وفى الشتاء فى غرفة محفورة فى الأرض، وكان معى فى هذه الرحلات فيكتور فيكتورفيتش بوسوفاليوك

وأوليج جيراسيموفيتش بيريسيكين، لكن المهمة كانت ملقاة على عاتق مراسل "البرافدا". فعلت كل شيء لتقريب وجهات نظر الأطراف. ساعدني للتأثير على البرزاني الشخص الذي ذكرته من قبل سامي (اسمه الحقيقي محمد محمود عبد الرحمن - المؤلف) ومحمود عثمان، المعروف باسم دكتور محمود، وكانا حينها عضوين في المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكردستاني. دكتور محمود كان طبيباً بالفعل، حصل على دراسات عليا في الطب، وكان يقدم مساعدات طبية للمرضى، وكان على سبيل الفكاهة يقول إن "برجه الفلكي" هو الحقنة والبندقية.

لعبت الشخصية العراقية العامة، والحاصل على جائزة لينين للسلام، المتواضع، الذكي والجذاب، عزيز شريف، الدور الإيجابي الكبير جدا في التوصل إلى وفاق بين الجانبين، في ذلك الوقت كان قد عاد من المهجر إلى بغداد، وتم ضمه للحكومة. وأعتقد أنه زار كردستان في نهاية عام ١٩٦٩ بمبادرة من صدام حسين، وسرعان ما وصلت أنا لمرة تالية، وبالتحديد تلك هي اللحظة التي حددت مصير الاتفاقية. قبيل سفرنا إلى كردستان جرت مباحثات مع وفد من بغداد، وتم التوافق على عدد من المشاكل، أهمها مبدأ الحكم الذاتي للأكراد، لكننا لم نصل إلى مخرج مشترك فيما يخص اشتراك الأكراد في هيئات السلطة العليا العراقية وقيادة الثورة. كما ترك الباب مفتوحا فيما يتعلق بمشاكل مستقبل كركوك، البشمركة، وفترة الإعلان عن إقامة منطقة حكم ذاتي كردية.

تناولنا ثلاثتنا الغداء البرزاني وعزيز شريف وأنا. شربنا زجاجة كونياك إيراني! وكان برزاني منفتحا ومتحدثا كما لم يحدث من قبل، وشرب نخب الشعب الروسي والاتحاد السوفييتي، وقال بصراحة إن ما دفعه للمفاوضات مع بغداد هو توصيات الاتحاد السوفييتي، وذكر إحدى هذه التوصيات بالحرف: "حتى مجرد الموافقة على المفاوضات ستعزز من وضع الأكراد والحزب الديموقراطي الكردستاني".

لكن بعد الغداء، ومن جلساتي مع الدكتور محمود الذي عين رئيسا للوفد الكردي في المفاوضات وعزيز شريف الذي كان يقيم معي في نفس الغرفة وعدد من الذين أعرفهم جيدا من الأكراد، فهمت: ليست الأمور بهذه البساطة، أنا وعزيز شريف كان رأينا واحدا، أن أهم شيء للأكراد حاليا ألا يركزوا مؤقتا على المشاكل غير المحلولة،

ومن الضرورى الاستمرار فى المفاوضات، وأن يرسلوا لهذا وفدهم إلى بغداد. واتفقوا معنا. وفى بغداد كنت قد التقيت الوفد الكردى فى سفارتنا، ورأيت على غير المعتاد إدريس ومسعود والدكتور محمود وسامى يرتدون بدلات وربطات عنق. كان هذا يوم ٦ فبراير ١٩٧٠، ويوم ١٤ التقينا مرة أخرى فى السفارة السوفييتية، خلال هذه الفترة من الوقت تمكنا من التقدم فى المفاوضات فى عدد من المشاكل، فقد قدمت الأطراف تنازلات لبعضها بعضًا، وتم هذا ليس دون تأثير منا. وفيما يتعلق بكركوك، وافق الأكراد على الحل التوافقى التالى، كركوك المدينة ستكون تابعة لمنطقة الحكم الذاتى الكردية، لكن الأمور النفطية ستبقى فى أيدى الحكومة المركزية.

فى ١١ مارس ١٩٧٠ قرأ الرئيس البكر، عبر إذاعة وتليفزيون بغداد، وثيقة إعلان السلام، على أساس الاعتراف بحقوق الأكراد فى حكم وطنى ذاتى، فى إطار الدولة العراقية إلى جانب العرب تم الإعلان عن أن الأكراد هم القومية الأساسية فى العراق. وأصبح نائب الرئيس كرديا، ودخل الحكومة خمسة وزراء من الأكراد.

قوبلت الوثيقة التى سميت "برنامج ١١ مارس ١٩٧٠"، بابتهاج من الجميع فى العراق، آلاف المواقد الكردية أضاءت الجبال حول كركوك، وأصبحت منصة الخطابة فى ميدان التحرير فى بغداد مجرد جزيرة فى بحر من البشر فى أثناء المسيرات الشعبية بعد الإعلان عن وقف الحرب مع الأكراد فى الشمال العراقى. وقف إلى جانب الرئيس البكر حينها صدام حسين وأبناء الملا مصطفى البرزانى إدريس ومسعود والدكتور محمود مرتدين الملابس الوطنية الكردية.

صدام ضد البرزانى - محاولة اغتيال فاشلة

غير أنه، للأسف، بمرور بعض الوقت، توترت العلاقات من جديد مع بغداد، ولاحت فى الأفق بداية حرب جديدة. فى هذه الظروف قمت بزيارة أخرى إلى شمال العراق. قبلها وفى بغداد يوم ٢٢ يناير ١٩٧٣، التقيت صدام حسين، الذى نصحنى بإلحاح،

بضرورة أن التقى البرزانى. وكما قال صدام، إنه لم يفهم، وأنا فى بغداد أننى سأذهب إليه بعد انقطاع ثلاث سنوات. وقال صدام "نحن أصحاب مصلحة فى ألا يعتقد أن اهتمام الاتحاد السوفييتى به قد قل، نحن نقدر عاليا جدا قدرتكم على التأثير فيه" مضيفا أنه سيصدر أوامره بتقديم طائرة لى للطيران إلى كركوك ومروحية إلى راواندوز. هل كان مخلصا، أم من الممكن أنه أراد استخدام علاقاتنا التى بنيناها مع البرزانى لكى يجتذبه من تقاربه المتنامى مع إيران؟ أو ممكن أن يكون قد أراد أن يحسن العلاقة مع البرزانى بعد القطيعة بينهما؟

كانت الثلوج حتى الركبة فى راواندوز. أتت إلينا فى قلب معسكر للجيش العراقى سيارة، كان يقودها سائق كردى. لكن هذا لم يكن دليلاً على عدم وجود التوتر. عند أول حاجز كردى، كان الوضع كما كان فى ذلك الوقت عندما لم تكن هناك اتفاقية، حواجز، حراسة مسلحة. وصلت إلى مكان صغير بالقرب من منزل إدريس ومسعود، شعور بأن مسعود عصبى، وأصبح هذا أكثر وضوحا عندما وصل البرزانى، تحدثت معه لعدة ساعات باللغة الروسية، وإدريس لم يفهم شيئا. تحدثوا بثقة لى عن أن الاتصالات مع إيران تجرى من خلال إدريس، ولذلك لم تكن كلماته عن أنه "ليس هناك دلائل تشير إلى أن بغداد عازمة على تنفيذ الاتفاقية" غير متوقعة.

فى الحقيقة، فى ذلك الوقت، ظهر عنصران، يمكن أن أقول، مثيران للتوتر فى العلاقة بين البرزانى وصدام حسين، عن الأول روى لى مصطفى البرزانى نفسه. فقد حضر إليه مجموعة من الشيوخ، واستقبلهم فى خيمة، أحد الشيوخ طلب تسجيل الجلسة على جهاز تسجيل محمول (حينها كان "المحمول" يزن عدة كيلوجرامات ـ المؤلف). السائق الذى كان يقود الحافلة التى أقلت الشيوخ للمكان، كان يجلس خلف عجلة القيادة فى الانتظار. داخل جهاز التسجيل كانت موضوعة قنبلة، قام السائق الذى كان من المخابرات العراقية، بتفجير القنبلة عن بعد، أنقذ البرزانى من هذا الانفجار أن أحد البشمركة انحنى تجاهه ليقدم له القهوة، ومات عندما حال بين البرزانى والانفجار بجسده، وأضاف البرزانى "المخبولين من حراستى، أطلقوا النار فقتلوا جميع الشيوخ، ولم يتبق أحد لكى نحقق معه، لكنى واثق من أن هذا من تدبير صدام حسين".

أما عنصر التوتر الثانى كان مرتبطًا بابنه الأكبر، عبيد الله. وكان البرزانى قد روى لى، فى أثناء أول زيارة لى، أنه اعتقل عبيد الله، وعازم على قتله بالرصاص، لأنه كشف "للأعداء الطريق الذى نحصل من خلاله على الوسائل المادية"، فقلت إن عبيد الله من الممكن أن يكون فعل هذا ليس نتيجة إحساس بالعداوة ولكن بالخطأ، لا أدرى أثرت كلماتى فيه أم لا،. لكنه على أى حال بقى على قيد الحياة. وأكثر من هذا، ونظرا لمعاناة عبيد الله من أزمة زائدة دودية، سمحوا له بالذهاب إلى بغداد، لكن عبيد الله لم يعد من هناك، وذهبت كل الطلبات التى قدمت للسلطات العراقية، بإعادته ذهبت أدراج الرياح(٦٣).

لا أخفى، أن اتصالات البرزانى مع شاه إيران الذى كانت تقف خلفه الولايات المتحدة، فى ذلك الوقت، استدعت قلق بغداد وقلقنا الخاص. وصلت معلومات مؤكدة عن سفريات لمبعوثين من البرزانى لتل أبيب. فقد سعت إسرائيل لاستغلال المشكلة الكردية فى العراق لإضعاف عدوها القوى، بأن تعطى للحركة الكردية أموالاً، ولكنها ليس كثيرة نسبيا. فى سؤال وجهته مباشرة إلى البرزانى، بخصوص نوعية علاقته مع شاه إيران، فأشار إلى أن: "أنا طرقت باب منزل وحيد من أجل الخبز، لكنهم رفضوا إعطاءه لى (كان يعنى بغداد ـ المؤلف). ماذا تنتظرون، هل أموت، قمت بطرق أبواب أخرى، من المذنب؟ أنا أم هؤلاء الذين رفضوا؟"، ولم ينف البرزانى حصوله على أسلحة من إيران، وشرح ذلك بأنه لن يبدأ الحرب بنفسه، ولكن يجب أن يكون مستعدًا للدفاع عن نفسه.

فى ذلك اليوم جلست والبرزانى لما بعد منتصف الليل. ثم ذهب تصحبه عدة سيارات حراسة، وانفردت أنا بالدكتور محمود، وطلب منى، بصورة مباشرة، التأثير فى البرزانى، لكى يغير اتجاهه صوب بغداد. قمنا بالتنزه فى صحبة مرافقين يحملان البنادق الآلية. قدمانا كانتا تغوصان فى الثلوج. ثم عدنا للنوم. الطقس بارد، أشعل الحارس مدفأة بدائية تعمل بالحطب، وكل مرة عندما يضع تحتها قرمة خشبية، لكى لا تحترق، يفتح الشباك. كل مرة أستيقظ بسبب البرد، على الرغم من أنى أنام مرتدياً بدلة رياضية مصنوعة من الصوف.

فى عام ١٩٧٥، اندلعت الحرب بين الأكراد والحكومة العراقية مرة أخرى. وقبل عام من هذا عام ١٩٧٤، أقرت بغداد القانون رقم ٣٣، القاضى بتكوين منطقة الحكم الذاتى الكردية.

تقبل البرزانى هذا القانون بسلبية، لأنه فى ذلك الوقت حدث بالفعل إجبار للأسر الكردية على مغادرة منطقة كركوك، وإحلال عرب عراقيين محلها. لكن الانتفاضة الكردية التى اندلعت، لم تكن على الإطلاق تتفق مع رفع شعار الانفصال عن العراق. وكانت إمكانية التوصل لتوافق مع الثوار الأكراد مازالت موجودة، لأن الأكراد لم يعلنوا عن عزمهم الانفصال عن العراق، حتى فى أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، التى فى مرحلتها الختامية تعرضوا فيها لهجمات عنيفة من الجيش العراقى، استخدم فيها الأسلحة الكيميائية.

لم يضع الأكراد العراقيون مسألة الانفصال فى حساباتهم حتى عندما كانت بغداد ضعيفة ولم يكن فى مقدورها أن تبدى مقاومة حاسمة. هذا حدث عند هزيمة العراق فى حرب الخليج وعندما تشتت الجزء الأكبر من قدرات العراق العسكرية لإخماد انتفاضة الشيعة فى جنوب البلاد. قام الأكراد فى ذلك الوقت ببسط سيطرتهم على كل الأراضى التى يعيشون فيها، وشملت الموصل وأربيل والسليمانية، ولبعض الوقت كركوك.

من الضرورى القول أن مسألة الانفصال لم تظهر كذلك حتى بعد قرار مجلس الأمن عام ١٩٩١ بتحديد "مناطق آمنة" شمال خط العرض ٣٦، وتم سحب القوات العراقية بالكامل من هذه المناطق،. نتيجة هذا جرت أول انتخابات للمجلس الوطنى، وتشكلت حكومة، لكن كل هذا حدث تحت شعار عدم الانفصال عن العراق، و"الحكم الذاتى الكامل لكردستان"، هذا الخط للحركة الكردية كان مدعوما من الاتحاد السوفييتى، وبعد ذلك من روسيا الاتحادية، اللذين كانا يدركان جيدا لأى نتائج سلبية للشرق الأوسط من الممكن أن يؤدى انهيار العراق.

مستقبل غير محسوم لكردستان

صبغت فترة ما بعد العملية العسكرية ضد العراق عام ٢٠٠٣، الحركة الكردية بمزاج انفصالي بما فيه الكفاية، وأعتقد أن واشنطن وقفت أمام معضلة: إما أن تدعم هذا التوجه، وبهذا الشكل تكسر العراق نهائيا، بتقسيمه إلى أجزاء، وإما الحفاظ على كردستان العراق، ضمن دولة واحدة، مراهنة على الاعتماد على الأكراد في تحقيق مصالحها وهو ما كانت تهدف إليه الولايات المتحدة. ناهيك عن أن دعم التوجه لإنشاء دولة كردية مستقلة، كان من الممكن أن يؤدي إلى خلاف شديد مع حليفتها في الناتو، تركيا.

في غضون ذلك، كان هناك خلاف داخل الحركة الوطنية الكردية، منذ النصف الثاني من الستينيات، ثم تلاه انقسام. منذ أول زيارة لي لكردستان العراق عام ١٩٦٦، قال لي السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الديموقراطي الكردستاني حبيب، إنه تم فصل جلال طالباني (رئيس العراق حاليًا - المؤلف) ومجموعة من الشخصيات المقربة منه، من الحزب، كانوا يقومون "بأنشطة تخريبية". وبعد توقيع "برنامج ١١ مارس ١٩٧٠"، قام طالباني بحل منظمته وعاد للحزب الديموقراطي الكردستاني.

قامت بغداد بإخماد انتفاضة الأكراد ضد القانون رقم ٣٣، وعبر البرزاني الحدود إلى إيران، ومنها بعد ذلك إلى الولايات المتحدة، حيث توفي عام ١٩٧٩، وخرج طالباني من الحزب الديموقراطي الكردستاني مجددا.

ومنذ النصف الثاني من السبعينيات، كانت توجد في كردستان قوتان، الحزب الديموقراطي الكردستاني بزعامة نجل البرزاني مسعود والاتحاد الوطني الكردستاني الذي أسسه جلال طالباني. لم يحدث أي تقارب بين هاتين القوتين، حتى منتصف التسعينيات، على الرغم، من أنه بدا وكأن الحرب العراقية ـ الإيرانية سوف تساعد على هذا. وأكثر من ذلك حدثت صدامات عنيفة بين فصائل الحزب الديموقراطي الكردستاني التابع للبرزاني، وفصائل الاتحاد الوطني الكردستاني. لكنهم، فقط، بعد

هزائم الأكراد على يد الجيش العراقى، بدأوا مفاوضات، وقسموا بالتساوى فيما بينهما مقاعد البرلمان عام ١٩٩٢، وشكلوا "حكومة ائتلافية". لكن هذا لم يؤد إلى وقف الصراع بين هذين الحزبين.

وفى نهاية الأمر لم تساعد الزيارة التى نظمتها الولايات المتحدة لمسعود البرزانى وجلال طالبانى إلى واشنطن ١٩٩٨ فى تحقيق اتفاق بينهما. مبادرة الإدارة الأمريكية نفسها، كان لها طابع واضح "معاد لصدام"، وكان للولايات المتحدة مصلحة فى كردستان القوية، لتحقق التوازن مع بغداد. لكن حتى عام ٢٠٠٢، كانت توجد حكومتان فى كردستان العراق، وفى عام ٢٠٠٢ فقط، أى قبل بداية العملية العسكرية الأمريكية بوقت قصير، تم تشكيل حكومة واحدة فى كردستان العراق. وعلى الرغم من أنها كانت تؤيد الولايات المتحدة فى العملية العسكرية التى انتهت فى عام ٢٠٠٣ بإسقاط صدام حسين، فإن البرزانى وطالبانى، كانا يعبران بحرص فى تصريحاتهما عن تأثير الأعمال الأمريكية.

شاركت البشمركة فى عمليات محلية مع الأمريكيين ضد الجيش العراقى. وفى شهر مارس عام ٢٠٠٤، عقد مؤتمر فى مدينة صلاح الدين قام بتنظيمه القوتان الكرديتان الرئيسيتان، حول المصالحة الكردية الشاملة. وأصبح الأكراد دعامة رئيسية للسياسة الأمريكية فى تشكيل الحكومة فى بغداد، وكتابة الدستور، وأصبح جلال طالبانى أخيرا رئيسا للعراق، إلى جانب ذلك اتفق على أن يكون رئيس كردستان العراق، مسعود البرزانى.

فى مايو عام ٢٠٠٨ زرت كردستان العراق، وأهم ما كان يميز هذه الزيارة أننى تلقيت دعوة من رئيس العراق جلال طالبانى لزيارة المنطقة الكردية فى العراق، وليس بغداد، هو سافر من بغداد للسليمانية للقائى. وبعد جلسات مطولة مع طالبانى، وصلت من السليمانية إلى أربيل العاصمة الحالية لكردستان العراق. أدهشنى حجم البناء فى هذه المدينة، التى يعيش فيها حاليا مليون ومائتا ألف نسمة. كانت أبواب المقرات

الرسمية والمساكن العادية مفتوحة على مصراعيها، وكان هذا انعكاسًا لعلاقتي الودية بوالد الرئيس الحالى مسعود البرزانى، الذى استقبلنى بترحاب على مدخل قصره.

يصف البعض منطقة كردستان بأنها دولة داخل الدولة. وهذا حقيقى، ففى كردستان العراق يوجد رئيس وحكومة وبرلمان. و"أطلقت أيدى" الأكراد من الناحية الاقتصادية. وكما قال لى رئيس حكومة منطقة كردستان نيتشروان البرزانى، يجب علينا أن نحصل على موافقة بغداد فقط على التعاقدات مع الشركات الأجنبية فى مجال استخراج النفط والغاز من المنطقة، وما دون ذلك يتخذ القرار فيه محليا. وأكد هذه الكلمات توافد الشركات على المنطقة الكردية، حيث اجتذبها الاستقرار والأمن فى المنطقة وبالطبع الإمكانيات المالية للسلطات المحلية، التى تحصل على نسبة من النفط المستخرج من كل الأراضى العراقية، إضافة إلى الاحتمالات الكبيرة للموارد الطبيعية لكردستان العراقية.

ازدهار عام، لكن لا أريد أن أعمم نتائج الأوضاع الحالية على المستقبل، فالكثير من الممكن أن يتغير، خاصة عند تحديد حدود منطقة كردستان العراق. وتحتل مشكلة كركوك فى هذا وضعا خاصًا، فالأكراد واقعيا يسيطرون الآن على هذه المدينة وما يحيط بها من ثروات نفطية كبيرة جدا، الاحتياطيات النفطية المؤكدة لمنطقى كركوك حوالى ١٠ مليارات برميل نفط. وفق دستور العراق يجب إجراء استفتاء، لتحديد وضع كركوك، والمنطقة المحيطة بها، والتى ليس دون أسباب تاريخية يدعى الأكراد أنها من حقهم. فى أربيل أعطونى صورة ضوئية لخريطة من عصر الإمبراطورية العثمانية، تظهر كركوك، والمنطقة المحيطة، تابعة "لولاية يسكنها الأكراد". لكن الأغلبية العربية من سكان العراق تقف ضد ضم كركوك لمنطقة الحكم الذاتى الكردية. فى عصر صدام حسين، تم تهجير عشرات الآلاف من الأسر الكردية من كركوك بالقوة، إلى جنوب العراق، فى الوقت الحالى عاد الكثيرون منهم.

يدعى التركمان الذين يعيشون فى شمال العراق، أن لهم حقوقًا فى كركوك، وقد تم تأسيس الجبهة التركمانية العراقية عام ١٩٩٥، وبعد سقوط نظام صدام حسين بدأت الجبهة تطالب بإقامة منطقة حكم ذاتى فى تلك المناطق التى يعيش فيها التركمان، وكان ضمن هذه المناطق ادعاء الحقوق على كركوك كذلك. فى ٢٩ يوليو عام ٢٠٠٧، ألقى رئيس الجبهة سعد الدين إرجيتش خطابا فى نيويورك، أعلن فيه بشكل مباشر أن نضال الجبهة لديه هدف تحويل كركوك إلى عاصمة التركمان العراقيين، والسعى للحصول على وضع خاص لهذه المنطقة.

تركيا ترفض بحسم ضم كركوك، التى تنتج ٤٠٠ ألف برميل نفط يوميا، إلى المنطقة الكردية، فالعلاقات التركية ـ الكردية ليست على ما يرام، ليس فقط بسبب الخلاف على الأراضى، وخاصة حول كركوك، ففى جبال شمال العراق يتمركز مقاتلو حزب العمال الكردستانى المكون من أكراد تركيا، والذى يطالب بحكم ذاتى للأكراد فى تركيا. وقد انتقلت الاشتباكات المسلحة للجيش التركى مع مقاتلى حزب العمال الكردستانى من أراضى تركيا إلى المنطقة الحدودية من شمال العراق، حيث يتمركز المقاتلون الأكراد. القصف المنتظم، ودخول قوات الجيش التركى البرية، يخلق التوتر بين أربيل وأنقرة. من جلساتى مع القادة الأكراد فى أربيل، خرجت باقتناع فى برغبتهم فى إيجاد حل سلمى للتوتر الذى نشأ مع تركيا، واهتمام الأكراد العراقيين الواضح بوجود علاقات جيدة معها، لدوافع اقتصادية.

فيما يتعلق بالوضع الداخلى فى منطقة كردستان العراق، وفى أثناء كتابة هذا الكتاب، لاحظت بزوغ لقادة تقليديين وشباب من الأكراد. بعض السياسيين الغربيين يتنبأون بزيادة الخلافات بينهم، لكن من غير المحتمل أن تتحول إلى صراع مفتوح. فالقادة الشباب يعتقدون أن رئيس وزراء حكومة كردستان المحلية نيتشيروان البرزانى، حفيد الملا مصطفى البرزانى، ونجل إدريس الذى توفى عام ١٩٨٧، والمتزوج من كريمة عمه مسعود، يلمحون إلى "عشيرة" البرزانى وسيطرتها، وكما أتصور هذا بعيد عن الواقع. فهؤلاء الأشخاص من أجيال مختلفة، حتى من حيث الشكل الخارجى، فلم

يتخل الرئيس مسعود عن ارتداء ملابس قبيلة برزان التقليدية، فى حين رئيس الوزراء نيتشيروان يرتدى بدلا أوروبية حديثة مع ربطات عنق مختارة بعناية. وبالتعارف والجلوس إلى هؤلاء السياسيين المتحررين من التقاليد، وجدت أنهم يعترفون بالأخطاء التى أدت إلى عدد من الهزائم لحركة التحرر الكردية، ويؤمنون بإمكانية بناء دولة علمانية (الأكراد بصفة عامة غير متدينين جدا ـ المؤلف) ومجتمع ديموقراطى فى المنطقة الكردية، وهذا ترك عندى انطباعات كثيرة إيجابية.

أكد لقائى مع ممثلى السلطة من التشكيلات الجديدة، قائد وكالة الأمن والاستخبارات مسرور، نجل مسعود البرزانى، التوجه الإيجابى للقادة الشباب. كان مهماً للغاية أنهم مروا، ليس فقط عبر المشاركة فى فصائل البشمركة، ولكنهم درسوا فى الجامعات. من الواضح أن هؤلاء هم من سيمثل كردستان العراقية. لكن إلى أى مستقبل سيقود القادة الشباب الأكراد؟ هل يصبح هدفهم إقامة كردستان المستقلة؟، على أى حال يوجد عدد من الأمثلة لإقامة دول جديدة مستقلة فى العالم، وهذا لا يمر عليهم دون اهتمام.

أحسست كذلك فى أثناء وجودى فى شمال العراق، إلى أى درجة ـ على الرغم من التمسك بالشراكة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة ـ ظل الأكراد محافظين على الاستمرار فى الانجذاب الطيب والودى لروسيا. تتحدث سلطات المنطقة الكردية عن استعدادها لأن تفتح الأبواب للاستثمارات الروسية، للأسف لم تمثل حتى الآن عمليا فى المنطقة الكردية ذات الحكم الذاتى. يعيش فى شمال العراق عشرات من السيدات السوفييتيات، كثير منهن أرامل، فى فترة ما تركن الاتحاد السوفييتى مع أزواجهن من الأكراد. لقد تحملن أعباء الحياة الثقيلة مع أزواجهن وأبنائهن، وحملن السلاح من أجل حقوق الأكراد، لم يستطع المشاركون فى اللقاء بهن حبس دموعهم، عندما تعاون مع القنصلية الروسية التى افتتحت فى أربيل، هن ومن بقى على قيد الحياة من أفراد أسرهن (الجميع يتحدث الروسية ـ المؤلف)، لا شك يجب أن ندعم العلاقات الروسية ـ الكردية.

الفصل التاسع عشر

إيران ـ قوة نووية إقليمية؟

كان تحول إيران إلى قوة إقليمية، أحد المتغيرات الأكثر بروزا فى الشرق الأوسط، والذى نتج عن العملية العسكرية الأمريكية فى العراق، ففى كتاب بوش الأب وب. سكوكروفت (مساعد رئيس الولايات المتحدة لشئون الأمن القومى ـ المؤلف) حديث عن أن السعى لتجنب هذا التطور الراديكالى، كان السبب الأساسى فى قرار الولايات المتحدة عدم التحرك صوب بغداد وإسقاط نظام صدام حسين، بعد أن تم تدمير جيشه فى الكويت[٦٤]. لم يكن بوش الابن مثل أبيه، ولم يهتم بالحفاظ على "التوازن العراقى ـ الإيرانى".

الموقف الذى تغير تميز بخصوصيتين أساسيتين. أولا، عزز ونشط "العامل الشيعى"، فى كل الدول العربية، خاصة فى العراق ولبنان ودول الخليج، حيث يشكل الشيعة جزءا كبيرا من السكان، وإيران حصلت على إمكانيات للتأثير فى الطائفة الشيعية، واستخدامها فى سياستها، أكثر من السابق. ثانيا، بدأت إيران نشاطًا محمومًا فى مجال الذرة، مما عزز الشكوك فى أنها ستقوم بصنع أسلحة نووية سرا.

مشكلة إيران النووية ـ طريقان للخروج منها

من الممكن الوصول إلى استنتاج، أنه لا توجد دولة واحدة فى العالم لها مصلحة فى أن تمتلك إيران سلاحًا نوويًا.

إن انطلاق إيران لإنتاج السلاح النووى لديه القدرة على نسف الاتفاقية الخاصة بعدم انتشاره، مما سيفتح الطريق للتسلح النووى لكثير من الدول، بما فيها الدول المتورطة فى نزاعات إقليمية. وهذا من الممكن أن يؤدى إلى أوضاع أخرى شديدة الخطورة فى العالم. وبالطبع، وليس آخر المطاف، لأن الوصول لتصنيع الأسلحة النووية فى مثل هذه الأوضاع سيسهل على المنظمات الإرهابية الحصول عليها. وهناك خطورة خاصة، وهى ربط مستقبل تسلح إيران النووى بشعارات طرحها كبار قادتها عن "محو إسرائيل من خارطة العالم".

لكن صعوبة الوضع الحالى مع مشكلة إيران ينحصر فى أنها تنفى سعيها الخروج عن حدود البرنامج النووى السلمى، وتؤكد على أنها لا تخالف اتفاق حظر انتشار الأسلحة النووية، الذى كانت أحد الموقعين عليه، وأعلنت أنها ليست عازمة على وقف الأعمال النووية المسموح بها لدورة الاستخدام السلمى للطاقة النوية، وتشمل تخصيب اليورانيوم، وهو ما تقوم به أكثر من ٦٠ دولة فى العالم.

حتى يومنا هذا، أظهرت إيران قدرتها على تنفيذ جميع مراحل هذه الدورة باستقلالية، بما فى ذلك تخصيب اليورانيوم. وفق آراء الخبراء، إذا قررت إيران أن تتجه لإنتاج أسلحة نووية فإنه يلزمها من عامين إلى خمسة أعوام، وهى فترة ليست كبيرة. أنا أكتب "إذا" لأنه لا توجد معلومات عن أن طهران اتخذت قرارًا سياسيًا بإنتاج أسلحة نووية، على الرغم من أن الإمكانيات التقنية لهذا موجودة.

تم تحديد طريقين لحل هذه المشكلة المعقدة. واحد منهما تصعيد المطلوب من إيران وحتى استخدام القوة. لكن نتائج قصف إيران يمكن التنبؤ به دون عناء، سيؤدى إلى تصعيد النشاط الإرهابى، وإلى موجات من العداء لأمريكا، خاصة فى الدول التى يوجد فيها مسلمون، وإذا ذهبت لأبعد من ذلك، وقامت بعملية على الأرض، فهل ستتحمل الولايات المتحدة "ضربة قاضية" ثانية أقوى بعد العراق؟ والطريق الثانى ما تقترحه روسيا والصين، وهذا الطريق يلقى تأييدا من دول أخرى كثيرة. وهو البحث عن

حل سياسى لتبديد الشكوك فى أن إيران تقوم بتنفيذ برنامج نووى عسكرى. اقترحت روسيا إنشاء مركز لتخصيب اليورانيوم على أراضيها مخصص للاستخدام السلمى فى إيران، وأعربت روسيا كذلك عن استعدادها لتوريد الوقود النووى لمحطة توليد الطاقة الكهربائية النووية فى بوشهر، والتى أنشئت بمساعدة روسية. لم توافق إيران على ذلك. وفيما يخص الاقتراح بتخصيب اليورانيوم على الأراضى الروسية، فإن إيران اتخذت موقف عدم التعليق، أى لم توافق ولم ترفض.

بقى طريق آخر للحل الشامل. حيث تحدث الرئيس ف. ف. بوتين عن إمكانية إنشاء مركز لتخصيب اليورانيوم على أراضى الدول النووية المعترف بها، تلك الدول التى تقوم بتنفيذ برامج نووية سلمية، والتى لا تهدف إلى إنتاج أسلحة نووية، وإذا أنشئت هذا المركز، فيمكن لإيران أن تستخدمه، على أسس عامة دون "إراقة ماء الوجه". ويمكن أن تقترح مفاوضات تهدف إلى فرض رقابة أكثر صرامة من جانب الوكالة الدولية للطاقة الذرية، ودرجة الصرامة المعقولة من الممكن أن يحددها خبراء الوكالة المعترف بهم فى العالم.

محاولة الضغط على روسيا

بمجرد أن خرجت المشكلة النووية الإيرانية إلى الصف الأول، بدأت واشنطن تنظيم حملة دعاية، متهمة روسيا بأنها تساعد إيران على إنتاج أسلحة نووية ووسائل حملها. فى أثناء الاتصالات على كل المستويات، كان الجلساء الأمريكيون، الرسميون وغير الرسميين، يظهرون للجانب الروسى قائمة بعناوين شركات ومعاهد روسية، كما يدّعون، تتعاون مع إيران لتصنيع سلاح نووى. هذه القائمة كان لها مصدر واحد، هى نفس القائمة بالكلمة، التى طلب منى التعرف عليها فى أثناء زيارة لى لإسرائيل عام ١٩٩٧. القائمة كانت مطبوخة على عجل، فاحتوت على مؤسسات ليس لها أى علاقة بمشكلة السلاح النووى فى إيران، والتى كانت تشمل كليات الفيزياء فى المؤسسات

التعليمية العليا فى روسيا. وكان فيها كذلك أشياء طريفة، عنوان إحدى المؤسسات، الواردة فى القائمة كان عبارة عن مسكن للطلاب. ولكى نتأكد من عدم وجود أساس لهذه الاتهامات توجهنا بسؤال إلى قيادة المخابرات، هل من الممكن أن يكون أحد المواطنين الذين شاركوا فى إنتاج سلاحنا النووى قد ذهب إلى إيران بشكل شخصى؟ وكان الجواب حاسم، لا لم يسافر أى مواطن روسى من هذه النوعية إلى الخارج. بالطبع من غير المستبعد أن يسافر من روسيا كثيرون من العلماء والمهندسين، يذهبون إلى دول كثيرة، لكن ليس لدينا معلومات عن تورطهم فى تصنيع أسلحة نووية فى إيران.

ونظرا للاتهامات التى وجهت إلينا، والتى بادرت بها واشنطن، كانت إسرائيل بلا شك تقف خلفها، سأورد بعض العبارات مما هو مسجل من اجتماع وزير الخارجية الروسى مع نائب وزير الخارجية الأمريكى س.تيلبوت يوم ٨ أكتوبر ١٩٩٧. الذى جاء إلى موسكو فى الوقت الذى كان الكونجرس والصحافة الأمريكية يكيلون الاتهامات لروسيا بمساعدة إيران على إنتاج أسلحة دمار شامل، وفى تكنولوجيا الصواريخ. وانطلقت التهديدات أن هذا سيؤدى لتدهور حاد فى العلاقات الروسية ـ الأمريكية، لدرجة قد تصل إلى استئناف الحرب الباردة.

من تسجيل الجلسة: "تيلبوت: أقول لك بصراحة مطلقة، إنه يجب أن نتخطى الأزمة الحالية فى العلاقات الثنائية بنجاح، حيث ينظر إليها كما يقولون فى أمريكا مثل النظر إلى "عيون الموت". نحن نؤيد أن تعمل الولايات المتحدة وروسيا معا على حل المشكلات الاستراتيجية، وهذا هو جوهر موقف الرئيس كلينتون، الذى لا يشاركه فيه الكونجرس فى الحقيقة.

بريماكوف: أنا أعلن لكم بصدق، أن روسيا لا تساعد إيران فى العمل على تصنيع أسلحة نووية أو وسائل لحملها. لقد مل الجانب الروسى من إثارة هذه المشكلة بصفة دائمة. إذا كان الجانب الأمريكى يأمل أن يكون فى شركاتنا ومعاهدنا البحثية ممثلون للولايات المتحدة، يمكنكم أن تكونوا على ثقة أن هذا لن يحدث.

تيلبوت: أريد أن ألفت نظركم لقانون العقوبات المفروضة على إيران، والموجه كذلك ضد عقد صفقات، مثل الاتفاقيات الموقعة مع جازبروم و"توتال" الفرنسية لتنمية حقول الغاز والنفط فى الخليج. وسأقترح عليكم أن تنظروا إلى الموقف بعيوننا. فحتى الآن لم يتم تسوية المشكلة الإيرانية بعد، واتفاقيات مثل تلك التى وقعتها جازبروم، ستؤدى إلى إثارة الكونجرس، لأنهم يعتقدون أن العقد الموقع باسم الدولة، يساعد إيران على الحصول على تقنية صناعة الصواريخ، ولا أتصور أنكم لا تدركون هذا.

بريماكوف: عندما تستمر الولايات المتحدة فى التأكيد على أن روسيا تساعد إيران فى تصنيع الصواريخ وتنمية القدرات النووية، فإن الولايات المتحدة فى الواقع تقوم بضرب علاقاتنا الاقتصادية مع إيران. ولا تنسوا أن لدينا برلمان، ورأى عام. موقفنا واضح جدا: من غير المقبول بالنسبة لنا أن تحاول الولايات المتحدة تقييدنا. أقول لكم مباشرة، نحن لسنا عازمين على وقف التعاون الاقتصادى مع إيران، لنأخذ على سبيل المثال، اشتراكنا فى بناء المحطة النووية لتوليد الطاقة الكهربائية فى بوشهر. نحن اقترحنا على الجانب الأمريكى إرسال مفتشين تحت إشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى المنشأة للتأكد من طبيعة المنشأة. لكن الجانب الأمريكى أجابنا بالرفض، والحديث كان يدور عن توريد روسيا لإيران مفاعلات تعمل بالماء الخفيف فقط، مثل تلك تنوى الولايات المتحدة توريدها لكوريا الشمالية.

فيما يتعلق بمشاركة جازبروم وشركة "توتال" اللتين تحدثتم عنهما، فإنه إذا بسطت الولايات المتحدة مظلة العقوبات على جازبروم، نحن سننظر إلى هذا على اعتبار أنه عمل معاد لروسيا، عقد تنمية حقول الرصيف القارى للخليج ليس له أى علاقة بتكنولوجيا الصواريخ. ومع ذلك نحن نرى أن الولايات المتحدة تخشى المساس بشركة "توتال" والشركات الأوروبية الأخرى، لكى لا تدخل فى نزاع مع الاتحاد الأوروبى. أود أن أنصح الجانب الأمريكى أن يمتنع عن المدخل الانتقائى، على الأقل، فى اختيار المستهدفين بقوانين الولايات المتحدة".

\

تم التطرق إلى موضوعات أخرى فى الجلسة. ونلخص محصلتها، طلب تيلبوت أن أبلغ الرئيس يلتسين رأى الرئيس كلينتون، عن أن الإبقاء على علاقات أمريكية ـ روسية صحيحة، يتطلب ضرورة تخطى اللحظة الصعبة الحالية. فى إجابتى قلت له، إننا نعتقد بضرورة التحرك أبعد فى اتجاه تطوير العلاقات الثنائية. وأعتقد أن الأساس فى هذا هو موقف روسيا من المشكلة الإيرانية، الذى عرضته عليكم بوضوح.

• بالتدريج تلاشت الاتهامات لروسيا بمساعدة إيران فى إنتاج أسلحة نووية. من الواضح أن إدارة كلينتون قد توصلت إلى استنتاج مفاده أنه ليست هناك ضرورة "لحشر روسيا فى زاوية". وبدأت العلاقات مع الولايات المتحدة تتعافى. فى نفس الوقت، ولا أخفى هذا، لم نستطع أن نتخطى الغياب الكامل للتعاون فى موقف طهران. مما جعل دولاً كثيرة تقف ضدها. أود أن أؤكد، أن روسيا قامت بالمشاركة بجهود مباشرة لكى تجد مخرجًا من هذا الوضع المعقد، الذى تصاعد مع التهديدات الإسرائيلية بتوجيه ضربة للمنشآت النووية الإيرانية. ومقترحات بوتين التى تحدثنا عنها من قبل، فيما يتعلق بتخصيب اليورانيوم فى روسيا أو فى "الدول النووية الأخرى المعترف بها"، ومبادرات أخرى مهمة لم تعرف تفاصيلها.

فى أبريل ٢٠٠٨، جرى لقاء قمة روسى ـ أمريكى فى مدينة سوتشى. دعم رئيسا روسيا والولايات المتحدة فكرة كونداليزا رايس التى تحدثت للافروف فى سيدنى عن اقتراح للإيرانيين بعمل حظر على تخصيب اليورانيوم، وقال الرئيس بوتين فى لقائه مع الرئيس بوش الابن: "من الضرورى الاقتراح عليهم، أن يعلنوا أنهم حققوا ما يصبون إليه، وأن لديهم كمًا كافيًا من أجهزة الطرد المركزى، وتكنولوجيا استخدامها... إلخ. وعند قبولهم اقتراح الرقابة، يستطيعون حفظ ماء الوجه. كونداليزا قالت، إن هذا الاقتراح من الممكن الإعلان عنه على أنه رأى الولايات المتحدة. وأنا قلت لسرجى لافروف، إن هذا رأى روسيا أيضا". عند ذلك ذكر الرئيس بوتين أن بريماكوف سيذهب إلى إيران.

بالفعل استعديت للذهاب إلى طهران، بدعوة من وزير الخارجية السابق ع. ولاياتى، الذى كانت تربطنى به علاقات جيدة وعملية، عندما كنت وزيرا. وهو لم يترك العمل السياسى، وبقى مستشارا للزعيم الروحى لإيران خامنئى. وعندما عرف بوتين بالدعوة التى تسلمتها، كلفنى بإبلاغ هذه "الإشارة" للقيادة الإيرانية.

فى أثناء زيارتى التقيت فى البداية مع ع. ولاياتى و م. سافارى السفير السابق لدى روسيا الاتحادية والمدير العام لوزارة الخارجية الإيرانية. داخلنى انطباع بأن كليهما يميل إلى قبول الاقتراح القاضى بفرض حظر، وكما قلت لهما، بعد ذلك ستبدأ المفاوضات، التى ستشارك فيها كذلك الولايات المتحدة، والتى من الممكن أن تؤدى إلى الخروج من الأزمة. لكن التفاؤل تلاشى فى أثناء لقائى برئيس جمهورية إيران الإسلامية أحمدى نجاد، الذى استمع باهتمام إلى توضيحاتى، وقال إنه يجب أن يتشاور قبل اتخاذ هذا القرار أو ذاك. وإذا بدش بارد نزل على رأسى فى أثناء لقائى فى اليوم التالى بوزير الخارجية الإيرانى، حيث أبلغنى رفض فكرة الحظر بحسم.

كل هذا جرى قبيل لقاء رؤساء الدول المطلة على بحر قزوين، وكما هو متعارف عليه، "على هامش اللقاء" جرى لقاء بين ف. ف. بوتين و م. أحمدى نجاد، تحدث رئيس روسيا معه عن فائدة أن "يقود القضية بشكل أكثر مرونة"، مشيرا إلى الاقتراح الخاص بالحظر وقال بوتين "من وجهة نظرى، هذا اقتراح جيد، فكروا".

للأسف انتهى الأمر عند هذا الحد. لكن ليس تماما. بعد عدة أشهر، اتصل بى تليفونيا من طهران سافارى، ودعانى لزيارة إيران من جديد، وطلبت منه أن يعيد الدعوة عن طريق البريد الإلكترونى، لكن الدعوة لم تأت. رغم ذلك، فإن هذا التصرف كان يحمل دلائل، وهو وجود وجهات نظر مختلفة فى توجهات السياسة الخارجية فى إيران، وهذا يعطى أمل.

فى شهر يوليو ٢٠١١، قدمت روسيا مبادرة جديدة لتسوية المشاكل النووية الإيرانية، مقترحة طريقة لحلها، وتقدمت بالاقتراح الذى أصبح معروفا على نطاق واسع

باسم "خطة لافروف". اقترحت روسيا، مقابل كل خطوة محددة من قبل إيران لتنفيذ مطالب الوكالة الدولية للطاقة الذرية، يتم تخفيف العقوبات المفروضة عليها. وفق كلمات نائب وزير الخارجية الروسى س. أ. ريابكوف، دول الغرب مستعدة لتقديم تنازلات بعد أن تقوم إيران بطى برنامجها النووى فقط، والإيرانيون يطالبون بأن يلغى الغرب العقوبات، ويعترف بحقهم فى تطوير الطاقة النووية السلمية. فكرة الخطة المقترحة تنحصر فى أن العملية يجب أن تسير بالتوازى، وتتكون من خطوات لتنازلات متبادلة من الأطراف لبعضهم بعضًا.... هل ستقوم الأطراف بهذه الخطوات؟ هذا ما سيظهر مع الوقت.

الفصل العشرون

إسرائيل ـ دولة نووية غير رسمية

هنا أريد أن أركز على قضية عادة ما يصمتون عنها، وهى وجود دولة تمتلك سلاحًا نوويًا بالفعل فى الشرق الأوسط، و هذا السلاح أنتج بمساعدات من الدول الغربية، وبموافقة صامتة لآخرين. الحديث هنا يدور عن إسرائيل.

تكمن خطورة التسلح النووى لإسرائيل فى أنها كانت وستبقى أحد أطراف النزاع فى الشرق الأوسط. زد على ذلك أنه يوجد أساس للاعتقاد، أن هذا السلاح ليس فقط لاستعراض القوة، أو لردع هؤلاء الذين هددوا وسيهددون وجود إسرائيل. فى أثناء حرب ١٩٧٣، عندما كانت إسرائيل فى حالة يأس من الفشل العسكرى، وبشهادة مجلة "تايم"، أحضرت إسرائيل ١٣ قنبلة نووية من الصحراء على وجه السرعة خلال ٧٨ ساعة، وتم تجميعها فى نفق سرى تحت الأرض. فى ذلك الوقت كان لدى الإسرائيليين استعداد لإسقاط طائرة استطلاع أمريكية. وتصف "تايم" كيف أرسلت الطائرات الاعتراضية الإسرائيلية لاعتراض طائرة استطلاع أمريكية من طراز SR-71، وكان لديهم أوامر بإطلاق النار عليها، إلا أن طائرة الاستطلاع ارتفعت بحيث لم تعد فى متناول المقاتلات الإسرائيلية، وعادت بسلام إلى قاعدتها بالمعلومات التى تمكنت من جمعها.

ليس هناك أى أساس للاعتقاد بأن الولايات المتحدة كانت ستوافق على استخدام إسرائيل للسلاح النووى، فحول هذا الأمر وجد ويوجد إجماع عالمى. من المعروف أن معارضة شديدة لتسلح إسرائيل النووى ظهرت فى إسرائيل نفسها، عندما كانت إسرائيل فى بدايات مرحلة تصنيع القنبلة الذرية.

والدليل على ذلك أنه فى أثناء حكومة بن جوريون، عندما عرف الغرض العسكرى للأعمال التى كانت تجرى تحت غطاء الاستخدام السلمى للطاقة الذرية، استقال ستة من سبعة أعضاء فى لجنة الطاقة الذرية، وأعلنوا على الملأ أنهم ضد إنتاج سلاح نووى فى إسرائيل. وكان التراجع ليس فقط بوضع الرأى العام العالمى فى الاعتبار، ولكن الرأى العام الإسرائيلى، هو الذى جعل بن جوريون ومن أتى بعده مضطرا لأن يخفى وجود البرنامج النووى.

فى بداية القرن الحادى وعشرين تغيرت الأوضاع: لدينا أساس للاعتقاد بأن أغلب الإسرائيليين يؤيدون امتلاك إسرائيل لأسلحة نووية، وأدى إلى هذا الفترة الطويلة من عدم تسوية النزاع العربى ـ الإسرائيلى، وإمكانية امتلاك إيران فى المستقبل للسلاح النووى. وساعد على تغيرات هكذا فى الرأى العام العامل النفسى، والعمليات الإرهابية على الأراضى الإسرائيلية.

غير أنه فى واقع الأمر لا يوجد حقائق فى صالح أن تقوم إسرائيل بالتأسيس لأمنها على القدرات النووية. فقد كسبت إسرائيل الحرب مع الدول العربية باستخدام الأسلحة التقليدية. ومكافحة الإرهاب لا تتطلب امتلاك أسلحة نووية. والأهم أن إسرائيل، التى تمتلك أسلحة نووية، قد تدفع دولاً أخرى فى الشرق الأوسط للاشتراك فى السباق النووى.

من الذى ساعد إسرائيل على إنتاج القنبلة النووية ؟

من كل ما ذكرنا يمكننا أن ندرك، أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم تدعما إسرائيل، على المستوى الرسمى، فى عملها على إنتاج سلاح نووى. فرنسا كانت

استثناء، نعم، وفقط لبعض الوقت. لكن الصورة كانت مختلفة على المستوى غير الرسمى.

بعد قيام إسرائيل مباشرة عام ١٩٤٨، جرت محاولات للبحث عن اليورانيوم، فى أراضى البلاد، وكذلك تطوير تقنية إنتاج الماء الثقيل. وتم إرسال مجموعة من العلماء إلى الخارج، إلى الولايات المتحدة وهولندا وسويسرا وبريطانيا، للتخصص فى مجال الأبحاث النووية. وفى خلال الفترة من ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠، كان ٥٦ متخصصًا من إسرائيل قد تم إعدادهم فى المعامل القومية الأمريكية فى أوك ـ ريدج وأرجون.

مع بداية عام ١٩٥٣ بدأ تعاون إسرائيل النووى مع فرنسا، ومقابل معلومات عن تقنية إنتاج الماء الثقيل واستخلاص اليورانيوم من الفوسفات، حصلت إسرائيل على تصريح بدراسة البرنامج النووى الفرنسى، والاشتراك فى تجارب نووية فى الصحراء. وعلى أساس أول نتائج لهذا التعاون، قام رئيس الوزراء بن جوريون، المدعوم بآراء اثنين من مستشاريه، والشخصيات الأكثر قربا منه، موشى ديان وشيمون بيريز، وبعد انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء مباشرة، والتى كانت تحتلها نتيجة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، بالموافقة على قرار سرى للغاية يقضى بتطوير ما أطلق عليه "النموذج النووى الإسرائيلى المستقل"[٦٥]. قرار بن جوريون هذا لم يبلغ به أحدًا من أعضاء حكومته، باستثناء ديان وبيريز.

فى خريف عام ١٩٥٧، قام بيريز بتكليف شخصى من بن جوريون بإجراء سلسلة من المباحثات السرية مع ممثلى الحكومة الفرنسية، كان من نتائجها توقيع اتفاق قامت فرنسا بمقتضاه بتوريد مفاعل نووى يعمل بالماء الثقيل لإسرائيل، ويعمل باليورانيوم الطبيعى، ومساعدات لإقامة مركز علمى بحثى على أساسه، والذى تم بناؤه بعد ذلك على وجه السرعة فى ديمونة (صحراء النقب ـ المؤلف) فى سرية تامة.

لم يمر الأمر كذلك دون مشاركة الأمريكيين. فقد قام جهاز مكافحة التجسس، المعروف بأنه محافظ فى المخابرات الأمريكية، فى عامى ١٩٥٧ و١٩٥٨، بتنظيم عمل

سرى لبعض علماء الذرة فى إسرائيل. ومن الممكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن المخابرات الأمريكية قامت بعملية تمويه، ففى عام ١٩٦٠ قام الخبراء الأمريكيون بزيارة ديمونة أكثر من مرة، وقدموا تقارير للرأى العام، بأن مفاعل ديمونة يستخدم فقط للأغراض السلمية.

إلى جانب مبنى المفاعل فى ديمونة، والذى كان من البداية مخصصا لإنتاج البلوتونيوم، أنشئ فى ناحال - سوريك، مفاعل صغير، بمساعدات أمريكية، ووصل التعاون للذروة فى يونيو عام ١٩٦٠، وفى إطار البرنامج الأمريكى "الذرة من أجل السلام". ولتأمين استمرار عمل المفاعل، قامت الولايات المتحدة خلال الفترة من ١٩٦٠- ١٩٦٦ بتوريد ٥٠ كيلوجرامًا من اليورانيوم العالى التخصيب. ومع ذلك كان هناك تأكيد على أن ناحال - سوريك ليس له استخدام عسكرى مباشر. لكن وفق رأى الخبراء، هذا المفاعل أتاح إمكانيات جيدة للعلماء التجريبيين والمهندسين العاملين فى "النموذج النووى الإسرائيلى" للتدريب.

انعكس وصول ديجول للسلطة فى فرنسا على تنفيذ "النموذج النووى الإسرائيلى" فقد انتهج ديجول سياسة متوازنة فى الشرق الأوسط، ولهذا الغرض تحول إلى تحسين العلاقات مع الدول العربية. وهذا أحدث تغييرات فى التعاون الفرنسى - الإسرائيلى فى المجال النووى. وبطلب من فرنسا، اضطر بن جوريون إلى الإعلان على الملأ عن حقيقة بناء مفاعل فى ديمونة، ولأن يعطى تأكيدًا على أنه لن يستخدم فى إنتاج أسلحة نووية. غير أن هذا التصريح الاضطرارى فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٦٠ فى الكنيست لم يعكس على الإطلاق حقيقة الأوضاع. وفى يناير عام ١٩٦١، أبلغ بن جوريون السفير الأمريكى، أنه لا يوافق على التفتيش الأجنبى للمركز النووى فى ديمونة. وفى الحقيقة أشار للسفير، أنه مستعد لأن يمنح للأمريكيين إمكانية زيارة هذه المنشأة بين الحين والآخر، لكن فقط بعد أن تمر الضجة المرتبطة بالأنباء التى نشرت فى الصحف الأجنبية عن "النموذج النووى الإسرائيلى". والتى ملأت كل صحف الدول الغربية تقريبا فى ذلك الوقت.

تباطأت بعض الشيء الأعمال الخاصة بإنتاج أسلحة نووية، لكنها لم تتوقف، بعد أن خلف بن جوريون فى رئاسة الوزراء وزير الدفاع ليفى إشكول. فى حكومة إشكول حصل كل من إيجال آلون ورئيس أركان الجيش الإسرائيلى إسحاق رابين، على سطوة كبيرة، وكلاهما كان يعتقد أن العمل فى المجال النووى يحتاج موارد مالية ضخمة، من الممكن أن تصرف على شراء أسلحة تقليدية. وتحت ضغط هذا الرأى، وكان إشكول يشغل منصب وزير المالية قبل توليه رئاسة الحكومة وكان يعرف كم يساوى المشروع النووى، قرر أن "يستبدل" بالزيارة التفتيشية للخبراء الأمريكيين إلى ديمونة موافقة الرئيس الأمريكى ليندون جونسون على توريد صفقة أسلحة تقليدية كبيرة لإسرائيل، تشمل قاذفات مقاتلة من طراز "سكاى هوك" ودبابات "باتون" ومنظومات أسلحة حديثة أخرى.

غير أنه فى أثناء رئاسة إشكول للحكومة، ظهرت ألمانيا الغربية على "المسرح النووى" الإسرائيلى. فى عام ١٩٦٨، تم عقد صفقة سرية، أعطت إسرائيل بمقتضاها لألمانيا الاتحادية تكنولوجيا الليزر لتخصيب اليورانيوم، ودفعت ٣.٧ ملايين دولار أمريكى مقابل الحصول على ٢٠٠ طن يورانيوم. وتم توصيل الحمولة لإسرائيل بطريقة خاصة، فقد تم شحن اليورانيوم على السفينة "شييرسبيرج" داخل حاويات، عليها علامة "جمعية الطاقة الذرية الأوروبية"، وفى البحر المتوسط اعترضت مجموعة من عملاء الموساد السفينة وقاموا بتوجيهها إلى إسرائيل.

الرئيس جونسون: بلاغ المخابرات الأمريكية لا يظهر لأحد

جرى تنفيذ هذه العملية بعد أن أصبح البرنامج النووى الإسرائيلى معروفا، وبسبب توقف توريد اليورانيوم المخصب من الولايات المتحدة. العملية بدأت من أن لجنة الطاقة الذرية الأمريكية اكتشفت عدم التطابق بين كميات اليورانيوم عالى التخصيب، الذى وردته الحكومة الأمريكية خلال الفترة من أبريل ١٩٦٤ وحتى نوفمبر ١٩٦٥ لشركة نوميك، والمنتج الذى وردته هذه الشركة للمستهلك[٦٦].

لم تكن الإجابة عن الأسئلة المرتبطة بضياع المواد الانشطارية، صعبا لهذه الدرجة، كانت نوميك معينة رسميا بصفتها شركة وكالة للاستشارات التقنية وإعداد الاختصاصيين لإسرائيل فى الولايات المتحدة.

فى ديسمبر عام ١٩٧٧، وقف نائب مدير المخابرات الأمريكية لشئون العلوم والتكنولوجيا كارل داكيت (من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٦ـ المؤلف) أمام لجنة التنظيم النووى، وفى تصريحاته أمام الاجتماع المغلق للجنة، اعترف داكيت أنه بالتحديد فى ذلك الوقت عندما حدث تسرب لليورانيوم المخصب من نوميك، تأكد تصنيع إسرائيل للسلاح النووى. ووفق كلمات داكيت، أعدت المخابرات الأمريكية تقييمًا للإمكانيات النووية الإسرائيلية، وصلت لاستنتاج أن إسرائيل منذ عام ١٩٦٨ تمتلك سلاحًا نوويًا. أما مدير المخابرات الأمريكية ريتشارد هيلمس فقد سلم هذه المعلومات لرئيس الولايات المتحدة ليندون جونسون، الذى طلب التكتم على هذه المعلومات.

فى غضون ذلك تطور البرنامج النووى الإسرائيلى فى أثناء حكم جولدا مائير، التى أصبحت رئيسة للوزراء عام ١٩٦٩، بعد وفاة إشكول، وانضم اثنان من أكثر المتحمسين لهذا البرنامج، ديان وبيريز إلى حكومتها.

لم يعق برنامج إسرائيل النووى تعيين رابين رئيسا للوزراء، بعد استقالة مائير وديان. فعندما كان رابين سفيرا لإسرائيل فى واشنطن لمدة خمس سنوات. حينها كان ينتسب إلى هؤلاء الذين يعتقدون أن العقيدة النووية الإسرائيلية المستقلة لا تساعد على تطوير العلاقات مع الولايات المتحدة. إلا أنه عندما أصبح رئيسا للوزراء لم يفعل أى شيء من أجل إعاقة أعمال إقامة "النموذج النووى الإسرائيلى المستقل" فى إسرائيل.

فى أبريل ١٩٧٦، قام رئيس وزراء جنوب أفريقيا فورستر بزيارة لإسرائيل ووقع اتفاق تعاون عسكريًا وعلميًا تكنولوجيًا. على هذا الأساس بدأ الاستعداد المشترك الجنوب أفريقى ـ الإسرائيلى لإجراء تجارب نووية فى صحراء كلهارى. فشلت التجربة التى كان محددا لها صيف ١٩٧٧، نتيجة الاعتراض الواسع للمجتمع الدولى. لكن بعد

عامين، عندما أصبح بيجين رئيسا لوزراء إسرائيل، رصد قمر صناعى أمريكى تفجيراً نووياً بالقرب من شواطئ جنوب أفريقيا. إلا أن الإدارة الأمريكية احتفظت بهذه المعلومات فى السر. لكن بعد شهر خرج السر إلى العلن عن طريق أحد الموظفين فى وزارة الخارجية الأمريكية الذى انتقل للعمل فى محطة تليفزيون أ. بى. سى. وفى ٢٢ فبراير ١٩٨٠، أكد مراسل محطة تليفزيون أخرى هى سى.بى.إس أن إسرائيل بالتعاون مع حكومة جنوب أفريقيا أجرت تجربة نووية.

استمر البرنامج النووى الإسرائيلي ومازال مستمرا فى الاستكمال، قال عالم الذرة الإسرائيلي موردخاى فانون، الذى قضى فى السجن خمسة عشر عاما لأنه كشف للعالم الأسرار النووية الإسرائيلية، إن "قلقه بدأ يزداد عندما أدرك بأى كميات تنتج إسرائيل أسلحة نووية".

وكما هو معروف على أساس تعديل سايمينجتون - جلين، منع الكونجرس توريد أسلحة من الولايات المتحدة للدول التى لديها برنامج نووى. غير أن الولايات المتحدة لم تستخدم هذا الحظر فيما يتعلق بإسرائيل، على الرغم من أنها كانت تعلم بامتياز ما توصل إليه العسكريون الإسرائيليون من إنجاز فى المجال النووى. فى عام ١٩٧٤ تأكدت المخابرات الأمريكية من حقيقة إنتاج إسرائيل لأسلحة نووية، وأعلنت وزارة الدفاع الأمريكية فى يوليو ١٩٧٥ عن توريد ٢٠٠ صاروخ "لينس" من نوع "أرض - أرض" والقادر على حمل رءوس عادية ونووية لهذا البلد. كما حصلت إسرائيل على عدد كبير من طائرات إف - ١٦ وإف - ١٥، وهى طائرات يمكنها حمل قنابل نووية.

صراع من أجل الاحتكار - الهجوم على العراق

أضاف وصول حكومة مناحم بيجين للسلطة عام ١٩٧٧، نتيجة فوز تكتل الليكود فى الانتخابات "للنموذج النووى الإسرائيلى"، بعدا إضافيا آخر، تأمين الاحتكار الإسرائيلى النووى فى الشرق الأوسط. وأصبح الهدف هو العراق، على الرغم من

إعلان الوكالة الدولية للطاقة الذرية، أن المفاعل النووى الذى أنشئ بمساعدة فرنسية، ليس لديه القدرة على إنتاج الخامات اللازمة لإنتاج أسلحة نووية.

وتطورت الأحداث على النحوالتالى:

يوم ٤ أبريل ١٩٧٩، ظهر ثلاثة "سياح" يحملون جوزات سفر أوروبية، فى مدينة تولون الفرنسية، الواقعة على شاطئ البحر المتوسط. بعد يومين انضم إليهم أربعة "سياح" آخرون، واستقلوا سيارتى شحن ليستا كبيرتين واتجهوا إلى مكان، لا- سين- ستور- مير، حيث كان يوجد فى مخازن كونسرسيوريم كنيم الفرنسى، أجزاء مهمة من مفاعل مخصص تمهيدا لإرساله إلى العراق. تلا ذلك انفجار.

فى ١٣ يونيو١٩٨٠، تم قتل يحيى المشد، عالم الذرة المصرى، فى فندق "ميرديان" فى باريس، وكان المشد يعتبر أفضل عالم عربى بين هؤلاء الذين عملوا فى المفاعل النووى العراقى.

فى ٧ أغسطس ١٩٨٠، انفجرت قنبلة بالقرب من مقر شركة "سنيا تيخينت"، وبالقرب من منزل المدير العام ماريوفيوريللى فى روما. هذه الشركة وافقت من قبل على المشاركة فى بناء المفاعل النووى فى العراق.

فى ٧ يونيو ١٩٨١، قامت ثمانى طائرات قاذفة- مقاتلة من طراز إف- ١٦، تحت حماية ستة طائرات قاذفة من طراز إف- ١٥، باختراق المجالين الجويين الأردنى والسعودى، وظهرت فى سماء العراق، وهاجمت المفاعل النووى، قبل أن يتم تشغيله. بتنفيذ هذه العملية لم يأخذ بيجين فى اعتباره، ليس فقط القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة، ولكن وضع شريكه فى كامب ديفيد السادات فى موقف صعب، وهو الذى التقى بيجين قبل عدة أيام من عملية "بابل" (هذا كان الاسم الكودى للهجوم على المفاعل العراقى- المؤلف).أنا واثق من أن السادات لم يكن على علم بخطة العملية، فالمخاطرة كبيرة جدا، والخوف من أن يفشل بيجين لم يعط مجالاً للمصارحة. لكن انتشرت فى العالم العربى رواية أن السادات كان يعلم بالعملية قبل حدوثها.

فيما يتعلق بالولايات المتحدة، فإنها بمنطق الأشياء، ما كان يمكن ألا تعرف ما تعد له إسرائيل من عمل. بالإضافة إلى ما ذكرنا فى السابق، فى ذلك الوقت كانت قد صدرت للعربية للسعودية أول مجموعة من طائرات تعمل بنظام أواكس، بأفرادها الأمريكيين، والذين لا أدرى لماذا لم تكتشف الطائرات الإسرائيلية، فى أثناء طيرانها إلى العاصمة العراقية. لكن الحقيقة، بعد ظهور رد الفعل الدولى السلبى الحاد، بما فى ذلك ردود فعل من دول صديقة للولايات المتحدة، قامت واشنطن بإدانة العمل الإسرائيلى، وقامت بشكل استعراضى بوقف تسليم توريد شحنة قاذفات لإسرائيل، وفقا لعقد كان قد وقع من قبل. غير أنه بعد أن هدأت "العاصفة" تم توريد الطائرات.

الهدف القادم إيران

فى القرن الحادى والعشرين، وخاصة بعد أن أصبح بنيامين نتنياهو رئيسا للوزراء، أصبحوا فى العالم يتحدثون عما تعد له إسرائيل من ضربة لأهداف نووية إيرانية. فى إسرائيل نفسها دارت حملة دعاية لتأييد هذه الضربة، إذ من غير المقبول قيام إيران، التى تتحدث عن أنها ضد وجود الدولة العبرية، بإنتاج أسلحة نووية. لدى أساس لاعتبار أن هذه الضربة لن تحدث، حتى خروج هذا الكتاب إلى العالم، لأن الإدارة الأمريكية تعيق هذا الأمر.

تستطيع إسرائيل القيام بقصف صاروخى وبالقنابل للمنشآت النووية الإيرانية دون مشاركة الولايات المتحدة. لكن من غير المحتمل أن تنفذ هذه العملية إذا لم تحصل على موافقة و"ضوء أخضر" من الولايات المتحدة. فى غضون ذلك مثل هذا السيناريو غير مفيد على الإطلاق للرئيس أوباما وللمحيطين به، فقد اقتربت فترة ما قبل الانتخابات، والتصعيد الحتمى للموقف الدولى، فى حالة الضربة الإسرائيلية، سيكون فى مصلحة الخصوم من الحزب الجمهورى، وأيضا من غير المستبعد تماما، أن تقوم إيران إذا تعرضت للهجوم بفعل أى شىء من أجل تعقيد الموقف فى جارتها العراق،

بالتحديد فى الوقت الذى يقوم فيه الأمريكيون بسحب قوات الاحتلال من العراق. وهل تستطيع الولايات المتحدة، المتورطة بالفعل فى أفغانستان والعراق، أن تأخذ على عاتقها أعباء عمليات عسكرية واسعة ممكنة بالفعل بعد الضربة الإسرائيلية؟ وتنامى النشاط الإرهابى الموجه للولايات المتحدة وحلفائها، والذى لا مفر منه.

عندما يديرون حملة العداء لإيران فى إسرائيل، يتذكر قادتها حاليا، كم كانت العلاقات وطيدة بين الدولتين فى عهد الشاه الإيرانى. وفى نفس الوقت يكيلون الاتهامات لهؤلاء الذين يطورون علاقاتهم الاقتصادية مع طهران بعد الثورة الإسلامية، وهم الذين باعوا لها بعض الأسلحة الدفاعية. بهذا الخصوص، كنت أود أن أذكر بمشهد تاريخى للشخصيات الرئيسية فى هذا المشهد، والذين كانوا "خلف كواليسه" فى إسرائيل والولايات المتحدة.

إسرائيل وإيران جيت

بعد إسقاط نظام الشاه فى يناير ١٩٧٩، توترت العلاقات الأمريكية - الإيرانية بشكل غير عادى. ففى نوفمبر ١٩٧٩ تم احتجاز العاملين فى السفارة الأمريكية بطهران رهائن. وكرد فعل قطعت الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية مع إيران، وفرضت حظراً تجارياً عليها، وجمدت الودائع الإيرانية فى بنوكها. وبعد التوصل إلى تحرير الرهائن، قامت الولايات المتحدة بفك الحصار الاقتصادى عن إيران. ولكنها حافظت على حظر بيع الأسلحة لإيران. وفى نفس الوقت بقيت مسألة تحرير عدد من الأمريكيين، المخطوفين فى لبنان من قبل "حزب الله" الوثيق الصلة بإيران، دون حل.

فى ذلك الوقت كان روبرت ماكفارلين يشغل منصب مساعد رئيس الولايات المتحدة لشئون الأمن القومى، وهو الذى أصر على القيام بعمليات سرية ضد إيران. لكن القيام بهذه العمليات، كان يعانى من صعوبات، فعلاقات المخابرات الأمريكية التى كانت قائمة مع مخابرات الشاه، السافاك، كانت قد انقطعت، ولم تكن المخابرات

الأمريكية، عمليا، تمتلك اتصالات قوية، من الممكن الاعتماد عليها فى طهران. فى مثل هذه الظروف ظهرت على السطح المجموعة التي اقترحت اللعب بورقة مثل، كيف تورد أسلحة أمريكية لإيران، وعن طريق هذا يمكن التأثير على القيادة الإيرانية. فى الحقيقة، كان أحد الأهداف الرئيسية من ذلك تحرير الرهائن من مواطنى الولايات المتحدة.

أعد اثنان من موظفى مجلس الأمن القومى، دونالد فوتير وهوارد تيتشر، مشروع قرار، لتبرير ضرورة التقارب مع إيران. وكما اتضح فيما بعد، كان الهدف من لجنة الكونجرس التى تشكلت التحقيق فى أحداث "إيران جيت"، هذا القرار لم يسلم للرئيس ريجان للتوقيع عليه، لأنه فى اللحظة الأخيرة اعتقدوا أنه من الممكن الذهاب بشكل رسمى. وحينها اقترحت إسرائيل تقديم خدماتها، وأصبحت القناة الرئيسية للصفقات السرية مع إيران.

فى الحقيقة، كانت إسرائيل تسعى وراء أهدافها أيضا، والتى كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون تجارية فقط، على الرغم من أن الأهداف التجارية كانت موجودة بلا شك. وأراد رئيس الوزراء الإسرائيلى بيريز، حينها السابق، أن يتقرب أكثر للولايات المتحدة، فأظهر لها ديناميكية إسرائيل التى لا بديل عنها للقيام بعمليات سرية فى الشرق الأوسط، والمهمة الثانية كانت التقارب ولو أن هذا سيبدو متناقضا مع إيران الإسلامية. أدركت القيادة الإسرائيلية عدم إمكانية استئناف تلك العلاقات العميقة، والمتعددة، التى كانت بين إسرائيل ونظام الشاه، لكنها سعت لبناء اتصالات مع إيران بعد أن ذهب ذلك النظام ولم يعد موجودا. وبطريقة أخرى، من الصعب إدراك لماذا اجتمع بيريز أكثر من مرة منذ يناير ١٩٨٥، ليس فقط بتجار السلاح أ. شويمير ويا. نمرودى، لمناقشة سرية للمشاكل، ولكن أيضا مع المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية د. كيمحى. فى أثناء هذه الاجتماعات تم التوصل إلى اقتراح بتوريد صورايخ "توو" المضادة للدبابات، والموجودة فى تسليح الجيش الإسرائيلى، وصواريخ "هوك" الأمريكية الإنتاج والمضادة للطائرات. لكن بالطبع، كان يفترض أن تحصل

إسرائيل على ضمان بأن تعوض الولايات المتحدة إسرائيل عما ستعطيه لإيران بتوريدات إضافية من الولايات المتحدة. أريد أن أؤكد على أن هذه الخطة كانت بمبادرة ومن اختراع شخصيات إسرائيلية مسئولة.

وعلى وجه السرعة بدأ العمل. فى مايو ١٩٨٥ التقى بيريز مع مستشار من مجلس الأمن القومى مايكل ليدين، ونائب مدير جهاز مجلس الأمن القومى الأمريكى، المقدم أوليفر نورت. وفق كلمات ليدين، طلب بيريز منه إخطار ماكفارلين عن استعداد إسرائيل أن تبيع لإيران أسلحة، إذا لم يكن هناك مانع لدى حكومة الولايات المتحدة، ولم يكن هناك اعتراض. وباقتراح من ماكفارلين، دعا الرئيس ريجان مجموعة تخطيط أمن قومى صغيرة، عادة ما تناقش فى هذه المجموعة أكثر القضايا سرية. دعا جورج شولتز وزير الخارجية، ووزير الدفاع كريستوفر واينبرجر ومدير المخابرات كيسى، ونائب الرئيس جورج بوش ور. ماكفارلين ونائبه الأدميرال بوينديكستر. بعد مرور عدة أيام على هذا الاجتماع اتصل ريجان هاتفيا بماكفارلين، وأعلن عن موافقته على أن تبيع إسرائيل لإيران الأسلحة التى طلبتها، مع التعويض المناسب لتل أبيب عن ذلك. ولم يتم إخطار الكونجرس الأمريكى بأى شىء متعلق بهذا الأمر.

٢٠ أغسطس سلم ليدين فى لندن لكمحى الشفرة السرية لإبلاغ مساعد الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى مباشرة بكل تفاصيل الصفقة. بعد عشرة أيام وصلت أول شحنة من ١٠٠ صاروخ "توو" إلى إيران. غير أن هذا لم يؤد إلى تحرير الرهائن، فقد طلبت إيران بيعها ٤٠٠ صاروخ إضافى. وإسرائيل وافقت. وفى ١٤ سبتمبر تم تفريغ ٤٠٨ صاروخ أمريكى واردة من إسرائيل فى مدينة تبريز. فى اليوم التالى أطلق سراح القس بنجامين ويير، الذى كان مختطفا فى إيران. وأعطى وزير الدفاع الأمريكى واينبرجر أوامره بتعويض إسرائيل عن الصورايخ التى تم توريدها لإيران.

قدم كيمحى وليس شخص آخر غيره، إلى ماكفارلين اقتراحًا بإرسال شحنة أسلحة أخرى من إسرائيل إلى إيران، هذه المرة صواريخ "هوك" المضادة للطائرات.

فى ذلك الوقت انضم إلى الصفقة وزير الدفاع الإسرائيلى إ. رابين، الذى يجب إعطاؤه حقه، فقد اهتم بتعويض إسرائيل عن طريق توريد صواريخ أمريكية.

لم يكن الأمريكيون راضين تماما، نظرا لبقاء بعض الرهائن غير محررين، والأهم أنه حتى تلك الحظة لم يتم بناء علاقات ثقة مع أى مجموعة من القادة فى إيران، ولذلك قرر جهاز مجلس الأمن القومى أخذ الموضوع على عاتقه.

بعد استقالة ماكفارلين فى ٣٠ نوفمبر، أصبح مساعد الرئيس ريجان لشئون الأمن القومى الأدميرال بوينديكستر. ويبدو أن الإسرائيليين لم تكن لديهم رغبة فى البقاء على هامش العملية، حيث أبلغوه يوم ٢ يناير ١٩٨٦ بفكرة جديدة، من أفكار مساعد رئيس الوزراء الإسرائيلى لشئون مكافحة الإرهاب (!) أ. نير. وكانت تنحصر فى الآتى: تقوم إسرائيل بتسليم إيران ٢٠ من أعضاء حزب الله المختطفين من قبل القوات اللبنانية الموالية لإسرائيل، وفى نفس الوقت تسليمها ٤٠٠ صاروخ "توو"، مقابل أن يقوم "حزب الله" بإطلاق سراح كل الرهائن الأمريكيين. ولم تشترط الصفقة وقف قصف "حزب الله" للجليل الشمالى، من الواضح أن القادة الإسرائيليين، لم تكن لديهم رغبة فى المساومة. فى واشنطن وافقوا على الخطة الإسرائيلية.

تم توريد أول شحنة صواريخ "توو" وصلت من إيلات بواسطة طائرة إسرائيلية إلى مدينة بندر عباس يوم ١٨ فبراير، والشحنة الثانية ٢٧ فبراير. لكن لم يتم إطلاق سراح أى من الرهائن وقناة الاتصال الإسرائيلية لم تعد تعمل، حينها توجه وفد برئاسة ماكفارلين إلى طهران، وكان يتصرف "بشكل شخصى". ضمن الوفد كان المعين من جانب رئيس الوزراء الإسرائيلى كممثل له أ.نير، والذى قدموه فى طهران على أنه أمريكى. ثم السفر إلى لندن، ثم مفاوضات مملة فى مدن أخرى. فى نهاية الأمر نشرت إحدى المجلات اللبنانية تحقيقا عن زيارة ماكفارلين لإيران، وقامت عاصفة من الاستياء فى الولايات المتحدة، واتضح الجانب الآخر من الصفقة، أما الأموال الناتجة عن بيع الصواريخ لإيران، وصلت "للكونتراس" فى نيكاراجوا.

تراكمت الفضيحة وكبرت مثل كرة الجليد المتدحرجة. وفى ديسمبر ١٩٨٦، اعترف ريجان فى خطاب بث بالإذاعة إلى الأمة، أنه تم "ارتكاب" أخطاء فيما يخص إيران. وأعلن عن استقالة مساعد الرئيس لشئون الأمن القومى بويندكستر، والمقدم نورث، وتشكلت لجنة برئاسة السيناتور ج. تاوير لبحث دور وطريقة عمل مجلس الأمن القومى فى "تنفيذ السياسة الخارجية، والسياسة فى مجال الأمن القومى". واستمر الاستماع فى الكونجرس حول قضية "إيران - "كونتراس" ثلاثة أشهر تقريبا. لم تجر إسرائيل أى تحقيقات. وأصدر الرئيس الأمريكى بوش عام ١٩٩٢ قبل أسبوعين من خروجه من منصب الرئيس عفوا عن المشاركين فى "إيران جيت".

الفصل الحادى والعشرون

"الربيع العربى"

هذا الذى حدث فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى شتاء ٢٠١١، لم يكن له مثيل. اندلعت مظاهرات حاشدة ضد الأنظمة، الواحد تلو الآخر، فى البداية كانت تونس، ثم تلتها مصر، وتبعتها اليمن وليبيا والبحرين وسوريا، اندلاع هذه الموجة وصل لعدد من الدول العربية الأخرى. انفجار عدم الرضى للجماهير الشعبية العريضة هذه المرة لم يكن موجها ضد الأجانب، بل ضد "أنظمتهم".

المطالب التى سمعت فى القاهرة بميدان التحرير، وكذلك فى الدول العربية الأخرى والمدن، كان لها طابع إنسانى عام، انتخابات نزيهة، حرية الكلمة والتظاهر، والتخلى عن التسلط والفساد المتوغل فى كل نواحى الحياة الاقتصادية - الاجتماعية، حتى فى البحرين حيث حدث الصدام بين اتجاهين إسلاميين، الأغلبية الشيعية، والأقلية السنية التى تمتلك السلطة، لم تأخذ الأحداث طابعًا دينيًا، لكن الكل كان يطالب بالمساواة ورفض التمييز، ومكافحة الفساد.

الخبراء أخطأوا فى حساباتهم

كان "الربيع العربى" الذى أدى إلى الإطاحة برئيس تونس بن على، ورئيس مصر حسنى مبارك، الذى حكم مصر عشرات السنين، وترنح بقوة عدد من الأنظمة المستبدة

فى دول عربية أخرى، مفاجأة للكثير من الخبراء، ويجب أن أعترف أننى من بينهم، مؤلف هذا الكتاب. سأذكر عدداً من "عدم التماهى" مع الواقع، التى انتشر حتى "الربيع العربى". استبعد الخبراء عمليا إمكانية الخروج ضد الأنظمة فى وقت واحد، ويجب القول، للعدل، انعكس مفهوم إحلال الفكرة العربية العامة التى كانت موجودة واضمحلت فى القرن الماضى فى العالم العربى، بقومية الدولة. ولم يتم تقييم تأثير إنجازات الحضارة الحديثة، مثل التليفزيون والإنترنت والهواتف المحمولة، وكل ما ساعد على تفعيل نظرية "الدومينو"، أى انتشار الأحداث التى بدأت فى تونس، على الدول العربية الأخرى، حق التقييم. وثبت كذلك عدم صحة القول بأن العملية الثورية فى الدول العربية أصبحت جزءاً من الماضى بعد الانتصار على الاستعمار.

بقى استنتاج واحد لم تؤكده أحداث ٢٠١١، وينحصر فى أن إمكانات التغيير فى طابع السلطة فى الدول العربية ارتبط فقط بمستقبل واحد هو فوز الإسلاميين المتطرفين. القوى المعادية للأنظمة فى الدول العربية المختلفة تتميز عن بعضها بعضاً. لكن المتطرفين الإسلاميين، وأؤكد المتطرفين، لم يتقدموا صفوف المتظاهرين فى أى دولة من دول "الربيع العربى". الدليل على ذلك رد فعل اثنين من الزعماء الدينيين المتعارض على أحداث القاهرة، والتى أملاها فى الغالب، وكما أتصور، القبول السياسى لما يحدث. الزعيم الدينى لإيران آية الله خامنئى، أطلق على هذه الأحداث "ثورة إسلامية" ضد مبارك، الذى تعاون مع الولايات المتحدة وإسرائيل، بينما أطلق مفتى السعودية على المظاهرات المعادية للنظام، "مؤامرة من أعداء الإسلام ومن هؤلاء الذين يدعمونهم".

عدم الفهم الكامل، ظهر كذلك فى عدم تقدير دور الشباب فى العالم العربى. فبعد صعود الموجة الثورية فى تونس، قامت "حركة ٦ أبريل"، التى يبلغ عدد أعضائها وفق بعض المصادر حوالى ٧٠ ألف، يجمعهم بشكل أساسى شبكات التواصل الاجتماعى فيس بوك وتويتر، باللجوء لشبكات التواصل، داعية إلى الاشتراك فى المظاهرات المعادية لمبارك.

كان مفاجأة لكثير من المراقبين، وخاصة من روسيا والصين، وعدد كبير من الدول الآسيوية والأفريقية ودول أمريكا اللاتينية، التى تعودت أن ترى خلف كل التحولات فى الشـرق الأوسط "يد واشنطن" أو دولة غربيـة أخـرى، أن "الربيـع العـربى" لم يكن من تنظيم الخارج. فالولايات المتحدة وحلفاؤها كانت تناسبها الأنظمة التى كانت قائمة، على الأقل فى تونس ومصـر واليمن والبحرين. فقد كانت العلاقات مع هذه الأنظمة وثيقة، وكانوا ينفذون سياسة معادية للإسلاميين المتطرفين، وكانوا يحاربون المنظمات الإرهابية، وكانوا يتعاونون بقوة مع الولايات المتحدة.

لكن من ناحيـة أخرى هل كـان إدراك الولايات المتحدة وحلفائها لعدم قـوة هذه الأنظمة المستبدة الفاسدة بما فيه الكفاية، قد لعب دورا فى تنظيمها "الربيع العربى" الذى خرج بعد ذلك عن السيطرة؟ فيما يتعلق بتونس ومصـر واليمن والبحرين، أنا لا أتفق مـع هذا الرأى، غيـر أنه، وكمـا أظهـرت الأحداث، هذا لا يعنى سلبيـة الولايات المتحدة ودول الناتو الأخرى، الذين فعلوا كل شىء ممكن لكى يقللوا من خسائرهم التى قـد تنتج عن "الربيع العـربى"، والصـمـود فى المواقع الجـديدة التى نشـأت فى العـالم العربى. وأكثر مـن ذلك "انغمس" الناتو فى "الربيع العربى" فى كل من ليبيا وسـوريا، وأصبحوا يستخدمونه فى مصلحة الغرب. ففى ليبيا تدخل الناتو بشكل مباشر من أجل إسقاط نظام معمر القذافى. ومن الصـعب التخلص من إحسـاس العمل من الخـارج، بهدف تنظيم وتوجيه المعارضة لإسقاط نظام بشار الأسد فى سوريا.

الولايات المتحدة: من الذهول إلى النشاط

عندما بدأت المظاهرات الجماهيرية المطالبة بإقالة الرئيس مبارك فى مصـر، كنت فى واشنطن، حيث تم تنظيم مائدة مستديرة من أكاديميى البلدين، لمناقشة تسـوية النزاع العربى ـ الإسرائيلى. شارك من الجانب الأمريكى عدد من الدبلوماسيين رفيعى المستوى، وسفراء سابقون للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وموظفون فى الخدمة

من ممثلى وزارة الخارجية. التقيت كذلك مع بعض زملائى القدامى، بما فيهم مادلين أولبرايت. وداخلنى انطباع أن المظاهرات الواسعة ضد تلك الأنظمة العربية، التى كان يعتقد أنها شركاء أوفياء للولايات المتحدة، استدعت صدمة حقيقية فى واشنطن. للحقيقة فى الصحافة ظهرت أخبار من موقع ويكيليكس، أن السفيرة الأمريكية فى القاهرة مارجريت سكوبى، أخطرت واشنطن، من خلال برقية مشفرة عام ٢٠٠٨ باتصالاتها مع ممثلى المنظمات الشبابية المعارضة. لكن سكوبى، فى نفس الوقت، تحفظت فيما يتعلق بحجم هذه الاتصالات وقالت إنها ليست كبيرة، والخطط التى حملتها المعارضة لا تمثل شيئًا جوهريًا.

بعد ذهول واشنطن الأول المرتبط "بالربيع العربى"، قامت واشنطن بنشاط غير مسبوق. وكما قال لى بعض العالمين ببواطن الأمور، لم يترك الرئيس أوباما التليفون متحدثا مع مبارك، واتصال دائم ومستمر كان مع الجنرال عمر سليمان، الذى عين فى بداية الأحداث فى منصب نائب الرئيس فى مصر، كما كان كبار المسئولين فى البنتاجون على اتصال دائم بالعسكريين المصريين. كان هناك دلائل على أن الولايات المتحدة، قد اقتنعت باتساع وشمول الانفجار الثورى كل مصر، وراهنت فى البداية على الجنرال سليمان، على اعتبار أنه من الممكن أن يحل محل مبارك. هذا الخط لم يعلن عنه، خاصة وأن الجنرال سليمان الوثيق الصلة بمبارك، ورئيس المخابرات العامة، كان مضطرا للخروج من مسرح الأحداث. وبالتحديد فى تلك الفترة، بدأت تدعو واشنطن بصوت عال لتغيرات ديموقراطية فى مصر، حدث هذا نتيجة الخوف بالدرجة الأولى، من أن تأخذ المظاهرات فى مصر طابعًا معاديًا لأمريكا.

فى ظروف مثل التى نشأت، سارت الولايات المتحدة فى طريق البحث عن حل يسمح بالجمع بين من أطلقت عليه نصير للتغييرات الديموقراطية مع الحفاظ على قوى حتى لو لم تكن تشع ديموقراطية فى مصر، لكنها مقبولة للولايات المتحدة. فى واشنطن لا يدركون جيدا أن مصر أكبر دولة عربية من حيث عدد السكان ٨٠ مليون. وهى

الدولة الأكثر تأثيرا فى العالم العربى، تمر فى أراضيها قناة السويس، الطريق الأساسى للسفن الضخمة المحملة بالنفط للولايات المتحدة. والدليل تصريحات وزيرة الخارجية هيلارى كلينتون فى أول مؤتمر للسفراء الأمريكيين حول العالم عندما قالت: "لقد أثبتت الأحداث الأخيرة في كل الشرق الأوسط، أنه من الممكن أن يسحب البساط من تحت أقدامنا، وكم هو مهم بالنسبة لنا الحفاظ على موقعنا القيادى فى العالم"، واتهمت الدبلوماسيين الأمريكيين، الذين وفق كلماتها، بأنهم غفلوا عن الأحداث الأخيرة فى مصر وتونس والدول العربية الأخرى، لأنهم انغمسوا جدا فى كتابة التقارير "دون الخروج إلى خارج جدران السفارات".

ظهر جليا سعى الولايات المتحدة للحفاظ على موقعها فى مصر بعد "الربيع العربى"، والجمع بين الإعلان عن دعم التغيرات الديموقراطية، مع الاعتماد فى نفس الوقت على الجيش. فقد كانوا فى واشنطن يدركون أن الحراك الثورى، لم يحطم مؤسسات الدولة، التى يعتبر الجيش محورها. والجيش غير مسيس، أى ليس كما كان إبان حكم ناصر، لكنه استمر فى لعب دور كبير فى الحياة فى مصر. فبعد الإطاحة بالملك فاروق، تعاقب على مصر أربع رؤساء نجيب وناصر والسادات ومبارك وكان جميعهم من العسكريين، أكثر من نصف المحافظين فى مصر من العسكريين السابقين، كما يسيطر العسكريون على جزء كبير من الاقتصاد. أى أنه من الممكن اعتبار أن قيادات الجيش كان يناسبها نظام مبارك، ورغم ذلك لم يتم استخدام الجيش لمواجهة المظاهرات المعادية لمبارك.

من الصعب افتراض أن واشنطن لن تقوى اتصالاتها مع القيادات العسكرية العليا، بعد الانتخابات فى مصر. والرهان على أن الجيش فى مصر سيعود إلى ثكناته وسيخرج من المسرح السياسى والحياة الاقتصادية، ليس له محل من التفكير، كما أن رفض الجيش ترشيح أحد لانتخابات الرئاسة لا يغير من الأمر شيئًا.

رهان الولايات المتحدة المستمر على الجيش، وكذلك استمرار عدم التحديد الذى يسود الساحة السياسية بعد "الربيع العربى"، بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة

تخشى أن تبالغ فى لعبة الديموقراطية، مما يؤدى إلى جنوح معادٍ لإسرائيل فى السياسة "بعد ربيع" العالم العربى. وقد لوحظ هذا الجنوح بالفعل فى مصر، حيث أدى المزاج المعادى لإسرائيل إلى الاعتداء على سفارة إسرائيل يوم ١٠ سبتمبر ٢٠١١، وهو الأمر الذى أدى إلى أن يضطر العاملون فى السفارة وعلى رأسهم السفير لمغادرة مصر على وجه السرعة(٦٧). وكان مقتل جنود من حرس الحدود المصريين فى سيناء، راحوا ضحية القصف الإسرائيلى لمنطقة الحدود مع قطاع غزة، هو الذى أثار المعتدين على السفارة، فيما بعد أعلنت إسرائيل أن إصابة مبنى نقطة الحدود كان صدفة. هكذا أم غير ذلك، لكن ليس هناك أساس للاعتقاد بأن إسرائيل ستتوقف عن قصف قطاع غزة من الجو، كرد فعل على القصف الصاروخى لأراضيها من قطاع غزة، وهو من الممكن أن يجر "الشارع" المصرى، الذى حصل على حرية أكثر بكثير من تلك التى كانت أيام مبارك إلى أعمال معادية لإسرائيل بشكل مباشر. والدليل على ذلك سلسلة تفجيرات خط الغاز، الذى تحصل بواسطته إسرائيل على الغاز من مصر. حتى الآن لم تصبح الأعمال المعادية لإسرائيل سياسة للسلطات المصرية الجديدة. لكن وضع ما "بعد الربيع" من الواضح أنه يضيق أمامهم مجال المناورة.

رغم أن كل دول "الربيع العربى" تشترك فى عدم الرضى عن الأنظمة المستبدة، لكن لدى الولايات المتحدة مدخل سياسى مختلف لكل دولة على حده. مثال على ذلك من الممكن أن تكون البحرين، حيث تم سحق الحركة الجماهيرية ضد سيطرة النخبة السنية، بواسطة الجنود الذين استقدموا من العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، وصمت المناضلون الأمريكيون ضد الأنظمة المستبدة والغيورون على الديموقراطية، فى هذه المرة. لا أستبعد أن واشنطن كانت تخشى أن تكون الجماهير الشيعية المعادية للنظام فى البحرين، لعبة إيرانية. لكن ممكن، وهذا هو الأهم، يكون نتيجة أن الأسطول الخامس الأمريكى يتخذ من البحرين قاعدة له.

نقلت صحيفة "ول ستريت جورنال" عن مسئولين أمريكيين رسميين: "كل ما تفعله الولايات المتحدة كرد فعل على الأحداث فى الشرق الأوسط، ينظر إليه من خلال منظور، هل سيضر هذا إيران أم سيساعدها"[٦٨]. من الواضح أن هذا ينعكس تماما، على التوجة الأمريكى فيما يتعلق بسوريا. فسوريا لديها علاقات وثيقة مع إيران، ومنطق هذا من الممكن أن نفهمه، حتى من تلك الجلسات التى أتيحت لى مع والد الرئيس بشار الأسد، حافظ الأسد، فقد قال لى أكثر من مرة، إن سوريا لا تستطيع أن تواجه إسرائيل بمفردها، خاصة عندما خرجت مصر والأردن من الحالة النشطة للصراع. دمشق كانت طوال الوقت تخشى، وأعتقد أن هذا مازال قائما حتى اليوم، الصدام مع إسرائيل.

أصبح إسقاط النظام الموجود فى سوريا هدفًا للولايات المتحدة، مستغلة عدم رضى سكان سوريا عن غياب إصلاحات ديموقراطية فى البلاد، ذكرت صحيفة "الواشنطن بوست" فى عددها الصادر ١٨ أبريل ٢٠١١، نقلاً عن موقع ويكيليكس، أن الخارجية الأمريكية مولت سرا المعارضة السياسية السورية.

ونشأ وضع ذو خصوصية، وتحت ضغط عدم رضى الجزء الأكبر من الشعب، أعلن بشار الأسد عن إجراءات جادة فى مجال الديموقراطية، وألغى حالة الطوارئ، وأقال الحكومة وأعلن عن عدم احتكار حزب "البعث" للسلطة، والانتقال إلى نظام قائم على تعدد الأحزاب. هذه مجرد الخطوات الرئيسية التى قام بها الرئيس بشار الأسد، لكنه لم يستطع البدء بتنفيذ كل هذه الإجراءات فى ظروف عدم الاستقرار الأوضاع فى عدد من المدن السورية. وعدم الاستقرار هذا فى اعتقادى مدعوم من الخارج، وليس فقط بوسائل دعائية أو عقوبات فرضتها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى ضد سوريا فقط. وأصبح الأمر أكثر وضوحا فيما يخص المعارضين، فهم ليسوا مجرد متظاهرين سلميين، ولكن إناس مسلحين، يبدون مقاومة للشرطة والجيش. إلا أن الجيش حاول أن يحيد المتمردين، فأريقت دماء ليست قليلة. كل هذا فى مجمله سينعكس على مصير النظام القائم فى سوريا.

نظرية "الدومينو" ظهرت على أوسع ما يكون فى اليمن مع مطالب بالديموقراطية، والحرية، والعمل للشباب، ورفض الديكتاتورية الطويلة للرئيس على عبد الله صالح. لكن على الرغم من مئات القتلى والجرحى بين المتظاهرين، لم تقف الولايات المتحدة ضد صالح، قياسا على سياستها فى سوريا، وأعلنت موقفًا متحفظًا. فكما هو معروف كان صالح يتعاون مع الولايات المتحدة ضد الفرع المحلى لتنظيم "القاعدة"، كما كان يقف ضد توسع التأثير الإيرانى على الجزء الشيعى من بلاده. لكن أهم ما يحدد سياسة الولايات المتحدة وحليفتها السعودية فى اليمن، هو الخوف من انتشار ما يحدث فى اليمن إلى خارج حدوده. فى هذه الحالة تكون دمقرطة النظام الحاكم فى اليمن ليس لها أولوية، ومن الممكن أن تكون غير جوهرية بالنسبة للولايات المتحدة والسعودية.

تشتت الولايات المتحدة فى سياستها فيما يتعلق بالدول العربية، التى شملها خروج الجماهير ضد الأنظمة فى شتاء - ربيع ٢٠١١، كان نتيجة مفاهيم تكتيكية بالدرجة الأولى، ومع ذلك يجب أن نفترض، أن واشنطن كانت مشغولة بضرورة تحديث توجهاتها الشرق أوسطية بشكل عام. حسب رؤية جيرالد سيبب وبيل سبيندل، مديرى مكتب مكتب واشنطن والشرق الأوسط فى صحيفة "وول ستريت جورنال" أدى الربيع العربى إلى تغيير فى جهاز الدولة الأمريكى "ازداد عدد العاملين فى المخابرات ممن يجيدون اللغة العربية ثلاث مرات، وفى وزارة الخارجية أصبح من يجيدون العربية أكثر بمقدار ٥٠٠ شخص. أقسام الاستخبارات الجديدة، أصبحت تجمع المعلومات من عدد كبير من الإصدارات التى كانت تتجاهلها من قبل، بالإضافة إلى قنوات التليفزيون والإنترنت"[٦٩].

من السابق لأوانه استنتاج أى أبعاد بصفة عامة ستتخذها التوجهات الولايات المتحدة فى العالم العربى، لكن اليوم من الممكن أن نتكهن بأن واشنطن ستراهن على مؤسسات البنية التحتية، التى أمنت الاستقرار فى فترة حكم الأنظمة الاستبدادية السابقة واستطاعت تحقيق الاستقرار لمصلحة الأمريكيين. العناصر الأخرى لهذا

التوجه ستكون تطوير العلاقات مع دوائر الإسلاميين المعتدلين. أعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية فى مؤتمر صحفى لها فى بودابست فى ٣٠ يونيو ٢٠١١ عن مد الاتصالات مع "الإخوان المسلمين" المصريين، وشرحت كلينتون العنصر الجديد فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط على النحو التالى " فى ظروف التغيرات فى المشهد السياسى فى مصر، من مصلحة الولايات المتحدة، أن يكون لها علاقة بكل الأحزاب التى تنتهج مواقف سلمية، ولا تربط نشاطها بالعنف". ومن الواضح أنه على روسيا أن توائم سياستها الشرق أوسطية مع الواقع الجديد.

ليبيا: هدف للاستعراض مرة أخرى

وصلتنى دعوة من رئاسة تحرير صحيفة "لينتا رو"، لعمل مؤتمر على شبكة الإنترنت. لم يمر يوم كامل على الإعلان عن هذا، حتى وصلت كمية ضخمة من الأسئلة، كانت كثيرة لدرجة أننا أغلقنا باب قبول الأسئلة قبل الموعد المفترض، وهذا يدل على مدى الاهتمام والتأثر بما كان يجرى فى ليبيا.

لم أستطع إجابة كل شخص منفردا ولكن جمعت الأسئلة حسب الموضوعات، وكانت الإجابات كالآتى.

عن الأسباب الداخلية والخارجية لما حدث فى ليبيا.

أتفق مع هؤلاء الذين يعتقدون بأنه فى أثناء حكم القذافى ارتفع مستوى المعيشة، وكان الشعب يتمتع بعدد من الامتيازات. وكان نتيجة هذا أن ارتفع متوسط عمر الإنسان إلى ٧٤ عاما، ومستوى التعليم إلى ٨٨٪. لكن هذا من ناحية واحدة، أما الجانب الآخر فكان ينحصر فى أن ليبيا نشأ فيها حكم يعتبر نموذجًا للديكتاتورية، حيث كل شىء يقرره شخص واحد هو معمر القذافى، الذى كان يقوم بصفة دورية بالتنكيل بهؤلاء الذين كانوا يعارضونه أو حتى كانوا محل شك عنده.

ليبيا دولة قبلية، والكثير يعتمد على توازن القوى بين القبائل، أطاح القذافى بالملك إدريس، الذى كان قبل أن يصبح ملكا رأس الطائفة السنوسية(٧٠)، عام ١٩٦٩، وكان يعتمد على بنغازى، وعلى قبائل ليبيا الشرقية. دعامة نظام القذافى كانت فى الأساس قبائل غرب البلاد، فى الجزء الطرابلسى. وعندما اندلعت على حدود ليبيا، فى تونس ومصر المظاهرات الاحتجاجية للشعب التى كان نتيجتها ترك الرؤساء بن على ومبارك منصبيهما، كان من الصعب، توقع أن تمر هذه الأحداث مرور الكرام على ليبيا.

لا أعتقد أن فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، هم من نظم المظاهرات فى بنغازى ضد القذافى. أما أنهم انضموا وبنشاط، وأصبحوا يلعبون دورا محددا فى إسقاط نظام القذافى، فهذه حقيقة لا جدال فيها. فقد أعلنت وسائل الإعلام الغربية وتبعها عدد من وسائل الإعلام الروسية، أن القذافى وأتباعه يقتلون المواطنين الأبرياء. لدرجة تقترب من اتهام النظام بالإبادة الجماعية لشعبه، بالطبع الضحايا بين المواطنين الأبرياء فى أى حرب أهلية لا مفر منه، لكن الأمر لم يزد عن ذلك. والعدد الكبير بين الضحايا كان من الطرفين المتحاربين ومن المواطنين الأبرياء كان عند الاستيلاء على طرابلس، الذى صاحبه قصف مكثف من القوات الجوية لحلف الناتو.

دخول العاصمة الليبية بسرعة من الثوار بعد نصف عام هو عبارة عن "محلك سر"، فهم لم يكونوا مدربين تدريبا جيدا، ولا مسلحين تسليحا جيدا، ويفسره المراقبون بمشاركة القوات الخاصة الفرنسية والبريطانية فى الهجوم على طرابلس. أما أن هذه القوات الخاصة موجودة فى ليبيا، فهذا سر أصبح "معروفا للجميع".

أنا لا أؤمن بنظرية المؤامرة، لا فى أن الحرب على ليبيا كانت منذ البداية من تدبير المخابرات الغربية، ولا فى أن قاطع الرءوس القذافى قتل المواطنين الأبرياء.

ما سبب تصرفات الناتو هذه فى ليبيا؟ بالطبع ليس الخوف من أن يقوم القذافى غير المتزن بنسف المنظومة المالية الدولية، المعتمدة على الدولار واليورو. نداءات القذافى للدول العربية والأفريقية، التحول إلى التعامل بالدينار الذهبى فى الحسابات، وإقامة

دولة موحدة لهذا الغرض ليس لها مستقبل. وحتى هؤلاء الذين يوجهون سياسة الناتو لا يخشون هذا. لكن ما كانوا يخشون في الواقع هو تصريحات القذافى المتهور عام ٢٠٠٩ عن إمكانية تأميم قطاع النفط والغاز فى ليبيا. دارت عجلة عدم الرضى (خاصة فى فرنسا والولايات المتحدة ـ المؤلف)، كما أن ليبيا أصبحت إحدى الأسواق الأساسية لمنظومات الأسلحة الروسية الحديثة(٧١).

لم يكن عدم الرضى عن مواقف القذافى بسبب قضايا بناء الدولة، أو الطرق المعادية للديمواقراطية، ولكن بسبب تصرفاته في الموارد الطبيعية، وتوجهات السياسة الخارجية، التى تراكمت. أعتقد أنه ليس من قبيل الصدفة تنامت إلى هجوم الناتو ضد ليبيا، وبالتحديد فى فترة الصعود الثورى فى دول عربية كثيرة.

وكان من الواضح أن ليبيا أصبحت "هدفًا للاستعراض"، لكى تؤدب هؤلاء الذين يتجرأون ويفكرون فى أن "الربيع العربى" من الممكن أن يضعف مواقع الولايات المتحدة وحلفائها. فى تونس ومصر، تكون وضع، كان من المستبعد أن يكون تدخل الولايات المتحدة المسلح للدفاع عن رئيسين كانا مناسبين تماما له: فى ليبيا كانت الحالة من حيث المبدأ مختلفة غالبا لسببين. الأول، على رأس السلطة فى هذا البلد كان يوجد شخص، سلوكياته تستدعى إدانة الرأى العام فى المجتمع الدولى بصفة دورية، وليس فقط فى الغرب، لكن فى أوساط معظم الدول العربية. ثانيا التدخل المباشر من الخارج، فى أثناء "الربيع العربى"، لم يكن ليحدث تحت شعار الديموقراطية، لا فى مصر ولا فى تونس، لكن فى ليبيا هذه الإمكانية نشأت، واستغلت.

أى دور للولايات المتحدة؟ سحبت واشنطن طائراتها فى أول يوم من بداية الغارات على ليبيا. ومنذ هذه اللحظة لم تشارك الطائرات الأمريكية والمروحيات فى قصف ليبيا. أتصور أن هذه المناورة قامت بها الولايات المتحدة لأسباب داخلية بحتة. ففى ٢٠١٢، انتخابات الرئاسة، وأوباما والمحيطون به يسعون بأى شكل لتخفيف "قارب" الحملة الانتخابية، الذى تسربت إليه مياه كثيرة، نتيجة الأوضاع الاقتصادية فى الولايات

المتحدة، وعمليتين باهظتى الثمن فى العراق وأفغانستان. لكن عدم المشاركة الشكلى للولايات المتحدة، لا يعنى على الإطلاق ابتعادها عن الدعم الأدبى، بل فعليا قيادة عملية الناتو فى ليبيا. أما الدور القائد الذى أخذته على نفسها فرنسا فيرجع إلى أسباب داخلية، ساركوزى له مصلحة فى رفع شعبيته المتدنية، على حساب "الصراع الطليعى" من أجل الحرية والديموقراطية فى العالم.

أى مستقبل ينتظر ليبيا؟ أتصور أن وصول ديكتاتور للسلطة فى ليبيا بعد القذافى مباشرة، غير ممكن. لكن الناتج عن عدم إمكانية تشكيل حكومة تعتمد النموذج الغربى، بعد إسقاط القذافى، فى الغالب سيتم إقامة نظام استبدادى "جماعى" مطعم ببعض عناصر الديموقراطية.

لكن الأهم هو، هل ستتغلب السلطة الجديدة على الفوضى التى تغرق فيها ليبيا. والتغيرات فى العلاقة النسبية للقوى القبلية التى تهدد وحدة الأراضى الليبية؟. كما أن عدم تجانس الثوار، الذين استولوا على طرابلس، يحمل فى طياته عدم التحديد لمستقبل ليبيا. ففى تكوينهم عدد صغير من القوى من أشخاص ليبراليين، ليس لهم غلبة على ما يبدو. الأوضاع القوية عند الإسلاميين المتطرفين. ويدل على ذلك بشكل غير مباشر، توجه نجل القذافى للإسلاميين بنداء "الابتعاد عن الليبراليين"، والدخول فى تحالف مع النظام، لدرجة أنه قال لمراسل "نيويورك تايمز"، الثمن الذى على استعداد لدفعه لإضعاف الثوار: "إذا كانت ليبيا ستبدو مثل العربية السعودية أو إيران، ما المشكلة فى هذا؟"(٧٢).

ليس من المستبعد، أن ينشأ خلاف بين السلطات الجديدة، وهذا بالطبع لن يساعد على استقرار الأوضاع فى ليبيا. بالإضافة إلى أنه لا يوجد فى البلاد علامات لوجود بنية تحتية للدولة، والتى سيكون على السلطات الجديدة بناؤها من جديد، وهى مهمة ليست بالسهلة، وإنجازها فى فترة قصيرة غير ممكن. كتبت صحيفة "نيويورك تايمز" التى من الصعب اتهامها بأنها تصعد الصراع حول مستقبل ليبيا، أنه بعد القذافى لم

يبـق تقريـبا أى مؤسسـة مـن مؤسسات الـدولة قـادرة على قيادة هذا البلد. وكيف لا نتذكر العراق هنا الذى لم يخرج من الفوضى بعد العملية العسكرية الأمريكية.

فى الظروف الحالية أعلنت روسيا ـ أعتقد أنه خطوة صحيحة ـ أن مستقبل ليبيا يجب أن يكون فى إطار عمل الأمم المتحدة، وليس الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والناتو، هذه خطوة مهمة، لأنه من غير المستبعد أن يحاول الناتو وضع حكومة خاضعة له فى السلطة فى ليبيا.

وأخيرا أعتقد أنه لن يتمكن أحد من تحييد أو إخضاع القبائل، التى اعتمد عليها العـقيد، وهـذا دليل آخر على أن هجوم الناتو المسلح لم يسـتطع أن يكون، ولا كان وسيلة، لتحول هذا البلد إلى الهدوء، وخلق ظروف لحياة سلام وازدهار لليبيين.

وعن تأثير "الربيع العربى" على بقية العالم. أجيب مباشرة من يسأل، ألن تنعكس الأحداث التى جرت فى العالم العربى على منطقة شمال القوقاز الروسية؟ المقاتلون فى شمال القوقاز والمشاركون فى "الربيع العربى" مختلفون. غير أنه لا يمكن التجرد من أن أحد الأسباب الرئيسية لغياب الهدوء فى شمال القوقاز يعتبر انتشار الفساد بصورة أكثر وأوسع من بقية روسيا، ومن الضرورى اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة لمحاربته. هذا الاستنتاج له معنى أكبر لدول وسط آسيا، جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابقة.

أوحى هراء السيناتور الأمريكى المعروف بمزاجه المعادى لروسيا جون ماكين بسؤال من الأسئلة التى وجهت إلى: هل ستستخدم الولايات المتحدة وحلفاؤها فى الناتو، "النموذج الليبى" ضد روسيا أو الصين؟ وكانت الإجابة: أشك، لأن هاتين الدولتين بإمكانياتهما ليستا ليبيا، وأعتقد أن هذا يؤخذ فى الاعتبار، وفى هذا الخصوص أنقل عن ويكيليكس، البرقية الشفرية لنائب سفير الولايات المتحدة فى موسكو دى. راسيل، والتى يقول فيها "على الرغم من عدم رضائنا عن الاتجاه الذى اختاره بوتين، بما فى ذلك المركزية الشديدة للسلطة السياسية، وسياسته فيما يتعلق بجيرانه، أهمية روسيا لمصالح الولايات المتحدة ستكون ضخمة على مدى أعوام طويلة، لقد أنهت روسيا التسعينيات بحالتها الاقتصادية المنهارة، ومشاكلها الداخلية. روسيا

تعلن عن نفسها على المسرح الدولى وهى مسلحة بالهيدروكربونات، واحتياطى كبير من العملة الصعبة، وتأييد من جانب الشعب للسلطات، وأسلحة نووية وحق الفيتو فى مجلس الأمن. ومهما كانت الأمر صعبا بعض الوقت فى تسيير الأمور مع موسكو، نحن لا نستطيع تجاهلها أو تجنبها ببساطة، لأن موقفها فى الكثير من المشكلات الحرجة بالنسبة لنا له أهمية كبيرة جداً"(٧٣).

والآن عن تأثير أحداث "الربيع العربى"، على الأجزاء المختلفة من العالم العربى. أنا واثق من أنه فى أى بلد من البلاد التى شملها "الربيع العربى" لن يحدث انتقال مباشر لنظام حكم ديموقراطى، يجب الأخذ فى الاعتبار التاريخ، والطبائع، وتوازن القوى والعامل الدينى فى هذه الدول. لكن نتيجة "الربيع العربى" ستأخذ بعض عناصر الديموقراطية.

فى الوقت الحالى وبعد تخطى ذروة "الربيع العربى"، فإنه من الصعب أن تجتاح الموجة الجزائر والمغرب والملكيات فى الجزيرة العربية. فى غضون ذلك أثرت الأحداث فى مصر وتونس فى الدول العربية التى لم يدخلها "الربيع العربى". الخشية من نظرية "الدومينو"، جعل الحكام يتخذون إجراءات، لتخفيض الشعور بعدم الرضى عند الجماهير. فقد قام ملك العربية السعودية، على سبيل المثال، بوضع ٣٢ مليار دولار إضافية فى "صندوق الرفاهية الشعبية".

كان قرار مجلس الأمن رقم ١٩٧٣، وموقف روسيا بصفة عامة، وأعمال الناتو فى ليبيا، يمثلون سابقة خطيرة، يستخدم قرار مجلس الأمن غير المكتمل لشرعنة التدخل العسكرى لدعم أحد الأطراف فى حرب أهلية اندلعت فى دولة ذات سيادة. بالإضافة إلى هذا، فى وقت اتخاذ القرار الذى يسمح بإغلاق المجال الجوى الليبى لمنع ضربات جوية من جانب القذافى للمواطنين المسالمين، أيد القرار عدد كبير جدا من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة، وحتى جامعة الدول العربية. أعتقد أننا لم نستخدم حق

الفيتو، والكثير من الدول أيدت قرار مجلس الأمن، لأن الاستيلاء على بنغازى إذا وصلت هذه القوات بالفعل إلى هناك، لحدثت مجزرة رهيبة خاصة وأنها معارك داخل المدن. أعتقد أننا لم نستخدم حق الفيتو، والكثير من الدول أيدت قرار مجلس الأمن، لأن الجميع كان يخشى إراقة الدماء. القرار اجتذب دولاً كثيرة لأنه استبعد إمكانية عملية برية على الأرض، تهدف لاحتلال أى جزء من ليبيا.

إلا أنه، على ما يبدو، كان الأمر يستحق بذل الجهد بعض الشيء فى إعداد القرار، لكى يتم حذف المواد التى تفسر الآن على أنها تسمح للناتو القيام بأعمال عسكرية دون رادع، لتأمين إنهاء نظام القذافى.

لا أريد أن أبتعد عن الأسئلة ـ وهى عديدة ـ حول إقالة سفيرنا. عندما كنت وزيرا للخارجية، كنت أراقب عن قرب، علاقة قيام السفير بعمله مع المركز. بالطبع الخط السياسى يجرى العمل عليه فى موسكو، وسفير روسيا يجب أن ينفذه، وهذا لا يعفى السفير من الالتزم بأن يقدم تقارير سرية للمركز عن حقيقة الأوضاع فى الدولة التى يعمل بها، وأن يعطى توصيات بهذا الخصوص، إذا كانت هذه التوصيات لا تتناسب مع الخط الذى أقره المركز، فإنه يمكن استدعاء السفير لموسكو، التى تمتلك إمكانيات معلوماتية أكبر وأوسع، ويمكن وضعها فى أسس السياسة. أقول بصراحة، شكل الفصل، الذى تم على أساسه استدعاء سفيرنا فى ليبيا، لم يعجبنى.

أنا واثق أن الأحداث فى ليبيا، سيأخذها بعين الاعتبار هؤلاء الذين يخططون سياسة روسيا الخارجية. من الطبيعى، وتحت أى ظرف من الظروف، يجب ألا، بأى حال من الأحوال، تؤدى إلى عودة الحرب الباردة. لكن روسيا جعلت الجميع يفهم أنها ستأخذ موقفًا ضد تكرار عملية الناتو الليبية، فى سوريا أو فى أى دولة أخرى. ولهذا بالتحديد، وعلى الرغم من ضغط الولايات المتحدة على حلفائها، لم يستطع مجلس الأمن اتخاذ قرار ضد سوريا، سواء مباشرًا أو حتى غير مباشر، يعطى الحق فى التدخل العسكرى بهدف إسقاط نظام الأسد.

أنا لا أتفق على الإطلاق مع السياسيين الغربيين، الذين يعدون تحت مقولة "الربيع العربى" كل الدول العربية، التى اندلعت فيها مظاهرات ضد الأنظمة. هناك مظاهرات تختلف عن مظاهرات. فى سوريا كما فى ليبيا، تحولوا مباشرة إلى مقاومة السلطات بالسلاح. وهذا لم يحدث لا فى مصر ولا فى تونس. وأعتقد أنه فيما يخص الأحداث فى ليبيا وسوريا حدث، ويحدث، تضليل معلوماتى فى وسائل الإعلام، يأتى من طرفى النزاع، لكن الجزء الأساسى منها يحقق مصالح قوى معادية لنظام القذافى، ونصرائهم ومن يساعدهم.

وفى سؤال عم إذا كنت التقيت القذافى؟ قلت التقيته أكثر من مرة ولا أعتبره اشتراكيًا ولا فاشيًا، هو نموذج للزعيم القبلى، الذى يسعى لبناء دولة، على نمط قبيلته، ويؤمن "بنجمه". فى أثناء لقاءاته معى كان متزنًا.

وقلت إننى لا أستطيع الإجابة على عدد من الأسئلة، لأنها موجهة لمن يحكم ويتخذ القرار فى روسيا، وأنا منذ فترة تركت الخدمة لدى الدولة. وفى سؤال كيف ستكون علاقتى بأحداث ليبيا بعد مائة عام، وأنا لن أجيب، لأنى لست من أتباع المنجمة فانجا، التى يتحدثون عن نبوءاتها كثيرا فى التليفزيون.

آثار الربيع العربى

أكدت الأحداث التى جرت بعد تغيير الأنظمة الاستبدادية، أن النموذج الغربى للديموقراطية لا يمكن تحقيقه فى الشرق العربى. من الواضح، ليس واقعيا افتراض أن النموذج الغربى للديموقراطية سيصبح مقبولاً، حتى لهؤلاء الذين يصلون للسلطة فى مصر وتونس. سيأتى بدل الحكام الاستبداديين الذين أسقطوا، سلطة استبدادية، من الممكن أن تكون لينة بعض الشىء فى استبدادها بفعل الأحداث الثورية. لن يذهب "الربيع العربى" هكذا أدراج الرياح، فمن الضرورى اتخاذ إجراءات ولو ديموقراطية جزئية فى الدول العربية، ليس فقط من جانب القيادات الجديدة، ولكن "من القدماء"

الذين بقوا على رأس السلطة. التباين وعلى ما يبدو يشتد، حتى فى معسكر الإسلاميين فى صالح العمل الدستورى.

سوء الأوضاع الاقتصادية خاصة فى مصر وسوريا لابد أن يكون له تأثير على توازن علاقات القوى السياسية فى دول "الربيع العربى"، حيث عدم الاستقرار الاقتصادى واضح جدا فى هذه الدول.

وبصفة عامة قويت المنظمات الإسلامية فى الشرق العربى. فقد حقق حزب "النهضة" الفوز فى الانتخابات التى جرت فى تونس، فى أكتوبر ٢٠١١، والمنظومة الانتخابية فى مصر مقسمة على ثلاث مراحل، تنتهى فى مارس ٢٠١٢، فى أثناء كتابة هذا الكتاب، انتهت الانتخابات فى مجلس الشعب وحصلت منظمة "الإخوان المسلمين" ممثلة "بحزب الحرية والعدالة" الذى تأسس بعد "الربيع العربى" على أكثر من ٤٠٪ من الأصوات. وكما هو معروف، حركة "النهضة" التونسية، والإخوان المسلمون فى مصر، كانا محظورين من الأنظمة السابقة، والآن ينظر إليهما على أنهما، منظمتان إسلاميتان معتدلتان. قادة "النهضة" وعدوا ببناء دولة علمانية. وكانت تصريح محمد سعد الكتاتنى السكرتير العام "للحرية والعدالة " المصرى "حزبنا ليس دينيًا، ولكنه مدنى، ويسعى لإقامة دولة ديموقراطية حديثة، لكن مرجعيتها الإسلام..... نحن لسنا ضد أى اتجاهات أخرى، مادامو لم يخالفوا الدستور (المصرى ـ المؤلف). التوجة الأساسى ألا يكون الحزب على أساس دينى وألا يمتلك تشكيلات مسلحة للوصول إلى أى من أهدافه"[٧٤].

لكن من المبكر وضع نقطة على كل هذا، فى أثناء الانتخابات البرلمانية حصل حزب "النور" السلفى على ما يقرب من ربع عدد المقاعد، وهذا لم يكن متوقعا للكثير من المراقبين فى أثناء الحملة الانتخابية، كان الحزب يطرح فكرة تطبيق قوانين الشريعة فى الواقع العملى فى مصر. وكان السلفيون خلف الاعتداءات على المسيحيين ـ الأقباط، وأحرقوا كنائسهم. فقد أثبت المتطرفون أن فى مصر يجب أن يكون دين واحد فقط هو الإسلام.

الزمن وحدة كفيل بأن يثبت، كيف ستحدث تغييرات فى توازن القوى فى الحركة الإسلامية فى مصر، وهل ستأخذ الأحداث لون الصدام بين المنظمات الإسلامية المعتدلة والمتطرفة، بعد الانتخابات البرلمانية، وانتخاب رئيس مصر. فى الوقت الحالى لا يوجه "الإخوان المسلمون" انتقادات للسلفيين، وبعض الخبراء يعتقدون أن حزب "الحرية والعدالة" يفضل إقامة ائتلاف مع أحزاب وحركات علمانية. فى غضون ذلك الصدام مستمر مع السلطات العسكرية.

كانت روسيا دائما تنطلق من أن التغييرات الداخلية هى قضية تخص كل دولة ذات سيادة، أنا أعتقد أن روسيا والصين، اللتين لم تستخدما حق الفيتو على القرار الخاص بليبيا، تم خداعهما، فقد قالوا لهما إن القرار سيكون خاصًا بحظر جوى فوق ليبيا، لكى لا تقوم طائرات القذافى بقصف المواطنين العزل، لكن كل شىء تحول إلى عملية عسكرية، وضعت نصب عينها إسقاط نظام القذافى. أنا لا أريد أن أظهر وكأنى أدافع عن هذا النظام الديكتاتورى، لكن التدخل فى الحرب الأهلية، التى دارت فى ليبيا غير مسموح به.

فيما يتعلق بسوريا، فإن هنا على ما يبدو لى، روسيا اتخذت موقفًا على أساس تقييمها لما حدث فى ليبيا. وهذا صحيح.

الفصل الثانى والعشرون

التسوية فى الشرق الأوسط ـ الفرص الضائعة والمستقبل

النزاع العربى ـ الإسرائيلى مستمر منذ أكثر من ٦٠ عامًا، على امتداد ذلك الوقت، ظهرت ومضات منفصلة لانتظار التسوية خلفتها خطوط طويلة من عدم الثقة فى إمكانية حدوث ذلك. فى غضون ذلك، فإن هذا النزاع الإقليمى، له تأثير سلبى بدرجة كبيرة، أكثر من أى شىء آخر، على منظومة العلاقات الدولية، ولدية نزعة دائمة للاشتعال. وهذا يخلق تهديداً شديدًا، خاصة فى القرن الحادى وعشرين، مما قد يعطى نزاع الشرق الأوسط بعدا نوويا.

بدا وكأن من مصلحة المجتمع الدولى أن يجد مخرجًا من هذا الوضع، مع أن إطار التسوية العربية ـ الإسرائيلية، معروف فى شكل حل توافقى يشمل وقف احتلال الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧، وإقامة دولة فلسطينية، وتوقيع اتفاق سلام فلسطينى ـ إسرائيلى وسورى ـ إسرائيلى، والاتفاق على ضمان أمن إسرائيل. الحقيقة، يجب أن يكتب فى هذا الإطار الأخذ فى الاعتبار مصالح إسرائيل والفلسطينيين والسوريين. ما الذى يعيق هذا؟

احتكار الولايات المتحدة للوساطة فى التسوية

لنتذكر، أى آمال كانت معقودة على وساطة "الرباعية" التى تشكلت فى ٢٠٠١، كانت مكونة من أربعة مشاركين هم: الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبى ومنظمة الأمم المتحدة. قامت "الرباعية" بعمل "خارطة طريق"، وكل الأطراف أعربت عن

موافقتها على الفترات المقترحة لخطوات تنفيذ مراحل تسوية النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي. المرحلية كان أساسها، ليس فقط لأنه من غير الممكن حل كل المشاكل المعقدة في العلاقات المتبادلة بين أطراف هذا النزاع، ولكن لأن هدف الحركة على مراحل - لإقامة دولة فلسطينية - هو إقامة سلام عادل بين إسرائيل والدول العربية.

كانت الآمال كذلك مرتبطة بأن أول شيء للوصول إلى هذا الهدف، كان تفعيل آلية جماعية دائمة للعمل. تشكيل "الرباعية"، كان يجب أن يتميز بالابتعاد عن احتكار الولايات المتحدة لمهمة الوساطة وعن النموذج الذي أظهر إفلاسه. رغم أهمية دور الولايات المتحدة.

قبيل انتهاء فترة حكم جورج بوش الابن، وخروجه من البيت الأبيض، نشطت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وقضت وزيرة الخارجية جزءًا كبيرًا من وقتها في المنطقة، وانتشر رأي بأن الرئيس بوش لا يريد أن يدخل التاريخ فقط بوصفه كان رئيس الولايات المتحدة، الذي في عهده تم تدبير العملية العسكرية في العراق، التي انتهت بالفشل، ولهذا فهو مهتم جدا بالحصول على إكليل الغار في التسوية الشرق أوسطية. في مثل هذه الأجواء، كان ينتظر الكثير من لقاء أنابوليس الذي اقترحته واشنطن، خاصة وأن الرئيس الأمريكي أدلى بتصريح قبيل اللقاء قال فيه: "سيكون المؤتمر إشارة دعم دولي لعزم الإسرائيليين والفلسطينيين بدء مفاوضات، إقامة دولة فلسطينية، وتحقيق السلام بين الشعبين".

اكتسب اللقاء في أنابوليس أهمية خاصة، لأنه، وفق كلمات وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس، يجب أن يتبع أنابوليس مؤتمر خاص بالتسوية في الشرق الأوسط سيعقد في موسكو. تكون انطباع، أن واشنطن، أخيرا، وصلت لاستنتاج بضرورة التواصل وبذل الجهد من جميع الأطراف، بهدف تحفيز أطراف النزاع على التفاوض. في ٥ نوفمبر ٢٠٠٧، عقد بوتين اجتماعا مع رئيس الحكومة الصينية دين تسيابوا، وتم التطرق إلى الموضوع الشرق أوسطي، الذي كان محل اهتمام خاص في ذلك الوقت. وقال بوتين لجليسه إن روسيا تؤيد عقد لقاء في أنابوليس "كخطوة أولى

لمؤتمر دولى شامل حول الشرق الأوسط. نحن على اتصال دائم، واتصال مباشر مع جميع المشتركين حتى المحتملين فى لقاء أنابوليس. الآن يوجد فى المنطقة بريماكوف بتكليف منى، وهو سيزور الدول وسيتحدث مع القادة السياسيين".

ربط رئيس روسيا لقاء أنابوليس بالمؤتمر الذى سيعقد فى موسكو حول الشرق الأوسط، وكان هذا أساس مهمتى. فى اتصالاتى مع قادة الدول العربية والقادة الفلسطينيين، كان يجب استخدام حقيقة التواصل المزمعة فى عملية التسوية بنشاط، لصالح توجيه وفودهم إلى أنابوليس. كان من المهم جدا الحصول على قرار إيجابى سورى، وهذا قوى الرهان على أنه بعد اللقاء الذى اقترحه الرئيس بوش لبحث المشاكل الفلسطينية - الإسرائيلية، وتبدأ حركة جادة فى اتجاه "الثلاثية" السورية - الإسرائيلية فى مؤتمر موسكو. أسبق الأحداث وأقول إن جميع الشخصيات التى التقيت بها أجمعت على ضرورة دور روسى نشط فى التسوية الشرق أوسطية. هذا الرأى ما قاله محمود عباس وإيهود أولمرت وإيهود باراك، الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب وزير دفاع إسرائيل وبشار الأسد وحسنى مبارك والأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى.

بدأت المهمة التى كلفنى بها رئيس روسيا، بزيارة رئيس السلطة الوطنية الفلسطينى محمود عباس[٧٥] فى رام الله (الضفة الغربية - المؤلف). قال محمود عباس، إنه حسب رأيه منذ فترة طويلة لم يكن هناك وضع مناسب للاتفاق مثل اللحظة الحالية. وأكد عباس، أنه يريد ربط قرار المشاركة فى لقاء أنابوليس، بتوقيع وثيقة فلسطينية - إسرائيلية مسبقة، تنص - وفق كلماته - على أنه يجب مرة أخرى ذكر الإجراءات المخصصة للتنفيذ فى المرحلة الأولى من "خارطة الطريق". نصحت عباس بالسفر إلى أنابوليس، حتى لو لم يتمكن من الاتفاق مع الإسرائيليين على هذه الوثيقة، وإلا سيتهمون الفلسطينيين بإفشال اللقاء الذى ستكون له استمرارية فى موسكو. أجاب عباس، أنه يتقبل هذه النصيحة، لكنه طلب منى ألا أتحدث مع الإسرائيليين عن

هذا (كان يعرف أنه فى اليوم التالى يجب أن ألتقى رئيس الوزراء أولمرت ووزير الدفاع باراك - المؤلف) لأنه على أى حال يريد التوصل إلى موافقة مبدئية على الوثيقة التى أعدت.

فى اليوم التالى كما هو مفترض، جرى لقاء مع رئيس الوزراء الإسرائيلى، فى البداية قال أولمرت: "أنا صديق لبوش، وعلى أى حال أدرك أن الولايات المتحدة، لن تستغنى عن روسيا.... وعدم استغلال الظروف الحالية المواتية فى إسرائيل، سيجعل اليمينيون يأتون للسلطة، وفى الإدارة الفلسطينية حماس". لكن بعد هذا التقرير، أخذ الحديث طابعًا غير سهل. وأشار إلى لقائه مع وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس، قال أولمرت، إنه تكون لديه انطباع أن الولايات المتحدة كانت تستطيع أن تقرر حضور سوريا إلى أنابوليس، ليس مستقلة، ولكن ضمن وفد جامعة الدول العربية. وأشرت من جانبى على أولمرت، بأننى أشك، فيما إذا كان شكل المشاركة هذا يناسب بشار الأسد. لكن وجود وفد سورى من الممكن أن يهيئ الظروف لبداية النجاح لعملية التسوية بشكل عام.

كان هناك إحساس بأن رئيس الوزراء الإسرائيلى يخشى أن يخرج عن الإطار الذى حددته كونداليزا رايس. لكن فى نهاية الأمر غير توجهه "لن أكون ضد، إذا قلتم للأسد إنه تكون لدينا انطباع عن ترحيب أولمرت بفكرة مشاركة وفد سورى فى لقاء أنابوليس".

فى نفس اليوم جرى لقاء مع وزير دفاع إسرائيل باراك، وكان أكثر تحمسا لفكرة دعوة سوريا. وتميز بأنه قبل أن يتحدث بهذا الخصوص، اقترح على الجميع أن يخرج من الغرفة التى تجرى فيها المباحثات، باستثنائى، واستمرت الجلسة على انفراد. قال بارك "إنه يعتقد أن الأسد شخصية مناسبة لقيادة سوريا، ولا ينتسب لهؤلاء الذين تسعى الخطط الأمريكية لتغيير نظامه الحالى فى سوريا" (كم سيكون هذا مناسبا أن يسمع الآن - المؤلف)، وطلب باراك أن أبلغ الأسد، أنه، أى باراك، ينحاز لفكرة

المفاوضات المباشرة معه، دون شروط مسبقة، وكان يعنى بذلك مصير مرتفعات الجولان. وفق كلمات باراك، أنه عندما التقى كونداليزا رايس، قال لها، إن سوريا يجب أن تكون مدعوة إلى أنابوليس "بصفته دولة صاحبة مصلحة فى المرحلة الحالية من التسوية الفلسطينية ـ الإسرائيلية".

فى ٦ نوفمبر التقيت الرئيس بشار الأسد فى دمشق، والذى ربط موافقته على سفر وفد سورى إلى لقاء أنابوليس، مباشرة، بضرورة استكماله فى موسكو. وقال الأسد، إن سوريا مستعدة لأن تنضم للمفاوضات حول التسوية مع إسرائيل، لكن فى الفترة الأولى فقط، بمشاركة طرف ثالث، وفى موسكو، وأضاف الأسد، سنجلس مع الإسرائيليين إلى طاولة واحدة. أعتقد أن نصيحة الرئيس بوتين لسوريا، بإرسال وفد إلى لقاء أنابوليس، لعبت دورًا مهمًا فى الأحداث التى جرت.

حدثت لقاءات أخرى فى دمشق، شملت لقاء مع رئيس المكتب السياسى لحركة حماس خالد مشعل، أهم ما فى هذه الجلسة: قال مشعل إنه وزملاءه يبحثون ما قلته له نقلاً عن رئيس روسيا، من اقتراح بوقف إطلاق الصواريخ على الأراضى الإسرائيلية من غزة. وكما قال مشعل كل شىء يعتمد على التزام إسرائيل بالتوقف عن العمليات العسكرية على أراضى غزة. أكد مشعل على أنه فى حالة رد فعل إسرائيل المناسب على ذلك، فإن حماس والمنظمات الفلسطينية الأخرى ستعمل على وقف إطلاق الصواريخ من قطاع غزة.

يوما ٧ ـ ٨ أجريت مقابلات مع الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى، ورئيس مصر حسنى مبارك. وحسب رأى الأمين العام لجامعة الدول العربية، للنجاح فى أنابوليس، من الضرورى بالدرجة الأولى حظر بناء مستوطنات إسرائيلية جديدة فى الأراضى المحتلة. ودافع كذلك عن تحديد جدول لعملية التفاوض الفلسطينية ـ الإسرائيلية. وقال موسى "الحديث يدور عن أنه بعد أنابوليس مباشرة، يمكن القول، خلال ثلاثة أشهر، يعقد مؤتمر موسكو، وخلال الفترة بين أنابوليس وموسكو، من الضرورى فك تجميد "الترويكا" السورية ـ الإسرائيلية".

فيما يتعلق بالرئيس مبارك، فقد صرح بشكل مباشر، أنه بدون مشاركة سوريا فى لقاء أنابوليس، سيكون مصيره الفشل، وفق الكلمات التى قالها مبارك، أنه قال لكونداليزا رايس ذلك، وهى أجابته بصراحة "إن الولايات المتحدة مهتمة بنجاح هذا اللقاء، لأنه من الضرورى إحداث طفرة، على خلفية الوضع المعقد مع العراق وإيران، والآن باكستان". تقبل مبارك بإيجابية تامة، ما رويته له عن تنفيذ تكليف رئيس روسيا، فى لقاءاتى التى أجريتها فى رام الله وتل أبيب ودمشق.

بدا كما لو أن كل شيء كان يصب فى صالح عدم توقف عملية التسوية. والاتفاق مع الولايات المتحدة على مؤتمر فى موسكو - يمكن الحديث بصراحة عن ذلك - ساعد على ألا ينتهى اللقاء فى أنابوليس بالفشل. إلا أن الاستمرار الموسكوفى لهذا اللقاء، لم يحدث. واشنطن أومأت برأسها لإسرائيل، وإسرائيل لواشنطن، ومرت أشهر، ثم أعوام، وتغلب خط الولايات المتحدة باحتكار مهمة الوساطة. فى مثل هذه الظروف تراجعت "الرباعية" للصفوف الخلفية.

أصبح التفاؤل أكثر مع وصول الرئيس أوباما للبيت الأبيض. فى المرحلة الأولى من وجوده فى السلطة، صرح بعدد من المداخل المبدئية للتسوية الشرق أوسطية، من بينها طلب وقف بناء مستوطنات إسرائيلية جديدة توسع الاستيطان الإسرائيلى فى الضفة الغربية، وضرورة إقامة دولة فلسطينية، حدودها يجب أن تكون مرسومة على خطوط ١٩٦٧، مع تبادل أجزاء من الأراضى بمحض الإرادة. تحدث كذلك عن أن القدس يجب أن تصبح عاصمة للدولتين، إسرائيل وفلسطين. غير أنه تحت ضغط اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة والخشية من إضعاف موقفه فى انتخابات ٢٠١٢، حيث سيتم بحث ترشح أوباما لفترة رئاسية ثانية، سرعان ما تخلى عن إصراره على تأكيداته التى صرح بها فى البداية.

العامل الفلسطينى

كان لوصول حماس للسلطة عام ٢٠٠٦، نتيجة الانتخابات البرلمانية فى الإدارة الفلسطينية، بلا شك، تأثير كبير على الموقف فى المنطقة وعلى عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية. ماذا مثلت وتمثل حماس، ولماذا كان لها اليد العليا فى الانتخابات؟. يعتمد فهم الوضع، والتنبؤ الصحيح لمتغيراته فى المستقبل على الإجابة الواقعية والموضوعية عن هذين السؤالين.

على مدى أعوام الاحتلال للضفة الغربية وقطاع غزة، وحتى إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية عام ١٩٩٤، كان المسئول عن حياة السكان الاقتصادية - الاجتماعية، المنظمات غير الحكومية، التى تكونت من مؤسسات متخصصة، طبية وزراعية، واستخدمت "الزكاة" (ضريبة المسلمين - المؤلف) لتوزيع السلع والنقود على الجزء الأفقر من السكان، وتم إقامة مجلس أعلى للتعليم، الذى اهتم بأن تكون الجامعات المحلية مطابقة للمعايير القياسية العامة المقبولة، وأن يحصل الخريجون على فرص عمل. كان يقف خلف هذه المؤسسات الاجتماعية أربع منظمات سياسية، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وحركة التحرر الفلسطينة (فتح) وحماس والحزب الشيوعى. ولما كانت هذه المنظمات تحت الأرض (فتح خرجت إلى العلن فى عام ١٩٩٣ فقط، بعد اتفاق أوسلو للسلام - المؤلف). أعضاء هذه المنظمات كانوا فى العلن يطلقون على أنفسهم أسماء حركية، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانت تسمى حركيا بالشعبيين، وفتح بالقوميين، وحماس بالإسلاميين، والحزب الشيوعى بالجماهيريين.

كانت سلطات الاحتلال الإسرائيلية، تخشى تعزيز نفوذ فتح والجبهة الشعبية بصفة خاصة، فميزت الإسلاميين، فى محاولة لوضعهم فى مواجهة من هم أكثر راديكالية فى ذلك الوقت الشعبيين والقوميين، لدرجة أنه توجد رواية أنه طبقا لهذه المخطط، لم تخرج حماس للعلن فقط، ولكن مد الموساد لها يده. لكن بعد بداية الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧، وخاصة بعد بداية الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠، تحولت حماس إلى قوة تزداد فى التطرف.

وصلت حماس للسلطة فى الإدارة الفلسطينية عام ٢٠٠٦، نتيجة انتخابات ديموقراطية لم يشكك فيها أحد. أعلنت إسرائيل، مدعومة من الولايات المتحدة فى ذلك، أنها لن تقوم بالتعامل مع حماس لأنها منظمة إرهابية. فى غضون ذلك، لنتذكر مرة أخرى مناحم بيجين وإسحاق شامير، اثنين من رؤساء وزراء إسرائيل، فى الماضى كانا إرهابيين حقيقيين، كانت سلطات الانتداب الإنجليزية مستعدة لدفع مكافأة ضخمة مقابل رأسيهما. وعندما أتيا للسلطة من خلال الانتخاب لم يشكك أحد فى شرعية التعامل معهما.

العلاقة بحماس مهمة للغاية، لأن ظروف الانتصار على الإرهاب الدولى ـ تحتم عزله عن "الشارع الإسلامى" أو المتعاطفين، أو المحايدين ـ عن أن تكون لهم علاقة بالمتطرفين الإسلاميين. وفيما يخص حركة حماس المدعومة من المواطنين الفلسطينيين، فإن فى إيديولوجيتها يتشابك عنصران، أحدهما إسلامى، والثانى قومى. وإذا كانت حماس فى السابق تسعى لإقامة دولة إسلامية فى المنطقة فإن الهدف الرئيسى الآن، أصبح النضال لإنهاء الاحتلال الإسرائيلى. وهناك أسس لاعتبار أنه بعد وصول حماس للسلطة فى غزة، سيتعزز العنصر القومى، وليس الدينى، فى قاعدتها الإيديولوجية.

هذا التوازن المتغير بين الأسلمة والقومية لحماس، أضيف إليه أنه بعد دخول حماس مرحلة النضال النشط ضد الاحتلال الإسرائيلى، تم إنشاء جناح عسكرى، مرتبط بقوة بالقيادة السياسية لحماس، لكن أحيانا كثيرة يقوم بالعمل بشكل تلقائى. كانت الولايات المتحدة وإسرائيل تأخذان هذا الفصل بعين الاعتبار فى جوهره. وهكذا فى عام ١٩٩٨، وفى أثناء زيارة كان يقوم بها رئيس الوزراء الإسرائيلى نتنياهو، وياسر عرفات، حاولت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت، أن تقوم بالصلح بينهما، واقترحت خطة توفير الأمن، التى شملت حظر الجناح العسكرى لحماس (ليس كل الحركة ! ـ المؤلف). وكانت توجد لدى الجيش الإسرائيلى قاعدة غير معلنة، متمثلة فى القضاء فقط على المقاتلين من هذا الجناح العسكرى.

وكنوع من طريقة النضال لجناح حماس العسكرى، استخدم هجمات حقيقية واسعة من العمليات الإرهابية ضد المدنيين. فى نفس الوقت طرق مكافحة الإرهاب الإسرائيلية، أخذت شكلاً إرهابيًا أيضا. وقد أثارت ضجة قصة الاعتداء على خالد مشعل أحد قادة حماس فى أحد شوارع عمان، حيث قام عميل إسرائيلى بالضغط على أذنه بشىء فضى، ورش عليه سمًا أصابه بالشلل. تم القبض على الإسرائيليين المعتدين. وصل الملك حسين إلى حافة قطع العلاقات مع إسرائيل، وهدد بأنه فى حالة موت مشعل سيقوم بإعدام الإسرائيليين اللذين اعتديا عليه شنقا. وعلى الفور توجه نتنياهو إلى الأردن، لكن حسين رفض استقباله، حينها تم إرسال مضاد للسم من إسرائيل، ولتسوية الفضيحة، تم الإفراج عن ٧٠ فلسطينيًا من السجون الإسرائيلية، كان من بينهم الشيخ أحمد ياسين، مؤسس حركة حماس.

بعد عام ٢٠٠١، ظهرت للواقع العملى الضربات الدقيقة لقادة حماس السياسيين. ففى عام ٢٠٠٤ قتل الشيخ أحمد ياسين بصاروخ. وقبل مقتله بدأت تغييرات فى مواقع حماس، فقد صرح الشيخ أحمد ياسين قبل يوم من مصرعه فى لقاء مع صحفيين فى غزة، أن منظمته سوف تشارك فى الانتخابات الفلسطينية، وفى أجهزة الدولة، لكن بعد خروج الإسرائيليين من غزة. الملفت شىء آخر، عندما فازت حماس فى الانتخابات، لم تتذكر حتى إنها تريد إقامة مؤسسات السلطة فى الإدارة الفلسطينية على أساس الشريعة.

فوز حماس فى الانتخابات فى حد ذاته مؤشر مهم. وإلى الأسباب الداخلية التى ساعدت على فوز حماس من الممكن أن ننسب كذلك انتشار الفساد، وعدم قدرة منظمة التحرير الفلسطينية، التى حصلت على دعم مالى كبير، على تحسين الوضع الاجتماعى ـ الاقتصادى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، الذى كان يقترب بمعدلات كبيرة من المستوى الكارثى. وإلى الأسباب الخارجية، بلا شك تعتبر السياسة الإسرائيلية، وإطالة أمد المباحثات، وعدم تنفيذ الالتزامات التى تم الاتفاق عليها

مسبقا. كل هذا قوى لدى الجانب الفلسطينى وجهة النظر القائلة بعدم مستقبلية عملية التفاوض غير المدعومة بالكفاح المسلح. لا يوجد بالطبع، أى مبرر لأن يصبح ضحايا هذا الكفاح المسلح مواطنين أبرياء، سواء من جانب الفلسطينيين أو الإسرائيليين.

غيرت الأحداث بعد ذلك الوضع فى الإدارة الفلسطينية. وكسرت حماس بسرعة المقاومة المسلحة لفتح، وفرضت سيطرتها منفردة على قطاع غزة. وجدت غزة والضفة الغربية أنفسهما منعزلتين عن بعضهما بعضًا. وحدثت القطيعة بين الفلسطينيين على الصعيد السياسى، مما انعكس سلبا على عملية تسوية النزاع الشرق أوسطى. حافظ العالم العربى على ميوله تجاه حركة فتح ومحمود عباس، لكن ليس بدون تفاوت طفيف فى مواقف الدول المختلفة. تؤيد فتح بقوة كل من مصر والأردن، بينما تتمسك سوريا بخط محايد، وإن كانت تتعاطف مع حماس، نفس الشىء ينطبق على إيران، على الرغم من أنها ليست دولة عربية، لكنها تلعب دورًا متناميًا فى قضايا الشرق الأوسط.

الوضع بالطبع ليس سهلاً. عدم السهولة يفاقمه فى الغالب الموقف الإسرائيلى، وفى تحدى للرأى العام العالمى الواسع، لجأت إسرائيل إلى خطوة غير إنسانية، مثل الحصار الاقتصادى لقطاع غزة. حينها احتج رئيس "الرباعية" جيمس فولفينسون على سياسة الخنق الاقتصادى للفلسطينيين، وقام من يقوم بالتفاوض باسمه فى الشرق الأوسط بتقديم استقالته احتجاجا. هذا الشخص المعتدل والشريف، الذى جمعتنى به الحياة فى ذلك الوقت عندما كنت رئيسا للحكومة الروسية، وهو رئيسا للبنك الدولى (فولفينسون كان حينها من بين القليلين المعجبين بحكومتنا، وهو ما صرح به بنفسه - المؤلف)، وقد شرح لى استقالته بالكلمات التالية: "يدهشنى أن البعض يريد تحقيق مكاسب من خلال إلقاء الأطفال خارج المدارس ويجبر الفلسطينيين على الجوع".

معلومات متناقضة تتوارد عن اتصالات بين فتح وحماس. بصفة دورية يعلن عن أنهما وجدا أساسا مقبولاً للمصالحة. بعد لقاءات بين قادة المنظمتين الفلسطينيتين فى القاهرة فى نوفمبر ٢٠١١. حتى إن الوكالات الأجنبية، أذاعت أن حماس اعترفت بأهمية الجهود السياسية بالدرجة الأولى فى الكفاح من أجل إقامة دولة فلسطينية.

حقيقة تبع ذلك نفى من جانب ممثل حماس. حدث هذا أم لا، لكن يلاحظ بعض التقارب فى المواقف، من الممكن أن ينمو إلى اتفاق حول تسوية النزاع مع إسرائيل. لكن هل سيحدث هذا قريبا؟ ولأى عمق سيصل هذا الاتفاق؟ ولأى درجة سيساعد هذا فى عملية السلام؟ كل هذا يعتمد فى الكثير جدا على السياسة الإسرائيلية وعلى موقف الولايات المتحدة، التى تعتبر حماس منظمة إرهابية.

إسرائيل: الرهان على الحالة الراهنة

على الرغم من تراكم النزعات السلبية، من الممكن الحديث عن عدد من الإنجازات، خاصة فى مواقف الجانب العربى، تتعمد إسرائيل عدم ملاحظتها، وتمر على هذه المواقف، فى حين أنها من الممكن أن تكون متطورة ومستخدمة لصالح التسوية، سأورد مثالاً مرتبطًا بقرار قمة الجامعة العربية، التى انعقدت فى مارس ٢٠٠٧ فى الرياض. عدد من وسائل الإعلام، وخاصة الإسرائيلية، تجاهلوا الأمر، وكأنه لم يحدث تغير راديكالى، فالعرب اقترحوا على إسرائيل السلام مقابل الانسحاب من الارض المحتلة عام ١٩٦٧، وتكرر هذا فى ٢٠٠٢ فى قمة بيروت. معادلة "الأرض مقابل السلام" تم الدفع بها عام ٢٠٠٢، بواسطة ملك العربية السعودية الحالى (السابق–المترجم) عبد الله، وأيدتها قمة بيروت. والآن طورت الجامعة العربية القاعدة للمفاوضات، بهدف التوصل إلى حل يرضى كلا الطرفين. فى القمة العربية عام ٢٠٠٧، مكان المعادلة الماضية، التى أعلنت عن حق العودة للاجئين الفلسطينيين، تمت الموافقة على معادلة إطارية جديدة، تفتح طريقا أوسع للتوافق: "حل عادل لمصير اللاجئين الفلسطينيين".

هذه الخطوة الضخمة، التى اتخذت لتقديم تنازل لإسرائيل، بقيت دون رد. لقد سمعت من قادة فلسطينيين كثيرين، أن عدداً غير قليل من اللاجئين سيرغبون فى الحصول على تعويض، والبقاء فى الدول العربية، التى يعيشون فيها. فيما يخص هؤلاء الموجودين فى المخيمات الفلسطينية ولم يستطيعوا أن يجدوا لأنفسهم مكانًا خارجها،

فإنه ستصرف تعويضات كبيرة، تسمح لهم بامتلاك مسكن، وسيكون هذا أفضل من العودة إلى المجهول. وأخيرا يوجد حل، مثل توزيع أغلب هؤلاء اللاجئين، ممن يصرون على العودة على أراضى الدولة الفلسطينية، كل هذا كان من الممكن بحثه فى أثناء المفاوضات.

أعتقد أنه ليس من قبيل الصدفة، أن رحبت روسيا والكثير من قادة الدول الأوروبية والاتحاد الأوروبى، بالإضافة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة بان كى مون بقرار قمة جامعة الدول العربية.

فى غضون ذلك انسحاب القيادة الإسرائيلية من الخط المتجه إلى الحفاظ على الحالة الراهنة، سيؤدى إلى التناقض مع الحالات الموضوعية، إحداها الغياب الكامل لاحتمال ضم إسرائيل للأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧. ففى حالة ضمها ستفقد إسرائيل طابعها باعتبارها دولة يهودية، خصوصا أنه الهدف الذى أنشئت من أجله إسرائيل. نحن لا نسمع اليوم تلك الأصوات العالية الداعية لضم الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧. القضية فى أن ضم هذه الأراضى، سيحول اليهود فى القريب المنظور، إلى قومية أقلية فى إسرائيل.

السعى الحثيث الذى تظهره القيادة الإسرائيلية، للحفاظ على الحالة الراهنة فى عملية تسوية النزاع مع العرب، سيولد عزلة متنامية لإسرائيل فى المجتمع الدولى. وهذا سيظهر للغالبية العظمى من دول العالم، الذين يؤيدون الاعتراف بالدولة الفلسطينية، وسترى بأم عينيها. فقط فيتو الولايات المتحدة هو الذى يؤدى إلى ألا تتخذ الأمم المتحدة القرار الخاص بذلك.

كان من الممكن أن تلعب روسيا دورا كبيرا فى استمرار المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية، سواء فى إطار "الرباعية" أو خارجه. تتميز روسيا عن أعضاء "الرباعية" الآخرين، بأن لديها علاقات جيدة ليس فقط مع إسرائيل وفتح، ولكن مع جميع من له تأثير قوى على تطور المواقف من المفاوضات، مع إيران وسوريا ولبنان وحماس و"حزب الله" ومصر والعربية السعودية والدول العربية الأخرى.

استمرار الاتصالات الفلسطينية ـ الإسرائيلية مهم جدا، لكنه ليس الجانب الوحيد للعملية. من الضرورى تنشيط "الرباعية". فى نهاية الأمر أنا واثق من أنه على مستوى "الرباعية"، يجب إعداد حل لكل المشاكل الرئيسية فى عملية التسوية الفلسطينية ـ الإسرائيلية، وتسليمها للأطراف باعتبارها حلاً جماعيًا من الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة. ولنتذكر كيف أنشئت إسرائيل، ألم يملى المجتمع الدولى قراره الخاص بتقسيم فلسطين وإقامة إسرائيل ودولة عربية على أراضيها؟.

ضد تقسيم العالم على أساس دينى

الأحداث فى الشرق الأوسط، معقدة، وغالبا غير متوقعة، وقابلة للانفجار فى أى لحظة، وتكونت حولها تربة لنظرية عن أن تناقض عالم اليوم هو حضارى ـ دينى، أتباع هذه النظرية من السياسيين ذهبوا لأبعد من ذلك، مؤكدين أن تقسيم العالم على أساس حضارى ـ دينى حل محل تقسيم العالم على أساس إيديولوجى.

هذا النوع من التقسيم مرتبط اليوم بظهور الإرهاب على المسرح الدولى، الذى يزعمون أنه مرتبط بالإسلام بوصفه دينًا. لن أتوقف بالتفصيل عند إثبات عدم صحة هذا الربط، فالجهلاء أو سيئو القصد بالإسلام هم الذين يستطيعون تأكيد، كما لو أن أحد أقدم الأديان التى يؤمن بها جزء كبير من سكان الأرض، يولد الإرهاب. الحقيقة اليوم أن كثيرًا من المنظمات الإرهابية، وأولها "القاعدة"، فى الحقيقة يرتدون ملابس إسلامية، وتضع كمهمة لها إقامة دولة خلافة موحدة على أراضى كل الدول التى يقطنها سكان مسلمون. لكن ماذا سيحدث نتيجة هذا؟ الأهداف المباشرة لهجمات "القاعدة" الإرهابية، تصبح الدول الإسلامية نفسها، ذات الانظمة المعتدلة أو العلمانية، هذه حقيقة، فالعمليات الإرهابية التى قامت بها "القاعدة" وفروعها فى العربية السعودية ومصر وتركيا، من ناحية عددها تفوق الأعمال الإرهابية فى دول غرب أوروبا.

فى مثل هذه الظروف من المهم جدا التوضح للشرائح الأوسع من السكان، ليس فقط غير المسلمين، ولكن فى الدول الإسلامية أيضا، الفرق بين الإسلام الأصولى، والإسلام المتطرف. الإسلام الأصولى عبارة عن بناء المساجد وإقامة الشعائر، المساعدات المتبادلة بين المؤمنين. لكن ماذا يحدث عندما تتخذ الأصولية الإسلامية الشكل العدوانى المتطرف، ويصب هذا فى فرض النموذج الإسلامى فى إدارة الدولة والمجتمع. عرف التاريخ مراحل، عندما نمت الأصولية المسيحية، إلى مسيحية ـ كاثوليكية متطرفة، ولنتذكر حتى اليسوعيين أو الحملات الصليبية. نحن اليوم نصطدم بظهور التطرف الإسلامى.

يرى البعض سبب هذا فى تنامى الهوة بين الأغنياء "بمليارات الذهب" (الولايات المتحدة وكندا ودول أوروبا وأستراليا ونيورلاندا ـ المؤلف) وباقى دول العالم، التى يتكون جزء كبير منها من دول يقطنها مسلمون. لكن هذه ليست إجابة كاملة. القضية فى أن قادة المنظمات والمجموعات الإرهابية، ينحدرون من أسر ميسورة.

من وجهة نظرى صعود التطرف الإسلامى مرتبط ببعض الظروف، الأهم منها ليس المواجهة بين الحضارات المختلفة، ولكن أزمة الحوار فيما بينها.

عملية العولمة السارية فى العالم هذه الأيام، شملت كل المجتمع الدولى، بما فى ذلك الدول ذات السكان المسلمين، وهذه الدول ليست موجودة خارج حدود المكون التكنولوجى للحضارة العالمية، التى تؤثر حتى ولو ليس بالتساوى ولكنه تأثير ضخم فى كل جوانب تطور الإنسانية بشكل عام .

المشكلة فى أن الحضارة العالمية ليست فقط تقنية ـ تكنولوجية جديدة، وإنما هى تراكم روافد ثقافية ـ دينية ـ سياسية مختلفة محتفظة بالأصالة، وبانتظام تقترب من الجمع الاجتماعى ـ الثقافى، المتراكم من خلال الحوار. بالتحديد هذا الحوار، هو الذى يعيش اليوم حالة أزمة. الدليل على ذلك يعتبر بالدرجة الأولى تمسك الناتو بزعامة

الولايات المتحدة "بتصدير" النموذج الغربى للديموقراطية إلى الدول الأخرى، زد على ذلك أن سكانها مسلمون. بالإضافة إلى أن الحديث يدور عن "تصدير" باستخدام القوة.

كان العالم منذ فترة قصيرة مقسماً على أساس إيديولوجى. واستطاعت الإنسانية أن تهزم هذا. لكن تقسيم العالم على أساس دينى - حضارى، جديد، ويمكن أن أقول ليست أقل تهديدا. ويجب أن تجد الإنسانية فى نفسها القوة لكى تتخطاه.

الهوامش

(١) التطرف الديني "للإخوان المسلمين" في ذلك الوقت تحول إلى عمليات إرهابية ضد عملاء الإنجليز. وراح ضحية الإرهاب رئيس الوزراء النقراشي باشا. ولم يتم القبض على من اغتالوا حسن البنا والذى دبر عملية اغتيال رئيس الوزراء، لكن " الضباط الأحرار " كانوا يعتقدون أنه من الأهمية بمكان القبض على القاتل ومحاكمته عسكريا.

(٢) محمد نجيب جنرال ذو شعبية في مصر، تمت دعوته من قبل "الضباط الأحرار" لكي يرفعوا من مكانتهم، حيث إنهم لم يكونوا أفراداً معروفين.

(٣) انظر: Lacouture. J Nassr L., 1973 P.128

(٤) العبارة من كتاب: Renaissance du Mond Arabe. Gembeux , 1972 P.92,93.

(٥) عند القراءة بالعكس باللغة العربية، تكون الحروف الأولى من "حركة التحرير الفلسطينية" ("حركة من أجل التحرير").

(٦) بعد مرور ثماني سنوات فقط وفي عام ١٩٦٣ بالتحديد، عندما شكلت الحكومة ما عرف "لجنة السبعة " والتي برأت لافون ضد رغبة بن جوريون، الذي ترك بعدها منصب رئيس الحكومة نهائيا، وهذه كانت نهاية "قضية لافون".

(٧) في عام ١٩٥٧ قدمت الحكومة السوفييتية اقتراحًا، إحدى نقاط محتواه مشروع إعلان مقترح من الاتحاد السوفييتي لثلاث دول حول السياسة في دول الشرق الأوسط والأدنى. وفي لقاء مع سفير الاتحاد السوفييتي في القاهرة إ.دي. كيسليوف في ١٠ فبراير ١٩٥٧ رفض ناصر بحسم اقتراح الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بحظر توريد الأسلحة إلى المنطقة، وشرح ناصر موقفه قال: إن الحظر من جانب واحد من الممكن أن يثبت الأوضاع الحالية، التي تتفوق فيها إسرائيل على مصر في التسليح خاصة في الطيران وأنواع أخرى - "إسرائيل في كل

الأحوال كانت تستطيع الحصول على ما تحتاجه من أسلحة من كندا " ودول حلف بغداد يستطيعون تجاوز الحظر ـ تركيا ستحصل على السلاح ليس من الولايات المتحدة ولكن من إيطاليا العضو فى الناتو، ومن ثم تمد بها العراق. كيسليوف رفض كلام ناصر قائلاً: إذا قامت كندا بإمداد إسرائيل بالسلاح رغم النداء الموجه فى الإعلان للدول الأخرى، فإن لمصر الكثير من الأصدقاء سبيل المثال الصين وتشيكوسلوفاكيا اللذان فى هذه الحالة يستطيعان بنفس القدرة إمداد مصر بالسلاح. على أى حال الإعلان المقترح من الاتحاد السوفييتى لم يقبل من الدول الغربية .

(٨) فاسيليف روسيا فى الشرق الأوسط والأدنى: من البعثات إلى البراجماتية. 1993 M. صفحة 50.

(٩) خبر نشرته وكالة تاس بتاريخ ١٠ نوفمبر عام ١٩٥٦ .

(١٠) فى الستينيات تحول "البعث" إلى حزبين قوميين سورى وعراقى. البعثيون السوريون والعراقيون رغم تطابق شعاراتهم وأهدافهم ومهامهم، فإنهم تحولوا إلى منظمتين معاديتين لبعضهما بعضًا.

(١١) الملك فهد توفى عام ٢٠٠٥ وتولى الحكم عبد الله.

(12) Aburish S.K : The Last Arab .N.Y., 2004 P.195

(١٣) أ .أ. أوليانوفسكى تمت محاكمته مع عدد كبير من الحزبيين القدامى فى عام ١٩٣٦، وقضى ١٧ عاما فى السجن. وهو فى الغالب الحالة الوحيدة عندما ردوا له اعتباره، أصبح فى البداية نائب مدير معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، ثم نائب مدير القسم الدولى فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى. وكان الكثيرون يعتبرونه إنسانًا متحجر الفكر ـ قبل الرجوع للينين وبعدها .

(١٤) حزب "الوفد" اكتفى بالنداء "بحيادية قناة السويس" والمطالبة بإلغاء كل الديون المستحقة على الحكومة وإلغاء كل الحقوق فى الأراضى السابقة التى كان ينتفع بها الأجانب فى مصر.

(١٥) يعيش فى جنوب السودان قبائل تسمى نيلية، الجزء الأكبر منها مسيحى، على مدى عدة سنوات دار صراع من أجل استقلال الجنوب. عام ٢٠٠٥ وقعت اتفاقية أنهت ٢٠ عاما من الحرب فى جنوب السودان. الحدث المهم التالى كان إجراء استفتاء فى جنوب السودان فى نهاية يناير ٢٠١١، كانت نتيجته ٩٨.٨٪ من المشاركين فيه اختاروا انفصال الجنوب. رئيس السودان عمر حسن البشير اعترف رسميا بنتائج الاستفتاء الخاص بتقرير المصير. أعلن قيام الدولة

الجديدة فى ٩ يوليو ٢٠١١. وهكذا أصبح جنوب السودان الدولة رقم ١٩٣ فى قائمة الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة.

(16) The Near East : Hearing before Subcommittee on the Near Eastof committee on Foreign Affairs. House of representative, 91 st.Congress,2nd Session. Washington,1970 .P.69,81.

(١٧) دوبرينين .أ. مصدر ثقة: سفير فى واشنطن عاصر ٦ رؤساء أمريكيين (١٩٦٢ ـ ١٩٨٦). إم: المؤلف ١٩٩٧ صفحة ١٤٦.

(18) (١٨)the Near East Conflict: Hearing before Subcommittee on the Near East of Committee on foreign Affairs .House of Representative , 91 Congress , 2nd Session P.61.

(19) Ibid P.175 Conversation with Harold H. Saunders. U.S. Policy for middle East in 1980 s. Washington .1982.P.10.11.

(20) Conversation with Harold H. Saunders.U.S. Policy for middle East in 1980s. Washington 1982.P.10.11.

(٢١) حلقة نقاش، كانت تعتقد على مدى سنوات كثيرة بين سياسيين وشخصيات عامة ورجال أعمال سوفييت وأمريكيين. نتائج النقاش كان تقدم للقيادة السوفييتية من المشاركين السوفييت، ونفس الشيء يفعله الأمريكيون.

(22) Kissinger H. White House Years. Boston; Tomto, 1079.P.352-355,559

(23) Heikal M. Road to Ramadan. L., 1975 P. 120

(24) Newsweek.1971.13 December. P.16

(25) Kissinger H. White House Years. P. 1289

(26) Kissinger H. White House Years. P.1300

(٢٧) رجل مخابرات سوفييتى، فيما بعد أصبح جنرالاً، وممثل شعبة الاستخبارات الخارجية السوفييتية فى بريطانيا.

(28) Heikal M. Road to Ramadan. P25.

(29) General Shazly S. The Crossing of Suez : The October War (1973). L. 1980.P.30, 31.

(30) Kissinger H. Years of Upheavel .Boston ; Toronto , 1982,P.460

(٣١) دوبرينين أ: موثوق جدا: سفير سوفييتي في واشنطن، عاصر ستة رؤساء أمريكيين (١٩٦٢ ـ ١٩٨٦). صفحة ,٢٦٨,

(٣٢) Kissinger H. Years of Upheavel. P. 638,645.

(٣٣) دوبرينين أ. موثوق جدا: سفير سوفييتي في واشنطن، عاصر ستة رؤساء أمريكيين (١٩٦٢ ـ ١٩٨٦). صفحة ٢٧٤, .

(٣٤) Kissinger H. Years of Upheavel. P.747.

(35) Golan M. The Secret Conversation of Henry Kissinger .N.Y., 1979 P.152.

(36) Vance C. Hard Choices: Critical Years in America,s Foreign Policy.N.Y., 1983.P.160.

(37) Dayan M. Breakthrough : A Personal Account of the Egypt - Israel Peace Negotiation L .m, 1981.P.37.

(38) New York Times Magazin e .1979. 21 January. p.20,21

(39) Dayan M. Breakthrough : A Personal Account of the Egypt - Israel Peace Negotiation L .m, 1981.P .77,78.

(40) Vance C. Hard Choices: Critical Years in America,s Foreign Policy.N.Y., 1983.P.203.

(41) Brzezinski Z. Power and Principle: M .Vance C. Hard Choices: Critical Years in America,s Foreign Policy.N.Y., 1983.P.203

(42) Vance C. Hard Choices : Critical Years in America,s Foreign Policy. P.228

(43) Weizman T. The Battele for Peace. Toronto, 1981. P. 190

(٤٤) محمود عباس (أبومازن)، تولى مسئولية رئاسة السلطة الوطنية الفلسطينية بعد وفاة ياسر عرفات،

تربطنى به علاقات صداقة منذ عشرات السنين، فقد درس الدكتوراة فى معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، فى الوقت الذى كنت أشغل فيه منصب مدير المعهد .

(٤٥) تنتسب إلى الكنيسة التوحيدية الكاثوليكية الشرقية، ويعتبر المارونيون أنفسهم فينيقيين، سكنوا نتيجة الاضطهاد الذى وقع عليهم فى مناطق لبنان الجبلية، فى البداية تميزوا بوصفهم أتباع عقيدة موحدة فى المسيح. أصبحت الطائفية تسمى بالموارنة، من اسم دير مارون (موجود فى وادى أورونت، القريب من مدينة حماة)، الذى أصبح مركزهم الدينى (الدير يحمل اسم القديس السورة مارون، الذى عاش فى الفترة من نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الخامس). فى القرن السابع انفصلت الكنيسة المارونية عن البطريركية اليونانية، بعد أن حرم تدريس التوحيد فى القرن السابع فى الشرق الأوسط. جزء من الموارنة، وعلى الرغم من عدم قبول رجال الدين والسكان من البداية، فإن زعماء الطائفة وافقوا على الدخول فى التوحد مع روما، ورفضوا عقيدة توحد الكنائس. التوحد مع روما واللاتينيين، قام به الموارنة فى ظروف للحفاظ على الكنيسة المارونية، مؤسسة ونظامًا تقليديين.

(٤٦) الدروز هم عرب من أتباع طائفة تدين بالإسلام، فهم يجمعون بين وحدة الإله مع التأكيد على أن الله يكشف عن نفسه فى صور أخرى تتوالى. اسم "الدروز" يأتى من اسم رجل الدين الواعظ محمد بن إسماعيل الدرزى، الذى عاش فى بداية القرن الحادى عشر. عقيدة الدروز تأثرت ببعض عناصر من المسيحية والديانات الآسيوية، وهكذا يؤمن الدروز أن الروح يخرج من جسد الميت ليذهب إلى جسد آخر. ويحترم الدروز القرآن والإنجيل ولكن لديهم كتابهم المقدس الخاص بهم. تاريخيا كان الدروز مستقلين وشجعانا، مما جعلهم أعداء شرسين للصليبيين. وفى العموم الدروز أشخاص طيبين وكرماء ويتواصلون بسهولة مع أتباع الديانات الأخرى. يعيش الدروز (عددهم نصف مليون) أغلبهم فى جبل لبنان (جبل الدروز) وسوريا، وعدد قليل فى إسرائيل، حيث يسمح لهم بالخدمة فى الجيش والشرطة.

(٤٧) جرينيفسكى أو. أسرار الدبلوماسية السوفييتية.: فاجريوس 2000 . ص. 139، 140 .

(48) The Middele East Journal. Spring 1984.

(49) The New York Times. 1981 .23 August

(50) New York Times. 1982 31 October.

(٥١) القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن بعد حرب ١٩٦٧، وطلب من إسرائيل سحب قواتها من الأراضى التى احتلتها فى أثناء هذه الحرب، وأكد القرار على حق جميع الدول فى العيش فى سلام، وداخل حدود آمنة، وذكر القرار الفلسطينيين فقط بصفة لاجئين، مما جعل رد فعلهم على القرار سلبى.

(٥٢) أبومازن (محمود عباس). الطريق إلى أوسلو ١٩٦٦ ص.٣٤ .

(٥٣) أبوجهاد (خليل الوزير) قتل عام ١٩٨٨ فى تونس، نتيجة عملية قام بها الإسرائيليون، وعلى الرغم من عدم موافقة شيمون بيريز وقائد سلاح الطيران ورئيس إسرائيل السابق عزرا فايتسمان وإسحاق نافون، الذين كانوا يعتبرون أن قتل أبوجهاد ستعقد الوضع فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة، حيث كانت تدور الانتفاضة الأولى، فقد تغلب رأى أنصار الحل العنيف. قام ثلاثة عملاء للموساد وصلوا إلى تونس على رحلات مختلفة، تحت غطاء سياح لبنانيين، واستأجروا ميكروباصين. وقام لنش صواريخ بإنزال قوات خاصة عددها ٣٠ فرداً على الشاطئ التونسى. حمل الميكروباصان مجموعة المخربين إلى المنزل الذى يسكنه أبوجهاد فى ضاحية تونس بمنطقة سيدة بوسعيد، قتل هو واثنين من حراسه وحولوهم إلى مصفاة من كثرة الرصاص الذى أطلق عليهم. عملية القتل قامت امرأة بتصويرها، كانت الاتصالات مع من قاموا بالعملية تجرى من خلال طائرة "بوينج ـ ٧٠٧"، كانت تطير على بعد ٣٠ ميلاً من تونس فوق البحر المتوسط.

(٥٤) هذه الدورة تم نقلها مؤقتا إلى جنيف، بطلب من كل الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة عمليا، للاستماع لعرفات (كان ضد القرار الولايات المتحدة وإسرائيل فقط)، بعد رفض الولايات المتحدة إعطاء تأشيرة لعرفات للمشاركة فى أعمال الجمعية العامة فى نيويورك.

(٥٥) أبومازن (محمود عباس). الطريق إلى أوسلو. ص ٢٦٢ .

(٥٦) زوجة فى. إم. مولوتوف.

(٥٧) بعد ذلك سنورد وثائق ومستندات، تم الحصول عليها من أرشيف رئيس روسيا الاتحادية.

(٥٨) دار الحديث بهذا الشكل، عن فتح ممثلية إسرائيلية فى موسكو، تحت سقف سفارة هولندا.

(٥٩) كلينتون .بى. حياتى: ترجمة من الإنجليزى. إم.: ألبينا بيزنس بوكس 2005. ص .609 ,610 .

(٦٠) ناتان شارانسكى، كان محبوسا لأسباب سياسية، بعد إطلاق سراحه هاجر إلى إسرائيل، حيث أصبح شخصية سياسية معروفة فى إسرائيل.

(٦١) شقيق الرئيس عبد السلام عارف الذى لقى مصرعه فى حادث سقوط طائرة عام ١٩٦٦.

(٦٢) طقس الطواف ملزم لكل المسلمين الذين يؤدون فريضة الحج.

(٦٣) عندما تطرقت لهذا الأمر فى حديثى مع طارق عزيز قال: "اقترحنا على البرزانى أن يعطينا وعداً بأنه لن يقتل عبيد الله، حينها سنتركه يذهب إلى حيث يريد. لكن البرزانى رفض". حينها أكدت: "ألا يجب ألا نجعل من عودة موضوع صفقة، فهو ابنه، والبرزانى زعيم قبيلة".

(64) Bush G., Scowcroft B. A World Transformed. N.Y., 2005. P.489.

(65) Perlmutter A., Handel M. Bar-Joseph U. Two Minutes over Baghdad. L., 1982. P.24

(٦٦) انظر: . Atlantic Monthly .1979. April.P.79

(٦٧) عاد السفير للقاهرة بعد فترة.

(68) The Wall Street Journal. 2011.23 March

(69) wall street Journal. 2011. 8 September

(٧٠) السنوسيون، يختلفون عن السنة من الطرابلسيين، بأنهم إسلاميون أكثر تطرفا.

(٧١) بالتفصيل عن هذا فى الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

(٧٢) نجل القذافى الأكبر، الذى تنقل عنه هذه العبارات، وقع فى الأسر، ولم يعرف مصيره لحظة صدور الكتاب.

(٧٣) صحيفة كوميرسنت. ٢٩ أغسطس ٢٠١١.

(٧٤) مقابلة أذيعت على "قناة الجزيرة"، بتاريخ ٢٧ نوفمبر ٢٠١١.

(٧٥) فيما بعد سأورد أجزاء من التقرير الذى أرسلته للرئيس بوتين عن اللقاءات.

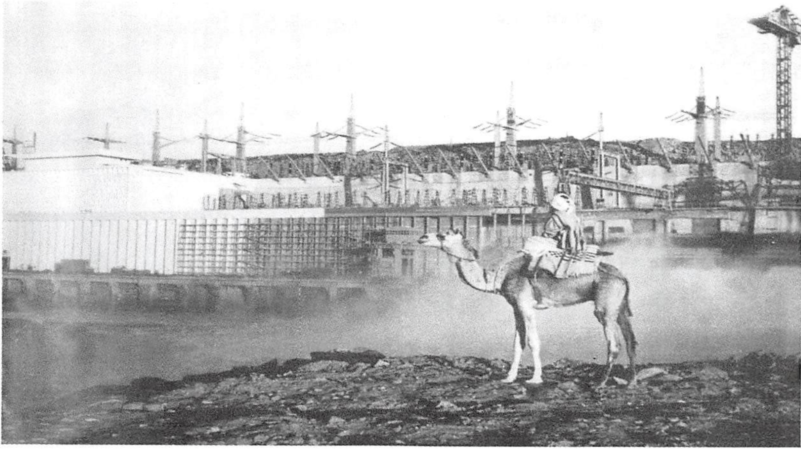
ملحق الصور



ن. س. خروشوف وجمال عبد الناصر، مصر تصبح حليفة.



عناق مع "الصاغ الأحمر" خالد محى الدين.



بناء سد أسوان العالى.



آ. إي. ملكويان وعبد الكريم قاسم، محاولة فاشلة لإيجاد "بديل" لناصر.



شعبا مصر وسوريا استقبلا بالفرح قيام الجمهورية العربية المتحدة.



مع الأمين العام لجامعة الدول العربية، عمروموسى. مع كل قدراته لم يستطع أن يجعل الجامعة العربية قاعدة للوحدة العربية.



مع اللواء عمر سليمان، مدير المخابرات العامة المصرية.

الجلسات معه وضحت أموراً كثيرة.



مع رئيس وزراء لبنان رشيد كرامي.



جلسات متواصلة مع رئيس سوريا حافظ الأسد.



مع رئيس إيران رافسنجاني.



وزير خارجية إيران ولاياتي، الكثير في لبنان كان يعتمد عليه.



على البغال فى المقر الشتوى للبرزانى.



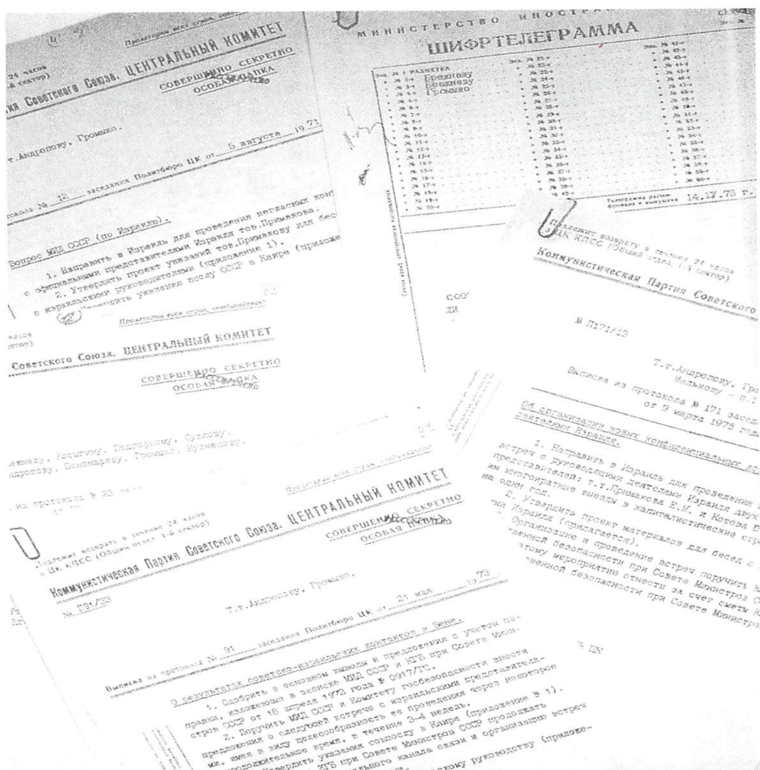
الملا مصطفى البرزانى ـ قائد حركة التحرر الوطنى الكردية.



بملابس البشمركة



نجل البرزانى مسعود (الثانى من اليسار) ـ قائد الحركة الكردية فى العراق،
حينها عام ١٩٦٦، فى عامه السابع عشر كان مديرا لمحطة الراديو.



صور من الأرشيف



خنجر هدية من القذافي.



رجل ليبيا القوى، رئيس المخابرات موسى كوسا.



قائد الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين نايف حواتمة لقاء فى بيروت.



أحد اللقاءات الودية مع ياسر عرفات.



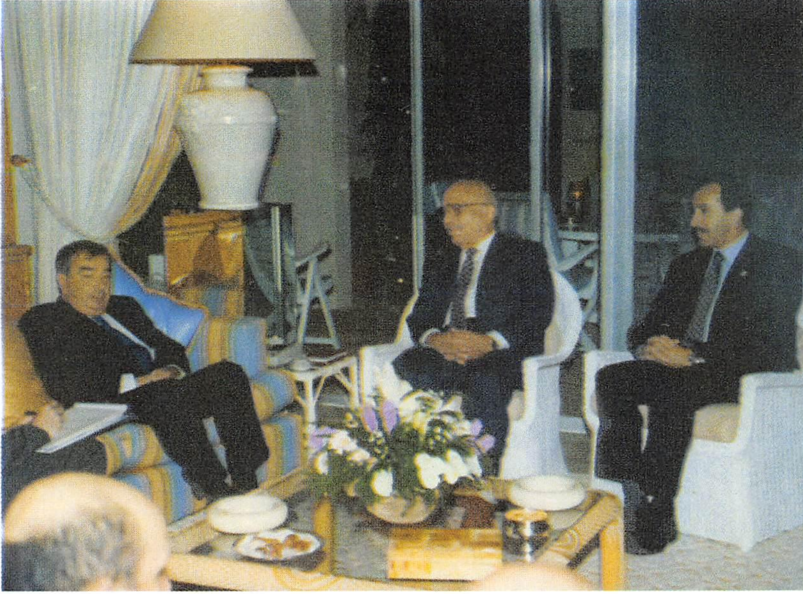
لقاء حافل لوزير خارجية روسيا في غزة.



سيمفاور هدية تذكارية لأبى عمار.



مع ملك الأردن حسين، كانت تربطني به صداقة قوية.



مع الملك حسين



الأردن عند الأمير حسن (الثالث من اليسار)



مع صدام حسين. كم هو غريب، كان يجيد الاستماع، لكنه يفعل ما يريد.



محاولة وقف عملية الولايات المتحدة فى الكويت اللقاء بعد منتصف الليل يوم ٢٢ فبراير ١٩٩١ في الكرملين مع طارق عزيز (الأول من اليسار) الذي وصل بدون تفويض.



مع وزير خارجية العربية السعودية الأمير سعود الفيصل ، جدة

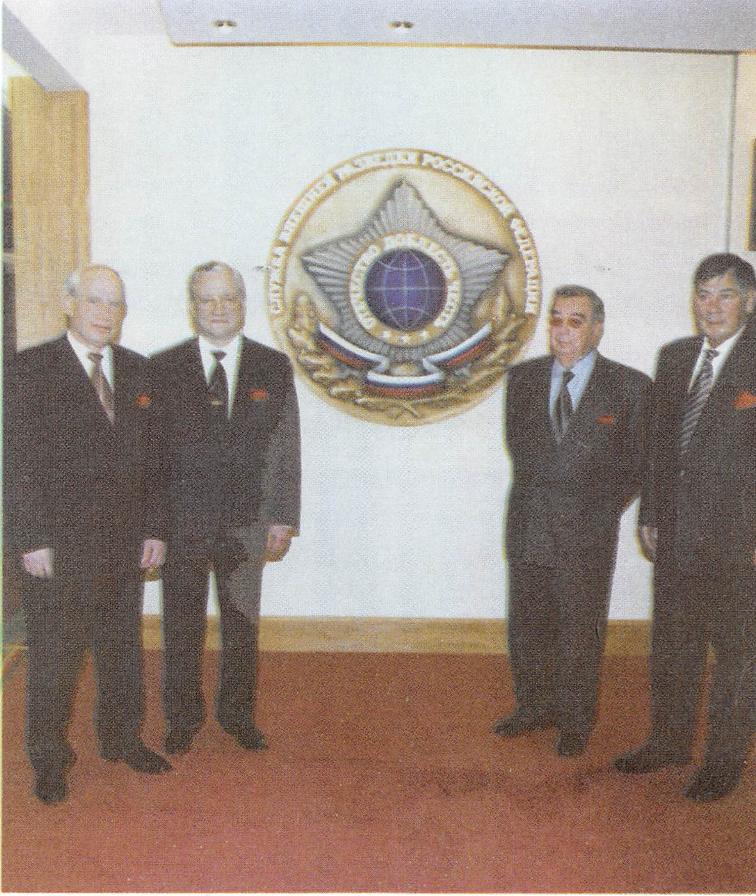
١٩٩١



مع السكرتير العام للأمم المتحدة كوفى أنان،الذى سعى بإخلاص
أن يهدئ الأوضاع فى الشرق الأوسط.



مصافحة مع رئيس الولايات المتحدة ب. كلينتون.



أربع رؤساء للاستخبارات الخارجـية الروسيـة من اليمين لليسار:
ل.ف. شيبراشين، ى.م. بريماكوف، ف.أ. تروبنيكوف، س.ن. ليبدوف.



المؤتمر الدولى لمكافحة الإرهاب فى الشرق الأوسط ، عقد فى شرم الشيخ،
رؤساء الوفود: حسنى مبارك، ب.ن. يلستين، ياسر عرفات.



محادثات مع رئيس وزراء إسرائيل آ. شارون.



تكليف من الرئيس بوتين: بالسفر إلى بغداد.



مع حفيدى يفيجينى ساندور، الذى أهديه هذا الكتاب.